دراسات تاريخية منهجية نقدية



تأليف

د. محمد موسى الشريف





نشر وتوزيع

الأمة

جدة

هاتف: ٢٦٨٧٧٠١٤ ١ ٩٦٦+ جوال ٥٥٤٢٤٢٧١٩ ٩٦٦+

دراسات تاريخية
منهجية نقدية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

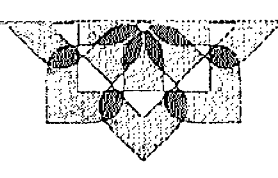
نشر وتوزيع



جـدة

هاتف: ٠١٤-٢٦٨٧٧٠١٤ ١ ٩٦٦+ جوال ٥٥٤٢٤٢٧١٩ ٩٦٦+

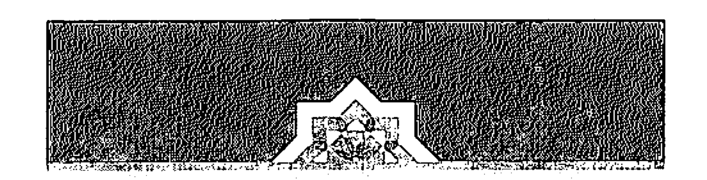
دراسات تاريخية منهجية نقدية



تأليف

د. محمد موسى الشريف





الرسالة الأولى

كيفية قراءة التاريخ وفهمه



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمن المعلوم أن التاريخ:

- هو تراث الأمة وكنزها.
- وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة.
- وهو ديوانها الذي تحتفظ فيه بذاكرتها.
- وهو مغترف العبر والعظات لأحداثها.
- وهو بيانٌ لسيرة عظمائها.
- وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضر أفضل ومستقبل أجلّ.
- وهو دراسة أحوال الماضين من الأمم والشعوب الأخرى.
- وهو وعاء الخبرة البشرية.

ولما كان التاريخ على هذا الوجه من الأهميَّة فقد تعلق به باحثون ودارسون، ودعاة وعاملون، ومشايخ ومفكرون، وأقبلوا يريدون الاستفادة مما فيه، واستخراجَ كنوزه ولآليه، وتقويمَ المجتمع اليوم بأحداث التاريخ: حاضره وماضيه، وحُقّ لهم ذلك؛ فللتاريخ بريق جذَّاب، وأَخْذٌ بالقلوب والألباب، وهو الكنز المدفون، والمعْدِن المصون.

- لكن قد عَسُر على طوائفَ من هؤلاء المهتمين الوقوفُ على قواعد علم التاريخ، وكيفية قراءته، وما هو الموثوق منه والمتروك، وما هو المقبول منه والمردود.



- ثم إن بعض هـؤلاء أراد التخصص في هذا العلـم، والوقوف على قواعده وخصائصـه، ومعرفة كتبه ورجاله، والقضايا المثارة حوله، وهذا ما أسـميه بعلم إعداد المؤرِّخ.
- هذا وقد خاطبني مَن لا أحصيهم كثرة، مواجهة ومراسلة ومهاتفة، يطلبون مني كتابة شيء في هذا الباب يكون مغنياً لهم وشافياً، ومحيطاً بما يريدون وكافياً، ومُوقفاً لهم علـى دقائق هـذا العلمِ الجليل ومرشـداً لهم في سَـبْر أغواره، فوعدتهم خيراً لكنني أعلم أني إن هجمت على ذلك فإني إنما أهجم على أمر عظيم، وإن صنعـت ذلك فإنما أتكلف الحمل الثقيـل، لكن لما كثر الإلحاح عليَّ واشتدت المسألة عزمت على عمل شـيء في هذا البابِ لكنه مُجَزّءٌ إلى أجزاء تخرج تباعاً إن شاء الله تعالى، وإنما حملني على هذا الصنيع أمور منها:

١ ـ إن إخراج شـيء موجز للناس ميسـورٌ عليهم قراءته ـ علـى وجه متتابع (سلاسل) ـ سيكون أفضل من المطولات التي ستبقى مرجعاً لا يكاد يقرأه إلا قلـة من النـاس، خاصة في هـذا العصر الـذي قَلّ فيـه الإقبال على المطوَّلات، وسهل على الناس قراءة الرسائل الصغار والأجزاء الموجزة.

وما أحسـن ما قاله الأسـتاذ الدكتور المحقق محمود الطناحي رحمه الله[1] لما صنف كتابه «الموجز في مراجع التراجم»:

«كنت أود أن أقف وقفة طويلة مع هذه المراجع؛ أكشف عن مناهجها، وأدل على طرائقها، لكنني تركت ذلك ـ مع قدرتي عليه، وامتلاكي لأسبابه بفضل الله وعونه وتوفيقـه ـ لأني أردت لهـذا الدليل أن يكون خفيـف المحمل، قريبَ

---

(١) ولد سـنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م في المنوفية بمصر. انتقل إلى القاهرة فـي الثامنة من عمره، والتحق بمعهد القاهرة الديني التابع للأزهر وارتقى في الطلب حتى حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة. وهو أحد المحققيـن الكبار. وله مصنفات وتحقيقـات ومقالات نافعة. وعمل فـي جامعة الدول العربية خبيراً في معهد المخطوطات العربية بها، ودرّس في عدة جامعات مصرية وسـعودية. توفي سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م رحمه الله. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات «الإنترنت».

المورد، سهل الاستيعاب؛ ولأن كثيراً من طلبة العلم لم تَعُدْ لديهم القدرة على قراءة المطولات والصبر عليها؛ للذي عرفتَه من كثرة الصوارف والحواجز في هذه الأيام، وهذا بلاء قد عَمّ وساد، وكاد يستوي فيه العالم والمتعلم على السواء، وقد قالوا وأحسنوا: ما لا يُدرك كله لا يترك كله»[1].

٢ ـ ثم إن في هذا التتابعِ فرصةً لهضم المادة التي أُخرجت، وتشوقاً وانتظاراً للمادة التالية، وهذا أدعى للعناية والاهتمام.

٣ ـ إن إخراج ما فُرِغ منه إلى الناس خير من انتظار إعداد المادة كلِّها؛ فإن العمر قصير، ولا يدري المرء متى يحل الموت بساحته، وقد مات علماء كبار وتركوا كتباً عظاماً ابتدأوها لكنهم لم يفرغوا منها، فكان ذلك النقص غصة في حلوقهم وحلوق مَن بعدهم وحسرة وأسفاً وألماً، والأولى أن يخرج للناس ما اكتمل، ولا يُنتظر الفراغ من كل العمل، والله أعلم.

ولهذا سأبدأ بالأمر الذي يهمُّ العامة، وهو كيف يُقرأ التاريخ ويُفهم، وسأُخرج بعد ذلك ـ إن شاء الله ـ تباعاً رسائل مكملة لهذه الرسالة لعامة القراء، وأخرى لمن أراد التخصص في هذا الفنِّ الجليل.

وسيكون كلامي في هذه السلسلة عن التاريخ الإسلامي فقط أما تواريخ الأمم الأخرى فله حديث آخر؛ إذ له قواعد ومناهج ومصادر ومراجع تقترب حيناً وتبتعد أخرى من تاريخ الأمة الإسلامية، والله أعلم.

وفي هذا الجزء وما سيتلوه من أجزاء سيكون هناك بعض القضايا التي ربما تُطرق في أكثر من جزء، والسبب هو تنوع موضوع الجزء، وأهمية أن يذكر فيه بعض القضايا ولو ذكرت في جزء آخر، لكنِّي سأحرص على عدم تكرار طريقة العرض إن كررت شيئاً من المضمون، إن شاء الله تعالى.

---

(١) «الموجز في مراجع التراجم»: ٢١.



ومن لم يجد بغيته في هذا الجزء الأول فلربَّما وجدها في الجزء الثاني أو الثالث أو ما بعده، وذلك شأن الكتب التي تنـزل تباعاً وتكون في موضوع كليٍّ واحد، أن يُكمل بعضها بعضاً، وأن يأخذ بعضها بحُجَز بعض حتى تكون سلسلة تامة الحلقات، إن شاء الله تعالى.

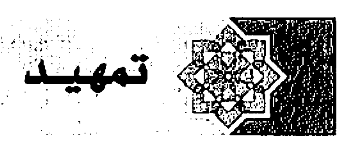
وسوف أشير في بعض المواضع من الكتب إلى أماكن طرق بعض الجوانب التي ربما تكون أنسب في كتاب دون كتاب[1].

واللهَ تعالى أسأل العون والإخلاص والتوفيق، وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه حامداً مصلياً
العبد الضعيف
محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail. com
www. altareekh. com
http://www. youtube. com/maltareekh
TWITTER. com/DRMOHAMMEDMH
www. facebook. com/mhmaltareekh

(١) هذا وليُعلم أني أعرضت عن تفاصيل كثيرة جدّاً مدونة في مقدمات كتب التاريخ الحديث والأبحاث التاريخية المنشورة؛ وذلك أني لم أجد أن الحاجة إليها ماسة لفهم التاريخ، وذلك نحو التفصيلات المدونة لكتابة التاريخ: كيف دُوِّن، وماهية المرويات الشفهية، والورق الذي دُون عليه التاريخ، والتطورات التي صاحبت كل ذلك، ومن هم رواة البصرة، ومن هم رواة الكوفة، ومن هم رواة المدينة النبوية المنورة، ومن هم رواة الشام، والرواة من العرب، والرواة من الموالي، والنـزعة الشعوبية الأولى في تدوين التاريخ، وتاريخ العرب في الجاهلية، وتاريخ الصراع بين القبائل، تركت كل ذلك وأمثاله مما أرى أنه يسبب الملل وربما الخلط واللُبس لقارئ هذه الرسالة، التي أريدها موجزة واضحة تأخذ بيد قارئها إلى فهم عام للتاريخ ليس فيه خلط ولا لبس، ولا مواضع غموض، أو موضوعات يمكن الاستغناء عنها وتجاوزها، ويمكن لمريد ذلك التفصيل الطويل أن يرجع إلى كتب حديثة كثيرة تكفَّلت ببيان ذلك، وعلى رأسها «التاريخ العربي والمؤرخون» للأستاذ شاكر مصطفى رحمه الله.



تمهيد

المطلب الأول: تعريف علم التاريخ وفضله

قد كثرت التعاريف لعلم التاريخ، وتكلم القدماء والمعاصرون من المؤرِّخين في تعريفه، فممَّن عرفه الأستاذ المؤرخ الجبرتي الحبشي ثم المصري[1]، فقال رحمه الله في تعريف علم التاريخ:

«اعلم أن التاريخ علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم»[2].

وقال في فضله:

«علم التاريخ علم شريف، فيه العظة والاعتبار، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار... وقد قال الشافعي رضي الله عنه[3]: من علم التاريخ زاد عقله»[4].

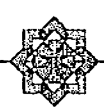
---

(١) هو عبدالرحمٰن بن حسن بن إبراهيم، وهو حبشي الأصل، ومصري المولد والنشأة والموطِن، جاء أسلافه مصر من جبرت: إحدى مقاطعات الحبشة، وكان أبوه الشيخ حسن عالماً من علماء الأزهر. ولد عبدالرحمٰن في القاهرة سنة ١١٦٧. وهو معدود خاتمة المؤرخين الكبار في مصر. ويظهر من كتاباته تمسكه واعتزازه بدولة الخلافة العثمانية وسخطه على المماليك الظلمة، وتبرمه الشديد من ظلم محمد علي وشدة بأسه وسطوته. توفي عبدالرحمٰن الجبرتي في القاهرة سنة ١٢٤١، ويزعم بعض المؤرخين أنه مات مقتولاً، والله أعلم. انظر «الأعلام» ٣/٣٠٤.

(٢) «عجائب الآثار»: ١/٦.

(٣) محمد بن إدريس الشافعي، الإمام المشهور. كان ذا ذكاء نادر وصاحب لغة مستقيمة لم يؤثر عنه لحن قط. توفي رحمه الله سنة ٢٠٤. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/٥ وما بعدها..

(٤) المصدر السابق: ١/٩.



وقال الناصري[١]:

«اعلم أن التاريخ من أجلّ العلوم قدراً، وأرفعها منزلة وذكراً، وأنفعها عائدة وذخراً، وكفاه شرفاً أن الله تعالى، شحن كتابه العزيز ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بما أفحم به أكابر أهل الكتاب، وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظنّ ولا حساب، ثم لم يكتف ـ تعالى ـ بذلك حتى امتنّ به على نبيه الكريم، وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم فقال جلّ وعلا:

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال جلّ وعلا:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وقال جلّ وعلا:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث أصحابه بأخبار الأمم الذين قبلهم، ويحكي من ذلك ما يشرح به صدورهم، ويقوّي إيمانهم ويؤكد فضلهم، وكتاب بدء الخلق من صحيح البخاري رحمه الله كفيل بهذا الشأن، وآتٍ من القدر المهم منه ما يبرد غلة العطشان»[٢]

---

(١) هو أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي، شهاب الدين، السلاوي: مؤرّخ بحّاث. ولد سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م في مدينة سلا بالمغرب من أسرة تنتمي إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. له عدة مصنفات، وكان موظفاً في مصلحة الجمارك ببلده، وتنقل في أعمال حكومية أخرى، ثم انقطع عن مخالطة الناس وانكبّ على إتمام مؤلّفاته إلى أن توفي في سلا سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م. انظر «الأعلام» ١/١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) «الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى»: ٥٩/١.



وقال أيضاً رحمه الله:

وبالجملة ففضيلة علم التاريخ شهيرة، وفائدته جليلة خطيرة، ومادحه محمود غير ملوم، والحديث بفضله حديث بمعلوم، ولله در ابن الخطيب[(١)] إذ يقول:

وبعُد فالتاريخ والأخبارُ ... فيه لنفس العاقل اعتبارُ
وفيه للمستبصر استبصار ... كيف أتى القوم وكيف صاروا
يُجري على الحاضر حكم الغائبِ ... فيثبت الحق بسهم صائبِ
وينظر الدنيا بعين النبل ... ويترك الجهل لأهل الجهل

وقال آخر:

ليس بإنسان ولا عاقلِ ... من لا يعي التاريخ في صدرهِ
ومن روى أخبار مَن قد مضى ... أضاف أعماراً إلى عمرهِ

ثم قال:

«فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه، بل له فوائد أُخَرُ جليلة لو قيل بعدم حصرها لما بَعُد»!![(٢)]

---

(١) محمد بن عبدالله بن سيد السلماني، قرطبي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبدالله، لسان الدين ابن الخطيب. ولد سنة ٧١٣ بـ«لوشة»، وقرأ القرآن والقراءات والعربية، وتأدب، وأخذ المنطق والحساب والطب وبرز فيه، وتولَّع بالشعر ونبغ فيه وله قصائد كثيرة جداً، ومصنفات كثيرة، وترسّل ففاق أقرانه، واستوزره السلطان مرتين، وكان يلقب بذي الوزارتين: السيف والقلم، سعى بعض حساده فيه فقتل في محنة جرت عليه سنة ٧٧٦ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/٨٨-٩٣، و«الأعلام»: ٦/٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ١/٦٠، ٦٢.

وقد استقيت تلك النصوص في فضل التاريخ وأهميته من كتاب «علم التراجم: أهميته وفضله» للدكتور إبراهيم الريس.



قال ابن خلدون في علم التاريخ:

«فنٌّ عزيز المذهب؛ جَمُّ الفوائد، شريف الغاية.

يُوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتمَّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا».

وقال الإمام السخاويّ[1]:

«إن التاريخ جَمّ الفوائد، كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جُبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرّب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه فيغزر عقله، ويصير مجرِّباً غير غِرّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]:

«فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنّة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم».

---

(١) الشيخ الإمام العلامة الرُّحَلَة الحافظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي، ولد سنة ٨٣١هـ، وأخذ عن كثير من المشايخ، واختص بشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وكان يحبه ويثني عليه، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ٩٠٢هـ بالمدينة المنورة بعد مجاورته زمناً فيها رحمه الله. انظر: «النور السافر»: ١٦ - ٢٠.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، يُدعى لجدته تيميّة. أحد أئمة المسلمين المجتهدين. توفي رحمه الله سنة ٧٢٨ بدمشق مسجوناً بعد أن خلّف علماً كثيراً ومصنفات عديدة. انظر «الدرر الكامنة»: ١/١٥٤ - ١٧٠.



تعريف التاريخ عند المعاصرين:

تنوَّعت تعاريف المعاصرين للتاريخ، وتشعبت أقوالهم فيه تشعباً يطول على مريدي فهم التاريخ ومعرفة طرائق قراءته قراءة واعية مفيدة، لكني سأورد بعض أقوالهم المهمة التي تفيد القارئ للتاريخ وتعينه على فهمه، فمن ذلك:

- قال الدكتور قاسم عبده[1]: إن هناك تفريقاً شائعاً بين كلمة التاريخ كتعبير دالٍّ على مسيرة الإنسان الحضارية على سطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ كتعبير عن العملية الفكرية الإنشائية التي تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير الإنسان على كوكبه[2].
- وقال الأستاذ مولاي مصطفى البرجاوي في مقالة له باسم «مصطلح التاريخ»:

من خلال تتبُّع التَّعاريف اللغويَّة لكلِمة «تاريخ»، نجد أنَّ تعريف الوقت هو المعنى الغالب لدى علماء اللغة، حيث ذكروا أنَّ التأريخ: «تعريف الوقت، أرَّخ الكتاب: وقَّته»...

أمَّا عن أصل الكلمة، فقد اختلف فيه؛ فقد قيل: إنَّه عربي، وقيل: إنَّه غير ذلك...

وعموماً، فإن التاريخ لغةً يعني تحديد الزمن.

ثم بيَّن الأستاذ البرجاوي المعنى الاصطلاحي فقال:

قبل التطرُّق إلى اصطِلاح العلماء للفظة تاريخ، يجب التنبيه إلى نقطة مهمة جدّاً، وهي أنَّ لفظة تاريخ قد استُعمِلت في الاصطلاح على نحوين اثنين، فتارة

---

(١) قاسم عبده قاسم. مؤرِّخ مصري. ولد سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م. حصل على الماجستير والدكتوراه في علم التاريخ، وله مؤلفات كثيرة في علم التاريخ وغيره. ولي عدة مناصب، وكان عضواً في عدة هيئات مصرية وعالمية. انظر ترجمته في «ويكيبيديا».

(٢) «ويكيبيديا»: تاريخ.



تستعمل ويراد بها مضمون ومحتوى المادة التَّاريخية، وتارة أُخرى تستعمل ويراد بها طريقة التَّعامل مع هذه المادة، وهذه الازدواجية في الاستعمال أدَّت إلى خلط في فهْم معنى اللفظ.

كما أنَّ التاريخ ـ اصطلاحاً ـ قد تنوَّعت تعاريفه وتعدَّدت، بتنوُّع ثقافات ومشارب، وأهواء وانتماءات، ومذاهب الذين ولجوا موضوعه.

أصل المصطلح:

يصرُّ الدكتور عبدالله العروي[1] على عروبة مصطلح التاريخ، فيقول: «إنَّ تأليف التاريخ الإسلامي من إبداع العرب، لقد فشلت المحاولات للعثور على مؤثِّرات خارجيَّة ـ يونانيَّة أو فارسيَّة ـ على غرار ما كشف عنه المنقِّبون من مؤثِّرات أجنبيَّة في الفلسفة وعلم الكلام، ليس التَّاريخ الإسلامي نقلاً أو اقتباساً أو استعارة من الغير، إنَّ كلمة «تاريخ» كلمة عربيَّة، والكلمة الأجنبيَّة «أسطوريا» التي كان من الممكن استعارتها، استعمِلَت فعلاً لكن في معنى آخَر؛ للتَّعبير عن القصص الخياليَّة والميثولوجيَّة[2]، التي لا تَخضع لقوانين المُراقبة والفحْص والتَّدقيق، كحوادث التاريخ القريبة أو البعيدة».

---

(١) ولد الدكتور عبدالله العروي بمدينة أزمور بالمغرب سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٣م. تلقى تعليمه في العاصمة المغربية الرباط. تابع تعليمه العالي في فرنسا في جامعة السوربون وفي معهد الدراسات السياسية بالعاصمة الفرنسية باريس. حصل سنة ١٩٥٦ على شهادة العلوم السياسية، وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ سنة ١٩٥٨، ثم على شهادة التبريز في الإسلاميات عام ١٩٦٣. وفي سنة ١٩٧٦ قدم أطروحة بعنوان «الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية: ١٨٣٠ ـ ١٩١٢» وذلك لنيل دكتوراه الدولة من السوربون. وله توجه بعيد عن شريعة الإسلام وما يدعو إليه هذا الدين العظيم. انظر ترجمته في الويكيبيديا وجوجل.

(٢) أي: الخرافية.

لهذا فإنَّ كلمة «التاريخ» تعني في المعجم: الغاية والوقت الذي ينتهي إليه كلُّ شيء، وبذلك يتَّصل المعنى بحركة الزَّمن المرصودة، وليس بالحكاية الأسطوريَّة التي تشير إليْها كلمة History باللغات الأوروبيَّة.

تعريف التَّاريخ عند الإغْريق والرومان:

- الأصل لكلمة (Istoria) اليونانيَّة: عندما نشطت الحركة الفكرية والسياسيَّة في الدويلات اليونانيَّة في القرنين ٦ و٥ ق. م كانت هذه الكلِمة تعني: (البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة)، كمعرِفة البلْدان، العادات، المؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، لكنَّ الكلِمة ما لبثتْ أنِ اقتَصر مدلولُها على (معرفة الأحداث التي رافقتْ نُمُوَّ تلك الظواهر).
- أمَّا الرومان: فقد أخذوا الكلمة بمعناها ومبناها، صارت عندهم (Historia)، التي اشتقَّت منها اللغات الأوربيَّة الحديثة كلمة (History) الإنجليزيَّة، و(Histoire) الفرنسيَّة.

وتطلق لفظة «تاريخ» تارة على الماضي البشري ذاته، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعنيّ بهذا الموضوع.

ثم بيَّن الأستاذ البرجاوي أن هنالك لَبْساً في اللغات الأجنبية في المصطلحات الدالَّة على هذا العلم فقال:

(Histoire) الفرنسية، و(history) الإنجليزيَّة، و(Geschichte) الألمانيَّة، تستعمل الكلِمة للمعنييْن على السَّواء؛ إذْ يُراد بكلٍّ من تلك الكلمات الإفرنجيَّة حوادث الماضي، وأحياناً أخبار هذه الحوادث، أو العلم الذي يحقِّقُها.

وقد حاول بعض الباحثين في الغرْب التميز بينها، فأطلق بعض الفرنسيين مثلاً كلمة Histoire ـ بـ«H» كبرى ـ على الماضي، و histoire ـ بـ«h» صغرى ـ على العلم الذي يدرسه.



واحتفظ الألمان (بعضهـــم) بـ Geschichte للمعنى الأول، و Histoire للمعنى الثاني، ولكن العادة الجارية ظلّت غالبة، وبقي اللّبس قائماً.

ولعلّ ذلك ناشئ عن شعور أصيل في الإنسان بالارتِباط الدقيق بين معرفة الماضي والماضي ذاته؛ أي: بين المعرفة التاريخيّة والكتابة التاريخيّة[١].

وأرى، والله أعلـــم ـ أن هذه التعاريـــف للتاريخ كافية إن شـــاء الله في بيان المراد من علم التاريخ بياناً يفيد القارئ غير المتخصص، والله أعلم.

---

(١) انظر شبكة موقع «الألوكة» على شبكة الإنترنت.



المطلب الثاني: مبدأ التاريخ الهجري

لمبدأ التاريخ الهجري قصة جليلة، فقد كتب أبو موسى الأشعري إلى الفاروق عمر ﷺ: إنه يأتينا من قِبَلك كتب ليس لها تأريخ فأرِّخ.

فاستشار عمر في ذلك، فقال بعضهم: أَرِّخ لبعث رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: لوفاته.

فقال عمر: لا، بل نُؤرِّخ لمهاجره، فإن المهاجَرة فرق بين الحق والباطل، فأرِّخ به[١].

وعن أبي الزناد[٢] قال:

«استشار عمر في التأريخ فأجمعوا على الهجرة»[٣].

وفي رواية أن رجلاً من المسلمين قدم من أرض اليمن، فقال لعمر: رأيت في اليمن شيئاً يسمُّونه التأريخ، يكتبون من عام كذا وشهر كذا.

فقال عمر: إن هذا لحسن فأرِّخوا.

فلما أجمع على أن يؤرخ شاور، فقال قوم: بمولد النبي ﷺ، وقال قوم: بالمبعث، وقال قوم: حين خرج مهاجراً من مكة إلى المدينة، وقال قائل: لوفاته حين توفي.

فقال: أرِّخوا خروجه من مكة إلى المدينة.

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن الشعبي كما في «الشماريخ في علم التاريخ» للسيوطي: ١٤.

(٢) هو أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن ذكوان المدني. ولد سنة ٦٥ وحدَّث عن جماعة من الصحابة، وكان من أعلم الناس بالفقه والعربية والفرائض.
توفي سنة ١٣٠ ﷺ، وكان من الثقات الكبار. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/٤٤٥ - ٤٥١.

(٣) «الشماريخ»: ١٤.

ثم قال: بأي شهر نبدأ فنصيِّره أول السَّنة؟!

فقالوا: رجب لأن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه، وقال آخرون: شهر رمضان، وقال بعضهم: ذو الحجــة، فيه الحج، وقال آخرون: الشــهر الذي خرج فيه من مكة، وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أَرِّخوا من المحرم أول الســنة، وهو شــهر حــرام، وهو أول الشهور في العِدّة[١]، وهو منصرف الناس عن الحج، فيصير أول السنة المحرم، وكان ذلك سنة سبع عشرة[٢].

- وأخرج الإمام البخاري في «الأدب المفرد» بسنده عن ميمون بن مهران[٣] قال:

رُفع إلى عمر صَكٌ محله شعبان، فقال: أيُّ شعبان؟ الذي نحن فيه، أو الذي مضى، أو الذي هو آت؟

ثم قال لأصحاب النبي ﷺ:

«ضعوا للناس شيئاً يعرفونه من التاريخ.

فقال بعضهم: اكتبوا على تأريخ الروم.

فقال: إن الروم يطول تأريخهم، يكتبون من ذي القرنين.

فقال: اكتبوا على تأريخ فارس.

فقال: إن فارس كلما قام ملك طرح مَن كان قبله.

---

(١) أي: في عدّ الشهور الحرام.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو أبو أيوب الجزري الرقي. إمام تابعي حجة. روى عن جماعة من الصحابة ﷺ. ولد سنة ٤٠، وتوفي سنة ١١٧ ﷺ. وكان من ثقات السلف وكبارهم. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥/٧١-٧٨.

فاجتمع رأيهم أن الهجرة كانت عشر سنين، فكتبوا التأريخ من هجرة النبي ﷺ»[١].

ومن هنا لا بدَّ أن يُعلم أن للتاريخ الهجري مكانة جليلة فبه تعرف الشهور الهجرية خاصة رمضان والحج، وبه أُرخ لأحداث الإسلام العظام، ولم يكن أحد من المسلمين يظن أنه سيأتي يوم يُهمل فيه التأريخ الهجري أبداً، فلما نزل المحتلون ببلادنا شجعوا الناس على التأريخ بالتاريخ النصراني، وشيئاً فشيئاً كُتب ذلك التاريخ مع التاريخ الهجري، ثم استغنى المسلمون عن التاريخ الهجري واكتفوا بالميلادي!! وهذه واقعة غريبة وحادثة عجيبة، فهل يُترك التاريخ الهجري الذي أجمع عليه الصحابة والسلف والخلف ويُؤخذ بغيره، والمسلمون اليوم مجتمعة كلمتهم على ترك التاريخ الهجري إلا في المملكة العربية السعودية، وأصبح أكثر المسلمين لا يعرف في أيِّ شهر قمري هو، وإذا قيل له: جمادى الأولى، أو رجب، أو ذو القعدة فكأنما هي ألفاظ غريبة يسمعها لأول مرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فينبغي أن نرجع اليوم إلى الأخذ بالتاريخ الهجري فهو عنوان من عناوين عزتنا وكرامتنا، والله المستعان.

---

(١) «الشماريخ»: ١٤.



المطلب الثالث: الحاجة لعلم التاريخ

هناك حاجة ماسَّــة لعلم التاريخ؛ إذ لا يكاد يســتغني عنه أحد، والحاجات متنوعــة بين حاجات دينية وسياســية واقتصاديــة واجتماعيــة وعلمية معرفية، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أ ـ الحاجة الدينية:

ويتمثل هــذا في معرفة تاريــخ الأقوام الذيــن جاؤوا قبل بعثــة النبي ﷺ وموقفهــم من الإســلام[1]، ثم معرفة تاريخ الإســلام الخــاص ببعثة النبي ﷺ والمعبَّر عنه بالسيرة النبوية المشرفة المطهرة، وما فيها من تفصيلات ودقائق لها أثرها الكبير في عدة علوم دينية وُضعت بعد ذلك.

وكذلك يبيِّن التاريخ أســباب ظهور الفرق والمذاهب التي كان لها أثر كبير جدّاً على مسيرة الأمة منذ بداياتها الأولى.

وكذلــك يُظهر التاريخ بجــلاء المعركة بين الحق والباطــل، وكيف انتصر الحق وعلا وعزّ، والمســلمون اليوم في معركتهم مع الباطل بحاجة ماسَّــة إلى معرفة تاريخ ذلك الصراع الطويل.

ب ـ الحاجة الدعوية:

إن في التاريخ الطويل الممتد في أعماق الزمن أخباراً كثيرة وتفصيلات جليلةً لعلماءَ وقادة وأبطال وزهاد وعُبّاد وشــجعان ورؤساء، وهذه الأخبار وتلك التفصيلات يحتاجها الدعاة في زماننا هذا من أجل تربية الناشئة عليها

---

(١) سيأتي تفصيل قريب ـ إن شــاء الله تعالى ـ لمسألة امتداد الإســلام في عمق التاريخ لآدم عليه الصلاة والسلام.



وأخذهم بها، واستقاء العبر والعظات منها، وما أحسن الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بالتعريف ببعض الأحداث التاريخية المهمة لعظيم وقعها وكبير أثرها[1].

ج ـ الحاجة السياسية:

وتتمثل في الآتي:

١ ـ معرفة مسيرة الأمة الإسلامية وعلاقاتها بغيرها من الإمبراطوريات والأمم، وهذا هو الذي يندرج تحت علم السياسة الشرعية.

٢ ـ الأحداث التي صاحبت قضية الإمامة الكبرى وموقف أهل السُّنَّة وأهل البدع منها، وقد ترك كل ذلك أثراً عظيماً على مسيرة التاريخ الإسلامي.

٣ ـ بيان العصبيات القَبَلية التي كان لها أثر مدمِّر على مسيرة الأمة السياسية في بعض مُدَدها، وأدى ذلك إلى هدم دول وإقامة أخرى.

٤ ـ معرفة مسيرة الحكام الذين حكموا البلاد الإسلامية في رقعتها الممتدة إلى تخوم الصين، ومدى التزام هؤلاء الحكام بالإسلام على مدار التاريخ الإسلامي في الماضي والوسيط والحديث، وهذا مفيد للمسلمين اليوم الساعين إلى إعادة مجد الإسلام وعزه وسيادته من جديد؛ إذ إنهم في تعرفهم على تجارب أولئك الحكام سيستفيدون من مزاياها، ويتجنبون نقائصها، وفي الوقت نفسه سينفون الشبهات الخاطئة والأخبار الكاذبة حول مسيرة أولئك الحكام.

---

(١) سيأتي مزيد لهذا الأثر في الكتاب الثالث من هذه السلسلة: «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني».

٥ ـ هناك محاولات حثيثة اليوم في بعض الجهات العلمية والمعرفية لإحياء النظام السياسي الإسلامي واستبداله بالنظم الديمقراطية الحديثة، وفي التاريخ على امتداده الطويل معين ثَرٌّ وتجارب غزيرة مفيدة تعين على وضع أسس هذا النظام السياسي الإسلامي الذي انتظره المسلمون طويلاً ليكون بديلاً لهذه النظم السياسية الغربية الحديثة الحاكمة في عالمنا اليوم.

د ـ الحاجة المعرفية:

إن علم التاريخ يشبع حاجتنا لمعرفة أحداث مهمة ومؤثرة، قال الأستاذ شاكر مصطفى(١) رحمه الله:

«مهما بالغنا في تقصّي العوامل النفعية أو الدينية وراء ظهور التاريخ فإنا لا نستطيع أن نُغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضاً بين تلك العوامل، الرغبة في المعرفة لمجرد المعرفة والاطّلاع، وهي بدورها حاجة فكرية إنسانية لا تغيب عن أي عمل علمي، ونستطيع أن نرى في أعمال الكثير من المؤرخين والإخباريين الأوائل ما يكشف وجودها الواضح، كانت بالنسبة إلى الكثيرين منهم كالسوط يلاحقهم ويدفعهم إلى السؤال المتكرر للناس وإلى زيارة أماكن الأحداث، والسفر في تقصي الأخبار... يقول أبو شامة(٢):

---

(١) مؤرّخ، أديب، ولد بدمشق سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م، وتخرج في مدرستها التجهيزية وفي دار المعلمين. شارك في الحركة الوطنية وساعد الثوار ضد الفرنسيين وتعرض لأذاهم، نال إجازة التاريخ من مصر والدكتوراه من سويسرا. وأجاد الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية، وعيّن في وظائف في السلك التعليمي والسياسي، وصار سفيراً في كولومبيا والبرازيل، ثم صار وزيراً للإعلام، ثم انتقل إلى الكويت وعُيّن في وظائف عليا فيها، له أكثر من خمسين كتاباً. توفي بدمشق سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. انظر «إتمام الأعلام»: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي =

«ولم يزل الصحابة والتابعون من بعدهم يتفاوضون في حديث مَن مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويتطلبون الآثار والأخبار، وذلك بَيِّن من أفعالهم لمن اطّلع على أحوالهم»[1].

وهناك حاجات عديدة أخرى لعلم التاريخ ستتضح - إن شاء الله تعالى - في المباحث القادمة.

= الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المقرئ النحوي. الملقَّب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر. له مصنفات عديدة مفيدة، وكان متواضعاً، محبًّا للعزلة والانفراد. قتلته الباطنية سنة ٦٦٥ رحمه الله. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/١١٣ - ١١٦.

(١) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٦٢، وقد نقل من كتاب أبي شامة «الروضتين»: ١/٢.



المطلب الرابع: فوائد قراءة التاريخ

إن لقراءة التاريخ فوائد عديدة، أوجزها في الآتي:

أ ـ **الاعتبار والاتعاظ بحوادث التاريخ**، والاستفادة منها في تصحيح المسيرة والتخطيط للمستقبل، فكم من حادثة مرَّت في التاريخ يحتاج المسلمون اليوم إلى فهمها وإدراك تعلقها بأحداث العصر؛ فالحروب الصليبية تتكرر اليوم عسكرياً في أفغانستان والعراق وباكستان ومالي، وتتكرر إعلاميّاً ومادياً وثقافياً واجتماعياً.

وتخاذل الحكام في الماضي يتكرر اليوم.

وانتفاضة الشعوب في وجه الطغيان في الماضي تعيد نفسها اليوم، وهكذا.

قال الأستاذ المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله:

«من الواجب الاعتراف بأن من وظائف التاريخ العبرة؛ حتى لا يكرر الإنسان ـ الشعب ـ الأمة نفس الخطأ، وقد اتهم بعض المستشرقين العرب بأنهم أمة لا تعتبر بالتاريخ، فتجارب التاريخ وأحداثه يهملها العرب ولا يدرسونها، ولا تستفيد منها الأمة، وهكذا فالأحداث التاريخية عند الأمة العربية[1] دائماً في طور الإنشاء. ..»[2].

ب ـ **الاستفادة من حياة العظماء والقدوات**، ومحاولة التأسي بها وعرضها على الناشئة بمختلف وسائل العرض[3]، حتى يُقطع الطريق على من يريد نَصْب القدوات السيئة الفاسدة.

---

(١) هكذا جاءت، والأولى: الشعوب العربية فليس هناك إلا الأمة الإسلامية.

(٢) «حوارات»: ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) وسيأتي تفصيل لهذا الأمر في رسالة قادمة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني».



ج ـ فهم السنن الربَّانية:

إن لله ـ تعالى ـ في كونه سنناً لا بدّ من فهمها وإدراكها، وذلك حتى يُحسن الناس الاستفادة منها والتعامل معها، «كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من المنهج الذي سار عليه أنبياؤه ورسله»[1]، وهذه السنن مثل: الابتلاء، استحقاق المؤمنين لنصر الله تعالى، زوال الأمم بالترف والفساد، سوء عاقبة المكذِّبين والظالمين[2].

د ـ إخراج كنوز التاريخ والاستفادة منها:

وهذه الاستفادة متنوعة ومتعددة، فمن ذلك:

١ ـ الاستفادة الإعلامية:

إن في التاريخ كنوزاً ثمينة يمكن إخراجها والاستفادة منها إعلاميّاً، فالقنوات الفضائية تتسابق على عرض المسلسلات التاريخية، وفي مادة كثير منها ضعف وتشويه، فإذا أُحسن استخراج كنوز التاريخ وأُحسن عرضها إعلامياً فسوف يكون لها أعظم الآثار في تربية المجتمع وتقويمه، وتعريفه بعظمة تاريخه.

٢ ـ الاستفادة في تحريك الشعوب لتحقيق الأهداف العليا:

ومثال هذا تحريك الشعوب للجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ فيؤخذ من أحداث التاريخ وقائع انتصر فيها المسلمون وتُذكر للناس على وجه يبثُّ فيهم الحماس والرغبة في الشهادة، وهذه الوقائع كثيرة مبثوثة في ثنايا التاريخ البعيد والمتوسط والقريب والمعاصر.

---

(١) «تفسير التاريخ» لعماد الدين خليل: ١٠٩ نقلته من «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك في «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٧ وما بعده.

وكذلك يستفاد من هذه الوقائع في الكليات العسكرية في تعليم الضباط.

ومثال آخر هو ذكر القدوات الكبرى في التاريخ التي نجح أصحابها في الوصول إلى قمم عليا في جوانب السلوك البشري المتعددة، فعرض تاريخ مثل هؤلاء القدوات له تأثير بالغ القوة في تحريك النفوس للاقتداء بالنماذج المعروضة والوصول إلى شيء مما وصلت إليه[١].

هـ ـ زيادة الوعي:

إن من أكبر المشكلات التي تهدد المجتمعات الإسلامية هي قلة الوعي بما يدور حولها في العالم، وقلة الوعي بأحداث التاريخ البعيد والمتوسط والقريب والمعاصر، فأكثر الناس عن هذا بمعزل، وهذا الجهل وقلة الوعي يورثهم مشكلات كثيرة، وليس أفضل في زيادة الوعي من عرض التاريخ عرضاً حسناً سواء عن طريق وسائل الإعلام أو تدريسه على وجه حسن في المدارس والجامعات:

«ينفرد موضوع التاريخ بأهمية خاصة سواء في تدريسه بصورة علمية عميقة في الجامعة، أو في تقديمه على شكل دراسات مختارة مختصرة في المدارس، أو في عرضه على فئات المجتمع عبر وسائل الإعلام المتنوعة؛ وذلك لأن التاريخ لا يعرّفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسب، بل إنه عملية توجيه وتوعية متكاملة للجيل الجديد في المؤسسات التعليمية وخارجها»[٢].

---

(١) سيأتي تفصيل لهذا وتوسيع في الرسالة الثالثة من هذه السلسلة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» إن شاء الله تعالى.

(٢) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٤٥.

و ـ قضاء الوقت في قراءة النافع المفيد:

إن المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى بدائل عن الغثاء السائد في وسائل الإعلام، فلو وُجِّه الكبار والناشئة إلى قراءة الموضوعات المهمة المشوقة في التاريخ فلربما كان ذلك بديلاً حسناً، وقضاءً للوقت في الاطلاع على النافع المفيد، وفي الوقت نفسه إن في قراءة التاريخ متعة، وسُلُوّاً للنفس من أحزانها، ولذة تلتذّ بها.

وهناك فائدة أخرى؛ ألا وهي تعويد الناس على القراءة، وهي مهمة شاقة قد يساعد على تحقيقها تحبيب المادة التاريخية للأجيال.

المطلب الخامس: القراءة بنيّة الاستفادة والتغيير

ينبغي التذكير بأن القراءة لا بدَّ أن تكون بنية الاستفادة والتغيير؛ فهذا من أهم ما يُقرأ التاريخ من أجله؛ إذِ الأمة الإسلامية اليوم تتطلع إلى الخروج من النفق المظلم الذي وضعت نفسها فيه منذ قرابة ٣ قرون، ولا مخرج لها بعد التوكل على الله ـ سبحانه ـ سوى المراجعة الدقيقة لتاريخها واستخراج ما فيه من عبر وعظاتٍ صالحة لدفع عملية التغيير قُدُماً إلى الأمام.

وتاريخ الإسلام مليء بالفوائد الجليلة من عبر وعظات وردت في ثنايا أحداثه وفي سير الشخصيات العظيمة، فإذا قرأ المرء في كتب التاريخ فلتكن نيته الاستفادة من هذه الكنوز وتقويم حياته بها؛ فمن قرأ تاريخ بني أمية وما فيه من مزايا ونقائص، وما فيه من كرّ وفر، ومد وجزر قراءة واعية مركزة فسيستخرج عبراً وعظات تفيده في تقويم مسيرته وربما مسيرة كثير ممن حوله، وكذلك الحال في سائر الدول من عباسية ومملوكية وعثمانية إلخ...

ومن قرأ جهاد الدولة الزنكية والأيوبية للصليبيين فكأنما يطالع أخبار زماننا هذا ومغالبتنا لإخوان القردة في فلسطين، والصليبيين في العراق وغيرها.

ومن قرأ تفاصيل أعمال بني عثمان في البلقان وسائر دول أوروبا الشرقية فسيجد فيها من الأحداث المشابهة لأحداث زماننا قدراً وافراً، وسيعلم صدق المقولة: التاريخ يعيد نفسه.

وهكذا لو قرأ قارئ سير الرجال العظماء الذين امتلأت بأعمالهم بطون الكتب فسيتأثر بها كثيراً، فهم ما بين عابد وزاهد وفارس وعالم، وغنيٍّ شاكر، وفقير صابر، في جملة من الأعمال المسطورة والأقوال المنقولة التي يهذب بها قارئ التاريخ نفسه ويزكي بها عمله ويحسّن بها منطقه.

وما أحسن ما قاله ابن الأثير[١] رَحِمَهُ اللهُ مبيّناً أثر الاطّلاع على التاريخ في التغيير:

«إن الملوك ومَن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها؛ أي: ـ كتب التاريخ ـ من سيرة أهل الجور والعدوان... ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأُحْدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال وفساد الأحوال استقبحوها، وأعرضوا عنها واطّرحوها، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وإن بلادهم وممالكهم عُمرت، وأموالها دَرَّت استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك...»[٢].

ثم ذكر أن من فوائد قراءة التاريخ:

«ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره[٣]، فيزداد بذلك عقلًا، ويصبح لأن يُقتدى به أهلاً»[٤].

ثم ذكر أن من فوائد قراءة التاريخ تهذيب النفس وإعدادها للدار الآخرة، فقال:

«إن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلُّب الدنيا بأهلها... وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم فلم تُبقِ على جليل ولا

---

(١) الإمام علي بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجَزَريّ، عز الدين. توفي سنة ٦٣٠ رَحِمَهُ اللهُ. انظر «الأعلام»: ٣٣١/٤.

(٢) «الكامل»: ٨/١.

(٣) وهذا الذي يُعرف بـ«التاريخ يعيد نفسه».

(٤) المصدر السابق.



حقير، ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير زهد فيها وأعرض عنها، وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص...»[١].

- ومن الفوائد المهمة التي تعين العاملين والدعاة والمصلحين ما ذكره بقوله:

«ومنها التخلق بالصبر والتأسي، وهما من محاسن الأخلاق؛ فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مُكرّم، ولا ملك مُعظم بل ولا أحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم...»[٢].

وقال الأستاذ شاكر مصطفى رَحِمَهُ اللهُ:

«إن التجارب الإنسانية والأمثلة أساسية في التوجيه إلى السلوك الطيب وفي التقويم الخُلُقي، ومستودع تلك التجارب هو التاريخ الذي يجب أن يمشي أمام الإنسان مصباح هدى لا وراءه، باعتباره في المطاف الأخير تعبيراً عن إرادة الله وهدايته، وهذه التجارب الإنسانية هي بدورها أساس في الثقافة الفكرية والسياسية...»[٣].

- لذلك كله فإن القراءة في تلك الكتب تعود على الفرد والمجتمع بأحسن العوائد وأجمل الآثار، فمن قرأ التاريخ هذه القراءة استفاد تلك الاستفادة.

التاريخ الذي يدرسه الطلاب في المدارس والجامعات:

وبمقارنة تلك القراءة النافعة مع قراءة الطلاب التاريخ في المدارس والجامعات يظهر الفرق الكبير؛ فإن التاريخ يُقرأ في المدارس والجامعات بدون استخراج العبر والعظات، وبدون ربط للحاضر بالماضي، وبدون نظر في السنن

---

(١) المصدر السابق: ١/٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٦١.

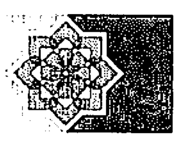
التاريخيــة، إنما هو ســرد وحفظ بلا فهم ولا حســن نظر، فتولَّد هــذه القراءة الخاطئة مللاً شــديداً في نفوس الطلاب، وتصبح المادة عبئاً ثقيلاً على نفوس المعلمين والطلاب، وهذا هو على التحقيق الســر في عدم استفادة الأجيال من التاريخ مع أن مئات الملايين من الطلاب في العالم الإســلامي يدرســونه في مراحل متعددة من حياتهم العلمية.

وأسوق لمن احتقر علم التاريخ فرآه من جملة العلوم التي لا فائدة فيها قول ابن الأثير الجزري رحمه الله فقد قال:

«لقد رأيت جماعة ممــن يدَّعي المعرفة والدراية، ويظن بنفســه التبحر في العلم والرواية يحتقر التواريخ ويزدريها، ويُعرض عنها ويُلغيها، ظَنّاً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأســمار، وهذا حال من اقتصر على القشــر دون اللب نظرُهُ، ومَن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مســتقيماً علــم أن فوائدها كثيــرة، ومنافعها الدنيويــة والأخروية جَمّة غزيرة»[١].

---

(١) «الكامل في التاريخ»: ١/٧ - ٨.



المبحث الأول: مصادر التاريخ الصحيحة

إن لتاريخنا الإسـلامي مصادرَ جليلة عظيمة لا بدَّ من استقاء التاريخ منها، فلا يصح أن نسـتقي التاريخ من كتب الأدب[1] خاصة تلك التي أورد مصنفوها الكذب الصُراح[2]، ولا من كتاب سَـمَر وطرائف ولطائف، ولا من كتب أعدائنا من كنسيين ومستشرقين، ولا ممن تخبط في كتاباته التاريخية من غلاة القوميين واليسـاريين، ولا ممن أوغـل في اتبـاع مناهج المستشـرقين ممن يُسَـمَّون المستغربين[3]، إنما للتاريخ مصادر محددة يأتي على رأسها:

١ ـ القرآن العظيم:

وهو أصح كتاب في تاريخ البشـرية، وأعظم نصّ بين يدي البَرِيّة؛ وهو الذي حوى أحداثاً تاريخية جليلة بأقسامها الثلاثة: التاريخ الماضي والحاضر والمسـتقبل[4]، ووردت تلـك الأحداث علـى أدق وأصح وجـه في تاريخ البشـرية، والقرآن قد امتلأ بهذه الأحداث التي تُقدر بأنها ثلثا القرآن تقريباً؛ ففي القرآن قصص تاريخية كثيرة جداً، وفيه تأريخ لعدد من غزوات النبي ﷺ وفيه أخبار الغيب المستقبل وهو تأريخ أيضاً، وكل ذلك جاء منضبطاً موجزاً محكماً:

---

(١) هناك بعض الاستثناءات سأذكرها في أواخر هذا المبحث، إن شاء الله تعالى.

(٢) مثل «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

(٣) سيأتي تفصيل ذلك ـ إن شاء الله ـ قريباً.

(٤) هذا باعتبار زمن نزول القرآن.



﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ويرى الدكتور عبد الحليم عويس[١] رحمه الله أن المسلمين قد قصَّروا في تأسيس علم التاريخ انطلاقاً من القرآن الكريم، فقال:

«والحقيقة أننا مضطرون لأن نسجل أن المسلمين في رحلة حضارتهم قد وُفقوا في الانطلاق من القرآن الكريم مصدرِهم الأول في علوم كثيرة أطلقوا عليها اسم «علوم القرآن»، كما أنهم قد اعتمدوا على القرآن وانطلقوا منه في علوم أخرى كعلوم اللغة العربية، بَيْد أنهم مع هذا الخط البياني المتقدم جدّاً في علوم القرآن واللغة بالنسبة لعصورهم لم يكن خطهم البياني مساوياً أو قريباً من خط العلوم السابقة فيما يتصل بفقههم لعلوم تفسير الحياة والتاريخ...

إن الخط البياني في فقه المسلمين للحياة والتاريخ بقي متخلِّفاً لا يتساوى إطلاقاً مع التكثيف القرآني لقصص الأمم البائدة، ولا ينسجم مع هذه المساحة التي أعطاها القرآن لرحلة الصراع بين الحق ويمثله الأنبياء، وبين الباطل ويمثله أعداء الأنبياء»[٢].

---

(١) هو أحد أساتذة التاريخ المعاصرين المصريين، وله كتب عديدة نافعة في التاريخ الإسلامي، توفي رحمه الله سنة ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م في القاهرة.

(٢) «فقه التاريخ»: ١١ - ١٢.

وقال في مكان آخر:

«إن ثمة حقيقةً أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم تلك هي أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خُصصت للمسألة التاريخية... وتبلغ هذه المسألة حدّاً من الثقل والاتساع في القرآن الكريم بحيث إن جُلّ سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة إلى حدث، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ»[1].

وقال الدكتور شاكر مصطفى ﷺ مبيّناً أهمية القصة القرآنية في مسار التاريخ الإسلامي:

«قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة[2] ـ وإن تكن مجملة وتكتفي بالإشارة واللمحة ـ وتسمى بالقصص:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠].

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه: ٩٩].

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣].

وبالرغم من أن الغرض منها هو الموعظة والاعتبار:

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ إلا أن الرغبة في معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكريم من ذلك القصص فتحت باباً من أبواب المعرفة الدينية دخل منه التاريخ، ودخل كرديف ديني شرعي لعمليات التفسير القرآني، وإذا كان الكثير من الإسرائيليات قد دخلت عن هذا الطريق إلى التاريخ الإسلامي ـ كما دخله الكثير من الأخبار القَبَلية والأجنبية ـ فأهم من ذلك أن القرآن الكريم منح بذلك نظرة جديدة إلى الماضي كرّسته

---

(١) المصدر السابق: ٤٤.

(٢) هكذا، والصواب مهمّة.



كأســاس فكري للعقيدة، ردت قيمته كجزء أساســي من المعرفة الإنسانية الموصلة إلى الله»(١).

٢ ـ السُّنَّة المطهرة والسيرة المشرفة:

إن للسُّنَّة المطهرة والسيرة المشرفة أهمية عظيمة في التاريخ الإسلامي، وقد عبَّر عن ذلك الأستاذ شاكر مصطفى تعبيراً حسناً فقال:

«ظهور الرســول الأعظم ﷺ كان خطاً فاصلاً في مســيرة التاريخ، هو خاتم الأنبياء، بــرزخٌ بين عالمين، عهد جديد نهائي للإنســانية، ولعل إدراك عمر بن الخطاب لهذه الحقيقة الإســلامية الكبرى هو الذي دفعه ـ بين عوامل أخرى ـ أولاً إلى وضع التأريــخ؛ أي: التقويم، وثانيــاً إلى تدويــن الدواوين والتأريخ بالهجرة؛ لإبراز شــخصية الرســول من جهــة وتأكيد أهمية ظهور الإســلام، وتسجيل العطاء في الدواوين على أســاس المسلمين الأولين وأنسابهم وإثبات قيمهم في المنطلق الإنساني الجديد»(٢).

وقد ورد في سُــنَّة رسول الله ﷺ الشــريفة وســيرته المنيفة قدر عظيم من التاريخ الإسلامي بأقســامه الثلاثة: التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل، وكل ما ينبغي مراعاته أن يكون الحديث مقبولاً داخلاً تحت دائرة الاحتجاج، ولذلك ضوابط وطرائق لا تســع معرفتها غيــر المتخصصين، لكن لو قــرأ المرء كتب الحديث المشهورة وكتب السيرة الموثوقة فهو في مأمن ـ غالباً ـ من التردي في هاوية المكذوبات المفتريات(٣). قال الدكتور عبدالحليم عويس رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٦٠، وفي الجملة الأخيرة اضطراب لكن المعنى مفهوم.

(٢) المصدر السابق: ٥٩.

(٣) لمن أراد الاســتزادة في هذا الموضوع فليقرأ مقدمة كتاب «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري، ورسالة «ضوابط منهجية في عرض السيرة النبوية» لكاتب هذه السطور.



«ثمةَ أحاديثُ نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية، واستشرفت آفاق المستقبل البعيد مما هو ضروري التناول عند المعالجة لموضوع التفسير الإسلامي للتاريخ؛ لأن التفسير الإسلامي يجب أن يُعطي للسُّنَّة الشريفة دوراً أساسياً عند رسم كل أبعاد صورة التفسير الإسلامي للتاريخ»[1].

وكل ما في صحيحي البخاري ومسلم فهو صحيح، يقرأه القارئ وهو آمن من الروايات الضعيفة والمكذوبة، أمّا باقي كتب الصحاح والسنن ففيها الصحيح وفيها الضعيف، لكن كثيراً منها قد حُقق وأصبح من الميسور على غير المختصين معرفة صحيحه من سقيمه، وشبكة المعلومات «الإنترنت» قد قَرّبت كثيراً من البعيد حتى صار في متناول الأيدي، ولله الحمد والمِنَّة.

أما كتب السيرة النبوية فليقرأ المرء منها «سيرة ابن هشام»[2]، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام ابن قيم الجوزية[3].

أما سيرة ابن هشام فهي من أوثق كتب السيرة، وله شرح جليل وهو «الرَّوْضُ الأُنُف والمشْرَع الرِّوَى في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى» لأبي القاسم السُهيليّ الأندلسي[4]، وقد قال الأستاذ محمود الطناحي:

---

(١) «فقه التاريخ»: ٤٦.
وسيأتي الحديث ـ إن شاء الله تعالى ـ عن مسألة التفسير الإسلامي للتاريخ في الرسالة الثانية التي ستصدر بعد هذه بعنوان «إعداد المؤرخ الثقة».

(٢) عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي، وقيل: الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد. العلّامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية لابن إسحاق. توفي سنة ٢١٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/٤٢٨ وما بعدها.

(٣) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة ٧٥١ بدمشق رحمه الله. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/٢١ ـ ٢٣.

(٤) عبدالرحمٰن بن عبدالله بن أحمد، الإمام الخيّر أبو القاسم الخَثْعمي السُهيلي الأندلسي المالقي، =

«وهو كتاب تاريخ وعربية. .. وإني لأنصح كل طالب علم باقتناء هذا الكتاب ومدارسته، وإدامة النظر فيه لما حواه من فوائدَ في مختلف علوم العربية...»[(١)].

وأما «زاد المعاد» فهو من إبداعات ابن القيم فهو كتاب نسجه على غير منوال سابق، وهو كتاب مبتكر جليل.

٣ ـ كتب التاريخ الموثوقة:

وأعني بها التي صنفها أئمة كبار مثل الإمام الذهبي[(٢)] في «تاريخ الإسلام»، والحافظ ابن كثير[(٣)] في «البداية والنهاية»، والإمام ابن الأثير الجزري في «الكامل في التاريخ» وأمثال هؤلاء ممن عُرفت مناهجهم، ووُقف على طرائقهم، ونُقدت كتبهم فإذا هي مثل الذهب الإبريز الذي قد يشوبه بعض الشوائب لكنها قليلة ومحتملة، والوضع في كتبهم ـ أي الكذب ـ قليل بل نادر، وهم علماء شريعة موثوقون، يعرفون ما يوردونه، وإذا أوردوا شيئاً من الكذب والمبالغة فإنهم غالباً ما ينقدون ذلك ويبيِّنون.

= الحافظ، صاحب المصنفات. كُفَّ بصره وهو ابن سبع عشرة سنة. وكان عالماً بالعربية والقراءات، بارعاً في ذلك، وتصدر للإقراء والتدريس والحديث، وبَعُد صيته وجَلّ قدرُه، وله مصنفات جليلة. توفي سنة ٥٨١ رحمه الله. انظر «الوافي بالوفيات»: ١٨/١٧٠ ـ ١٧٢.

(١) «الموجز في مراجع التراجم»: ٤٥.

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدث عصره، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/١٠٠ ـ ١٢٣.

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي: عماد الدين، الحافظ الإمام. ولد سنة سبعمائة ونشأ بدمشق واشتغل بالحديث، وله عدَّة مصنَّفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. توفي رحمه الله سنة ٧٧٤، انظر «الدرر الكامنة»: ١/٣٩٩ ـ ٤٠٠.



ـ وليُبتعد عن الكتب التي نحت منحى الرفض أو التشيع كتاريخ اليعقوبي[1]، أو الكتب التي كثرت فيها الشبهات والأغاليط مثل «تاريخ الأمم والرسل والملوك» للإمام ابن جرير الطبري[2]، على جودة علمه وعلوِّ كعبه لكنه في كتابه هذا أورد الغثّ والسمين[3].

ـ ومن المصادر ـ أيضاً ـ للتاريخ الكتب التي أفردت الحديث عن تراجم الرجال وأحوالهم من جرح وتعديل، فقد ألَّفها أئمة كبار، وفيها جملة من الأحداث التاريخية، وهذه الكتب كثيرة وشاملة ومتنوعة، وسأفردها بالحديث في رسالة قادمة ـ إن شاء الله تعالى ـ لكن أمثِّل لها الآن بكتاب «تهذيب الكمال» للحافظ المزي[4]، و«سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي.

٤ ـ بعض كتب الجغرافيا:

هناك بعض كتب الجغرافيا جمعت على وجه جامع بين مادة الجغرافيا ومادة التاريخ، فيجد القارئ فيها أحداثاً وتفاصيل ودقائق تاريخية لا يكاد

---

(١) هو أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي. مؤرخ جغرافي، كثير الأسفار، من أهل بغداد. كان جده من موالي المنصور العباسي الخليفة. رحل إلى المغرب، وأرمينيا، ودخل الهند، وبلاداً غير ذلك، وصنَّف عدداً من الكتب. توفي آخر القرن الثالث بعد سنة ٢٩٢. انظر ترجمته في «الأعلام»: ٩٥/١.

(٢) هو الإمام المفسّر المشهور محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام العالم المجتهد، ولد سنة ٢٢٤ بآمل طبرستان. كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرة تصانيف، وكان من كبار أئمة الاجتهاد. استقرّ ببغداد وتوفي بها سنة ٣١٠ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٦٧/١٤ ـ ٢٨٢.

(٣) سيأتي تفصيل لمناهج المؤرّخين في رسالة قادمة في هذه السلسلة، إن شاء الله تعالى.

(٤) هو: جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمٰن بن يوسف القضاعي الحلبي الشافعي، مؤلِّف «تهذيب الكمال في أسماء الرجال». ولقب المزي نسبة إلى المزة في دمشق التي استقر ونشأ بها. ولد بحلب سنة ٦٥٤، مهر في اللغة، ثم في الحديث ومعرفة رجاله، توفي في دمشق ١٢ صفر سنة ٧٤٢. انظر «الدرر الكامنة» لابن حجر، «وتذكرة الحفاظ» للذهبي، «والأعلام»: للزركلي: ٢٣٦/٨.



يجدها في مكان آخر، وأحسن مثال على ذلك: «معجم البلدان» لياقوت الحموي[1] رحمه الله فقد سار في الأرض طويلًا، وسجل في كتابه ذلك أحوال البلاد السياسية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، ورجالها العظماء، إضافة إلى تسجيله جغرافية البلاد، وتنبع أهمية الكتاب من أن أكثر مادته مشاهدات رآها ياقوت بنفسه وسجلها في كتابه، وهو ثقة فيما ينقله، بعيد عن المبالغات الممجوجة التي كثرت في كتب الذين ارتحلوا في البلاد فأوردوا بعض الحوادث التي هي أشبه بالأساطير منها بالحقائق.

٥ ـ كتب الرحلات:

من المصادر المهمّة للتاريخ كتب الرحلات، وهي الكتب التي سَطّر فيها أصحابها رحلاتهم إلى أماكن مختلفة، وعلى رأسها الرحلات الحجازية إلى مكة المكرمة والمدينة المشرفة المنورة النبوية لأداء الحج والزيارة، وكذلك الرحلات التي قام بها العلماء والأدباء إلى أقطار متعددة، أما المغاربة إذا حجوا فإنهم يمرون بعدة دول وعلى رأسها مصر، وأما المشارقة فكانوا يرتحلون إلى الشام ومصر والعراق واليمن، وقَلّ منهم مَن يرتحل إلى المغرب، وهذه الكتب كثيرة وعديدة وتحوي مادة تاريخية ثرية جدّاً ومهمة إلى الغاية، وسبب أهميتها عائد إلى أن هذه المادة منقولة بالمشاهدة أو السماع، وناقليها علماء موثوقون ـ في الغالب ـ وأدباء عقلاء ضابطون.

وربما يجد الباحث مادة تاريخية في تلك الكتب لا توجد في غيرها من كتب التاريخ.

---

(١) هو الأديب الأوحد، شهاب الدين الرومي، مولى عسكر الحموي، السفّار، النحوي، الأخباري، المؤرخ، ذو التآليف الحاكمة بالبلاغة وسعة العلم. أعتقه مولاه فنسخ بالأجرة، وكان ذكيّاً، شاعراً متفنناً، جيد الإنشاء. توفي سنة ٦٢٦ عن نيف وخمسين سنة رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣١٢/٢٢ ـ ٣١٣.



ويمتد تاريخ هذه الرحلات التي وصلتنا من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي إلى العشرين، وهناك رحلات قليلة جداً وصلتنا قبل هذا التاريخ.

ومن أمثال هذه الرحلات رحلة ابن بطوطة(١)، ورحلة ابن جبير الأندلسي(٢)، ورحلة الورثيلاني الجزائري(٣)، ورحلة خير الدين الزركلي(٤) المسماة: «ما رأيت وما سمعت»، ورحلة شكيب أرسلان(٥): «الارتسامات

---

(١) محمد بن عبدالله بن محمد اللُواتي الطُنجيّ، أبو عبدالله ابن بطوطة. ولد في طنجة سنة ٧٠٣. رحل إلى المشرق سنة ٧٢٥ وتوغل حتى بلغ الصين، وتولى القضاء بالهند سنوات. بقي في رحلته ٢٧ سنة. توفي في مراكش سنة ٧٧٩ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/١٠٠، و«الأعلام»: ٦/٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانيّ الأندلسيّ الشاطبيّ البَلَنسيّ. رحّالة أديب. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ ونزل شاطبة. برع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وأحب الترحال والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨ - ٥٨١ وهي التي ألف فيها رحلته. مات بالإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤ رحمه الله. انظر: «الأعلام»: ٥/٣٢٠.

(٣) الحسين بن محمد السعيد الوَرثيلانيّ نسبة إلى بني ورثيلان ـ قبيلة جزائرية ـ ولد سنة ١١٢٥. مؤرخ، فقيه مالكيّ، له اشتغال بالتصوف. حج فأخذ من علماء مصر والحجاز. له بعض المصنفات. توفي سنة ١١٩٣ رحمه الله. انظر: «الأعلام»: ٢/٢٥٧.

(٤) العلّامة أبو الغيث خير الدين بن محمود بن محمد الزركليُّ الدمشقيُّ. وُلِدَ في بيروتَ سنة ١٣١٠هـ، ونشأ وترعرعَ في دمشقَ، ودرس فيها مراحل دراساته الأولية، ثم عاد إلى بيروت تلميذاً فأستاذاً، وجرتْ له فيما بعدُ من عمره فصول توالت عليه في إثرها المحن والكروب، وحُكم عليه في دمشقَ غيابيّاً بالإعدام إثرَ واقعة حدثت، وكان حُكم الإعدام صادراً من الفرنسيين، وَفَرّ إلى فلسطين فمصر فالحجاز فمكث فيها مدة عند الشريف حسين، ثم دخل الزركليُّ في حكم الملك عبدالعزيز، ولتقدّمه وفضله قلّدهُ الملكُ عدّة مناصبَ في الحكومة السعودية، كان آخرها سفيراً في دولةِ المغربِ. توفّيَ رحمه الله في سنةِ ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م في مدينةِ القاهرةِ، ولهُ ٨٦ سنة، قضى أكثرها باحثاً ومفكّراً وكاتباً، له عدة كتب مهمة، ولهُ ديوانُ شعر مطبوعٌ كذلكَ.
والزّركليُّ: بكسر الزاي المُشدّدةِ وبعدها راءٌ مكسورة، وهي قبيلة أو أسرة كرديّة.
انظر ترجمته في سلسلة علماء ومفكرون معاصرون في كتاب مستقل بعنوان «خير الدين الزركلي، المؤرخ الأديب» لأحمد العلاونة.

(٥) شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. ولد في الشويفات بلبنان سنة ١٢٨٦. كان عالماً بالأدب والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب وهو من أعضاء المجمع العلمي =

اللطـاف في خاطر الحـاج إلى أقدس مطاف»، ورحلة رشـيد رضـا إلى مكة المكرمة[1]، ففي كل هذه الرحلات ـ وغيرها كثير ـ مادة تاريخية مهمة يندر أن تجدها في غيرها من كتب التواريخ.

وأزعم ـ والله تعالى أعلـم ـ أن كتب الرحلات لم يسـتفد منها حتى الآن الاسـتفادة الجيدة، وفيها مادة تاريخية، ودعوية، وتربوية، وإيمانية، فعسـى أن يلتفت إليها الباحثون.

٦ ـ بعض كتب الأدب:

الأصـل أن كتب الأدب هي كتب سـمر وطرائف ولطائـف، ولا يصح أن يُسـتقى منها التاريخ؛ وذلك لأن مصنفيها سـلكوا فيها طريقاً لا يناسبه التوثيق والتدقيق، ثم إن بعـض المصنِّفين لتلك الكتب هم من غير الثقات، كما ذكرت ذلك في بداية المبحث، وتصلح بعض كتب الأدب تلك لبيان الحالة الاجتماعية لمجتمع ما في زمن ما.

لكن هناك بعض كتب الأدب جمعت بيـن إيرادها القطع الأدبية والحوادث التاريخية فتلك ينظـر إلى مصنفيها فإن كانوا ثقات أُخذ منهـا المادة التاريخية، ومن أمثل الأمثلة وأحسنها كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر

= العربي بدمشـق. انتخب نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وسـكن دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، وانتقل إلى جنيف بسويسرا وسكن فيها ٢٥ عاماً ثم عاد إلى بيروت وتوفي بها سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م رحمه الله. له مصنفات كثيرة ورسـائل خاصة عددها يقدر بعشرات الآلاف وهو كان من أشـد المتحمسـين للدولـة العثمانية ثم بعد ذلـك للقضايـا العربية. انظـر: «الأعلام»: ٣/١٧٣ ـ ١٧٥. وقد صح عندي أنه تسنن بعد أن كان درزياً رحمه الله.

(١) محمد رشـيد بن علي رضا بن محمد القَلموني الأصل الحسـينيّ، صاحب مجلـة «المنار» وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. ولد في القلمون ـ من لبنان ـ سنة ١٢٨٢، وتعلم فيها وفي طرابلس، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥، فلازم الشـيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة «المنار»، وصار مرجع الفتيا في التوفيق بين الشـريعة والأوضـاع العصرية الجديدة. ارتحل مـراراً، وله مصنفات كثيرة، وجرت عليه أحداث حتى توفي سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٤م بمصر رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٦/١٢٦.

حال وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» ومؤلِّفه هو المقّري التلمساني[1]، فهو كتاب أدبي من الطراز الأول لكن لا يُستغنى عنه في تاريخ الأندلس أبداً، وقد أورد أحداثاً استقلّ بها لم تُذكر في مكان آخر، خاصة أن أكثر الكتب الأندلسية قد أحرقها النصارى في حروبهم مع المسلمين واستيلائهم على المدن.

- وفي كتب التاريخ ـ خاصة الأولى منها ـ استُقيت أحداث تاريخية من الشعر الذي كان ديوان العرب، ومستودع أخبارها وأحداثها، ولذلك عمد المؤرخون الأوائل إلى الاستفادة منه في انتزاع بعض دقائق وتفصيلات تاريخية لا تكاد توجد في غير تلك الأبيات الشعرية.

٧ ـ كتب المذكّرات أو الذكريات:

وهذه كتب مهمّة لكن المسلمين لم يعرفوا هذا النوع من التأليف ـ على الوجه المعروف من الذكريات ـ إلا في القرن الماضي والذي قبله: الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين، لكن ورد ما يمكن عدُّه قسماً من الذكريات في كتب الرحلات آنفة الذكر.

وكتب الذكريات هذه تحوي مادة تاريخية لا بأس بها قائمة على المشاهدة والسماع، ودرجة أهميتها التاريخية منبعثة من جودة كُتاب هذه الذكريات، كأن يكونوا ضابطين لما يروونه، غير متهمين بالكذب، معروفين بالاعتدال وقلة المبالغة إلى آخر ما يمكن أن يقوي كتب الذكريات تلك ويجعلها مصدراً من مصادر التاريخ، لكن هذه الكتب هي مصدر ثانوي من مصادر التاريخ وليست مصدراً أساساً على أن بعضها فيه من المعلومات التاريخية ما لا يمكن أن تجده في أي كتاب آخر:

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد المَقري، أبو العباس التلمساني المؤرخ، الأديب الحافظ. ولد في تلمسان سنة ٩٨٦، ونشأ بها، ثم انتقل إلى فاس فكان خطيبها وقاضيها، ثم انتقل إلى القاهرة، سنة ١٠٢٧، ودخل الشام والحجاز. والمَقّري نسبة إلى مَقّرة قرية من قرى تلمسان. له عدة كتب جليلة. توفي رحمه الله بمصر سنة ١٠٤١. انظر «الأعلام»: ١/ ٢٣٧.

«بالرغم من أن الميول الذاتية تسيطر عادة على المذكرات الشخصية غير أنها تعطينا في بعض الأحيان معلومات فريدة وهامة، وفي كل الأحوال لا يمكن الاستغناء عنها في كتابة التاريخ؛ ذلك لأن بعض الترجمات الذاتية تعتبر مساهمة جادة في التاريخ»[1].

وقد كثر التصنيف لهذه الكتب في النصف الآخر من القرن الماضي وفي هذا القرن، ومن الذكريات المهمة: ذكريات الشيخ علي الطنطاوي[2]، وذكريات الأستاذ الإمام حسن البنا[3] واسمها: «مذكرات الدعوة والداعية»، وذكريات محمد كرد علي[4] ـ على ما فيها ـ[5].

---

(١) «عطاء العرب الحضاري في ميدان التاريخ»: ٢٦.

(٢) أديب العربية المعروف. سوري من أصل مصري من بلدة طنطا. استوطن مكة فسكنها طويلًا. كانت له رحلات وجولات في نصرة فلسطين والقضية الإسلامية. له العديد من المصنفات الدالة على علو كعبه في باب الأدب. وله مئات الأحاديث في وسائل الإعلام، وله كذلك مئات المقالات. توفي رحمه الله سنة ١٤٢٠هـ.

(٣) حسن بن أحمد بن عبد الرحمٰن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. ولد سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م في المحمودية ـ قرب الإسكندرية ـ ودرس بدار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتدريس وتنقّل في بعض البلاد متعرفاً إلى أهلها مختبراً طباعهم وعاداتهم. أنشأ دعوته في الإسماعيلية، ثم انتقل إلى القاهرة. نظم أمر أتباعه، وشاركوا في حرب فلسطين مجاهدين، ثم اصطدمت بهم الدوائر الاستخباراتية العالمية فسجنتهم وقتل الإمام سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م رحمه الله في حادثة غادرة لئيمة. له بعض الرسائل النافعة وكثير من الآثار الباقية. وانظر «الأعلام»: ١٨٣/٢ - ١٨٤.

(٤) محمد بن عبد الرزاق بن محمد، كُرْدعلي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، من كبار الكتّاب. ولد سنة ١٢٩٣ بدمشق، وأصله من أكراد السليمانية ـ من أعمال الموصل ـ وتعلّم في المدرسة الرشدية، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة. وأحسن التركية والفرنسية وتذوّق الفارسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، وتولى رئاسة تحرير عدد من المجلات والجرائد. هاجر إلى مصر وبقي فيها سنين، واتهم مرات بمعاداة جمعية الاتحاد والترقي وكاد يُقتل. ولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية. وكان من أصفى الناس سريرة وأطيبهم لمن أحبَّهم عشرة وأحفظهم ودّاً. توفي بدمشق سنة ١٣٧٢ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٢٠٢/٦ - ٢٠٣.

(٥) انظر تقويمي لها في كتاب «حال بلاد الشام في القرن الرابع عشر الهجري» فقد اختصرت المذكرات وكتاباً له آخر في ذلك الكتاب.

وقريب من كتب المذكرات كتب اليوميات، وهي التي كتبها أصحابها ليؤرِّخوا أحداثاً معيَّنة أو عامة يوماً بيوم، وكتب اليوميات هذه فيها تفاصيل ودقائق أكثر من كتب الذكريات، وذلك لأن كتب الذكريات تكتب عادة بعد وقوع الأحداث بزمن طويل، ودقائق الأخبار وتفصيلات الوقائع قد لا تبقى في الذاكرة مدة طويلة، لكن اليوميات تكتب عادة يوماً بيوم، أو في مدة قصيرة متتابعة فتصبح أشبه باليوميات منها بالمذكرات أو الذكريات، وتشتمل على تفصيلات ودقائق كثيرة.

ومن أهم هـذه اليوميات كتاب «مظهـر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» للمؤرِّخ المصري الجبرتي، فكتابه هذا كتبه لتسطير وقائع حملة نابليون على مصر، وكان أشبه باليوميات فقد سطر فيه كثيراً من التفصيلات والدقائق للحملة.

٨ ـ الرسائل الشخصية:

كثر في القرن الماضي والذي قبله الرسائل المتبادلة بين العلماء والأدباء والمؤرِّخين؛ وذلك لأن البريد أصبح أسهل وأسرع من ذي قبل، وتلك الرسائل لها أهمية بالغة لاحتوائها على تفصيلات ودقائق قد لا توجد في أيِّ مكان آخر.

ثم إن تلك الرسائل تذكر الوقائع والأخبار بلسان أصحابها، فإذا كانوا من الثقات المعروفين بالضبط والأمانة فإن لتلك الأخبار مكانة جليلة وأهمية بالغة.

ومن هذه الرسائل: الرسائل المتبادلة بين الأستاذ محمد بهجت البيطار[١] والشيخ جمال الدين القاسمي[٢].

---

(١) ولد سنة ١٣١١، ودرس في دمشق في مدارس وعلى يد مشايخ، وتولَّى عدة وظائف منها عضوية مجمع اللغة العربية بدمشق وبغداد، ودرّس في مدارس في دمشق والحجاز، وصار عضواً في المحكمة الشرعية الكبرى بمكة، ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية، ومفتشاً للعلوم الدينية، ومدرِّساً للتوحيد، ثم عاد إلى دمشق ومنها إلى بيروت، ثم عاد إلى الحجاز سنة ١٣٦٨ وأسَّس دار التوحيد بالطائف، وكان له رحلات إلى بلدان متعددة. توفي سنة ١٣٩٦ رحمه الله. انظر ترجمته مفصلة في مجلة «حضارة الإسلام»: العدد الرابع: السنة ١٣٩٦.

(٢) هو جمال الدين محمد بن سعيد بن قاسم القاسمي، عالم مشارك في أنواع العلوم. ولد بدمشق =

والرسائل المتبادلة بين المهتدية الأمريكية مريم جميلة[١] والشيخ أبي الأعلى المودودي[٢] رحمه الله.

وهناك بعض أنواع أخرى يمكن أن يوجد فيها مواد تاريخية لكن على قلة أو ندرة مثل الأثبات[٣]، والبرامج[٤]، والمعاجم[٥].

= ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م ونشأ وتعلم بها، ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة وعاد إلى دمشق. له عدّة مصنفات، توفي بدمشق سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م. انظر «الأعلام»: ١٣٥/٢.

(١) هي مارجريت ماركوس قبل إسلامها، يهودية أمريكية من أصل ألماني. ولدت في نيويورك سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م أسلمت في قصة جليلة سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م، وتوفيت رحمها الله تعالى ـ بلاهور سنة ٢٠١٢م/١٤٣٤هـ.

(٢) هو أحد كبار دعاة باكستان، وأنشأ الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية. وحاز جائزة الملك فيصل العالمية. توفي رحمه الله سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ودفن في لاهور بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال. انظر «تتمة الأعلام»: ٧٣/١.

(٣) الأثبات جمع ثَبَت، وهي كما قال اللكنوي رحمه الله: الفهرسة التي يجمع فيها المحدث مروياته وأشياخه، كأنه أخذ من الحجة؛ لأن أسانيده وشيوخه حجة له...
وقيل فيه أيضاً: الكتاب الذي يجمع فيه المحدث مشيخته ويثبت فيه أسانيده ومروياته وقراءته على أشياخه المصنفات ونحو ذلك، فهو اصطلاح حادث للمحدثين». انظر «لسان المحدثين»: المجلد الثالث.

(٤) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الثاني:
«استعمل المتأخرون ـ ولا سيما الأندلسيون ـ كذا ـ منهم لفظ «برنامج» على معنيين:
أحدهما: الكتاب الحاوي لأسماء الكتب، والتقاييد والرسائل المقروءة، أو خلاصات المسائل ورؤوس النقاط...
وثانيهما: كتاب يضم أسماء المشايخ، وأسماء التلاميذ المستفاد منهم أيضاً، فلفظة البرنامج إذن مرادفة عند المحدثين للفهرس...
وهذه الكلمة ليست عربية بل هي معربة عن «نامه» الفارسية التي من معانيها عندهم: الورقة الجامعة للحساب، وفيها بعض معنى الفهرسة»
والمقصود هنا المعنى الثاني للبرنامج، وإن كان المعنى الأول يراد أحياناً.

(٥) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الخامس:
«الكتاب الذي يترجم فيه رجال أحد الكتب مرتبين على الحروف».
وللمعجم معانٍ أخرى لكن هذا المعنى هو ما أردته في هذا الكتاب.

٩ ـ الوثائق الحكومية:

دأبت الحكومات الاستخرابية «الاستعمارية» في القرن الماضي والذي قبله على الاحتفاظ بالوثائق المعنيَّة بالعلاقات بين الدول والأحداث التي جرت في البلاد التي احتلتها، وهي في الأغلب رسائل متبادلة بين تلك الحكومات وسفاراتها أو «قنصلياتها»، وفي تلك الوثائق تفصيلات دقيقة جدّاً عن أحوال البلاد ورجالها المؤثرين، وقد لا توجد تلك الأخبار في أي مكان آخر، وتختلف أهمية تلك الوثائق تبعاً لأهمية البلد ورجاله، ومن أشهر تلك الوثائق: الوثائق البريطانية، فقد كانت بريطانيا تحتل كثيراً من بلاد العالم الإسلامي في القرنين الماضيين، وقد اختطت لنفسها سياسة معيَّنة في إطلاع الجمهور على تلك الوثائق، حيث إنها تفرج عن مجموعات منها كل ٣٠ سنة، وبعضها كل خمسين سنة، والمطلع على تلك الوثائق يدرك أهميتها البالغة في تقويم الأحداث التي أصبحت تاريخاً لتلك البلاد سواء أكانت محتلة آنذاك أو حرة، وفيها دقائق في أحوال الرجال ونفسياتهم وطرائق تفكيرهم هي في غاية من الأهمية في وزن أعمالهم والحكم على مسيرتهم في الحياة.

١٠ ـ الوصايا:

هناك عظماء كثيرون، وأصحاب مراكز مهمة أثرت في أحداث التاريخ قد كتبوا وصاياهم قبل موتهم، وبعض تلك الوصايا فيه تفصيل دقيق لبعض الأحداث التي عاشها الموصي لكنه لم يستطع ذكرها في حياته بسبب

= وقد يسمّى هذا النوع من الكتب «المشيخة» وجاء في «لسان المحدثين»: قال الحافظ ابن حجر في «المعجم المفهرس»: ١٩٥: فصل في المشيخات: وهي في معنى المعاجم إلا أن المعاجم يرتب المشايخ فيها على حروف المعجم في أسمائهم بخلاف المشيخات».



الخوف من شيء ما، أو لسبب آخر، فالاطلاع على تلك الوصايا قد يفيد في معرفة بعض التفاصيل التاريخية المفقودة في الزمن الذي عاشه الموصي، وبعض تلك الوصايا موجود عند أهل الموصي وقد يسمحون بالاطلاع عليها، وبعضها الآخر موجود في المتاحف والمكتبات الوطنية أو العامة، أو مراكز البحوث والدراسات، فعلى الباحث التاريخي أن ينظر في تلك الوصايا إن احتاج إلى إكمال بعض الجوانب المهمة في دراسته التاريخية لحدث معين أو شخصية معينة.

١١ ـ المشافهات:

هناك أشخاص كثيرون عاصروا أحداثاً مهمَّة للغاية، ولم تُكتب هذه الأحداث بعد على وجهها، أو أنها كتبت لكن على وجه مخالف لحقيقتها أو ينقصها التفصيلات والدقائق المهمة، وهؤلاء الأشخاص لا يستطيعون لسبب أو لآخر أن يدوِّنوا ذكرياتهم حول تلك الأحداث، ففي مشافهتهم فوائد عديدة لا تخفى، لكن هناك شروطاً لهذه المشافهة حتى تصبح موثوقة وتصلح للاستشهاد التاريخي، منها:

أ ـ أن يكون المشافَه ثقة؛ أي: عدلاً في سيرته، ضابطاً لأقواله، لم يُصبه خرف، أو خلط كثير، أو نسيان شديد مؤثِّر على سياق الخبر.

ب ـ ألَّا يأتي بأخبار ضخمة لم يسمع بها أحد من قبل فهذا يورث الشك في روايته، لكن له أن يأتي بتفاصيل ودقائق لم يسمع بها أحد لكنها مدرجة تحت الحدث الأصلي المعروف المنتشر خبره عند كثير من الناس.

ج ـ أن يكون قد عاصر الحدث بنفسه وشاهده، أو نقله بالسند الصحيح الموثق إلى غيره من الثقات.



وعلى كل حال فإنه يمكن التأكد من صحة بعض تلك المشافهات بالمقارنة بالروايات الأخرى للحدث نفســه، أو التتبع الزمني لتلك الروايات للتأكد من عدم اختلاط المشافَه.

تلك كانت أهم المصادر التي يُستقى منها التاريخ، والله أعلم.

وهناك بعض المصادر لكن لا يتيســر الاطلاع عليها لكل أحد، وذلك نحو التحقيقات التي تقوم بها الشــرطة، أو الاعترافات أمام النيابة والمحكمة، لكن هذه المعلومات قد تحتاج إلى توثيق من مصدر آخر محايد.



المبحث الثاني: خصائص التاريخ الإسلامي

إن لكل أمة تاريخَها الذي تعتز به وتدرِّسه للأجيال، وتتناقله الألسن والدواوين، وتهفو إليه القلوب والأفئدة.

وإن أمة الإسلام ليست ببدع من الأمم في هذا الباب بل تاريخها عظيم وجليل لا يدانيه تاريخ أمة من الأمم الأخرى ولا يضارعه، فهو قد امتاز عن غيره بجملة خصائص وضعته في الصدارة بين تواريخ الأمم، فمن هذه الخصائص الجليلة:

أولاً: تاريخ موصول بالرسل والأنبياء:

ينبغي أن يعلم أن تاريخ هذه الأمة الإسلامية العظيمة لا يبدأ ببعثة أعظم الرسل محمد ﷺ - إلا باعتبار التاريخ الخاص الذي يبدأ ببعثته ﷺ - إنما يبدأ منذ بداية الرسالة والنبوة على هذه الأرض؛ إذ كل الأنبياء والرسل مسلمون جاؤوا برسالة خالدة تداولها الأنبياء حتى وصلت إلى سيدهم وعظيمهم محمد ﷺ، وقد قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال تعالى قاصًا حال إبراهيم عليه أفضل الصلوات والتسليم:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وقال ﷺ لبنيه:

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقالت بلقيس فيما قصّه الله تعالى علينا في كتابه العظيم:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال الحواريُّون فيما قصّه الله ـ تعالى ـ علينا في كتابه الجليل:

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فهو إذاً تاريخ موغل في القدم، تحفُّه الرسالات والرسل العظام الكرام، وهو ليس تاريخاً خاصًا بجنس أو شعب بل كل من أسلم لله ـ تعالى ـ على مدار التاريخ فهو من هذه الأمة المسلمة الراشدة، وهذا يرتقي بتاريخنا إلى الشمول والعالمية التي تحتاجها الحضارات التي تُبنى على أساس سليم.

وهذا هو الأمر الذي أغفله مؤرخو الغرب من المستشرقين وغيرهم، فهم لا يُرجعون تاريخ البشرية إلى أصل إلٰهيّ ولا يقرُّون بذلك، فهم «لا يرون في هذا الكون سوى المخلوقات المادية الملموسة، كالسمٰوات والأرض والنجوم والجبال والشجر إلى آخره؛ أي: أنه لا وجود ـ في تصورهم الذي انطلقوا منه لكتابة تاريخ البشرية ـ للملائكة أو الشياطين، ولا وجود للرسالات أو الرسل أو الوحي أو الكتب السماوية، أو البعث أو الحساب، أو الثواب أو العقاب، أو الجنة أو النار، وأن الكون هكذا وجد، أوجد نفسه بنفسه...

أي: أن الحكمة من خلق آدم وبنيه قد انتفت، والتكليف الرباني لآدم وذريته قد تبدد...

وكُتّاب التاريخ الذين تبنَّوا ذلك التفسير اللاديني لتاريخ البشرية حريصون على هدم الإسـلام وكونه عقيدةً ونظامَ حياةٍ شامل: اقتصادي وسياسي وتثقيفي وتعليمي وجهادي، صالح لكل زمان ومكان، وبالتالي زعزعة ثقة بني البشر في رب الكون وملائكته وكتبه ورسـله، مع تشـويه تاريخ الأمة المسلمة ـ الواقع التطبيقي لذلك الدين ـ وتزييفه وبعثرته حتى لا تهتدي الأمة المسلمة إلى ذاتها وغايتها...

وتحقيقاً لهذا المنطلق فإن المشتغلين بالتاريخ من غير المسلمين ومَن سار على نهجهم قد تواصوا بوسائل منها:

التجاهل والتجهيل بالبداية الحقيقية للدين الإسـلامي، وبالبداية الحقيقية لتاريخ الأمة المسـلمة... وذلك يعني في تصور هؤلاء المشـتغلين بالتاريخ أن الدين الإسـلامي لا وجود له قبل رسـالة محمد ﷺ وهذا يعني ـ أيضاً ـ طبقاً لتصورهـم المنحـرف أن آدم لم يكن مسـلماً، وكذلك نوح ولـوط وإبراهيم ويعقوب وسـليمان وغيرهم من الأنبياء والرسـل صلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين... وبذلك يعزلون تاريخ الأمة المسـلمة التي سـبقت رسالة محمد ﷺ عن بقية تاريخ الأمم المسـلمة والتي تضرب بجذورها إلى عهد آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] والتي يمتد تاريخها عبر آلاف السنين. ..

وقد ترتب على تبنّي هذا المنطلق من قِبَل المستشرقين ومن سار على نهجهم فصل هذا الجزء العزيز الغالي الكبير والأساسي من تاريخ الإسلام وتاريخ الأمة المسلمة منذ أقدم الدهور بداية بآدم عليه السلام حتى قبيل بعثة محمد ﷺ وأطلقوا عليه اسـم التاريخ القديم، تاريخ مصر القديمة، العراق القديم، الشـرق القديم، بلاد الشـام القديم، وحوَّلوه إلى تاريـخ وثني جاهلي. .. بل أطلقـوا على هذه الفترة عصور ما قبل التاريخ، والعصور الحجرية التي أثناءها لم يكن الإنسـان الحيوان يعرف له ربّاً ولا يعتنق ديناً، فنشـأت لدى الإنسـان عاطفة التدين من مشـاهدة



الحيوانات التي تخاف من القوى الخفية وتخاف البرق والرعد فبدأ يتخذ لنفسه آلهة على قدر نضوجه الفكري، أي: أن الدين من اختراع العقل البشريّ...

ويسير في نفس الاتجاه السالف الذكر علماء الآثار من المستشرقين الذين يحرصون على طمس أيِّ قرينة أثرية أو ملامح تاريخية تؤكد أن الله ﷻ قد فطر البشرية على الإسلام...

إذا قُدر للإنسان أن يرجع إلى الموسوعات التاريخية ليتعرف على تاريخ البشرية يجد أن كتابها قد تعرضوا لخلق الكون وكيفية حدوث ذلك وتعرضوا لخلق الإنسان وكيفية حدوث ذلك، وتعرضوا لتاريخ الأديان ـ ومنها الإسلام ـ والأساس الذي قامت عليه، ولكن تعرضهم لهذه الموضوعات لم يكن موفَّقاً بأي حال من الأحوال»[1].

وقال الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله:

«أعطت العقيدة الإسلامية تصوراً تاريخياً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة، وربطت بين المبتدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة، وحصلت ما بين الطرفين فترة عبور:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]»[2].

وقال أيضاً:

«انتزع الإسلام العرب من الإطار القَبَلي ومن الجو الوثني، ولهذا استخفَّ بالأنساب وبقصص الأيام وبمُثُل الجاهلية وبدلهم منها جواً ثقافياً آخر؛ ربطهم

---

(١) «أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ» للأستاذ الدكتور جمال عبد الهادي المصري حفظه الله تعالى: ٦ ـ ١٠.

(٢) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٥٨.

بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية، أي: أعطاهم بعداً زمنياً جديداً قوامه التاريخ الماضي كله من خلال سلسلة الأنبياء المتمادية منذ مبدأ الخلق»[١].

ثانياً: تاريخ منضبط دقيق:

ليس لأمة من الأمم تواريخُ صحيحة منضبطة دقيقة مثل ما لأمَّتنا، بل ليس عندهم عشر معشار ما عندنا (أي واحد بالمئة)، فهذا تاريخنا يُتناقل معظمه بالسند، وليس لأمة من أمم الأرض اليوم سند لتاريخها لا صحيح ولا موضوع، وتاريخنا يمكن أن يحاكمه أيُّ ناقد مدقق؛ إذ هو مؤسَّس على قواعد دقيقة منضبطة، أما الأمم الأخرى ـ من أصحاب الأديان السماوية المحرفة ـ فهم لم يضبطوا تواريخ أنبيائهم دع عنك عظماءهم وفضلاءهم، ولم يصح منها إلا شيء يسير ولا نستطيع أن نعينه غالباً، وكثير من الحوادث التاريخية في هذه الأمة الإسلامية مذكور في كتاب الله تعالى وهو أصح نص في دنيا الناس وبين أيديهم، ومذكور كذلك في صحيح السُّنَّة، ومعلوم كم من الجهود قد بذلت لضبطها وتدقيقها وتصحيحها.

ثالثاً: تاريخ مليء بالتفاصيل المهمة الرائعة:

وهذه ميزة ليست لغيرنا من الأمم، فنحن نعرف من تواريخ عظمائنا وأبطالنا وفضلائنا الكثير الكثير، وننهل من تجارب مَن مات منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة وأحواله ودقائق حياته ما يعيننا على إصلاح عيوبنا والارتقاء بأحوالنا، وهناك كتب كثيرة تكفلت بعرض هذه الروائع، وضبط هذه الدقائق والرقائق، وحفظ تلك الكنوز والوثائق، أما الأمم الأخرى فليس عندها تفاصيل عظمائها القدماء، بل ليس عندها تفاصيل تواريخ أنبيائهم بل أعظم أنبيائهم، فهذا موسى

---

(١) المصدر السابق: ٥٩.



ـ عليه الصلاة والسـلام ـ وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، لا تُعرف دقائق حياته، فلا ندري هل لـه أولاد أو لا؟، وإن كان له أولاد فلا ندري من هم، ثم من هي زوجه؟ وما اسـمها؟ وكيف كانت حياتها معه؟ وكيف كان يعاملها؟ وكيف هي حياته وشؤونه في خاصة نفسه؟ إلى آخر ما هنالك من شؤون الحياة المختلفة، والأمر نفسـه مع نبيّ النصارى عيسـى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإننا لا نكاد نعرف من تفاصيل حياته إلا الشيء القليل، فإذا قارنّا ذلك بما نُقل إلينا من التفاصيل الدقيقة جدًّا لرسـولنا الأعظم ﷺ في كل شـؤون حياته فسيطول عجبنا، ويعظم اعتزازنا بتاريخنا.

وكذلك الشأن في تفاصيل من جاء بعده ﷺ إلى يوم الناس هذا.

رابعاً: تاريخ مليء بالحيوية والتجدد:

إذ كلما خبا ضوء الأمة في مكان سـطع في مكان آخر، فسـقوط الأندلس عُوّض بفتح القسـطنطينية، وضعف الأمة الإسـلامية كلها عقب الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي عُوِّض بقيام إمبراطورية المغول المسلمة القوية في الهند، وبقيام دولة عثمان ابن فودي[1] في نيجيريا وما حولها، وهكذا...

ويبعث الله ـ تعالى ـ فـي كل زمان ومكان مَن يرتقي بهـذه الأمة ويصلها بأمجـاد تاريخها وروعة ماضيهـا، ويتكئ على موروثهـا العظيم لصنع حاضر مضيء ومستقبل مشرق رائع.

---

(١) هو مؤسس سلطنة سـوكوتو في نيجيريا. ولد سـنة ١١٦٨هـ/١٧٥٤م، في بلدة من أعمال جوبير بشمال نيجيريا، ونسـبه في الفولاني أو الفلاته، وهي قبيلة عريقة في الإسلام. درس القرآن العظيم واللغة العربية والفقه، وكان أهم أستاذ له الشيخ جبريل الطارقيّ. بدأ الشيخ بمحاربة البدع والخرافات، وانتشرت دعوته في قبائل إفريقية منها الهوسـا والطوارق، ثم أعلن الجهاد على الوثنيين سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م وجاهدهم في معارك كثيرة حتى انتصر عليهم وأنشـأ دولة في شـمال نيجيريا عاصمتها سـوكوتو. توفي ﷺ سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، وتولّى من بعده ابنه محمد بَلُّو. انظر ترجمته في «عظماء منسيّون»: ٢٧/١ وما بعدها.



خامساً: تاريخ يحمل البشرى لمستقبلنا:

في ثنايا تاريخنا مبشِّرات رائعات، منقولات ومعقولات، تبشر بمستقبل رائع مشرق، وأعني بالمنقولات ما جاء من بُشريات في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي كتب السُّنَّة بالنصر والتمكين، وذلك كقوله تعالى:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

وكقوله تعالى:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٤ - ٦].

وكقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وفي السُّنَّة كثرت المبشِّرات بالفتح كفتح القسطنطينية ـ وقد حصل ـ وفتح روما، وإنا لمنتظرون، وهذا الفتح كائن لا محالة إن شاء الله تعالى، وكقتالنا مع اليهود وانتصارنا عليهم، وقد جاء في ذلك حديث باهر، مُثلج للصدور ولأعدائنا قاهر، فقد قال الصادق المصدوق ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله: هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[1].

(١) «صحيح الإمام مسلم»: كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل...

وأعنـــي بالمعقـــولات ما يفهمه قـــارئ التاريخ من ســـنن الله ـ تعالى ـ في الأقوام، وأنه علـــى مدار تاريخ هذه الأمة الرائع حصلـــت أحوال وحوادث كان يُخشـــى فيها على هذه الأمة من الزوال لكن نورها أشرق من جديد، وضياؤها انتشر بعد ظلام مديد.

فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الأمة ستتجاوز ما يحيط بها اليوم من مكائدَ ومصائبَ، وســـتخرج كالذهب الإبريز إذا أُخرِج من النار، إن شـــاء الله تعالى، وهذا من فضـــل الله علينا، ودليل واحد من أدلَّة كثيرة أنَّنـــا على الحق، وأن الله ـ تعالى ـ لن يخذلنا ولن يُسْلِمَنا، سبحانه وتعالى.

المبحث الثالث: كيفية قراءة التاريخ

للقراءة كيفيات وطرائق عديدة، لا بدَّ من فهمها والعناية بها لمريد الاستفادة من التاريخ، وأوجز ذلك في الآتي:

١ ـ القراءة الشاملة:

إن النظرة الجزئيَّة لأحداث التاريخ تنتج مواقف إزاء تلك الأحداث لا تتفق مع الواقع تماماً، وقد تكون ظالمة لأشخاص ووقائع؛ فمن نظر إلى الدولة العباسية من منظور قسوة النشأة وتتبع الخصوم سيحكم عليها حكماً جائراً، وسيتناسى كل فضائلها الكثيرة، وسيغمطها حقها؛ فهي الدولة التي نشرت الإسلام في أماكن كثيرة، وارتقت الأمة الإسلامية على يدها في سلم الحضارة والثقافة رقيّاً عظيماً، وهي الدولة التي كانت قائمة بشرائع الإسلام وشعائره بدرجة مقبولة إلى حد كبير، حتى أنها لما تدهورت سياسياً عقب انتهاء طور القوة الأول بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧ بقيت تحافظ على الجوانب الأخرى المذكورة آنفاً على وجه مقبول.

ومن نظر إلى دولة بني عثمان في ضوء الوقائع العسكرية فقط فسيحكم عليها حكماً غير دقيق، وهو أنها دولة أفلحت في الجوانب العسكرية فقط وأخفقت في سائر الجوانب الأخرى، وهذا ما أصرَّ عليه ـ ظلماً ـ عدد من المحْدثين، والحق أن لها مزايا عديدة، وأنها هي التي حمت كثيراً من البلاد العربية والإسلامية من طمع الصليبيِّين، ونشرت الإسلام في بلاد لم تَنْعَمْ به من قبل.

ومن نظر إلـى دول آل البيت المنحرفة في ضـوء منجزاتها دون النظر إلى عقيدة القائمين عليها (زيدية أو إمامية أو إسماعيلية باطنية) فسيخطئ في الحكم عليها، وسـيرى أنها دول لها فضل وأثر وسـيعمى عن خطورة تلك الدول في جوانب أخرى، وهكذا...

وكذلك من نظر إلى التاريخ الإسـلامي نظرة القوميين العرب الذين فسروا التاريخ الإسلامي تفسـيراً قوميًّا باطلاً، من نظر إليه هذه النظرة فسيخرج بآراء باطلة وتفسيرات خاطئة[١].

وكذلك مَن فسَّر التاريخ تفسيراً قبلياً فسيقع في نفس النتائج الخاطئة، إذ يُرجع أكثر الأحداث إلى أثر القبيلة وتماسكها أو ضعفها، وهذا أسوأ من صنيع مَن فسَّر تاريخ الإسلام تفسـيراً عروبياً قومياً وأكثر أخطاءً، وأعجب نتائج[٢].

إذاً القراءة الشـاملة التي تنظر إلى التاريخ من منظار واسـع هي المطلوبة، والقراءة الجزئية الضيقة ستنتج آراء وأفكاراً خاطئة.

٢ ـ معرفة كيفية تنـزيل الوقائع التاريخيّة على الأحداث الحاليَّـة:

من المطلوبات المهمـة ـ للاسـتفادة من الوقائع التاريخية ـ استخراج العبر والعظات وإنـزالها على حياتنا المعاصرة على هيئـة قواعد وضوابط، لكن من المطلوب ـ أيضاً ـ التنبُه إلى الآتي أثناء إنجاز هذا العمل المهم:

---

(١) وممن جرى على ذلك المؤرخ العراقي عبدالعزيز الـدوري، انظر «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) وممن صنع ذلك عبدالله العلايلي، وانظر ص٧٤ ـ ٨٤ من المصدر السابق، وفي قراءاته التاريخية تلك خلط كثير وتخبط في البحث والنتائج.



أ ـ معرفة الفارق بين الزمان الماضي والحاضر:

إن ما يصلح لقوم قد لا يصلح لآخرين، وإن ما كان مقبولاً في سياق تاريخي معين قد لا يكون مقبولاً في سياق آخر، وإن ما حَسُن في زمن قد لا يحسن في آخر، وهذا سآتي على تفصيله ـ إن شاء الله تعالى ـ في جزء قادم من هذه السلسلة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» إذا فسح الله ـ تعالى ـ في المدة، ومَدّ في العمر.

قال الدكتور محمد فتحي عثمان رحمه الله[1]:

«من الوهم العتيق أن نعتقد أن التاريخ يزوّدنا بدروس تفيد الأفراد والشعوب بطريق مباشر؛ فإن الظروف التي تحدث فيها الأفعال الإنسانية من النادر أن تتساوى بين زمان وزمان بحيث يمكن تطبيق دروس التاريخ هذه تطبيقاً مباشراً»[2].

لكن هذا الكلام لا ينبغي إلا أن يكون منبّهاً إلى وجوب العناية بملاحظة الفروق حال استلال العبر والعظات وإرادة الاستفادة منها في زماننا هذا، ولا ينبغي أن يصرفنا عن التاريخ جملة، والدكتور لم يرد هذا قطعاً، والله أعلم.

ب ـ الحذر من المبالغات:

في التاريخ كثير من المبالغات في جوانب التعبد والسلوك والزهد والأخلاق، وفي المقادير والكميات والأعداد المذكورة في ثناياه، وهذا الأمر ـ أي: المبالغة ـ يختلف من مؤرخ لآخر، وليس هذا مكان تفصيله فسأعرج عليه ـ إن شاء الله تعالى ـ في جزء آخر من هذه السلسلة، لكن ينبغي على قارئ التاريخ أن يحذر كل الحذر من هذه المبالغات خاصة إن أراد الاستفادة من

---

(١) توفي سنة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م في أمريكا حيث كان يقيم، وهو مصري رحمه الله.

(٢) «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: ٤٦.



تلك الحوادث في مسيرة حياته وحياة مَن يلوذ به، هذا وإنَّ أحسن مَن تعقب كثيراً من تلك المبالغات وسماها مجازفاتٍ هو الإمام الذهبي في كتابه العظيم «سير أعلام النبلاء»، والله أعلم.

وسآتي على تفصيل هذا الأمر ـ إن شاء الله ـ في رسالة قادمة من هذه السلسلة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» ففيها سأوضح ما أريد مقروناً بالأمثلة لخطورة هذه القضية على المسار الإنساني.

ج ـ الحذر من الأخطاء التاريخية:

هناك أخطاء وقع فيها بعض مؤرخي التاريخ، وهذه الأخطاء تختلف باختلاف بواعثها وسياقاتها، فمنها أخطاء يسيرة كضبط بعض التواريخ أو الوهم في بعض الأسماء، وهذه يعرفها ويُعنى بتصحيحها المختصُّون، ولا تكاد تعني العامة في شيء.

ومنها أخطاء جسيمة صعبة؛ كالولوج في مضائق الفتن خاصة فتن الصدر الأول ﷺ بدون إحسان الخروج منها بإحسان تدوينها وضبط وقائعها، فتوقع قارئها في تخبطات كثيرة.

ومنها أخطاء في الانحياز إلى أشخاص دون آخرين بدون باعث إلَّا الهوى، أو المصالح، وذلك نحو كتابة مؤرخ ما يمدح دولة ما بغير حق أو يذمها بدون وجه حق، لم يدفعه لذلك إلا الرغبة أو الرهبة، أو الفهم الخاطئ؛ وذلك كخطأ كثير من المؤرِّخين قديماً وحديثاً في تقويم الدولة المرابطية الجليلة فغضوا من شأنها جهلاً أو قصداً لأغراض فاسدة؛ وذلك كصنيع ابن عِذاري المراكشي[1] الذي أساء جدًّا لدولة المرابطين، وأثنى كثيراً على دولة الموحِّدين، وذلك

---

(١) هو أحمد بن محمد المراكشي، أبو عبدالله، المعروف بابن عذاري. مؤرِّخ أندلسي الأصل، من أهل مراكش. له عدة تصانيف تاريخية. توفي سنة ٦٩٥ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٩٥/٧.

للعــداوة الكبيرة بين الدولتيــن، فقد حطمت دولة الموحديــن دولة المرابطين وورثتها، فمن قرأ تاريخ دولة المرابطين في كتاب ابن عِذاري المراكشي: «البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب» فســيجد انحيازاً واضحــاً، وغَمْطاً كبيراً لتلك الدولة الجليلة دولة المرابطين.

ومنها أخطاء في الفهم لبعض الأحــداث وبواعثها، وذلك نحو خطأ بعض المؤرخين في فهم وتقويم الدول التي قامت على أســاس عقدي باطل كالدولة العُبيدية التي تسمى زوراً بالفاطمية، وكالدولة الصفوية الرافضية[1].

كل هذا مما ينبغي الحذر منه والتوقف في قبوله لا أَن يُســارع إلى استلال عبر وعظات من تلك الحوادث وعرضها على الجمهور[2].

٣ ـ عدم تجميل التاريخ:

يحب كثير من قارئي التاريخ والباحثين فيه أن يُجَمّلوا التاريخ الإســلامي، وهذا لا يصح؛ إذ التاريخ فيه ما يَجْمل ذكره وفيه ما يســوء ذكره، وهذه سُنَّة الله في خلقه، وهكذا هو التاريخ منذ فجر البشرية.

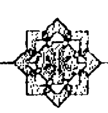
وهناك مؤرخون يُجَمّلون التاريخ، بذكر الحســنات فقط وإغفال الســيئات، وصنيعهم هذا خطأ منهجي واضح، ومما يفعلونه:

أ ـ عدم ذكر ما يسوء من الوقائع وسير الأشخاص، وإغفال كل ذلك تماماً.

---

(١) وهذا كصنيع المقريزي المؤرّخ المصري المعروف في تقويمه الدولة الفاطمية، وسآتي على تفصيل هذا في رسالة قادمة إن شاء الله تعالى.

(٢) في بــاب رد الأخطاء التاريخية ليقــرأ كتاب «أغاليط المؤرّخين» لمفتي الشــام محمد أبو اليســر عابدين، وكتاب الدكتور يوســف القرضاوي «تاريخنا المفترى عليــه»، وفصول من كتاب الدكتور عبدالعليم خضر «المســلمون وكتابة التاريخ»، وكتاب «أباطيل الأباطيل» للأســتاذ حســني شيخ عثمان.



ب ـ أو ذكر ما يسوء مختصراً بدون توسع وانتزاع للعبر والعظات، مما يجعل القارئ في حيرة من أمره ولا يغنيه ما يقرأه ولا يقضي حاجته للمعرفة.

ج ـ أو ذكر ما يسوء مع انتحال الأعذار الكثيرة التي تذهب بأهميَّة الحدث، وتجرّئ الباحثين على مزيد من الاعتذارات السَّمِجة.

هذا وقد كان في الأقدمين بعض هذا الصنيع ـ أي: تجميل التاريخ ـ وقد رأيت شيئاً منه في كتاب الإمام أبي بكر بن العربي[1] «العواصم من القواصم»، على أن كتابه هذا جليل عظيم، أثنى عليه جماعة من أئمة المسلمين.

أما المحْدَثون فبعضهم كتب كتابة عجيبة لا تقبل بحال؛ فمن ذلك: الكتاب الذي صنفه أحدهم بعنوان «الحجاج بن يوسف المفترى عليه»، وهذا دفاع أعمى عن رجل ظالم ولغ في الدماء ولوغاً بلغ مبلغ التواتر، وكان جبّاراً عسوفاً، يأخذ الناس بأدنى شيء وأقله، بل في بعض الأحيان بدون سبب، فمثل هذا دفاع يبغضه الله ـ تعالى ـ ويبغضه المؤمنون، هذا وقد قال الإمام الذهبي في ذلك الظلوم الغشوم:

«أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥ كهلاً وكان ظلوماً، جباراً، ناصبيّاً، خبيثاً، سفاكاً للدماء... قد سُقْتُ من سوء سيرته في تاريخي الكبير وحصاره لابن الزبير بالكعبة، ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين، ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة وتأخيره للصلوات، إلى أن استأصله الله.

فنسبُّه ولا نحبه، بل نبغضه في الله؛ فإن ذلك من أوثق عُرى الإيمان.

---

(١) الإمام العلّامة، الحافظ، القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد، ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٤٦٨هـ، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، توفي سنة ٥٤٣هـ، بفاس منصرفاً من مراكش إلى الأندلس. رحمه الله. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٩٧ ـ ٢٠٤.

وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله»[١].

فهل مثل هذا يُدافَع عنه بعد ذلك، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهناك مَن بالغ في الدفاع عن بني أمية في بعض سقطاتهم وتجاوزاتهم، نعم إن في بني أمية مزايا ونقائص، فدفع النقائص الثابتة عنهم عمل باطل، كما أن غَمْطهم حسناتِهم فعل محرم في شرعنا.

٤ ـ عدم تقبيح التاريخ:

هناك اتجاه عند بعض الكتاب بأن التاريخ الإسلامي كله شر وفتن ولم يسلم منه إلا مدة محدودة زمن الصديق والفاروق رضي الله عنهما أما ما عدا ذلك فليس فيه إلا الفتن والمشكلات، وهذا غلو واضح وتزوير فاضح؛ إذ التاريخ الإسلامي هو تاريخ بشري فيه الخير والشر، وفيه مُدد الهدوء وحوادث الفتن، بل هناك مدد مضيئة في التاريخ الإسلامي أزعم أنها هي الأطول والأكثر امتداداً في التاريخ، وللأسف إن حامل لواء هذه الفرية ـ غالباً ـ هم المتحررون «الليبراليون» واللّادينيون «العلمانيون» والمستشرقون من الكنسيين وغيرهم؛ لحاجة في نفس يعقوب ـ غالباً ـ وهي أنه إذا لم يستطع الصدر الأول أن يعيشوا في أمن واطمئنان وهدوء تحت راية الشريعة فلن يستطيع ذلك مَن يجيء من بعدهم، ومرادهم أن يثبتوا هذا، وأمراً آخر هو أن الشريعة نفسها لا يمكن العمل بها وإن عُمِل بها فلن تجلب الرخاء والأمن.

وهناك آخرون نهجوا هذا النهج ممن تأثر بكتابات المستشرقين ومَن لَفّ لَفّهم وصنع صنيعهم، قال الأستاذ القرضاوي ـ حفظه الله ـ في ثنايا حديثه عن ظلم هؤلاء لتاريخنا، ومَثّل له بتاريخ بني أمية، فبيَّن أن هؤلاء هم من «الأساتذة الأكاديميين المتخصصين في التاريخ، المتأثرين بكتابات المستشرقين ونظرتهم

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٣٤٣/٤.



إلى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والأمة الإسلامية والرسالة الإسلامية مثل يولوس فلهوزن[1] وكتابه «تاريخ الدول العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية»، وكتاب «فان فلوتن»[2] عن «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية»...

وهناك كُتّاب كثيرون داروا في هذا الفَلَك، وأخذوا كل ما وجدوا في الكتب قضية مسلّمة، وحَمّلوا بني أمية أوزاراً ليس عليهم عبؤها، ومن هؤلاء الكاتب المعروف الذي كتب العبقريات الإسلامية المعروفة، وترجم لعدد كبير من الشخصيات الإسلامية وغيرها: عباس محمود العقاد[3] ولاسيما في كتبه: «عبقرية علي»، و«معاوية في الميزان»، و«أبو الشهداء»؛ أي: الحسين ﷺ وغيرها.

ومن باب أولى كتابات طه حسين[4] في التاريخ الإسلامي مثل «الفتنة الكبرى» و«علي وبنوه» وغيرهما.

---

(١) يوليوس فلهاوزن: باحث توراتي ومستشرق ألماني. ولد سنة ١٨٤٤ في ألمانيا، ودرس حتى أصبح خبيراً في التوراة، ودرس العربية وتاريخ المسلمين ليطعن فيهم. توفي سنة ١٩١٨. انظر ترجمته في ويكيبيديا في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) مستشرق هولندي. ولد سنة ١٨٦٦، وتوفي سنة ١٩٠٣. له عدة كتب وتحقيقات في تاريخ المسلمين. انظر المصدر السابق.

(٣) هو عباس بن محمود بن إبراهيم العقاد. مصري. إمام في الأدب. من المكثرين في التأليف مع الإبداع، أصله من دمياط، ولد في أسوان سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م. وعمل موظفاً بالسكة الحديدية، وبوزارة الأوقاف بالقاهرة، ثم معلّماً في بعض المدارس الأهلية، ثم انقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف، له ٨٣ كتاباً. كان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد، وله شعر جيد. توفي بالقاهرة، ودفن بأسوان سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م. انظر «الأعلام»: ٢٦٦/٣ - ٢٦٧.

(٤) هو طه بن حسين بن علي بن سلامة. دكتوراه في الأدب. من كبار المحاضرين. ولد في قرية من مغاغة بصعيد مصر سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م. أصيب بالجدري وهو ابن ثلاث سنين فعمي. بدأ حياته في الأزهر ثم في الجامعة المصرية القديمة. وهو أول من نال شهادة الدكتوراة منها. سافر إلى باريس في بعثة فتخرج في السوربون سنة ١٩١٨، ثم عاد إلى مصر وتدرج في المناصب حتى صار وزيراً للمعارف، ورئيساً لمجمع اللغة بالقاهرة. له عدة كتب. توفي سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. انظر «الأعلام»: ٢٣١/٣ - ٢٣٢. وله عدة آراء خطيرة وكلمات كفرية نسأل الله السلامة، لم يذكرها الزركلي غفر الله له.



ومن ذلك ما كتبه الكاتب اليساري أحمد عباس صالح[١] حول «اليمين واليسار في الإسلام».

وما كتبه عبدالرحمٰن الشرقاوي[٢] عن «علي إمام المتقين» وقد نشره على صفحات الأهرام ثم جمعه في كتاب[٣].

ولا بدَّ عند ذكر تاريخنا من ذكر تواريخ الأمم الأخرى مقارناً بتاريخنا لنعرف أن تاريخنا أفضل من تواريخ جميع الأمم بل ليس بينه وبينها أفعل تفضيل، وهذا أمر لا بدَّ منه؛ إذ إن تاريخنا إذا أردنا أن نحسن محاكمته وتقويم أحداثه فلا بدَّ من إيراد تواريخ الأمم الأخرى في المدة الزمنية نفسها، وبيان ما كان فيها من الحوادث المشابهة لما نريد إيراده، ثم نحكم ونقوِّم بعد ذلك.

والمؤرخ الذي يرى الفارق بين طريقة حكم النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وطرائق مَن جاء بعدهم لا بدَّ أن ينظر إلى الأمر نظرة متوازنة؛ إذ ربما اختلفت بعض طرائق الحكم، وربما وقعت مظالم، لكن المعالم الأساسية للحكم الإسلامي باقية، فالشريعة هي الحاكمة، والقضاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة) والجهاد وغير ذلك من شعائر الإسلام لم يصب بأذى، وبمعنى آخر: إن الخلل الذي أصاب جانباً من السياسة لا ينبغي أن يعمم بسببه الحكم على الجوانب الأخرى المضيئة.

---

(١) يساري ماركسي هرب من نظام عبدالناصر إلى العراق وعاش فيه مدة، ثم انتقل إلى لندن، ثم عاد إلى مصر بعد غياب ثلاثين سنة. وهلك فيها سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م. الترجمة منقولة من شبكة المعلومات بقلم محمود الورداني.

(٢) ولد سنة ١٣٣٦هـ/١٩٢٠م في المنوفية بمصر. تخرَّج في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٣. شغل عدة مناصب في الصحافة ورأس المجلس الأعلى للفنون والآداب. له عدة كتب وروايات ومسرحيات. حاز جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م. توفي سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. «ويكيبيديا».

(٣) «تاريخنا المفترى عليه»: ٩٧ - ٩٨.

وانظر كتاب «أغاليط المؤرِّخين» للشيخ محمد أبو اليسر عابدين ففيه ردٌّ لطائفة من تلك المفتريات.

ومن عــدم الإنصاف في الكتابة التأريخية جمع السـيئات من مدد تاريخية مختلفة وسوقها سياقاً واحداً، وهذا عمل سيءٌ مُغْرض، ومن هذا الباب ما صنعه أحد الباحثين حيـث «قام بتجميع حوادث الاعتقال السياسـي من عدة تواريخ قديمة ومعاصرة ثم أصدرها في كتاب تحت عنوان «تاريخ الاعتقال السياسـي في الإسلام».

ويأتي غيره ويجمع ما تراكم من معلومات عـن الاغتيالات طوال ١٥ قرناً ويصدرها تحـت عنوان «تاريخ الاغتيالات في الإسـلام»، وغيـره عن «تاريخ التعذيب»، وغيره عن «تاريخ السجون»، وغيره عن «حوادث العنف» أو القتل أو الخطف لينتهي المطاف بهـذه الرزمة من الكتب إلى القـول: هذا هو تاريخنا: اعتقالات، اغتيالات، تعذيب، سجون ولا شيء سياسيّاً غير ذلك...

ولا شك أن كل تاريخ تشـعب زمنياً، وعميق الجذور، وممتد جغرافياً فيه ما فيه من حوادث العنف والقتل والتعذيب والاضطهاد والاسـتبداد، ولا يمكن استثناء أيِّ تاريخ في العالم من تلك اللحظات المظلمة سواء في أوروبا أو آسيا أو أمريكا...

ونستطيع أن نجد في كل تواريخ العالم ما يشـبه تلك المحاولات الجزئية والقصيـرة النظر التي شـاءت بقرار ذاتي أن تقـرأ تاريخ الإسـلام من زواياه السلبية»[1].

ولا بدَّ لقارئ التاريخ أن يفهـم أن عصور الظلام في أوروبا هي أزهى عصور الضياء والحضارة عند المسلمين؛ فعند الأوربيين يبدأ عصر النهضة سنة ١٥٠٠م تقريباً، بينما النهضة عندنا بدأت قبل هذا التاريخ بثمانمائة سنة بل تزيد، وهذه المدة يعدها مؤرخـو أوروبا عصوراً للظلام، والعجيب أنهم

---

(١) «المفكرون العرب ومنهج قراءة التاريخ» ٣٢ - ٣٣.

يريدون تعميم هــذا التحديد للمدنية فــي العالم كله!! وقــد وافقهم على تقســيمهم هذا جماعات من المســلمين ممن انساقوا انســياقاً أعمى خلف أولئك، ولا ريــب أن هذا من أكبــر الأخطاء التاريخية التي تــكاد تُعد من المسلّمات البدهية[1]!!

وقد تحدث الأستاذ المحقق محمود محمد الطناحي رَحِمَهُ اللهُ عن مسألة تشويه وتقبيح العلوم الإسلامية، ومنها التاريخ فقال:

«لقد تعرض أبناء هذا الجيل لسيل طاغٍ وموجات متلاحقة من التشكيك في تراثهم وأيامهم: فالشعر الجاهلي غموض وانتحال.

وتفسير القرآن مشحون بالإسرائيليات.

والحديث مليء بالوضع والضعف.

والنحو تعقيدات وتأويلات.

والصرف فروض ومتاهات.

والبلاغة تكلفٌ وأَصْباغ.

والعَروض قيود ودوائر تدير الرأس.

والتاريخ صُنِع للحكام والملوك ولم يرصد نبض الشعوب وأشواقها.

ومن وراء ذلك فاللغة العربية عاجزة عن مسايرة رَكْب الحضارة؛ لقصورها عن التعبير عن العلوم التطبيقية والكونية لأنها لغة شعر وبيان.

وبمثل هذه الألفاظ الخادعة البراقة يســتميلون الشباب ويوقعونهم في قرارٍ عظيم من الافتتان الكاذب والشك الـمُوبِق»[2].

---

(١) وانظر «الثقافة التاريخية»: ١٣٧ - ١٣٩، و«فقه التاريخ»: ٢٥ - ٢٧.

(٢) «الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»: ٨.



٥ ـ القراءة المركَّزة أولاً:

يهاب أكثر قرَّاء التاريخ من دخول المبسوطات الضخمة «الموسوعات» التي ألفت فيه كـ «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير، «والكامل» لابن الأثير، و«تاريخ الرسل والأمم والملوك» لابن جرير الطبري ـ رحمهم الله تعالى ـ وغيرها، وذلك لأمرين:

أ ـ ضخامة المادة وطولها مما قد يصيب القارئ بالملل.

ب ـ كثرة الاستطرادات التي تخرج بالقارئ عن النسق العام للموضوع بحيث ينتهي إلى تشتت وخلط؛ فإن من عادة المؤرخين القدامى أن يخللوا سرد الحدث قصائد شعرية أو تراجم أوحدثاً تاريخياً آخر، وقد يعجز غير الخبير بمناهج تلك الكتب أن يتابع موضوعه الذي يريده.

ولعلاج هذا الأمر يحسن بالقارئ المبتدئ أن يقرأ كتاباً على الطريقة العلمية الحديثة التي تلمُّ بالموضوع بإيجاز نسبي وترتيب منهجي دون استطراد أو تطويل، وذلك نحو كتاب «التاريخ الإسلامي» لمحمود شاكر[١]، ثم يأتي على ما يريد قراءته من كتب المؤرِّخين القدامى.

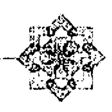
وبعض المؤرخين يوصي باختيار فصل أو باب يتحدث عن موضوع معين، وهذا الموضوع هو أُس مادة الكتاب وأهم ما فيه، فيُقرأ هذا الفصل أو الباب بعناية ودقة كي يُصوّر القارئ موضوع الكتاب في ذهنه فتسلسل أحداثه ووقائعه تسلسلاً سلساً بعد ذلك[٢].

ثم اقرأ هذا الباب أو الفصل مرة أخرى وسجل الأفكار أو الكلمات أو

---

(١) وهو مؤرخ سوري معاصر، ويخلط بعض الناس بينه وبين أبي فهر محمود محمد شاكر الأديب المصري المشهور رحمه الله.

(٢) «فصول مختارة من كتاب التاريخ: مرشد لدراسة متقدمة»: ٥٨٨.



الوقائع التي لم تفهمها، أو أسماء الرجال الذين لا تعرفهم أو لا تعرف من سيرهم إلا القليل، وسجل بعض المَلاحظ حول تسلسل الأحداث التي ترى أنها مهمة، ثم ارجع إلى فهرست الكتاب لعلك أن تجد إجابة لبعض الأسئلة أو الملاحظ التي دونتها، فإن لم تجدها في الكتاب فارجع إلى كتاب آخر ترى أنك ستجد فيه بغيتك[1].

تدريب عملي:

ذكر بعض أساتذة التاريخ طريقة عملية للاستفادة من القراءة في كتب التاريخ فقال:

«فالخطوة الأولى: القراءة، فعلى الطالب أن يقرأ في العصر الذي يريد البحث فيه، فمثلاً إذا أراد البحث في عصر الخلفاء الراشدين، فلكي يلمّ بعناصر هذا العصر عليه أن يقرأ فيه قراءة عامة يلم من خلالها بكل عناصر العصر سياسياً وعسكرياً وحضارياً، وقراءة عامة من المصادر أو المراجع، والأفضل أن يقرأ ملخصاً عاماً لهذا العصر.

وخلال قراءاته هذه يدوّن ما يقتبسه من موضوعات مختلفة يحدد لها الصفحات التي قرأها في ذلك الكتاب ويكتبها أسفل التدوين الذي دونه، لأن ذلك سيفيده عندما يحتاج إلى تفاصيل أكثر لهذا العصر إذا ما بدأ البحث فيه، وبعد أن يتم القراءة، ويتم التدوين لعناصر العصر يبدأ في مراجعة ما كتبه، فيقسم ما كتبه إلى عناصر ويصنف العناصر السياسية ثم العناصر الحضارية، ويفصل ذلك بتقسيم العناصر السياسية إلى أجزاء تشمل السياسة الداخلية لحاكم ما أو خليفة، ثم السياسة الخارجية.

---

(١) المصدر السابق.



ثم يُجَزّئ ذلك أيضاً عندما يجعل للسياسة الداخلية عناصر تشمل السياسة الداخلية تجاه الحكم والإدارة، أو السياســة المالية أو الدينية أو غير ذلك، ثم يقســم السياســة الخارجية إلى علاقات بين دولته والدول الأخرى كيف كانت وسارت، والاتصالات التي دارت بينهما، والمعاهدات والمواثيق وغير ذلك.

كما يقسم العناصر الحضارية إلى أجزاء تتضمن الواقع الحضاري لذلك العصر في ذلك المكان في عهد الحاكم كأن يجعل للحالة الاقتصادية أجزاء من زراعة وصناعة وتجارة، ثم للجانب الاجتماعي من حيث حياة المجتمع وطبقــات المجتمع وعناصره ومســكنه وملبســه ومأكله وعاداتــه وتقاليده وأعياده واحتفالاته، كما يتطرق إلى جــزء آخر يتعلق بالجانب الثقافي، أي: يدرس المؤسســات الثقافية والدينيــة من مدارس ومعاهد ومســاجد لكل طوائف المجتمع من المسلمين وأهل الذمة من يهود ونصارى ومجوس، ثم العلوم التــي كانت تدرس وأشــهر علماء ذلــك العصر وأهــم مصنفاتهم ومؤلفاتهم، وهكذا.

ومن أمثلة ذلك ـ كما أشرنا ـ أن الباحث بدأ بقراءة عصر الخلفاء الراشدين قراءة عامة واستوعب ما قرأه من كل العناصر، ثم يضع نقاط العصر ويتدرج في ذلك حتى تصبح كل عناصر العصر واضحة أمامه، في هذه المرحلة تروقه فترة معينة ثم يختار جزءاً من هذا العصــر، وقد أصبح ذلك في بؤرة اهتمامه، فمثلاً عند قــراءة عناصر عصره وقع اختياره على الفتوحات الإســلامية خارج شــبه الجزيــرة العربية، ووقــع اختياره على فتــح مصر، وبذلك وصــل إلى اختيار موضوع بحثه.

هذا بالنسبة للباحث المبتدئ»[1].

---

(١) «منهج البحث التاريخي واستخدام التقنيّة الحديثة»: د. محمد محمود إدريس ٣٠ - ٣١.

٦ ـ فهم الفرق بين مناهج المؤرّخين القدامى والمحدّثين:

هنـــاك فـــروق مهمة في طرائـــق كتابـــة التاريخ بيـــن المؤرخيـــن القدامى والمحدثيـــن؛ ولا بدَّ من فهم هذه الفروق للاســـتفادة المثلى من قراءة التاريخ، ومن أهم هذه الفروق هي:

أ ـ الأسلوب:

المؤرخـــون القدامى يكتبـــون المـــادة التاريخية ويخلطونهـــا بعاطفتهم وآهاتهـــم الحزينـــة، أو عبارات الإعجاب والإشـــادة، وهذا منتشـــر جداً في كتاباتهم، بينما المؤرخون المحْدثون لا يكتبون بهـــذه الطريقة حرصاً منهم على اتباع المنهج العلمي الخالي من العواطف المصاحبة للمادة المسرودة، لكن في ظني أن أيَّ مـــؤرخ في الدنيا لا يمكن لـــه أن يتخلى عن عاطفته تماماً وهو يكتب، وهذا الذي يُطلق عليه أحياناً فلسفة المؤرخ للتاريخ، فهذه لا ســـلطان لأحد عليها فهي نابعة مـــن عقيدة المؤرخ وبيئتـــه وأحوال أمته، فمهما ادَّعى مؤرخ عدم التحيز لهذه الثلاثة فهو يخادع نفسه، لكن يمكن أن يقال على وجه الإجمال: إن أســـلوب المحْدثين فيه جفاف ويُبس وأسلوب القدامى فيه عاطفة ولين وجمال، وليتضح هذا إليكم هذا النص الذي قدّم به المؤرخ ابن الأثير في كتابه «الكامل» لأحداث غزو التتار للعالم الإســـلامي في القرن السابع الهجري:

«لقد بقيت عدة ســـنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة اســـتعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رِجْلاً وأؤخر أخرى؛ فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟

ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟

فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً.



إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول:

هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله ﷺ آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر[1] ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى مَن قُتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على مَن اتبعه ويهلك مَن خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح؛ فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر[2] وبلاساغون[3]، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى[4] وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره.

---

(١) بختنصر أو نبوخذ نصر. ولد سنة ٦٠٥ قبل الميلاد. وتوفي سنة ٥٦٣ قبل الميلاد. وهو أشهر ملوك الدولة البابلية الحديثة. قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة في الشام ودمّر عدّة ممالك منها مملكة يهوذا، وسبى الكثيرين وحملهم إلى بابل. «ويكيبيديا».

(٢) وهي اليوم مدينة في تركستان الشرقية في قبضة الصينيين، عجل الله فرجها.

(٣) مدينة قريبة من كاشغر وراء نهر سيحون.

(٤) هما اليوم مدينتان معروفتان بهذا الاسم في جمهورية أوزبكستان.



ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان[١] فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلًا ونهباً.

ثم يتجاوزونها إلى الري[٢] وهَمَذان[٣] وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حدِّ العراق.

ثم بلاد أذربيجان وأرانية[٤] ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد النادر في أقلّ من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دَرْبَنْدشروان[٥] فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم.

وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز[٦] ومَن في ذلك الصُّقْع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً.

ثم قصدوا بلاد قفجاق[٧] وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغِياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها.

فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

---

(١) خراسان القديمة تتوزَّع اليوم في عدة دول، وهي إيران وأفغانستان وجنوب تركمانستان، وفي إيران اليوم مقاطعة باسم خراسان: «ويكيبيديا».

(٢) مدينة تاريخية بالقرب من طهران اليوم.

(٣) مدينة تاريخية تقع في إيران اليوم.

(٤) هي موضع في القوقاز اليوم، وانظر «بلدان الخلافة الشرقية» ٢١١ وما بعدها.

(٥) من بناء أنوشروان، وتسمى باب الأبواب، وتقع في داغستان اليوم.

(٦) اللان واحدة من ولايتين تؤلّف بلاد الخَزَر، والولاية الأخرى هي أبخاز، وبلاد الخزر اليوم تقع غرب جورجيا «جرجستان»: وانظر «بلدان الخلافة الشرقية»: ٢١٣.

(٧) هي بلاد قزقستان اليوم.



ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة[١] وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان[٢] وكرمان[٣] ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله؛ فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم؛ فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبْتَلَ بها أحد من الأمم منها هؤلاء التتر ـ قبحهم الله ـ أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(١) غزنة اليوم مدينة مأهولة في أفغانستان.

(٢) بلدة شرق إيران اليوم من أطراف خراسان.

(٣) مدينة في وسط إيران اليوم.

ومنها خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى»[١].

انتهى هذا النقل الجامع بين العاطفة الجليلة وسرد الحادثة بإيجاز، فهو مثير لأشجان القارئ مع حصول الفائدة المتوخاة.

وهذا المنهج في الكتابة ـ الجامع بين العاطفة الجليلة وتوخي الصدق والعدل ـ لا يُمِلُّ القارئَ مهما طالت به القراءة، بل إنه يترك في نفس القارئ مشاعر قوية تهزه وتدفعه إلى التغيير من سلوكه وطرائق تعامله مع المجتمع، بل ربما تدفع به إلى المشاركة في مجتمعه مشاركة نافعة.

قال الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان في مسألة الكتابة التاريخية المشوّقة:

«عَزّ على الأدباء أن يتفلّت التاريخ من قبضتهم ـ وهو زينة دراساتهم ـ فقالوا: إن ما يتصف به رجال العلم من حياد جاف شيء فظيع لا يمكن أن يطيقه التاريخ!!

وإن العلم لا يعطينا من هذا التاريخ إلا العظام المعروقة[٢] التي يكسوها الأدب لحماً وينشئها خلقاً آخر، ومن هؤلاء تريفليان المؤرِّخ الإنجليزي المولود سنة ١٨٧٦ فهو يقول:

«من كان فاقد الانفعال والحماسة فقلّما يؤمن بانفعالات غيره، إنه لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبداً»[٣].

---

(١) «الكامل»: ١٠/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٢) أي: المجردة من اللحم.

(٣) «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: ٣٠.

«والواقع أن المؤرخ الـذي يكتب تاريخاً لا يَلِذّ لأحد يعتبـر مؤرخاً رديئاً بقدر ما يبعثه من إملال، فهو بحكم مهنته مسـؤول عـن أن يدون ـ إلى جانب الأشـياء العادية المعاصرة ـ أكثر حوادث الماضي إثارة، وأن يبتعث الجو الذي وقعت فيه تلك الحوادث، فـإذا ما جاء وصفه لمعركة كأنه تقليب في دليل بائع بنادق، وإذا ما جـاءت قصته التي تصف مغامرة بطل من الأبطال كأنها سِـجِلّ لكاتب رُخص فإنه يكون عند ذلك الحد أخفق في إعادة تصوير الجو المناسب للحوادث»[1].

ب ـ السرد:

المؤرخون القدامى إذا سـردوا المادّة التاريخية المراد الحديث عنها فإنهم غالباً ما يخلطونها بغيرها؛ مثل التراجم؛ وهي سير حياة الأشخاص ـ وهذا كثير في كتبهم ـ والأبيات الشـعرية الكثيرة، والاسـتطرادات التي يخرجون بها عن موضوعهم الذي يسردونه إلى موضوع آخر، ثم يعودون من قريب أو بعيد إلى موضوعهم الذي بدؤوا به، وهذا مرهق لقرّاء التاريخ في عصرنا.

بينما يُحمد للمُحْدثين أنهم ـ لمراعاتهم المنهج العلمي الحديث ـ لا يقعون في هذا الخلط والتشتيت، وتجد كتبهم التاريخية حسـنة السرد وقوية التركيـز على ما يريدون إيراده.

لكن يبقى أن طريقة سـرد القدامى للتاريخ أجمل وأحسن وقعاً في نفوس القراء، ولكل طريقة ميزتها.

ج ـ النقد:

إن النقد لما يُورده المؤرِّخ أمر فـي غاية الأهميـة؛ لأنه بالنقد يطمئن قارئ التاريخ لصحة المـادة التي يقرأها وترتاح نفســه لمتابعة الاطلاع، وعكس هذا

---

(١) «المسلمون وكتابة التاريخ»: ٣٠.



صحيح؛ إذ القارئ للكتاب الخالي من النقد والذي تكثر فيه الروايات الضعيفة أو الأساطير الموضوعة سيعزف عنه وتملّه نفسه.

هذا وإن أكثر المؤرخين المحدَثين يراعون مسألة النقد هذه، ولا يوردون الأساطير والمرويات شديدة الضعف، التي تورط فيها بعض ضعاف قدامى المؤرخين، لكنهم قد يبالغون فيستبعدون الوقائع الممكنة، ويردون الأحداث التي يرون أنها لا توافق ما يعتقدونه ويذهبون إليه.

- أما المؤرخون القدامى فكثير منهم لا ينقد الأخبار التي يوردها، ويعوض ذلك التحقيق العلمي الجيد الحديث للكتب الذي يُنتظر منه نقد الأخبار والآثار نقداً يعوض تقصير المؤرخ في نقدها.

هذا وإن من أعظم المؤرخين القدامى نقداً ـ في ظني ـ هو الإمام الذهبي الذي تتوافر المادة النقدية في كتبه التاريخية خاصة كتاب «سير أعلام النبلاء»[1]، ثم يأتي بعده الإمام ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»، وهذان إمامان كبيران اغترفا من علوم الشرع قدراً عظيماً ساعدهما على إحسان قراءة التاريخ ونقده.

ثم جاء ابن خلدون[2] الذي يعده أكثر مؤرخي العرب والغرب المعاصرين أعظم مؤرخ ظهر في تاريخ البشرية[3]، فأجاد إلى الغاية في

---

(١) هناك كلام طويل في تقويم نقد الإمام الذهبي للمادة التاريخية سآتي به ـ إن شاء الله تعالى ـ في رسالة قادمة في هذه السلسلة أتحدث فيها عن مناهج بعض المؤرخين.

(٢) عبدالرحمٰن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها، ورحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولّى أعمالاً، واعترضته وشايات ودسائس ثم عاد إلى تونس، ثم ارتحل إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم عُزل وأعيد. توفي فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ رحمه الله. وكان فصيحاً، عاقلاً، صادق اللهجة، طامحاً للمراتب العالية، له عدة كتب. انظر: «الأعلام»: ٣/٣٣٠.

(٣) انظر «المسلمون وكتابة التاريخ»: ١٤٦، ٢١٨، ٢٧٥، وانظر «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: ٢٠٠.

مقدمته المشـــهورة، وأتى فيها بمادة نقدية ثرية، اعتمـــد عليها كثير ممن جاء بعده من المؤرخين[١].

وليس النقد فقط هو المراد، إنما المراد هو النقد القائم على أسس شرعية صحيحة، وهذا لا يقوى عليه إلا مؤرخ له حظٌّ وافر من العلوم الشرعية.

وقد كان أكثر المؤرخين القدامى علماء شرعيين؛ فلذلك كانت كتاباتهم موثقة ومعتدلة إلى حد كبير، فالإمام الطبري صاحب «تاريخ الأمم والرسل والملوك» كان إماماً مجتهداً عارفاً بالفقه والحديث والتفسير واللغة بل كان إماماً في كل ذلك.

والإمام الذهبي صاحب الكتب التاريخية الكثيرة، والإمام ابن كثير صاحب «البداية والنهاية» كانا متضلعين من علوم الشريعة واللغة.

وابن خَلِّكان[٢] صاحب «وفيات الأعيان» كان قاضياً.

والصفدي[٣] صاحب «الوافي بالوفيات» كان عالماً بالشرع واللغة.

---

(١) انظر «المسلمون وكتابة التاريخ»: الفصل الثالث بعنوان «منهجية نقد الرواية التاريخية عند ابن خلدون».

(٢) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكيّ الإربلي، أبو العباس: المؤرخ الحجة، والأديب الماهر، صاحب «وفيات الأعيـــان وأنباء أبناء الزمان» وهو أشـــهر كتب التراجم. ولد في إربل ـ بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي ـ ســـنة ٦٠٨هـ/١٢١١م، وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولَّى نيابة قضائها. ســـافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام، وعزل بعد عشر ســـنين، فعاد إلى مصر فأقام سبع ســـنين، ورُدّ إلى قضاء الشـــام، ثم عزل عنه بعد مدة. ولي التدريـــس فـــي كثيـــر مـــن مـــدارس دمشـــق، وتوفـــي فيهـــا فدفـــن في ســـفح قاســـيون ســـنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م رحمه الله. يتصل نسبه بالبرامكة. انظر «الأعلام»: ٢٢٠/١.

(٣) هو خليل بن أيبك بن عبدالله، صلاح الدين الصفدي، أديب بارع، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد بفلســـطين ســـنة ٦٩٦هـ وإليها نســـبته، وتعلم في دمشـــق، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان، وتولَّى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها عام ٧٦٤هـ وكتب الخط الجديد، وقال الشعر الحســـن، وكان محبباً إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة، له زهاء مائتـــي كتاب في التراجـــم والتاريخ واللغـــة والأدب وغيرها. رحمه الله. انظر: «الأخبار العلئات من الوافي بالوفيات»: ١٠/١.

وكذلك الإمام ابن حجر العسقلاني[١] وكان قد صنَّف عدة كتب تاريخية.

والإمام السخاوي كذلك، والإمام السيوطي[٢] لا يخفى كم ألّف من كتب تاريخية كثيرة، والإمام يعقوب بن سفيان الفَسَويّ[٣] صاحب «المعرفة والتاريخ»، وهكذا...

- أما المؤرخون المحدثون فلا أعلم أن أحداً منهم عالم شرعي معتبر معروف، وبعضهم كان عالماً باللغة والأدب مثل الأستاذ محمود محمد شاكر المصري.

وأرى ـ والله تعالى أعلم ـ أنه لا بدَّ لمن يريد التصدي لنقد الحوادث التاريخية أن يحوز قدراً جيّداً من الثقافة الشرعية يستطيع به أن يميز الصالح من الطالح، ويحسن به الانتقاء والاختيار.

والحد الأدنى أن يكون عارفاً لطرائق تمييز الأخبار الصحيحة من السقيمة بموازين أهل الحديث، وأن يكون عارفاً بالحلال والحرام على وجه الإجمال وليس التفصيل[٤].

---

(١) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، حفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنَّفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة ٨٥٢ رحمه الله. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/٣٦.

(٢) هو الإمام جلال الدين عبدالرحمٰن بن محمد السيوطي المصري. كان عالماً مجتهداً، وجرى بينه وبين علماء عصره خلافات كثيرة بسبب دعواه الاجتهاد. توفي في القاهرة سنة ٩١١هـ رحمه الله. انظر: «شذرات الذهب»: ٨/٥٥.

(٣) يعقوب بن سفيان بن جُوان الفارسي من أهل مدينة فسا ولد في حدود عام ١٩٠هـ ومات بفسا سنة ٢٧٧هـ رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»١٣/١٨٠ ـ ١٨٤.

(٤) سيأتي تفصيل لهذا ـ إن شاء الله ـ في الرسالة القادمة الثانية بعنوان «إعداد المؤرّخ الثقة».



٧ ـ البعد عن المزالق التاريخية:

في التاريخ العديدُ من المزالق التي ينبغي عدم التركيـز عليها، وعلى رأس ذلك الفتن التــي وقعت بين الصحابــة ﷺ جميعاً فقد كان الســلف يتجنبون الخوض فيها ويقولون: هي فتنة جَنّب الله أيدينا منها فنكف ألسنتنا عنها، وكانوا يوصون في الكتب التي يكتبونها لبيان العقيدة الصحيحة بقولهم فيها: «ونكف ألســنتنا عما شــجر بين أصحاب رســول الله ﷺ»، فأخبار الفتن هــذه ينبغي الإعراض عنها تماماً.

- وكذلك يكف طالب التاريخ عما وقع من بعض أصحاب رسول الله ﷺ من أمــور مرجوحة فيعرض عنها ولا يتوســع في عرضهــا أو ذكرها، فالصحابة كلهم عدول ﷺ لكن لا تعني العدالة عدم الوقوع في الخطأ، وأخطاؤهــم قليلة مغمورة فــي بحر حســناتهم ﷺ، والأجمل بطالب التاريخ أن يبتعد تمامــاً عن هذا الموضوع المثيــر لأمور هو في غنى عنها.
- وكذلك يكف عن ذكر بعض ما ورد في ثنايا بعض كتب التاريخ من مفاسد خلقية وسلوكية مثل الزنا واللواط وشرب الخمر، ومثل هذا يكثر في كتب معيّنة مثل «الوافي بالوفيات» للصفدي، ومثل «خلاصة الأثر في أهل القرن الحادي عشــر» للمُحِبّي[1]، إلى آخر هذه الكتب التي تــورط مؤلفوها في إيراد مثل هذا الذي يفُسد الأخلاق ويضر بدين المرء.

---

(١) محمد أمين بن فضل الله بن محب الله المحبي، الحموي الأصل، الدمشــقي: مؤرخ، باحث، أديب. عُني كثيراً بتراجم أهل عصره، فصنَّف «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» و«قصد السبيل بما في اللغة من الدخيل» على حروف الهجاء، بلغ به الميم، وله ديوان شــعر. ولد في دمشق سنة ١٠٦١هـ/١٦٥١م، وسافر إلى الآستانة وبورصة وأدرنة ومصر. وولي القضاء في القاهرة، وعاد إلى دمشق فتوفي فيها سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٤١/٥.

٨ ـ الاطّلاع على كتب التاريخ الحديث:

وهذا هو البحر المتلاطم الخِضَمّ، والمنهل الأكبر الأعظم، وهو الذي ينبغي أن يتريث المرء طويلاً قبل الخوض فيه والوقوف على دقائقه وتفصيلاته؛ وذلك لتشعبه وكثرة أحداثه كثرة هائلة.

ويمكــن اعتبار الخط الزمنــي الفاصل بين التاريــخ الحديث والتاريخ الوسيط هو الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١١هـ آخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشــر الميلادي: ١٧٩٩ - ١٨٠١، فمنذ ذلك التاريخ مرَّ على العالم الإســلامي أحداث ضخمة وكثيرة جداً، ففي القرنيــن الفائتين وقع الاحتلال لأكثر بلاد الإسلام فيما يعرف خطأ بـ «الاستعمار» وهو استخراب وليــس اســتعماراً، وكذلك ســقطت الخلافــة، وتكوَّنــت كل الجماعات الإسلامية، ونشأت المذاهب العقدية الضارة الجاهلية مثل الشيوعية والقومية واليسارية والاشتراكية والوجودية والبعثية وغيرها، ونشأت الدول الإسلامية بحدودها المعروفة اليوم حتى بلغت قرابة الســتين، وحُكِم في أكثرها بغير ما أنـزل الله في ســابقة تاريخية ليس لها نظير في ديار الإسلام، وبرز رجال عظماء ذادوا عن حمى الدين، وفي الوقت نفســه برز رجال كان لهم أســوأ الأثر على الإســلام، وقامت حربــان عالميّتان هلك فيهما أكثر من ســتين مليوناً إلخ...

ولا بدَّ أن يعــرف المريد القــراءة للتاريــخ الحقائق التالية حــول العصر الحديث:

١ ـ ليس هناك كتاب تاريخ واحد جامع اشــتمل على التاريخ الحديث كله، بل إن أكثر أحداث التاريخ الحديث مفرقة في عدة كتب.

٢ ـ هناك أحداث تاريخية كثيرة لم تدون إلــى الآن، خاصة الأحداث المتعلقة بنشوء الدول.

٣ ـ هناك أحداث تاريخيــة كثيرة دُوِّنت خطأ؛ جهــلاً، أو نفاقاً ومداهنة، أو مداراة.

٤ ـ هناك أحداث تفرد بكتابتها المحتلُّون لبلادنا ـ تقريباً ـ أو أنهم أتلفوا كل كتابة ســوى كتاباتهــم؛ ومن أقــرب الأمثلة على ذلــك التاريخ المفصل لإندونيسيا؛ فقد احتلَّها الهولنديون ثلاثة قرون تقريباً فطمسوا التاريخ، ونفوا أبطــال الملايو ورموزهم إلى جنــوب إفريقيا، وقتلوا آخرين، فلم يبق من التاريخ الطويل لتلك البلاد ســوى ما كتبه هؤلاء المستشرقون ـ وهم غير مؤتمنين في الجملة ـ ونِتَف قليلة كتبها أهل البلاد بلغتهم الأصلية وبحروفها العربية التي لم تَعُد يكتب بها اليوم، وهذه النتف لا تروي ظمأ المتعطشــين لمعرفة تواريــخ تلك البلدان على التفصيل.

وقس على ذلك ما كتبه الفرنســيون عــن بلدان إفريقيا الســوداء، وما كتبه الروس عن القوقاز وتركستان الغربية، وما كتبه الصينيون عن تركستان الشرقية، إلخ...

٥ ـ هناك أحداث وقعت في الدول الإســلامية البعيــدة جغرافياً عن «دول المركز» ـ وهي جزيرة العرب ومصر والشــام والعــراق ودول المغرب العربي وتركيا وإيران ـ وأحداث وقعت في بلاد إسلامية هامشية ليس لها أثر في أحداث العصر، وبسبب ذلك أُهمل كثير من تلك الأحداث في ذينك الصنفين من الدول فلم يــدوّن، أو دُوّن ففقد، أو هو موجود لكن لا يُدرى أين هو.

ـ لذلك كله كان اســتيعاب أحداث العصر الحديث أمراً أقرب إلى العُسْر منه إلى اليســر، وفي بعض المواضيع يقترب من كونه مســتحيلاً، لكن هناك بعض الكتابات المقربة للتاريخ الحديث من أهمها:



أ ـ كتابات الأستاذ محمود شاكر ياسين[١] عن دول الإسلام الحديثة، وهي سلسلة موجزة جيدة، وله كتاب مهم في باب آخر من أبواب التاريخ الحديث يوجز فيه كثيراً من الأحداث والوقائع وهو «الثقافة التاريخية».

ب ـ «معالم تاريخ الإسلام المعاصر» للأستاذ أنور الجندي[٢] وهو كتاب جيد إلا أنه لم يذكر مصادره ومراجعه فيه كعادته، وله كتب أخرى أيضاً في هذا الباب.

ج ـ كتاب «حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوثروب ستودارد، مع الحواشي النافعة جدّاً للأمير شكيب أرسلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

د ـ كتابات الأستاذ أحمد شلبي في التاريخ الحديث، وهي قليلة لكنها نافعة[٣].

هـ ـ كتاب الأستاذ يوسف القرضاوي: «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا».

و ـ بعض كتابات الأستاذ عماد الدين خليل، وتمتاز بالتحليل العميق واختيار الكليات.

ز ـ بعض كتب الأستاذ علي الصلابي خاصة كتابه عن السنوسية.

وتلك الكتب كلها ليست سوى قطرة من بحر التاريخ الحديث.

---

(١) هو أستاذ سوري تضلّع من التاريخ وله فيه كتابات كثيرة جيدة، وقد جاء إلى الرياض فدرّس فيها، ولا يزال حيّاً، حفظه الله تعالى ونفع به.

(٢) أستاذ مصري مؤرّخ، له أكثر من مائتي كتاب بعضها يوصف بأنه موسوعة، وقد ظُلم الرجل ولم يوفَّ حقه، لكن أرجو أن يكون جزاؤه عند الله ـ تعالى ـ وافياً، وقد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

(٣) وقد نقدت بعض كتاباته في السيرة النبوية في كتابي «جهود المؤرّخين المحدّثين في كتابة السيرة النبوية» فانظره إن شئت.

٩ ـ فهم بعض المصطلحات والتعبيرات التاريخية المهمة:

قد كثر في كتب التواريخ القديمة والحديثة ذكر بعض المصطلحات والتعبيرات المهمة التي تُعد مفيدة مساعدة في فهم وقائع التاريخ، ومن هذه المصطلحات:

١ ـ نظام الالتزام:

ويُعنى به ذلك النظام الذي وضعته دولة ما في تحصيل خراج الأرض والضرائب المتعددة من الناس، وعادة ما يقوم هذا النظام على الشدة والقسوة والظلم، وقد سبب خراباً للممالك وهيأ البلاد الإسلامية للسقوط في براثن المحتل المستخرب.

٢ ـ العصور المظلمة:

ويُقصد بها العصور التي كانت أوروبا فيها ترزح تحت نِير الجهل والتخلف، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت تلك العصور أجمل وأحسن مدد التاريخ الإسلامي ففيها كانت البعثة النبوية الجليلة العظيمة، وفيها كان ظهور الرجال العظماء في مدة السلف في القرون الثلاثة الأولى وبعدها، وفيها عَظُم شأن الحضارة الإسلامية الجليلة، فمن خلط بين الأمرين وأطلق على تلك المدة العصور المظلمة فقد أساء التصور والتعبير، وخلط خلطاً بيّناً.

٣ ـ عصر التنوير:

وهذا مصطلح مبهم، فإن أردنا بالتنوير الارتقاء في سلم الحضارة المادية فلا بأس، أما إن أردنا بالتنوير الثورة على الثوابت الإسلامية، والأخلاق فهذا غير مسلَّم، وللأسف فإن أكثر من يحتفل بعصر التنوير إنما يريد به ما حدث في أوروبا من ثورة على الدين والأخلاق والثوابت، ويريد أن يُنـزل ذلك على بلاد الإسلام!! في مغالطة تاريخية واضحة.

٤ ـ مجموعة مصطلحات حديثة نسبيّاً تتعلق بطرائق الحكم مثل: النظام الإقطاعي، الرأسمالية، الشيوعية، الاشتراكية.

ومصطلحات تتعلق بمسار الفكر وطرائق الحياة نحو: الاستبداد، الرجعية، التحرر «الليبرالية»، والتطرف، الاستنارة، المحافظة، المركزية، البيروقراطية إلخ... ففهم تلك المصطلحات أمر لا بدَّ منه عند قراءة كتب التاريخ الحديثة[١].

١٠ ـ الحذر من كتابات أكثر المستشرقين ومَن تابعهم من المسلمين:

أخذ العالم الإسلامي في الانحطاط والتدهور منذ بدايات القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وقد استلم الراية الغربيون الذين كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً في نهضتهم التي ابتدأت منذ أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وأخذ الغربيّون في دراسة الشرق الإسلامي بنية غزوه وتدمير قوته ونهب ثرواته، وسميت تلك الدراسات بالاستشراق، وأصحابها بالمستشرقين، وكان أكثر هؤلاء تدفعهم دوافع كنسية أو سياسية، وفي أكثر الأحيان يختلط الدافعان فلا يتميزان أو يكون أحدهما وهو الديني ستاراً للسياسي.

وقد تميَّزت تلك الدراسات بالجدة والقوة والمثابرة على الوصول إلى الهدف لكنها كانت ـ في أكثريتها الساحقة ـ توصف بقلة الإنصاف، ولَيِّ عنق الحقيقة، والاعتساف في الأحكام، وابتسار النصوص، وتأويلها، والاكتفاء ببعضها عن بعض، كل ذلك قام به أولئك المستشرقون على مدار أربعة قرون تقريباً[٢].

---

(١) ليُرجع في هذا إلى «الموسوعة الميشرة في الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة» وهو كتاب من مجلدين من إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وكتب عديدة بعنوان «القاموس السياسي».

(٢) يعيد بعض الباحثين تاريخ الاستشراق إلى ألف سنة خلت يوم كان الغربيون يستفيدون من حضارة الأندلس، انظر «المستشرقون والتاريخ الإسلامي»: ص٢٨ وما بعدها.



فلمَّا احتلُّوا بلادنا اســتطاعوا أن يبثُّوا تلك الدراسات فينا عن طريق تلاميذ اصطنعوهــم وربوهم على أعينهــم حتى صاروا لا يتكلمون إلا بألســنتهم ولا ينظرون إلا بأعينهم، ومن سلم من أولئك من هذا فإنه لم يسلم من الانبهار بهم إلى الحد الذي اختلطت فيه الحقيقــة عنده بالأكاذيب والظلمات بالنور، وقليل من الباحثين المســلمين في تلــك الحِقبة مَن ســلم من أولئك المستشــرقين ودراساتهم الخبيثة في وسائلها ومقاصدها.

واهتمَّ كثير من المستشــرقين بعلم التاريخ بل صرفوا فيــه أكثر جهودهم، وألَّفــوا فيه مؤلفات كثيــرة، وحققوا عشــرات من كتب التاريخ الإســلامي[١]، وحرصــوا فيما ألفوا وحققوا ـ إلا قليلاً منهم ـ على وضع الســم في الدســم، والخَلّ في العســل، وتابعهــم على ذلك جماعــات من الدارســين والباحثين المسلمين، لذلك كله وجب على قارئ التاريخ أن يتنبَّه لهذا، وألا يغترّ بأولئك الذين لبسوا مُسوحَ العلم وادَّعوا الإنصاف والتحقيق العلمي وهم من كل ذلك بمنأى[٢]، على أن بعضهم له دراســات جليلة، وأعمال جادة ينبغي الاســتفادة منها، وقليل من المستشرقين من هداه إنصافه في عمله ورغبته في الحقيقة إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه[٣][٤]:

«لا شك أن للاستشراق دوراً إيجابيًّا يتمثل بالخصوص في استخدام الطرق والمناهج العلمية، لكن الاستشــراق لم يدرس التاريخ الإســلامي من الداخل

---

(١) انظر «المنهج في كتابات الغربيين»: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) من الكتب التي ردت على أولئك: «حقائق الإســلام وأباطيل خصومه» للأستاذ عباس بن محمود العقاد، وكتاب «الإسلام بين الإنصاف والجحود» للأستاذ محمد عبد الغني حسن.

(٣) انظر أسماءهم وبلدانهم في كتاب «المستشرقون والتاريخ الإسلامي»: ١٠٢.

(٤) انظر المصدر الســابق: للدكتور علي الخربوطلي، وقد أجاد في كتابــه هذا على صغر حجمه لكن كان فيه أخطــاء ـ يعرفها المختصون ـ في الحكم على بعض الأعمال والأشــخاص، وانظر كتاب «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي» للدكتور عبد العظيم محمود الديب رحمه الله، وهو كتاب جيد في بابه، وانظر كتاب الأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله «الاستشراق والمستشرقون».



ـ كواحد من أهله ـ ولكن من الخارج؛ أي: دراسة مجردة من العاطفة أو التعاطف مع صانعي ذلك التاريخ، ونظراً لخلفيات دينية وحضارية معينة فإن الاستشراق قد ساهم في تشويه حقيقة المسار الذي اتبعه التاريخ الإسلامي، ومن مشجعات هذا التشويه غياب العقل الإسلامي الذي غيَّبه الاستشراق، فقد كان المسلمون عندئذ في مرحلة التخلف. ..

ومن الطبيعي أن يتأثر مثقفو المسلمين بمدرسة الاستشراق وتفسيرها للتاريخ الإسلامي؛ لأن أولئك المثقفين قد تتلمذوا هم أنفسهم على يد المستشرقين من قريب أو بعيد فتأثروا بمناهجهم وأحكامهم. ..»[1].

والغريب أن بعض المستشرقين ينكر على المنصفين منهم إنصافه، وهذا عجيب من قوم يدّعون الإنصاف، وطلب الحق، والتجرد من الهوى، لكنها شِنشِنة عرفناها من أَخْزم، وطريقة مجربة من أولئك الذين يَشْرقون بالإسلام وأهله:

«انتقد أرنولد زميله في الاختصاص ريتشارد سيمون بأنه كان إيجابيّاً أكثر مما يجب في حديثه عن تاريخ الدعوة الإسلامية، كذلك انتقد عدد من المستشرقين مونتجمري وات[2] في كتاباته عن سيرة الرسول ﷺ.

ورغم عدد من النقاط السلبية في كتاب «حضارة العرب» للمستشرق لوبون[3] فإن عدداً من المستشرقين انتقده بسبب تعبيراته الإيجابية المتعاطفة مع المسلمين»[4].

---

(١) «حوارات» أبو القاسم سعد الله، مؤرّخ جزائري: ٩٨.

(٢) وليم مونتجمري وات مستشرق بريطاني وأستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي بجامعة أدنبره في اسكتلندا. ولد سنة ١٩٠٩، وتوفي سنة ٢٠٠٦، ومن أشهر كتبه: «محمد في مكة»، و«محمد في المدينة». «ويكيبيديا». شبكة المعلومات. الإنترنت.

(٣) طبيب مؤرخ فرنسي عُني بالحضارة الشرقية، وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب. له عدة كتب عن المسلمين وغيرهم. ولد سنة ١٨٤١، وتوفي سنة ١٩٣١ «ويكيبيديا». شبكة المعلومات.

(٤) «قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي»: ١٠.

ولقد انتقد اربراي ومونتجمري وات مستشرقةٌ من الجيل الجديد: باتريشيا كرون لكتاباتهما في تاريخ الإسلام مشككةً بالمصادر، محرفةً تفسير النصوص، منتهية بتخريجات لا تستند إلى أساس تاريخي.

ولم يتورع سارجنت من القول بأن مصير كتبها إلى مزبلة التاريخ»[1].

وما زال هذا النقد الخاطئ موجهاً إلى المنصفين من المستشرقين إلى يوم الناس هذا؛ فهذا مدير مركز الدراسات العربية المعاصرة مايكل هدسون من جامعة جورج تاون في واشنطن يشير إلى حملات النقد الحادِّ التي وصلت إلى حد التجريح المعادية للمركز، ويؤكد بأن المركز سيواصل بحوثه للتعريف بالعرب بصورة أقرب إلى الواقع مما أنتجته وتنتجه الدراسات الاستشراقية غير الموضوعية[2].

وقد حاول المستشرقون ـ من الكَنَسِيّين وغيرهم ـ تقبيح تاريخنا بكل ما أوتوا من قوة وذلك لأغراض عديدة، وفي ذلك قال الأستاذ محمد قطب حفظه الله:

«يحرص المستشرقون ـ كما قلنا ـ على تشويه معالم التاريخ الإسلامي عامة لأكثر من سبب واحد، فهم أولاً يشعرون بالغيظ من اعتزاز المسلم بإسلامه أو ما يمكن أن نسميه «استعلاء الإيمان»، يقول توينبي[3] في محاضرة له عن الإسلام والغرب: من المؤكد أننا لم نكن نحب التركي التقليدي المسلم الذين كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من عَلٍ، وبما أن التركي التقليدي القديم كان يعدُّ نفسه من طينة خاصة حاولنا أن نحط من كبريائه بتصوير هذه الطينة الخاصة شيئاً ممقوتاً»[4].

---

(١) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أرنولد توبيني. ولد سنة ١٨٨٩ في لندن، وتوفي سنة ١٩٧٥. وهو من أشهر مؤرخي الغرب: «ويكيبيديا»: شبكة المعلومات. الإنترنت.

(٤) «كيف نكتب التاريخ الإسلامي»: ١٢٦.



وفي هذا النقل اعتراف صريح صحيح بما جرى من تشـويه لتاريخنا على أيدي هؤلاء ليس له نظير في تواريخ الأمم.

ثم قال الأستاذ محمد حفظه الله:

«ثم إن للمستشـرقين هدفاً آخر من تشـويه معالم التاريخ الإسـلامي إلى جانب قتل «اسـتعلاء الإيمان» الذي يثير حفيظتهم؛ لأنـه يصعب مهمة القضاء على شخصية المسلمين وتمييعها، ذلك الهدف هو محاولة القضاء على الصحوة الإسلامية الخطرة، التي تؤذن بعودة الإسلام إلى الوجود والسيطرة كما كان من قبل، وهو أشد ما تفزع منه الصليبية والصهيونية...

ولما كانت أمجاد التاريخ الإسـلامي من أشـد الأدوات التي تسـتخدمها الدعوة الإسـلامية تأثيراً في وجدان الناس؛ لأنها تذكرهم بهذا التاريخ العظيم الذي انقطعوا عنـه فتحفزهم إلى محاولة اسـتئنافه من جديـد، فمن الطبيعي بالنسـبة لأصحاب المخطط ـ ولجهازه الثقافي بصفة خاصة ـ أن يحرصوا على تشويه ذلك التاريخ لعلهم يبطلون مفعوله بالنسبة للدعوة الجديدة. .. ثم يجيء المؤرخون العرب فيأخذون سـمومهم بلا تحفظ فرحين مستبشـرين أن وقعوا على تلك الكنوز التي كشفت الغاشية عن عيونهم فأبصروا ما كان خافياً عليهم من حقائق التاريخ، وقد يغرهم ما تلجأ إليه المدرسـة الحديثة من المستشرقين من مزج السم بالعسل فيظنونهم مخلصين للحق، نزيهين نزاهة علمية فيأخذون عنهم بلا تحفظ»[1].

والخلـط الكبير الـذي وقع فيه المستشـرقون بقصد وتصميـم ـ في أكثر الحالات ـ إنما هو ناتج عن غرور، وتصور خاطئ أن الحضارة الغربية لم يكن مثلها حضارة على مدار تاريخ الزمان:

---

(١) «كيف نكتب التاريخ الإسلامي»: ١٢٦.



المستوى الحضاري الذي اعتادت عليه أوروبا الغربية ابتداء من عصر النهضة والذي امتاز بتفوّقه المادي والحضاري أوجد عقدة الاستعلاء لدى بعض مفكري أوروبا ومنهم بعض المستشرقين الذين تناسوا المستوى الحضاري الواطئ الذي كانت عليه مجتمعاتهم في العصور الوسطى، بل إنهم لم يتحملوا حتى التفكير في حضارات كانت أرقى منهم ماديّاً وروحيّاً، يقول المستشرق الروسي بارتولد[1] معترفاً:

«إن الأسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي تعتبر أوروبا في كل العصور تحتل الأهمية العالمية سياسياً وحضارياً كالتي نتمتع بها الآن».

لقد كانت النتيجة بقدر تعلق الأمر بحركة الاستشراق ظهور فئة من المستشرقين تحمل فكراً لا يؤمن إلا بالقهر والسيادة والتميز العرقي والهيمنة الثقافية دون الاعتراف بالتبادل الفكري أو الأخذ والعطاء بين الحضارات المتنوعة، وقد بدا ذلك واضحاً في تفاسيرهم للتاريخ والحضارة العربية الإسلامية. .. وفي هذا الشأن يعترف أحد المستشرقين المعاصرين قائلاً: «ولا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلَّفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الهوامش المرصوصة بالأبحاث العلمية».

إن هذه الحقيقة هي التي تفسر هفوات بعض المستشرقين الذين عُرفوا بالموضوعية والتجرد، ذلك أن المستشرق وبسبب من ثقافته وبيئته المشبعة بروح العداء للإسلام لا بدَّ أن يشتطَّ شعوريّاً أو لا شعورياً في بعض أحكامه، فيجترّ بعض مظاهر الصورة المشوهة للإسلام من تراثه الأوروبي المتراكم عبر القرون»[2].

---

(١) فاسيلي بارتولد ولد سنة ١٨٦٩. توفي سنة ١٩٣٠: «ويكيبيديا». شبكة المعلومات. الإنترنت.

(٢) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٤٩ - ١٥٠.

ثم جاءت الداهية الدهياء حين ضُمنت تلك الأكاذيب الاستشراقية الكنسية مناهج المسلمين فضللت أكثر الأجيال المسلمة، وشوّهت فهمها لتاريخنا، قال الأستاذ محمود شاكر ياسين:

«في المرحلة التي طغى فيها الأوروبيون ثم الأمريكان على الأمصار الإسلامية عسكرياً وفكرياً، ووضعوا لأهلها المناهج الدراسية، وألحقوهم بهم علمياً واجتماعياً أخذوا بنبش ما دوّن الأعداء والحاقدون والمرجفون وضمنوا[1] المناهج إضافةً إلى ما سجلوه عن التاريخ النصراني والفكر المادي بصورة مشرقة مخالفين العلم والحقيقة والواقع، ومع هذا الأسلوب التعليمي كانت وسائل الإعلام تردد ذلك حتى غدا بعض المسلمين تبعاً لثقافة أوروبا وأمريكا»[2].

انحراف كثير من المؤرِّخين المسلمين المعاصرين:

هناك كثير من المؤرخين المسلمين انحرفوا في كتاباتهم التاريخية، وابتعدوا عن الصواب، ولذلك أسباب منها:

١ ـ ضعف الالتزام بدين الإسلام أو انعدامه تماماً، والارتماء في أحضان المذاهب القومية واليسارية وغيرها، وهذا أورثهم قصوراً في الفهم والتصور، فخرجوا بسبب ذلك بنتائج خاطئة أثناء دراستهم للتاريخ وتصديهم له.

٢ ـ لم يجمع أولئك المؤرخون بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية على وجه يضمن لهم التوازن في الفهم والتصور، والارتباط بالمنهج الإسلامي في فهم التاريخ.

---

(١) لعلها: وضمنوها المناهج.

(٢) «الثقافة التاريخية»: ٧ ـ ٨، وفي السياق ضعف لكن المعنى مفهوم.



٣ ـ الانهزام التام أمام الحضارة الأوروبية والانبهار بمنجزاتها، والشعور الخاطئ بالقصور المنهجي الإسلامي إزاء المناهج الغربية، وهذا يجعل المؤرخ مردِّداً ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ لأفكار المؤرخين الغربيين ودراساتهم، ويضعف تماماً الاعتزاز بالمناهج الإسلامية في الدراسة والبحث.

٤ ـ المتابعة لمناهج المستشرقين متابعة عمياء في كثير من الأحيان، مما ينتج أخطاء فادحة.

ومن الأمثلة على هذا الدكتور محمد حسين هيكل(١) رحمه الله في كتابه «حياة محمد» ﷺ فقد ذكر في المقدمة بوضوح لا لبس فيه أنه متابع لأولئك، وقد أخطأ أخطاء كبيرة في كتابه هذا بسبب متابعته لمنهج مَن ذكرهم في مقدمته من المستشرقين.

١١ ـ إحسان التعامل مع تاريخ آخر الزمان:

وهذه قضية مهمّة جدّاً؛ فقد زلّت بها أقدام، وضلّت فيها أفهام، وقصرت فيها ألسنة وطالت أخرى!! وهناك جملة من القضايا في هذا الباب منها:

ظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسى بن مريم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وغير ذلك من أحداث وعلامات آخر الزمان واقتراب الساعة أُسيء فهمها أو أُسيء تنزيلها على الواقع، وإنما قلت هذا لما تركته هذه الأحداث في نفوس كثيرين من آثار مدمِّرة أوجزها في التالي:

---

(١) هو محمد بن حسين بن سالم هيكل. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية بمصر سنة ١٣٠٥. كاتب، صحفي، مؤرخ، من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة. تخرج في مدرسة الحقوق في القاهرة، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السوربون في فرنسا، وافتتح مكتباً للمحاماة في المنصورة، وكتب في الجرائد، وترأس تحرير جريدة «السياسة» اليومية ثم الأسبوعية، ودرَّس القانون المدني في الجامعة المصرية القديمة، وولي وزارة المعارف مرتين ثم رأس مجلس الشيوخ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١٠٧/٦.

١) الاتِّكال على هذه الأخبار وترك العمل:

قد تعلق بهذه الأخبار ونحوها أقوام تعلقاً أفضى بهم إلى ترك العمل والجد والاجتهاد بدعوى ترك ذلك للمهدي إذا ظهر!! وهذا مخالف لنهج النبي ﷺ الذي بينه بقوله: «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[١] حتى أن بعض الناس دعا إلى عدم مواجهة اليهود لأن الحديث الصريح الصحيح فيهم أنهم سيقاتلهم المسلمون قبل قيام الساعة: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**»[٢] وهذا فهم خاطئ للحديث وترك للأمر الصريح بجهاد الكافرين المعتدين المحتلِّين لبلادنا.

٢) إهمالها بالكلية:

وهذا خطأ ومناف لمنهج النبي ﷺ الذي حذَّر مراراً من الدجّال وأمر الأمة بالتحذير منه، وقد قصّ علينا ﷺ جملة من أخبار آخر الزمان، بل قد جاء جملة منها في القرآن العظيم، فالإعراض عنها جهل وجفاء وسوء قراءة للوحيين.

٣) إساءة تفسيرها:

فكم من جماعات ضلَّت بسبب التعلق بظهور المهدي، وكان هذا منذ القرن الأول؛ فقد كان محمد بن الحنفية ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣] يُنادى عليه من

---

(١) رواه أحمد (١٢٥١٢) واللفظ له، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٦٨/١)، قال شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده صحيح على شرط مسلم، انظر «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (٢٩٦/٢٠) المحقق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) محمد بن علي أبي طالب القرشي الهاشمي المدني، أخ الحسن والحسين، وأمه من سبي اليمامة زمن أبي بكر الصديق وهي خولة بنت جعفر الحنفية. مات سنة ٨٠. انظر «سير أعلام النبلاء» ١١٠/٤ ـ ١٢٩.



قبل بعض الناس بأنه المهدي[١]، وظهر ما لا يمكن حصرهم ممن ادَّعوا المهدية إلى زماننا هذا الذي حدثت فيه مأساة الحرم المكي المعروفة بسبب التعلق الموهوم بالمهدي. وذلك في صدر القرن الخامس عشر الهجري: ١٤٠٠/١/١.

وكم من جماعات في زماننا هذا تتبعت أحداث آخر الزمان تتبعاً خاطئاً في التوراة والإنجيل المحرَّفين!! وفي كتب الرهبان الكذبة الكفرة! وفي بعض أخبار بني إسرائيل الواردة في الكتب المشتهرة بإيراد المكذوبات والموضوعات والأخبار الساقطة وشديدة الضعف، ومسألة آخر الزمان من الغيب الذي لا يؤخذ إلا من القرآن والسُّنَّة الصحيحة، وقد جمعني ببعضهم مجالس تحسَّرت فيها على ما وصل إليه تفكير هؤلاء من عقم وضعف، وتفصيل ذلك كالتالي:

قد كثر الحديث في الآونة الأخيرة ـ الثلاثين سنة الأخيرة تقريباً ـ عن أخبار آخر الزمان، والفتن التي ستظهر، وعلامات الساعة الصغرى والكبرى، وقد كانت أحداث الحرم ١٤٠٠/١/١هـ /١٩٧٩م وظهور ما سُمي خداعاً بالمهدي بداية حقيقية للخوض الطويل في أحداث آخر الزمان وفتنة وأشراط الساعة، وظهرت بعد ذلك كتابات كثيرة تحدد موعد قيام الساعة بالشهر والسنة!!! وفي هذا خلل عقدي واضح، وضعف في التصور الشرعي، وخرج علينا من يحدد لنا وقت ظهور المهدي، ووقت ظهور الدجال إلى آخر تلك التُّرهات.

وقد جمعني مجلس ببعض هؤلاء سنة ١٤١٢هـ تقريباً ١٩٩٢م فإذا بكبيرهم يقول: لقد ظهر «بيل» الذي تحدثت عنه التوراة!

فقلت له: أيّ «بيل» هذا؟

فقال: بيل كلينتون!!

---

(١) هو مهدي السُّنَّة الذي بشر بمجيئه آخر الزمان النبي ﷺ.
وانظر هذا في «سير أعلام النبلاء» ٤/١١٠.



فقلت له: إن اسمه ليس «بيل» بل وليام، وهذا هو اسم آخر أُطلق عليه تخفيفاً، ثم هل نأخذ أخبار الغيب من التوراة المحرَّفة المكذوب أكثرها؟!

ثم أفاض الحاضرون في ذكر هذه الخزعبلات وحاولت أن أبيّن لهم وجه الحق دون جدوى.

وأعرف بعض الإخوة كانوا يسكنون في جدة فشاع أن هنالك هَدّةً ستكون في جدة في رمضان سنة كذا!! فخرج من جدة هارباً إلى المدينة النبوية المنورة ليسكن فيها طالباً السلامة!! هكذا صنع دون نظر شرعي في الحوادث.

وكل تلك الأحاديث والأخبار المزعومة في تحديد وقت الفتن الكبرى ووقت ظهور المهدي أو الدجال لا يجوز تداولها ولا الخوض فيها؛ فهي من أخبار الغيب الذي استأثر الله ـ تعالى ـ به، والمطلوب من المسلم أن يعمل ويجتهد في عمارة الأرض والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ والعمل لدينه فإن جاءت الساعة أو أشراطها العظام وهو حيٌّ فقد صنع ما ينبغي أن يصنع، وإلا فقد كُفي، والله أعلم.

وما أحسن قول أحد السلف ـ وهو سفيان الثوري[1] ـ لما سُئل عن المهدي فقال: إن مَرّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه[2]، فرحمة الله على أولئك فهم أهل الفقه والفهم.

ومن الكتب المهمة في هذا الباب:

١ ـ «موقف أهل السُّنَّة والجماعة من تنـزيل نصوص الفتن وأشراط الساعة على الحوادث: السفياني أنموذجاً»: أ. زاهر الشهري.

٢ ـ «خدعة هرمجدون»: د. محمد أحمد إسماعيل المقدم.

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ الكوفي، شيخ الإسلام، الإمام الحافظ سيّد الورعين. توفي سنة ١٦١ رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر «نـزهة الفضلاء»: ٤٦٠.

(٢) «حلية الأولياء»: ٣١/٧.

وقد قرأت كتباً صُنفت في هذا الباب عجبت من تهافت منطقها وضعف حججها وسوء إيرادها، وقد وقع مصنّفو هذه الكتب في خطأ فادح يوم حدَّدوا وقوع الساعة أو ظهور المهدي أو خروج الدجال بالسنة بل بالشهر، وهذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والمطلوب أن يقرأ المرء تاريخ آخر الزمان بنيّة الاستفادة واستنباط العبر والعظات، وبنيّة الاستعداد ليوم المعاد، لا أن يقتحم الغيب المجهول بتخرصات وظنون وأوهام لا تستند إلى حقائق، والله الموفق.

١٢ ـ السيطرة على المشاعر التي تنتاب قارئ التاريخ:

هناك مشاعر عديدة تنتاب قارئ التاريخ، وهذا أمر لا يملك له الإنسان تحويلاً ولا تغييراً فهو من جملة طبائع البشر، ومن هذه المشاعر:

مشاعر السرور والحزن، وما ينبني عليها من تبعات الأمل واليأس؛ وذلك أن قارئ التاريخ يقع أثناء قراءته له على أحداث عديدة منها ما يسره مثل أخبار انتصارات المسلمين، وأفراحهم بانتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فيُسرّ القارئ بهذه الأحداث سروراً عظيماً ويمتلئ صدره فرحاً واستبشاراً.

ويحدث العكس من ذلك إن اطّلع القارئ على أخبار الهزائم فإنه يضيق صدره ويغتم، ويقارن ما حدث بأخبار زمانه المليئة بالهزائم للمسلمين، وبتراجعهم الحضاري والعلمي، فهذا يزيده حزناً على حزنه، وانكساراً على انكساره.

وهذا كما قدمت أمر طبيعي لكن ينبغي ضبطه حتى لا يؤدي بالقارئ إلى آفتين خطيرتين:

الأولى: في حال طغيان السرور:

إن طغيان السرور على قارئ كتب التاريخ ربّما يؤدي به إلى قلة التبصر أو عدمه في العبر والعظات، وهذا يفوّت عليه الفائدة الكبيرة من قراءة التاريخ؛



وذلك لأنه ما مِن حَدَث من أحداث التاريخ التي فيها فرح وسرور إلا ويداخلها شيء من الأخطاء والقصور ـ حاشا الأحداث المتعلّقة بالنبي ﷺ ـ وينبغي النظر فيها بروية واعتبار حتى تُتجنب هذه الأخطاء مستقبلاً.

الثانية: في حال طغيان الحزن:

إن قارئ الأحداث المحزنة في التاريخ ـ وما أكثرها ـ قد يصاب بشيء قليل أو كثير من اليأس والقنوط، وهذا مرض خطير يصيب القارئ فيجعله عازفاً عن العمل، يائساً من نصرة الإسلام، خاصة أنه يشاهد بأمِّ عينيه ما يجري على بلاد الإسلام اليوم فيزيده هذا كآبة وحزناً ويأساً، وهذا يؤدي به في أكثر الأحوال إلى الانقطاع عن العمل للتمكين لهذا الدين، بل قد يصبح ممن يشيع روح اليأس والقنوط في الناس، حتى يصير ممن يلهج بذلك في كل وقت، ويحدث أضراراً بالغة في نفوس ومشاعر الذين يحدثهم، ولا يهدأ له بال حتى يُقَنِّطهم كما قنط هو، ويُؤْيسهم كما يئس هو، وهذا الشخص ينبغي عزله عن المجتمع كما يعزل المريض الجَرِب حتى يعالج معالجةً تعيده إلى صوابه، وتبث الأمل في نفسه من جديد.

ولا بدَّ أن يدرك قارئ هذه الأخبار المحزنة أن الله تعالى جعل الأيام دُوَلاً بين الناس، فيومٌ لهم ويومٌ عليهم، قال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وأنه ﷻ: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

وقد قال ﷻ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

هذا وإن أشد أحداث تاريخ الإسلام إيلاماً للقارئ وأكثرها حُزناً هي أخبار الأندلس وانقطاع حكم الإسلام فيها، وخروج المسلمين منها، وما صاحب ذلك



من ويلات وشـــدائد عظام، فالقارئ لهذه الأخبار يشتدُّ حزنه ويعظم ألمه، لكنه إن أدرك أن في هذه المدة من القرن التاســع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كان فتح القسطنطينية وزوال الدولة البيـزنطية الشرقية إلى الأبد على يد الدولة العثمانيـة، وابتداء انتشار الإسلام في البلقان وأوروبا الشرقية، إن أدرك القارئ ذلك فسيُسَرّى عنه، ويخف عليه ما يجده.

وإذا قرأ القارئ أن الدولــة العثمانية أخذت في الضعــف منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشــر الميلادي، وقرأ أخبار الهزائم التي أصابتها فســيضيق صدره ويعظم مصابه ـ خاصة إذا كان القارئ ممن يهمه أمر الإســلام والمســلمين ـ لكنه إذا عــرف أن ذلك الزمــان هو وقت صعــود دولة المغول المسلمة في الهند وبروز سلاطين عظام على رأسهم السلطان الكبير أورانج زيب عالم كير[1]، وإذا عرف أيضاً أن زمن الضعف ذاك قد شهد ميلاد دولة عثمان بن فودي في نيجيريا وما حولها وما كان لها من أثر عظيم في إفريقيا الســوداء، إذا عرف كل ذلك فسينشرح صدره، ويذهب عنه كثير مما يجده في صدره.

والمقصود أنه ينبغي لقارئ الأحزان التاريخية أن يتأثر بها لكن بدون إفراط وبنظر شــامل بحيث يتجنب بهذا اليأس والقنوط، ويعظم أمله وينفي عن نفسه الحزن المؤدِّي إلى الانكسار.

---

(١) الإمام المجاهد المظفر محي الدين محمد أورانج زيب عالم كير ابن شاهجهان. سلطان المغول في الهند. وحاكمها قرابة خمسين ســنة. كان عادلاً شــجاعاً، قويّاً، مرهوب الجانب. نشر الإسلام في معظم القارة الهندية التي دانت له كلها ولم تَدِن لأحد من أباطرة المغول قبله. له فضائل كثيرة. ولد سنة ١٠٢٨ وتوفي بالدكن من أرض الهند ســنة ١١١٨. انظر ترجمته في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ١٢٩/٦ ـ ١٤٣.

خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كانت هذه رسالة موجزة أتيت فيها على رؤوس المسائل المهمَّة لمن يريد التعرف على كيفية قراءة التاريخ والاستفادة منه.

ولست أزعم أني بهذه الورقات قد وفيت الموضوع حقه لكني إنما بيَّنت ما أريده بإيجاز، وأما مريد التفصيل والتطويل فعليه بما ذكرته له من كتب ليرجع إليها، والله الموفق.

وربما شعر قارئ هذا الجزء بأن هنالك جوانب من كيفيات قراءة التاريخ وفهمه ما زالت غامضة أو مبهمة، وهذا أمر وارد، وذلك لأن الموضوع الكلي ـ وهو التعريف بعلم التاريخ ـ مقسم إلى أجزاء، وهذا هو الجزء الأول، وسيجد القارئ بغيته ـ إن افتقدها هاهنا ـ فيما سيخرج تباعاً من أجزاء ـ إن شاء الله تعالى ـ فالموضوع طويل وشائك فليوغل فيه القارئ برفق ليستفيد الفائدة المرجوَّة، بإذن الله تعالى.

وهذه كانت الرسالة الأولى، والرسالة الثانية القادمة قريباً ـ إن شاء الله تعالى ـ ستكون بعنوان «إعداد المؤرِّخ الثقة»، وهي نافعة ـ بإذن الله تعالى ـ لمن أراد أن يكون مؤرِّخاً نافعاً لأمته ودينه، والله المستعان، وفيها جوانب عديدة من علم التاريخ لم أذكرها هاهنا.

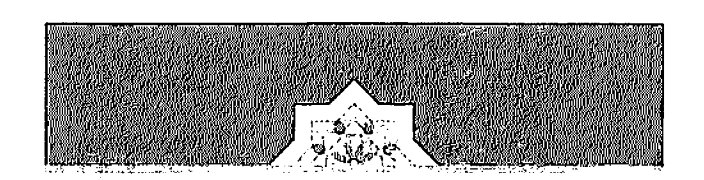
هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وأجل وأعظم، وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- «أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: تاريخ الأمة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق»: د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت. نشر دار الوفاء. المنصورة. مصر. الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- «التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام»: شاكر مصطفى. نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣.
- «تاريخنا المفترى عليه»: د. يوسف القرضاوي. نشر دار الشروق. القاهرة. الطبعة الثانية سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
- «الشماريخ في علم التاريخ»: الحافظ السيوطي = محمد بن عبدالرحمٰن (ت ٩١١). تحقيق الشيخ عبدالرحمٰن محمود. نشر مكتبة الآداب. القاهرة.
- «الثقافة التاريخية»: الأستاذ محمود شاكر.
- «بلدان الخلافة الشرقية»: كي ليسترنج. نقله إلى العربية كوركيس عواد وبشير فرانسيس. نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- «عطاء العرب الحضاري في ميدان التاريخ»: د. حسان حلاق. بحث منشور في مجلة «آفاق الثقافة والتراث»: ٢٥. السَّنة الخامسة العدد ١٧.
- «فصول مختارة من كتاب: التاريخ مرشد لدراسة متقدمة»: ل. ج براندون. اختيار الصديق بشير نصر. والفصول منشورة في مجلة كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس الغرب: العدد الخامس سنة ١٩٨٨.



- «فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية»: د. عبد الحليم عويس. نشر دار الصحوة. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- «قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي»: د. فاروق عمر فوزي. نشر دار مجدلاوي للنشر والتوزيع. عمان الأردن. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
- «الكامل في التاريخ» الإمام علي بن محمد = ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠). نشر دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة السادسة.
- «لسان المحدثين»: الأستاذ محمد خلف سلامة. منشور على الإنترنت.
- «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: د. محمد فتحي عثمان. نشر دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- «المستشرقون والتاريخ الإسلامي»: د. علي حسني الخربوطلي. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- «المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ»: د. عبد العليم خضر. نشر الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: الأستاذ وليد نويهض. نشر دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي»: د. عبد العظيم الديب. نشر سلسلة كتاب الأمة. قطر. الطبعة الأولى سنة ١٤١١.
- «منهج كتابة التاريخ الإسلامي، مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري»: د. محمد بن صامل السُّلميّ. نشر دار ابن الجوزي. الدمام. الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
- «الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»: د. محمود محمد الطناحي. نشر مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.



الرسالة الثانية

إعداد المؤرخ الثقة



مقدمـــة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والســلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقضية العناية ببعض الحاذقين والأذكياء ليصيروا مؤرخين هي قضية في غاية الأهمية؛ خاصة بعد أن صارت أقســام التاريخ في الجامعات لا يدخلها إلا الضّعــاف ـ في الأغلــب ـ في التحصيل الدراســي العلمي، ومتوســطو القدرات الذهنية، ونشأ من هذا أن تخصص في التاريخ أشخاص غير مبدعين ولا منتجيــن، وكان من جــراء ذلك أن تصدى لنشــر التاريــخ والكتابة فيه والحديث عنه عوضاً عن أولئك أشخاص لم يدرســوا في أقسام التاريخ في الجامعات ـ في الأغلب ـ إنما أحبُّوا التاريخ وعُنوا به، وهذا مشــاهَد في هذا العصر.

وهـــذا لا يعني أنــي أغمط حــق مؤرخين كبار درســوا علــم التاريخ في الجامعات، ونالوا فيه أعلى الشهادات، غير أني أتكلم على الأغلب عمَّن تصدى للتاريخ فــي زماننا هذا وتصدر فيــه فإنما هو محب له، متوغــل فيه، لكنه لم يدرسه دراسة جامعية نظاميــة.

وأرى ـ والله تعالــى أعلم ـ أن إعــداد مؤرخين ثقات يُعنــون بتاريخ الأمة ويولونه الاهتمام الكافي هو أمر يصل إلى درجة الوجوب الكفائي؛ وذلك لأثر علــم التاريخ البالــغ على الأجيــال، وأهميته فــي البنيان الإيمانــي والثقافي والحضاري للأمة:

«إن موضوع رسالة المؤرخ في المجتمع لقي اهتماماً واضحاً في العديد من الأقطار الأوروبية، مقابل الإهمال السائد عند المؤرخين والباحثين العرب لدراسة دور التاريخ في الحياة العامة في المجتمع العربي، فدور المؤرِّخ العربي في بناء الثقافة العربية الإسلامية ودعمها ـ مع وجود حالات فردية واستثنائية ـ لا يوصف بكونه إيجابيًا أو بالمستوى المطلوب...»[1].

والمؤرِّخ المسلم قد اجتمعت عليه عوامل أضعفت عمله، وقللت أثره في المجتمع، وهي عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية أحدثت قطيعة بين المؤرخ ومجتمعه «وجعلته يفر إلى نفسه وعزلته ويهاب المغامرة والمواجهة، وقد زادت هذه المتغيرات من الأعباء الحياتية والمهنية على المؤرخ سواء كان عضواً تدريسياً في الجامعة أو فرداً في المجتمع فأثقلت كاهله، وقيدت حركته، وأضعفت عطاءه، وبالتالي حالت بينه وبين أداء رسالته أو دوره في توجيه ليس فقط مجموعة من الأفراد في مؤسسة تعليمية معيَّنة توجيهاً واعداً منظماً، بل توجيه جيل بكامله وتعبئته لحياة يدرك فيها واجباته فلا يتهرب منها، ويعرف حقوقه فلا يتخلَّى عنها...

إن على المؤرخ أن يكتب في اتجاهين: الاتجاه العلميّ التخصصي من خلال بحوثه ومحاضراته في رحاب الجامعة، والاتجاه الثاني هو الثقافة التاريخية العامة الموجهة أصلاً لمثقفي الأمة عموماً، وفي كلتا الحالتين فإن عليه أن يؤكد على النظرة الشاملة ودور التاريخ في الحياة العامة والتي عن طريقها يحقق التاريخ رسالته في بناء الأمة»[2].

هذا وقد أخذت في تأليف سلسلة تعريفية بعلم التاريخ، بدأتها برسالة: «كيفية قراءة التاريخ وفهمه»، ثم هذه هي الرسالة الثانية، وهي موجَّهة لمن يريد

(١) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٥٤.
(٢) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٥٤.



أن يتخصص في علم التاريخ ويتصدى لنشره بين الناس وإفادتهم به، فلا بدَّ لمثل هذا أن يطَّلع على جملة من القواعد والضوابط أرجو أن أكون قد قربتها له في هذه الرسالة، وهي مفيدة ـ إن شاء الله تعالى ـ لمن لم يدرس التاريخ دراسة منهجية، ولم يدرس العلوم الشرعية، ففي الرسالة ما يلزمه معرفته منها قبل الخوض في هذا العلم المهم، ولا بدَّ له من الجمع بين هذه الرسالة والرسالة السابقة عليها: «كيفية قراءة التاريخ وفهمه» حتى يقف على القواعد والضوابط المهمَّة في علم التاريخ.

وقد سرت في هذه الرسالة على ما التزمته في أكثر كتبي ورسائلي من إيجاز؛ وذلك لعلمي بقلَّة صبر أكثر أهل عصري على قراءة المطوَّلات، وعزوفهم عن مطالعة الكتب الكبار المبسوطات، وهذا بسبب كثرة الأعمال وتوالي الهموم، ولتدنِّي الهمم وقلة الثبات، لكن حسبي أني أتيت برؤوس المسائل مع شيء من التفصيل اللائق بها والمناسب لما أريده منها، وأحلت القارئ المريد للتفصيل والتطويل بعد ذلك على مصادرَ ومراجعَ تمكِّنه من الوقوف على ما يريد من الدقائق.

على أن هذه المادةَ ـ أي: علم إعداد المؤرخين ـ لم أجد مَن أفردها بالبحث، ولم أقف على مَن خصها بالعناية من القدماء والمحدَثين، فدونكم معاشر القراء هذه الرسالة، وحسبكم هذه المقالة لمن أراد الولوج في مضائق هذا العلم فأظن ـ والله تعالى أعلم ـ أنها كافية في بابها لمن أراد الخوض، ورعاية هذا الروض.

وهذه الرسالة تالية لرسالة سابقة، فعلى ذلك إن لم يجد القارئ في هذه الرسالة ما يراه مهمّاً أن يُذكر ويُورَد، أو يعدّ الرسالة ناقصة بدونه فعليه أن يطالع الرسالة السابقة ففيها جملة قواعد وضوابط ومعالم لم أشأ أن أكرِّرها في هذه الرسالة ـ على أن لها بعض الصلة بها ـ وذلك تجنباً للتكرار والتطويل، وما

صنعته هو الجادة التي لا بدَّ لمصنف السلاســل من السير عليها حتى لا يكرر ويطول بغير فائدة، والله أعلم، على أنني سأشير في بعض المواضع إلى الرسالة الأولى السابقة لاكتمال الفائدة بالرجوع إليها.

والرســالة الثالثة القادمة ـ إن شــاء الله تعالى ـ ســتكون بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني».

والله ـ تعالى ـ أسأل التوفيق والقبول، والإخلاص في القول والعمل.

وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه حامداً مصلّياً
العبد الضعيف
محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

المبحث الأول: صفات المؤرخ

لا بدَّ لمن يتصدى لهذا العلـــم ويريد أن يتصدر فيه أن يكون جامعاً لخلال وصفات تؤهله لهذه المهمة العظيمة، فمن ذلك:

١ ـ حسن الصلة بالله تعالى:

لا بدَّ لمن يتصدى للتاريخ أن يكون حســـن الصلة بالله، له حظ من التقوى وخوف الله تعالى، وذلك حتى يتعامل مع التاريخ قراءةً واستنباطاً على نور من الله تعالى وفهم لمراده، فلا يعود يفســـر التاريخ إلا تفســـيراً إسلاميّاً وينأى عن التفسيرات الخاطئة للتاريخ كالتفسير المادي والقومي، والتحرري: «الليبرالي»، واللَّاديني: «العلماني»[1].

ولئلا يسوقه الهوى ويعميه التعصب.

وليستشـــعر المســـؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه وهو يكتب تاريخ الأمة العظيمة التي أخرجها الله للناس، فهو أشبه بالقاضي والحاكم.

وليكون أميناً في النقل من المصادر والمراجع، فلا يجتزئ من النصوص أو يتلاعب بها ليخرج بنتائج تخدم مذهبه أو وجهته الفكرية والعقدية.

وفي بعض ذلك يقول الإمام تقي الدين السبكيّ[2] رحمه الله مبيّناً كيف ينبغي أن يكون المؤرخ:

---

(١) هذه التفاسير المضلِّلة للتاريخ سيأتي الحديث فيها في ثنايا هذه الرسالة، إن شاء الله تعالى.

(٢) تقي الدين السبكي: الشيخ الإمام علي بن عبدالكافي بن علي السُبكي، تقي الدين، أبو الحسن الشافعي. =

«أن يكون عالماً عدلاً صادقاً، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى...

وأن يسمي المنقول عنه...

وأن يكون حسن العبارة، عارفاً بمدلولات الألفاظ، وأن يكون حسن التصور...

وألّا يغلبه الهوى...»[1].

وقال تاج الدين عبدالوهاب السبكي[2]:

«فإن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا أناساً لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل مَن لا يوثق به، أو غير ذلك من الأسباب، والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب، وقلّ أن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك»[3].

وقال أيضاً:

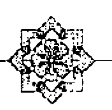
«المؤرخون، وهم على شفا جرف هار؛ لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من صادق أو كاذب، فلا بدّ أن يكون المؤرخ عادلاً عدلاً، عارفاً بحال من يترجمه...

= ولد بـ«سُبك العبيد» بمصر سنة ٦٨٣، ونشأ ودرس بها وبالقاهرة، ثم انتقل إلى دمشق قاضياً وخطيباً في الجامع الأموي، ثم انتقل إلى مصر مريضاً، وتوفي بها سنة ٧٥٦ رحمه الله. انظر: «الدرر الكامنة»: ٣/١٣٤ - ١٤٢.

(١) «خمس فتاوى لم تنشر»: «مجلة معهد المخطوطات»: ٢/١٦٣.

(٢) عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، أبو نصر، تاج الدين. ولد سنة ٧٢٧ وقرأ على جملة من المشايخ، وأمعن في طلب الحديث والاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب، وكان ذا بلاغة وطلاوة ومعرفة بالأمور. له مصنَّفات انتشرت في حياته ورزق فيها السعد. ولي عدة وظائف في بلاد الشام وانتهت إليه رياسة القضاء والإفتاء فيها، وحصلت له محن ثبت فيها وصفح عمن أساء إليه. توفي سنة ٧٧١ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/٣٩ - ٤١.

(٣) «خمس فتاوى لم تنشر»: «مجلة معهد المخطوطات»: ٢/١٦٣.



وربَّما كان الباعث له في الضَّعة من أقوام مخالفة العقيدة، واعتقاد أنهم على ضلال فيقع فيهم، أو يقصر في الثناء عليهم لذلك»[١].

وقال الحافظ ابن حجر[٢] رحمه الله:

«الذي يتصدى لكتابة التاريخ... يلزمه التحري في النقل، فلا يجزم إلا بما يتحققه ولا يكتفي بالنقل الشائع، ولاسيما إن ترتبت على ذلك مفسدة...»[٣].

وقال الأستاذ سيد رحمه الله مبيِّناً أهمية الالتزام بالإسلام في إعداد المؤرخ:

«إنه من الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية وإدراك التصور الإسلامي عن الله والكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل العقيدة، وهذه الخصائص لا توجد عند غير الباحث المسلم المتلزم بإسلامه»[٤].

٢ ـ القدرة على النقد الحسن:

لا بدَّ لمريد التخصص في التاريخ أن يكون قادراً على امتلاك الحس النقدي الذي يمكنه من ضبط المادة التاريخية وتقويمها، وهذا لا يكون للضعاف ذهنياً إنما لا بدَّ أن يكون المؤرخ من أصحاب القدرات الذهنية فوق المتوسطة، وسيأتي مزيد لهذا في صلب الرسالة.

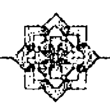
---

(١) المصدر السابق: ١٦٤/٢.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، حفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنَّفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة ٨٥٢هـ رحمه الله. انظر: «الضوء اللامع»: ٣٦/٢.

(٣) «خمس فتاوى»: ١٦٨/٢.

(٤) «في التاريخ فكرة ومنهاج»: ٤٦، نقلًا عن «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٩٤.



٣ ـ الرغبة الدافعة له إلى الصبر:

ولا بدَّ أن يكون له رغبة واضحة وصبر جميل في قراءة مطولات التاريخ؛ إذ لا يصبر على ذلك إلا القليل، وكم جاءني من شباب متحمس يريد التخصص في التاريخ ثم إنه لا يصبر على تبعات هذا التخصص من قراءة مطولة، وغوص عميق في البحث، فلا يلبث أن ينقطع أو يتعلل بمعاذير تسوقه إلى الانقطاع.

٤ ـ الذكاء وحسن الاستنباط والتعليل:

لا بدَّ أن يكون مريد التخصص في التاريخ ذكياً فطناً، حسن التصور، لديه قدرة جيدة على الاستنباط.

- ولا بدَّ أن يكون لديه القدرة على التعليل والتحليل، وجمع النظير إلى نظيره، واستنباط العبر والعظات والربط بين الأحداث لاستخراج نتيجة أو قاعدة هي أقرب ما يمكن إلى الواقع، وهو ما يسمى بـ«النظرة الكلية لأحداث التاريخ»، قال الأستاذ سيد رحمه الله:

«التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث[1]، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان»[2].

- واشترط ابن خلدون[3] في المؤرخ أن يكون عارفاً «بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير

---

(١) قوله: «التاريخ ليس هو الحوادث» ليس على إطلاقه، بل الحوادث وسردها جزء مهم من التاريخ، فكأنه أراد بهذا النفي المبالغة في الحرص على الفهم والاستنباط لا نفيَ مكوِّنٍ أساس من مكونات التاريخ.

(٢) «في التاريخ فكرة ومنهاج»: ٣٧، نقلًا من كتاب «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٢.

(٣) عبدالرحمٰن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها. رحل =

والأخـلاق والعوائد والنِّحـل والمذاهب وسـائر الأحـوال، والإحاطة بالحاضـر من ذلك ومماثلـة ما بينه وبيـن الغائب من الوفـاق أو بون ما بينهمـا من الخلاف، وتعليـل المتفق منها والمختلـف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر»[1].

وقال مؤكداً على شرط الفطنة وحسن التصور:

«ومن الغلـط الخفي فـي التاريخ الذهول عـن تبدل الأحـوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومـرور الأيام، وهو داء قويّ شـديد الخفاء... فربما يسمع السـامع كثيراً من الأخبار الماضية ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيُجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسـها بما شـهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مَهْواة الغلط»[2].

٥ ـ اتباع الحق لا التجرد والحياد:

يطلب المنهج الغربي من الكاتب أن يتجرد من كل شيء وأن يكون محايداً في كل شيء حين يبحث ويدرس ويكتب، وهذا هراء وباطل من جهتين:

١ ـ لأنهم هم أنفسـهم ـ في أكثريتهم الكاثرة ـ لم يتبعوا هـذا المنهج، وكانوا يكتبون في دراسـاتهم الاستشراقية في الإسـلام بتصوراتهم الخاطئة عنه،

= إلى فاس وغرناطة وتلمسـان والأندلس، وتولّى أعمالاً، واعترضته وشـايات ودسائس ثم عاد إلى تونس. ارتحل إلى مصر فأكرمه سـلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم عزل وأعيد، توفي فجأة بالقاهرة سـنة ٨٠٨هـ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وكان فصيحـاً، عاقلاً، صادق اللهجـة، طامحاً للمراتب العالية، له عدة كتب. انظر: «الأعلام»: ٣/ ٣٣٠.

(١) «مقدمة ابن خلدون» ص ٢٥١ نقلًا من كتاب «التاريخ والمؤرخون العرب»: ٣٩.

(٢) المصدر السابق: ٣٨.

وببغض شديد له، وبانحياز كبير جدّاً وخُلُوٍّ من الإنصاف، فكيف يطالبوننا بما عجزوا هم أنفسهم عنه، ولم يتخلص أكثرهم منه.

٢ ـ إن هنالك فرقاً بين أن يكتب المؤرخ متبعاً الحق والصدق والنزاهة والإنصاف ويرجح الصحيح ويرد الباطل، وهذا مطلوب، وبين أن يكتب بحياد عاطفي وتجرد قلبي وهذا مستحيل؛ إذ كيف يكون المؤرخ حياديّاً وهو يكتب عن دينه وإسلامه الذي ينبغي أن يفتديه بكل ما يملك؟ وكيف يكون حياديّاً وهو يكتب عن نبيه ﷺ ومطلوب منه أن يحبه أكثر من حبه أيِّ مخلوق آخر؟ وكيف يكون حيادياً وهو يكتب عن تاريخه ويرى أنه أنصع وأجمل وأحسن تواريخ البشرية مطلقاً؟

قال الأستاذ سيد رحمه الله في الإنسان إنه: «ليس من طاقته أن يكون له منهجان واتجاهان مختلفان في آن واحد؛ لأن صاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها صغيراً كان هذا الموقف أم كبيراً، فهو لا يملك أن يقول كلمة أو يتحرك حركة أو ينوي نية أو يتصور تصوراً غير محكوم في هذا كله بعقيدة ـ إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه ـ لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد يخضع لناموس واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد، إن صاحب العقيدة لا يملك أن يقول عن فِعْل فعله: فعلت كذا بصفتي الشخصية، وفعلت كذا بصفتي الإسلامية»[1].

وقد قال الأستاذ المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله[2] معلّقاً على هذا الأمر:

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١٤١ نقلًا من «في ظلال القرآن»: ٢٨٢٣/٥.

(٢) أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين. من مواليد ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م بضواحي قمار من ولاية الوادي، الجزائر. باحث ومؤرخ. حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات: من وظائف، ومؤلفات، وترجمات. انظر ترجمته مفصلة في «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

«أنا من جيل عاش فترة احتلال بشع، وفتح عينيه على بلاده وهي مغتصبة، وشعبه يعاني من الجهل والفقر والاضطهاد، ثم عاش ثورة نموذجية ضد التسلط الاستعماري[١]، فإذا كتبت تاريخ هذه الفترة أو هذه الثورة فلن أستطيع كتابتها برؤية غيري أو بنظرة محايدة، وربما سأكون غير موضوعي إن مثلت دور غيري في التاريخ الاستعماري لبلادي، وأعتقد أن هذا صحيح بالنسبة لمؤرخي الاحتلال أيضاً»[٢].

وما أحسن قول محب الدين الخطيب رحمه الله[٣] في هذه المسألة:

«إن الذين تثقفوا بثقافة أجنبية عنَّا قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن هذا الماضي، وأن موقفهم من رجال كموقف وكلاء النيابة من المتهمين، بل لقد أوغل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار[٤] بمظهر المتجرد من كل آصرة بماضي العروبة والإسلام جرياً وراء المستشرقين في ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة، وميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت...»[٥].

وما أحسن أن يسمى هذا الصنيع عقوقاً؛ إذ لا يعني العقوق في أشد درجاته إلا هذا، فهؤلاء عقّوا أمتهم وتاريخهم والرجال العظماء الذين ضحُّوا من أجل

(١) الصحيح أن يقال: الاستخرابي فليس فيما فعلوه في ديارنا عمار.

(٢) «حوارات»: ١٩٠.

(٣) هو محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبدالقادر الخطيب، يتصل نسبه بعبدالقادر الجيلاني الحسني. من كبار الكتّاب. ولد بدمشق سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م، وتعلم بها وباسطنبول. وشارك في إنشاء جمعية «النهضة العربية» بدمشق. رحل إلى صنعاء وعمل ببعض مدارسها، وتنقلت به الأحوال حتى استقر في القاهرة وعمل محرراً بالأهرام، ثم أصدر مجلتين «الزهراء» و«الفتح»، وكان من مؤسسي «جمعية الشبان المسلمين»، وتولى تحرير مجلة الأزهر ست سنوات، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها. وله عدة مصنفات. توفي سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٢٨٢/٥.

(٤) جمع غير؛ يعني: غير المسلمين.

(٥) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٠٢ نقلًا من مجلة الأزهر سنة ٢٤ الجزء ٢ سنة ١٣٧٢.

إيصال الإسلام إليهم والحفاظ على بلادهم، فكان جزاؤهم من هؤلاء جزاء سِنمّار، وياليتهم إذ صنعوا ما صنعوا اتبعوا قوماً راشدين بل اتبعوا الباطل وأهواء المستشرقين وتخميناتهم واهتماماتهم المريبة بالمصادر الضعيفة والساقطة، ودثروا كل ذلك بثوب التحقيق العلمي والمنهج الصحيح، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والمصيبة أن هؤلاء المؤرِّخين ـ الذين يزعمون أنهم منا وليسوا منا ـ تبوؤا أعلى المناصب في بلادهم، ولُقِّبوا بأفخم الألقاب، وامتلكوا أَزِمّة الجامعات ومراكز البحث والفكر، واستولوا على قلوب كثيرة وعقول كليلة، وفرضوا أفهاماً مريضة، حتى جاءت الصحوة فصححت المسيرة ـ بفضل الله تعالى ـ وعرف كثير من الناس الحق من الباطل، واستقام الكثير من معوج الأفهام، ونُقض الكثير من باطل التصورات.

تلك كانت صفاتٍ خمساً لا يمكن لمريد التخصص أن يُبدع أو يكون له نتاج حسن إلا إن كان متصفاً بها، ولو فاتته واحدة منهن ظهر النقص في عمله، والعُوارُ في تقريراته وتعليقاته، وليس شرطاً أن يبلغ الكمال في كل صفة منها بل حسبه أن يكون فيه قدر من كل صفة يؤهله للمضي في بحثه سليماً من الضعف، آمناً من الزلل، وهو أمر لا ينضبط لكن يُقدّر تقديراً مردّه إلى عرف الزمان والمكان، والله أعلم.

المبحث الثاني: التأهيل الشرعيّ

لا بدَّ من تأهيل مَن يريد أن يكون مؤرخاً تأهيلاً شـــرعيّاً جيداً، حتى يتوافر له قدر مناســـب من العلوم الشـــرعية الضرورية للمؤرخ ليضبط بها مسيرته في الدراسة والبحث، إذ «التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية، وعلى أيدي رجال الحديث، وصلته بالشريعة وخدمته لها واضحة سواء في ميدان التربية والسلوك، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل»[1].

والمؤرخ إذا كان مبتوت الصلة بالمصادر الشـــرعية، عن جهل أو عن قصد وعمد فإنه يأتي بالعجائب العجيبة، ويخبط خَبْطَ عشواء، ويَضِل ويُضل، والعياذ بالله، فمن ذلك أن كثيراً من المؤرخين المحدَثين ينكرون المعجزات والكرامات أو يؤولونها لتصبح غير ذات أثر، ومنهم من يشـــكك في الغيبيات، ومنهم من لا يؤمن بمفهوم الأمة الواحدة، ومنهم مـــن لا يوقر الصحابة ولا يعرف حقهم، ومنهم من يعتمد على الإسرائيليات ويترك المصادر الشرعية[2]!!

وإليكم هذه الأمثلـــة العجيبة التي ســـاقها فضيلة الدكتـــور المؤرخ جمال عبدالهـــادي المصـــري[3] ـ حفظه الله ونفع بـــه ـ حيث نقل عـــن أمثال أولئك المؤرخين المقطوعي الصلة بالشرع قوله:

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٣.

(٢) لمن أراد الاستزادة فلينظر في المصدر السابق: ١٨٧ وما بعدها.

(٣) الشيخ الدكتور جمال عبدالهادي مســـعود أحد أكبر علماء التاريخ الإسلامي في مصر والعالم الإسلامي. أحد أعلام دعوة الإخوان المســـلمين بمصر، وأســـتاذ التاريخ الإســـلامي بجامعة أم القرى سابقاً. له عدة مصنفات مفيدة في علم التاريخ اشـــترك في بعضها مـــع زوجه الدكتورة وفاء رفعـــت، وانفرد في بعضها الآخر، وقد كان له مشاركة جيدة في الثورة المصرية على النظام الطاغوتي ١٤٣٢/٢/١٩ - ٢٥يناير ٢٠١١.



«إن التوراة هي المصدر الوحيد الذي يتضمن هجرة الإسرائيليين إلى مصر وخروجهم منها ودخولهم الأرض الموعودة»!!

فبالله عليكم أين هو من مئات الآيات التي ذكرت بني إسرائيل بالتفصيل سواء في حياتهم في مصر أو فلسطين؟!

ونقل أيضاً عن خمسة من أمثال أولئك المؤرخين قولهم عن العقائد اليهودية: إنهم لا يستطيعون في دراستها الاعتماد على وثائق معاصرة فهي قليلة نادرة لكنهم يستطيعون الاعتماد على تحليل النظم اليهودية والعقائد اليهودية في العصور التاريخية!! هذا والقرآن العظيم قد أوضح جملة من عقائدهم الباطلة لكنهم لم يرجعوا إلى شيء منها[1].

فهذه التصرفات تعني أمرين لا ثالث لهما: إما أن هؤلاء المؤرخين جهلة تماماً بالمصادر الشرعية، أو أنهم يتغافلون عنها عمداً لأسباب عديدة، والله أعلم.

ـ ومن العلوم الشرعية التي يحتاجها المؤرخ:

أ ـ علوم القرآن العظيم:

لا بدَّ من فهم القرآن العظيم فهماً مجملاً يُمكّنه من الوقوف على معانيه، والاطلاع على سننه وقواعده ومراميه اطّلاعاً عاماً، والقدرة على استنباط العبر والعظات من آياته الجليلات خاصة الآيات التي تتحدث عن مصائر الأمم السابقة، وأحداث نهاية الزمان.

وقد ورد في القرآن من التواريخ جملة عظيمة تقدر بنحو ثلثي القرآن، وهي تواريخ الأمم الماضية، وتاريخ النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، والتاريخ المستقبلي من

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٢٤٤ نقلًا عن كتاب الدكتور جمال عبدالهادي: «تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام منذ أقدم العصور»: ٣٤٥، ٣٤٨.

أحداث آخر الزمان وغيرهـــا، فالقرآن لذلك أعظم مصادر التاريخ الإســـلامي، وأكثرها صحة ووثوقاً.

وللعرض التاريخي في كتاب الله ـ تعالى ـ أهميـــة جليلة؛ ذلك أنه «يجيء بالقصص والأحداث التاريخية من أجل إبراز الفـــروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والمجتمعات الإسلامية على مدار التاريخ لكي يوضح أنه لا يوجد في كل العالم إلا أمتان اثنتان:

أمة الحق وأمة الباطل، فالحركة هي هدف العرض التاريخي لا مجرد السرد والاستقصاء.

والقرآن يقـــدم أصول منهـــج متكامل في التعامـــل مع التاريخ البشـــري، والانتقـــال بهذا التعامل مـــن مرحلة العـــرض والتجميع فحَسْـــبُ إلى محاولة استخلاص السنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية»[١].

ويكفي مريد التخصص في علـــم التاريخ ـ في فهم علـــوم القرآن ـ كتاب «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان[٢] رحمه الله[٣].

وهو كتاب سهل الفهم، قريب التناول، حسن العرض.

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإســـلامي»: ١٦٧ نقلًا عن «التفسير الإســـلامي للتاريخ» للأستاذ عماد الدين خليل: ٨ - ٩.

(٢) أستاذ مصري معروف، وداعية حصيف. شـــارك في الجهاد ضد الإنجليز في فلسطين ومصر، وكان رئيســـاً لاتحاد الطلاب بكلية أصول الديـــن. انتقل من مصر إلى المملكة ســـنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٣م ليدرّس في كلية الشريعة في الرياض. وكان مديراً للمعهد العالي للقضاء. وبقي في المملكة إلى أن توفي بها رحمه الله ســـنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. له عدد من المصنفات النافعة. انظر ويكيبيديا على شـــبكة المعلومات «الإنترنت».

(٣) ولمن أراد الاســـتزادة والتنويع فليقرأ: «مدخل إلى القرآن الكريم» للدكتور محمد محمد أبوشـــهبة رحمه الله، وكتاب الدكتور صبحي الصالح رحمه الله: «مباحث في علوم القرآن»، وكتاب الشـــيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني رحمه الله: «مناهل العرفان في علوم القرآن»، فكل كتاب من هذه حوى شـــيئاً ليس في الآخر، والله أعلم.



ب ـ فهم سيرة الرسول ﷺ:

إن من أحسن العلوم المساعدة على فهم التاريخ علم السيرة النبوية المشرفة المطهرة، ولا غنى لمريد التخصص في التاريخ من القراءة المركزة المتأنية لسيرة رسول الله ﷺ فهي أصل تاريخ الإسلام ومبتدؤه؛ فليس في تاريخنا أشرف ولا أعظم من الحقبة التي عاشها رسولنا الأعظم ﷺ ففهم هذه السيرة واستيعابها والاستفادة منها بجعلها منطلق حركة التاريخ الإسلامي لهو الأساس الأعظم للمؤرخ بعد فهمه لكتاب الله ـ تعالى ـ كما مرّ آنفاً.

ولا عجب إذن أن بدأ الصحابة تأريخ الإسلام بهجرة رسول الله ﷺ لما فهموه من أهمية لها لا يعادلها أيُّ حدث آخر.

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ قريباً الضوابط الشرعية لقبول مرويات السيرة النبوية.

ومن الكتب المهمة في سيرة نبينا محمد ﷺ كتاب سيرة ابن هشام(١)، وكتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم(٢).

ج ـ فهم الأحاديث التي أخبرت عن الغيب:

من المهم الاطّلاع على الأحاديث التي أخبرت بأمور غيبية وقعت بعد وفاة النبي ﷺ أو ستقع في آخر الزمان ومعرفة سندها، وقوتها من ضعفها، وذلك

---

(١) عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي وقيل: الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد العلّامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذَّب السيرة النبوية. توفي سنة ٢١٨هـ انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٢٨/١٠ وما بعدها.

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة ٧٥١ بدمشق رحمه الله. انظر: «الدرر الكامنة»: ٢١/٤ - ٢٣.

نحو أحاديث تملك بني أمية وذمهم، وحديث افتراق الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة، وأحاديث أشراط الساعة وأحداث آخر الزمان، وأحاديث ظهور الدجالين المتنبئين.

وبعد فهم هذه الأحاديث والوقوف على كلام أهل العلم فيها قديماً وحديثاً لا بدَّ من تكوين رأي حولها يكون موجهاً لصاحبه أثناء القراءة والدراسة حتى لا يُهوِّن ولا يُهَوِّل، ولا يعظم الحقير، ولا يصغر العظيم، وهذه الأحاديث وأمثالها لها أثر عظيم في أحداث التاريخ الإسلامي، ولذلك قلت: إنه لا بدَّ من فهمها فهماً جيداً.

د ـ الفهم العام لطرائق الجرح والتعديل:

لا غنى لمريد التخصص في علم التاريخ من معرفة طرائق الجرح والتعديل عند المحدثين، ـ بدون تفصيل إنما ذلك للمختصين ـ وفهم أقسام الأحاديث والآثار من حيث الصحة والضعف والوضع، وفهم قواعد التخريج والتحقيق، لأن ذلك كله يحتاجه المؤرخ الذي ينقب في بطون الكتب القديمة ويستخرج منها ما يريد، والمطلوب هو الفهم العام لتلك القواعد على وجه يضبط بها المؤرخ قراءته وبحثه، أما التفاصيل الدقيقة لتلك العلوم إنما هي للمتخصصين، وسبيل أكثر غير المتخصصين هو النقل عن الأئمة السابقين، ولذلك اشترطت للمؤرخ الفهم العام لتلك العلوم حتى يحسن النقل عن الأئمة، أما التخصص فأمره يطول، ولا يطالب به كل أحد.

وهناك كتابان ميسَّران في هذه العلوم، وهي: «أصول التخريج ودراسة الأسانيد»، وكتاب «تيسير مصطلح الحديث» وكلاهما للدكتور محمود الطحان، حفظه الله.

هـ ـ الفهم العام لقواعد الشريعة الإسلامية، والعقيدة الصحيحة:

وهذا أمر لا بدَّ منه لكل مريد للتخصص في التاريخ، وبدون ذلك يقع في



أخطاء كبيرة لا تقبل، فهذا أحد المؤرخين المشهورين[١] يكتب فصلًا بعنوان «أساطير دينية توجه سَيْر التاريخ» في كتابه «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام»، فجعل من المهدي أسطورة، وهو عند أهل السُّنَّة والجماعة حقيقة متواترة، وجعل من نزول المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسطورة!! وهو عند المسلمين حقيقة متواترة[٢]، والذي أوقعه في هذا هو جهله بالقواعد الشرعية والعقدية، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا يقتصر الأمر على الأستاذ فقط فهناك جملة من المؤرخين أنكروا ما أنكره الأستاذ وأنكروا غيره، مما يُستشنع إنكاره ويُستقبح.

و ـ فهم القواعد العامة لعقائد الفرق الخارجة عن أهل السُّنة والجماعة:

وهذه الفرق ألّفت تواريخ مهمّة ومنها الشيعة والخوارج والمعتزلة، فلا بدَّ قبل الولوج في كتبهم أو النقل عنهم أن تُفهم قواعدهم حتى لا يخرج المؤرخ بنتائج خاطئة أو مخالفة لأهل السُّنَّة والجماعة.

ويكفي في هذا الباب ـ إن شاء الله ـ لغير المتخصصين كتاب «الأديان والفرق والمذاهب» الذي نشرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

ز ـ معرفة أطوار التصوف، وما هو المقبول منه وما هو المبتدع المردود:

للتصوف أطوار ثلاثة:

الطور الأول: وهو أقرب إلى الخير والسُّنَّة، وهو تصوف بعض السلف كالجنيد[٣] رحمه الله.

---

(١) هو الأستاذ محمد عبد الله عنان.

(٢) انظر «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٩٥.

(٣) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، شيخ الصوفية. ولد سنة نيف وعشرين =

والطور الثاني: أخذ فيه التصوف بالابتعاد عن السُّنَّة شيئاً ما، وعظم أثناءه الافتراق بين التصوف والسُّنَّة لكنه ظل في الجملة مقبولاً داخلاً تحت مِظلّة الإسلام، وهذا الطور بدأ منذ نهاية القرن الثالث واستمر إلى بدايات القرن العاشر مهيمناً على الحركة الصوفية.

أما الطور الثالث فبدأ بالهيمنة على التصوف منذ نهايات القرن العاشر، وفيه كثير من قواعد التصوف الفاسدة مثل الحلول والاتحاد، والقول بأن الله أوكل للغوث والأقطاب التصرف في الكون وهم موتى في قبورهم، والاستغاثة بالأموات، هذه الأقوال وغيرها كثرت في كتب التواريخ ـ خاصة كتب التراجم ـ بعد القرن التاسع الهجري كثرة لافتة للنظر، فلا بدَّ للمتصدي لهذه الكتب أن يعرف أطوار التصوف هذه وشطحاته، وأقوال أئمة التصوف المردود منها والمقبول حتى لا ينقل للأجيال أقوالاً وأعمالاً سادت ثم بادت فيتحمل وزر إحيائها ونشرها في الناس.

ح ـ ضبط ما يُروى وما يُطوى:

ينبغي أن يكون لدى المؤرخ موازينُ شرعية وعقلية صحيحة تضبط ما ينبغي له أن يَخرج إلى الناس وما ينبغي أن يكون حبيس الدفاتر وبطون الكتب، فمما ينبغي أن يطول حبسه الآتي:

١ ـ أخبار الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم والخلافات التي نشأت بينهم، وما صدر عنهم من أفعال وأقوال مرجوحة، وقد حرص أئمة السلف على عدم الكلام في هذه الفتن بل جعلوا الكَفَّ عما شجر بين الصحابة من

= ومائتين، وتفقه، وأتقن العلم، ورُزق الذكاء. وكان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسُّنَّة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقتدى به. توفي سنة ٢٩٨ رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦٦ - ٧٧.



الفتن من أصول عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وأثبتوا ذلك في الكتب المبيّنة للعقيدة الصحيحة، وحسناً ما فعلوه.

ولئن قيل اليوم: إن نشر أخبار هذه الفتن أمر مهم خاصة بعد أن تجرأ الشيعة الروافض على سبّ أصحاب رسول الله ﷺ وانتقاصهم ﷺ، فأقول: إن المسألة لا بدَّ أن تقدر بقدرها، وأن ينظر المؤرخ في الخبر هل يُطوى ولا يُروى ولا ينشر، أو أنه يُنشر بقدر وفي بعض الأماكن دون بعض، ولبعض الناس دون بعضهم الآخر، أما تعميم الحديث عما شجر بين أولئك الصفوة ﷺ فهذا منهج غير مقبول، ويترك في نفوس الناشئة آثاراً سيئة.

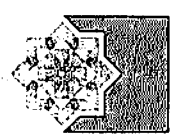
٢ ـ أخبار المجون والإباحة التي انتشرت في كثير من كتب التاريخ خاصة المتأخرة منها، وكذلك التغزل بالنساء والغلمان، والخمريات، وما شابه ذلك من مزالق الفساد التي تساهل في ذكرها كثير من المؤرخين ـ خاصة المتأخرين ـ في كتبهم حتى صارت لها شَيْناً ومنعت من كمال الاستفادة منها، فمن ذا الذي سيأتي لأهله وولده بهذه الكتب ليقرؤوها وفيها ما فيها مما يندى له جبين الفضيلة؟![1].

٣ ـ بعض ما ورد في كتب التراجم من الأمور التي ينبغي طَيُّها مثل السباب والشتائم، وما فيها من بعض مظاهر الأخلاق الفاسدة، فحجب مثل هذا وطيّه مطلوب إلا إذا كان في إيراده فائدة للقرّاء، فيورده المؤرخ مقروناً بالتحذير منه[2].

---

(١) انظر كلامي في هذه المسألة في مقدمة اختصاري لكتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي رحمه الله وهو ممن ملأ كتابه بالأخبار الماجنة.

(٢) من الأمثلة الواضحة على الكتب التاريخية المليئة بالهمز واللمز وعَيْب الناس كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للحافظ السخاوي (ت ٩٠٢) ـ رحمه الله تعالى وغفر له ـ فقد ملأه بما لا فائدة في ذكره من معايب الناس، وانظر ـ إن شئت ـ تعليق الشوكاني رحمه الله، على هذا الصنيع في كتابه الماتع «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» في ترجمة السخاوي.



المبحث الثالث: التأهيل الثقافي

لا بدَّ للمتصدي لدراسة التاريخ أن يكون واسع الثقافة في جوانب محددة، وذلك حتى يُحسن الاطلاع على ما يريد ومن ثَمّ يُحسن الانتقاء والعرض، فمن ذلك:

١ ـ الاطلاع على أحوال الأمم قديماً:

وما جرى عليها، وكيف سادت حضاراتها ثم بادت، والحكم على تلك الحضارات بمقياس شرعي صحيح.

وينبغي ـ بعد ذلك ـ أن يطلع على أسس الحضارة الإسلامية وجوانب الجِدّة فيها، وصلة ذلك بالتاريخ الإسلامي واضحة بيّنة.

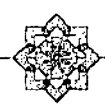
ومن الكتب التي تناولت هذا الأمر فأحسنت:

- كتاب «من روائع حضارتنا» للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي[1] رحمه الله.
- كتاب «تفسير التاريخ علم إسلامي» للدكتور عبدالحليم عويس[2]: الفصل السابع إلى الثالث عشر.

---

(١) هو مصطفى بن حسني السباعي، أبو حسان. ولد بحمص ـ من سوريا ـ سنة ١٣٣٣. عالم إسلامي مجاهد، من خطباء الكتاب. تعلم في حمص وفي القاهرة في الأزهر. اعتقله الإنكليز في مصر وفلسطين ستة أشهر، وأسلموه إلى الفرنسيين فسجنوه في لبنان ٣٠ شهراً. كان على رأس كتيبة من الإخوان تدافع عن بيت المقدس سنة ١٣٦٧. أحرز شهادة الدكتوراه من الأزهر، وصار أستاذاً في كلية الحقوق ومراقباً عاماً لجماعة الإخوان المسلمين، وعميداً لكلية الشريعة في دمشق، وأنشأ مجلة «حضارة الإسلام». أصيب بشلل نصفي. ألّف واحداً وعشرين رسالة وكتاباً، وتوفي في دمشق سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٢٣١/٧ ـ ٢٣٢.

(٢) أستاذ مؤرخ مصري معاصر، له كتب مهمة، توفي رحمه الله سنة ١٤٣٣.



- وكتاب «شـــمس الله تَطْلع على الغـــرب» للمستشـــرقة الألمانية زنغريد هونكه[1].
- وكتاب «حضارة العرب» لغوســـتاف لوبون[2] وهو علـــى جودته فيه مآخذ ودس.
- وكتاب «الإسلام والحضارة العربية» للأستاذ محمد كُرْد علي[3].
- وكتاب «حضارة الإسلام» لخودا بخش[4]، وهو بالفارسية، وقد تُرجم.
- وكتاب «الحضارة الإســـلامية في القرن الرابع الهجـــري» لآدم مِتز[5]، وقد تُرجم، وهو كتاب جيد، وفيه بعض المآخذ العلمية.

---

(١) مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراســـات الدينية. ولدت سنة ١٩١٣. حصلت على الدكتوراه سنة ١٩٤١. نظرتها للإسلام معتدلة. قيل: إنها أسلمت قبل عام من وفاتها التي كانت سنة ١٩٩٩. انظر ترجمتها في «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) طبيب ومؤرخ فرنســـي. عُني بالحضارة الشـــرقية. له عدة مصنفات، وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد مَن يعدون أنهم أنصفوا الحضارة الإســـلامية على مآخذ في كتاباته. ولد ســـنة ١٨٤١ وتوفي سنة ١٩٣١. المصدر السابق.

(٣) محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كُرْدْ علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلـــة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، من كبار الكتّاب. ولد ســـنة ١٢٩٣ بدمشـــق، وأصله من أكراد الســـليمانية ـ من أعمال الموصل ـ وتعلّم في المدرســـة الرشـــدية، وأقبل علـــى المطالعة والدروس الخاصة. وأحســـن التركية والفرنسية وتذوّق الفارسية، وحفظ أكثر شـــعر المتنبي ومقامات الحريري، وتولّى رئاســـة تحرير عدد من المجلات والجرائـــد. هاجر إلى مصر وبقي فيها ســـنين، واتهم مرات بمعاداة جمعية الاتحاد والترقـــي وكاد يُقتل. ولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنســـي لســـورية. وكان من أصفى الناس سريرة وأطيبهم لمن أحبهم عشـــرة وأحفظهم ودّاً. توفي بدمشق سنة ١٣٧٢ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٦/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٤) ما عرفته من ترجمتـــه أنه من بلدة بتنا في الهنـــد، وأبوه محمد بخش مؤســـس مكتبة خدا بخش الشرقية العامة في بتنا التي تضم أكثر من عشرين ألف مخطوط منها حوالي ٩ آلاف باللغة العربية، وابنه خدا بخش هو الذي ارتقى بالمكتبة، ولما توفي انتقلـــت ملكية المكتبة إلى الدولة؛ لأنه لم يبق من هذه العائلة أحد. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٥) مستشـــرق سويســـري ألماني. كان أســـتاذ اللغـــات الشـــرقية بجامعة بال بسويســـرا. توفي ســـنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م. انظر «الأعلام»: ١/٢٨٢.

٢ ـ تكوين الحسّ النقدي:

وهذا لا بدَّ منه لكل متصدر للتاريخ، لكنه لن يتحقق على وجه حسن خال من الغـرور العلمي وتشـبعِ المرء بما لم يُعْـط إلا بعد قـراءة مطولة للعلوم والفنون، والوقوف على مناهج النقد القديمة والحديثة، ولن يتحقق كذلك إلا بعد الغوص العميق في كتابات المؤرخين القدامى والمحدثين، ومعرفة مواطن الزلّات، فإن حصل هذا مع ما سبق أن أوردته وما سأورده فأرجو أن يكون إذناً لصاحبه بالقراءة النقدية الفاحصة، أمـا الهجوم على الكتب والمؤلفين بدعوى النقد ولَمّا يُحَصّـل الهاجم حصيلة تؤهلـه لهذا الصنيع فهـو عبث وتطاول، وقديماً قيل: من قَلّ علمه كثر نقده.

هذا ومن أهم ما ينظر فيه المؤرخ قبل إيراد حدث ما هو التالي:

أولاً: صحة الخبر:

فإذا كان الخبر متعلقاً بأحكام شـرعية أو زمن الفتن بين الصدر الأول، أو مسـائل عقدية فلا بدَّ أن يكون هذا الخبر التاريخي موثقاً صحيحاً على موازيـن أهـل الحديث فـي تصحيحهـم الأخبـار، ولا يقبل فيـه الخبر الضعيف[1].

ثانياً: المبالغة:

قد دأب جماعات مـن المؤرخين على المبالغة في إيـراد الخبر، والمبالغة تتعلق بالأعـداد أو بالصفات أو بتضخيـم المزايا أو النقائـص، وهذه المبالغة تعرف بالتالي:

أ ـ حكم مؤرخ ثقة على مؤرخ آخر بأنه مبالغ مع إيراده الشـواهد على ذلك،

---

(١) انظر في تفصيل هذا المبحث الرابع القادم ـ إن شاء الله تعالى ـ النقطة الرابعة.



كما حكم الإمام الذهبي[١] على سبط ابن الجوزي[٢] بأنه مبالغ، وبتعبير الذهبي: مجازف، وأورد بعض الشواهد على هذا.

ب ـ الحسُّ الطبيعي الذي يملكه مَن قرأ كثيراً من التاريخ وكان يملك الأدوات الأساسية من الدراسات الشرعية الأولية، وكان لديه حسن النظر، وجودة الحكم على الأمور، من كان كذلك كان قادراً على تمييز المبالغات والمجازفات بسهولة.

ج ـ المقارنة بين الأخبار في مصادر التاريخ المتعددة، فإن هذا يفيد في معرفة المبالغة والمجازفة، وتقدير الأمور تقديراً حسناً وردّها إلى أقرب الأوضاع إلى الصحة.

ثالثاً: نقد آراء المؤرِّخين:

بعض المؤرخين يورد رأيه في الحادثة التاريخية، ويبيِّن وجهة نظره فيما يسوقه من أحداث، فيصيب ويخطئ في صنيعه هذا، فلا بدَّ لمن يريد أن يكون مؤرخاً أن يتعلم كيفية تقويم رأي المؤرخ ووجهة نظره، وهذا يكون بمحاكمة رأيه هذا إلى الثوابت الشرعية، وإلى الضوابط التي تحكم حياة الناس من كل جوانبها، فإن صنع ذلك لم يفته غالباً الحكم الجيد على المؤرخ وما يورده من آراء.

٣ ـ فهم مؤامرات أعداء الإسلام ضد تاريخنا:

وهي بالإضافة إلى ما ذكرته آنفاً تبدو واضحة في محاولات الغرب ـ وعلى رأسه أمريكا ـ إعادة صياغة مناهج التاريخ الإسلامي، لتطمس الوقائع الجليلة

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره. ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة. توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضَرّ ﷺ. انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/١٠٠ ـ ١٢٣.

(٢) هو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبدالله التركي العوني الهبيري البغدادي الحنفي سبط الإمام ابن الجوزي نزيل دمشق. ولد سنة ٥٨١ وتوفي بها سنة ٦٥٤. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/٢٩٦.



العظيمة، وتزوِّر سير الأبطال أو تخفيها، وتشوه البواعث والنتائج، وتختزل التاريخ اختزالاً مخلًا لا يُبقي له أثراً ولا يذكر فيه عظة وعبرة إلى آخر هذه المؤامرات الآثمة التي شهدتها بلدان العالم الإسلامي خاصة بعد أحداث أمريكا المشؤومة سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

وحذار من الانسياق وراء تشويه الكافرين من كنسيين ومستشرقين لتاريخنا، وقد ألَّفوا في ذلك مئات الكتب، وليُقرأ ـ للحذر من ذلك ـ كتاب الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: «الاستشراق والمستشرقون».

وكتاب الأستاذ محمد قطب، حفظه الله[1]: «كيف نقرأ التاريخ الإسلامي».

وكتاب الأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب رحمه الله[2]: «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي».

٤ ـ فهم المنهج الغربي في التلقي والبحث في العلوم الإنسانية:

لا بدَّ للباحث ـ سواء في مجال التاريخ أو غيره ـ أن يفهم المنهج الغربي في التلقي والبحث، وهذا يتجلَّى بوضوح في ثلاثة أمور:

الأول: الانفصال التام عن الله تعالى:

فهو مقطوع الصلة بالله تعالى وبكل غيب، فالقوم ارتضوا الحياة الدنيا

(١) أخ شقيق أصغر للأستاذ سيد قطب رحمه الله ولد سنة ١٣٣٧هـ/ ٢٦ أبريل ١٩١٩م ببلدة موشا، في محافظة أسيوط. وهو ممن ابتلي في سجون العبد الخاسر، وخرج فانتقل إلى مكة المكرمة ودرَّس فيها ثم تقاعد، وهو الآن في مكة المكرمة، حفظه الله تعالى. له مصنفات مهمة، وأفكار كان لها أثر على الحركة الإسلامية المعاصرة.

(٢) أستاذ عالم مصري عاش في قطر مدة طويلة. توفي سنة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ودفن في قطر رحمه الله، وله مؤلفات نافعة. انظر «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

وأعرضوا عن الآخـرة، والعياذ بالله، ولذلـك جاءت نتائج بحثهـم في العلوم الإنسـانية مليئة بالتصورات الخاطئة والأفكار الباطلـة ـ على جودة في بعض جوانبها إنصافاً للقـوم ـ فإذا فهم الباحث هذا اسـتطاع أن يتجنب مزالقهم في التفكير والتصور والنتائج، قال محمد أسد[١]:

«لما تحرر العقل الأوروبي من عبوديته للكنيسـة تخطى في القرنين التاسع عشـر والعشـرين تلك الحدود، ووطّد عزمه تدريجياً على العداء لكل شـكل من أشكال السـلطان الروحي على الإنسـان، ومن ثنايا هذا الخوف الباطـن، ولئلا تعود تلـك القوى التي تدعي السـلطان الروحي أقامت أوروبا نفسـها زعيماً لـكل ما هو ضد الدين مبدئيّـاً وعمليّاً، لقد رجعت أوروبا إلى إرثها الروماني، وأضيف إلى هـذا الإرث الروماني الوثني المـادي عنصر مادي جديـد فأخذوا يعبدون المـال كما عبد بنو إسرائيل العجل»[٢].

الأمر الثاني: الاعتماد على التقويم الشخصي في كثير من الأحيان وضعف المنهج العلمي:

وهذا أمر يظهـر بوضوح في دراسـات المستشـرقين التاريخيـة، فتراهم ينسـجون قصصاً معتمدة علـى أوهام وخيـالات وظن باطـل، والمصيبة كل المصيبة أنهم يـرون أن ما يأتون به هـو الحق الجدير بالاتبـاع، وما عداه هو الباطل!!

---

(١) اسمه ليوبولد فايس سابقاً عندما كان يدين باليهودية. ولد سنة ١٩٠٠ في النمسا. وتوفي في إسبانيا سنة ١٩٩٢. كاتب وصحفي ومفكر، وناقد اجتماعي، ومصلح، ودبلوماسي، ورحالة. درس الفلسفة في جامعة فيينا، ومُنح الجنسية الباكستانية وصار مبعوث باكستان في الأمم المتحدة، وطاف العالم ثم اسـتقر في إسـبانيا وتوفي بها ﵀. له مصنفات قليلة نافعة. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١٣١.

قال الدكتور البوطي:

«والمنهج الغربي في البحث خالٍ إلى الآن من أيِّ ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلق بالرواية وصحة الخبر والنقل، وما يسمونه بالمنهج الاستردادي أو منهج التوسم عمدته الأولى ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة ودقة الوجدان واتساع دائرة الخيال، فالأداة التي يستخدمها الباحث هي ملاحظته ووجدانه وخياله، وكل ما يعثر عليه من آثار وأحداث ووثائق.

وكيفية البحث عندهم هي أن يعكف الباحث على ما تجمع لديه من هذه الآثار أو الأحداث فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع...»[1].

وهذان الأمران آنفا الذكر يبيّنان بوضوح أن المنهج الغربي غير صالح للاعتماد منهجاً للبحث والدراسة والتنقيب، فهو قد انقطع عن تراث النبوة، وفي الوقت نفسه أطلق العنان للخيال والحَدْس والظن، وهو ما نعاني منه في الدراسات الاستشراقية.

الأمر الثالث: النظر إلى تراث الآخرين ودراساتهم نظرة دونية:

وهذا أمر مؤثر تماماً على المنهج الغربي ودقته وصلاحيته، وهو «أن الأوروبيّ بطبيعته ميّال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم، فهي نقطة الرصد في نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث، ومن هنا تتخذ في نظره أشكالاً معينة ليس من يملك الجزم بأنها أصح الأشكال، وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها، وإذا كان بدهياً أن أوروبا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ، وكان الأوروبي لا يملك اليوم أن يتخلص من وَهْمِ وضعِها الحاضر حين ينظر إلى الماضي أدركنا مدى

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١٣١ - ١٣٢ نقلًا عن «كبرى اليقينيات الكونية»: ٤٢.

انحــراف الزاوية التي ينظر بهــا الأوروبي للحياة الإســلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤيا التي يضطر إليها، ومدى أخطـاء التفســير والأحكـام الناشئـة من هذه الرؤية المعينة...»[١].

وها هو المستشرق الروسي بارتولد[٢] يقول في هذا الصدد:

«إن الأسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي تعتبــر أوروبا في كل العصور تحتــل الأهمية العالمية سياســياً وحضارياً كالتي تتمتع بها الآن»[٣].

إن هناك فئة من المستشــرقين «تحمل فكراً لا يؤمن إلا بالقهر أو الســيادة والتميز العرقــي والهيمنة الثقافيــة دون الاعتراف بالتبــادل الفكري أو الأخذ والعطاء بين الحضارات المتنوعة، وقد بدا ذلك واضحاً في تفاســيرهم للتاريخ والحضــارة العربية الإســلامية... وكانــت حصيلة التاريخ الإســلامي من هذه الفلسفة المادية: مجموعة من الأحكام المسبقة الجامدة تطبق في قسرية بالغة... وقراءة تعتمد الانتخاب المقصــود للنصوص، أو تحميلها معانيَ لا تتحملها، أو التشــكيك في صحة ما صح منها، أو الاتكاء على الضعيف الساقط والشاذ من الأخبار مما يجافي الروح العلمية والنـزاهة الموضوعية والحياد الفكري.

ويجب ألا ننســى ـ ونحن نتكلم عن هذه الفئة من المستشــرقين ـ العامل التاريخــي بــكل تراكماته الثقافيــة المتحيزة ضــد التاريخ العربي الإســلامي والمحفوظة في الإرث الأوروبي عبر العصور، فالمستشرق ابن بيئته، ولا بدَّ له أن يتأثر بكل ما كُتب في أوروبا عن الإســلام والمســلمين، وفي هذا الشــأن يعترف أحد المستشرقين المعاصرين قائلاً:

(١) المصدر السابق نقلًا عن كتاب الأستاذ سيد «في التاريخ فكرة ومنهاج»: ٤٠.

(٢) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد. مستشرق روسي بارز ولاسيما في مجالات تاريخ الحضارة الإسلامية. ولد سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، وتوفي سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٣) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٤٩.



«ولا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلَّفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الهوامش المرصوصة بالأبحاث العلمية». إن هذه الحقيقة هي التي تفسر هفوات بعض المستشرقين الذين عُرفوا بالموضوعية والتجرد... وتبقى العملية النقدية لكتابات هذه الفئة من المستشرقين مهمة وضرورية...»[1].

وبهذا كله نزداد يقيناً بأن منهج أولئك ليس صالحاً لنا على إطلاقه، وأن في منهجنا الغُنية والكفاية، وفي الوقت نفسه يمكن لنا أن نستفيد من بعض ما عندهم من مناهج بحثية مفيدة، وهذا هو الموضوع القادم إن شاء الله.

٥ ـ الاستفادة من المناهج البحثية المعاصرة:

هناك مناهج للبحث والدراسة برزت في الساحة العلمية منذ قرنين تقريباً، وفي تلك المناهج فوائد كبيرة، كما أن فيها نقائص معروفة لا تخفى على الدارسين، وقد بيَّنها أهل العلم بالتفصيل في مواضعَ كثيرة، وهي المناهج التي حمل لواءها المستشرقون، على ما عند أكثرهم من تعصب وعدم إنصاف، ثم إنه في نصف القرن الماضي برز علماء مسلمون عظماء نقَّحوا هذه المناهج بعد أن نظروا فيها بعين الإنصاف، وأبقوا منها ما رأوه موافقاً للشرع والواقع، وحذفوا منها ما ليس كذلك، فصارت هذه المناهج أقربَ شيء إلى الحق والخير، ولله الحمد والمِنَّة، فعلى الدارسين لعلم التاريخ ومريدي التصدر فيه والتخصص أن يطلعوا على هذه المناهج بالتفصيل فيما كتبه روّادها والقائمون عليها في عالمنا الإسلامي[2].

---

(١) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٥٠.

(٢) فلينظر في هذا كتباً للأستاذ عبدالسلام هارون، ود. محمود محمد الطناحي، وغيرهما من أساطين البحث العلمي. وقد شارك علماء كثر في إرساء معالم منهج البحث التاريخي خاصة، من هؤلاء الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر، خاصة في كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، وكتابه «أباطيل وأسمار» والأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، والأستاذ الداعية محمد قطب، والشيخ جمال عبدالهادي، ويشارك هؤلاء جمع من الأساتذة الأفاضل منهم الدكتور يوسف القرضاوي والشيخ أبو الحسن الندوي، والشيخ محمد =

وليس مـــرادي تزكية هذه المناهج تزكية عامة تامة بـــل فيها ما ينكر ويترك لكن هذا حكم أغلبيّ يصدق على المجموع وليس الجميع، والله أعلم.

٦ ـ معرفة كيفية قراءة المخطوطات:

وهذا لمـــن يريد من المؤرخيـــن التصدي لتحقيق المخطوطـــات التاريخية وإخراجها إلى النور، وهذا لا بدَّ له من دراســـة علم تحقيق المخطوطات لدى خبير متمـــرس على قراءة المخطوطات وتحقيقها، وبغير ذلك ســـيكون حاطبَ ليل ويخبط خَبْطَ عَشْواء.

٧ ـ حُسْن الأسلوب وجزالة العبارات:

ينبغي لكل من أراد التصدي للكتابة في التاريخ أن يُحَسِّـــن ما استطاع من لغته، وأن يرتقي بأســـلوبه الكتابي، وأن يأتي بأحســـن ما يستطيع من العبارات التي تُكسب ما يكتبه جزالة ورصانة وحلاوة.

وسبيله إلى ذلك أن يكثر من القراءة في الكتب التاريخية التي صنفت بلغة راقية جليلة، وبعبارات جميلة، وخاصة كتبَ السلف الذين لم تَشُب لغتهم شائبة من لَحْن أو عجمة أو ركاكة أســـلوب أو غثاثة عبارة؛ وذلك نحو «تاريخ الأمم والرســـل والملوك» للإمام الطبريّ[1] ـ على ما في الكتاب من مآخذ سأبيِّنها في مكان غير هذا إن شاء الله تعالى ـ.

وكتاب «سيرة ابن هشام».

= الغزالي، والأســـتاذ سيد قطب، والأستاذ محب الدين الخطيب، والأســـتاذ محمد عبد الله عنان، والدكتور حسين مؤنس، والأستاذ شكيب أرسلان والأستاذ محمود شاكر ياسين والمودودي وخلق كثير غيرهم.

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ المفســـر الإمام، ولد في آمل طبرســـتان سنة ٢٢٤هـ، ثم اســـتوطن بغـــداد، وتوفي بها ســـنة ٣١٠هـ رحمه الله، له عدة كتب نافعـــة، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، فصيحاً. انظر: «الأعلام»: ٦٩/٦.

وكتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي الأديب(١) وقد جَوّد عبارته فيه، وهو كتاب حسن النظم، جار على نهج السلف وأساليبهم فيما يوردونه من طرائق التصنيف.

وغير ذلك من الكتب النافعة في باب اللغة والأدب.

أما الكتب الحديثة فإن من خير مَن كتب بأسلوب جميل وطرائق صحيحة الأستاذ محمود محمد شاكر المصري(٢)، والأستاذ سيد قطب(٣)، والأستاذ عباس العقاد(٤)، وطه حسين(٥) على أنَّ عليه مآخذ في كثير مما يورده.

---

(١) هو خليل بن أيبك بن عبدالله، صلاح الدين الصفدي، أديب بارع، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد بفلسطين سنة ٦٩٦هـ وإليها نسبته، وتعلم في دمشق، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها عام ٧٦٤هـ كتب الخط الجديد، وقال الشعر الحسن، وكان محبباً إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة، له زهاء مائتي كتاب في التراجم والتاريخ واللغة والأدب وغيرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر «الأخبار العليات من الوافي بالوفيات»: ١٠/١.

(٢) أديب لغوي، محقق باحث. ولد بالإسكندرية سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، سجن أيام عبدالناصر، وتعرّض لبلاء آخر بمعارضته طه حسين لآرائه الانحرافية عن الإسلام. حصل على عدة جوائز مصرية وعالمية. وله مصنفات نافعة وشعر جيد. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. انظر «إتمام الأعلام»: ٢٨٢.

(٣) سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد سنة ١٣٢٤ بقرية «موشا»في أسيوط. تخرّج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وعُيّن مدرّساً للعربية فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ثم مراقباً فنياً بالوزارة. أُوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم إلى أمريكا ثلاث سنوات. انضم إلى الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأُعدم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٣٨٧، له مصنفات جليلة رائعة، وفي بعضها قليل من المؤاخذات بسبب النشأة الأدبية السابقة. وما أحسن كلمة الأستاذ علال الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما حصلت نكبة سنة ١٣٨٧هـ: ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب. وانظر «الأعلام»: ١٤٧/٣ - ١٤٨.

(٤) عباس بن محمود بن إبراهيم العقاد. إمام في الأدب، مصري من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع. أصله من دمياط. ولد عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية، وشغف بالمطالعة، وانقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف، وأقبل الناس على ما يكتبه. تعلم الإنجليزية في صباه وأجادها ثم ألمَّ بالألمانية والفرنسية، وظل اسمه لامعاً نصف قرن أخرج فيها ثلاثة وثمانين كتاباً في أنواع مختلفة. توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م. انظر «الأعلام»: ٢٦٦/٣ - ٢٦٧. وفي بعض كتاباته وتصرفاته مآخذ ليس هذا مكان إيرادها.

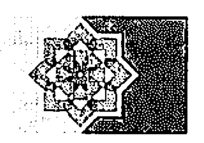
(٥) طه بن حسين بن علي. ولد سنة ١٣٠٧هـ/١٩٨٠م بمغاغة في محافظة المنيا في الصعيد. أصيب =



ولا بدَّ لمن يريد أن يكون مؤرِّخاً أن يضبط قواعد اللغة ـ المشـــهورة على الأقل ـ فلا يلحن اللحن الجلي الفاضح، ولا يخطئ الخطأ الظاهر اللائح.

- وهذا المطلوب إن حققه المتصدي لكتب التاريخ فحريٌّ به إذا قرأ أن يفهم المراد، وإن كتب أن يأتي بالكلام على وجهه ويؤثر بكتابته في القراء، وكم هو الفارق بين من يكتب متأثراً بلكنة وعجمة أو متلبّساً بضعف لغة وركاكة أسلوب وبين من يكتب بأسلوب مشرق جميل يُغري القراء به على متابعة ما يكتبه.

= بالجدري في الثالثة من عمره فكف بصره. درس في الأزهر ثم الجامعة المصرية القديمة. وهو أول من نال شهادة الدكتوراه منها. ثم سافر إلى باريس في بعثة وتخرج في السوربون سنة ١٩١٨. عين محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ثم عميداً للكلية ووزيراً للمعارف. له مصنفات عديدة في بعضها كفـــر واضح وتعدٍّ على أصول الإســـلام، وردّ عليه كثيرون. توفي ســـنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. وانظر ترجمته في «الأعلام»: ٣/٢٣١ ـ ٢٣٢.



المبحث الرابع: التأهيل التاريخي

الذي يحسن بمريد التصدر في التاريخ ودراساته ومناهجه أن يدرسه دراسة نظامية في كلية للتاريخ في جامعة من الجامعات، فمن عَسُر عليه ذلك فلينتسب إلى جامعة إن استطاع (دراسة منزلية)، فإن لم يستطع فعليه بجلب مناهج الكلية ليدرسها دراسة ذاتية.

فإن عَسُر عليه كل ذلك فينبغي أن يَطّلع على الآتي ويستوعبه تصوراً وفهماً:

١ ـ فهم العلاقة بين علم التاريخ وغيره من العلوم:

إن للتاريخ علاقة وثيقة بعدة علوم منها[1]:

ـ علم التربية:

يستخدم التاريخ في العلوم التربوية استخداماً مباشراً لما فيه من عناصر توجيه المجتمع للفضيلة، وإبعاده عن الرذيلة، ونَصْب القدوات للشباب والشّابّات، والاعتبار والاتعاظ بما فيه من حوادث لا تُحصى، ووقائع لا تستقصى.

ـ علم السياسة:

فالأحداث السياسية لها تأثير مباشر على حركة التاريخ، وقد عظم هذا التأثير في هذا الزمان كما هو مشاهد ومعلوم.

---

(١) وقد ذكرت من قبل علاقة علم التاريخ بالكتاب والسُّنَّة فلا أعيد ذكر ذلك ها هنا.

ـ علم الاقتصاد:

وهــذا ـ أيضاً ـ له أثر لا ينكــر على علم التاريخ؛ فالشــعوب التي تمتلك الثروة والقوة الاقتصادية تُسيِّر شعوباً كثيرة وتغير حركة التاريخ تغييراً واضحاً، ومعرفة التحــولات الاقتصاديــة العظمى فــي العالم تعين المــؤرخ على فهم الأحداث التي يســجلها، لكن لا ينبغي المغالاة في هذا حتى لا ينساق المؤرخ إلى النظرية الماركسية للتاريخ.

ـ علم الاجتماع:

وهو دراسة حركة الإنسان داخل مجتمعه، والمؤثرات التي تؤثر عليه، نحو الهجرات الرئيسة للكتل البشرية عبر التاريخ وأثر ذلك، ودراسة أحوال الأقليات البشرية؛ سواء أكانت أقليات دينية أم عرقية:

«لقــد ازدادت أهمية التاريخ فــي العصر الحديث، واســتُخدم أداة لتوجيه الشعوب وتربيتها، كما استعان به أصحاب المذاهب الفكرية في فلسفة مذاهبهم وتأييدها، وإيجاد ســند تاريخي لها، بل إن الأوروبيين ينظرون له نظرة تقديس وإجلال، ويطلبون منه تفسير الوجود وتعليل النشأة الإنسانية»[1].

ـ علم الجغرافيا:

فاختلاف البيئة وتنوع المناخ والتضاريس ذو أثر كبير في اختلاف طبائع الناس وعاداتهم وأخلاقهم، وهذا ذو أثر على تاريخ المجتمعــات، وقديماً قالت العرب: «نعوذ بالله من خِفّة سَهْلي، وغلظة جبلي» والسهلي هو مَن سكن السهول: سواحل أو غيرها. وقديماً قيل: من بدا جفا؛ أي: من دخل البادية فأقام بها أصابه الجفاء.

ـ علم النفس:

فاعتــلال أو جودة نفســيات المقدميــن والوجهاء في المجتمــع كالحكام

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٤.



والوزراء والوجهاء والإعلاميين والأساتذة له أثر كبير على حركة التأريخ، بما يصدر عنهم من تصرفات مؤثرة أثراً حسناً أو سيئاً في مجتمعاتهم، فالمؤرخ الذي لا يفقه علم النفس قد يخطئ في تعليل الوقائع التاريخية التي تنشأ بسبب تغيُّر نفسيَّات أولئك المقدمين والوجهاء بين الفَيْنَة والأخرى.

وقد ذكر المؤرخون ما صنعه الحاكم بأمر الله الفاطمي[١] في مصر من أمور عجيبة أثرت على تاريخ تلك البلاد سنوات طوال؛ وذلك عائد في المقام الأول لاختلال نفسيته على وجه ظاهر من سيرته.

- هذه بعض العلوم التي ينبغي أن يقف المؤرخ على قواعدها العامة وضوابطها بدون التعمق فيها؛ فهذا شأن المتخصصين فيها[٢].

٢ ـ قضية أسلمة التاريخ:

ينبغي على مريد التخصص في التاريخ أن يفهم قضية أسلمة التاريخ، وهي تدور على مبدأ أن تاريخ الإسلام موصول بآدم ومَن بعده مِن الأنبياء العظام إلى نبينا محمد، صلوات ربي عليهم وسلامه، وأن هذه الأمة الإسلامية أمة واحدة لا تسود فيها العنصرية ولا الطائفية، ولا الإقليمية ولا الشعوبية، وأن تفسير التاريخ منضبط بقواعدَ شرعية وبسنن الله ـ تعالى ـ الكونية.

---

(١) هو صاحب مصر أبو علي منصور بن عبد العزيز نزار العبيدي المصري الإسماعيلي الزنديق، مدَّعي الربوبية. ولد سنة ٣٧٥ بمصر، وتولى الملك بعد وفاة أبيه وعمره أحد عشر عاماً. كان شيطاناً مريداً، جباراً عنيداً، كثير التلون، سفاكاً للدماء، خبيث النِحلة، عظيم المكر، جواداً ممدّحاً، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه، يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها، وأمر بسب الصحابة ﷺ، وبكتابة ذلك على أبواب المساجد والشوارع، وأمر عماله بالسب، وحرق مصر، وأمر كافة النصارى بالدخول في الإسلام قسراً، ودهم الكنائس ثم بعد مدة أذن لهم بالرجوع إلى دينهم، وأمر ببناء ما هدم من كنائسهم. قتل سنة ٤١٤. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٧٣ ـ ١٨٤.

(٢) انظر في تفصيل ذلك كتاب «المسلمون وكتابة التاريخ»: ٣٦ ـ ٥٥.

وعليه أن يطلع على الكتب التي تحدثت عن التفسير الإسلامي للتاريخ حتى يعرف تاريخ الأمم ورسلهم وملوكهم وعلاقة كل ذلك بالإسلام، وكيف يمكن له أن يفسر أحداث التاريخ تفسيراً صحيحاً بعيداً عن تُرَّهات الشيوعيين وتمويهات العلمانيين المتحررين «الليبراليين»، ومن أمثال هذه الكتب السلسلة التي أصدرها الأستاذ الدكتور جمال عبدالهادي ـ حفظه الله ـ فقد تحدث في تاريخ الإسلام ووصله بآدم، عليه الصلاة والسلام.

- ومن الكتب أيضاً كتاب «تفسير التاريخ علم إسلامي: نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ» للأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس.
- «التفسير الإسلامي للتاريخ»: للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل[١].

وفصل «نحو منهج إسلامي لإعادة كتابة التاريخ» من كتاب «المسلمون وكتابة التاريخ» للأستاذ الدكتور عبدالعليم خضر[٢].

وكتاب «أضواء على تفسير التاريخ» للأستاذ الدكتور نعمان عبدالرزاق السامرائي[٣].

وفصول من كتاب «فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية» للأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس.

لكن لا بدَّ من التعريج على ما كتبه الأستاذ سيد رحمه الله في هذا الباب لروعته وقوته، فقد قال رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن» في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١]:

---

(١) أستاذ مؤرخ عراقي معروف، له كتب تاريخية عديدة متميزة بالعمق والتحليل، حفظه الله تعالى.

(٢) أحد المعاصرين المهتمين بعلم التاريخ، وله كتب نافعة، حفظه الله تعالى.

(٣) أستاذ عراقي معروف ولد سنة ١٩٣٥، نال درجة الماجستير من كلية الشريعة ببغداد، والدكتوراه في العلوم الإسلامية من جامعة القاهرة. وله مصنفات نافعة، مقيم في الرياض، في المملكة العربية السعودية، أظنه ما زال حيّاً، متع الله به. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات «الإنترنت».



«إن السير في الأرض للاستطلاع والتدبُّر والاعتبار ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث والوقائع، مسجلةً في الآثار الشاخصة وفي التاريخ المروي والأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها، السير على هذا النحو لمثل هذا الهدف وبمثل هذا الوعي أمور كلها كانت جديدة على العرب تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر والمعرفة، لقد كانوا يسيرون في الأرض وينتقلون في أرجائها للتجارة والعيش وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي، أمَّا أنْ يسيروا وفق منهج معرفي تربوي فهذا كان جديداً عليهم، وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به، وهو يأخذهم بأيديهم من سفح الجاهلية في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية...

لقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعدَ منهجيةٍ كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب، ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها ـ بإذن الله ـ ويستطيع الناس ملاحظتها وبناء تصوراتها للمقدمات والنتائج عليها، ومعرفة مراحلها وأطوارها، كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئاً جديداً على العقل البشري كله في ذلك الزمان؛ إذ كان قصارى ما يُروى من التاريخ وما يدوّن من الأخبار مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج، وبين المراحل والأطوار فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ويشرح لهم منهج النظر في التاريخ الإنساني، وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة، إنما هو المنهج الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني...

إن هذه الرؤية المنهجية البكر في فهم التاريخ والتعامل معه لهي واحدة من عجائب القرآن التي لا تنقضي، وإن القول بها، أو الكشف عنها، أو التأكيد عليها في بيئة فكرية لم تكن قد بلغت النضج الذي يؤهلها لإفراز مقولات كهذه

ـ كما يتوهم الماديون ـ ليدل بوضوح على الصيغة الفوقية التي يتسم بها كتاب الله، وعلى الانفصال المحتوم ـ إذا صحَّ التعبير ـ بين معطيات الله الشاملة وبين أفكار الناس الجزئية القاصرة المحدودة...

وقال أيضاً رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]:

«أمامنا في التاريخ القريب نسبياً الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي والدعارة الفاشية، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة والتلهي بالنعم، أمامنا الشواهد الكافية، من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان... إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ، وذلك أن وجهته ابتداءً هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها...

والتفسير الإسلامي بشموله وصدقه وواقعيته لا يغفل أثر العناصر المادية ـ التي يجعلها التفسير المادي كل شيء ـ ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه، في رقعة الحياة العريضة، ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الضعيف لواقعيات الوجود، يُبرز قدر الله من وراء كل شيء، ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات، ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي ولا يُغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة...

ثم أتى الأستاذ سيد بأمثلة للتفسير الإسلامي للتاريخ فقال رحمه الله ونفعنا بما كتبه:

«قاعدة وسنَّة، لا فلتة ولا مصادفة، قاعدة وسنَّة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده وإقامة منهج الله وحده، ثم وقف

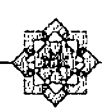
منها عدو لها وِقفةَ المشــاقة لله ورســوله كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة، وكان الرعب والهزيمة للذين يشــاقون الله ورسوله ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق واطمأنت إلى ربها وتوكلت عليه وحده وهي تقطع الطريق».

ويذكر الأستاذ رحمه الله ـ «أن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيسير من خلال ذلك كله إلى مســتقبلها، وهؤلاء العرب الذين وُجّه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولــم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم ـ قبل الإســلام لتســمح لهم بمثل هذه النظرة الشــاملة لولا هذا الإسلام وكتابه القرآن الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا...

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشــون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين ســكان الجزيرة ومجريات حياتهم فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها، فضلاً عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً، وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة، ولم تنشــأ من متقضيات الحياة في ذلك الزمان، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة بل حملتهم إليها، وارتفعت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعــوا إلى هذا الأفق من التفكيــر العالي إلا بعد قرون، ولم يهتدوا إلى إثبات الســنن والنواميس الكونية إلا بعد أجيال وأجيال، فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلٰهية، وأنه إلــى الله تصير الأمور، فأما هــذه الأمة المختارة فقد اســتيقنت هذا كله واتسع له تصورها، ووقع في حســها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة فاستقامت حياتها على التعامل مع ســنن الله الثابتة، والاطمئنان بعد هذا إلى مشيئته الطليقة»[1].

---

(١) وهذا ما أردت اختياره من كلام الأســتاذ ســيد رحمه الله ـ في مسألة التفسير الإســلامي للتاريخ، وقد انتزعته من بحث الدكتور عمــاد الدين خليل ـ حفظه الله تعالى ـ بعنوان «ســيد قطب والتفســير الإسلامي للتاريخ» المنشور في مجلة «المسلم المعاصر» العدد: ٦٢، ص٢٧ ـ ٦٣.



وليحذر طالب التاريخ كل الحذر من الكتب التي أرّخت للتاريخ الحديث بحس قومـــي[١] أو مادي[٢]، فقد انتشـــرت هذه الكتب بســـبب طغيان التيارات القومية والناصرية والاشتراكية في منتصف القرن الماضي، ومنها بعض كتابات الدكتور عبدالله العلايلي[٣]، وكتابات عبدالعزيز الدوري القومية[٤].

---

(١) معنى تفسير التاريخ باتجاه قوميّ؛ أي: جعل التاريخ الإسلامي الواسع العريض الذي يضم شعوباً كثيرة وأجناســاً مختلفة هو فقط حلقة من حلقات تاريخ العرب، وتفسير أحداثه على أساس الصراع القومي بين العرب والشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام، انظر «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١٧٣.

(٢) معنى تفسير التاريخ باتجاه مادي هو ما قام به الماركسيون الشيوعيون في القرن الماضي من جعل المادة فقط هي أصل الكون، والإنسان قد نشأ منها بالتطور والارتقاء، وليس هنالك قوة أخرى غير قوة الطبيعة قد أثرت في نشوئه وارتقائه، والعامل الأساس في هذا التطور هو وسائل الإنتاج!! وهي التي تحدد نوع العلاقات الاجتماعية والعقائدية والمذاهب الأخلاقية في كل طور بل تحدد الحياة العلمية والفكرية والروحية أيضاً!! فكل تغير في وســائل الإنتاج يُحــدث تغيراً في هذه العلاقات، فالمجتمعات البشــرية ـ في تصورهم الباطل ـ بدأت بدائية تســودها الشيوعية، ثم بسبب اكتشاف وســائل الإنتاج تحولت المجتمعات إلى نظام الطبقية القديم: الســادة والعبيد، ثم تطورت وسائل الإنتاج لتتحول المجتمعات إلى نظام الإقطاع، ثم إلى الرأســمالية، ثم إلى الشيوعية، إلى آخر هذا الهراء والصداع الذي أرهقوا البشــرية به طويلاً وأغفلوا فيه كل تواريخ الأنبياء والرســـل ـ عليهم الصلاة والســـلام ـ بل احتقروه وحاربوه، وحاربــوا أتباعه بكل ما أوتوا من قـــوة، ثم أهلكهم الله وأذهب دولتهم، وانظر المصدر السابق: ١٦٩.

ومثالاً على هذا التفســير المادي للتاريخ الإســلامي انظر المراجعة النقدية لكتاب حســين قاســم العزيز، العراقي، بعنوان: «البابكية: انتفاضة الشعب الأذربيجاني» فقد كال هذا المؤرخ المديح لبابك الخُرّمي وحركته، وسماه بطلاً، ومن المعروف أن حركة بابك كانت زمن الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري، وكانت حركة شــيوعية منحرفــة تحل الحرام وتبيح الفروج، وســبب تحمس هذا المؤرخ لتلك الحركة هو أن أســتاذه المشــرف عليه في الجامعة كان متحمساً لهذا الموضوع، وهو وأستاذه يتبنّيان التفسير المادي للتاريخ، وانظر للتفصيل كتاب «قراءة ومراجعات نقدية»: ٦٠ - ٦٧.

(٣) انظر نقد الأســتاذ وليد نويهض له في كتابه: «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: ص ٧٣ وما بعدها.

والعلايلي هو علّامة لغويّ. ولد في بيروت سنة ١٣٣٣، ورحل إلى مصر للدراسة في الأزهر، ثم في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، ثم عاد إلى بلاده. له عدة مصنفات. توفي سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. انظر «إتمام الأعلام»: ١٧٠.

(٤) «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: ص ٦٥ وما بعدها.

=



وكذلك ليحذر من كتب المؤرخين ذوي التوجهات الشيوعية والتحررية «الليبرالية»، وذلك نحو ما سطره الكاتب الماركسي صادق جلال العظم[1].

٣ ـ قضية إعادة كتابة التاريخ:

وهذه لها صلة بالقضية السابقة الذكر، وقضية إعادة كتابة التاريخ قضية شائكة جدّاً، ويطالب بها الإسلاميون والمتحررون «الليبراليون»، واللادينيون «العلمانيون»، والغربيون وعلى رأسهم الكنسيون والساسة، كل هؤلاء يطالبون بإعادة كتابة التاريخ كلٌّ من وجهة نظره ومنطلقه العَقَدي أو النفعي «البرجماتي».

والحق أننا في أمسّ الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ خاصة التاريخ الحديث الذي بدأ منذ قرنين تقريباً، ففيه أحداث كثيرة جدّاً لم تكتب بعد أو كتبت مشوهة على أيدي اليساريين والماركسيين والقوميين واللادينيين «العلمانيين» والمتحررين «الليبراليين» والمستشرقين وأمثالهم من الذين لا يرجون لله وقاراً.

أما التاريخ قبل ذلك فلا بدَّ من إعادة كتابته وتقريبه إلى الأجيال الناشئة، والاستفادة منه في تقويم مسارنا الحاضر والمستقبل، وفي تربية الأجيال على معرفة عظماء هذا التاريخ الذين شُوهت سيرهم أو طُمست وأُخفيت عمداً فصارت الأجيال تعرف سير الممثلين ولاعبي الكرة والمغنيّن وتجهل أكثر سير عظمائها بل الغالبية العظمى من هذه السير، وصارت هذه الأجيال مُغيبة عن الأحداث التاريخية الكبرى والمنعطفات العظمى في مسيرة أمة الإسلام قديماً

= والدوري ولد سنة ١٩١٩ وتوفي سنة ٢٠١٠. وهو مؤرخ عراقي قومي. عمل في جامعة بغداد ثم انتقل إلى الأردن للتدريس في الجامعة الأردنية. له عدة مصنفات تاريخية ﷬. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

(١) «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: ص ١٥٢ وما بعدها.
والعظم ولد بدمشق سنة ١٩٣٤. درس الفلسفة في الجامعة الأمريكية وتخصص في الفلسفة الأوروبية الحديثة. وكان أستاذاً زائراً في قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون بأمريكا إلى سنة ٢٠٠٧. له عدة مصنفات. وهو ماركسي نسأل الله العافية. وأظنه ما زال حيّاً. انظر ترجمته في المصدر السابق.



وحديثاً، فلا بدَّ إذن من إعادة كتابة التاريخ وتقريبه وتيسيره للكافة، وأن يستفاد منه الاستفادة القصوى في التربية والتقويم والتغيير، والله أعلم.

ولينظر في هذا فصل «نحو منهج إسـلامي لإعادة كتابة التاريخ» من كتاب «المسلمون وكتابة التاريخ» للدكتور عبدالعليم خضر.

وفصل «فـي إعادة كتابة التاريخ الإسـلامي» من كتـاب «تاريخنا المفترى عليه» للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي.

سَرْد تاريخي للمطالبات بإعادة كتابة التاريخ:

سرد الدكتور محمد بن صامل السُّلَميّ[1] هذه المطالبات فقال:

«وأول من علمت أنه دعا إلى إعادة كتابة التاريخ الإسـلامي، الشيخ محب الدين الخطيب، ثم الأستاذ سيد قطب في كتابه: «في التاريخ فكرة ومنهاج»[2].

ثم طُرح الموضوع على مجلس اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٧٤م، وقرر تشـكيل لجنة تحضيرية لدراسـة «إعادة كتابة تاريخ العرب والإسلام» وإنشاء معهد للتاريخ العربي، ودائرة معارف تاريخية عربية[3].

ثم عقدت في جامعة الكويت «حلقة عمل لمشروع إعادة كتابة تاريخ العرب والإسلام»[4].

---

(١) هو أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، حفظه الله تعالى.

(٢) ذكر في آخر هذا الكتاب ص٦١ في الهامش أنه تألفت جماعة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وهي تتألف من الشـيخ صادق عرجون، ومحمد يوسـف موسـى، وعبدالحميد يونس، ومحمد النجار، وسيد قطب. ولا نعلم أن هذه اللجنة أصدرت شـيئاً بهذا الخصوص وإنما قام الشيخ محمد صادق عرجون بكتابة كتابيه عن خالد بن الوليد وعثمان بن عفان وهما مجهود فردي.

(٣) تتألف هذه اللجنة من الدكتور عبدالعزيز كامل، وأحمد بدوي، ومحمد مرسي أحمد، وعبدالعزيز النوري، ومحمد الطالب، وحسـين مؤنس، وشـاكر مصطفـى. انظر: جريـدة الجمهورية القاهرية ١٩٧٤/١٢/١٨م.

(٤) مجلة المجتمع الكويتية، عدد ٢٣٢، محرم ١٣٩٥هـ.



وقد طُرح الموضوع أيضاً على المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي فاتخذ في دورته الثالثة والعشرين المنعقدة عام ١٤٠١هـ قراراً بتشكيل لجنة في نطاق الأمانة العامة للرابطة من خمسة أعضاء لتقوم بوضع خطة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي تغطي آسيا، وإفريقيا، على أن تطرح الأمانة العامة للرابطة فقرات الخطة في مسابقة عامة على نمط مسابقة السيرة النبوية وبشروطها، كما اتخذ المجلس توصية أخرى في دورته الرابعة والعشرين المنعقدة عام ١٤٠٢هـ.

وقد علمت أن موضوع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي قد عُرض على هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية لكنها لم تتخذ قراراً عملياً بهذا الشأن حتى الآن.

إن كثرة طرح الموضوع وتعدد الهيئات العلمية التي درسته يدل على أهميته وعلى الحاجة الملحّة التي شعر بها أولئك العلماء وتلك الهيئات العلمية والشرعية لبحث هذا الموضوع.

وقد ناقش هذه الدعوة عدد من الباحثين بين مؤيّد ومنتقد[1]، ولا شك أن المقصود بالإعادة عند من دعوا لهذا العمل لأول مرة هو تنقية الكتب من الأخطاء والروايات المكذوبة ومن ثَمّ إعادة الصياغة وفق المنظور الإسلامي[2] للاستفادة من دراسة التاريخ في مجال التربية والأسوة الحسنة، ولكن يبدو أن هذه الدعوة قد استُغلت وأُريد لها أن لا تستمر في الطريق المستقيم، حيث تلقفها بعض الكتاب المنحرفين فكرياً كالماركسيين، والقوميين، والاشتراكيين، والعلمانيين،

---

(١) من الذين عارضوا هذه الدعوة الأستاذ أحمد محمد جمال في محاضرة له مطبوعة بعنوان «تاريخنا لم يقرأ بعد»، وأيضاً الشيخ عثمان صافي الذي يرى أن طرح الموضوع بهذا العنوان: «إعادة كتابة التاريخ» ينطوي صراحة على تخطئة السلف في كل ما كتبوه، ويرى أن إعادة كتابة التاريخ ضرب من الخيال، انظر: مجلة المجتمع الكويتية، محرم ١٣٩٥هـ، عدد ٢٣٢.

(٢) انظر: سيد قطب، في: «التاريخ فكرة ومنهاج» ٥٥.

والمنزلقين في مدارج المستشرقين والمنصّرين، الذين أرادوا الاستفادة منها في تفسير التاريخ الإسلامي وفق أفكارهم ودعواتهم المنحرفة»[(١)(٢)].

وقال الأستاذ المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله معلّقاً على قضية إعادة كتابة التاريخ:

«لكل جيل تاريخه: عبارة يصح أن تطلق في هذا المجال، إن كتابة التاريخ عملية حية ومتجددة، فكل جيل له تفسيره للتاريخ بالوسائل التي تلقاها في المدرسة والبيئة والمعارف المعاصرة له، ولو لم يحدث ذلك لتجمد التاريخ وتوقفت مسيرة الإنسان نحو الأفضل، وعملية تجديد التاريخ لا تعني قلب الحقائق ولا عكس المفاهيم ولكنها تعني تصحيح ما غاب خطأه وتكميل ما ندَّ جزءه أو أجزاؤه عن نظر القدماء، وقد تكون بعض حقائق التاريخ مزيفة أصلاً[(٣)] فتكشف عملية التجديد أو إعادة الكتابة عن ذلك الزيف وتعيد الأمور إلى نصابها، وقد عانينا نحن في الجزائر الكثير من هذا الزيف في الفترة الاستعمارية[(٤)]، وأظن أن البلاد العربية كلها في حاجة إلى مراجعة تاريخها في ضوء العلم الحديث وثقافة المؤرِّخين أنفسهم والمعطيات والوثائق الجديدة، والمؤرخون هم المؤهّلون بالطبع للقيام بهذا الدور؛ لأن إعادة كتابة التاريخ ليست مجرد القدرة على الكتابة أو الحصول على المؤهل العلمي، بل هي قبل

---

(١) قامت مجلة المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسوريا بطرح أسئلة على مجموعة من الباحثين بعنوان «إعادة كتابة تاريخنا القومي»، ثم طبعت إجاباتهم وأصدرتها في كتاب بعنوان «كيف نكتب تاريخنا القومي؟»، وفي حلقة العمل التي عُقدت بجامعة الكويت عام ١٣٩٤هـ حضر الدكتور عبدالعزيز الفدا مدير جامعة الرياض آنذاك تلك الحلقة، وبعد انتهاء جلساتها أجرت معه مجلة المجتمع الكويتية مقابلة في العدد ٢٣٢، وقد أبدى كثيراً من التحفظات وقال: إن المشروع ينقصه العلماء المتخصصون في الشريعة.

(٢) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١١ - ١٣.

(٣) يعني ما يُظن أنه حقيقة تاريخية، وذلك لأن الحقائق لا توصف بالزيف.

(٤) الأصح وصفها بالاستخرابية.



كل شيء الالتزام بشرف المهنة، والشعور بالمسؤولية نحو الجيل والأمة والتاريخ، ومن ثَم ليس كل مؤرخ مؤهلاً للقيام بهذا الدور».

ثم حث على إعادة كتابة التاريخ على أيدي مجموعة وليس فرداً من الناس فقال:

«نحن في عصر لم يعد فيه الجهد الفردي قادراً وحده على تلبية حاجات الناس وشغفهم بالمعرفة، ولذلك فإن إعادة كتابة التاريخ قد تنطلق من هيئات متخصصة، أو من أفواج عمل تسندها مراكز البحث أو الجامعات، ولا شك أن ذلك يساعد المؤرخ على التفرغ لمشروعه ويكفيه مؤونة البحث عن الوثائق والتفكير في تكاليف الطبع ونحوها»[1].

٤ ـ قضية الأخذ بمناهج المحدثين في تصحيح الأخبار التاريخية الواردة في كتب السيرة والتاريخ:

إن المتعرِّض لإعادة كتابة سيرة رسول الله ﷺ إنما يتصدى لأمر عظيم، كثرت أخباره، واتسعت تفاصيله، وتفرقت في الكتب الكثيرة، وأكثر تلك الأخبار قد ورد بسند، وبعضها الآخر بدون سند، وأكثر الأخبار قد جاء صحيح الإسناد، وبعضها الآخر قد ضعف إسناده أو وهى وسقط، فكيف تورد تلك الأخبار؟

وكذلك حال المتعرض لكتابة التاريخ الإسلامي منذ عصر الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم؛ إذ كيف يصنع بالأخبار الواردة صحيحها وضعيفها وما كان منها بدون سند؟!

وهاهنا سأورد التعامل مع السيرة النبوية مثالاً، وأترك كتب التاريخ لأن التعامل معها قريب من التعامل مع السيرة فلا داعي للتكرار.

---

(١) «حوارات»: ١٧٩ - ١٨٠.



إن علماء الإسـلام ومؤرخيه في ذلك على طرفين ووسط، فقسم أورد كل شـيء، ولم يقنع إلا أن يأتي بكل ما وقف عليه من السيرة غير آبه بدرجته من الصحة والضعـف والوضع، وهؤلاء كلهم من القدامـى[١]، فإني لا أعرف أحداً من المعاصرين سلك هذه السبيل.

وقسـم آخر من العلماء شـدَّد وأبـى إلا أن يأخذ بمناهـج المحْدَثين في التصحيح والتضعيف، ورفض الأخبار التي عليها مخايل الضعف، وجُلُّ هؤلاء بل ربَّما كلهم من المحْدثين[٢].

وقسم آخر توسط فأخذ من السيرة جلّ أخبارها، ونقد ما يراه من ضعف أو نكارة أو وضع[٣].

أما القسـم الأول فلا يُعَوّل على ما يورده من الأخبار الموضوعة أو شديدة الضعف أو الغريبة المنكـرة، وإنما يؤخذ منه ما وافقه عليـه الجمهرة من رواة السـيرة؛ إذ إن القارئ يقرأ في تلك الكتب غرائب وعجائب لا تليق بسيرة سيِّد المرسلين ﷺ.

وربما كان مثل هذا الخلط هو الباعث على الصيحة التي صاحها المنادون بوجوب كتابة السيرة على قواعد المحدثين.

وأما القسـم الذي شـدد في قبول الأخبار، ولم يقبل منها إلا ما صحَّ على وَفْق منهج المحدثين فأرى أنه لم يسلم من الشطط، فقد أسقط بهذا من السيرة

(١) وعلى رأس هؤلاء الإمام الصالحي في كتابه الضخم «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ» والحلبي في «السيرة الحلبية».

(٢) انظر مقدمة د. عمر الأشقر على كتاب الشيخ إبراهيم العلي «صحيح السيرة النبوية»، وانظر مقدمة د. مهدي رزق في كتابه «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية».

(٣) وعلى رأس هؤلاء الإمامان الذهبي وابن كثير على تفاوت بينهما؛ فالذهبي أكثر تحرياً وأحسـن ضبطاً وأقوى نقداً، وإن كان نفَسُـه في نقد مرويات السـيرة أقل من نفسـه فـي نقد المرويات التاريخية الأخرى.

أحداثاً تفصيلية مهمة بدعوى أنها لم تثبت ثبوت الأخبار الحديثية، وإليكم هذا النص الموضح لما ذهب إليه أهل هذه المدرسة:

«إن كتب المغازي والسير تشتمل على الروايات الضعيفة والموضوعة، ولكنك تجد لكل رواية إسناداً[(١)]، والواجب على الباحث أن يحقق هذه الأسانيد ويختار الصحيح منها»[(٢)].

وأقول: إن الباحث إن صنع هذا فسيترك تفصيلات مهمة يحتاج إليها الجيل لكنها لم تثبت بسند صحيح ولا ضير في إيرادها، وقد رأينا مَن كتب في السيرة النبوية الصحيحة فأسقط عدداً من الروايات بدعوى ضعفها وهي مفيدة في إظهار النص وتبيينه أو تكميله، قال الدكتور أكرم ضياء العمري[(٣)]، حفظه الله تعالى:

«ينبغي الانتباه إلى أن الانتقاء عندما يتمّ وفق قواعد صارمة فإنه يدع مجالاً لتفلُّت العديد من النصوص التاريخية التي يمكن التعامل معها وفق معاييرَ أقلَّ صرامة، ومِن ثَمّ فإن قراءة نصوص الواقدي[(٤)] وفق منهج النقد التاريخي تتيح الفرصة لإضافات أخرى لمادة السيرة، وهذا ينطبق على الروايات التي أوردها ابن إسحاق[(٥)] دون إسناد... إن هؤلاء الرجال المتخصصين في فن السيرة قد عوملوا من قبل النقاد القدامى بتساهل كبير بغية الإفادة من رصيدهم التاريخي الهائل»[(٦)].

---

(١) في هذه الكلية نظر؛ فإن أخباراً كثيرة قد وردت بلا إسناد.

(٢) «دراسات في السيرة النبوية»: ١٠٧.

(٣) أستاذ مؤرخ عراقي معروف، درّس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة النبوية عشرين سنة، ثم درّس في جامعة قطر سنين عديدة، وهو الآن متفرغ في قطر للشؤون العلمية، له مصنفات نافعة جدًا، ودراساته التاريخية مرتبطة بالشريعة وقواعدها، وهذا في المؤرخين قليل، حفظه الله تعالى.

(٤) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي، المدني القاضي، نزيل بغداد. متروك مع سعة علمه. مات سنة ٢٠٧ وله ٧٨ سنة رحمه الله. انظر «التقريب»: ٤٩٨.

(٥) محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ الأخباري أبو بكر ـ وقيل: أبو عبد الله ـ القرشي المطلبي مولاهم المدني صاحب السيرة النبوية. كان جده يسار من سبي عين التمر في دولة خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ولد سنة ٨٠ وتوفي ١٥٠، انظر «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٦٧٣/٢.

(٦) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢٠.

«والمطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام. .. أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي... أما الروايات المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالَّة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها»[1].

هذا وليعلم أني وجدت أن مَن شدد في عدم قبول رواية من الروايات إلا أن تكون صحيحة، واشترط هذا في كتابه الذي صنَّفه وجدت أنه لا ينفكُّ من إيراد بعض الضعيف ليكمل به النقص والفجوات التي لا تكملها الروايات الصحيحة، وهذا ـ عندي ـ مقبول، وبه يقترب أهل هذا القسم ممن صنف في القسم الثالث الذي سأورده بعد هذا إن شاء الله تعالى، فصارت القسمة ـ على الحقيقة ـ ثنائية:

قسم تساهل، وقسم أخذ بالصحيح إلا ألَّا يجد غير الضعيف على التفصيل الذي ذكرته، والله أعلم.

وأما القسم الذي توسط فهو الذي إليه أميل وعليه أُعَوِّل، وأرى أنه حافظ على رونق السيرة وجمالها بدون إفراط ولا تفريط، وأتى بالأخبار التي رواها جلُّ الشيوخ الأوائل الذين جمعوا سيرة المصطفى ﷺ.

ولذلك كله أرى ـ والله أعلم ـ أن ضوابط إيراد أخبار السيرة في هذا القسم ـ قسم دخول الأخبار تحت دائرة القبول ـ هي التالي:

١ ـ ما كان فيها من أخبار تتعلَّق بالعقائد، أو الفتن، أو الحكم على الأشخاص بالنفاق أو الكفر، أو الإخبار بالمغيبات فهذا لا بدَّ من أن يثبت بسند صحيح أو حسن لذاته أو لغيره، على حسب التفصيل الوارد في كتب دراسة الأسانيد الحديثية، ولا يُقبل في هذا القسم الأخبار الضعيفة.

---

(١) المصدر السابق: ٤٠.



٢ ـ ما كان فيها من أخبار متعلِّقة بالكمالات النفسية، والمجاهدات، والرقائق، وأخبار الزهد، والشجاعة، والبطولات، وغير ذلك مما لا تعلُّق له بالقسم الأول، ما كان فيها من هذا الباب من أخبار فإنه يقبل بالضوابط التالية:

أ ـ أن تكون واردةً في كتب السيرة الأصلية وليست الفرعية، ومن تلك الكتب الأصلية «سيرة ابن اسحاق»، و«سيرة ابن هشام»، و«طبقات ابن سعد»[١]، ونحوهم ممن جمعوا أخبار السير عن أشياخهم الذين كانوا بين صحابي وتابعي.

ب ـ ألا تكون مما يفحش ذكره، ويسوء إيراده، وذلك كما قال ابن هشام:

«وأنا ـ إن شاء الله ـ ... تارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لِما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعضٌ يسوء بعضَ الناس ذكره..»[٢]

ج ـ ألا تكون من الإسرائيليات، فهذه لها حكم خاص بها.

د ـ ألا تكون خارجة عن القواعد العامة للشريعة الإسلامية ومقاصدها العلية.

ثم إن هذه الأخبار قد تَرِدُ بإسناد ضعيف وقد ترد بدون إسناد، وهذا لا ضير فيه ـ عندي ـ إن اندرجت تحت ما ذكرته آنفاً من الضوابط؛ وذلك لأن وجود هذه الأخبار في تلك السير الأصلية الأولى باعث على الاطمئنان على أن لها أصلاً، وذلك لأسباب منها:

---

(١) محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحجة، أبو عبدالله البغدادي، كاتب الواقدي، ومصنِّف «الطبقات الكبرى» في بضعة عشر مجلداً، و«الطبقات الصغرى» وغير ذلك. ولد بعد الستين والمائة وتوفي سنة ثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة: انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/٦٦٤.

(٢) مقدمة سيرة ابن هشام.

١ ـ اشتهار تلك الأخبار بين السلف الأوائل في القرن الأول والثاني، وابن إسحاق ـ على سبيل المثال ـ صاحب السيرة المشتهرة إنما هو منهم، وقد رأى بعض الصحابة، وهو مدني وأشياخه مدنيون كانوا قد ورثوا أخبار السيرة واشتهرت بينهم، فلا يضر ورودها ـ إذن ـ بإسناد ضعيف أو بدون إسناد.

بل إن الواقدي الذي هو مجمع على تركه يقول فيه الحافظ ابن حجر:

«والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا»[1].

وقال فيه الإمام الذهبي رحمه الله:

«لا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم.. وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ وتورد آثاره من غير احتجاج»[2].

ومعنى هذا أن الواقدي إن جاء ببعض التفصيلات التي لا توجد عند غيره وليست هي داخلة في باب العقيدة والشريعة وما شابههما مما ذكرته آنفاً فلا بأس بإيراده مع علمنا أنه ضعيف متروك؛ وهذا حتى لا تضيع تلك التفصيلات ذوات الفائدة.

٢ ـ ثم إن علماء السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ قد قبلوا تلك السير من غير نكير أعلمه، وارتضوها بل رواها كثير منهم وتداولوها، ولو أنهم توقفوا في صحتها أو شكّوا في نكارة بعض أخبارها لذكروه ولجهروا بذكره، فشيء قد قبله السلف والتفّوا حوله، ورووه وارتضوه أفنأتي نحن المتأخرين لنحذفه بدعوى أنه ورد بإسناد ضعيف أو بدون إسناد!! إنما ينبغي أن نتشدّد في الأخبار الواردة في الفتن والأحكام والعقائد ونحوها، أما أخبار

---

(١) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» د. مهدي رزق الله أحمد.

(٢) المصدر السابق

البطولات والرقائق والكمالات فما وجه التشـــدد فيها إذا كانت واردة على الوجه الذي ذكرته آنفاً؟!

وقد قال الأســتاذ أكرم العمري ـ حفظه الله تعالى ـ وهو من كبار المهتمِّين بقضية تصحيح السيرة وتنقيتها:

«قد تبرز معــان خلقية ودينية مؤثِّرة في الروايات التــي أهملتها، لكنني لم أكترث لذلك ما دامت ضعيفة الثبوت، وقد ظهر جليّاً أن الاعتماد على صحيح الروايات وحسنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسُنَّة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات»(١).

ثم قال مقيداً وموضحاً، وأوافقه تماماً على ما قاله:

«ويلاحظ القارئ أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تستبعد نهائيّاً بل تمَّت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة حيثما لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدثين. ..»(٢).

وختامــاً أقــول: إن تاريخنا ثريٌّ غني، ليس لأمة من الأمم عشــر معشــار ما لدينا من أخبار الأسلاف والأجداد العظام، وكثير منها متصل صحيح، فتاريخ مثل هذا هو فخر لنا وعزة فينبغي المحافظة عليه، والاهتمام به الاهتمام اللائق، وعدم تضييعه بالتدقيق الزائد والمحاكمة الظالمة التي تجتاح كثيراً من التفاصيل المهمة والدقائق العظيمة تحــت عنوان برّاق جذّاب مثل إعادة كتابة التاريخ، أو تمحيص الأخبار، أو غربلة التواريخ، أو غيــر ذلك مما هو حق ومطلوب لكن الســبيل إليه مما تختلف فيها الأنظار، وتتفاوت فيها مســالك الفهوم، وحسبي أني أوضحت الذي أراه حقاً في المسألة، وأترك الحبل رَخِيّاً لمن أراد التعقيب والمناقشة، والله تعالى الموفِّق.

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢٩.

(٢) المصدر السابق.



٥ ـ فهم مناهج المؤرخين:

إن فهم مناهج المؤرخين في كتابتهم الأحداث التاريخية أمر لا بدَّ منه لمريد التخصص في التاريخ؛ ذلك أن منهج أيِّ مصنف متأثر بزمانه ومكانه، ودرجة وعي المؤرخ وعلمه، فلا بدَّ من معرفة أحوال مجتمعات المؤرخين القدامى، وكيف عاشوا، وما هي الأمور التي أثرت عليهم وعلى كتاباتهم التاريخية، وذلك كله اليوم سهل؛ فقد وُجدت ثروة جليلة من الدراسات التي عُنيت بالمؤرخين وعصورهم وأحوالها الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية يمكن الرجوع إليها بسهولة فيما نشر من رسائل «الدكتوراه» و«الماجستير» التي عُنيت بمناهج المؤرخين، وهناك بعض الدراسات القديمة نسبياً منها:

كتاب «التاريخ والمؤرخون العرب» للأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم[1].

وكتاب «التاريخ العربي والمؤرخون» للأستاذ شاكر مصطفى[2].

---

(١) مؤرخ مصري وأستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ورئيس قسم التاريخ والآثار فيها. ولد في طنطا سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م. حصل على بكالوريس في قسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٠ ودبلوم الدراسات الإسبانية من جامعة مدريد سنة ١٩٥٧. وتدرج في عدة وظائف ومناصب، وحصل على جوائز وأوسمة، وله عضويات علمية عديدة في جمعيات واتحادات ومعاهد. وله مؤلَّفات وأبحاث كثيرة بين تأليف وتحقيق ترجمة، توفي رحمه الله لكن لم أقف على تاريخ وفاته ومكانه. انظر ترجمته في شبكة المعلومات الإنترنت.

(٢) مؤرخ، أديب، ولد بدمشق سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م، وتخرج في مدرستها التجهيزية وفي دار المعلمين. شارك في الحركة الوطنية وساعد الثوار ضد الفرنسيين وتعرض لأذاهم، نال إجازة التاريخ من مصر والدكتوراه من سويسرا. وأجاد الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية، وعين في وظائف في السلك التعليمي والسياسي، وصار سفيراً في كولومبيا والبرازيل، ثم صار وزيراً للإعلام، ثم انتقل إلى الكويت وعُين في وظائف عليا فيها، له أكثر من خمسين كتاباً. توفي بدمشق سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. انظر «إتمام الأعلام»: ١١٩ ـ ١٢٠.



وكتاب «المسـلمون وكتابة التاريخ: دراسـة في التأصيل الإسـلامي لعلم التاريخ»: للأستاذ الدكتور عبدالعليم خضر.

وكتاب «المسيرة الإسلامية للتاريخ» للدكتور منير الغضبان[1].

٦ ـ الاطلاع على الشبهات المثارة حول التاريخ الإسلامي:

ينبغي لمريد التخصص في التاريخ أن يطلع على ما أثير من شـبهات كثيرة عليه سواء من قبل المستشرقين والكَنَسـيّين أعداء الإسلام أو من قِبَل مَن فهم التاريخ خطأ من المسلمين أنفسـهم، كالتنويريين القدامى والجدد[2]، ومن قِبَل غير المسلمين من العرب الذين عاشوا بين ظهرانينا ودسُّوا السّمَّ في الدسم مثل جورجي زيدان[3] الذي استمرأ الكذب والتحريف في رواياته التاريخية.

وهذه الشـبهات لا تكاد تتـرك عصراً مـن العصور الإسـلامية إلا ورمته بسهامها؛ منذ الصدر الأول إلى يوم الناس هذا.

وهي شـبهات تجد من يرددها ويسـعى لتثبيتها في أذهان عامة المسلمين وخاصتهم، وهي إن صُدّقت وأخذ بها واعتُبرت مُسلّمة فإنها ستعود بآثار خطيرة على الفكر والثقافة، وستدمر الصورة الناصعة لأسـلاف المسلمين اليوم الذين يريدون العودة بالإسلام إلى ماضيه المجيد، وريادته السليبة.

---

(١) أستاذ داعية معروف، من سوريا، له عدة مصنفات، يعيش في مكة الآن، حفظه الله.

(٢) أعني بالتنويريين ـ هنا ـ بعض من كتب في التاريخ الإسـلامي مُدَّعيـاً أنه يريد التحديث والتنوير، وينصر ما جرى في أوروبا منذ عصر النهضة من مسـاوئ ومفاسـد ويتمنى أن يشاهد مثله في ديار الإسلام!! والقدامى منهم هم الذين برزوا في القرن قبل الماضي وأوائل القرن الماضي، والجدد هم من جاؤوا بعدهم إلى يومنا هذا، وربما أُفرد الحديث عنهم ـ إن شاء الله تعالى ـ في رسالة قادمة.

(٣) جورجي بن حبيب زيدان منشئ مجلة الهلال بمصر، وصاحب التصانيف الكثيرة. ولد ببيروت سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م، وتعلم بها، ثم رحل إلى مصر. له مصنفات فيها آراء خبيثة دسَّ فيها السُّـمَّ في الدسم. توفي بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م. وانظر «الأعلام»: ١١٧/٢.

وهنـــاك جهود حديثة حثيثة بُذلـــت منذ القرن الماضي إلـــى الآن من أجل تشويه التاريخ الإسلامي وتزييف أحداثه، وإضعاف الثقة به، وإليكم هذا النص المعبر عن بعض هذه الجهود مما تسرب إلينا، وما خفي كان أعظم:

«كان ممـــا قـرره المؤتمر الصهيوني في بالـتيمور بأمريـكا ســـنة ١٩٤٣م /١٣٦٢هـ ـ والـذي حـضره اليهـودي ابـن جوريون[١] ـ مضاعفة الجهد لتزييف التاريخ الإســـلامي، والتركيز على ثورات الزنج والقرامطة والباطنية، وتصويرها على أنها حركات تقدمية تمثل العدل الاجتماعي»[٢].

وبهذا النص وأمثاله تفهم أغراض الكتابات المريبة التي ســـطَّرها أقوام لهم أسماء عربية وإسلامية وفيها تشويه تام لتاريخنا ومواطن الفخر والعزة فيه.

وهناك جملة من هذه الشبهات تفتقر إلى تفنيد وبيان بمنهج علمي صحيح، وقد تكفلت كتب ببيان تلك الشبهات والرد عليها، فمن ذلك:

«العواصم من القواصم» للإمام ابن العربي المالكي[٣].

«تاريخنا المفترى عليه» للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي.

«أغاليط المؤرخين» للأستاذ الدكتور محمد أبي اليسر عابدين[٤].

---

(١) صهيوني مشهور. ولد في بولندا سنة ١٨٨٦. ارتحل إلى فلسطين سنة ١٩٠٦ ثم تنقلت به الأحوال حتى ولي رئاســـة وزراء الكيان المســـخ منذ ســـنة ١٩٤٨ لمدة طويلة، وهو مؤسس حزب العمل. هلك سنة ١٩٧٣. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٠٥ نقلًا عن كتاب الأستاذ أنور الجندي رحمه الله «تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات»: ١٥٤.

(٣) الإمام العلامـــة، الحافظ، القاضـــي أبو بكر محمد بـــن عبدالله بن محمد، ابن العربي الأندلســـي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٤٦٨هـ، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، توفي سنة ٥٤٣ بفاس رحمه الله. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٩٧ ـ ٢٠٤.

(٤) محمد أبو اليســـر بن محمد أبي الخير بن أحمد، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما. كان مفتي الشام في عصره. ولد بدمشق سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م. درس الشـــريعة وكان في الوقت نفسه طبيباً، =



«أباطيل الأباطيل» للأستاذ حُسْني شيخ عثمان[١].

والفصل الرابع من كتاب «فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية» للأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس.

وللرد على شـــبهات الكنسيين والمستشــرقين والماركسيين ينظر في كتاب «دراسات تاريخية» فصل «معطيات المستشـــرقين إزاء السيرة» للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.

لكنني في هـــذه العُجالة أريد أن أُعرِّج على شـــبهة خطيـــرة أثارها عدد من اللادينيين «العلمانييـــن» والمتفلتين المتحررين من ربقة الشـــريعة «الليبراليين» وغيرهم من المخدوعين ممن حسنت نيته وساء فهمه، ألا وهي شبهة أن الحكم الإســـلامي لم يقم إلا في أيام الخلفاء الراشـــدين وما عدا تلك المدة فلا، وهذه شـــبهة خطيرة؛ لأنَّ مؤداها أن الحكم بالإســـلام إذا لم يكن قائمـــاً زمن الصدر الأول فهو أحرى ألا يكون ممكناً اليوم، ومرادهم من إثارة هذه الشبهة هو الآتي:

أولاً: إضعاف صلة مســـلمي اليوم بأســـلافهم، وإفقادهم الثقـــة بتاريخهم، وصبغه بسواد حالك حتى لا يعودوا يعتزّون به أو يفتخرون.

ثانياً: قطع رجاء المســـلمين اليوم من العودة إلى تحكيم الإســـلام من جديد، فإذا كان الإسلام لم يحكم في العهود السلفية الأولى التي يتغنَّى بأمجادها الأجيال فهل سيحكم في القرن الخامس عشر الهجري/ الحادي والعشرين الميلادي؟!

ثالثاً: قطـــع الطريق أمام الحركات الإســـلامية المطالبة بالعـــودة إلى تحكيم الإسلام في الأرض، وإثارة الغبار في وجوه مطالبها بهذا الزعم الغريب والعجيب.

= شارك في الثورة السورية على الفرنســـيين. له مؤلفات كثيرة. توفي ســـنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م. انظر ترجمته في «إتمام الأعلام»: ٤٢١.

(١) أستاذ ســـوري معاصر، من حماة، وعمل في رابطة العالم الإســـلامي في مكة المكرمة. أظنه لازال حيّاً، حفظه الله تعالى، وكتابه هذا رد فيه على إبراهيم شعوط مؤلف كتاب «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ»، وله كتاب في التجويد معروف متداول اسمه «حق التلاوة»، وله كتب أخرى.

رابعاً: اتهام كل ما سبق من دول وسلطنات وخلافات بهذا الجرم العظيم ألا وهو عدم تحكيم الإسلام، وبهذا يضمحل احترامهم في أذهان الأجيال الحاضرة والقادمة.

خامساً: وليصلوا من خلال كل ذلك إلى الزعم بأن الإسلام يتناول شطر الدين في حياة الناس فقط، أما الدنيا وسياستها وسَوْس أهلها في مجالات حياتهم المختلفة فليس للإسلام فيه حظٌّ ولا نصيب.

والعجيب أنهم بنوا شبهتهم تلك على ما يلي:

١ ـ أن نظام الحكم الإسلامي الشوري المبنيّ على إرادة الأمة واختيارها قد انقطع بعد الخلفاء الراشدين وأصبح الملك عضوضاً ثم جبريّاً.

٢ ـ الظلم الذي كان سِمَة بعض الأنظمة الحاكمة على امتداد التاريخ الإسلامي.

ولنقض هذه الشبهة ينبغي أن يُعلم ما يلي:

أولاً: إن نظام توريث الحكم الذي أخذ به بنو أمية ومَن بعدهم من الخلفاء والسلاطين هو نظام منتج لملك عضوض وجبري، ويمثل مخالفة واضحة لطريقة تنصيب الحاكم في الإسلام، لكن يظل جزءاً من كل، ولبنة نُزِعت من بناء محكم، نعم هي لبنة مهمة ومؤثّرة لكن البناء لم يزل قائماً وبقوة على امتداد تاريخ الإسلام، وأعني بالبناء أن المرجعية في شؤون الحياة المختلفة كانت في أغلب الأحيان للإسلام، وكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ هما المرجع للأمة في شؤونها، ولم يسقط هذا البناء إلا بعد أن وطئت قدما المستخرب العالمي ديار الإسلام ونحّى الحكم بالقرآن وبسنَّة سيد الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنشأ المحاكم التي تحكم بالقوانين البشرية، وأضعف المحاكم الشرعية أو ألغاها، ونحى الإسلام عن تناول شؤون السياسة، والاقتصاد، والإعلام، والفكر، والثقافة، وأتى بجملة من الحكام كانت صلتهم بالإسلام ضعيفة أو معدومة ساهموا في تعطيل مسيرة الحكم الإسلامي أو إضعافها وإماتة أثرها.

ثانياً: إن المستقرئ لتاريخ الإسلام استقراء تامّاً واعياً متأنياً ليخرج بقناعة تامة أن هذه الأمة سِيست بالإسلام، وكان الإسلام هو مدار حياتها والقائم على شؤونها، والمهيمن على حركتها، ولتوضيح ذلك لا بدَّ من ذكر التالي:

أ ـ النظام القضائي:

كان القضاء ـ في الجملة ـ مرتبطاً بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، وكان القضاء في أغلب أحيانه مستقلاً عن السلطة التنفيذية، وضرب كثير من القضاة على مدار التاريخ أروع المثل على النزاهة والاستقلال والعدل.

ب ـ النظام الاقتصادي:

كانت المعاملات المالية تخلو أو تكاد تخلو من الربا، والمرابون من اليهود وغيرهم في خبايا الزوايا لا يجرُؤون أن يجاهروا بصنيعهم، ولم يتغيّر هذا إلا في العصر الحديث، وللسيطرة الاستخرابية العالمية على بلداننا في العصر الحديث السبب الأكبر في هذا، كما بينت آنفاً.

ج ـ النظام السياسي:

الخليفة أو السلطان ومن يساعدهما من الوزراء والأمراء كانوا ـ في الجملة ـ مسلمين مخلصين وإن تناولوا شيئاً من الشهوات الحرام أو وقعوا في شيء من الشبهات الضالّة، والسياسة الخارجية كانت تدور حول الإسلام ونصرته وإعداد العدة للجهاد إذا لزم الأمر واحتدم الخطب، وكان الحكام ـ على سوء في بعضهم ـ مناصرين للإسلام، مخلصين، لا يفكرون في خذلان المسلمين ولا تضييع شعائر الدين.

وكان بين الساسة خلاف لكنه لا يصل إلى حد خيانة المسلمين وتضييع الإسلام الذي يأخذ به كل منهم، والخلاف بين الحكام السُّنَّة زمن ضعف الخلافة العباسية وانفراط عقدها مثال على هذا[1].

---

(١) يستثنى من هذا بعض خونة الحُكّام في الأندلس وفي بعض البلاد الأخرى.

فما أعظم الفرق بين حُكّام المسلمين آنذاك وبين أكثر حكامنا اليوم.

وكانت الشــورى قائمة ـ في الجملة ـ وأهل الحل والعقــد متوافرين، وإن نحّاهم الحكام ـ في بعض الأحيان ـ فإنما نَحّوهم عن الشــورى الملـزمة، أما الشــورى الـمُعْلِمة فكانت لا تكاد تُترك على مدار تاريخ الإسلام، وبين الفقهاء خلاف معروف في كون الشــورى معلمة أو ملزمة، وإن كنـــت أميل إلى كونها ملزمة خاصة في العصور المتأخرة التي ضعف فيها سلطان الدين على النفوس.

د ـ نظام الحِسبة:

كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاشياً في الدولة الإسلامية، ولو خالطه ضعف في بعض الأزمنة لكنه ظــلَّ قائماً، مرعيّ الجانب، موفــور المهابة، يتناول كثيــراً من جوانب حيــاة المســلمين، ويُقوّم كثيــراً من خللهم وضعفهــم، وكانت المنكرات مستورة، فمن ذا الذي يجرؤ على فتح حانة للخمور، أو بيت للدعارة، أو مكان للقمار على وجه الاســتعلان والظهور؟! ومن كان يفكر أن يكتب الكتب في التهوين من شأن الإسلام وتقويض أركانه وإهانة علمائه ودعاته كما يحصل اليوم؟!

إن كل هذا الــذي ذكرته كان قائمــاً وبقوة في الألف ســنة الأولى لحكم الإسلام، ثم أخذ في التقهقر والضعف لا الزوال، إنما يتقهقر في منطقة ويقوى في أخرى لكن الخط البياني كان إلــى نزول، لكن ليس إلى زوال، ثم أخذ في الصعود منذ ثلاثين ســنة خلت تقريباً إلى اليوم، وكل المؤشرات تدلُّ على أنه في صعود مستمر ولله الحمد إلى أن يبلغ غايته.

ثالثاً: إن كثيراً من الدول قامت بنصرة الإسلام ورعايته وحياطته، والعمل به فــي الأرض، فالدولة الأموية التي يتهمها أهل الشــبهات اليوم بأنها فرطت في الحكم بالإسلام بتوارثها الملك هي الدولة التي نصرت الشريعة وفتحت البلاد، وأنارت قلوب ملايين العباد، وأزالت عنهم الشرك والظلم والظلام.

وكذلك فعل بنو العباس في كثير من مراحل حكمهم.

وكذلك فعل الأيُّوبيون والمماليك.

ودولة نور الدين زنكي[١] التي كانت هدية من الله لأهل الإسلام.

وكذلك الحال في زمان كثير من سلاطين السلاجقة وبني عثمان.

والدولة المغولية في الهند وسيدها أورانج زيب عالمكير[٢] الذي حكم الهند خمسين سنة أعادت للأذهان ذكرى حكم الراشدين.

والغزنوي[٣] وسلطنته الباهرة في أفغانستان.

وابن تاشفين[٤] وسلطنة المرابطين.

وسلاطين الموحّدين في المغرب.

وممالك إفريقيا وسلطنة ابن فُودي[٥].

---

(١) نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، أبو القاسم التركي، السلطان الكبير العادل الزاهد، صاحب المعارك الكثيرة مع الصليبيين، وهو الذي مهّد الطريق لبيت المقدس لخليفته من بعده صلاح الدين رحمهما الله تعالى. عدّه بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين لصفات فيه لم تكن لملك في الإسلام بعد معاوية ﷺ. توفي ﷺ سنة ٥٦٩. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥٣١/٢٠ وما بعدها.

(٢) الإمام المجاهد المظفر محي الدين محمد أورانج زيب عالم كير ابن شاهجهان. سلطان المغول في الهند. وحاكمها قرابة خمسين سنة. كان عادلاً شجاعاً، قوياً، مرهوب الجانب. نشر الإسلام في معظم القارة الهندية التي دانت له كلها ولم تَدِن لأحد من أباطرة المغول قبله. له فضائل كثيرة. ولد سنة ١٠٢٨ وتوفي بالدكن من أرض الهند سنة ١١١٨. انظر ترجمته في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ١٢٩/٦ ـ ١٤٣.

(٣) أبو القاسم محمود بن سُبُكتكين التركي، الملك يمين الدولة، فاتح الهند، وصاحب خراسان. رزق النصر والتمكين في جهاده ضد كفرة الهنود على وجه عجيب، توفي بغزنة ـ من أفغانستان اليوم ـ ودفن بها سنة ٤٢١ ﷺ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤٨٣/١٧ وما بعدها.

(٤) أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني البربري الملثم، أمير المرابطين والمنشئ الحقيقي للدولة. أنشأ مراكش في المغرب وجعلها عاصمته، وكانت له اليد الطولى في نجدة مسلمي الأندلس وثبت الإسلام فيه بعد انتصاره على الإسبان في معركة الزلاقة سنة ٤٧٨. توفي سنة ٥٠٠ وهو قريب المائة ﷺ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٥٢/١٩ وما بعدها.

(٥) داعية عالم مجاهد، من قبائل الفولّان ـ الفلّاته ـ ولد سنة ١١٦٨هـ/١٧٥٤م في مملكة جُوبَرا إحدى ممالك بلاد الهوسا، ودرس العلم الشرعي حتى صار مجتهداً في المذهب المالكي، وتسامع =



وسلطنة المهدي[1] وخلفائه في السودان، على دَخَن فيها.

وكثير من حكام اليمن.

وغير أولئك كثير من الممالك والسلطنات والإمارات التي قامت على الإسلام وبالإسلام وضربت أروع المثل في تحكيم الكتاب والسُّنَّة.

أفإن قامت أكثر تلك الدول بتوريث الملك يقال: إنها لم تكن تحكم بالإسلام، اللَّهُمَّ إن هذا تلبيس مقرون بتدليس، وغش وخداع.

رابعاً: قد قامت في الإسلام دول لا تأخذ بمبدأ التوريث وقام عليها الزيدية والإباضية، فلا يورثون الحكم إلا لمن يرونهم أصلحهم وأعدلهم وأجدرهم بتولي مقاليد الحكم، وهذا حدث في دولة الزيدية في اليمن وجيلان وطبرستان وتلك البقاع، وبعض مدد حكم الإباضية وغيرهم من الخوارج، وقامت دول على هذا الأساس بل هناك تجارب لأهل السُّنة فسليمان بن عبد الملك[2] لم يورث أولاده ولا إخوانه إنما ورَّثها عمر بن

= به الناس وأقبلوا على دروسه حتى صار له أتباع سُمّوا بالجماعة، وصار هو يلقب بالشيخ، وجاهد بأتباعه الكفار والضُّلال حتى استطاع أن يقيم دولة إسلامية قوية عاصمتها سوكوتو في نيجيريا اليوم وامتدت حدود دولته فيما يعرف اليوم بنيجيريا وأجزاء من تشاد وأجزاء من الكاميرون، وأقام دولته على النظام الإسلامي. توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م وولّى أهل الحل والعقد ابنه محمداً بَلُّو مكانه. انظر ترجمته في «عظماء منسيون»: ٢٧/١ - ٣٩.

(١) محمد بن أحمد بن عبد الله، المهدي السوداني. ولد في جزيرة تابعة لدنقلة في السودان سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م من أسرة حسينية النسب. تعلم على يد أبيه ثم درس في الخرطوم، ثم انقطع في جزيرة أبا في النيل الأبيض ١٥ عاماً للعبادة والتدريس وكثر مريدوه واشتهر بالصلاح. ثم ادعى المهدية سنة ١٢٩٨. وصار أتباعه يدعون إلى الجهاد، ودخل في معارك مع المصريين وقوادهم من الإنجليز فانتصر عليهم جميعاً ودان السودان كله له، وكان خطيباً فصيحاً قويَّ الحجة. مات في أم درمان سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م متأثراً بالجدري، وقد أوصى بالخلافة من بعده لعبد الله التعايشي. انظر «الأعلام»: ٢٠/٦.

(٢) سليمان بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي الخليفة. أبو أيوب. توفي سنة ٩٩ رَحِمَهُ اللهُ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١١١/٥ وما بعدها.

عبدالعزيـز وكان أصلح أهل بيتـه بل ربما كان أصلح المسـلمين في زمانه لتولِّي مقاليد الحكم.

والمأمـون[١] ولّى ولايـة العهد علي بن موسـى الرضا[٢] وهـو ليس من العباسـيين أصلاً بل هو من ذرية النبي ﷺ وأحد ثقات أهل السُـنة والجماعة ولولا أنه مات قبل المأمون لتولَّى الخلافة.

والمماليك كانوا يولون ـ في الغالب ـ الأصلح منهم أو الأقوى ولا يعرفون نظام الوراثة هذا إلا نادراً، وقد امتدّ حكمهم قرابة ثلاثة قرون.

إذن؛ كانت هناك تجارب لأهل السُنة والجماعة وغيرهم وهي تجارب قوية في عدم توريث الحكم، فالتعميم غير صحيح ولا تسـاعده الحقائق التاريخية، ولا الكتابات السياسية الإسلامية.

ثم إن أنظمة الحكم الإسـلامي كانـت تأخذ بالشـورى ـ مُعْلمةً كانت أو ملزمة ـ في أغلب أوقاتها، وكانت مجالس الحل والعقد ـ سـواء أكانت رسمية أم شـعبية ـ قائمة من الأندلس إلى الهند، وكان أكثر العلماء ينصحون الحكام ويبتعدون عن دنياهم، ويتقربون إلى الله ـ تعالى ـ بمواقفهم الصلبة التي تسـدد الحكام وتعيدهم إلى رشـدهم، والأمثلة أكثر من أن تحصـر، ولو ذهبت أدوِّن أمثلة على كل ما قلت فسيطول المقال وينقلب إلى كتاب كبير.

أما المظالم والمظاهر التي تخالف النظام الإسـلامي والتي كانت قائمة في العهود الإسـلامية فأمر لا ينكر لكن ليس على وجه التعميم والشمول، ثم إنها كانت مظالم مغمورة في بحر من الحسـنات فلماذا يركز عليها وتترك الجوانب المضيئة الكثيرة في تاريخ الحكم الإسلامي؟!!

---

(١) عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد، أبو العباس الهاشميُّ، توفي سنة ٢١٨هـ، وكان مجتهداً عاقلًا لولا هفوته بدعوته لخلق القرآن، وكان عالماً بالشعر والأدب. انظر: المصدر السابق: ٢٧٢/١٠.

(٢) هو علي بن موسـى الكاظم بن جعفر الصادق، أبو الحسن الهاشـمي العلوي الرضى، توفي سنة ٢٠٥ ﷺ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٨٧/٩ وما بعدها.



يتضح إذاً أن المقولة التي تقول بأن الإسلام لم يُعمل به إلا زمن الراشدين هي مقولة خدَّاعة، لا تستند إلى دليل صريح أو تاريخ صحيح، وأنها مقولة اجتزائية تريد أن تهدم البناء كله بسبب خلل بعض لبناته، وهي على كل حال مقولة اجتزائية لا نثق في قائليها ولا مروجيها ونتهم نياتهم وبواعثهم، أو نقول: إن بعضهم مخدوع أو جاهل[١].

٧ ـ الاطلاع على الكتب التي سردت التاريخ:

هناك تآليف كثيرة جدّاً سردت تاريخ الإسلام، على اختلاف في طرائق سردها، وليبدأ طالب التاريخ بالكتب الحديثة البعيدة عن الاستطراد والحشو وذلك نحو «التاريخ الإسلامي» للأستاذ محمود شاكر ياسين.

ثم يتدرج الطالب إلى الكتب القديمة، ومن أحسنها «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي، و«البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير[٢].

٨ ـ الاطلاع على الكتب التي تناولت دراسات محددة من التاريخ:

وهذه كتب مهمة، بذل فيها مصنِّفوها جهداً مشكوراً في بيان جوانبَ معينة من التاريخ، أو لدراسة ظواهر محددة، فمن تلك الكتب التي يجدر الاطلاع عليها:

- «مقدمة ابن خلدون»، وهي مقدمة وضعها لكتابه الكبير في التاريخ، وهي نافعة جدّاً، وإجماع المؤرخين من مسلمين وغيرهم قائم على جلالتها وعظمها وريادتها وأهميتها، وأيضاً اتفاق أكثر المؤرخين من مسلمين وغيرهم قائم على أن ابن خلدون هو أعظم مؤرخ ظهر في تاريخ البشرية[٣].

---

(١) انظر للاستزادة كتاب الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي «تاريخنا المفترى عليه»: ١٥ ـ ٣١، ٤٦ ـ ١١٩.

(٢) سأفرد مناهج المؤرخين برسالة قادمة إن شاء الله تعالى.

(٣) انظر في هذا كتاب «المسلمون وكتابة التاريخ»: ١٣٩، ١٤٦، وكتاب «تفسير التاريخ علم إسلامي»: ١٣٨، ١٤٠.

وقد قال فيه المؤرخ أرنولد توينبي[١]:

«وضع فلسفة للتاريخ هي ـ بلا مراء ـ أعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان أو زمان»!![٢]

وقال فيه المؤرخ روبرت فلنت[٣]:

«إنه لا العالَم الكلاسيكي ولا العالَم المسيحي الوسيط قد أنجب مثيلاً له في فلسفة التاريخ، هناك من يتفوقون عليه كمؤرخ ـ حتى بين المؤلفين العرب ـ أما كباحث نظري في التاريخ فليس لـه مثيل في أي عصر أو قُطْر حتى ظهر فيكو[٤] بعده بأكثر من ثلاثة قرون، لم يكن أفلاطون[٥] أو أرسطو[٦]

---

(١) ولد سنة ١٨٨٩ في لندن ودرس اليونانية واللاتينيّة في جامعة أكسفورد. وتقلب في مناصب جامعية وسياسية. وله عدة كتب مهمة ونظريات رائجة في الغرب توفي سنة ١٩٧٥. انظر «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات الإنترنت.

(٢) «تفسير التاريخ علم إسلامي»: ١٤٠.

(٣) باحث في الأديان والفلسفة وعلم الاجتماع. من اسكتلندا. ولد سنة ١٨٣٨. ودرس في جامعة جلاسكو. وتقلب في عدة مناصب جامعية. توفي سنة ١٩١٠. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

(٤) جيوفاني باتيستا (جيامباتيستا) فيكو أو فيغو. ولد سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م. فيلسوف وسياسي إيطالي وبليغ ومؤرخ. ناقد للعقلانية الحديثة، ومدافع عن العصور الكلاسيكية القديمة. توفي سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٤م. انظر «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

(٥) أفلاطون (باللاتينية: Plato) ويعني اسمه: «واسع الأفق». ولد سنة ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ق. م، وتوفي سنة ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ق. م. فيلسوف يوناني كلاسيكي، رياضي، كتب عدداً من الحوارات الفلسفية، ويعد مؤسساً لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي. معلمه سقراط وتلميذه أرسطو. وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم. كان تلميذاً لسقراط، وتأثر بأفكاره. برز نبوغ أفلاطون وأسلوبه في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقياء. انظر «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

(٦) أرسطو أو أرسطو طاليس ولد سنة ٣٨٤ ق. م، وتوفي سنة ٣٢٢ ق. م. فيلسوف يوناني قديم كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم. وهو صاحب المنطق الأرسطي.



أو سانت أوغستين[١] أنداداً له، ولا يستحق غيرهم أن يُذكر إلى جانبه. ..»!![٢].

- «دراسات تاريخية» للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، وبالنظر إلى موضوعات الكتاب يظهر ما أريده، فقد جاء فيه:

- مقاومة المدن الإسلامية للغزاة.
- محاولات انقلابية في تاريخنا (يقصد الإصلاح الذي جاء به عمر بن عبدالعزيز ونور الدين زنكي).
- شيء عن جاهلية العرب.
- عين جالوت: الواقعة والمغزى.
- دراسات بلدانية تراثية.
- فلسطين في الأدب الجغرافي العربي.
- معطيات المستشرقين إزاء السيرة.
- كتاب «الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريف العلوم» للأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي[٣] رحمه الله، وهو كتاب عظيم النفع على وَجازته.

---

(١) كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي ـ لاتيني. ولد في طاغاست سنة ٣٥٤ م، في بلدة نوميديا التي كانت مقاطعة رومانية، وهي الآن بلدة سوق أهراس، بالجزائر، من أمه الأمازيغية القديسة مونيكا وأبيه الوثني باتريسيوس الأفريقي ـ اللاتيني. تلقّى تعليمه في روما وتعمّد في ميلانو. مؤلفاته ـ بما فيها الاعترافات، التي تعتبر أول سيرة ذاتية في الغرب ـ لا تزال مقروءة في شتى أنحاء العالم. يُعدُّ أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعده الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديساً وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني. يعده العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. وتعتبره بعض الكنائس الأورثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديساً. توفي سنة ٤٣٠.

(٢) «تفسير التاريخ علم إسلامي»: ١٤٠.

(٣) ولد سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م في المنوفية بمصر. انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره، والتحق بمعهد =



- «حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي» للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.
- «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي» للأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب رحمه الله.
- «علم الطبقات: حقيقته وقيمته العلمية والحضارية» للأستاذ الدكتور السيد محمد نوح[1]. ويقصد بالطبقات ما اصطلح عليه المؤرخون من جمع المتعاصرين ووضعهم في طبقة «مدة» واحدة، كصنيع الإمام الذهبي عندما قسم الشخصيات الواردة في كتابه «سير أعلام النبلاء» إلى أربعين طبقة.
- «فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية» للأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس.

٩ ـ الاطلاع على ميزات التاريخ الإسلامي:

للتاريخ الإسلامي ميزات ليست لغيره من التواريخ تَفرّد بها وعَزّ وساد، فمن ذلك:

أ ـ الوثوق بروايته:

فهو التاريخ الوحيد في الدنيا ـ فيما أعلم ـ المروي أصله بالإسناد، وهذه ميزة جليلة تمكن من نقده، والوقوف على مواطن القوة والضعف منه، بينما ليس عند الأمم الأخرى إسناد حتى في شؤون دينهم.

= القاهرة الديني التابع للأزهر وارتقى في الطلب حتى حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة. وهو أحد المحققين الكبار. وله مصنفات وتحقيقات ومقالات نافعة. عمل في جامعة الدول العربية خبيراً في معهد المخطوطات العربية بها، ودرّس في عدة جامعات مصرية وسعودية. توفي سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م رحمه الله. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(١) هو أستاذ محدِّث داعية مصري معروف، له عدة مصنفات نافعة. سكن الكويت ودرّس في الأزهر وجامعة الكويت وجامعة الشارقة. توفي في الكويت سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

ب ـ الدقة في روايته:

فهو التاريخ الذي روى أكثره على مدار القرون علماءُ شرعيون ثقات، وهذا الأمر لا يوجد عند الأمم الأخرى.

ج ـ الامتداد في عمق الزمان:

تاريخنا ـ أمةَ الإسلام ـ موصول بتواريخ الأنبياء والمرسلين، فأمة النبي ﷺ هي موصولة بما قبلها من الأمم، وهذا هو الذي جاء في كتاب الله ـ تعالى ـ في عدة آيات، فليس تاريخنا منبتّاً عما قبله بل هو دُرَّةٌ فاخرة في عقد جواهر هو واسطتها.

د ـ الشمول العجيب والسعة والإحاطة:

ليس من أمة من الأمم لها تاريخ شامل لكل جوانب حياتها، ولكل مَنْ كان له علم أو فن أو عمل أو وظيفة فيها ـ على وجه الإجمال حيناً والتفصيل أخرى ـ مثل ما للأمة الإسلامية بل عشر معشار ما لها (أي: واحد بالمائة)، وقد عَدّ الإمام الذهبي رحمه الله أربعين نوعاً من كتب التاريخ!! وقد فاته بعضها مما استدركه عليه بعض العلماء، وهذا يوضح ما لتاريخنا من شمول وسعة وإحاطة.

هذا والأمم ـ التي بيدها كتب محرَّفة ذوات أصل سماوي ـ مِن حولنا لا تكاد تعرف شيئاً عن تواريخ أنبيائها دع عنك عظماءها ومقدميها على مدار القرون.

ولئن اطّلع مُطّلع على كتب تاريخ أمتنا الكثيرة المدهشة التي تناولت الرجال على اختلاف وظائفهم ومهامهم، وتاريخ البلدان على اتساعها، وتاريخ المهن والحِرَف، وتاريخ الدول والإمارات، وتاريخ الغزوات والحروب، وتاريخ الحضارة الإسلامية إلى آخر هذه الأنواع، لئن اطّلع مطلع على ذلك فسيمتلئ دهشة وإجلالاً وتعظيماً[1].

(١) سيأتي مزيد بيان لهذا في الرسالة القادمة إن شاء الله تعالى، التي هي بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني».

هـ ـ الريادة:

فالمؤرخون المسلمون فاقوا جميع مؤرخي العالم فيما صنفوه كمًّا وكيفاً وسبقاً؛ فإن الغرب لم يكن له مؤرخون كبار إلا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، بينما سبقهم كبار مؤرخي الإسلام بتسعة قرون أو أكثر.

و ـ إفراد التاريخ علماً من العلوم:

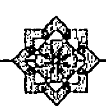
لم يكن التاريخ معدوداً في العلوم قبل الإسلام بل كان يُعد من جملة المسليات والملهيات، وهو سرد لأحداث الزمان بدون منهجية علمية، وقد استطاع مؤرخو المسلمين أن يجعلوه علماً مستقلاً بذاته، له قواعده ومنهجه في البحث منذ وقت مبكر نسبيّاً من تاريخ الإسلام، ثم بلغ غاية النضج في المؤلَّفات المتأخرة مثل «مقدمة ابن خلدون»[1].

١٠ ـ إحسان عرض التاريخ:

المقصود بهذا هو ألا يسرد المؤرخ أحداث التاريخ سرداً مجرداً من عبرها وعظاتها، ولا يكتفي بعرض تواريخ الأمم دون الوقوف على مواطن الفساد فيها، وذلك حتى يكون العرض التاريخي مُعِيناً في التقويم والتوجيه للمجتمعات، ومثال ذلك حين الحديث عن حضارة المصريين القدماء فإن «المنهج العلمي في البحث التاريخي هو الذي أثبت بواسطته أن باني هذا الهرم أو المشهد أو أن صانع القطعة الفلانية هو الفرعون الفلاني، فوظيفة المنهج العلمي هي تحديد الشخص الذي صنع الحدث وكفى، أما الحكم على هذا العمل بالخطأ أو الصواب، وإعطاؤه القيمة الحقيقية له، وبيان مدى اتساقه مع

---

(١) قد ورد في الرسالة الأولى السابقة ـ كيفية قراءة التاريخ وفهمه ـ شيء مما يمكن عدّه من ميزات التاريخ الإسلامي، وذلك تحت عنوان: خصائص التاريخ الإسلامي، فليراجعه من شاء هنالك.



المنهج الرباني ومع وظيفة الإنسان وتحقيق كرامته وإنسانيته فليس من وظيفة منهج البحث بمفهومه الاصطلاحي، إنما هو آت من التصور الذي يحمله الباحث عن الإنسان: من هو؟ ما وظيفته في الكون وهذه الحياة؟ ما نهايته؟ وما هو المصير الذي يؤول إليه بعد الموت؟ ففي ظل التصور الإسلامي ـ الذي يحدد أصل هذا الإنسان وطبيعته، ويحدد وظيفته في هذه الحياة وهي القيام بالعبودية لله، وعمارة الأرض وفق منهج الله الذي جاء به رسله ـ ينظر إلى آثار هذه الحضارة الفرعونية هل حققت شيئاً من وظيفة الإنسان الأساسية؟ ثم ينظر إلى مَن ترك هذه الآثار هل كان محققاً لمنهج الله عابداً له أم كان طاغية جباراً مذلًّا للإنسانية في سبيل مجده الشخصي وتحقيقه شهواته ورغبات نفسه...»[1].

لكن المنهج الغربي في البحث والعرض يُغفل كل هذا ويقف عند القشور ويترك اللب، ولهذا فإن دراساته التاريخية لا تكاد تعالج الواقع، بل هي غير مهيَّأةٍ لهذا، فلذلك تجدهم مولعين بالأحجار والمباني دون النظر إلى المعاني، ويكثرون من الوقوف على دقائق وتفصيلات لا تكاد تغني شيئاً:

«إن مثل هذه الدراسة الأكاديمية الجافة لا توقظ في القلب شعوراً ولا تنفخ فيه حياة، ولا تنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق، كما أنها لا تتمشى مع المنهج القرآني في عرضه آثارَ السابقين وطلبه منا أن نسير في الأرض وننظر في سيرنا نظر المستبصر المستفيد، الباحث عن أسباب الدمار الذي حلَّ بأصحاب تلك الآثار:

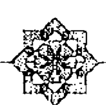
﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

وقال تعالى:

﴿أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١١٤.



فالله يطلب مِنَّا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها»[١].

ولذلك جاءت دراسات العرب والمسلمين الذين سلكوا المنهج الغربي الناقص العقيم في الدراسات التاريخية ناقصة عقيمة جافَّة لا تكاد تصلح فساداً ولا تسد خَرْقاً، والناظر للمجلات التاريخية الصادرة عن كليات التاريخ في الجامعات العربية والإسلامية ـ في أكثريتها الكاثرة وأغلبيتها الساحقة ـ يجدها صادرة عن هذا المنهاج العقيم الناقص الذي قلدنا فيه المنهاج الغربي، فلم يُنتفع بتلك الجهود الهائلة التي بُذلت من قبل آلاف أساتذة التاريخ منذ بدأت تلك الدراسات العقيمة إلى يومنا هذا إلا قليلاً.

ملحظ مهم في تدريس التاريخ في المدارس والجامعات:

كل الطلاب يدرسون مادة التاريخ، وهي من أكثر الموادّ إملالاً للطلاب؛ وذلك لأنها تُدرّس بطريقة تخلو ـ تقريباً ـ من التشويق وحسن العرض، ويغلب عليها السرد، وتخلو من القصص النافعة، والأخبار الماتعة، واستخراج العبر والعظات، والتنبيه على مواضع الخلل والخطأ، وإذا أُريد للطلاب أن يستفيدوا من دراسة التاريخ فلا بدَّ من إصلاح المناهج وتعديل الكتب.

وهناك جوانب عُوار أخرى في طريقة عرض مادة التاريخ وتدريسها في المدارس والجامعات ذكرها د. فاروق فوزي[٢] في إجابته عن سؤال في هذا الباب فقال:

---

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ١٩١.

(٢) فاروق عمر فوزي أستاذ تاريخ عراقي موصلي. ولد سنة ١٩٣٨. حصل على البكالوريوس من قسم التاريخ جامعة بغداد، والدكتوراه من لندن من مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية. عيّن مدرساً في كلية الآداب في جامعة بغداد ودرس في عدة جامعات. انظر: «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٤.



«تدريس التاريخ يحتاج إلى إعادة نظر، ليس من ناحية طرق التدريس فحسب، بل من حيث المادة والموضوعات؛ وذلك أن مادة التاريخ تؤكد على الإقليمية، ولا تكاد تعطي للطالب ما يكفي عن الأجزاء العديدة من بلاد العرب والإسلام، وهذه ظاهرة خطيرة؛ ذلك لأن مادة التاريخ في المدارس والجامعات مادة مهمة وعنصر من عناصر ثقافة الجيل الصاعد لما يقدمه من قيم ومعايير تدخل في صلب شخصية الفرد، والتاريخ من هذا المنطلق عملية توجيه وتوعية وتعبئة متكاملة قادرة على خلق الشخصية الإيجابية ذات الأثر الفعال في حياة الأمة.

فطرق التدريس التي يجب أن تتبع في مادة التاريخ لا بدَّ أن تهدف إلى بلورة فلسفة خاصة توضح موقف الفرد وبالتالي المجتمع من الأحداث التاريخية الماضية والمعاصرة، إن طرق تدريس التاريخ لا بدَّ أن تستند على الاستقراء والتحليل لتبيّن المغزى الحقيقي لتلك الأحداث، فدراسة التاريخ الإسلامي لا بدَّ أن تؤكد على وحدة وترابط واستمرار هذا التاريخ عبر العصور، وإبراز أصالة التراث العربي الإسلامي بكل مظاهره، وتأكيد صفته الإنسانية التي أفادت شعوباً أخرى عدا المسلمين.

إن طرق تدريس مادة التاريخ لا بدَّ أن تجعل الطلاب يتذوقون تراثهم الثقافي الثري والأصيل، ويعتزون به، فتاريخ الإسلام ـ على سبيل المثال ـ في عصر الازدهار الحضاري الوسيط يوضح أن وحدة الشعوب الإسلامية تجاه الأخطار العسكرية والتحديات الفكرية كانت عامل قوة سياسية وعسكرية واقتصادية، وإن الحرية كانت أساس رقي الجماعة الإسلامية وتطورها نحو الأفضل، وأن التكافل الاجتماعي كان يهدف إلى تحقيق العدالة في المجتمع، إن طرق التدريس التي تُبرز مثل هذه المعايير والقيم ـ وغيرها كثير ـ هي الطرق التي يجب أن تعتمد في تدريس مادة التاريخ»[1].

---

(١) المصدر السابق: ١٤٣ ـ ١٤٤.

خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

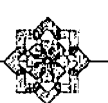
فقد كانت هذه الرسـالة تلبية لدعـوات متكررة لكتابتهـا، وقد أتيت على مباحثها بإيجاز، متعرضاً لرؤوس المسـائل، عازياً إلى الكتب لمن أراد الوقوف على التفاصيل والدقائق، وهذا الذي أراه مناسـباً لأهل العصر، والله أعلم، لكن هذا الإيجاز لا بدَّ أن يَعُدّه مريد التخصص في التاريخ بمثابة المفتاح المعين له على فتح باب الفهم لهذه المادة الصعبة المتشعبة التي لا بد من إطالة النظر في مصادرها والغوص في حقائقها، والاغتراف من شتَّى مناهلها قبل التصدي لأمر خطير، وعمل جليل ألا وهو دراسة التاريخ الإسلامي وإحسان فهمه ثم إحسان عرضه على الناس.

وفي الرسـالة القادمة إن شاء الله تعالى سـأتحدث في «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني».

والله الموفِّق، وهو المستعان، وعليه التكلان، وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

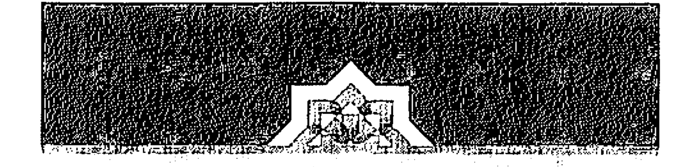
المصادر والمراجع

- «إتمام الأعلام»: نزار أباظة ومحمد رياض المالح. نشـــر دار صادر. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٩٩٩.
- «الأعلام»: خير الدين الزركلي. نشـــر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامســـة. سنة ١٩٨٠.
- «التاريخ والمؤرخون العرب»: د. الســـيد عبدالعزيز سالم. نشـــر دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٨١.
- «تتمة الأعلام»: محمد خير رمضان يوسف. نشر دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الثانية سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- «تفسير التاريخ علم إسلامي، نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ»: د. عبدالحليم عويس. نشر دار الصحوة. القاهرة.
- «حوارات»: أبو القاســـم ســـعدالله. نشـــر دار الغرب الإســـلامي. الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥.
- «دراســـات في الســـيرة النبوية»: أ. محمد ســـرور بن نايف زين العابدين. نشـــر دار الأرقم. لندن. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- «سيد قطب والتفسير الإسلامي للتاريخ» د. عماد الدين خليل.
- بحث منشور بمجلة «المسلم المعاصر» العدد ٦٢.
- «ســـير أعلام النبلاء»: الحافظ الذهبي= محمد بن أحمد (ت ٧٤٨). نشـــر مؤسســـة الرسالة. بيروت.
- «الســـيرة النبوية الصحيحة»: د. أكرم ضياء العمري. نشـــر مكتبـــة العلوم والحكم. المدينة النبوية المنورة. الطبعة السادسة سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

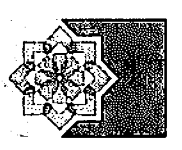


- «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية»: د. مهدي رزق الله أحمد. نشر مركز الملك فيصل. الرياض. الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ.
- «عظماء منسيُّون في التاريخ الحديث»: محمد بن موسى الشريف. نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الأولى سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- «قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي»: د. فاروق عمر فوزي. نشر دار مجدلاوي. عمان الأردن. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
- «مجلة معهد المخطوطات العربية»: تصدر عن معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية.
- «المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ» د. عبدالعليم خضر. نشر الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. الطبعة الثانية سنة ١٤١٥هـ.
- «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ: عرض ومناقشة»: الأستاذ وليد نويهض. نشر دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: السير للإمام الذهبي والتهذيب لكاتب هذه الرسالة. نشر دار الأندلس الخضراء. جدة.
- «منهج كتابة التاريخ الإسلامي، مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري»: د. محمد بن صامل السُلَمي.

  نشر دار ابن الجوزي. الدمام. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٩هـ.



الرسالة الثالثة
التراجم وأثرها
في السلوك الإنساني



مقدمـة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الثالث من سلسلة «التعريف بعلم التاريخ»، وقد صدر منها كتابان قبل هذا، أحدهما: «كيفيـة قراءة التاريخ وفهمه»، والآخر: «إعداد المؤرخ الثقة»، وسـيتلو هذا الكتابَ مجموعةٌ مـن الكتب، إن شـاء الله تعالى، تحقق المقصد المطلوب من هذه السلسـلة وهو تقريب التاريخ لعامة القرّاء، ليحسنوا قراءته، وليتمكنوا من فهمه على الوجه الأمثل والاستفادة منه في مسيرة حياتهم.

هذا وقد جاءت هذه السلسـلة محقِّقة لرغبات الكثير ممن سألني مُلِحّاً أن أكتب شيئاً في هذا الباب يسهل علم التاريخ على قارئيه، ويمكنهم من الاستفادة من درره ولآليه.

هذا وإن للتراجم أثراً عظيماً في السـلوك الإنساني سأبيّنه في ثنايا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى ـ لكن لا بدَّ من القول: إني لم أكن أظن أبداً أن للشخصيات الإسلامية هذه الروعة في سيرتها وجلالها وعظمتها، بل ما كنت أظن أن هنالك بشراً يستولون على أنفسهم ويملكونها على ذلك الوجه الذي استطاعه عظماؤنا، ولا يتحكمون في أنفسـهم ذلك التحكم، فلا جرم إذن أن صـار عظماؤنا دررَ التاريخ الفاخرة، وجواهره الفريدة، وصناعَه الحقيقيين، رحمهم الله تعالى.

هذا وقد حرصت في هذا الكتاب على الترجمة لكل الأعلام الذين أوردتهم، على عادتي في كل كتبي تقريباً، وتوسـعت في ترجمة بعضهم لمناسـبة رأيتها متعلقة بسياق الأحداث التي ذُكروا فيها، خاصة أن موضوع الكتاب في التراجم.

وسيتلو هذا الكتابَ ـ إن شـــاء الله تعالى ـ كتاب أبيِّن فيه أهمَّ كتب التاريخ ومناهج مصنفيها على وجه موجز جامع؛ ليكتمل الغرض من هذه السلسلة؛ ألا وهو التعريف بعلم التاريخ، والإحاطة بقواعده وضوابطه ومناهج مؤرخيه وأهم كتبه ورجالــه على وجه جامع موجــز، وليتمكن من يريـــد التخصص في علم التاريخ من الوصول لمراده.

هذا والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

وكتبه حامداً مصلّياً

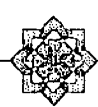
العبد الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

تمهيد

قد بدأت صلتي بالتراجم منذ ثلاثين سنة تقريباً، وذلك عندما ابتدأت القراءة في «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رحمه الله، ولا أكتم القراء الكرام أني قبل صلتي بذلك الكتاب الجليل لم أكن مطلعاً إلا على تراجمَ قليلةٍ جدًّاً لا تكاد تذكر، ولا أعرف من أعلام الأمة إلا بعض مشهوريها، وأعرف من تراجمهم نِتَفاً قليلة، وكنت آنذاك قد درست عقيدة السلف وشيئاً من فقههم لكني كنت أجهل تماماً مَن هم أولئك السلف، فلما اقتنيت الكتاب ـ وكان ينزل إلى الأسواق تباعاً، وكانت تلك هي العادة في النشر آنذاك ـ أخذت في قراءته، فلا يعلم إلا الله ـ تعالى ـ ما أصابني من الدهشة، وما اعتراني من الانبهار الشديد بأولئك العظماء، وندمت ندامة عظيمة أني لم أقرأ تراجم أولئك العظماء من قبل، وجعلت أقول لنفسي: ما هؤلاء الناس؟ وهل يمكن أن يكون هناك بشر على تلك الشاكلة من الجلال والعظمة والقدرة الباهرة على مخالفة هوى النفس، والاستعلاء على شهوات الدنيا الآسرة، والرضى بالقليل، والإخلاص منقطع النظير، والشجاعة الفائقة، والصراحة والصدق بلا مواربة ولا مداهنة، والصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقبال على الله ـ تعالى ـ والخلوص له من الشرك والتخليط والرياء، وحسن معاملة الناس، وحسن الأخلاق؟، وبإيجاز كنت كأنما أطالع سيراً للملائكة وليست للبشر، والذي أثّر فيّ تأثيراً ليس له نظير، وما زلت أذكره حتى الآن بل لا أظن أني أنساه ما بقيت الدنيا هو قراءة التراجم التي لم أعرفها من قبل بل لم أسمع بأسماء أصحابها، وكانت هي جُلّ تراجم الكتاب، وذلك أن المرء إن سمع



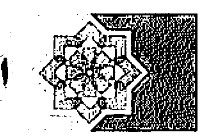
بخبر فضيلة ما وكان قد سمعه من قبل فإنه لا يعود يؤثر فيه إلا إن طرقه الخبر طرقاً يختلف عن طرقه إياه يوم سمعه أول مرة؛ وذلك يكون باختلاف طريقة سرد الخبر واختلاف أسلوب المتكلم إلى آخر وجوه الاختلاف، أما تلك الأخبار التي قرأتها في «سير أعلام النبلاء» فقد كانت كلها ـ تقريباً ـ جديدة تطرق قلبي وعقلي لأول مرة، فلا تسأل أخي القارئ عن أثر تلك الأخبار في نفسي، خاصة أن كتاب السير ضخم كثير الأخبار والتفاصيل والدقائق فصار كل خبر يرقق الآخر، وكل خبر يترك فيّ أثراً يعمقه الآخر، وتتوالى الأخبار والأحداث والقصص لتأخذ مني كل مأخذ، وتحدث لي تغييراً أحسبه كان تغييراً جذريّاً في حياتي: أخلاقي وسلوكي وقبل كل ذلك صلتي مع الله ـ تعالى ـ وذلك أني كنت أقرأ وقلبي يسبق عقلي، وعواطفي ومشاعري تسبق فكري في الخبر وإعمالي ذهني فيه، وكنت مقبلاً تمام الإقبال، راغباً كل الرغبة، ملقياً كل ما يشغلني عن الكتاب خلف ظهري فحصلت لي استفادة لا أظن أنها تعود أبداً بقراءة أيّ كتاب آخر، على أني قرأت بضعة كتب عقب ذلك بلغت في الجلالة حدّاً بعيداً لكن يبقى الأمر كما قال الشاعر:

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
وكم من منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وكما قال الشاعر:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وإنما سقت هذا الأمر في التمهيد على غير عادة المصنفين في تمهيداتهم؛ لأني أردت أن أضرب المثل بنفسي، وأبيّن للقراء ما حدث لي بعد قراءتي ذلك السِّفر الجليل الذي أبدع فيه الذهبي إبداعاً لم يكن لمصنِّف آخر له أبداً، وأردت أن أبين أن لقراءة التراجم فعلَ السحر في النفوس، وأن لها أثراً عظيماً في التربية والدعوة.



المبحث الأول: التراجم وأماكن وجودها

المطلب الأول: تعريف الترجمة

تطلق كلمة الترجمة في اللغة على عدة معانٍ، منها:

١ ـ نقل الكلام من لغة إلى أخرى.

٢ ـ عناوين أبواب الكتب الحديثية وغيرها، فيقال مثلاً: ترجم البخاري لباب كذا بكذا، فباب «العلم قبل القول والعمل» هو ترجمة للباب؛ أي: عنوان له.

٣ ـ سير حياة الأشخاص، وهذا المعنى هو المراد هاهنا، وهو المسمى في الدراسات الأكاديمية الغربية «البيوغرافي» ومعناها الحرفي في اللغة اليونانية: كتابة الحياة[١].

ومصطلح «السيرة» أقدم استعمالاً من مصطلح كلمة الترجمة في التراث الإسلامي[٢].

الفرق بين الترجمة والسيرة:

يتردد مصطلحان رئيسان في تسمية سرد حياة الأشخاص، فتارة يقال: ترجمة، وتارة يقال: سيرة، و«ليس في الفروق اللغوية ما يبيِّن الفرق بينهما على وجه التحديد، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا؛ فقد جرت عادة المؤرِّخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفَس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة»[٣].

---

(١) «السيرة لعبة الكتابة»: ٧.

(٢) المصدر السابق: ١٢.

(٣) «التراجم والسير»: ٢٨.

المطلب الثاني: نشأة علم التراجم

لا شك أن علم التراجم بدأ ـ في هذه الأمة الجليلة ـ بتدوين سيرة النبي الأعظم ﷺ وأما مَن عداه ـ بأبي هو وأمي ـ ﷺ فقد ابتدئ التصنيف في سيرتهم على قسمين:

١ ـ تصنيف عام لكل مَن هو مهم من رجال الإسلام، وأقدم ما وصلنا ـ فيما أعلم ـ كتاب «طبقات ابن سعد»[١] فقد ترجم لأصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم مقسماً لهم على طبقات.

٢ ـ تصنيف خاص برجال الحديث، وكان الغرض الأساس منه معرفة حال أولئك الرواة، ودرجة الوثوق بما رووه، ومن أقدم ما وصلنا تاريخ الإمام البخاري[٢]، وتاريخ الإمام يحيى بن معين[٣] والمراد بالتاريخ ـ ها هنا ـ هو تاريخ الرجال الذين رووا الأحاديث النبوية الشريفة المنيفة.

ثم توسع العلماء في التصنيف في القسمين الآنفي الذكر، وسأبيِّن هذا فيما يأتي، إن شاء الله تعالى.

---

(١) محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحجة، أبو عبد الله البغدادي، كاتب الواقدي، ومصنف «الطبقات الكبرى» في بضعة عشر مجلداً و«الطبقات الصغرى» وغير ذلك. ولد بعد الستين والمائة وتوفي سنة ثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة: انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/٦٦٤.

(٢) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، بالولاء، أبو عبد الله البخاري، جبل الحفظ وإمام الدنيا في فقه الحديث. توفي سنة ٢٥٦ وله ٦٢ سنة رحمه الله. انظر «تقريب التهذيب»: ٤٦٨.

(٣) يحيى بن معين بن عون الغطفاني بالولاء، أبو زكريا البغدادي. ثقة، حافظ، مشهور، إمام الجرح والتعديل. توفي سنة ٢٣٣ بالمدينة النبوية المنورة وله بضع وسبعون سنة رحمه الله. المصدر السابق: ٥٩٧.



المطلب الثالث: أقسام التراجم

تنقسم التراجم إلى قسمين رئيسين ـ باعتبار كاتبها ـ:

أ ـ تراجم ذاتية، وفيها يترجم الكاتب لنفسه.

ب ـ تراجم غيرية، وفيها يترجم الكاتب لغيره.

أما التراجم الذاتية ففيها «يتحدث الكاتب بقلمه عن أحواله الذاتية، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث الفرح والترح، تعظم وتَضْؤُل تبعاً لأهميتها، وقد تسجل فيها الوقائع والأحداث يوماً فيوماً أو بصورة متقطعة بعد أن تجمع عناصرها من مصادر متعددة، ويعرِّف قاموس أوكسفورد السيرة الذاتية كما يلي: «كتابة الشخص لتاريخه وقصة حياته بقلمه» وقد ورد في «معجم مصطلحات الأدب» أن السيرة الذاتية «سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية»[1].

وهي تشبه إذن كتب الذكريات أو المذكرات، وقد تكون مرادفة لكتب الذكريات وهذا هو الأكثر في التراجم الذاتية الحديثة.

وقد ترجم بعض العلماء من العصر الوسيط لنفسه مثل السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة»، ومثل لسان الدين بن الخطيب[2] في كتابه «نفاضة

---

(١) مقال «السيرة الذاتية وحقائقها في التاريخ» للباحث محمد يوسف، مأخوذ من الشبكة العنكبوتية.

(٢) محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني، قرطبي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبدالله، لسان الدين ابن الخطيب. ولد سنة ٧١٣ بـ«لوشة»، وقرأ القرآن والقراءات والعربية، وتأدب، وأخذ المنطق والحساب والطب وبرز فيه، وتولع بالشعر ونبغ فيه وله قصائد كثيرة جدّاً، ومصنفات كثيرة، وترسّل ففاق أقرانه، واستوزره السلطان مرتين، وكان يلقب بذي الوزارتين: السيف والقلم، سعى بعض حساده فيه فقتل في محنة جرت عليه سنة ٧٧٦ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/٨٨ - ٩٣، و«الأعلام»: ٦/٢٣٥.



الجراب»، ومثل الأمير أسـامة بن منقذ[١] في كتابه الشهير «الاعتبار» الذي يعدُّ أول كتاب في السـيرة الذاتية وصل إلينا على نمط قريب من نمط السير الذاتية المعروفة في أيامنا هذه.

وكتابـه هذا ظل مفقـوداً إلى أن اكتشـفه هرتويغ ديرينبـورغ[٢] في مكتبة «الاسـكوريال» بمدريد، وقام بنشره سـنة ١٨٨٦، وتُرجم بعد ذلك إلى لغات أوروبية متعددة[٣].

وفـي العصر الحديـث ألَّف مجموعـة من الأسـاتذة كتبـاً ضمنوها ترجمتهم، وهذا النوع من الكتب يعدّ أهم مصدر لترجمة الشخص ومعرفة جوانب حياته المختلفة، ومن الأمثلة على ذلك كتاب «الأيام» للدكتور طه حسين[٤].

«وقد أرجع محمد عبدالغني حسن[٥] سبب ندرة السير الذاتية قديماً إلى أن

---

(١) أسامة بن مرشـد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشَّـيْزَري، أبو المظفر، مؤيد الدولـة. أمير، من أكابر بنـي منقذ أصحاب قلعة شـيزر بقرب حماة، ومن العلماء الشـجعان. له تصانيف في الأدب والتاريخ. ولد في شَـيْزَر سنة ٤٨٨ هـ، وسكن دمشـق، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠، وقاد عـدة حملات على الصليبيين في فلسـطين، وعاد إلى دمشـق، كان مقرباً من الملوك والسـلاطين خاصة صلاح الدين الأيوبي. توفي في دمشـق سـنة ٥٨٤ هـ، وقد عُمِّر رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١/٢٩١.

(٢) هو مستشـرق فرنسـي يهودي. ولـد سـنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، وتوفـي سـنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م: «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

(٣) انظر «السيرة لعبة الكتابة»: ص ١٤ هامش(١).

(٤) طه بن حسين بن علي. ولد سـنة ١٣٠٧هـ/١٩٨٠م بمغاغة في محافظة المنيا في الصعيد. أصيب بالجدري في الثالثة من عمره فكف بصره. درس في الأزهر ثم الجامعة المصرية القديمة. وهو أول من نال شهادة الدكتوراه منها. ثم سافر إلى باريس في بعثة وتخرج في السوربون سنة ١٩١٨. عُيِّن محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ثم عميداً للكلية ووزيراً للمعارف. له مصنفات عديدة في بعضها كفـر واضح وتعدٍّ على أصول الإسـلام، وردّ عليه كثيرون. توفي سـنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. وانظر ترجمته في «الأعلام»: ٣/٢٣١ - ٢٣٢.

(٥) ولد في المنصورة بمصر سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م. تخرج في دار العلوم، وابتعث إلى إنجلترا لدراسة =

أهل الكتابة والعلم عدلوا عن الترجمة لأنفسهم ما دام غيرهم من الكتاب والمؤرِّخين سيتولون ذلك نيابة عنهم، أما الافتراض الثاني فينطلق من كون خلق العربي وسمات نفسيته لا تسمح له بالحديث عن نفسه»[١].

وفي ترجمة الكاتب لنفسه عدة محاذير منها:

١ - قد يبالغ الكاتب في نسبة صفات الكمال لنفسه، وهذا حدث في بعض تراجم القدماء والمعاصرين، فنسبوا لنفسهم أموراً بالغوا فيها كل المبالغة، أو تجاوزوا فيها حدّ الصحة إلى الاختلاق.

٢ - أو قد يتورع الشخص المترجِم لنفسه ويتنزَّه فيمتنع أن يذكر كل جوانب الجلال والعظمة في شخصيته طالباً في ذلك الإخلاص والاحتساب، والزهد في هذه الدار، والنتيجة أنه يحط نفسه من قدر نفسه ويغمطها حقها[٢].

٣ - أو أنه يخاف من ذكر بعض الأمور التي تعود عليه بالضرر والمشكلات.

وفي هذا قال الدكتور محمد رجب البيومي[٣] رحمه الله:

«إن من عيوب المذكرات الشخصية أن مؤلِّفها لا يبوح بكل ما يعرف،

= التربية ثم عاد إلى بلاده مدرساً في مدرسة ثانوية في المنصورة ثم انتقل إلى القاهرة مدرساً في ثانوية فيها، وتنقل في المناصب حتى أصبح مفتشاً عاماً للغة العربية في وزارة التربية، وكان عضواً بالمجمع اللغوي في القاهرة. له عدة مؤلفات، وقصائد. توفي في القاهرة سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م رحمه الله. انظر ترجمته في «معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين».

(١) «السيرة لعبة الكتابة»: ١٤.

(٢) انظر «علم التراجم أهميته وفائدته»: ١٠٩ - ١١٠.

(٣) أديب مصري معروف. ولد سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م في قرية من محافظة الدقهلية نال الدكتوراه في الأدب والنقد من جامعة الأزهر، وحصل على العالمية من الأزهر. عمل مدرِّساً في بداية حياته، ثم أستاذاً بجامعة الأزهر، وعميداً لكلية اللغة العربية بالمنصورة، ورأس تحرير مجلة الأزهر. له عدة مصنفات جليلة توفي سنة ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ودفن في قريته رحمه الله. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

خصوصاً إذا كان البوح متصلاً بأشخاص لا يزالون أحياء»، ولا أدلَّ على ذلك مما قاله الأديب المهجريّ ميخائيل نعيمة[1] في كتابه: «سبعون»: «ليس ما انكشف لك من حياتي كان كل ما في حياتي، إن الذي انكشف فيه الرغوة وفيه الصريح»[2].

لذلك كله ينبغي أن تقرن ترجمة الشخص لنفسه بترجمة الآخرين لتكتمل صورة المترجَم له، وبدون تهويل ولا تهوين.

٤ ـ التجنِّي على الناس:

بعض الأدباء والأساتذة ممن لا يملكون بضاعة شرعية تكفهم عن التجني على الناس أخطؤوا كثيراً عندما أوردوا تراجم معينة أو جوانب منها، فصبُّوا جام غضبهم عليها، وتنقصوا منها بغير حق في أحيان كثيرة، وذلك كصنيع الأستاذ محمد كرد علي[3] في ذكرياته؛ فقد قال الأستاذ خير الدين الزركلي:

---

(١) ولد سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م في لبنان. شاعر، قاصّ، مسرحيّ، ناقد، فلسفي. له عدة آثار قصصية وشعرية وغيرها بالعربية والإنجليزية والروسية. سافر إلى أمريكا فصار من أدباء المهجر، ثم عاد إلى لبنان وتوفي سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢) المقالة السابقة.

(٣) محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كُرْد علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، من كبار الكتّاب. ولد سنة ١٢٩٣ بدمشق، وأصله من أكراد السليمانية ـ من أعمال الموصل ـ وتعلّم في المدرسة الرشدية، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة. وأحسن التركية والفرنسية وتذوّق الفارسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، وتولى رئاسة تحرير عدد من المجلات والجرائد. هاجر إلى مصر وبقي فيها سنين، واتهم مرات بمعاداة جمعية الاتحاد والترقي وكاد يُقتل. ولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية. وكان من أصفى الناس سريرة وأطيبهم لمن أحبهم عشرة وأحفظهم وداً. توفي بدمشق سنة ١٣٧٢ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٢٠٢/٦ ـ ٢٠٣.

«كتب بعضها وقد تقدمت به السن فلم تخل من اضطراب في حكمه على الناس والحوادث»[١].

ومن ذلك صنيع عبدالرحمٰن بدوي[٢] في ذكرياته فقد: «أثارت حفيظة الناس ضده لما فيها من اتهامات صارخة وتجنٍّ واضح على رموز عصره الأفذاذ كالإمام محمد عبده[٣] وعباس العقاد[٤] وغيرهم ـ كذا ـ وقيل: إنه كتبها كتخليص حسابات وانتقام من رموز عصره الذين خطفوا منه الأضواء، ونالوا من الشهرة ما لم ينله هو بالرغم من عبقريته وكثرة مؤلَّفاته.

---

(١) انظر «الأعلام»: ٢٠٣/٦.

(٢) أستاذ الفلسفة. ولد سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م في قرية قرب دمياط، وأبوه بدوي محمد عمدة القرية. تخرج في جامعة القاهرة قسم الفلسفة، ثم حصل على الماجستير والدكتوراه في الفلسفة من جامعة القاهرة. له مؤلَّفات كثيرة بين تصنيف وتحقيق وترجمة. درّس في عدة جامعات مصرية وعربية. ولي عدة مناصب. توفي سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. انظر ترجمته في موقع «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

(٣) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال التجديد في الإسلام، ولد في إحدى قرى الغربية بمصر سنة ١٢٦٦، وتعلّم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم بالأزهر ثم تصوّف وتفلسف، وعمل في التعليم وكتب في الصحف، وتولّى تحرير جريدة الوقائع المصرية، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولما احتل الإنكليز مصر ناوأهم فسجن ثم نفي سنة ١٢٩٩ إلى باريس فأنشأ مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة «العروة الوثقى» وعاد إلى بيروت فمصر سنة ١٣٠٦ فتولى منصب القضاء ثم جُعل مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧ فاستمر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م رحمه الله. له عدة مصنفات. وهناك كلام مطول في نقض بعض أعماله وتصرفاته، الله أعلم بما ثبت من ذلك. وانظر «الأعلام»: ٢٥٢/٦ ـ ٢٥٣.

(٤) عباس بن محمود بن إبراهيم العقاد. إمام في الأدب، مصري من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع. أصله من دمياط. ولد عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية، وشغف بالمطالعة، وانقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف، وأقبل الناس على ما يكتبه. تعلم الإنجليزية في صباه وأجادها ثم ألمَّ بالألمانية والفرنسية، وظل اسمه لامعاً نصف قرن أخرج فيها ثلاثة وثمانين كتاباً في أنواع مختلفة. توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م. انظر «الأعلام»: ٢٦٦/٣ ـ ٢٦٧، وفي بعض أقواله وأعماله نظر طويل، غفر الله له.

وكان تحامل عبدالرحمٰن بدوي واضحاً وشـديداً على أعلام عصره فيقول مثلاً: محمد عبده لم يكن يعرف أيَّ شيء عن الإسلام!! ويقول: العقاد لم يكن مثقفاً ولم يكن لديه شـيء يقدمه للقراء!! وكثير من هـذه العبارات الفجَّة التي يكذِّبها الواقع والتاريخ والشهود»[١].

٥ ـ التزيد والتشبع بما لم يُعط صاحب الذكريات أو من له صلة به:

وهذا شـائع في كتابات كثير ممن ضعف التزامهم بالإسلام فيكتبون كلاماً في ذكرياتهم لا يقبل، ويُعـرف كذبه أو المبالغة فيه مبالغة ممجوجة، ومن ذلك ما كتبته جهان زوج الرئيس السادات، فقد ذكرت في مذكراتها «سيدة من مصر» أن المصريين يـزورون قبر زوجها السـادات مثلما يزورون الأهـرام والمعالم التاريخية!![٢].

أ ـ تفاوت كتب التراجم الذاتية بتفاوت منزلة كاتبيها:

هنا أمر ينبغي الحذر منه عند قـراءة التراجم الذاتية ـ خاصة تراجم الرجال والنساء غير الملتزمين بالإسـلام ـ وهو أن كاتب هذه التراجم قد يطلق العنان لنفسـه فيصف حياته بما كان فيها من خير وشـر، وما فيها من سـلوك فاسـد ومرجوحات الأعمال والأقوال، وإذا كان المترجم لنفسه مشهوراً بين الناس فإن الافتتان بهذا الذي يورده قد يكون أكبر وأشـد، فالقارئ العاقل اللبيب هو مَن عرف ما يقف عنـده ويُعرّج عليه، وما الـذي ينبغي أن يُطـوى ولا يُروى ولا يتوقف عنده ولا يؤخذ به ولا يقتدى بصاحبه فيـه، والحلال بيّن والحرام بيّن لكن مثل هذا الوارد في كتـب الذكريات قد يُغري الآخريـن على صنيع مثله ومجاراة عمل صاحبه، وهنا المحذور الكبير، والله الموفِّق.

---

(١) مقالة للأسـتاذ محمد عبدالشـافي القوصي بعنوان «المذكرات الشخصية سـجل حياة المشاهير الخاصة»: «المجلة العربية»: العدد ٤٣٦.

(٢) المصدر السابق.



ب ـ تراجم غيرية، وفيها يترجم الكاتب لغيره:

مثل كتاب الشيخ الصواف[١] في ترجمة الشيخ أمجد الزهاوي[٢] رحمهما الله تعالى.

وفي هذا العصر نشطت حركة ترجمة الشخصيات وإفراد كتاب لكل منها، ومن أهم هذه السلاسل سلسلتان لدار القلم الشامية: سلسلة لعظماء سابقين، وأخرى لمعاصرين مُحْدثين من أهل هذا الزمان، وقد ساهمتا في تقليل الثغرة الكبيرة في باب التراجم المفردة.

---

(١) داعية إسلامي مناضل. ولد بالموصل سنة ١٣٣٣ وتعلم بها وبالأزهر، وعمل بالتدريس في كلية الشريعة بجامعة بغداد، وشارك في الجهاد ضد الإنكليز. أسس جمعية إنقاذ فلسطين بالعراق، وجمعية الأخوة الإسلامية، وكان المراقب العام للإخوان المسلمين بالعراق. هرب من العراق إلى الشام بعد ثورة الشيوعيين الذين هاجموا مقر مجلة «لواء الأخوة الإسلامية» التي أنشأها، وحطموا المطبعة وبدّدوا المكتبة، ومن الشام خرج إلى السعودية التي عمل فيها في مناصب كان أرفعها ما كان مع الملك فيصل رحمه الله. له عدد من المصنفات. توفي سنة ١٤١٣ رحمه الله. انظر «ذيل الأعلام»: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) أحد كبار علماء العراق. ولد في العراق وتعلم فيه، وكان رجلًا ربانياً ورعاً، ذكياً، فقيهاً مجتهداً بارزاً، عمل بدأب طوال حياته لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأسس جمعية إنقاذ فلسطين وعدة جمعيات أخرى للتربية ونشر الثقافة الإسلامية. ارتحل من أجل ما حدث في فلسطين مراراً على شيخوخته، وكان لسانه لا يفتر عن ذكر الله تعالى. توفي سنة ١٣٨٧ رحمه الله. انظر «الموسوعة الحركية»: ١/١٣٧ ـ ١٣٨.

المطلب الرابع: صلة التراجم والسِّيَر بعلم التاريخ

إن صلة التراجم والسِّيَر بالتاريخ صلة قوية؛ «ذلك لأنهما يشتركان في تسجيل الوقائع والأحداث والمواقف في تصوير مختلف البيئات والمآثر، والكشف عن الصور المادية والنفسية، وإذا كانت السيرة الذاتية تنبع من صلب الأدب بخلاف التاريخ بالطبع العلمي فهذا لا يعني أن الحس التاريخي منعدم من كتابة التاريخ الخاص الفردي، بل إنه على العكس حاضر بأبعاده الثلاثة المتمثلة في الماضي، والحاضر، والمستقبل، والظاهر لأول وهلة أن الترجمة الشخصية تتخذ موقعاً وسطاً بين الأدب والتاريخ، وإذا نظرنا أكثر في طبيعة هذا الجنس الأدبي نصل إلى تعبير دقيق عميق من حيث حمولته الدلالية، وهو أن هذا اللون من التعبير تتجاذبه قوتان: سلطة الأدب وقوة التاريخ؛ لأن الكاتب يصوغ تاريخه الخاص صياغة أدبية، وبسبب واقع التجاذب بين الأدب والتاريخ تتميز السيرة الذاتية عن باقي جسد التاريخ العام مع أن الأصل في التاريخ الإنساني هو مجموع التواريخ الخاصة، سواء الفردية منها أم الجماعية، وأن الترجمة الذاتية لا تسقط من فضائها، وإن كان الزمن في الترجمة الذاتية الإسلامية الحديثة يرتبط بالعودة إلى مرحلة أو عدة مراحل وهي في ذات الوقت عودة إلى فضاءات وتاريخ يلتقي فيه ويتكامل التاريخ الفردي والجماعي، وأنها عودة تجد في الكتابة حاضرها وفي الذاكرة ماضيها، ولا ريب أن المسافة بين الكتابة والذاكرة أو بين الحاضر والماضي تاريخية وسردية في آن واحد.

وما من شك في أن للحسّ التاريخي دوراً كبيراً وتأثيراً مباشراً في إدراج نَصِّ السيرة الذاتية وعرضها، وفي تحديد البناء العام لكل تاريخ فردي...

وهناك عدة أمور تُبْعِدُ أن السيرة الذاتية من الأدب وتقربها من كتب التاريخ، وهي كما يلي:



١ ـ الالتزام في كتابة السيرة الذاتية بالصدق التاريخي ليس بالصدق الفني؛ وأن هذا الالتزام يجعل الكاتب يقف عند الحقائق، يعرضها ويرتّبها ترتيباً خاصّاً فيضعف عنصــر الخيال الذي كان يمكن أن يجعل من الســيرة قصة ممتعة وجذابة.

٢ ـ البعد عن ســيطرة العاطفة على ما يصدره من أحكام، فكاتب السيرة الذاتية عليه ألا يســخّر الأحكام والوقائع والأحداث لعاطفته، فــإن ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبعي»[١].

(١) مقال: «السيرة الذاتية وحقائقها في التاريخ» للباحث محمد يوسف، مأخوذ من الشبكة العنكبوتية.

المطلب الخامس: فوائد التراجم

للتراجم فوائد كثيرة جليلة، فمنها:

١ ـ حفظ حياة العظماء:

علـم التراجم ذو أهمية عظيمة فـي حفظ حياة العظماء والكبـراء، والعُباد والزهاد، والشـجعان والأبطال، ولولا هذا العلم الجليل لطُمست أخبار أولئك ولم يُذكروا في التاريخ بعد وفاتهم.

فالترجمة إذن يمكن عَدُّها حياة أخرى للمترجَم له، والذي لم يترجم له هو كمن انقطع ذكره، وهو موت ثان له، نعوذ بالله من انقطاع الذكر.

واليوم يتحسـر الباحثون على ضياع سِيَر حياة أشـخاص كثيرين جدّاً في التاريخ القديم والوسيط والحديث والمعاصر بسـبب أنها لم تجد من يدوّنها ويخلّد ذكراها، أو أن المدوِّنين لتلك السِّيَر اكتفوا منها بشيء يسير جداً لا يكاد يسمن ولا يغني من جوع وعطش لمعرفة دقائق تلك الشخصيات التي أضاعها الإهمال التـام أو الجزئي الناتج عن عدم ضبط الترجمـة أو عدم إيفائها حقها بإيراد جوانب كافية من حياة أصحابها تدل على عظمتهم وتنبئ عن أعمالهم.

٢ ـ الاعتبار والاتعاظ:

وهذا بيت القصيد في إيراد التراجم، وهو المهم الأعظم، وسـيأتي في ثنايا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى ـ بيانٌ وافٍ شافٍ لهذه المسألة.

٣ ـ الاقتداء بها:

النـشء الجديد اليوم قد اتخذ قـدوات له مَن ليس لـه نصيب من عوامل القدوة، وهذا هو الذي يحرص الإعلام الفاسد على نصبه للناشئة من الممثلين



والممثلات واللاعبين وأهل اللهو والفساد والإفساد، فلا بدَّ لأهل الإسلام أن يسارعوا إلى نصب القدوات الحقيقية للجيل الناشئ.

ثم إن الحسرة كل الحسرة في الحيلولة بين الأجيال وتراجم عظمائها، ونسيان الشباب أسلافهم، وطيّ أخبار الأخيار عن الناس، ثم يُترك الشباب ليختاروا لأنفسهم قدوات من الممثلين واللاعبين واللاهين والفاسدين لتدمر حياتهم، وتنزع عنها الفضائل وتملأها بالرذائل.

أو أن يستوي الناس فلا يعود أحد يقتدي بأحد، ولا يرغب أحد في سيرة أحد آخر، وعندئذ تموت الهمم، ويضطرب الثبات، وتقل الرغبة في الارتقاء والأخذ بمعالي الأمور.

فينبغي إذن أن يُعنى بالتراجم عناية بالغة الحدَّ الأعلى من الجودة والإتقان، وأن يُحسَن عرضها على الناس في وسائل الإعلام، والمدارس والمعاهد والجامعات، ومنابر المساجد والمحافل، والأمة التي لا تُعنى بأسلافها لا خير فيها لأخلافها، والتي تضيّع عظماءها كانت لسواهم ولمن عداهم أضيع، والتي توغل في هجر أبطالها الحقيقيين فإنها ستصنع أبطالاً مزيفين فيضلون ويفسدون، والله ـ تعالى ـ هو المستعان.

درجة الاقتداء بالعظماء:

ويثور ـ هاهنا ـ تساؤل طالما سُئلته ألا وهو:

كيف نصل إلى ما وصل إليه هؤلاء العظماء من السلف والخلف، وحالنا على ما هو عليه من الانشغال، وبعض الإخوة يشكو من بعض يأس يداخله في أن يبلغ ما بلغ أولئك العظماء؟

وأقول: إن هذه التراجم الجليلة الواردة في بطون الكتب قد وُضعت لأسباب منها الاقتداء والائتساء والاستفادة مما فيها لتغيير أحوال المطلعين



عليها، أما أن يبلــغ المطلع عليها مبلغ أصحابها فهذا دونه خرط القتاد بل هو ـ عندي ـ مســتحيل في زماننا هذا، وإنما قلت هذا لقطــع طمع أهل العصر من بلوغ مراتب العظماء أمثال سفيان الثوري[١] وعبدالله بن المبارك والنووي، وإنما قطعت باستحالة هذا بالنظر إلى أمور خمسة:

الأمر الأول: اختلاف أحوالهم عن أحوالنا، وزمانهم عن زماننا:

فما كان متيسّراً لهم من العبادة والتطويل فيها لا يتسير لنا في زماننا الصعب هذا، فطرائق الدراسة والعمل الوظيفي والخاص اختلفت تماماً، كما هو معلوم، وترتب علــى هذا الاختلاف قلة الأوقات المتاحة لنــا مقارنة بما أُتيح لهم، دع عنك قلة البركة وكثرة الهموم.

الأمر الثاني: الاختلاف في القدرة على الإصلاح:

إن ما كان مســموحاً لهم به فــي زمانهم من الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر والمشاركة القوية في الشأن العام لا يُسمح به قطعاً في زماننا، والشواهد كثيرة جدًّاً[٢].

الأمر الثالث: اختلاف المطلوب منّا ومنهم:

فالمطلوب منا اليوم بذل الجهد في الدعوة، وتحصيل أسباب الرقي الماديّ لننافس الكفار فــي المنتجات والمخترعــات ونتخلص من التبعيــة والهوان، والمطلوب منا ـ أيضاً ـ القــراءة المطوّلة في مكائد الكفــار والفجار لمعرفتها ومقارعتها، والمطلوب منا اليوم تخليص أراضي المســلمين من مغتصبيها إلى

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ الكوفي، شيخ الإســلام، الإمام الحافظ سيد الورعين. توفي سنة ١٦١ رحمه الله. انظر ترجمته في «نـزهة الفضلاء»: ٤٦٠.

(٢) قد كتبت هذا قبل الثورات المباركة ـ إن شــاء الله تعالى ـ التي قد جرت في عدة دول عربية، وأسفرت عن نتائج جليلة وواقع ربما يخالف بعض ما أوردته آنفاً لكنه يبقى صادقاً في بلاد أخرى لم تشــملها تلك التغييرات، والله أعلم.

آخر ما هو مطلوب وهو شيء كثير معقد متشابك، بينما لم يكن أكثر ذلك مطلوباً من أولئك الذين كانوا يعيشون زمن العز والسيادة، والعمل بالإسلام هو الأصل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاشٍ، والجهاد قائم، والقضاء جليل، والحكم بالشريعة جار على أحسن ما يمكن، فلذلك تفرغ العظماء في ذلك العصر الجليل للإقبال على الله تعالى والعمل بهذا الدين العظيم فحققوا أعظم النتائج.

الأمر الرابع: أهل القرون الفاضلة ليسوا كمن بعدهم:

فأولئك موصوفون بالخيريّة في كلام خير البريّة ﷺ ومَن بعدهم ليس مثلهم قطعاً، ويتدرج الفضل نزولاً بتدرج القرون، فمن يطمع أن يكون في الفضل والمنزلة والعمل كأهل القرون الأولى فإنما يطمع في أمر عظيم لا أرى أن زماننا هذا يساعده على بلوغه، ولا أرى أن أحوالنا تساعد على بلوغ ما كانوا عليه، والله أعلم.

الأمر الخامس: الاختلاف في المنزلة والعظمة:

إن هؤلاء العظماء أنفسهم كانوا في زمانهم كنجوم السماء، ينظر أهل عصرهم إليهم على أنهم في مرتبة لا يُطمع فيها، فكيف نفعل نحن إذن في زماننا هذا، وللتدليل على ما أقول فإني أُورد التالي عن سفيان الثوري رحمه الله الذي كان أمير المؤمنين في الورع، ووصل فيه إلى الغاية القصوى، بل كان ورعه مقياساً للأجيال بعده حتى قالوا في ورع الإمام النووي: لقد أذكرنا ورع سفيان، وهذا يعني أن ورع سفيان مقياس ومعيار، ويعني أيضاً أن ورعه ظل يتردد صداه عبر القرون، ومع هذا كله فإن سفيان يقول في الإمام العظيم عبدالله بن المبارك:

«إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة مثل ابن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام»!![1].

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٦٥٥/٢.

وكان الإمام ابن عون[١] عابداً زاهداً، قليل نظراؤه، قلّ أن يوجد مثله، وهذا أحد أصحابه يقول كلاماً يصفه فيه وصفاً يلخص ما أردت قوله:

إني لأعرف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنى أن يَسْلَمَ له يوم من أيام ابن عون فما يقدر عليه.

فإذا عرفنا هذا من مقولة سفيان رحمه الله وغيره، فإنه يُعرف تميز أولئك العظام حتى بين أقرانهم الذين هم في الصلاح غاية، ومنارات هداية ورشد أيضاً، وليس من المجازفة القول بأنهم قد لا يتكررون في التاريخ بعد ذلك أبداً، والله أعلم[٢].

ولا يعني كلامي هذا القطع بعدم بلوغ منازلهم في الآخرة، فهذا أمر غيبي لا يُعرف، وهو إلى فضل الله ـ تعالى ـ وكرمه أقرب، لكن كلامي إنما هو عن بلوغ أعمالهم ومجاهداتهم ورياضاتهم، والله المستعان.

إذن؛ إن المطلوب من قراءة التراجم الجليلة هو الاقتداء بما فيها، ومحاولة الاقتراب منها حالاً وعملاً وقولاً، فإنْ صنع ذلك المطَّلع عليها فيا فوزه، ويا سعده، أما مطابقة عمله لأعمال أولئك العظماء فليقطع الطمع في هذا تماماً ولا يفكر فيه.

وأذكر أن شيخي القدوة الصالح المصري زينة أهل العصر الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد[٣] ـ حفظه الله ومتّع به ونفعنا بعلمه ـ رآني وأنا أجتهد في بعض

---

(١) عبدالله بن عون بن أرطبان، الإمام القدوة، عالم البصرة، المري بالولاء، البصري الحافظ. توفي سنة ١٥١ وقد عاش ٨٥ سنة رحمه الله. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٤/٦ - ٣٧٥.

(٢) انظر ـ للاستزادة إن شئت ـ «القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار» لواضع هذه الرسالة.

(٣) هو أحد علماء الأزهر، وأستاذ علوم القرآن في جامعة الأزهر وأم القرى بمكة المكرمة سابقاً، وهو أحد دعاة العصر، ولد سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، ودرس في الأزهر، وانتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين، وسجن عشر سنوات وعُذب في عهد العبد الخاسر «عبدالناصر»، وهو صاحب كرامات أخبرني بها على قلة حديثه عن نفسه، وله مصنفات نفيسة، حفظه الله ومتع به.

الأمور وأبذل فيها غاية ما أستطيع رجاء تحقيق ما أريد، فقال لي: هل تريد أن تكون مثل البنّا؟! اصرف النظر يا بني فقد حاولنا نحن فلم نستطع، إن ذاك رجل أتى الله ـ تعالى ـ به في زمنه لتحقيق مراد الله تعالى، فلا تطمع في ذلك، ولم يقع كلام الشيخ في نفسي الموقع الحسن آنذاك، لكني علمت فيما بعد أنه كلام حكيم، وأن الله ـ تعالى ـ يخرج بعض الناس من رحم الغيب في زمن معين لينجزوا عملاً معيَّناً يُغير الله به التاريخ، ولا يلزم أن يقع هذا من كل أحد، وبعبارة أخرى لا يلزم أنه يمكن تكرار ذلك لكل أحد طامع فيه، فذلك فضل الله ـ تعالى ـ يؤتيه من يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وفي هذا الفهم تطمين للقلوب وإبعاد لمرض اليأس والقنوط عنها، والله أعلم.

٤ ـ التسلية وقضاء الأوقات في المفيد النافع:

التراجم الجيدة الجليلة هي أشبه بالقصص الجليلة الرائعة المؤثّرة في النفس أحسن التأثير، والنفوس السوية تنشرح لها وتحبها وتقبل عليها، وبهذا تُحل مشكلة أوقات الفراغ الطويلة التي يعاني منها الناس اليوم ويحاولون ملأها بالغث والسمين، وفي ذلك قال الإمام ابن الجوزي[١] رحمه الله:

«فإني رأيت النفوس تشرئب إلى معرفة بدايات الأشياء، وتحب سماع أخبار الأنبياء، وتحنّ لمطالعة سير الملوك والحكماء، وترتاح إلى ذكر ما جرى للقدماء»[٢].

---

(١) الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزيّ، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأساً في التذكير بلا مدافع، وصنف مصنفات كثيرة في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة، وله حكم كثيرة وأقوال شهيرة. توفي سنة ٥٩٧ ببغداد. انظر «سير أعلام النبلاء» ٢١/٣٦٥ ـ ٣٨٤.

(٢) «المنتظم في تاريخ الأمم»: ١/١١٥، وقد نقلت هذا النص من كتاب «علم التراجم: أهميته وفائدته»: ٩٢

وإحصاءات دور النشر الغربية اليوم تبيّن أن التراجم سواء كانت للذات أو للغير هي أكثر الكتب مبيعاً بعد القصص والروايات[١] وهذا يدل على تعلق الناس بهذا النوع من الكتب.

٥ ـ علاقتها بعلم الاجتماع:

التراجم مهمة جداً لمن أراد تتبُّع الحالة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية والثقافية والحضارية للمجتمعات الإسلامية وتطورها عبر القرون ففي هذه التراجم مادة ثرية جداً قد لا توجد في غيرها من كتب التاريخ، وهذا الأمر مهم للدعاة والتربويين وعلماء الاجتماع والمفكرين والمثقفين وغيرهم ممن يهمهم الاطلاع على تطور أحوال المجتمعات المسلمة عبر التاريخ.

٦ ـ اكتساب المعارف والحكم:

إن لقراءة التراجم أثراً كبيراً في إثراء المعارف والحِكَم لقارئها خاصة الشباب منهم؛ فإن قراءتها تُعجم عودهم، وتكسو أفكارهم وتجاربهم الغضّة رداء من الحكمة والتروي والهمة كأنها تقفز بهم سنوات الشباب لتوصلهم إلى عتبة سن الاكتهال والاكتمال، فمن قرأ ألف ترجمة ـ مثلاً ـ فكم سيضيف لتجاربه وحكمته من التجارب والأفكار والآراء والحِكَم؟

---

(١) «السيرة لعبة الكتابة»: ١٨.

المطلب السادس: أماكن وجود التراجم «سير حياة الأشخاص»

التراجم عُني بها السلف والخلف على وجه غير مسبوق في التاريخ البشري، كما سأبيِّن في المبحث القادم إن شاء الله تعالى، فلذلك كانت التراجم مبثوثة في أنواع عديدة من الكتب، فمن ذلك:

١ ـ الكتب المخصَّصة للتراجم فقط:

وهي ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم التراجم العامة:

وهو ما يحوي كل التراجم التي يريد المصنف إيرادها منذ زمن البعثة النبوية الشريفة أو بعدها بقليل إلى زمانه.

٢ ـ قسم تراجم القرون:

وهي الكتب التي تسرد تراجم كل قرن على حِدَة.

٣ ـ القسم الجامع بين أكثر من قرن:

وهي الكتب التي حوت تراجم مجموعة محددة من القرون.

فمن القسم الأول كتاب «طبقات ابن سعد»، و«سير أعلام النبلاء» للحافظ شمس الدين الذهبي[1]، و«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خَلِّكان[2]، و«الوافي بالوفيات» للصفدي[3].

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدث عصره. ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/١٠٠ ـ ١٢٣.

(٢) أحمد بن محمد بن إبراهيم، البرمكي الإربلي، أبو العباس، المؤرخ الحجة، والأديب الماهر، صاحب «وفيات الأعيان». ولد في إربل بالقرب من الموصل سنة ٦٠٨، وانتقل إلى مصر. فأقام فيها مدة وتولى نيابة قضائها، ثم سافر إلى دمشق فولي قضاء الشام، وعزل بعد عشر سنين، فعاد إلى مصر ومكث فيها سبع سنين، ثم رجع إلى قضاء الشام ثم عزل عنه. وولي التدريس في كثير من مدارس دمشق، وتوفي فيها سنة ٦٨١ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١/٢٢٠.

(٣) هو خليل بن أيبك بن عبد الله، صلاح الدين الصفدي، أديب بارع، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة =



وغيرها كثير مما لا يمكن أن يحصيه ـ مطبوعاً ومخطوطاً ومفقوداً ـ إلا الله تعالى.

وأما القسم الثاني، وهو الكتب التي سردت تراجم كل قرن على حِدَة فلا أعلم منها شيئاً قبل القرن الثامن، اللَّهُمَّ إلا ما قام به الثعالبي[1] في كتابه «يتيمة الدهر» فقد ترجم فيه لأكابر شعراء القرن الرابع، وما قام به علم الدين البرزالي[2] في كتابه: «مختصر المائة السابعة» فقد ترجم فيه لأعيان القرن السابع لكنه مفقود فيما أعلم.

- أما القرن الثامن فكتاب الحافظ ابن حجر[3] «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وهو أول كتاب واسع شامل لترجمة أعلام قرن ما.
- ـ وأما القرن التاسع فكتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للحافظ السخاوي[4].

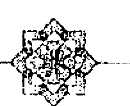
= ولد في صفد بفلسطين سنة ٦٩٦هـ وإليها نسبته، وتعلم في دمشق، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها عام ٧٦٤هـ. كتب الخط الجديد، وقال الشعر الحسن، وكان محبباً إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة، له زهاء مائتي كتاب في التراجم والتاريخ واللغة والأدب وغيرها رحمه الله. انظر:«الأخبار العليات من الوافي بالوفيات»: ١/١٠.

(١) عبدالملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي. من أئمة اللغة والأدب. من أهل نيسابور. ولد سنة ٣٥٠، وكان فراءاً يخيط جلود الثعالب فنسب إلى صناعته. له كتب كثيرة. توفي سنة ٤٢٩ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٤/١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي ثم الدمشقي، أبو محمد، علم الدين. محدث مؤرخ. أصله بربري من إشبيلية وولد في دمشق سنة ٦٦٥، وزار مصر والحجاز. له عدة كتب. تولى مشيخة النورية ومشيخة تاريخ الحديث بدمشق. توفي مُحرِماً في خليص بين مكة والمدينة سنة ٧٣٩ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٥/١٨٢.

(٣) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة ٨٥٢هـ رحمه الله. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/٣٦.

(٤) الشيخ الإمام الحافظ الرُّحَلة أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالرحمٰن بن محمد السخاويّ =



وأما القرن العاشر فكتاب الشيخ نجم الدين الغَزِّي[١]: «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة».

وكتاب «النور السافر» للعيدروس[٢].

- وأما القرن الحادي عشر فكتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبي الدمشقي[٣].
- وأما القرن الثاني عشر فكتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي[٤].

وكتاب الإمام الجبرتي[٥]: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» فقد

= القاهري الشافعي، ولد سنة ٨٣١. حفظ القرآن وهو صغير وحفظ عدة متون وعرضها على مشايخ عصره. اختص بشيخ الإسلام ابن حجر، وكان يحبه ويثني عليه. توفي رحمه الله بالمدينة مجاوراً سنة ٩٠٢ وقد خلف مصنفات كثيرة. انظر «النور السافر»: ١٦ - ٢٠.

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزي العامري القرشي الدمشقي، أبو المكارم، نجم الدين: مؤرخ، باحث أديب. مولده في دمشق سنة ٩٧٧، ووفاته بها سنة ١٠٦١ رحمه الله. له عدة مصنفات في التاريخ والحديث والفقه وغير ذلك. انظر «الأعلام»: ٦٣/٧.

(٢) عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس، مؤرخ باحث من أهل اليمن. ولد سنة ٩٧٨. سكن حضرموت ثم انتقل إلى أحمد آباد في الهند، فتوفي فيها سنة ١٠٣٨ رحمه الله. وله عدة كتب في التاريخ والتصوف. انظر «الأعلام»: ٣٩/٤.

(٣) محمد أمين بن فضل الله بن محب الله المحبي، الحموي الأصل، الدمشقي: مؤرخ، باحث، أديب. عُني كثيراً بتراجم أهل عصره، فصنف «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، و«قصد السبيل بما في اللغة من الدخيل» على حروف الهجاء، بلغ به الميم، وله ديوان شعر. ولد في دمشق سنة ١٠٦١هـ/١٦٥١م، وسافر إلى الأستانة وبورصة وأدرنة ومصر. وولي القضاء في القاهرة، وعاد إلى دمشق فتوفي فيها سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٤١/٥.

(٤) محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد بن مراد الحسيني، أبوالفضل: المؤرخ، مفتي الشام، ونقيب أشرافها. بخاري الأصل. ولد في دمشق سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م وولي فتيا الحنفية سنة ١١٩٢هـ، ونقابة الأشراف سنة ١٢٠٠ ووقع في سنة ١٢٠٥ ما أوجب رحلته إلى حلب، فتوفي بها. له عدة كتب. توفي سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩١م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١١٨/٦.

(٥) هو عبدالرحمن بن حسن بن إبراهيم، وهو حبشي الأصل، ومصري المولد والنشأة والموطن، جاء أسلافه مصر من جبرت: إحدى مقاطعات الحبشة، وكان أبوه الشيخ حسن عالماً من علماء الأزهر. =

ملأه بتراجم كثيرة لرجال القرن الثاني عشر، استدرك بها ما فات المرادي، وهو كثير.

- وجمع بين القرنين محمد بن الطيب القادري[1] في كتابه «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني».
- وأما القرن الثالث عشر فكتاب الشيخ البيطار[2] «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر».

وكل هذه الكتب مطبوعة متداولة.

- وأما القرن الرابع عشر فالكتب المصنَّفة فيه قليلة جدّاً، وغير شاملة ولا كاملة؛ فالمترجمون فيها لا يتعدون واحداً بالمائة من أعلام القرن في امتدادهم في العالم الإسلامي الواسع الفسيح الممتد من الصين شرقاً إلى المغرب غرباً، ومن روسيا شمالاً إلى جنوب إفريقيا جنوباً، بل هناك في غير العالم الإسلامي آلاف الرجال والنساء في أمريكا الشمالية والجنوبية، وأستراليا، وأوروبا عاشوا فيها في القرن الرابع عشر الهجري، وكان لهم آثار جليلة ولم تدون تراجم أكثرهم بعد، أو دُونت ولم تنشر بعد، والله أعلم.

= ولد عبدالرحمٰن في القاهرة سنة ١١٦٧. وهو معدود خاتمة المؤرخين الكبار في مصر. ويظهر من كتاباته تمسكه واعتزازه بدولة الخلافة العثمانية وسخطه على المماليك الظلمة، وتبرمه الشديد من ظلم محمد علي وشدة بأسه وسطوته. توفي عبدالرحمٰن الجبرتي في القاهرة سنة ١٢٤١، ويزعم بعض المؤرخين أنه مات مقتولاً، والله أعلم. وانظر «الأعلام»: ٣٠٤/٣.

(١) محمد بن الطيب بن عبدالسلام الحسني القادري: مؤرخ من أهل فاس. له عدة كتب. ولد سنة ١١٢٤هـ/١٧١٢م وتوفي سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١٧٨/٦.

(٢) عبدالرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي: عالم بالدين، ضليع في الأدب والتاريخ. مولده في دمشق سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م. حفظ القرآن في صباه، وتمهر في علومه. وكان حسن الصوت، وله نظم، واشتغل بالأدب مدة، واقتصر في آخر أمره على علمي الكتاب والسُّنَّة وكان وقوراً، حسن المفاكهة، طيب النفس، من دعاة الإصلاح في الإسلام، سلفي العقيدة، ولقي في سبيل ذلك عنتاً من الجامدين. له عدة كتب توفي بدمشق سنة١٣٣٥هـ/١٩١٦م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٣٥١/٣.

ومثال على الكتب التي ترجمت بعض أعيان القرن الرابع عشر:

«الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية» لزكي محمد مجاهد[1].

وأما القسم الثالث: وهو الكتب التي حوت مجموعة محددة من القرون فمثال ذلك: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للقاضي الشوكاني[2]، فقد جمع فيه تراجم لأهل القرن الثامن إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري.

وككتاب القادري آنف الذكر: «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني».

وككتاب «المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر» للشيخ محمود شكري الآلوسي[3].

---

(١) محمد زكي بن محمد بن حسين بن مجاهد الشافعي ولد سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٤م، وعاش في القاهرة، وتلقى العلم عن بعض علمائها. عمل مع والده بالتجارة، ثم تفرغ لتجارة الكتب. له قصائد قليلة وبعض المؤلفات. توفي سنة ١٤٠١هـ/١٩٨٠م رحمه الله. انظر ترجمته في «الأخبار التاريخية في السيرة الزكية».

(٢) محمد بن علي بن محمد الشوكاني ثم الصنعاني. ولد سنة ١١٧٣ في هجرة شوكان، ونشأ بصنعاء فحفظ القرآن وعدداً من المتون، ثم اشتغل بالقراءة والطلب على المشايخ، ولم يرتحل إرضاء لوالديه، وأفتى وعمره عشرون عاماً، وله عدد من المصنفات النافعة، وادعى الاجتهاد وعمره أقل من ثلاثين سنة. وتولى القضاء. توفي سنة ١٢٥٠ رحمه الله. انظر ترجمته مفصلة في «البدر الطالع»: ٢/٢١٤ - ٢٢٥.

(٣) محمود شكري بن عبدالله بن شهاب الدين، محمود الآلوسي الحسيني، أبو المعالي: مؤرخ، عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح. ولد في رصافة بغداد سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م، وأخذ العلم عن أبيه وعمه وغيرهما. وتصدر للتدريس في داره وفي بعض المساجد. وحمل على أهل البدع في الإسلام برسائل فعاداه كثيرون وسعوا به لدى والي بغداد «عبدالوهاب باشا»؛ فكتب هذا إلى مرجعه السلطان عبدالحميد الثاني العثماني، فصدر الأمر بنفيه إلى بلاد الأناضول فلما وصل إلى الموصل سنة ١٣٢٠ قام أعيانها فمنعوه من تجاوزها وكتبوا إلى السلطان يحتجون؛ فسمح له بالعودة إلى بغداد فعاد. ولما نشبت الحرب العامة الأولى وهاجم البريطانيون العراق، انتدبته الحكومة العثمانية للسفر إلى نجد والسعي لدى الأمير عبدالعزيز آل سعود (ملك المملكة العربية السعودية بعد ذلك) للقيام بمناصرتها، فقصده الآلوسي سنة ١٣٣٣ عن طريق سورية والحجاز، وعرض عليه ما جاء من أجله فاعتذر. وآب =

«وتراجم أعيان القرن الثالث عشـر وأوائل الرابع عشـر» لأحمد باشا تيمور[١].

٢ ـ كتب التاريخ العام:

وهي الكتب التي تسرد التاريخ العام، وفي ثنايا السرد أورد مصنّفوها كثيراً جدّاً من التراجم، وأوضح مثال على هذا كتـاب «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير[٢].

وأيضاً كتاب «الكامل» لعز الدين ابن الأثير[٣].

وكتاب «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي.

= صاحب الترجمة مخفقاً، فلزم بيته عاكفاً على التأليف والتدريس. واحتلّ البريطانيون بغداد سنة ١٣٣٥ فعرضوا عليه قضاءهـا؛ فزهد فيه انقباضاً عن مخالطتهم، ولم يل عمـلاً بعد ذلك غير عضوية مجلس المعارف في بدء تأليف الحكومة العربية في بغداد. له ٥٢ مصنَّفاً، بين كتاب ورسالة، توفي ببغداد سَنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١٧٣/٧.

(١) أحمد بن إسـماعيل بن محمد تيمور. عالم بـالأدب، باحث ومؤرخ مصري، مـن أعضاء المجمع العلمي العربي. ولد في القاهرة سنة ١٢٨٨، وهو من بيت فضل ووجاهة، كردي الأصل تلقّى مبادئ العلوم في مدرسة فرنسـية، وأخذ الأدب عن علماء عصره، وجمع مكتبة قيمة فيها ١٨ ألف مجلد. وكان رضي النفس، كريماً، متواضعاً، منقبضاً عن الناس. توفيت زوجه وهو في التاسـعة والعشرين فلم يتزوج أخـرى خوفاً على أولاده مـن أن تؤذيهم امرأة أبيهم. مات له ابـن فجزع عليه ولازمته نوبات قلبية حتى مات رحمه الله سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م. له مؤلفات عديدة. انظر «الأعلام»: ١٠٠/١.

(٢) هو الشيخ الإمام إسـماعيل بن عمر بن كثير البُصروي، عماد الدين. ولد سـنة سبعمائة أو بعدها بيسير، ونشأ بدمشـق، وسمع من طائفة، واشـتغل بالحديث، وجمع التفسـير والتاريخ، وله عدة مصنَّفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. توفي سنة ٧٧٤ رحمه الله. وكان قد أضرّ في أواخر عمره: انظر «الدرر الكامنة»: ٣٩٩/١ ـ ٤٠٠.

(٣) علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزريّ، أبو الحسن، عز الدين ابن الأثير، المؤرخ، الإمام، من العلماء بالنسب والأدب. ولد في جزيرة ابن عمر في العراق سنة ٥٥٥ وسكن الموصل، ارتحل في البلاد ثـم عاد إلى الموصـل، فكان منزلـه مجمع الفضـلاء والأدباء. توفي بالموصل سـنة ٦٣٠ رحمه الله. له عدة كتب نافعة: «الأعلام»: ٣٣١/٤ ـ ٣٣٢.

٣ ـ كتب التعريف بالمدن:

وهي تحوي كثيراً من التراجم، وذلك نحو «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لتقي الدين الفاسي[١] وهو في تاريخ مكة المكرمة لكنه حوى كثيراً جداً من التراجم.

وكتاب «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» للحافظ السيوطي[٢].

وكتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» لعثمان بن بشر النجدي[٣].

وكتب تاريخ البلدان عدة آلاف لا يحصيها إلا الله ـ تعالى ـ ما بين مفقود ومخطوط ومطبوع.

٤ ـ كتب تاريخ الدول:

وهي الكتب التي سردت تاريخ دولة بعينها، نحو:

«تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي[٤].

وفي كتابه هذا ترجم لكل السلاطين العثمانيين إلى زمانه.

---

(١) محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكيّ الحسنيّ. مؤرخ، عالم بالأصول، حافظ للحديث. أصله من فاس. ولد بمكة سنة ٧٧٥، وارتحل مراراً إلى اليمن والشام ومصر. ولي قضاء المالكية بمكة مدة، وكان أعشى يملي تصانيفه، ثم عمي سنة ٨٢٨. له كتب عديدة في التاريخ وغيره. سرق أكثرها وضاع. توفي بمكة سنة ٨٣٢ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٣٣١/٥.

(٢) هو الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن محمد السيوطي المصري. كان عالماً مجتهداً، وجرى بينه وبين علماء عصره خلافات كثيرة بسبب دعواه الاجتهاد. له مصنفات كثيرة جداً. توفي في القاهرة سنة ٩١١هـ رحمه الله. انظر «شذرات الذهب»: ٥٥/٨.

(٣) عثمان بن عبدالله بن عثمان بن أحمد بن بشر. ولد في جلاجل بنجد سنة ١٢١٠، وانتقل إلى الدرعية سنة ١٢٢٤، وتلقى العلم على علمائها ثم رجع إلى جلاجل وتوفي بها سنة ١٢٩٠ رحمه الله. ألف عدة كتب. «الشبكة العنكبوتية»: مقالات في التاريخ والأنساب.

(٤) محمد فريد بك بن أحمد فريد باشا، رئيس الحزب الوطني أيام الاحتلال البريطاني لمصر، وأحد نوابغها. =



٥ ـ كتب المعاجم:

وهي الكتب التي تترجم لمشايخ أحد العلماء.

وتسمى «معاجم» وذلك نحو: «معجم الشيوخ» للحافظ السِّلفيّ[1][2].

٦ ـ كتب التراجم المفردة:

وهي الكتب التي أُفردت لترجمة شخص واحد فقط:

وهي جملة ضخمة، وعدد كبير، لكن أكثرها قد فُقِد للأسف، ومن أمثلتها كتاب «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» لتلميذه الحافظ السخاويّ رحمهما الله تعالى.

= من أصل تركي. ولد في القاهرة سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٨م، وتعلم في مدرستي الألسن والحقوق، وولي نيابة الاستئناف، ثم احترف المحاماة وانقطع إلى الخدمة العامة فكان مع مصطفى كامل باشا في كثير من رحلاته إلى أوروبا. ولما توفي مصطفى كامل انتخب محمد فريد رئيساً للحزب سنة ١٩٠٨، وحبس ونفي سنة ١٩١٢، وساح سياحات كثيرة مدافعاً عن قضية مصر إلى أن توفي ببرلين، ونقل جثمانه إلى القاهرة، وقد أنفق ماله كله في سبيل قضية بلاده. له عدة كتب. توفي سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م. انظر «الأعلام»: ٦/٣٢٨ - ٣٢٩.

(١) أحمد بن محمد سِلَفة الأصبهاني، صدر الدين أبو طاهر السِلَفي، حافظ متقن من أهل أصبهان. ولد سنة ٤٧٥، وارتحل في طلب الحديث. بنى له الأمير العادل ـ وزير الفاطميين ـ مدرسة في الإسكندرية فأقام بها إلى أن توفي فيها سنة ٥٧٦، وقد جاز المائة. له عدة كتب. وهو صاحب همّة عالية جدّاً كما جاء في ترجمته رحمه الله. وانظر «الأعلام»: ١/٢١٥ - ٢١٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/٥ـ٣٩.

(٢) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الخامس في تعريف المعجم:
«الكتاب الذي يُترجم فيه رجال أحد الكتب مرتَّبين على الحروف». وللمعجم معانٍ أخرى لكن هذا المعنى هو ما أردته في هذا الكتاب. وقد يسمى هذا النوع من الكتب «المشيخة» وجاء في «لسان المحدثين»: قال الحافظ ابن حجر في «المعجم المفهرس»: ١٩٥: «فصل في المشيخات وهي في معنى المعاجم إلا أن المعاجم يرتب المشايخ فيها على حروف المعجم في أسمائهم بخلاف المشيخات».

٧ ـ كتب الأثبات:

وهي الكتب التي يثبت فيها العالم أسماء المشايخ الذين درس عليهم، والكتب التي قرأها عليهم، والأحاديث التي رواها من طريقهم، وهذا النوع من الكتب يسمى «ثَبَت» وجمعه أثبات[١]، وفيه تراجم كثيرة، ومن ذلك «فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات» للكتاني المغربي[٢].

٨ ـ كتب البرامج، ومفردها «برنامج»[٣]:

وفيه تراجم مبثوثة كثيرة، ومن ذلك «برنامج ابن خير الإشبيلي[٤]».

---

(١) ومعنى الثبت كما قال اللكنوي رحمه الله في «فهرست الفهارس» للكتاني: ١/٦٨: هو الفهرسة التي يجمع فيها المحدث مروياته وأشياخه، كأنه أُخذ من الحجة، لأن أسانيده وشيوخه حجة له...
وقال فيه أيضاً: الكتاب الذي يجمع فيه المحدث مشيخته ويثبت فيه أسانيده ومروياته وقراءته على أشياخه المصنفات ونحو ذلك، فهو اصطلاح حادث للمحدثين: انظر «لسان المحدثين»: المجلد الثالث.

(٢) هو محمد عبدالحي بن عبدالكبير الإدريسي المعروف بعبدالحي الكتاني. عالم بالحديث ورجاله. مغربي. ولد بفاس سنة ١٣٠٥. ارتحل إلى مصر والشام والحجاز والجزائر وتونس والقيروان. وكان جمّاعة للكتب، في مكتبته نفائس. ولما استقلت المغرب كان في باريس لأنه لم يكن على وفاق مع ملوك المغرب وكان موالياً لفرنسا، وبقي إلى أن مات سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م رحمه الله. له عدَّة تصانيف في الحديث والسيرة والتصوّف، وكان صدراً من صدور المغرب ومرجعاً من مراجعه. انظر «الأعلام» ٦/١٨٧ - ١٨٨.

(٣) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الثاني:
«استعمل المتأخرون ـ ولا سيما الأندلسيون (كذا) ـ منهم لفظ برنامج على معنيين: أحدهما: الكتاب الحاوي لأسماء الكتب، والتقاييد والرسائل المقروءة، أو خلاصات المسائل ورؤوس النقاط...
وثانيهما: كتاب يضم أسماء المشايخ، وأسماء التلاميذ المستفاد منهم أيضاً، فلفظة البرنامج إذن مرادفة عند المحدثين للفهرس...
وهذه الكلمة ليست عربية بل هي معربة عن «نامه» الفارسية التي من معانيها عندهم: الورقة الجامعة للحساب، وفيها بعض معنى الفهرسة.
والمقصود هنا المعنى الثاني للبرنامج، وإن كان المعنى الأول يراد أحياناً.

(٤) هو أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي القرطبي الفقيه، والمحدث المتقن. وفاته في قرطبة عام ٥٧٥هـ، وكان قد دفن في قرطبة، ثم جرى نقل جثمانه إلى إشبيلية. انظر ترجمته في «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي.



والباحث عن التراجم يجد ـ غالباً ـ تراجم نادرة في هٰذين النوعين من الكتب التاريخية/ الحديثية: الثَّبَت والبرامج، لا يكاد يجدها في غيرهما من الكتب.

٩ ـ كتب فهارس العلوم[1]:

وهي الكتب التي تُعرِّف بالعلوم والفنون وكتبها ومؤلفيها، وقد يجد القارئ في هذه الكتب تراجم لا يجدها في غيرها، ومنها فهرست ابن النديم[2]، وقد ذكر في مقدمة كتابه ما يبيِّن منهج كتابه وأمثاله، فقال:

«هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم، وأخبار مصنفيها، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اختُرِع إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة».

ويقاربه ـ لكنه أوسع مدى منه ـ كتاب «مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة» لطاش كوبري زاده[3].

---

(١) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الرابع:
«الفهرس لفظة فارسية... وقد عربها العرب... قال الفيروز آبادي في «القاموس المحيط»: ٢٤٧/٢: الفهرس بالكسر: الكتاب الذي يجمع فيه الكتب معرب فهرست. وجاء في «المعجم الوسيط»: ٧١١/٢: «الفهرس: الكتاب تجمع فيه أسماء الكتب مرتبة بنظام معين...»، أما الفهرس في اصطلاح المحدثين فهو الكتاب الذي يجمع فيه الشيخ شيوخه وأسانيده وبعض ما يتعلق بذلك، فالفهارس إذن هي مشيخات في الجملة...».

(٢) محمد بن إسحاق بن محمد، أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم، صاحب كتاب «الفهرست»، وهو من أقدم كتب التراجم ومن أفضلها. وهو بغدادي، يُظن أنه كان ورَّاقاً يبيع الكتب، وكان معتزليّاً متشيعاً، يدل كتابه على ذلك. توفي سنة ٤٣٨ عن قرابة تسعين سنة: «الأعلام» ٢٩/٦.

(٣) هو أحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير، عصام الدين طاش كبري زاده. مؤرخ تركي مستعرب ولد في بورصة سنة ٩٠١، ونشأ في أنقرة، وتأدب وتفقه، وتنقل في البلاد التركية مدرساً للفقه والحديث وعلوم العربية. ولي القضاء بالقسطنطينية سنة ٩٥٨ وكُف بصره سنة ٩٦١. له عدة كتب في التاريخ وغيره، وله نظم. توفي سنة ٩٦٨ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٢٥٧/١.



ويقاربهما كذلك كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة[1].

١٠ ـ كتب الرحلات:

وهي التي يسجل فيها العلماء والأدباء وقائع أسفارهم وتنقلاتهم في البلاد، وفيها ـ غالباً ـ تراجم كثيرة، يُعد بعضها نادراً ولا يكاد يوجد في أيِّ كتاب آخر، أو يورد المصنف أخباراً عن المترجم لهم المعروفين لا تكاد تجدها في مكان آخر، وذلك لمعايشة المصنف للمترجم لهم معايشة ينقل بها من أخبارهم ما رآه وعرفه بنفسه، ومن ذلك رحلة ابن رُشيد الفِهري المغربي[2]، ورحلة ابن جبير الأندلسي[3]، ومن المحدثين رحلة محمد رشيد رضا[4].

---

(١) مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة، مؤرخ بحاثة تركي. ولد باسطنبول سنة ١٠١٧هـ/١٦٠٩م، وتولى أعمالاً كتابية في الجيش العثماني، وذهب مع أبيه إلى بغداد سنة ١٠٣٣، فمات أبوه بالموصل سنة ١٠٣٥، فعاد إلى اسطنبول ثم رحل إلى الشام فمكة فحج سنة ١٠٤٣. انقطع في سنواته الأخيرة للتدريس. له عدة كتب. توفي رحمه الله باسطنبول سنة ١٦٥٧/١٠٦٧: «الأعلام» ٢٣٦/٧ - ٢٣٧.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشيد الفهري السبتيّ المغربيّ. احتفل في صغره بالأدبيات وبرع فيها. ارتحل إلى بلاد عدة، وحج وجاور بمكة والمدينة، ونزل مصر. وله مصنفات كثيرة. كان فاضلاً حسن الأخلاق. توفي سنة ٧٢١ رحمه الله. انظر «الوافي بالوفيات»: ٢٨٤/٤ - ٢٨٦.

(٣) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانيّ الأندلسيّ الشاطبيّ البَلَنسيّ. رحالة أديب. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ ونزل شاطبة. برع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وأحب الترحال والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨ - ٥٨١ وهي التي ألف فيها رحلته. مات بالإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٣٢٠/٥.

(٤) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القَلموني الأصل الحسينيّ، صاحب مجلة «المنار» وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. ولد في القلمون ـ من لبنان ـ سنة ١٢٨٢، وتعلم فيها وفي طرابلس، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة «المنار»، وصار مرجع الفتيا في التوفيق بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ارتحل مراراً، وله مصنفات كثيرة، وجرت عليه أحداث حتى توفي سنة ١٣٥٤ بمصر رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١٢٦/٦.

١١ ـ كتب الجغرافيا:

التي كانت تسمى قديماً: «كتب البلدان»: وأحسن مثال على هذا ـ عندي ـ كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي[1]، ففيه تراجم كثيرة جدّاً، لا تكاد تجد بعضها إلا في كتابه.

١٢ ـ كتب الخطط:

وهي الكتب التي تصف معالم مدينة ما، فتذكر شوارعها، وأهمّ بيوتها، وأهم أسواقها، وأهم مساجدها، وهكذا...

ومن أهم هذه الكتب: خطط المقريزي[2]، واسم كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

وكتاب «الخطط التوفيقية» ذو الأجزاء العشرين، لمؤلِّفه علي مبارك[3].

---

(١) الأديب الأوحد، شهاب الدين الرومي، مولى عسكر الحموي، السفّار، النحوي، الأخباري، المؤرخ، ذو التآليف الحاكمة بالبلاغة وسعة العلم. أعتقه مولاه فنسخ بالأجرة، وكان ذكياً، شاعراً متفنناً، جيد الإنشاء. توفي سنة ٦٢٦ عن نيف وخمسين سنة رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣١٢/٢٢ - ٣١٣.

(٢) أحمد بن علي بن عبدالقادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية. أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة فيها. ولد في القاهرة سنة ٧٦٦. ولي الحسبة والخطابة والإمامة مرات، وعرض عليه قضاء فأبى. له عدة كتب. توفي في القاهرة سنة ٨٤٥ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ١٧٧/١ - ١٧٨.

(٣) علي بن مبارك بن سليمان الروجي. وزير مصري، من المؤرخين العلماء العصاميين النوابغ. ولد في قرية برنبال (من الدقهلية بمصر) سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م. تلقن العربية وحذق بعض الفنون. سافر سنة ١٢٦٠، مع بعثة مصرية إلى باريس، فتعلم فني الاستحكام والمفرقعات والحركات الحربية، وعاد إلى مصر فتقلب في الوظائف العسكرية وبلغ رتبة أميرالاي، وحضر الحرب التركية الروسية سنة ١٢٧٠، ثم نصب ناظراً للأوقاف المصرية، وأضيفت إليه المعارف فأنشأ مدارس كثيرة، وأبقى آثاراً، منها دار الكتب المصرية في القاهرة. وتولى نظارة الأشغال العامة سنة ١٢٩٧ فحدثت ثورة عرابي باشا فاستقال مع زملائه في الوزارة. وآخر أعماله ولايته نظارة ـ وزارة ـ المعارف المصرية سنة ١٣٠٥. له عدة كتب نافعة. توفي بالقاهرة سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م. انظر «الأعلام»: ٣٢٢/٤.

ففي الكتابين مئات التراجم المهمة التي لا تكاد توجد إلا فيهما خاصة الكتاب الآخر.

١٣ ـ كتب المذكرات أو الذكريات:

وهي التي يسجل فيها أصحابها سيرة حياتهم وأطوارها ودقائقها وتفصيلاتها، ففي هذه الكتب ـ غالباً ـ يوجد تراجم لأشخاص تختلف طولاً وقصراً بحسب العلاقة بكاتب المذكرات أو الذكريات، والترجمة في هذه الكتب عادة ما تكون غير مرتبة ولا سائرة على منهج محدد واضح، وهذا مفهوم إذا عُرف أن كتب الذكريات لا ينبغي أن تسير على منهج صارم علمي أكاديمي بل هي كتب خواطرَ وعواطفَ وأشواقٍ وملاحظات ومطالعات مع شيء من المنهجية السردية المتعلِّقة بصاحب الكتاب لا بغيره من التراجم التي تُذكر استطراداً أو قصداً، لكن الباحث يجد في كتب الذكريات بعض التراجم النادرة التي قد لا توجد في أيِّ مكان آخر[1].

تفاوت كتب التراجم الذاتية بتفاوت منزلة كاتبيها:

هذا وإن مرتبة كتب التراجم الذاتية (المذكرات) تختلف باختلاف مرتبة أصحابها، فإذا كان صاحبها في منصب سياسي أو ثقافي أو اجتماعي مهم ووقف على أحداث مهمة فإن منزلة ذكرياته تعظم وترتقي على غيرها من كتب الذكريات التي كان أصحابها في خمول أو في مناصب هامشية: «وقد كانت مذكرات وزير الثقافة المصري الأسبق الدكتور ثروت عكاشة ساخنة جداً، وهي التي جاءت تحت عنوان «مذكراتي في السياسة والثقافة» فقد حمل فيها بشدة على ثوار يوليو وما اقترفوه في حق المجتمع، فكان يتمنَّى أن

---

(١) سبق أن ذكرت في المبحث الأول: المطلب الثالث بعض المحاذير الواردة في كتب الذكريات.



يتولى القيـــادة البطل أحمـــد عبدالعزيز[1] ـ لـــو بقي حيّاً ـ بـــدلًا من جمال عبدالناصر... كما يتهم الدكتور عكاشة الضباط المصريين ويكشف أخطاءهم الفادحة في حرب ٤٨ ...»[2].

هذا وإن كتب الذكريـــات ـ بصورتها الحالية ـ هي شـــيء جديد على الثقافة الإســـلامية، لم تُعـــرف إلا ابتداء من القرن الثالث عشـــر الهجري/ التاسع عشـــر الميلادي، ولكن كثيراً من محتويات كتب الذكريات معروف في كتب أخرى ألفها أســـلافنا واشـــتهرت قديمـــاً، منها كتـــب الرحلات والبرامج والأثبات الســـابقة الذكر، ومنها ما كتبه الشيخ ترجمة لنفسه كما صنع الســـيوطي في كتابه «حســـن المحاضرة»، وقد ذكرت ذلك في النوع السادس.

---

(١) ولد سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م بمدينة الخرطوم، وكان والده أميرالاي (عميداً) في الجيش المصري في الســـودان، وعاد إلى القاهرة، وكان لوالده فيها موقف مشـــرف ضد الإنجليز في ثورة ســـنة ١٣٧٣هـ/١٩١٩م حيث ســـمح لجنوده بالخروج من ثكناتهم للمشاركة في المظاهرات، فغضب عليه الإنجليز وفصلوه من الجيش. درس أحمد في الكلية الحربية ثم درّس فيها بعد تخرجه مادة التاريخ الحربي. ولما انتهى الاحتلال البريطاني لفلســـطين وقامت الحرب ضد اليهود انتشـــرت دعوات الجهاد في كل مكان، فاستجاب أحمد لها، ونظم المتطوعين ودرَّبهم وأعدهم للقتال في معســـكر في مصر، وقد أنذرته الدولة أن يتـــرك ما يصنع أو يتقاعد فاختـــار التقاعد، وكان برتبة قائمقام (عقيد)، ثم دخل فلســـطين للجهـــاد، وحرض المجاهدين بكلمـــات مضيئة، وأعجب به القائد الأردني عبدالله التل فجعل القوات الأردنية تحت تصرف أحمد عبدالعزيز دون علم القيادة الأردنية التي كان يسيطر عليها الجنرال البريطاني كلوب باشا.
استطاع البطل أحمد أن يثخن في اليهود وأن يقطع كثيراً من خطوط اتصالهم وإمداداتهم، وحافظ على أراض واســـعة من فلســـطين. استشـــهد برصاصة ضلت طريقها حيث أتى ليـــلاً إلى منطقة عسكرية إسلامية فظنه أحد الحراس من العدو فأطلق عليه رصاصة واحدة أردته شهيداً إن شاء الله سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م. أطلق اسمه على عدد من الشوارع والميادين الرئيسية في بعض مدن مصر وفلسطين. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة الإنترنت.

(٢) المقالة السابقة.

١٤ ـ بعض معاجم اللغة:

يورد بعض علماء اللغة في معاجمهم كثيراً من التراجم، وأكثر من رأيته يُعنى بهذا الزبيدي[١] في كتابه الرائع الجليل: «تاج العروس من جواهر القاموس» وبعض هذه التراجم لا تكاد تجدها في أيِّ مكان آخر.

١٥ ـ كتب الأنساب:

وفيها يورد مؤلِّفوها كثيراً من التراجم، وأحسن مثال على هذا ـ عندي ـ كتاب «الأنساب» للسمعاني[٢].

١٦ ـ كتب الأدب والمُلَح:

وفي هذه الكتب يجد الباحث تراجم كثيرة جدّاً مسوقة غَرَضاً أو عَرَضاً، ومن ذلك:

كتاب «الأغاني» للأصفهاني[٣] ففيه من أخبار الرجال والنساء الشيء الكثير،

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بمرتضى. علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. أصله من واسط بالعراق، وولد بالهند في بلجرام سنة ١١٤٥ ونشأ في زبيد باليمن. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتهر فضله، وانهالت عليه الهدايا والتحف، وزاد اعتقاد الناس فيه حتى كان في أهل المغرب كثيرون يزعمون أن من حج ولم يزر الزبيدي ويصله بشيء لم يكن حجه كاملاً!! توفي بالطاعون في مصر سنة ١٢٠٥. له كتب نفيسة كثيرة. انظر «الأعلام»: ٧/٧٠.

(٢) عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد. مؤرخ رحالة، من حفاظ الحديث. ولد بمرو سنة ٥٠٦. رحل إلى أقاصي البلاد، ولقي العلماء والمحدثين. نسبته إلى سمعان بطن من تميم. له عدة مصنفات. توفي رحمه الله بمرو سنة ٥٦٢. انظر «الأعلام»: ٤/٥٥.

(٣) علي بن الحسين بن محمد المرواني الأموي القرشي، أبوالفرج الأصبهاني. أديب، عالم في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. ولد في أصبهان سنة ٢٨٤، ونشأ في بغداد وتوفي بها سنة ٣٥٦. والعجيب أنه أموي شيعي. له عدة مصنفات مشهورة. واتهمه عدد من الأئمة بالكذب في بعض ما يورده. وانظر ترجمته في «الأعلام»: ٤/٢٧٨.



لكن الرجل غير ثقة فيما يورده، ولا تطمئن النفس لكثير مما ذكره، وقد عَمِد إلى رجال مشهورين في تاريخنا فأعمل فيهم قلمه بالسوء، وذكرهم بشناعات كثيرة، فهذا الكتاب وأمثاله يجب أن يحذر القارئ من تراجمه جملة إلا ما اطمأنت نفسه إليه، وعرف فيه الصدق وروده على الجادّة، ولا أزعم أن كل تراجمه كذب، لا فهذا ليس بإنصاف لكني أقول: يجب الحذر حال قراءتها لأن الشخص قد جرّب عليه المحققون الكذب وإيراد الفواحش والموبقات؛ كما هو مشهور من حاله ومن كتابه.

وقد قام الدكتور وليد الأعظمي[١] بقراءة الكتاب، وجمع فضائح المصنف في كتاب سماه «السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني» وعندي أن صنيعه هذا مرجوح على حُسن قصده؛ إذ «الأغاني» مجلدات كثيرة ضخمة وليس في مقدور أكثر ناشئة العصر قراءتها والاطلاع على ما فيها من القبائح، لكن الدكتور الفاضل اختصر لهم تلك المجلدات الضخام في كتاب تبلغ صفحاته المائتين تقريباً فيها كل القبائح وهاتيك الفضائح فسهّل على الناشئة قراءته من حيث لا يريد ولا يقصد، غفر الله له.

وكتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» للمقّري[٢]، ففيه جملة واسعة من التراجم.

---

(١) هو وليد بن عبد الكريم بن إبراهيم الأعظمي، قحطاني الأصل، عراقي الجنسية. أديب، شاعر، خطاط، وكاتب إسلامي من أعلام الإخوان في العراق. ولد سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، وتوفي سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ﷺ. له مؤلفات عديدة أدبية وتاريخية، وعدة دواوين شعرية، وصدرت رسالتا ماجستير في حياته وشعره. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد المَقَّرِي، أبو العباس التلمساني المؤرخ، الأديب الحافظ. ولد في تلمسان سنة ٩٨٦، ونشأ بها، ثم انتقل إلى فاس فكان خطيبها وقاضيها، ثم انتقل إلى القاهرة، سنة ١٠٢٧، ودخل الشام والحجاز. والمَقّري نسبة إلى مَقّرة قرية من قرى تلمسان. له عدة كتب جليلة. توفي ﷺ بمصر سنة ١٠٤١. انظر «الأعلام»: ١/٢٣٧.

وكتب أبي حَيّان التوحيدي[1] الأدبية فيها تراجم عديدة.

أما الكتب الأدبية (الشعبية) التي صُنفت في سيرة شخص ما فهي لا تصلح أبداً مرجعاً للتراجم؛ وذلك نحو: سيرة أبي زيد الهلالي، وعنترة بن شداد، والظاهر بيبرس ونحو هذه السِّيَر التي كانت تُقرأ في المقاهي على مدار القرون المتأخرة فهذه لا تصلح لاستقاء التراجم منها؛ لأن أكثر ما فيها من أخبار موضوع، وجيء به لإثارة العوام وجلب استحسانهم.

تلك كانت بعض مظانّ التراجم ـ أي: أماكن وجودها ـ وهي توجد في بعض الكتب الأخرى التي لم تُذكر ها هنا لكن على قلة أو نُدرة، نحو بعض كتب العقائد، أو الفتاوى، خاصة التي تسأل عن حال بعض الأشخاص.

ـ وهناك مراجع ثانوية أخذت من المصادر الرئيسة فلم أعرج عليها هاهنا، وذلك نحو كتب شرح الحديث التي استقت التعريف ببعض التراجم من كتب أخرى أساسية مذكورة في هذا المبحث.

وكثير من المحْدثين اليوم ذهب ليستقي أخبار التراجم من غير المصادر الأصلية، بل ليتَهُ عَرّج على المراجع الفرعية إذ ترك المصادر الأصلية لكنه ذهب إلى كتب غير موثوقة ليأخذ منها تراجمه، وما أحسنَ ما قاله الأستاذ الدكتور المحقق محمود الطناحي[2] في هذا الصنيع:

---

(١) علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي. شيرازي، وقيل: نيسابوري. اختلف الناس فيه اختلافاً بيناً، فمن قائل: إنه زنديق، ومن موثق. والأقرب عندي والأوكد لدي أنه بريء من الزندقة. طلبه الوزير المُهلبي ليقتله فهرب منه ومات في الاستتار. كان متأدباً، متصوفاً، متفنناً في علوم كثيرة، واسع الدراية والرواية. توفي سنة ٤١٤ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وانظر «الوافي بالوفيات»: ٣٩/٢٢ - ٤١، و«سير أعلام النبلاء»: ١١٩/١٧ - ١٢٣.

(٢) ولد سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م في المنوفية بمصر. انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره، =



«أما الذين يلتمسون تراجم الرجال من «دوائر المعارف»[١] و«الموسوعة العربية الميسرة».. ويجمعون تراجم الشعراء من «شعراء النصرانية» فقد سقطت كُلْفة الحديث معهم»[٢].

إذن نرى أن المكتبة الإسلامية غنيّة جدّاً بكتب التراجم، بل إن الدكتور عماد الدين خليل يذهب إلى أن «الترجمة فن أصيل في المكتبة التراثية لأمتنا المسلمة، وكتب التراجم تحتل أكثر من سبعين بالمائة من مساحتها»[٣].

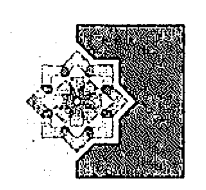
وهو ثقة فيما ينقل ويقرر ـ إن شاء الله تعالى ـ وهذه النسبة العالية جدّاً تظهر مدى عناية المسلمين بالتراجم، وهي عناية فاقت عناية أيِّ أمة أخرى، بل ليس بين الأمم الأخرى وأمتنا في هذا الباب أفعل تفضيل، والله أعلم.

= والتحق بمعهد القاهرة الديني التابع للأزهر وارتقى في الطلب حتى حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة. وهو أحد المحققين الكبار. وله مصنفات وتحقيقات ومقالات نافعة. وعمل في جامعة الدول العربية خبيراً في معهد المخطوطات العربية بها، ودرّس في عدة جامعات مصرية وسعودية. توفي سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م رحمه الله. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(١) يعني الغربية منها.

(٢) «الموجز في مراجع التراجم»: ٣٥.

(٣) «حول المنهج في الكتابة التاريخية» بحث منشور في مجلة «إسلامية المعرفة»: العدد ١٣: ص ١٥٠.



المبحث الثاني: عناية الأمة الإسلامية بتدوين التراجم

إن سير حياة الأشخاص ـ المسماة في تاريخنا بالتراجم ـ لهي كنز الأمة ووعاء فخرها ومجدها، كما سأبيّن بالتفصيل إن شاء الله تعالى، ولقد عُني أسلافنا بالتراجم عناية بالغةً مبلغاً لا مزيد عليه، وقد تجلَّت تلك العناية في الجوانب التالية:

أولاً: الشمول:

إذ لم يغادر مؤرِّخونا علماً ولا فناً ولا صناعة ـ تقريباً ـ إلا وترجموا لـمُـبَرَّزيها ومقدميها وعظمائها؛ على وجه من الشـمول والإحاطة عجيب وغير مسـبوق في التاريخ الإنسـاني؛ فقد ترجـم المؤرخون لصحابة رسـول الله ﷺ ورضي عنهم، وأجمع كتاب في هذا هو «الإصابة في معرفة الصحابة» للحافظ ابن حجر رحمه الله.

وترجموا للعلمـاء من بعـد الصحابة كلّ بحسَـب علمه وفنـه، فترجموا للمفسـرين في أكثر من كتاب، نحو «طبقات المفسـرين» للسيوطي، و«طبقات المفسرين» للداوديّ[1].

وترجموا للفقهاء على اختلاف مذاهبهم، فهناك تراجم الأحناف نحو «الدرر المضِيّة في تراجم الحنفية» للقرشي[2].

وتراجم المالكية نحو «ترتيـب المدارك وتقريب المسـالك لمعرفة أعلام

---

(١) محمد بن علي بن أحمد، شـمس الدين الداودي المالكي، شيخ أهل الحديث في عصره. مصري. من تلاميذ السيوطي. توفي بالقاهرة سنة ٩٤٥. له عدة كتب. انظر «الأعلام»: ٦/٢٩١.

(٢) هو عبدالقادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيى الدين. عالم بالتراجم، من حفاظ الحديث، من فقهاء الحنفية. ولد بالقاهرة سنة ٦٩٦، وتوفي بها سنة ٧٧٥ رحمه الله. له عدة كتب. انظر «الأعلام»: ٤/٤٢.



مذهب مالك» للقاضي عياض[١]، و«نيل الابتهاج» للتُنبكتي[٢]، و«شجرة النور الزكية» لمخلوف[٣].

وترجموا للفقهاء الشافعية نحو «طبقات الشافعية الكبرى» لعبد الوهاب السبكي[٤]، و«طبقات الشافعية» للإسنوي[٥].

وترجموا لفقهاء الحنابلة نحو «طبقات الحنابلة» للقاضي أبي يعلى[٦]، وذيله لابن رجب[٧].

---

(١) هو الشيخ الإمام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليَحْصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي. ولد سنة ٤٧٦، واستبحر من العلوم، وجمع وألف، واشتهر اسمه في الآفاق، وله شعر حسن. وهو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. توفي شهيداً مقتولاً بمرّاكش سنة ٥٤٤؛ وذلك لإنكاره عصمةَ ابن تُومرت أمير الموحِّدين. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١٢/٢٠ - ٢١٨.

(٢) أحمد بابا بن أحمد بن أحمد التكروري التنبكتي، أبو العباس، من تنبكت في مالي اليوم. ولد سنة ٩٦٣ - وقيل: الصحيح سنة ٩٦٠ - وأصله صنهاجي بربري، من بيت علم وصلاح. وهو عالم بالحديث والفقه والتاريخ، أصابته محنة فسيق إلى مراكش وسجن فيها سنتين وضاع منه ١٦٠٠ مجلد بسببها، وكان شديداً في الحق لا يراعي أحداً، له عدة تصانيف. توفي رحمه الله سنة ١٠٣٦. وانظر «الأعلام»: ١٠٢/١.

(٣) محمد بن محمد بن عمر مخلوف. عالم بتراجم المالكية، من المفتين. ولد في المنستير من تونس سنة ١٢٨٠، وتعلم في جامع الزيتونة، ودرّس فيه ثم بالمنستير. وولي الإفتاء بقابس سنة ١٣١٣، فالقضاء بالمنستير سنة ١٣١٩، ثم وظيفة المفتي الأكبر فيها سنة ١٣٥٥ إلى أن توفي سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م رحمه الله. له عدة كتب: انظر «الأعلام»: ٨٢/٧.

(٤) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر. تاج الدين. ولد سنة ٧٢٧ وقرأ على جملة من المشايخ، وأمعن في طلب الحديث والاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب، وكان ذا بلاغة وطلاوة ومعرفة بالأمور. له مصنفات انتشرت في حياته ورزق فيها السعد. ولي عدة وظائف في بلاد الشام وانتهت إليه رياسة القضاء والإفتاء فيها، وحصلت له محن ثبت فيها وصفح عمن أساء إليه. توفي سنة ٧٧١ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ٣٩/٣ - ٤١.

(٥) عبد الرحمٰن بن الحسن بن علي الإسنويّ الشافعي، أبو محمد. فقيه، أصولي، من علماء العربية. ولد بإسنا سنة ٧٠٤، وقدم القاهرة سنة ٧٢١ فانتهت إليه رياسة الشافعية. وولي الحسبة ووكالة بيت المال. له عدة كتب. توفي سنة ٧٧٢ رحمه الله: انظر «الأعلام»: ٣٤٤/٣.

(٦) القاضي العلامة الحافظ، أبو يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي القزويني. طال عمره وعلا إسناده، وكان ثقة حافظاً، عارفاً بالرجال والعلل، كبير الشأن. توفي بقزوين سنة ٤٤٦، وكان من أبناء الثمانين رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦٦٦/١٧ - ٦٦٨.

(٧) عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي، الشيخ المحدث الحافظ، زين الدين. =



ومن أجمل ما سمعته منسوباً إلى الشيخ علي الطنطاوي[١] رحمه الله في المقارنة بين الطبقات وذيله أنه قال: طبقات الحنابلة كالطاووس أجمل ما فيه ذيله!!

وترجموا لقرّاء القرآن، وذلك نحو «غاية النهايــة في طبقات القراء» للإمام ابن الجزري[٢].

وترجموا للمحدثين نحو «المعجــم المختص بالمحدثين» للحافظ الذهبي، و«تهذيب التهذيب» لابن حجــر، و«تهذيب الكمال» للمزي[٣]، وتاريخ البخاري بأقسامه.

وترجموا للقضاة نحو: «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر العسقلاني.

وترجموا للمؤرخين مثل «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للسخاوي.

وترجموا للنســاء مثل «الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور» لزينب بنت علي بن الحسين الشهيرة بزينب فواز العامليّ[٤].

= ولد سنة ٧٠٦ ببغداد، وقدم دمشق، وأكثر الاشــتغال حتى مهر، وصنف. توفي سنة ٧٩٥ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ٤٢٨/٢ - ٤٢٩.

(١) أديب العربية المعروف. سوري من أصل مصري من بلدة طنطا. استوطن مكة فسكنها طويلًا كانت له رحلات وجولات في نصرة فلســطين والقضية الإســلامية. له العديد من المصنفات الدالة على علو كعبه في باب الأدب. وله آلاف الأحاديث في وســائل الإعلام، ولــه كذلك آلاف المقالات. توفي رحمه الله سنة ١٤٢٠هـ.

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي المعروف بابن الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل. ولد سنة ٧٥١ بدمشق ونشــأ بها، وأخذ القراءات عن جماعة بها وبالقاهرة والإسكندرية، واشتد شغفه بالقراءات وألف فيها تواليف نافعة هذا مع اشتغاله بغيرها من العلوم كالحديث والفقه. تولى القضاء في شيراز مكرهاً، ثم مات بها سنة ٨٣٣. انظر «البدر الطالع» للشوكاني: ٢٥٧/٢ - ٢٥٩.

(٣) جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمٰن بن يوسف القضاعي ثم الحلبي الشافعي، مؤلف «تهذيب الكمال في أسماء الرجال». ولقب المزي نســبة إلى المزة في دمشق التي استقر ونشأ بها. ولد بحلب سنة ٦٥٤، مهر في اللغة، ثم في الحديث ومعرفة رجاله، توفي في دمشق سنة ٧٤٢. انظر «الدرر الكامنة» لابن حجر، «وتذكرة الحفاظ» للذهبي، و«الأعلام» للزركلي: ٢٣٦/٨.

(٤) أديبة لبنانية، وشاعرة، ومؤرخة. ولدت في بلدة تبنين في جبل عامل بلبنان سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٤م، ونشأت في أسرة فقيرة لكنها اســتفادت ثراء وأدباً من نساء آل الأسعد. تزوجت من ضابط مصري =

و«أعلام النساء» لعمر رضا كَحّالة[1].

وترجموا للخلفاء مثل: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي.

وترجموا للوزراء مثل: «الإشارة إلى من نال الوزارة» لابن الصيرفي[2].

وترجموا للأدباء والشعراء مثل «طبقات فحول الشعراء» لابن سَلّام الجُمَحيّ[3].

و«خريدة القصر وجريدة أهل العصر» للعماد الأصفهاني[4].

وترجموا لعلماء اللغة مثل «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي.

= عرفته في دمشق وانتقلت معه إلى مصر، واستقرت بالإسكندرية. نشرت مقالاتها في صحف مصر، وكانت تدعو إلى النهوض بالمرأة وتعليمها. لها عدة كتب. توفيت سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م: «ويكيبيديا» شبكة الإنترنت. وأظنها شيعية، والله أعلم.

(١) عمر بن رضا بن محمد كَحّالة الدمشقي. ولد سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، وتعلم في دمشق وظل قرابة ثلاثين سنة مديراً لدار الكتب الظاهرية بدمشق، وانتخب عضواً في «المجمع العلمي العراقي» و«مجمع البحوث الإسلامية» في الأزهر. له عدة مصنفات. توفي بدمشق سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م رحمه الله. انظر «ويكيبيديا»، والموقع الرسمي للمكتبة الشاملة، كليهما في شبكة «الإنترنت».

(٢) علي بن منجب بن سليمان، أبو القاسم، تاج الرياسة، ابن الصيرفي. مؤرخ كاتب، من أعيان المصريين. ولد سنة ٤٦٣. ولي ديوان الإنشاء بمصر في أيام الفاطميين. له عدة مصنفات تاريخية وأدبية. توفي سنة ٥٤٢ رحمه الله. انظر ترجمته في «الأعلام»: ٢٤/٥.

(٣) محمد بن سَلّام بن عبيد الله، الجمحي بالولاء، أبو عبد الله، من أهل البصرة. ولد سنة ١٣٩ وهو إمام من أئمة اللغة والأدب، وفي الحديث صدوق. له عدة كتب. مات ببغداد سنة ٢٣١ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: الجزء العاشر.

(٤) محمد بن محمد بن حامد، أبو عبد الله، عماد الدين الأصفهاني. مؤرخ، أديب، من أكابر الكتّاب. ولد في أصفهان سنة ٥١٩، وقدم بغداد في صباه فتفقه فيها وتأدب، وولي فيها بعض المناصب، ثم ارتحل إلى دمشق فتوظف في ديوان الإنشاء في زمن السلطان العظيم نور الدين زنكي، ثم خدم السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمة الله عليهما. له عدة كتب تاريخية وأدبية. توفي في دمشق سنة ٥٩٧ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٢٦/٧.



وترجموا للأطباء مثل: «عيــون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أُصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة(١).

وترجموا للأصوليين نحو «الفتح المبين في طبقات الأصوليين» لعبد الله مصطفى المراغي(٢).

وترجموا للفلاسفة مثل: «تاريخ حكماء الإسلام» للبيهقي(٣).

وترجموا للزهّاد والأولياء مثل: «طبقات الأوليــاء» لابن الملقّن(٤)، و«حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم الأصبهاني(٥).

و«صفة الصفوة» لابن الجوزي.

وترجموا لجماعة من آل بيت النبي ﷺ مثل «المشــرع الــرويّ في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي» لمحمد بن أبي بكر الشلّي باعلوي(٦).

---

(١) ولد بدمشق سنة ٦٠٠. وهو سليل أسرة اشتهرت بالطب، ودرس العلوم والطب في دمشق. استدعاه أمير صرخد عز الدين أيدمر إلى بلاده ـ وهي بلدة من أعمال جبل العرب في ســوريا اليوم ـ فأقام عنده وتوفي بها سنة ٦٦٨ رحمه الله: «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٢) هو شقيق أحمد مصطفى المراغي صاحب التفسير، وشــقيق محمد أيضاً، وللأخوين ترجمة لكني لم أجد ترجمة لعبد الله هذا.

(٣) علي بن زيد بن محمد، ظهير الدين البيهقي، وشــهرته ابن فندمه، ويقال له: ابن فندق. ولد ســنة ٤٩٩ ببيهق، وتفقه وتأدب، واشتغل بعلوم الحكمة والحساب والفلك، وتنقل في البلاد. صنف ٧٤ كتاباً وتوفي سنة ٥٦٥ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٤/٢٩٠.

(٤) عمر بــن علي بن أحمد، ســراج الدين، أبو حفص الأنصاري، الأندلســي التكــروري، المصري، الشافعيّ، ويعرف بابن النحوي، من أكابر علماء الحديث والتاريخ والفقه. ولد سنة ٧٢٣ أصله من الأندلس وانتقل به أبوه إلى بلاد التكرور في إفريقيا السوداء، ثم قدم إلى القاهرة. له نحو ثلاثمائة مصنَّف. توفي سنة ٨٠٤ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٥/٥٧.

(٥) أحمد بــن عبد الله بن أحمــد، الإمام الحافظ، الثقة العلامة، شــيخ الإســلام، أبو نعيــم المِهراني الأصبهاني الصوفي الأحول. ولد ســنة ٣٣٦، وتوفي ســنة ٤٣٠. وكان حافظاً عالماً مرحولاً إليه. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٧/٤٥٣ ـ ٤٦٤.

(٦) محمد بن أبي بكر بن أحمد الحســيني الشــلي الحضرمي، باعلوي، جمال الدين. مؤرخ، فلكي، =



بل إنهم ترجموا لأهل البدع والضلال من الخوارج والشيعة والمعتزلة وأمثالهم ليحذر منهم المسلمون ويتجنَّبوا مناهجهم الضالة وأفكارهم المنحرفة.

ثم إن أسلافنا ترجموا لأعلام كل بلدة معروفة ـ تقريباً ـ نحو: «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للفاسي، وهو في علماء مكة.

و«تاريخ المدينة» لعمر بن شَبّة[1].

و«وفاء الوفاء» للسمهودي[2]، وهو في تاريخ المدينة النبوية المنورة.

و«تاريخ دمشق» لابن عساكر[3].

و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي[4].

و«إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» لمحمد راغب الطباخ[5].

= رياضي. ولد في تريم من حضرموت سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢١م، ورحل إلى الهند والحجاز، وأقام بمكة المكرمة وتوفي بها سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م رحمه الله. له عدة كتب. انظر «الأعلام»: ٥٩/٦ ـ ٦٠.

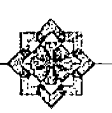
(١) عمر بن شبة ـ واسمه زيد ـ بن عبيدة النميري، أبو زيد. شاعر، راوية مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل البصرة. ولد سنة ١٧٢، وتوفي سنة ٢٦٢ رحمه الله. له عدة كتب. انظر «الأعلام»: ٤٧/٥ ـ ٤٨.

(٢) علي بن عبد الله بن أحمد الحسينيّ الشافعي، نور الدين أبو الحسن المصري ثم المدني، مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها. ولد في سمهود بالصعيد سنة ٨٤٤ ونشأ في القاهرة، ثم جاور في المدينة النبوية المنورة، وتوفي بها سنة ٩١١. له عدة كتب. انظر «الأعلام»: ٣٠٧/٤.

(٣) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ. ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ، وكان ديّناً. صنف التصانيف المفيدة أجلّها «تاريخ دمشق». توفي رحمه الله سنة ٥٧١ بدمشق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣٠٩/٣ ـ ٣١١.

(٤) الإمام العلامة المفتي الحافظ الناقد، محدث الوقت، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٣٩٢، واعتنى بالحديث حتى صار أحفظ أهل عصره على الإطلاق، وكان من كبار الشافعية، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ٤٦٣ ببغداد رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٧٠/١٨ وما بعدها، و«الأعلام»: ١٧٢/١.

(٥) محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي مؤرخ حلب، ومن كبار فضلائها. ولد بها سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٧م، وتعلم في إحدى مدارسها الابتدائية، وقرأ على علمائها، وحفظ كثيراً من المتون. اشتغل بالتجارة، وأنشأ المطبعة العلمية سنة ١٣٤١. وكان من أعضاء المجمع العلمي =



و«حسن المحاضرة» للسيوطي وفيه أخبار مصر والمصريين.

وتاريخ علماء تونس والقيروان لأبي عبدالله المالكي(١) المسمى «رياض النفوس».

وكتاب عبدالحي الندوي «الإعلام بمن في الهند من الأعلام»(٢).

ثم إن مؤرِّخينا عمدوا إلى وضع كتب جامعة لأنواع من التراجم مثل الفقهاء والمفسرين وعلماء الكلام «العقيدة»، والمحدثين والزهاد والعباد والقواد والأبطال والخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم، وهذا كثير جداً، نحو: «طبقات ابن سعد»، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان، و«الوافي بالوفيات» للصفدي.

ثم إن المؤرخين أفردوا لكل قرن كتباً، وقد ذكرت هذا في المبحث السابق.

ثم إن مؤرخينا أفردوا بعض العظماء في كتب مستقلة بهم، نحو «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي، و«العقود الدرية في شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن عبدالهادي(٣).

= العربي بدمشق. له عدة كتب ومقالات، ودرّس في الكلية الشرعية بحلب، ثم صار مديراً لها. توفي بحلب رحمه الله سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م: «الإعلام»: ٦/١٢٣ - ١٢٤.

(١) هو أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله محمد بن عبدالله المالكي. مؤرخ، من أهل القيروان. توفي سنة ٤٧٤ رحمه الله. وانظر «الأعلام»: ٤/١٢١ - ١٢٢، وقد أخطأ الزركلي رحمه الله في ذكر سنة وفاته أو أنَّ خطأً مطبعياً حدث، والله تعالى أعلم.

(٢) عبدالحي بن فخر الدين بن عبدالعلي الحسني. باحث، مؤرخ، هندي، عربي الأصل. انتقل أحد أجداده قطب الدين من بغداد إلى غزنة في فتنة المغول، ودخل الهند مجاهداً، وتولى مشيخة الإسلام في دلهي، واستقرت ذريته بالهند. ولد عبدالحي في زاوية السيّد علم الله على بعد ميلين من بلدة راي بريلي من أعمال لكنو سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م. وتعلم فيها الفقه والأدب، ثم صار مديراً «لندوة العلماء». توفي سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م رحمه الله. له عدة كتب: «الأعلام» ٣/٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبدالهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المُبْرِد. علّامة متفنن، من فقاء الحنابلة، من أهل الصالحية بدمشق. ولد سنة ٨٤٠، وتوفي سنة ٩٠٩ رحمه الله. له كتب كثيرة. انظر «الأعلام»: ٨/٢٢٥ - ٢٢٦.

وضع المؤرخون تراجم جملة كبيرة من الأعــلام في كتب التاريخ العامة نحو «البداية والنهاية» لابــن كثير، و«الكامل» لابن الأثير، «وتاريخ الإســلام» للذهبي، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي[1].

ولم ينس مؤرِّخونا تراجم النساء الشــهيرات والمعروفات؛ إذ قَلّ في كتب التاريخ أن يخلو واحد منهــا من ترجمة لامرأة، وممن أكثر من تراجم النســاء الحافظ السخاوي رحمه الله في كتابه: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، فقد أورد تراجم النسوة في مجلد كامل، وهذا العمل لا أظن أن أحداً سبقه إليه.

وكذلك فعل القادري في «نشــر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» فقد أورد فيه تراجم جماعة من النسوة الفضليات.

هذا التطواف في كتب التراجم يقرب للقراء معنى الشمول الذي أردته؛ ولا بدَّ أن يعرفوا أن ما تركتُه هو أضعافُ أضعافِ أضعافِ ما أوردتُه؛ إذ لم أورد إلا بعض المشــهور والمعروف والمطبوع المتداول، أما غير ذلك فهو بحر خِضَم لا ساحل له، وهذا يُظهــر بوضوح الفارق الكبير بين أمتنا المباركــة وغيرها من الأمم التي لا تملك عشر معشار هذا التاريخ ـ أي: واحداً بالمائة ـ جزماً، والله أعلم.

ويوضح هذا الشمول الشــيخ صديق حســن خان[2] بقوله في تعريف علم الطبقات ـ وهو أحد أوجه تقسيم التصنيف في التراجم ـ:

«علم الطبقات: أي: طبقات كل صنف من أهل العلم كالأدباء، والأصوليين، والأطبــاء، والأولياء، والبيانييــن، والنابغين، والحفاظ، والحكمــاء، والحنفية،

(١) عبدالحي بن أحمد بن محمد، ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح. مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب. ولد في دمشق سنة ١٠٣٢. وأقام في القاهرة مدة طويلة. له عدة كتب تاريخية وفقهية. مات بمكة حاجّاً سنة ١٠٨٩ رحمه الله. انظر ترجمته في «الأعلام»: ٢٩٠/٣.

(٢) محمد صديق خان بن حسن البخاري القنوجي، أبوالطيب، من رجال النهضة الإسلامية المجددين. تعلم في دلهي، وســافر إلــى بهوپال في الهند وتــزوج بملكتها فأثرى. له أكثر من ســتين مصنفاً بالعربية والفارسية والهندية. توفي سنة ١٣٠٧هـ. انظر «الأعلام»: ١٦٧/٦ ـ ١٦٨.



والحنابلة، والمالكية، والشافعية، والمفسرين، والمحدثين، والخطاطين، والرواة، والخواص، والشعراء، والصحابة، والمجتهدين، والصوفية، والطالبيين، والأمم، والعلوم، والفرسـان، والعلماء، والفَرَضيين، والفقهاء، ورؤساء الزمن، والقراء، والنحـاة، واللغويـين، والمتكلميـن، والمعبِّريـن، والمعتزليـن، والممالك، والنسابين، والنُساك، إلى غير ذلك»!![1]

إذن هذا الشمول الذي أردت بيانه كان شمولاً في تراجم الأمكنة، والأزمنة، والتخصصات من العلوم والفنـون والصناعات، والذكور والإناث فلم تُترك إذن شاردة ولا واردة تتعلق بالتراجم إلا واجتهد المؤرخون في تسجيلها وتسطيرها على نحو من الشمول عجيب.

ثانياً: الإحاطة:

وأعني بالإحاطة أن المؤرخين عندمـا يترجمون للأعلام والمبَرَّزين فإنهم ـ غالباً ـ يحيطون بجوانب حياتهم على وجه جيـد، ويأتون بأخبارهم منذ المهد إلى اللحد ـ كمـا يقال ـ وهؤلاء الأعلام الذيـن وردت تراجمهم على وجه من الإحاطة جيد قد بلغوا بضعة آلاف، أما الذيـن أورد المؤرخون نتفاً من حياتهم فيبلغون عشـرات الآلاف بل أسـتطيع أن أقول: إنهم يقاربون اليـوم مائة ألف ترجمة، فيما هو مطبوع متداول ـ مع التكرار ـ أما ما هو مخطوط ومفقود فشيء مهول لا يعمله إلا الله تعالى.

وللمقارنة أقول: ماذا تعرف الأمم الأخرى من سـير أعلامها، إن أنبياء بني إسـرائيل لا نكاد نعرف عنهم إلا النـزر اليسير الذي أخبرنا الله ـ تعالى ـ به في كتابه، وأخبرنا به رسـوله الأعظـم ﷺ وهذه الأخبار ليسـت محيطة بحياتهم، فنحن لا نعرف من هي زوج موسـى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما اسمها، وهل

(١) «أبجد العلوم»: ٣٦٢/٢، وقد نقلت هذا النص عن كتاب «علم التراجم: أهميته وفائدته»: ٣٧.



أتت له بولد؟ وكيف كانت حياتها معه، ولا نعرف من هم أصحابه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما هي أسماؤهم، وكيف كان يصاحبهم، ولا ندري عن تاريخ موته شيئاً، هذا وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فكيف بغيره إذن؟

ثم إذا بحثنا في أعلام بني إسرائيل لا نكاد نجد أخباراً عنهم إلا النزر اليسير، فأسماؤهم لا تكاد تكون معروفة، وأحوالهم التي نقلت إلينا في حديث النبي ﷺ نقلت نقلاً مبهماً لم يفصح فيه عن أسمائهم إلا نادراً، ولا نعرف أعمارهم، ولا متى ولدوا ولا متى توفوا.

ثم إذا بحثنا في تواريخ الأمم إلى بداية التاريخ الحديث لا نكاد نجد لها ـ مجتمعةً ـ بضع مئات يُعرف تواريخ ولادتهم ووفياتهم، ولا تفاصيل أحوالهم، ولا طرائق عيشهم، بل ليس لكل الأمم تواريخ لأعلامهم إلى بداية العصر الحديث موثوقة تركن النفس إلى صحتها وقبول ما فيها إلا نادراً، والنادر لا حكم له، فأين هذا من الإحاطة العجيبة التي كانت لأعلام أمتنا، والتراجم الموثوقة ـ في غالبها ـ التي كُتبت لهم وعَرّفت بهم؟

إن الإمام أحمد[1] قد ترجم له الذهبي في قرابة مائتي صفحة من كتابه العظيم «سير أعلام النبلاء»، والإمام الشافعي[2] في ١٠٠صفحة تقريباً، وكثير من العلماء والمحدثين والأبطال تُرجم لهم في قرابة ٥٠ ـ ٦٠ صفحة فهل يُستطاع هذا في تواريخ الأمم الأخرى في الحقبة نفسها التي تُرجم فيها لأعلامنا هؤلاء وغيرهم، وتحديداً من القرن الأول الهجري إلى بداية القرن الثالث عشر الهجري؟ أقول واثقاً: إن هذا غير ممكن أبداً، فإن الأمم لم تُعن بتراجم عظمائها

---

(١) أحد الأئمة الكبار المتبوعين أصحاب المذاهب، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. ولد سنة ١٦٤ وتوفي سنة ٢٤١ ببغداد رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/١٧٧ ـ ٣٥٨.

(٢) محمد بن إدريس الشافعي، الإمام المشهور. كان ذا ذكاء نادر وصاحب لغة مستقيمة لم يُؤثَر عنه لحن قط. توفي رحمه الله سنة ٢٠٤. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/٥ وما بعدها.



على الوجه الذي عرفناه في تواريخنا إلا في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي تقريباً، فيما أعلم، والله أعلم.

ترجمة عجيبة:

جرت عادة مؤرخي الإسلام أن يترجموا للعظماء تراجم طويلة إلى حدٍّ ما، وذلك بحسب اتجاه المؤرخ العلمي وبحسب عظمة الشخصية المترجمة، وقد تُفرد هذه الترجمة بمؤلف من مجلد أو مجلدين، لكن من العجب أن يترجم لشيخ الإسلام عبدالرحمٰن بن محمد بن أحمد بن قدامة[١] في ست مجلدات!!

والذي ترجم هذه الترجمة المطولة رجل من أهل الحديث اسمه نجم الدين ابن الخبّاز[٢]، وقال الإمام الذهبي في صنيعه هذا:

«ولقد بالغ نجم الدين ابن الخبّاز المحدث وتعب، وجمع سيرة الشيخ في مائة وخمسين جزءاً تجيء ست مجلدات كبار!!، ولعل ثلثها مما يختص بترجمة الشيخ، والباقي في ترجمة النبي ﷺ لكون الشيخ من أمته، وفي ترجمة الإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل وأصحابه، وهلم جَرّ إلى زمان الشيخ»[٣].

وقال الحافظ الذهبي في مكان آخر: «ما رأيت سيرة عالم أطول منها أبداً»[٤].

---

(١) ولد في دمشق سنة ٥٩٧، وسمع من بعض آله آل قدامة المشهورين ومن غيرهم، وارتحل إلى مكة والمدينة ومصر وسمع من مشايخ تلك البلاد، وروى عنه خلق كثير منهم الإمام النووي، وكان يقول: هذا أجلُّ شيوخي. انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي في عصره، وكان عديم النظير علماً وعملاً وزهداً وصلاحاً، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وسيرته في غاية من الجلال. توفي سنة ٦٨٢ رحمه الله. انظر «تاريخ الإسلام»: ١٥/٤٦٩ - ٤٧٤.

(٢) هو إسماعيل بن إبراهيم بن سالم من ذرية عبادة بن الصامت رضي الله عنه. ولد سنة ٦٢٩، وأخذ عن مشايخ كثيرين، وكان متودداً، حسن الخلق. وله عدة كتب. توفي سنة ٧٠٣ رحمه الله. انظر ترجمته في «ذيل طبقات الحنابلة»: ٤/٣٤٧ - ٣٥١.

(٣) «تاريخ الإسلام»: ١٥/٤٧٠.

(٤) «ذيل طبقات الحنابلة»: ٤/١٧٥.



وقال الإمام ابن رجب:

«وقد جمع المحدِّث إسماعيل بن الخبّاز ترجمته وأخباره في مائة وخمسين جزءاً!! وبالغ، وبقي كلما أثنى عليه بنعت من الفقه، أو الزهد، أو التواضع سرد ما ورد في ذلك بأسانيده الطويلة الثقيلة، ثم تحول إلى ذكر شيوخه فترجمهم، ثم إلى ذكر الإمام أحمد فأورد سيرته ومحنته كلها كما أوردها ابن الجوزيّ، ثم أورد السيرة النبوية لكونه من أمة النبي ﷺ».

ثالثاً: الإتقان:

الترجمة في كتب مؤرخينا لأعلامنا ومقدمينا غالباً ما تكون متقنة، بمعنى أنها مرتبة الوقائع والأحداث تبدأ بتاريخ ومكان الولادة، غالباً، ثم بالتعريف بالأسرة، أو العشيرة.

ثم بطريقة التنشئة العلمية أو الزهدية، أو التنشئة في سلك القيادة المدنية أو العسكرية.

ثم بعد ذلك بالأشياخ والتلاميذ ـ إن وجدوا ـ أو بالأصحاب والأقران.

ثم الأثر الذي تركته الشخصية المترجم لها سواء أكان مؤلفات، أم تلاميذ أم بطولات، أم طريقة حياة مؤثرة اتبعها ملايين أو مئات الآلاف من الناس عبر القرون.

ثم يُذكر مكان وزمان الوفاة غالباً.

ثم تُنقل أقوالهم المؤثرة ـ إن وجدت ـ وأقوال الناس في هؤلاء المترجمين مدحاً أو ذمّاً.

وقد يُصدر المؤرخ حكماً على هذه الشخصية إن احتيج إلى ذلك.

وكل ذلك ـ غالباً ـ يكون بالسند بنقل الثقات أو بالمعاشرة والعَيان، أو بالسماع المستفيض أو غيره، وكل ذلك لا يتوافر لأعلام الأمم ـ مجتمعة ـ إلا في القليل جداً نسبياً.



ولقد كُتبت بعض التراجم في أوروبا في وقت مبكر نسبياً يعود إلى القرن الخامس الميلادي، وكان هذا في كتاب ألّفه جيروم[١] في بيت لحم يسمى «مشاهير الرجال» لكن منذ ذلك التاريخ إلى بدايات القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً كانت السير تدور حول الخرافات والجن والسحر، والتمجيد المطلق للرهبان والقساوسة والكهنة، وذكر مناقبهم، والوعظ والتذكير بالنصوص المحرفة التي عندهم، والخوارق المكذوبة، والكرامات المنحولة، وليس غير ذاك، أما النقد الجيد وإتقان الترجمة على الوجه الذي كان عليه مؤرخو المسلمين الذين كتبوا التراجم فذلك منتف تماماً، بل هو غير مقدور عليه في ظل الهيمنة الشنيعة للكنيسة وتعليماتها المحرفة على كل شؤون الحياة آنذاك[٢].

رابعاً: الكثرة:

حرص مؤرخونا على إيراد كثير جداً من التراجم، أقدّر الموجود منها إلى يومنا هذا بمائة ألف ترجمة، أما المخطوط والمفقود من التراجم فعدد لا يحصيه إلا الله ـ تعالى ـ وهو بالنسبة إلى البشر أمر يندّ عن الحصر ويخرج عن العدّ، ولا يحيط به أحد.

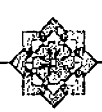
فإذا جئنا للأمم الأخرى وجدنا أن أعلامهم الذين نُقلت تراجمهم هم عدد قليل جداً مقارنة بأعلامنا، فأمريكا اليوم تفخر بجورج واشنطن[٣] وبنيامين

---

(١) ولد في دلماسيا في القسم المتاخم للبحر الأدرياتيكي التي تعرف الآن باسم يوغسلافيا سنة ٣٤٧، وتوفي سنة ٤٢٠م في بيت لحم، ويُحتَفَل بذكراه في التقويم الغربي يوم ٣٠ أيلول (سبتمبر). وكلفه البابا بإنجاز ترجمة للأناجيل من الآرامية والعبرية إلى اللاتينية، فحضر إلى بيت لحم برفقة أربع نساء نذرن أنفسهن لخدمة الكنيسة، وأخذ جيروم يعمل بدأب لإنجاز ترجمته التي صارت الترجمة المعتمدة للكنيسة الكاثوليكية على مدى عشرة قرون، فأمضى سنوات طويلة من عمره في المغاور والأقبية تحت كنيسة المهد معتكفاً على كتبه، حتى أنجز الترجمة. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٢) وانظر «السيرة لعبة الكتابة»: ص٢٥ وما بعدها.

(٣) أول رئيس لأمريكا. ولد سنة ١٧٣٢، وتوفي سنة ١٧٩٩. وهو الذي قاد الانفصال العسكري عن بريطانيا سنة ١٧٧٦. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».



فرانكلين[١] وإبراهام لنكولن[٢] وبضع عشرات آخرين من الرؤساء والقواد والمخترعين، وفرنسا تفخر بنابليون[٣] وجان دارك[٤] وفولتير[٥] وجان جاك روسو[٦] ومونتسكيو[٧] وبضع عشرات آخرين من المخترعين والأدباء، وكذلك في كل شعب وأمة هم عدد قليل جداً مقارنة بمن نفخر بهم من علمائنا وخلفائنا وسلاطيننا وملوكنا وقادتنا وأبطالنا وزهادنا وعُبّادنا الذين يُعدون بعشرات الآلاف، وهذا عدد ضخم مقارنة بأعلام الأمم الأخرى الذين يعدون بالعشرات كما ذكرت آنفاً.

---

(١) ولد في بوسطن سنة ١٧٠٦، وتوفي سنة ١٧٩٠. جمع بين العلوم الطبيعية والسياسة. وكان من أبرز مؤسسي أمريكا وواضعي الدستور، وتبوأ منصب سفير أمريكا في فرنسا. ثم صار رئيساً لولاية بنسلفانيا وصار رئيساً لأول «كونجرس». انظر ترجمته في المصدر السابق.

(٢) ولد سنة ١٨٠٩. هو الرئيس السادس عشر لأمريكا. قامت في عهده الحرب الأهلية وانفصلت إحدى عشرة ولاية، فأعادها بقوة السلاح إلى الحكم المركزي، ويُنسب إليه قرار إلغاء الرق. ويعد المؤسس الثاني لأمريكا. قتل برصاصة سنة ١٨٦٥. انظر ترجمته في المصدر السابق.

(٣) قائد حربي وإمبراطور فرنسا. ولد سنة ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا. وفي سنة ١٧٨٤ تخرّج في الكلية الحربية الملكية. انتصر في عدة معارك فبزغ نجمه كانتصاره على النمسا سنة ١٧٩٧. في سنة ١٨٠٤ تُوِّج إمبراطوراً على فرنسا، وفي السَّنة التي تليها تُوِّج ملكاً على إيطاليا، واستولى على بلاد أوروبية أخرى. وفي سنة ١٨١٤ نفي إلى جزيرة جنوب فرنسا إثر دخول القوات المتحالفة ضد فرنسا باريس. هرب من منفاه سنة ١٨١٥ ليعود إلى فرنسا حاكماً لمدة مائة يوم ليُهزم في واترلو وينفى إلى جزيرة سانت هيلانة ليموت فيها سنة ١٨٢١. انظر ترجمته في المصدر السابق.

(٤) ولدت سنة ١٤١٢ شمال فرنسا، وأُعدمت حرقاً سنة ١٤٣١ وهي في التاسعة عشرة من عمرها لاتهامها بالإلحاد. وتعود شهرتها إلى مساهمتها في محاربة الإنجليز الذين احتلوا فرنسا. ثم قبض عليها وأعدمت. انظر ترجمتها في المصدر السابق.

(٥) ولد سنة ١٦٩٤، وتوفي سنة ١٧٧٨. كاتب فرنسي وفيلسوف. دافع عن الحريات عامة وحرية العقيدة خاصة، ودافع عن الإصلاح الاجتماعي. له كتب كثيرة. وتركت أعماله آثاراً في الثورتين الأمريكية والفرنسية. انظر ترجمته في المصدر السابق.

(٦) ولد سنة ١٧١٢ في جنيف، وتوفي سنة ١٧٧٨ في فرنسا. وهو كاتب وفيلسوف سويسري فرنسي. وكانت فلسفته إحدى الأعمدة التي قامت عليها الثورة الفرنسية. انظر ترجمته في المصدر السابق.

(٧) ولد سنة ١٦٨٩ وتوفي سنة ١٧٥٥. فيلسوف فرنسي، وعضو البرلمان. له عدة مصنفات أهمها «روح القوانين». وأثرت نظرياته السياسية في دستور أمريكا وغيرها، على أنه كان يرى أن عامة الشعب لا يستحق أن يحكم. انظر ترجمته في المصدر السابق.



خامساً: النقد الجيّد:

إن بعض المؤرخين المسلمين بلغ مبلغاً حسناً في نقد أحوال وتصرفات الشخصيات التي يوردها، وعلى رأسهم الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وفي «تاريخ الإسلام»، وفي «ميزان الاعتدال»، وفي «المعجم المختص بالمحدثين» وغيرها من كتبه، وكذلك صنع القاضي الشوكاني في كتابه الجليل: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»، وكذلك صنع الحافظ السخاوي في كتابه الفائق: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» على أنه ظلم في نقده ذلك جماعة من العلماء والفضلاء على ما هو معلوم من تاريخه ذاك.

وهذا النقد يحفظ لقارئ الشخصية توازنه فلا يتابع الغلط، ولا يقرّ الخطأ، ولا ينبهر بالشخصية ولا يقدسها مطلقاً بل يلزم جانب الاعتدال والإنصاف في كل ذلك، وهذا هو الحافظ بإذن الله ـ تعالى ـ من مداخل الشيطان على العبد؛ إذ إن أكثر هذه المداخل حال قراءته للتراجم إنما هي بسبب قلة النقد والتعليق من قبل مؤلفي كتب التراجم؛ خاصة الكتب المتأخرة التي يكثر فيها الغثاء وهي كتب القرن العاشر فما بعده، فإذا انضاف إلى ذلك قلة الحصيلة الشرعية للقارئ أو انعدامها في كثير من الأحيان فحدِّث ولا حرج حينئذ عن الضلال البعيد الذي تحدثه الترجمة، وكمثال على ذلك فإني أورد بعض جوانب ترجمة أوردها الحافظ الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء»، وترجمة أخرى أوردها المـُحِبي في كتابه: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» ليُعلم الفارق الكبير بين كتابات علماء الشريعة المنضبطين بضوابطها وبين غيرهم من سُوقة المؤرِّخين.

أما ترجمة المحبي فهي سيئة، مضللة، فيها من البدع والضلال ما الله ـ تعالى ـ به عليم، وإليكموها:

«الشيخ تاج الدين بن زكريا بن سلطان العثماني النقشبندي الهنديّ، شيخ

الطريقة النقشبندية، ورابطة الإرشاد إلى المنازل للسالكين في السلوك، وواسطة الإمداد للمواهب الرحمانية من ملك الملوك.

كان شيخاً كبيراً مهاباً، حسن التربية والدلالة على الوصول إلى الله ـ تعالى ـ صحبه خلق كثير من المريدين.

وقد أفرد ترجمته تلميذه السيد محمود بن أشرف الجشتي في رسالة سماها «تحفة السالكين في ذكر تاج العارفين» وقال فيها: سمعته يقول إنه قبل أن يصل إلى الشيخ إله بخش في بداية أمره في غلبة الجذبات بعد توفيق التوبة بواسطة الخضر عليه السلام[1] كان اشتغاله غالباً بالسياحة في طلب الشيخ، وكان ألزم نفسه الأمور المقررة في كتب المشايخ أنه ينبغي للمريد أن يجعلها على نفسه قبل وصوله إلى الشيخ، ثم بعد وصوله إليه لا يختار إلا ما اختاره، وكان تحضر له أرواح المشايخ[2]، وحصل له الكشف، فلما وصل إلى بلدة اجمير التي فيها قبر قطب وقته الشيخ معين الدين الجشتيّ حضرت له روحه، وعلّمه طريق النفي والإثبات على كيفية مخصوصة في طريق الجشتية يسمونها حفظ الأنفاس، وأمره أن يجلس ويستعمل الذكر بهذه الطريقة في بلدة ناكور التي فيها قبر الشيخ حميد الدين الناكوري وهو من أجلّ أصحابه، وقال: إني ما جئت إلا اليوم بعد مدة مديدة لأجلك وإلا فأنا بمكة لكثرة البدع التي يعملونها على قبره، فسافر بموجب أمره إلى ناكور وجلس بها يشتغل بالذكر المذكور ويزور أحياناً قبر الشيخ حميد الدين ويعلمه آداب الطريق، فكان تظهر عليه الأنوار والتجليات والأحوال على طِبْق سلوك الجشتية.

وقال: إني في تلك السَّنة كنت أدخل في خلوة كانت داخل ثلاث بيوت في ليلة مظلمة وأصك الأبواب كلها فكان يظهر لي نور مثل الشمس، ثم يزيد ثم

---

(١) يؤمن أكثر الصوفية بأن الخضر ما زال حياً إلى الآن.

(٢) هذا من غرائب هذه الترجمة.



يحيط بالبيت ويصير ضـوءه مثل ضوء النهار فكنت أقرأ القرآن في ذلك الضوء فحصل لي الأنس بذلك النور حتى إني يوماً من الأيام كنت أمرُّ ببعض الطرق فإذا رجل عنده رسالة مكتوب فيها: إن بعض الناس يحصل لهم في أوان الذكر نور فيغترّون به، وأخذ الرسالة وغاب وما رأيته بعدها فانتبهت وزاد تعلقي به.

ثم يوماً كنت جالساً عند قبر الشيـخ حميد الدين فحضرت روحه وأراد أن يعطيني خِرْقة الإجازة[1] وكان مراده أن يأمر في النوم والواقعة لبعض من كانوا على سنده من الخلفاء ليعطيني الخرقة فقلت: لا أريد أن تعطيني إلا بيدك، فقال الشيخ: هذا خلاف سنة الله فاطلب منه فاستأذنت منه وخرجت في طلب الشيخ.

وكنت أسـيح في الجبال والبـراري والأغوار والأنجاد وكنـت أصل إلى المشـايخ كثيراً فلم يحصل لي الاعتقاد لأحد منهم، وكان وصل في هذه المدة إلى الشـيخ نظام الدين الناكوري ـ وكان من المشايخ الجشـتية ـ فأراد الشيخ كثيراً أن يجلس عنده فأجلس عنده ورأى كثيراً من مشـايخ الوقت حتى وصل إلى الشـيخ إله بخـش، فلما رآه حصل لـه فيه أقصى ما يكون مـن الاعتقاد؛ والشيخ ﷺ تلقاه بحسن القبول وأظهر له أنه كان منتظراً له.

وكان مـن طريقة الشـيخ أن لا يلقن أحـداً إلا بعد إدخاله فـي الخدمات والرياضات الشـاقة التي تنكسـر بها النفس وتحصل بها التزكيـة؛ فإن التزكية مقدَّمة على التصفية عند أكثر المشـايخ بخلاف النقشـبندية فإن طريقتهم على العكـس؛ قالوا: بعدما يتوجه الإنسـان إلـى التصفية والتوجـه الحق بالصدق فيحصل له من التزكية بإمداد جذبة من جذبات الرحمٰن في ساعة ما لا يحصل لغيره من الرياضات والسياسـات في سنين؛ بناء على تقدم الجذبة عندهم على السلوك؛ فإن سلوكهم مستدير لا مستطيل وأن أوّل قدمهم في الحيرة والفناء.

---

(١) الخِرقة ـ عند الصوفية ـ قطعة من القماش يعاهدون بها المريد على سـلوك طريقة ما أو المحافظة على وِرْدٍ ما.

ثم قال: فصل في ذكر نبذة من خوارقه ومعارفه:

سمعت من غير واحد من أصحاب الشيخ أن سيدي الشيخ كان جالساً يوماً في بلدنا أمرهة بالمراقب فرفع رأسه فانفصل منه نور وقع على شجرة رمان فبعد ذلك اليوم كانت تلك الشجرة كلها ثمرها وورقها وخشبها دِرْياقاً[1] مجرباً للناس يستشفون به وكانت هذه الكرامة ظاهرة حتى فنيت تلك الشجرة.

ومنها أن واحداً من المكاشفين كان بشَّر بعض أصحاب سيدي الشيخ بأشياء، فلما وصل إلى مكة كان مع الشيخ فخطر له أن الأمور التي كان بشَّره بها ذلك المكاشف ما ظهرت أسبابها، وكان يختلج في سرّه أن ليس لقول ذلك المكاشف أثر وإلا كيف الحال، ثم توجه إلى نحو الشيخ فقال له قبل أن يُظهر شيئاً: إن أحداً من أولياء الله لو بشَّر أحداً بشيء لا بدَّ أن يظهر ولو بعد عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة، ففهم وحصل له السكون.

وسمعت من الشيخ أنه خرج إلى سفر ووصل إلى بلدة وكان جالساً فيها مع أصحابه بالمراقبة، فحضر في حلقته رجل لا يعرفه، فقرب الرجل وقبَّل يده ورجله وقال: إني من الجن وهذا مكان سكنانا، وإنا بعد ما رأينا طريقتكم أحببناكم فأريد أن آخذ منكم الطريق، فلقنه الطريقة النقشبندية وكان يحضر عنده في الحلقة وكان يراه ولا يراه أحد غيره، وقال للشيخ: كل وقت أردتم أن أحضر عندكم فاكتبوا اسمي على ورقة وضعوها تحت أرجلكم أحضر عندكم تلك الساعة.

وسمعت أيضاً منه أنه حين سافر إلى كشمير حضر عنده واحد من الجن وأخذ عنه الطريقة، وأراد أن يعرض على الشيخ كثيراً من خواص النباتات فلم يقبل الشيخ منه ذلك، وكان يلازم صحبة الشيخ إلا أن الشيخ قال: إنه كان

---

(١) الدِّرياق، ويقال: التِّرياق: هو ما يضاد عمل السم في المعدة والأمعاء، والمراد به هاهنا مطلق الدواء، وانظر «المعجم الوسيط»: ت ر ق.



يحصل لي النفرة من صحبته؛ فإن الجزء النـاري غالب على مزاجهم فيحصل من صحبتهم الأوصاف الغير المرضيَّة التي نشأت من الجزء الناري من الغضب والكبر فـأردت أن أفعل به حيلة تنفره مني فسـألته أن يزوِّجنـي بواحدة منهم فقال: إن لي أختاً بديعة الجمال عديمة المثال إلا إني أعرض عليكم أولاً حكاية ثم الـرأي رأيكم؛ فإن الألفة والأنس بين الجنِّي والإنسـي متعسـر؛ فإن الجن يصدر منهم كثير من الحركات التي لا تعرف الإنس حقيقتها فلا يستطيع الصبر عليها، قال: إنه كان هنـا واحد من الصالحين زوجناه واحـدة منا فوُلد لها منه ولد، وكان يوقد ناراً فرمت الجنية ولدها في النار فصبر الرجل، ثم وُلد لها ولد فأعطته الكلبة فأكلته فصبر الرجل، ونسـيت الثالثة فتعب الرجل وما اسـتطاع الصبر وغضب عليها وقال لها: أهلكت الأولاد الثلاثة فأحضرت الثلاثة وقالت: كنت أعطيتهم للتربية لإخواننـا فخذ أولادك من بعد اليـوم ولا أجلس عندك وطارت من عنده، ثم سافر الشيخ من تلك البلدة.

وسـمعت أن الشـيخ كان في أمروهة فمرضت امرأة صالحة من المشـرق وكانت معتقدة له فالتجأت إليه فذهب إليها الشـيخ يعودهـا، فلما رأى حالها أخذته الشـفقة عليها والرحمة لها وكانت قد أشـرفت على الموت فأخذها في ضمنه فبرأت كأن لم يكن بها شـيء فـإن الأخذ في الضمن شـيء مقرر عند الأكابر النقشبندية إلا أنه لا يتصور إلا قبل نزول ملك الموت فبعد نزوله لا بدَّ من بدل.

واعلم أنه قرأ في فنون العلم كتباً كثيرة، ثم غلب عليه الجذب حتى لم يبق منه أثر، والآن ليس فنٌّ من فنون العلم إلا وهـو واقف على دقائقه التي يتحير أرباب ذلك الفن في إدراكها، وليس قسـم من أقسام المدركات إلا أدركه على الوجه الأتم الألطف.

ومن مشايخه السيد علي بن قوام الهنديّ النقشبندي مولده ومسكنه ومدفنه جانبور من بلاد الهند شرقي دهلي على مسيرة شـهر منه، كان من أكابر أولياء

الله ـ تعالى ـ صاحب تصرفات عجيبة وجذب قوي قال بعض الصالحين: ما ظهر في الأمة المحمدية ـ على نبيها أفضل الصلاة وأتمُّ السلام ـ من أحد بعد القطب الرباني الشيخ عبدالقادر الكيلاني ﷺ[١] من الخوارق والكرامات والتصرفات مثل ما ظهر منه، حدثنا شيخنا قال: حدثني رجل أنه كان من طريقة السيد أن لا يدخل عليه أحد إلى وقت الضحى، وكان في هذا الوقت يغلب عليه الجذب، والناس كلهم قد عرفوا هذا الأمر، فكان لا يدخل عليه في هذا الوقت أحد، فجاء واحد من الأعراب كأنه كان من أولاد شيخ السيد ـ قدس الله سره ـ فمنعه الخادم من الدخول عليه فلم يقبل قوله وأراد أن يدخل فلما قرب وسمع السيد صوته قال: من أنت؟ قال: أنا فلان، قال: اهرب إلى وراء الشجرة وكان هناك شجرة كبيرة وإلا احترقت، فهرب الرجل واستتر بالشجرة فخرجت نار من باطن السيد أخذت الشجرة كلها فأحرقتها وبقي أصلها وسلم الرجل، وكفى بهذه إشارة إلى كمال تصرفاته.

ثم قال صاحب الترجمة: اعلم أن شيخنا مجاز من الشيخ إله بخش بالطريقة العشقية وبالطريقة القادرية وبالجشتية والدارية، وله بحسب الباطن إجازة من رئيس كل طريق، وكذلك سمعت منه أنه سلك طريق الكبروية من روحانية الشيخ نجم الدين الكبرى في ربع النها وأجازه، وله رسالة في بيان سلوكهم ذكر فيها أن سلوكهم يتمُّ بتمام الأطوار السبعة في كل طور يطوي عشرة آلاف حجاب حتى يطوي في تمام الأطوار السبعة تمام السبعين ويصل إلى الله، تعالى[٢]، ولهذا تفصيل إلا أنه ليس مقيَّداً إلا بالتسليك بسلوك النقشبندية فإني رأيت في مكتوب له إلى بعض أصحابه ينصحه أن الأكابر النقشبندية هم أرباب الغيرة.

---

(١) الكيلاني، وتنطق الجيلاني بجيم مصرية، وهو: الشيخ الإمام العالم، الزاهد العارف القدوة، محيي الدين، أبو محمد عبدالقادر بن عبدالله بن جَنْكي دوست الجيليّ الحنبلي. شيخ بغداد. ولد بجيلان سنة ٤٧١، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١. كان واعظاً كبيراً، ونُقلت عنه كرامات كثيرة بعضها لا يصح. انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ٤٣٩/٢٠ وما بعدها.

(٢) أعوذ بالله من الضلال.



وكانت وفاته قبل غروب يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى سنة خمسين وألف ودفن صبح يوم الخميس في تربته التي أعدّها له في حياته في سفح جبل قعيقعان وضريحه ظاهر يقصد للزيارة، وقعيقعان كزعيفران جبل بمكة»[1].

فانظر ـ رعاك الله تعالى ـ إلى هذه الترجمة الغريبة العجيبة المليئة بما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق، وفيها غموض ورموز وأسرار، وهذا مما لا يُعرف في تراجم أهل الإسلام الصافية، ثم إنها لا تترك في النفس آثاراً قوية من الرغبة في اتباع سيرة صاحب الترجمة وطريقته بل تولد النفور منها ومن صاحبها.

ـ وللمقارنة فإني سأورد ترجمة علي الرضى للحافظ الذهبي رحمه الله حيث قال:

«أما ترجمة الإمام علي الرضى:

الإمام السيد، أبو الحسن، علي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين، الهاشمي العلوي المدني وأمه نُوبيَّة اسمها سُكَينة.

مولده بالمدينة في سنة ثمان وأربعين ومئة، عامَ وفاة جدِّه.

يقال: أفتى وهو شابٌّ في أيام مالك، استدعاه المأمون إليه إلى خراسان، وبالغ في إعظامه، وصيَّره وليَّ عهده، فقامت قيامة آل المنصور، فلم تَطُل أيامُه، وتوفي.

وعن علي بن موسى الرضى، عن أبيه قال: إذا أَقبلت الدنيا على إنسان، أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

قال الصولي: حدثنا أحمد بن يحيى أن الشعبي قال: أفخر بيت قيل، قول الأنصار يوم بدر:

وببئر بدر إذ يرد وجوههم   جبريل تحت لوائنا ومحمد

(١) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»: ١/٤٦٤ ـ ٤٧٠.

ثم قال الصولي: أفخر منه قول الحسن بن هانئ في علي بن موسى الرضى:

قيل لي أنــت واحد النــاس في كـ ـــل كلامٍ مــن المقــال بديــه
لك فــي جوهر الــكلام بديع يثمــر الدر فــي يــدي مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موســى بالخصــال التــي تجمعــن فيه
قلت: لا أهتــدي لمــدح إمام كان جبريــل خادمــاً لأبيــه

قلت: لا يسوغ إطلاق هذا الأخير إلا بتوقيف، بل كان جبريل معلّم نبينا ﷺ وعليه.

وعن أبي الصلت قال: سمعت علي بن موسى بالموقف يدعو:

اللَّهُمَّ كما ســترت عَلَيَّ ما أعلم فاغفر لي ما تعلم، وكما وســعني علمك، فليســعني عفوك، وكمــا أكرمتني بمعرفتك فاشــفعها بمغفرتك يــا ذا الجلال والإكرام.

توفي سنة ثلاث ومئتين كهلاً.

قال ابن جرير: دخلت ســنة ثلاث، فسار المأمون إلى طوس، وأقام عند قبر أبيه الرشــيد أياماً، ثم إن علي بن موســى أكل عنباً، فأكثر منه، فمات فجأة في آخر صفر فدفن عند الرشيد، واغتمَّ المأمون لموته.

قال المبرد: عــن أبي عثمان المازني قال: ســئل علي بن موســى الرضى: أيكلــف الله العباد ما لا يطيقون؟ قال: هو أعدل من ذلك، قيل: فيســتطيعون أن يفعلوا ما يريدون؟ قال: هم أعجز من ذلك.

قيل: قال المأمون للرضى: ما يقول بنو أبيك في جدنا العباس؟

قال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعة نبيه على خلقه، وفرض طاعته على نبيه، وهذا يوهم في البديهة أن الضمير في طاعته للعباس، وإنما هو لله، فأمر له المأمون بألف ألف درهم.



قيل: إن أخاه زيداً خرج بالبصرة على المأمون، وفتك، وعسف فنفذ إليه المأمون علي بن موسى أخاه ليرده، فسار إليه فيما قيل، وقال: ويلك يا زيد، فعلت بالمسلمين ما فعلت، وتزعم أنك ابن فاطمة؟! والله لأَشَدُّ الناس عليك رسول الله ﷺ ينبغي لمن أخذ برسول الله أن يعطي به، فبلغ المأمونَ، فبكى، وقال: هكذا ينبغي أن يكون أهل بيت النبوة هكذا.

وقد كان علي الرضى كبير الشأن، أهلاً للخلافة، ولكن كَذَبت عليه وفيه الرافضة، وأطرَوه بما لا يجوز، وادَّعوا فيه العصمة، وغلت فيه، وقد جعل الله لكل شيء قدراً»(١).

وبإيراد هاتين الترجمتين يظهر الفارق الكبير بين التراجم المنضبطة بضوابط الشرع والتراجم المتفلتة منه، والتراجم المقيدة بالنقد الحسن والتراجم الخالية منه.

سادساً: مسألة الكرامات:

وبمناسبة سرد الترجمة الأولى التي سقتها لذلك الرجل الذي ترجم له فضل الله المحبي فإني أريد أن أبيّن أمر الكرامات وما الذي ينبغي أن يقبل منها وما الذي يرد؛ فإن أهل السُّنَّة والجماعة يقبلون الكرامة بشرائطها الشرعية؛ وذلك بأن يكون من أُكرم بها رجلاً صالحاً معروفاً بالخير، وأن تثبت له على وجه لا يحتمل الانتحال ولا الكذب ولا المبالغة فإن كان كذلك فلا بأس بقبولها ولا بنشرها، بل تكون آنذاك أشبه بنصوص تربوية ترقيقية تفعل بالقلوب الأفاعيل الحسنة، وهذا هو الذي جرى عليه الأمر في كتب التراجم للمتقدمين والمتوسطين فالكرامات الواردة فيها تطمئن إليها النفس، ويركن إليها القلب، ولا تصدم قارئها، وليس فيها معضلات العقول ومزالق الفكر.

---

(١) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٢/٨٣٠ - ٨٣٢.

أما كتب المتأخرين من أهل القرن العاشر إلى أوائل القرن الرابع عشر ـ أي: قرابة ٤٠٠ سنة ـ فإن الكرامات كثرت فيها كثرة لافتة للنظر وأصبحت الترجمة تدور عليها، ولا تستند إلا إليها، ولا يرتفع صاحبها في نظر القارئ إلا بها حتى صارت الكرامات في كتب تراجم المتأخرين مشكلة يجب حلها، وطريقة يجب التوقف عندها طويلاً، وفي بعضها تكون مقترنة بالفواحش والموبقات!! فهذه لا خفاء في ردها وعدم قبولها ألبتة، وفي بعضها الآخر مبالغات سمجة ممجوجة يدرك قارئها أنها ليست على الجادَّة، وفي بعضها الآخر تكون مقترنة بالكذب الواضح أو بجهالة ناقلها أو عدم عدالته أو عدم الوثوق بحال المنقول عنه الكرامة فهذه وأمثالها ترد أيضاً، أما غير ذلك مما ثبت لأولياء الله ـ تعالى ـ الصالحين وعباده المتقين ونقله الثقات العدول عنهم فهذا يقبح رده وعدم تصديقه؛ فإن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، يُكرم من شاء بما شاء، فردُّها والتكذيب بها ليس من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة الذين اشتهرت القاعدة بينهم: كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لوليّ، والله أعلم.

سابعاً: إيراد العبر والعظات:

يورد بعض مؤرخينا التراجم فيضمنونها جملة من العبر والعظات يستفيد بها القارئ أيما استفادة، وهذا كان ديدن جماعة من المؤرخين وعلى رأسهم الحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير، وإليكم مثالاً على ذلك من صنيع الحافظ الذهبي رحمه الله لما ترجم للإمام المحدث الواعظ شيخ سجستان يحيى بن عمار المتوفى سنة ٤٢٢، فقد قال:

قال السلفي في «معجم» بغداد: قال أبو إسماعيل الأنصاري: كان يحيى بن عمار ملكاً في زيٍّ عالم، كان له محب متمول يحمل إليه كل عام ألف دينار هروية، فلما مات يحيى، وجدوا له أربعين بدرة لم يفك ختمها.



وكان يحيى بن عمار من كبـــار المذكرين، لكن ما أقبح بالعالم الداعي إلى الله الحرص وجمع المال!»[١]

ثامناً: الفوائد العلمية المصاحبة للترجمة:

إن أســـلافنا لما كتبوا التراجم ضمنوا كثيراً منها عدة علوم نافعة مفيدة، ففي الترجمة يطّلع القارئ على بعض أقسام علوم القرآن، أو علوم الحديث النبوي ـ خاصة علم الجرح والتعديل ـ ويكثر في التراجم إيراد مسائل عقديّة وفقهية وأصولية، ومســـائل لغوية إلى آخـــره... وهذا يثـــري الترجمة ويفيد القارئ أمرين:

الأول: اكتساب مسائل من العلوم قد لا يكون له بها عَهْدٌ من قبل.

والأمر الآخر: تنفي عنه الملل؛ إذ التنوع في إيراد الترجمة والخروج بها من ســـياق إلى آخر باعث على تنشيط القارئ واســـتمراره في القراءة، وهذا منهج جليل لأسلافنا ســـلكوه في إيراد التراجم ما أحوجنا إليه اليوم، وقد كتبت أكثر التراجم في زماننا على وجه يوجب لقارئه الملل والنعاس.

وفي بعض هذا قال الأستاذ محمود الطناحي:

«قَـــلَّ أن تجد كتاباً من هـــذه الكتب مقتصراً على الفن الـــذي يعالجه دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى بدواعي الاستطراد والمناسبة... بل إنك واجدٌ في بعض كتب السِّـــيَر والتاريخ والتراجم والأدب والمعارف العامة والطرائف والمحاضرات من مسائل النحو وقضاياه ما لا تكاد تجده في بعض كتب النحو المتداولة»[٢].

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٨٣/١٧.

(٢) «الموجز في مراجع التراجم»: ٣٦.

تاسعاً: السبق البعيد:

قد بيَّنت عنايــة أســلافنا بالتراجم من حيــث الشــمول، والإحاطة، والإتقان، والكثــرة، والنقد، وإيــراد العبــر والعظات، والفوائــد العلمية المصاحبة للترجمة، وأذكر الآن ثامن جوانب هــذه العناية الفائقة ألا وهو السبق البعيد الذي ســبقت به أمتنا الإسلامية سائر الأمم في إيراد التراجم والعناية بها على ذلك الوجه المشــروح آنفاً في الفقرات السبع الماضية، بل لا تزعم أمة من الأمــم أنها تقارب أمتنا في هذا البــاب ولا أنها أتت بعشر معشــاره ـ واحد بالمائة ـ لا أقول هذا مبالغة ولا تجنِّياً إنما هذا هو الواقع، وهذا هو تــراث الأمم أمام ناظرينا فأين فيــه ما يخالف هذا الذي بيَّنتُه؟

أولئــك آبائي فجئنــي بمثلهم إذا جمعتنــا يا جريــر المجامع

وهذا الســبق واقع في كل الجوانب المذكورة آنفاً، حتى أني أســتطيع أن أقول: إن المسلمين هم الذين ابتدؤوا علم التراجم «سير حياة الأشخاص» وهم المؤسِّســون الحقيقيون له على الوجه الذي كان عليه في كتب التراث التي بين أيدينا، وهذا من فضل الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة، ومن باب حفظ ســير حياة عظمائها لتبقى ضياء وهدى للأجيال.

وفي هذا يقول الأستاذ محمد عبدالغني حسن:

«ظلت أوروبــا عقيماً في كتابة التراجم منذ عصــور الظلام التي خيمت عليها في القرون الوسطى، على حين أخذ التاريخ الإسلامي يأخذ مكانه في الوجود.. وأخذت التراجــم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة، ثم أخذت على توالي العصــور تكثر أنواعها ويتضخــم عددها حتى بلغت مــن الكثرة في التراث العربي حدّاً لــم تبلغه في أيِّ تراث لأمة أخــرى معروفة في القديم والحديث.



وليس هذا الكلام يلقى هنا من غير تدليل ولا تمثيل، فقد ظلّت إنجلترا ـ مثلاً ـ على رسوخ قدمها في فن التراجم معطلة في هذا الباب عشرات من القرون...»[١].

وقال أيضاً:

«وحين ظهرت في إنجلترا مجموعة التراجم التي تُعدّ على أصابع اليد... كانت كتابة التراجم قد بلغت قمتها في الآداب العربية قبل ذلك بزمن طويل في أخريات العصر العباسي وفي العصرين المملوكي والعثماني، وظهرت تلك المجموعات الرائعة من كتب التراجم التي تترجم للرجال على اختلاف طبقاتهم وتترجم للقرون مائة فمائة، وتترجم للبلدان وأعلامها، وتترجم لألوان من الناس تجمعهم صفة واحدة كتراجم العميان...»[٢].

---

(١) «التراجم والسير»: ١١.

(٢) المصدر السابق: ١٢.



المبحث الثالث: مزايا التراجم الإسلامية

إن للتراجم الإسلامية مزايا عديدة تفضل بها أيَّ ترجمة أخرى في الأمم الكافرة، فمن ذلك:

١ ـ إسلام الوجه لله تعالى:

إن تراجم أعلام هذه الأمة يميزها أنها مسلمة لله تعالى، أصحابها يدينون لله ـ تعالى ـ بتوحيده وطاعته والالتزام بمنهجه الذي ارتضاه لعباده، ويصدرون عن هذا الالتزام وتلك الطاعة ـ غالباً ـ في تصرفاتهم وأحوالهم وعلاقاتهم بالمجتمع، بينما لا نجد ذلك عند قراءة تراجم أعلام الأمم الأخرى الكافرة التي لا تدين لله ـ تعالى ـ بتوحيد ولا طاعة ولا التزام لمنهجه، فتختلُّ عندها الموازين، فالدنيا هي غاية أملهم ومبلغ علمهم ومنتهى رضاهم، والعياذ بالله، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

وقال تعالى:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وكفى بهذا ذمّاً، نسأل الله العافية.

٢ ـ التوازن الرائع:

إن أكثر التراجم الإسلامية متوازنة في شخصياتها، فتجد صاحب الترجمة مؤمناً بالله تعالى، حسن الخلق ـ غالباً ـ جميل الشمائل والصفات، جامعاً بين جوانب عديدة من الفضائل، فتجد الواحد من الأشخاص عالماً، وفي الوقت نفسه هو عابد، زاهد، وسيجد قارئ التراجم من هذه الفئة كثرة كاثرة.

وتجد شخصاً آخر قائداً بطلاً شجاعاً وفي الوقت نفسه قد يكون عابداً زاهداً، وقد يكون عالماً فقيهاً ـ كأسد بن الفرات مثلاً ـ(١).

وقد تجد شخصاً جامعاً لفضائلَ وشمائلَ على وجه عجيب، وأحب أن أُمثِّلَ على ذلك دائماً بالإمام الكبير عبد الله بن المبارك ﷺ، فقد كان من أهل القرون الثلاثة الفاضلة، توفي سنة ١٨١، ومن جوانب شخصيته أنه كان:

١ ـ أميرَ المؤمنين في الحديث.

٢ ـ فقيهاً عالماً، تتلمذ على أبي حنيفة، رحمهما الله تعالى.

٣ ـ عابداً زاهداً، وله كتاب مشهور في الزهد، مطبوع.

٤ ـ مجاهداً فارساً بطلاً.

٥ ـ كريماً منفقاً.

٦ ـ تاجراً ثريّاً.

---

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان، مولي بن سليم، أبو عبد الله قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين. أصله من خراسان. ولد سنة ١٤٢. ونشأ بالقيروان ثم بتونس. رحل إلى المشرق سنة ١٧٢ ليطلب الحديث. ولي قضاء القيروان سنة ٢٠٤. وكان شجاعاً حازماً صاحب رأي واستعمله زيادة الله الأغلبي على جيشه وأسطوله ووجهه لفتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢ فهاجمها بعشرة آلاف وفتحها. توفي من جراح أصابته وهو محاصر سرقوسة برّاً وبحراً ﷺ سنة ٢١٣. وهو مصنف «الأسدية في فقه المالكية»: «الأعلام»: ١/٢٩٨.

٧ ـ صاحبَ خلق كريم خاصة المروءة.

٨ ـ أديباً شاعراً[1].

فأين نجد في الأمم مثله، أما الأمم المؤمنة فقليل مثله، وأما الكافرة فليس هناك قطعاً مثله ولا عشر معشاره، فهذا نابليون عُرف عنه أنه قائد عسكري جيّد دوّخ أوروبا، واحتل مصر، لكن يبقى السؤال قائماً عن سائر جوانب شخصيته، فهو ماكـر مخادع، ناقض للعهود؛ إذ لما استسـلم له ٤٠٠٠ مـن أهل يافا في فلسطين فأصبحوا أسـرى قتلهم جميعاً عن بكرة أبيهم ولم يرقب فيهم إلاً ولا ذمة[2]، وفي الوقت نفسه هو كافر لا يساوي عند الله جناح بعوضة.

٣ ـ العمل النافع:

إن القـارئ للتراجم الإسـلامية الجليلة يرى أن عمل أصحابهـا كان نافعاً بالمقياسين: الشرعي الخاص، والإنسـاني العام، فقد كان وجودهم في الأرض خيراً لأهلها بما بثُّوا فيهـم من علم، ورغبوهم من عمـل، وأصلحوا فيهم من سلوك، وعدلوا فيهم من خلق، وهدوهم من ضلالة، وأنقذوهم من جهالة.

وكم أنقذوا من البشـر عدداً لا يحصى من ضلالات الكفر، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأدخلوا عليهم السعادة في الدنيا والآخرة، وعلموهم الشريعة فتهذبت نفوسـهم بعد أن كانـوا كالبهائم بل أضل، فلله ما أحسـنَ عملَهم، وما أعظم صنيعهم، فأين منهم كبراء أهل الملل الكافرة، الذين نصبهم العالم نجوماً، وأبطالاً، ورموزاً، وقـدوات، وعظماء وهـم أجهل بالله ـ تعالـى ـ من الدواب، وعملهم وبـال عليهم وعلى غيرهم؛ فهم مفسـدون للعقائـد، مضلِّلون للعقول، محاربون للفضائل، داعون إلى الرذائل، عاملون على نشر الفواحش والموبقات،

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٧٨/٨ وما بعدها.

(٢) انظر ذلك في «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»: للجبرتي: ١٤٣



لا هدف لهم ولا غايــة، وأكثرهم ملحد ولو رفع راية لنصرانيــة أو غيرها، ولقد رأينا من شرورهم، وعرفنا من مخازيهم، ووقفنا من فسادهم، وإجرامهم ما صرنا معه ـ ولله الحمد ـ نفتخر بعظمائنا وأعمالهم النافعة لنا ولسائر البشر.

والناظر النظر الأَوليَّ في أحوال العالم يعلم هذا الذي ذكرته، فهو أشهر من أن يُدلل عليــه، وأظهر من أن يجادل فيه، لكن الإعــلام العالمي طمس رجالنا وأظهر زعماء الضلال، وأغمض عينيه عن عظمائنا واكتفى بالرويبضات الجُهَّال، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وساعده على ذلك أكثر وسائل إعلام بلادنا الإسلامية، التي ضلت طويلاً، وجلبت لأهلها شروراً وداء وبيلاً.

٤ ـ الأثر المفيد:

إذا نظرنا إلى آثار عظماء الملة الإسلامية، أصحاب التراجم الطاهرة العلية، رأينا جلالاً وعظمة، وفوائد وأعمالاً عادت على البشرية عامة والبلاد الإسلامية خاصة بأعظم العوائد، وهذه الآثار متنوعة بين آثار إيمانية وأخلاقية وســلوكية واجتماعيــة وعلميــة لا يزال العالــم يذكرها بــكل خير، ويســطرها في كتب الحضارات رغم أنف الحاسدين والجاحدين.

ولقد أنشــأ عظماء الرجال والنســاء في الأرض حضارة جمعت بين الروح والمادة، والإيمان والعمل، والزهد والإعمار، والتوكل والأخذ بالأسباب، وقيادة الناس والعبودية لله، ولئن دالت تلك الحضارة وزالت، وبادت بعد أن ســادت، وأُنكر فضلها وجُحِد، لكنها ما زالت يتردد صداهــا في جنبات الزمان، وأخبار عظمائها مسطورة في الكتب وتدل عليها بواقي الآثار.

واليوم ـ ولله الحمد ـ هناك آثار خَلّفها عظماء من العصر الحديث يوشَك أن تُؤتيَ أُكُلَها، وتعيد المسلمين إلى ماضيهم الســعيد ومجدهم السليب، وعزهم التليد، إن شاء الله تعالى.

وللمقارنة فهؤلاء مفكّرو ومنظّرو الشعوب الغربية فماذا صنعوا للمسلمين وللأمم الأخرى التي احتلت حكوماتهم تلك البلاد وأذاقوا الناس سوء العذاب، وفعلوا بهم الأفاعيل، لا شيء فقد صمت أكثرهم صمت القبور، وهؤلاء مفكرو فرنسا الكبار ساند أكثرهم الغزو الهمجي الفرنسي للجزائر، وكانوا أنصاراً لتلك الوحشية، سواء منهم من عاصر الغزو أو من جاء بعدهم إلى يوم الناس هذا حتى قال الأستاذ محمد الأمين بلغيث الجزائري:

«إن المثقفين الفرنسيين من رجال القانون والفلاسفة المتعاطفين مع الجزائريين ـ «معذبي الأرض» كما كتب ذات يوم فرانز فانون[١] ـ قد جاءت صحوتهم متأخرة فلم يتحركوا على حد علمي وعلى حد النصوص التي اعتمدتها إلا منذ ١٩٥٧[٢] بصورة ملفتة[٣] للانتباه، ولكن إذا عرفنا السبب بطل العجب؛ فلم يتحرك ضمير معظم هؤلاء حتى شاهدوا أبناء جلدتهم يساقون إلى جهنم الجزائر إلى حيث الموت المحقق، وإلى حيث يعاد نعش مُسَجّى بعلم بلاده الملوث بدماء الأبرياء العُزَّل...»[٤].

وهؤلاء مقدِّمو الإسبان من أدباء وعلماء ومفكرين قد عاصروا محاكم التفتيش الرهيبة وحرق المسلمين وهم أحياء، ورأوا نقض وعود الإسبان لهم بالعيش بأمان فلم نسمع منهم إنكاراً لما جرى، بل إن أكثر المفكرين الإسبان اليوم لا ينكرون ما جرى ويغلب عليهم التعصب في نظرتهم إلى تاريخ المسلمين في الأندلس.

---

(١) طبيب نفسيّ وفيلسوف اجتماعي. أسود. عُرف بنضاله من أجل الحرية وضد التمييز العنصري. عمل طبيباً عسكرياً في الجزائر في مدة الاستخراب الفرنسي، ورئيساً لقسم الطب النفسي في مستشفى البُليدة، وانخرط في صفوف المطالبين باستقلال البلاد عن فرنسا، وتطور أمره إلى أن صار يعمل مع جبهة التحرير الوطني، ثم صار سفيراً للحكومة الجزائرية المؤقتة في غانا. توفي سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م عن ٣٦ سنة فقط: «ويكيبيديا».

(٢) أي بعد احتلال الجزائر بـ ١٢٧ سنة وقبل تحررها بخمس سنوات!!

(٣) هكذا جاءت، والصواب: لافتة.

(٤) «المصادر»: العدد الخامس سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.



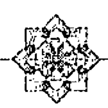
وقد شاهدنا في التاريخ كيف عامل أعلامُ ساسةِ أمريكا الكبارُ السودَ قبل التحرير وبعده إلى قرب نهايات القرن الفائت بدون أن يكون هنالك نكير أو صنيع جاد يرفع عن أولئك المساكين الظلم[١].

لكن لا يمكن لعالم مسلم أو مفكّر أن يقرَّ أمثال تلك الجرائم لو صدرت عن أمته، ولو وُجد فهم قلة نادرة لا يُلتفت إليهم؛ فكم من علماء في مصر والشام واسطنبول وغيرها قاموا في وجه السلاطين لما أرادوا إخراج أهل الذمة أو إيذاءهم بغير وجه حق، وقد نقل لنا التاريخ كثيراً من أمثلة ذلك، فهذا السلطان سليم الأول ابن بايزيد الثاني[٢] أراد إخراج كل النصارى من إمبراطوريته، ولم يكن أحد يستطيع أن يعصي أمره أو يخالف قراره، أو يرد عليه ما عزم عليه، لكن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ـ وهو مفتي السلطنة وكبير المشايخ ـ لم يقبل منه هذا العمل، وهو الشيخ زنبيلي أفندي[٣] بل هدَّد بإصدار فتوى بخلعه إن هو أصرَّ على إكراه أهل الذمة على الإسلام، وإليكم

(١) لا يسمح السياق بإيراد ماذا صنع ساسة أمريكا بالسود في عدة مئاتٍ من السنين من الظلم الشنيع، والعنصرية البغيضة جداً، والقتل لأقل شيء، وعدم سَنّ أي أنظمة تكفل حقوقاً معتبرة لهم، وقد بقي الحال كذلك إلى الثمانينات الهجرية من القرن الفائت/ الستينات الميلادية، وفي ذلك قصص مهولة يرجع من أراد معرفتها إلى كتاب أليكس هالي المشهور «الجذور»، وكتاب: «العبودية في إفريقيا»: لعايدة العزب موسى، وكتاب «من أعماق إفريقيا إلى العالم الجديد»: ستيفان هان.

(٢) السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح. تولى السلطنة سنة ٩١٨ بعد تنازل والده عن السلطنة له تحت ضغط الجيش الانكشاري. كان قوياً شديد البطش. جاهد الصفويين في إيران وانتصر عليهم في معركة جالديران. وانتصر على المماليك واستولى على الشام ومصر ثم اليمن وهذا مكنه من مقارعة البرتغاليين في الخليج العربي. توفي سنة ٩٢٦ وله ٥٤ سنة رحمه الله. انظر ترجمته في «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»، وكتاب «الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك.

(٣) علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الجمالي الرومي القرة ماني المشهور بزنبيلي أفندي. كانت مشيخته من سنة ٩٠٨ حتى سنة ٩٣٢، وكان من كبار علماء عصره. وهو من أصل ألباني وولد في أماسية وتوفي رحمه الله سنة ٩٣٢: «شبكة الإنترنت».



ما قاله أمير البيان شكيب أرسلان[1] رحمه الله في هذه المسألة، فقد ذكر في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»[2] أن السلطان العثماني أراد إخراج النصارى من بلاده أو يسلمون فأبى عليه شيخ الإسلام كل الإباء، وقال له: ليس لنا عليهم إلا الجزية.

فذلك موقف عظيم من شيخ الإسلام، على أن المصلحة كانت في إخراجهم؛ لأننا وجدنا أنهم كانوا سبباً رئيساً في إسقاط الدولة العثمانية بعد ذلك هم واليهود، لكن الوقوف عند حدِّ الشريعة هو الذي جعل شيخ الإسلام يقول للسلطان ما قاله، وفي تفصيل لطيف لما جرى قال الأستاذ شكيب:

«إن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة في أوروبا فيما يتعلق بموضوع التعصب، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم، ولقد مرَّت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقي بين أظهرنا إلا من أقرّ بالشهادتين، وأن نجعل بلادنا كلها صافية للإسلام، فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويواجهه مثل زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام، ويقول له بلا محاباة: ليس لك على النصارى

(١) شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. ولد في الشويفات بلبنان سنة ١٢٨٦. كان عالماً بالأدب والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. انتخب نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وسكن دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، وانتقل إلى جنيف بسويسرا وسكن فيها ٢٥ عاماً ثم عاد إلى بيروت وتوفي بها سنة ١٣٦٦ رحمه الله. له مصنفات كثيرة ورسائل خاصة عددها يقدر بعشرات الآلاف وهو كان من أشد المتحمسين للدولة العثمانية ثم بعد ذلك للقضايا العربية. انظر: «الأعلام»: ٣/١٧٣ - ١٧٥.

(٢) ١/٢٣٨.

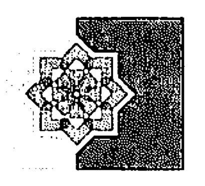
واليهود إلا الجزية، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الحنيف، فبقي بين أظهرنا حتى أبعد الفرق وأصغرها: نصارى، ويهود وصابئة، وسامرة، ومجوس، وكانوا كلهم وافدين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين.

أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم عليه إذا بقي بينكم أن يتنصر، ولقد كان في إسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوب فرنسا وفي شمال إيطاليا وجنوبها مئات الآلاف منهم، ولبثوا في هذه الأوطان أعصراً مديدة ولا تزالون تستأصلونهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت ببلاد إسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يُعرف أنه قبر مسلم»[1].

وهذه المقارنة بين علماء المسلمين وغيرهم توضح لنا بجلاء الفارق بين عطائنا للإنسانية وعطائهم، وأثرنا في البشرية وأثرهم، لكن أين من يوضح ذلك ويجلّيه اليوم في زمن تعظيم الغرب وأفعاله وأفكاره ورجاله، وفي زمن الغضّ من المسلمين وحضارتهم وآثارهم الجليلة على البشرية.

---

(١) «حاضر العالم الإسلامي»: المجلد الثاني، الجزء الثالث: ٢١٠.



المبحث الرابع: أثر التراجم على السلوك الإنساني

إن للتراجم أثراً كبيراً جدّاً في السلوك الإنساني، وتحدث تغييراً كبيراً في إيمان الشخص وسلوكه وأخلاقه، وتردعه ـ في كثير من الأحيان ـ عن سيء الأعمال والأقوال، هذا إن قرأها بقلب مقبل وعقل واعٍ، ورغبة في الاستفادة والتغيير، وهناك آثار أخرى، وسأوجز ذلك في التالي:

أولاً: نصب القدوات للأجيال:

إن أكثر ما يعاني منه أهل الإسلام اليوم هو غياب القدوة الصالحة المعاصرة التي تؤثر التأثير القويّ في المطّلع على تفاصيل حياتها، وإن وُجدت فأين هي؟ وكيف يوصل إليها؟ وكيف تترك أثرها في الناس ولا يُترك لها ذلك غالباً لا في وسائل الإعلام ولا في منابر التأثير الأخرى المهمة.

ثم إن وجد بعض القدوات فإنهم عدد قليل مبثوثون بين مئات الملايين من المسلمين، وأثرهم فيهم محدود جدّاً.

والناظر لأكثر مَن يوصفون بأنهم قدوات اليوم يرى أنه يصدق فيهم قول الحافظ السخاوي رحمه الله حين وصف علماء ومشايخ عصره من أهل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي فقال:

«الكثير بل الأكثر من أوساط هذا القرن وهلم جرّاً إلى آخر الأوقات إنما مشاركتهم في مسمى العلم والحفظ ومشيخة الإسلام ونحوها من مجاز العبارات والاستعارات، وعند تحقيق المناط هم فضلاء متفاوتون في الفهم



والديانات، ولذا ورد الشرع بإنزال كلٍّ منزلتَه بشروطه المعتبرات»[١] فإذا كان السخاوي رحمه الله يقول هذا في علماء ومشايخ القرن التاسع فماذا نقول نحن اليوم في علماء ومشايخ وقدوات عصرنا؟!

والحل ـ عندي ـ في هذه المعضلة، والله تعالى أعلم، هو أن يستعيض المرء في جوانب عديدة عن قدوات العصر بقدوات الدهر، الذين سُطرت حياتهم على وجه من التفصيل دقيق ومفيد في غرس المعاني الإيمانية والتربوية الرائعة التي قد لا يستفيدها المريد للاقتداء بقدوات العصر، ففي كتب التراجم عدة آلاف من سِيَر حياة كبراء وعظماء وأجِلّاء تصلح للاقتداء بها والاتِّساء، وقد بيَّنت ذلك في مواضعَ من هذه الرسالة لكني إنما أريد هنا التنبيه على أن من يريد الاقتداء بعظيم أو جليل فلم يجده في زمانه ومكانه فليرجع إلى كتب التراجم فسيجد بُغيته، إن شاء الله تعالى، وهذا كمن صنف كتاب: «من لم يحضره الفقيه» فلتكن كتب التراجم إذن مفيدة لمن «لمن يحضره القدوة»!!

وما أحسن ما قاله عبد القادر القرشيّ رحمه الله معدِّداً فوائد الاطِّلاع على التراجم مما يصلح أن يكون في هذا السياق:

«الفائدة الرابعة: أنهم أئمتنا وأسلافنا كالوالدين لنا، وأجدر منا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا، وأنصح لنا فيما هو أعود علينا، وأقبح علينا أن نجهلهم وأن نهمل معرفتهم»[٢].

ثانياً: الاستعانة بالتراجم على إحسان الصلة بالله ـ تعالى ـ:

والصلة الحسنة بالله ـ تعالى ـ أمنية الصالحين والمصلحين في كل زمان ومكان، وقد كان جماعات من السلف والخلف قد حققوا من حب الله، وطلب

(١) «الضوء اللامع»: ١/٤.

(٢) «طبقات الحنفية»: ١/٦، وقد نقلت هذا النص من كتاب «علم التراجم: أهميته وفائدته»: ٨١.



رضاه وتقواه، والخوف منه والخشية، والرضى والانكسار أمراً مدهشاً، فإذا اطلع عليها أهل العصر بقلوب مقبلة ونية صادقة في الاقتداء فإن ذلك يفيدهم أيما فائدة في باب الإحسان.

وإليكم هذا المثال الموضح لما أريد:

كان السلطان العظيم نور الدين محمود زنكي(١) حسن الصلة بالله تعالى ـ نحسبه كذلك والله تعالى حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحداً ـ ويكفيه قول ابن الأثير رحمه الله:

«هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة مَن سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى رَوى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه ـ وكان قد استُجيز له ممن سمعه وجمعه ـ حرصاً منه على الخير في نشر السُنَّة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث.

يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى مَن تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله بإسقاط المنزلة والعزل، فلِما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

---

(١) نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، أبو القاسم التركي، السلطان الكبير العادل الزاهد، صاحب المعارك الكبيرة مع الصليبيين، وهو الذي مهّد الطريق لبيت المقدس لخليفته من بعده صلاح الدين رحمهما الله تعالى. عدّه بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين لصفات فيه لم تكن لملك في الإسلام بعد معاوية رضي الله عنه. توفي رحمه الله سنة ٥٦٩. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥٣١/٢٠ وما بعدها.

ثم قال ـ بعد كلام كثير ـ:

«ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة»[١].

وقد نقل الإمام أبو شامة من سيرته حادثة ضخمة تدل على حسن صلته بالله ـ تعالى ـ وذلك حين قاتل الصليبيين في حارم، بلدة شمال حلب، وكان نور الدين آنذاك في قلة من جيشه فقد أرسل طائفة منه للرباط في مصر، فقال أبو شامة[٢]:

«كسر نور الدين الروم والأرمن والفِرَنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفاً، قال: ووقع بيمَند[٣] في أسره في نوبة حارم وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما التقى الجمعان أو قُبَيله انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عَزَّوَجَلَّ ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يا رب: هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك[٤]، فانصر أولياءَك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

(١) «مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»: ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المقرئ النحوي، الملقب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر. له مصنفات عديدة مفيدة، وكان متواضعاً، محبّاً للعزلة والانفراد. قتلته الباطنية سنة ٦٦٥ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/١١٣ - ١١٦.

(٣) واسمه اللاتيني بوهيمند هو أمير أنطاكيا الصليبي، ويُدعى بُوهيمند الثالث، وكان أبوه وجده أمراء على أنطاكيا، واشترك هو وريموند الثالث أمير طرابلس في الحملة ضد نور الدين في حارم، وأسر بوهمند وريموند معاً وافتدى بوهمند نفسه بمائة وخمسين ألف دينار ذهبي، وهو مبلغ ضخم جدّاً جدّاً؛ وانظر ترجمته وافية في «"ويكيبيديا"» باللغة الإنجليزية واسمه فيها: Bohemond of Antioch.

(٤) العبيد المسلمون هم عبيد اختيار، والعبيد الكفار هم عبيد اضطرار.

وبلغني أنه قـال: اللَّهُمَّ انصر دينـك ولا تنصر محمـوداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر»[١].

وهذا المنام الذي ذكره أبو شـامة هنا عَرَضاً أورده في مكان آخر فقال لما أخذ الصليبيون دمياط في صفر سنة ٥٦٥:

«لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتمَّ واهتمَّ وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً.

قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قُرئ عليه جزء من حديـث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّـم[٢]، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتمَّ السلسـلة على ما عُرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله ـ تعالى ـ أن يراني متبسّماً والمسلمون محاصَرون بالفرنج[٣].

وبلغني أن إماماً لنور الديـن رأى ليلة رحيل الفرنج عـن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: اعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة.

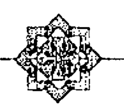
فقال: يا رسول الله: ربما لا يصدقني، فاذكر لي علامة يعرفها.

---

(١) «مختصر الروضتين في أخبار الدولتين»: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) الحديث المسلسل هو «ما تتابع رجال إسـناده عند روايته على صفة أو حالة، إما في الراوي أو في الرواية»، ومعنى «على صفة»؛ أي: ما اتصف به الراوي مثل القراء أو القضاة، أو ما اتصفت به الرواية مثل صيغ الأداء كحدثنا وسـمعت. ومعنى «أو حالة»: وهي إمـا قولية مثل حديث معاذ: «إني أحبك فقل»، أو فعلية كحديث التشـبيك...» انظر «مباحث في الحديث المسلسل» للأستاذ: أحمد أيوب محمد.

(٣) الله أكبر، أما نحن فنظل نضحك ملء أفواهنا ومصائب المسلمين أكثر من أن تُحصر.



فقال: قل له: بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر.

قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بِغَلس[1] ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألحّ عليّ في ذلك، فقلتها، فبكى رَحِمَهُ اللهُ وصدَّق الرؤيا.

فأرّخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة[2].

وهذا يدل على حسن صلته بالله تعالى، وقوة يقينه رَحِمَهُ اللهُ وأعلى درجته في عليين.

وإنما ذكرت نور الدين مثالاً على حسن الصلة بالله ـ تعالى ـ لأخالف ما جرت به العادة من ذكر أمثلة صالحي القرون الثلاثة الأولى، فكأني بهذا المثال أريد أن أقول لقارئه: إذا كان نور الدين هكذا فكيف بالعظماء الكبار من أهل القرون الأولى؟ وإذا كانت صلة حاكم بالله تعالى على هذا الوجه من الجلال فكيف هي صلة عظماء الملة المقبلين على الله ـ تعالى ـ المنقطعين لعبادته وتعظيمه وإجلاله؟

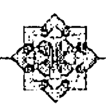
وحَرِيٌّ بمن قرأ هذا الخبر بقلب مقبل أن يتأثر به وأن يتعلم عبادة الانكسار لله الواحد القهار.

ثالثاً: الاستعانة بالتراجم في معالجة جوانب النقص في السلوك والخلق:

وهذا من أهم الأمور التي تورثها قراءة التراجم، التي كان كثير منها قد بلغت إلى مستويات مدهشة من العلم والعمل، وإليكم هذه الأمثلة الموضحة لما أريد:

(١) الغَلَس: ظُلمة آخر الليل.

(٢) «مختصر الروضتين في أخبار الدولتين»: ١٣٩ ـ ١٤٠.



أ ـ في باب الهمَّة:

لا بدَّ من قراءة الخبر المذهل الوارد في ترجمة الإمام النووي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الإمام النووي:

«فلما كان عمري تسع عشرة سنة؛ قدم بي والدي إلى دمشق في سنة تسعٍ وأربعين، فسكنتُ المدرسة الرّواحية، وبقيتُ نحو سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض، وكان قوتي فيها جراية المدرسة لا غير»[٢].

فهذا الخبر جليل جدّاً، ولا بدَّ لقارئ هذا الخبر بنية الاستفادة أن يتأثر به جدّاً، فمن كان يخطر بباله أو يدور في خَلَده أن بشراً يستطيع ألا يتمدد للنوم سنتين كاملتين ويصبر على هذا، ولا يُخِلُّ به أبداً ولا في يوم واحد، إن هذا لشيء عجيب.

وقد بيَّن تلميذه الإمام أبو الحسن العطار[٣] أنه كان إذا احتاج إلى النوم مال على كتبه فأغفى إغفاءة أخذتها نفسه ـ أي: غلبته نفسه فكأنه أغمي عليه ـ ثم يستيقظ بعد نومة يسيرة ويقول: إنا لله لقد أضعنا زماناً طويلاً!!

هذا وقد قال فيه تلميذه الإمام أبو الحسن العطار:

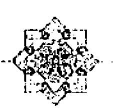
«ذكر لي شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان لا يُضيع له وقتاً لا في ليل ولا في نهار إلا في اشتغال حتى في الطرق، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق.

---

(١) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرّي، محي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد. ولد سنة ٦٣١ بـ (نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام، وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبُّد، وألّف مصنفات نافعة جداً. توفي بـ(نوى) سنة ٦٧٦ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر «الوافي بالوفيات» ٤/٢٦٤ ـ ٢٦٨.

(٢) «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيى الدين» لابن العطار: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) علي بن إبراهيم بن داود، أبو الحسن، من أهل دمشق. ولد سنة ٦٥٤، وكان هو وأبوه عطاراً وجده طبيباً. ألف مؤلفات عديدة، وباشر مشيخة المدرسة النورية ٣٠ سنة. توفي سنة ٧٢٤ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر «الأعلام»: ٤/٢٥١.



قلت[١]: مع ما هــو عليه مــن المجاهدة بنفســه، والعمل بدقائــق الورع، والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها»[٢].

ب ـ العزيمـة:

يعاني أكثر الناس من ضعف عزائمهم، وقلة صبرهــم، وخَوَر طبائعهم عن الاســتمرار في العمل الصالح بلا فتور أو انقطاع مدة طويلة، والحل في أمثال هؤلاء أن يَطّلعوا على تراجم أصحاب العزائم الكبار الذين ضربوا أروع الأمثلة في هذا الباب، فإليكم هذا الخبر:

«وأما الإمــام أبو القاســم بن عســاكر[٣] فقد قــال عنــه أبو المواهب بن صَصْرى[٤]:

لم أرَ مثله، ولا مَــن اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لــزوم طريقة واحدة مدة أربعين ســنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أســقط ذلك عن نفســه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عُرضت عليه، وأخذ نفســه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم»[٥].

---

(١) أي: الذهبي.

(٢) «تذكرة الحفاظ»: ١٤٧/٤.

(٣) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاســم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ. ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشــتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ، وكان ديّناً، صنف التصانيف المفيدة أجلّها «تاريخ دمشــق». توفي ﵀ ســنة ٥٧١ بدمشــق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/٣٠٩ ـ ٣١١.

(٤) الحســن بن هبة الله بن محفوظ بــن صَصْرى الربعيّ التغلبــي الدمشــقي، أبو المواهب، من حفاظ الحديث، وكان محدث دمشق. له بعض المصنفات، توفي ســنة ٥٨٦ عن قرابة ٥٠ سنة ﵀. انظر «الأعلام»: ٢٢٥/٢.

(٥) تذكرة الحفاظ: ١٣٣٢/٤.



وهذا الشيخ كمال العباسـيّ الكجراتيّ الهنديّ[١]، كان «من عوائده أنه كان يستيقظ في الليل إذا بقي ثلثه فيغتسل ويتهجد، ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن في الصلاة، ثم يدعو بالأدعية المأثورة، ثم يذكر الله سـبحانه، ثم يصلي الفجر، ثم يشـتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشـراق، ثم يصلي ويجلس للدرس والإفادة فيُدَرِّس إلى زوال الشـمس، ثم يتغدّى ومعه جماعة مـن المحصلين عليه، ثم يقيل سـاعة، ثم يصلي الظهر، ثم يجلس للإفتاء فيشـتغل به إلـى العصر، ثم يصلي، ثم يشـتغل به[٢]، ثم يصلي ويُقبل على أصحابـه، فيتحدث معهم إلى العشـاء، ثم يدخل في حجرته ويشـتغل بمطالعة كتبه التي يدرسها إلى الثلث الأول من الليل، ثم يدخل في المنزل، وكان من الخامسـة عشـرة من سنه إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق»[٣].

وقال أبو العباس ثعلب[٤]:

ما فقدت إبراهيم الحربيّ[٥] من مجلس لغة ولا نحو من خمسين سنة»[٦].

---

(١) الشيخ العالم الكبير المفتي كمال محمد العباس الكجراتيّ الهنديّ، أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية. ولد ونشأ بأحمد آباد، واشـتغل بالعلم من صباه حتى برع وفاق أقرانه، وولي الإفتاء فاشـتغل بالفتيا والتدريس ٣٠ سنة. توفي سـنة ١٠١٣ رحمه الله. انظر «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) أي: بالافتاء.

(٣) المصدر السابق.

(٤) العلامة المحـدِّث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، الشـيبانيّ بالولاء، البغداديّ، صاحب التصانيف. ولد سـنة ٢٠٠، وكان ثقة، حجة، ديّناً صالحاً، مشـهوراً بالحفظ. عُمّر وأصم، وصدمته دابة فوقع في حفرة، ومات فيها سنة ٢٩١ رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/٥ - ٧.

(٥) الشيخ الإمام، الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغداديّ الحربيّ، صاحب التصانيف. ولد سـنة ١٩٨، كان إماماً في العلم، رأسـاً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً للعلة، صنّف كتباً كثيرة. توفي سنة ٢٥٨ رحمه الله. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٣/٣٥٦ - ٣٧٢.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/٩٨٢.



وقال عيسى بن موسى الهاشمي رحمه الله:

«مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامّة في أكل هريس السوق فلا أقدر على ذلك لأجل البكور إلى سماع الحديث»[١].

فهل سمعتم برجل يدفع شهوة الطعام عن نفسه ثلاثين سنة، إنّا اليوم لو أخّرناها ثلاثين يوماً لظننّا أنا قد صنعنا شيئاً عظيماً، فياحسرةً علينا وعلى تقصيرنا.

قال ابنُ طاهر:

«لما عزم سعدٌ[٢] على المجاورة، عزّم على نَيِّفٍ وعشرين عزيمة أن يُلزمها نفسَه من المجاهدات والعبادات، فبقي به[٣] أربعين سنة لم يُخِلَّ بعزيمةٍ منها»[٤].

الله أكبر الله أكبر.

وقد عرف منه أهل عصره في مكة ذلك فكان إذا خرج إلى الحرم يخلو المطاف، ويقبّلون يده أكثر مما يقبلون الحجر الأسود[٥]!!

فلله دَرُّ هؤلاء الرجال العظماء، ولله دَرُّ هذه العزيمة الذهبية، والإرادة الرائعة، فإذا قرأ المقصر منا والفاتر والضعيف مثل هذه الأخبار بنية صادقة في إصلاح نفسه وتهذيب سلوكه فلا أرى إلا أنه سيؤثر فيه أيّما تأثير بإذن الله تعالى.

---

(١) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»: ابن الجوزي: ٧٤/٧.

(٢) الإمام العلامة الحافظ، القدوة العابد شيخ الحرم، أبو القاسم سعد بن علي بن محمد الزَّنجاني. ولد سنة ٣٨٠ تقريباً. وكان حافظاً متقناً، ثقة ورعاً، كثير العبادة، صاحب كرامات وآيات. توفي رحمه الله سنة ٤٧١ عن تسعين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٨٥/١٨ ـ ٣٨٩.

(٣) أي: بالحرم.

(٤) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ١٤٢٤/٣.

(٥) المصدر السابق: ٣٨٦/١٨.

ج ـ التوازن:

وقد سبق الحديث في شيء منه في المبحث السابق، لكنني أقول هاهنا: إن التوازن هو غاية الدعاة والعاملين الذيــن تتكاثر عليهم الأعمال، وتتزاحم فيهم الواجبات والمندوبات، فلا يدرون ماذا يصنعــون، فإلى هؤلاء أرغب في قراءة ســيرة الإمام الكبير عبدالله بن المبــارك، وقد ذكرت جوانــب العظمة فيه في المبحث الســابق الثالث والتي تدل على توازن عجيب، فلا أعيدها ها هنا لكن قراءة مثل هذه السيرة تشجع العاملين على الـمُضِيّ في عملهم بتوازن.

وكذلك فلينظر العاملون والمصلحون في سيرة بَقِيّ بن مَخْلَد الأندلسي، فقد: «كان بَقيّ يختم القرآن كل ليلة، في ثلاثَ عشرةَ ركعة، وكان يصلي بالنهار مئة ركعة، ويصوم الدهر، وكان كثيرَ الجهــاد، فاضلاً، يُذكر عنه أنه رابط اثنتين وسبعين غَزْوة.

ونقل بعض العلماء من كتاب لحفيد بَقيّ عبدالرحمٰن بن أحمد:

كان جدِّي قد قسَّــم أيامَه على أعمال البرّ: فكان إذا صلى الصُّبح قرأ حزبه من القرآن في المصحف، سُدسَ القرآن، وكان أيضاً يَخْتم القرآن في الصلاة في كل يوم وليلــة، ويَخْرج كل ليلة فــي الثلث الأخير إلى مســجده فيختم قُرب انصداع الفجر، وكان يُصلي بعد حزبه من المصحف صلاةً طويلةً جدّاً.

ثم ينقلب إلــى داره ـ وقد اجتمع في مســجده الطلبة ـ فيجــدِّد الوضوء، ويخرج إليه.

فإذا انقضت الدُّوَل[1] صار إلى صومعة المســجد، فيصلــي إلى الظهر، ثم يكون هو المبتدئ بالأذان، ثم يهبط، ثم يُسمعُ[2] إلى العصر، ويصلي ويُسمع.

---

(١) النُّوَب، وهي أوقات الطلبة التي يتداولونها بينهم.
(٢) أي: يُسمع الطلبة.

وربما خرج بقية النهار، فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر، فإذا غربت الشمس أتى مسجده، ثم يصلي، ويرجع إلى بيته فيفطر.

وكان يسردُ الصومَ إلا يوم الجمعة.

ويخرج إلى المسجد، فيخرُج إلى جيرانه، فيتكلّم معهم في دينهم ودنياهم، ثم يصلي العشــاء، ويدخل بيته، فيحدِّث أهله، ثم ينام نومة قد أخذتْها نفسُه[١]، ثم يقوم.

هذا دَأبُه إلى أن توفي، وكان جَلْداً، قويّاً على المشــي، قد مشى مع ضعيف في مَظْلَمة إلى إشبيلية، ومشى مع آخر إلى إلبيْرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جَيَّان[٢].

هذه هي ســيرة الإمام بَقيّ بن مخلــد، يراها كثير من النـــاس من ضروب الخيال، ويراها الصالحون العاملون فيعلمون أنها كالمثل لحياة بعضهم ولأشواق كثير منهم.

فهو رَحِمَهُ اللهُ قد عبدَ الله أحسن ما تكون العبادة.

ولم ينس تلاميذه وأصحابه، فكان يعلمهم ويرشدهم ويوجههم.

ولم يُغفل جيرانه، فقد كان يتعهدهم بالنصح والإرشاد.

وكان يتعهد أهله ويحدثهم ويؤانسهم.

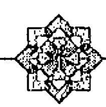
ولم يمنعه ذلك كله من الانتصار للمظلومين والســفر من أجلهم، حتى لو كان ذلك المظلوم امرأة ضعيفة.

وقد تــوّج أعماله الصالحة بالجهــاد، فقد «كان كثير الجهــاد، رابط اثنتين وسبعين غزوة».

---

(١) أي: غلبته نفسه على النوم فكأنه أُغمي عليه.

(٢) مدن أندلسية، وانظر «نزهة الفضلاء»: ٢/٩٧٥.



ثمّ إنه قد فهم الشرط الأساسي والمهم لكل تلك الأعمال الصالحة حتى تدخل سجلات الخالدين ألا وهو الدوام والدأَب.

رحمه الله تعالى، فقد كانت شخصيته المثال المطلوب المفقود.

وبهذا المثل ـ وهناك عشرات غيره في التاريخ الإسلامي، وإنما ضربته مثالاً لقلّة من يعرفه في عصرنا ـ نتبيَّن أن هذا الأمر، أمر التوازن، قد حدث في عصور سلفنا رحمهم الله، فحدوثه في هذا الزمان ممكن، وليس بمستغرب».

وكذلك في سيرة الشيخ أبي عمر[1] نجد التوازن واضحاً فقد «كان يصلي بالناس مائة ركعة وهو مسنٌّ، ولا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته، وإذا رافق ناساً في السفر ناموا وحرسهم يصلي.

وكان كثير الأوراد والذكر، وكان ربَّما تهجد فإن نعس ضرب على رجليه بقضيب حتى يطير النعاس.

وكان يكثر الصيام.

ولا يكاد يسمع بجنازة إلا شهدها، ولا مريض إلا عاده، ولا جهاد إلا خرج فيه.

ويتلو كل ليلة سُبعاً[2] مرتِّلًا في الصلاة، وفي النهار سبعاً بين الصلاتين، وإذا صلى الفجر تلا آيات الحرس ويس والواقعة وتبارك.

ثم يُقرئ ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار، ثم يصلي الضحى فيُطيل، ويصلي طويلاً بين العشاءين، وكانت نوافله في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة، وله أذكار

(١) هو الإمام العالم الفقيه المقرئ المحدث، البركة شيخ الإسلام أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسيّ الجَمّاعيليّ الحنبلي الزاهد. ولد سنة ٥٢٨، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٧ رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/٥ ـ ٩.

(٢) أي: سبع القرآن.



طويلة، ولـــه أوراد عند النوم واليقظة وتســـابيح، وكان يخدم بالجامع المظفري ويُبكي الناس، وكان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته»[١].

د ـ ضبط النفسية:

ومرادي من هذا هو أن المرء يمرُّ في حياته بأحوال وأمور يمكن أن تعصف عصفاً بنفســـيته، وتورده موارد الضعف والهوان، والمعيْـــن له على تجاوز هذه العقبات هو النظر في أحوال ســـلفنا العظام، وكيف صنعوا وكيف فعلوا لتجاوز ما نعاني منه اليوم، وهذا الاطلاع على أحوال الســـلف يورثنا أموراً تعيننا على ضبط نفسياتنا، منها على سبيل المثال:

١ ـ الاعتزاز بالحق واستعلاء الإيمان:

ينبغي للمؤمن أن يكون عزيزاً، لا ينبهر بزخرف الباطل، ولا يفرط فيما بين يديه من الحق، ولا يصرفه عن ذلك تلبيس أعدائه، ولا جهل كثير من أهل ملته، بل يُظهر الاعتزاز الكبير بالإســـلام وأهله، وقد كان سلفنا في ذلك في المحل الأرفع الأعظـــم؛ فقد فتحوا البلاد، وعاشـــوا مع أهلها والذيـــن كانوا أصحاب حضارة ماديَّـــة معلومة كأهل مصر والشـــام والعراق والمغرب، فلم نســـمع أن عظماء سلفنا ذلُّوا أو هانوا أو اضطربت مفاهيمهم أمام تلك الحضارات وأهلها بل أنزلوا كل شـــيء منزلته فلم يهنوا ولم يذلّوا ولم تنكســـر نفســـياتهم ﷺ، وهكذا ينبغي للمؤمن اليوم أن يكون، وطريقـــه للثبات على الحق والاعتزاز به هو قراءة أخبار ســـلفه العظيم وكيف صنعوا، وكيف ثبتوا بعزة على ما هم عليه من الحق والخير والهدى والرشاد.

وقد رأينا في القـــرن الماضي وقبله لمـــا بدأت البعثـــات العلمية إلى ديار الغرب، رأينا كيف انكســـرت نفوس أكثر الطلاب، وأصابهم ما سُمي بالصدمة

---

(١) المصدر السابق: ٦/٢٢ ـ ٧.

الحضارية، وقد كان أثر تلك الصدمة في نفوسهم عظيماً؛ إذ حمل كثيراً منهم على احتقار قومهم وما هم عليه في كل شيء، نسأل الله ـ تعالى ـ العافية، بينما عظماؤنا فتحوا أكثر المعمور المعلوم من الدنيا آنذاك فلم يذلّوا ولم تنكسر نفوسهم بما رأوه من حضارة شامخة، والسِّرُّ في ذلك اعتزازهم بدينهم وتمسكهم به.

٢ ـ الصبر وعدم اليأس:

تتعرض أكثر بلاد الإسلام اليوم لحملات ظالمة عسكرية وسياسية واقتصادية وإعلامية وعقدية فاسدة، والمسلم قد يضعف فييأس، ولا يصبر فينقطع أمام هول تلك الحملات، فإذا قرأ ما كان عليه أسلافه من الصبر وعدم اليأس في أشد المواقف صعوبة، وأكثرها تيئيساً، وكيف حافظوا على نفسياتهم فلم ييأسوا ولم ينقطعوا، ساعدَه ذلك على تحمل ما يراه اليوم من مخططات أعدائه، ومن ثم يساعده على الوقوف في وجهها بصلابة ومقاومتها ودحضها وردها.

٣ ـ الثقة بنصر الله تعالى:

قد كان لأسلافنا ثقة عجيبة بنصر الله ـ تعالى ـ لهم وتمكينهم في الأرض، ولذلك ساحوا في الأرض، وجاهدوا طويلاً لنشر هذا الدين العظيم، وكانوا واثقين كل الثقة في أن الله ـ تعالى ـ ناصرهم ولو بعد حين، وسيفتح لهم قلوب العباد، وهذه الثقة مكّنتهم من أن يكونوا أسياد الأرض ألف سنة من الزمان.

وينبغي على المؤمن اليوم أن يطلع على هذه الثقة العظيمة التي ملأت قلوب أسلافه ليستفيد منها في ضبط نفسيته أمام ما يجري اليوم من تغيير جليل في التاريخ فيعلم أن الله ـ تعالى ـ ناصر عبيده المؤمنين وسيمكن لهم في الأرض عمّا قريب، وأن أعداءه مخذولون مهزومون، وبهذه الثقة الجليلة ستتهدم كل مخططات الأعداء بإذن الله تعالى، والله المستعان، وهو الموفق سبحانه.



رابعاً: اكتساب الخبرة ومضاعفة الأعمار:

إن القــارئ للتراجم إنما يكتســب خبــرات كثيرة، ويضيــف أعماراً إلى أعماره، فيســتفيد من ذلك أيَّما فائدة، فلو قرأ الشــخص ترجمة تبلغ خمسين صفحة كل ليلتين أو ثلاث أو كل أسبوع فإنه سيضيف لتجارب عمره تجارب عمر صاحب الترجمة، وذلك أن صاحب الترجمة لو عاش ســتين ســنة مثلاً فقراءة حياته تعني أن القارئ اكتســب خبرة مَن عاش ستين سنة وأضافها إلى خبراته، وكأنه أضاف عمره إلى عمــره، فكيف لو قرأ ١٠٠ ترجمة؟ وكيف لو قرأ ألف ترجمة؟ وهكذا...

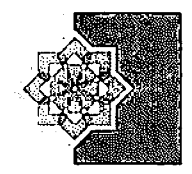
وفي هذا قال الإمام ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ:

«فياليت شِــعْري أيّ فرق بين ما رآه أمس أو سمعه وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبــار الماضين، وحوادث المتقدمين، فــإذا طالعها فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم»[1].

ولا بدَّ من ذكر أن هذا لا يكون إلا في التراجم الغنيَّة بفوائدها، الكثيرة في صفحاتها، ولا يصلــح أن يكون في التراجم المقتضبــة التي لا تحوي تفاصيل حياة صاحبها.

وأزعم أن هنالك أكثر من ألف من هذه التراجــم الغنية بالفوائد في بطون الكتب يمكن الاستفادة منها على هذا النحو الذي ذكرته، والله أعلم.

(١) «الكامل في التاريخ»: ١٠/١، وقد نقلت هذا النص من كتاب «علم التراجم: أهميته وفائدته»: ٨٣.



المبحث الخامس: أثر قراءة التراجم غير المشهورة على أهل هذا العصر

إن أعظم ترجمة يمكن أن يستفاد بها هي سيرة حياة النبي الأعظم ﷺ ومن بعده سيرة أصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين، لكن الناس في زماننا هذا إذا ذُكر لهم حوادث السيرة أو الحوادث المشهورة أو المعروفة للصحابة ﷺ أو قرؤوها صاروا يسابقون تتمتها في أذهانهم، ويكملونها في نفوسهم قبل أن يكتمل ذكرها أو قراءتها، وهذا لأن سمة أهل العصر العجلة والسرعة وعدم النفوذ إلى عمق القصص والأخبار والاكتفاء بظواهر معانيها فقط، هذا إن وعوها وفهموها.

فكان لا بدَّ إذن ـ والله تعالى أعلم ـ أن تورد على قلوبهم وعقولهم أخبار لتراجم جليلة لم يسمعوا بها إلا لماماً أو لم يسمعوا بها أبداً من قبل فتكون مثل الصافعة لهم ليتنبَّهوا، والصادمة لهم ليستيقظوا، وليقبلوا عليها بكُلِّيتهم، فعندئذ تقع الاستفادة ـ إن شاء الله تعالى ـ وذلك لأنهم سيكونون في شوق لسماعها، ورغبة في إكمالها بخلاف ما يعرفونه من أخبار، ودرجوا على سماعه من قصص وأحوال لعظماء الأمة ومقدمي المِلّة الأخيار.

وأهل هذا العصر يجهلون أكثر التراجم المسطورة في ثنايا الكتب، فمن السهولة بمكان أن تُهَيّئَ لهم مجموعة من التراجم المناسبة لتُعرض عليهم عرضاً مناسباً فساعتئذ سيتأثرون بها، إن شاء الله تعالى.

هذا وقد جربت هذا بنفسي ووقفت عليه لما أخذت في بيان سير أكثر من مائتين من هذه الشخصيات في القنوات الفضائية، وأكثرها مجهول تماماً عند

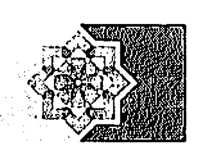
أكثر الناس، أو يعرفون منها شذرات قليلة، فاستفاد منها كثير من الناس ـ بفضل الله تعالى ـ وتحدثوا بأثرها عليهم.

ـ هذا وقد درست في صدر الشباب[١] وزمان الطلب الأول في جامعة الإمام محمد بن سعود في كلية الشريعة، وكنت قد درست على بعض مشايخي العقيدة السلفية، وعرفت شيئاً من فقه السلف، لكني كنت أجهل أكثر أعلامهم، ولا أعرف من سير غير مشهوري الصحابة والتابعين إلا الأقل من القليل، أما تابعو التابعين ومن بعدهم إلى زماننا هذا فقد كنت في عماية تامة عن جمهورهم الأعظم، وفي ذلك الوقت وقع في يدي كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رحمه الله وكانت أجزاؤه تنشر تباعاً؛ إذ لم تكن القدرة المالية للناشرين على ما هي عليه اليوم، فلما أخذت في قراءته، وشرعت في تأمل محاسن تراجمه، وتدبر أخبار رجاله أخذني شيء عظيم، وندمت ندماً كبيراً أني لم أكن قد قرأت مثل تلك الأخبار، ولم أقف عليها من قبل، وعددت ذلك من جملة تقصيري وضعفي وتضييع أيامي، ولا يُدرى كم من دموع لي سالت، وقُشَعْرِيرة في جسدي حدثت، وكم من مشاعرَ مختلطةٍ عجيبة في نفسي انتابت، وقد رقّت نفسي شيئاً ما بعد شدة، وعرفت من قلبي شيئاً من خشوع بعد طول قسوة، وتغير شيء من خلقي وسلوكي بعد امتداد الجفوة، فلله كم تفعل هذه التراجم بالنفوس، وتبعد عنها البُوس، وتُفَرِّج عن الأسارير بعد شدة وعبوس، بما فيها من مجاهدات السلف والخلف، وأخبار زهدهم وعباداتهم، وقصص جهادهم وبطولاتهم، وحكايات مزاحهم ومداعباتهم، ولطائف تلك الأحوال، وجلال هاتيك الأقوال، وطرائق العناية الإلٰهية، ومدارج رقيّ تلك النفوس الزكية.

---

(١) قد ذكرت شيئاً من هذا في التمهيد، لكني أعيده ها هنا لأهميته مع زيادات وإضافات لبعض ما ذكرته.

وقد كان هذا الذي أخبركم به قبل حوالي ثلاثين عاماً، وقد قرأت منذ ذلك الوقت قرابة مائة ألف ترجمة ـ مع المكرر ـ حتى ظننت أني استوعبت أكثر التراجم المطبوعة قراءة واطلاعاً وإذا بي أُفاجأ قبل سنة بكتاب ـ أعمل على تهذيبه الآن، وأرجو أن يوفقني الله لإخراجه، وأن يفسح في المدة لإتمامه ـ جليل جداً: ألا وهو «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم» لأبي بكر عبدالله بن محمد المالكي، فإذا قلت لكم: إن الأكثرية الكاثرة من تراجم الكتاب لم أسمع بها قط فصدقوني، فإني والله كذلك، فإن أكثر من ٩٠ بالمائة من تفاصيل أخبار تراجم هذا العِلْق النفيس والسِّفْر الجليل لم يكن لي بها عهد من قبل، وأصابني من التأثر بقراءتها قريباً مما أصابني قبل قرابة ثلاثين سنة من قراءة «سير أعلام النبلاء»، وفي هذا دليل على ما ذكرته في بداية المبحث من أثر التراجم غير المعروفة للقارئ عليه، وأنها في غاية الأهمية لتصحيح مسيرته من كل جوانبها، فياليت رجال الدعوة والتعليم والتربية والإصلاح يستفيدون من هذه التراجم لينصبوها قدوات للشباب والشابات؛ فإنها من أعظم المعونات على التغيير لو أُوصلت إلى قلوبهم وعقولهم وأرواحهم بطريقة مناسبة لأهل العصر، والله أعلم.



المبحث السادس: كيف تُقرأ التراجم

ليس كل قارئ للتراجم يستفيد منها الاستفادة المطلوبة، وإنما يكون هذا لمن صنع التالي، والله أعلم:

أولاً: إرادة التغيير:

لا بدَّ لقارئ التراجم أن ينوي أن يستفيد مما فيها، وأن يغيِّر من نفسه بما تحويه من أخبار جليلة وتفاصيل رائعة، فإنه إن لم تتوجه إرادته ونيته لهذا فلا غَرْوَ أن تمرَّ عليه الترجمة كأنه لم يقرأها، وليكثر من تأمل جلال تلك التراجم، وروعتها حتى يقارن حاله بحالها، ويبكي على نفسه وتقصيرها، وضعفها.

ثانياً: الصبر:

قراءة التراجم تحتاج إلى صبر وطول نَفَس حتى يستفاد منها، خاصة التراجمَ الطويلة التي تبلغ خمسين صفحة فمائة وأكثر، وتعويد النفس على قراءة ترجمة طويلة كل أسبوع مثلاً والصبر عليها مفيد للغاية، إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: التخير:

لا بدَّ لمبتدئ القراءة في كتب التراجم أن يتخيَّر الكتب السهلة السَّلِسة، وألا يتوجه للمطوَّلات المخيفات للمبتدئين.

ولا بدَّ له أن يتخيرَ من التراجم ما يصاحبها التشويق، وما يكثر فيها القصص والأخبار إلى أن تصبح القراءة في كتب التراجم عليه سهلة ثم له

بعد ذلك أن يقرأ ما يشـــاء، وهذه القصص والأخبار المشوقة تكثر في تراجم السلف خاصة.

وينبغي علـــى القارئ أن يتخير كتب التراجم التي امتـــاز كاتبوها بالإنصاف والعدل وحسن تقويم الأشـــخاص، وعلى رأس تلك الكتب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، وإياه والكتب التي تحط من قدر الناس، وتتجنّى عليهم، وتكثر من ذكر مثالبهـــم وعوراتهم وأخطائهم، وعلى رأس تلـــك الكتب كتاب الحافظ الســـخاوي فإنه على جلالته ورفعة قـــدره لم يُصب في كثير ممـــن ترجم لهم، وأفحش فيهم القول، وأساء إليهم إساءة بالغة، وفي ذلك يقول الإمام الشوكاني:

«ليت أن صاحب الترجمة صان ذلك الكتاب الفائـــق عن الوقيعة في أكابر العلماء من أقرانه، ولكن ربما كان له مقصد صالح»[١].

رابعاً: الحذر من تراجم أهل الضلال:

ليحذر المبتدئ في قراءة كتب التراجم، الآخـــذ في الغوص في مطولاتها، والباحث عن دررها ولآلئها، ليحذر كل الحذر مـــن تراجم المضلين من أمثال أهل الحلول والاتحاد، أو الصوفية المنحرفة الشاطحة، أو الروافض الضُّلال، أو المعتزلة، أو الخوارج، أو الدهريّة الملحدين، أو الفلاســـفة المضلين، ويُعرفون بالحكماء في كتب التراجم القديمة، فإنه إن غاص في تراجمهم بدون حذر ولا وعي فلا يأمن على نفســـه من التأثر بضلالهم، والضلال بشبهاتهم، والإعجاب برياضاتهم ومجاهداتهم البدعية، خاصة إن لم يكن من أهل العلم الشرعي؛ أو لم يعرف القواعد الشرعية، والضوابط الحُكمية، والمزالق الحِكْمية، ولم يدرس المزالق العقدية لتلك الفرق الرديّة، والمذاهب الكفريّة، أو البدعيّة، فحذارِ حذارِ من قراءة تلك التراجم من قِبَل مَن لم يعرف الحق من الباطل، والله المستعان.

---

(١) انظر «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»: ١٨٧/٢.



- وكذلك ينبغي الحذر من التراجم التي يكتبها أهل الضلال وهم على فريقين: فريق ينتسب إلى الإسلام وهو ضالٌ مضِلٌ، وفريق آخر كافر.
- أما الفريق الذي ينتسب إلى الإسلام وهو ضال مضل، موغل في المذاهب الكفرية والطرق الردّية كالماركسية والشيوعية، والعلمانية الغالية، والليبيرالية الضالة، فهؤلاء إن كتبوا تراجم لأنفسهم أو لغيرهم ينبغي الوقوف عندها بحذر وريبة؛ لأن الأصل فيها الخطأ والضلال والمروق، وتعظيم مَن صَغّره الله ـ تعالى ـ وتصغير مَن عظمه الله تعالى.

ومن أمثلة ذلك الدكتور المصري جلال أحمد أمين[1] فقد ترجم لنفسه ترجمة مطولة في كتابين: «رحيق العمر»، و«ماذا علمتني الحياة»، وقد ظهر جليّاً في الكتابين أن علاقة المصنف بالله ـ تعالى ـ وبدينه وبكتابه العظيم وسنة سيد المرسلين ﷺ وبتراث الأمة وهمومها ومشكلاتها علاقة ضعيفة جدّاً إن لم تكن منعدمة في أكثر الجوانب التي ذكرتها آنفاً، وحياته منفصلة عن كل ذلك انفصالاً بيّناً، وحزنت كثيراً من هذا الذي وقفت عليه في تفاصيل حياة المصنف، ومما زادني حزناً أن الرجل موهوب، وذكي، ومتعدد القدرات والملكات، لكنه لم يسخر ذلك لخدمة دينه في شيء، ولم ينشغل يوماً من الدهر ـ فيما أخبر وذكر ـ وقد بلغ الثمانين لمصلحة الإسلام والمسلمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وحاله هذا هو حال كثير من المثقفين المسلمين الذين علاقتهم بالإسلام أوْهَى من خيوط العنكبوت، وعواطفهم إزاءه باردة جدّاً، وجهودهم لمعرفته والوقوف على أماكن جلاله وعظمته قليلة جدّاً، وسلوكهم في واد والإسلام في واد آخر، وحياتهم سلسلة من الانبهار بالمذاهب الوضعية، والرموز الغربية، إن قرؤوا فلا يقرؤون إلا للغربيين، وإن

---

(١) مؤلف مصري جيد التأليف. أبوه الأستاذ الأديب المعروف أحمد أمين. وقد درس جلال في بريطانيا، واتبع الماركسية والاشتراكية ردحاً من الزمن ثم غادرهما إلى العلمانية، وهو أستاذ جامعي في أكثر من جامعة، وولي عدة وظائف، وما زال حياً، هداه الله تعالى.

نظروا فـلا ينظرون إلا بأعينهـم، وإن فكروا فلا يفكـرون إلا بعقولهم، وإن قرروا فلا يخرجون عن تقريراتهم.

والعجيب أن المصنف ـ وهو في أواخر عمره ـ لا يشـعر بندم، ولا يتراجع عن شـيء، ولا يظهر لله توبة، ولا إلى دينه أوْبة، ولا إلى كتابه رجعة، ولا إلى سُنَّة نبيه ﷺ تعظيماً، ولا إلى رجال الإسـلام تعرفاً ولا اقتداء، بل يلجّ فيما هو فيه، ويفتخـر بما آل إليه، ويقـرر ذلك في مواضع من كتابيـه، وعرفت عندما قرأت الكتابين لرجال الإسلام فضلهم، ولدعاة الإسلام عظمتهم فقد عاشوا له، وماتوا من أجلـه، وضحّوا بكل ما يملكون من مال ووقـت وجهد لأجل رفعة قدره، وتعرضوا لأخطار عظيمة في سـبيل إبلاغ رسالته، بينما كان غيرهم ينعم بحياته، لا يلتفت إلى شيء من ذلك، ولا يخطر بباله أمر مما هنالك، فيا لله كم هو الفارق، بين العامل للإسـلام وبين مَن هو في ملذاتـه غارق، ولدينه مباين ومفارق[١].

ولم يذكر المصنف في كتابه أنه صلى قط، أو أنه قرأ القرآن قط، أو أنه قرأ كتاباً إسلامياً قط، أو عمل بسـنَّة النبي ﷺ قط، أو أنه شارك في خدمة الإسلام بشـيء قط، أو أنه ذكر همّاً للمسـلمين قط على كثرة ما فـرّع وذكر في كتابه، ولعله قد صنع شـيئاً من ذلك لكن طـيّ ذكره تماماً في كتابـه دالٌ على عدم عنايته ألبتة بشـيء مما ذكرته، فإلى الله المشـتكى، وإنا لله وإنـا إليه راجعون، فحال الرجل من جملة المصائب التي يسترجع منها.

وفريق كافر كتب التراجم بخبث وسوء نية وفسـاد طَويَّة، وعلى رأس هذا الفريق جرجي زيدان[٢] الذي كتـب روايات وقصصاً ترجم فيها لأعلام من أهل

---

(١) لا أقصد الكفر ولا أريده إنما هو تقرير للواقع.

(٢) جورجي بن حبيب زيدان منشـئ مجلة الهلال بمصر، وصاحب التصانيـف الكثيرة، ولد ببيروت سـنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م، وتعلم بها، ثم رحل إلى مصر. له مصنفات فيها آراء خبيثة دس فيها السُم في الدسم. توفي بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م. وانظر «الأعلام»: ١١٧/٢.



الإســلام، وخلط فيها خلطاً بيّناً، ودسّ السُمّ في العسل، فينبغي تحذير الأجيال من كتبه، وعدم الإذن بانتشارها في ديار الإسلام، وذلك لما لها من آثار خطيرة على العقيدة والسلوك والأخلاق.

خامساً: تجنب الخطأ في قراءة التراجم:

ينبغي الحذر عند قــراءة التراجم من الخطأ في قراءتهــا، والخطأ في قراءة التراجم يكون في الآتي:

أ ـ الانبهار الخاطئ:

ذكرت فيما مضى أهمية إبراز سِيَر القدوات، وأثر ذلك في حياة المسلمين، والأمر يكاد يكون متَّفَقاً على أهميته، لكن هناك مرض سائد يصيب كثيراً ممن يطلع على حياة أولئك العظماء، ألا وهو مرض الانبهار بالقدوة انبهاراً يؤدي به إلى التســليم المطلق بأنهم طائفة من الناس لا يمكن اللحاق بهم ولا التأســي بفعالهم، وأنه لا يمكن للمرء مهما صنع أن يبلغ ما بلغوا أو يدرك ما أدركوا.

وليس الانبهار أمراً سيئاً، ولا شيئاً مرذولاً، بل هو أمر يكاد يكون ضرورياً لاتباع أولئك القدوات والتأســي بهم، كما بيَّنت ذلك سابقاً في مواضع، لكني أقــول: إن المحذور هو الانبهــار المؤدي إلــى القعود عن اللحــاق بالقدوات والتســليم المطلق بعدم إمكان عمل شــيء مقارب لعملهم ولا جزء منه، وهنا ينقلب الانبهار إلى ســيئة كبرى ومرض عُضال؛ إذ ما من شــيء أخطر من أن ينغرس في عقول الأجيال وقلوبهم صورة عن القدوات أنهم شيء أشبه بالخيال منه بالواقع، وأن سيرتهم لا يمكن تكرارها ولا تكرار شيء منها، فتنقطع بذلك الفائدة المأمول حصولها بسرد حياة أولئك العظام.

وإليكم شــيئاً من الأخبار الواردة عن بعض القدوات العظام التي قد تؤدي إلى الانبهار الخاطئ بهم:



«كان سهيل[١] بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شـحب لونه وتغيَّر، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن»[٢].

«كان صفوان بن سـليم[٣] يصلي في الشتاء في السـطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقَّظ بالحر والبرد حتى يصبح ثم يقـول: هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم، وإنه لترمَ رجلاه[٤] حتى يعود كالسَّـقط من قيـام الليل ويظهر فيه عروق خضر»[٥].

وقال فيه أحد السلف:

«رأيت صفوان بن سُـليم ولو قيل له: غداً القيامة مـا كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»[٦] الله أكبر.

وهذا ابن أبي ذئب[٧] كان يصلـي الليل أجمع ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد من الاجتهاد.

وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ثم سرد الصوم[٨].

---

(١) سهيل بن عمرو العامريّ القرشيّ ﷺ. تأخر إسلامه إلى يوم الفتح، ثم حسن إسلامه، وكان سمحاً جواداً مفوهاً. استشهد يوم اليرموك. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١/ ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٤.

(٣) الإمام الثقة الحافظ الفقيه، أبو عبدالله الزهري المدني، مولى حُميد بن عبدالرحمٰن بن عوف. قال الإمام أحمد عنه: من الثقات، يُستشـفى بحديثه، وينـزل القطر من السـماء بذكره. توفي سنة ١٣٢ وله ٧٢ سنة رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٣٦٤ - ٣٦٩.

(٤) أي: تتورم.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٩٨.

(٦) المصدر السابق.

(٧) محمد بن عبدالرحمٰن بن المغيرة، أبو الحارث القرشـي العامري المدني، الفقيه الإمام شيخ الإسلام، من علماء المدينة النبوية المنورة. قدم بغداد فأخذ عنه الناس العلم وأكرمه الخليفة المهدي، ثم عاد إلى بلاده فأدركه الأجل بالكوفة غريباً سنة ١٥٩ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٨) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٨٥.



وهذا هَنّاد بن السَّرِيّ[١] رحمه الله يحكي سيرته أحد تلاميذه، فيقول:

كان «كثير البكاء، فرغ يوماً من القراءة لنا، فتوضأ وجاء إلى المسجد فصلّى إلى الزوال ـ وأنا معه في المسجد ـ ثم رجع إلى منـزله فتوضأ وجاء فصلّى بنا الظهر، وأخذ يقرأ في المصحف حتى صلّى المغرب، قال: فقلت لبعض جيرانه: ما أصبره على العبادة!!

فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل[٢]!!

وهذا سـليمان بن طَرْخان[٣]، كان من العبّاد المجتهديـن، يصلي الليل كله بوضوء عشـاء الآخرة، وكان هو وابنه يدوران بالليل في المساجد فيصليان في هذا المسجد مرة وفي هذا المسجد مرة حتى يصبحا[٤].

وقال ابنه:

مكث أبي أربعين سنة يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويصلي صلاة الفجر بوضوء عشاء الآخرة[٥].

وقال أحد السلف:

ما كنت أشبِّه عبادة سليمان التيميّ إلا بعبادة الشاب أوَّل ما يدخل في تلك الشدة والحدة[٦].

---

(١) هنّاد بن السَّـرِيّ بن مصعب، أبو السَّـرِيّ التميميّ الدارمي الكوفي، الإمام الحجـة القدوة، زين العابديـن. ولـد سـنة ١٥٢، وتوفي سـنة ٢٤٣ رحمه الله. انظـر ترجمته في «سـير أعـلام النبلاء»: ١١/٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/٨٤٧ ـ ٨٤٨.

(٣) سـليمان بن طَرْخان التيميّ البصريّ، أبو المعتمر. الإمام، شيخ الإسـلام، نزل في بني تيم فنسب إليهم. كان كثير الحديث، ثقة. توفي رحمه الله بالبصرة سـنة ١٤٣ وهو ابن سـبع وتسـعين سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٦/١٩٥ ـ ٢٠٢.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/٦٤٠ ـ ٦٤١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

وهذا الإمام عبدالرحمٰن بن القاسم العُتَقيّ[1] تلميذ الإمام مالك[2] ـ رحمهما الله تعالى ـ يحدِّث عن حال شيخه مالك فيقول:

«كنت آتي مالكاً غَلَساً[3] فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة في عتبته فغلبتني عيني فنمت، فخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني ـ جارية ـ سوداء له برجلها وقالت: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلّى الصبح إلا بوضوء العتمة[4]، ظنّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه عليه»[5].

وهذا الحافظ الكبير عبدالغني المقدسي[6]: كان لا يضيع شيئاً من زمانه بلا فائدة؛ فإنه كان يصلي الفجر ويُلَقِّن القرآن، وربما أقرأ شيئاً من الأحاديث تلقيناً، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاث مئة ركعة بالفاتحة والمعوّذتين إلى قبل الظهر، وينام نومة، ثم يصلي الظهر، ويشتغل إما بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فإن

(١) أبو عبدالله عبدالرحمٰن بن القاسم العُتَقي ـ بالولاء ـ المصري، صاحب الإمام مالك، ولد سنة ١٣٢ كان ذا مال ودنيا فأنفقها في العلم، وله قدم في الورع والتألُّه. توفي رحمه الله سنة ١٩١. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/١٢٠ - ١٢٥.

(٢) مالك بن أنس بن مالك، أبو عبدالله الأصبحي المدني، صاحب المذهب، المشهور. توفي رحمه الله سنة ١٧٩ ودفن بالمدينة. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٨/٤٨ وما بعده.

(٣) أي: قبل الفجر في ظلمة الليل.

(٤) أي: العشاء.

(٥) «ترتيب المدارك»: ٣/٢٥٠.

(٦) الإمام العالم الحافظ، الكبير الصادق، القدوة العابد الأثري عالم الحفاظ تقي الدين أبو محمد عبدالغني بن عبدالواحد بن علي المقدسي الجَمّاعيليّ ثم الدمشقي المنشأ الصالحي الحنبلي. ولد بجمّاعيل ـ من فلسطين ـ سنة ٥٤١، وسمع الكثير من الأحاديث في بلدان مختلفة وكتب الكثير. وكان عظيم الخَلْق، تامّ القامة، كأن النور يخرج من وجهه. كان يبكي كثيراً ويُبكي مَن حضره. وكان صاحب أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وله كرامات. توفي رحمه الله سنة ست مائة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٤٤٣ - ٤٧١.

كان صائماً أفطر، وإلا صلّى من المغرب إلى العشاء، ويصلي العشاء وينام إلى نصف الليل أو بعده، ثم قام كأن إنساناً يوقظه.. ويصلي إلى قرب الفجر.. ثم ينام نومة يسيرة إلى الفجر، وهذا دأبه»[1].

الواجب إزاء هذه الأخبار ومثيلاتها:

هذه الأخبار ومثيلاتها ينبغي أن يلاحظ فيها الآتي:

أولاً: إن سردها في كتب السير له أعظم الأثر في حثّ الناس على طرق أبواب الخير والتنافس فيها، وهذا مقصود مهمٌ من إيرادها ولا شك.

ثانياً: ينبغي على المرء العاقل ألّا يسارع بالرد والتكذيب لمثل هذه الأخبار؛ إذ إن كثرة ورودها وتعدد طرقها وتنوع الأفعال الصالحة فيها يدل على صحتها في الجملة، وأنها من محاسن المسلمين وتراثهم الإيماني المجيد، وعظيم صلتهم بمولاهم جلّ جلاله، وأنهم قد تفرّدوا بهذا بين الأمم.

ثالثاً: إن الذين وردت عنهم هذه الأخبار هم عدد قليل بالنسبة لمجموع الصالحين والعاملين، فكأن الله ـ تعالى ـ نصب أولئك العظماء ليكونوا علامات فارقة متميزة في دنيا الناس، فهم حتى بين السلف العظام قلة قليلة، وقياس الآخرين عليهم ليس بجيد ولا ينبغي.

وخلاصة القول في الذين وردت عنهم أخبار في التعبُّد ـ تصل إلى الغاية ـ أنهم قوم لله بهم عناية، وأنهم لا يتكررون كثيراً في أجيال المسلمين المتعاقبة، فإذا عرف المرء هذا حفظ نفسه من اليأس والقنوط، واستقامت نفسه فلم يجزع على تقصيرها إنما يحاول أن يصل إلى شيء مما وصل إليه القوم، ويجهد أن يلحق بغبارهم ﷺ.

رابعاً: إن هذه الأخبار لم تُسرد بغرض أن يُقتدى بأصحابها حذو القُذَّة بالقُذَّة، لا ليس لهذا سيقت، لكنها سيقت لغرض الائتّساء والاقتداء في الجملة،

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٥١٥.

بل إن بعض هذه العبادات الطويلة لم يعد صالحاً لزماننا ولا نقدر عليه، فإن صلَّينا معظم الليل فأين العمل في النهار؟! ومتى نلحق بمَن سبقنا؟! وكيف نُعمِّر الأرض؟! فالمطلوب اليوم نوع آخر من العبادة قد يكون معه إتيان بعض عبادات السلف المطولة مفضولاً أو مرجوحاً.

هذا وقد كلمني بعض الإخوة الذين أثق في صلاحهم والله حسيبهم أنهم يكادون يحبطون عندما يقرؤون أخبار التعبُّد الطويل الرائعة عند سلفنا، ويصيبهم اليأس لعلمهم بصعوبة أو استحالة أن يبلغوا ما بلغ أولئك أو يصنعوا ما صنعوا، وطالبني بعضهم بالإقلال من إيراد مثل هذه الأخبار التي تؤدِّي إلى ما ذكرت آنفاً، فبيّنت لهم أن هذا الذي أصابهم هو مرض الانبهار المطلق بحال أولئك، واليأس الكامل من بلوغ ما بلغوا، بينما ينبغي أن يكون من غرضنا عند مطالعة أخبار أولئك العظماء شحذ الهمم، والارتقاء بالعبادات والمعاملات إلى درجة مقبولة تعين العبد على السير في دروب الحياة المليئة بالملهيات والمثبطات، وعندما يقرأ المسلم مثل هذه الأخبار ينبغي أن يتعامل معها مثل هذا التعامل الجيد، فإنْ صنَعَ فإنه سيتولد له من الطاقات والقدرات، وترتقي به الهمَّة إلى درجة لم يكن يعرفها من نفسه من قبل، ولم يكن يدريها ولا يدركها.

من آثار الانبهار الخاطئ بالقدوات:

أولاً: الإحباط، واليأس من الوصول إلى ما وصل إليه أولئك العظام أو شيء مما وصلوا إليه، وقد فصلت الكلام فيه آنفاً لكني سأذكر شيئاً يتعلق به أو من لوازمه فيما يأتي.

ثانياً: قتل الإبداع:

وهذا مرض يصيب بعض المنبهرين من أصحاب المواهب والطاقات والقدرات؛ إذ يظنون أنه ليس بالإمكان أن يأتوا بشيء بعد صنيع فلان وفلان، وأنه لم يترك أولئك لهم شيئاً يصنعونه، وهؤلاء يتصوَّرون القدوات الكبار جبالاً

مانعة لهم من التقدم، حاجزة إياهم عن الرؤية، ويسلمون تماماً بأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وهذا مكمن الخطر؛ إذ يؤدي هذا الأمر إلى قتل الإبداع والمواهب، وظهور الغلوّ والتعصُّب.

وهناك مثال لغوي لطيف على هذا الأمر؛ وهو ما كان في الأندلس من انبهار عظيم بطائفة من اللغويين المغاربة الكبار حتى ظن الناس أنه لن يوجد مثلهم، وأنه لا يمكن لأحد أن ينبغ نبوغهم أو يصنع صنيعهم، وهذا نصٌّ يبيِّن المسألة ويوضحها:

«استمرت العصبية الأندلسية للغويين المغاربة: أبي علي القالي[1].

وأبي بكر الزبيدي[2]، ومنذر بن سعيد[3]، وأمثالهم تسد الطريق على كل وافد بجديد من علم اللغة والتآليف التي طفحت بها البلاد المشرقية في القرن الرابع... حتى نبغ في أوائل القرن الخامس شابٌّ ضرير ظهر بمدينة مرسية من شرقي الأندلس تكوَّن بنفسه وأبيه، ثم بالتخرُّج على صاعد البغداديّ[4]، ذلك هو

---

(١) العلامة اللغوي، أبو علي إسماعيل بن القاسم بن هارون البغداديّ القالي. ولد سنة ٢٨٠، وأخذ العربية عن طائفة، ثم تحوّل إلى الأندلس ونشر بها علمه حيث دخلها سنة ٣٣٠. له عدة تصانيف مهذبة. توفي بقرطبة سنة ٣٥٦ رحمه الله. والقالي نسبة إلى قرية «قاليقلا» من أعمال مناز كرد من إقليم إرمينية، وقد رافق قوماً من تلك القرية فعُرف بهذا اللقب. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/٤٥ - ٤٧.

(٢) إمام النحو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيدالله الزبيدي الشامي الحمصي ثم الأندلسي الإشبيليّ، صاحب التصانيف. كان أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة. وكان أخبرَ أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار، لم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه. توفي رحمه الله سنة ٣٧٩ وله ٦٣ سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/٤١٧ - ٤١٨.

(٣) منذر بن سعيد البلوطي، أبو الحكم الأندلسي، قاضي المالكية بقرطبة. كان فقيهاً محققاً، وخطيباً بليغاً مفوهاً مع الدين والصلاة وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم. توفي سنة ٣٥٥ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/١٧٣ - ١٧٨.

(٤) أبو علي صاعد بن الحسن بن عيسى الربَعي البغداديّ اللغويّ. رحل إلى الأندلس في حدود الثمانين والثلاثمائة. وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة، ممتعاً. وكان يتهم بالكذب في بعض حديثه وأخباره. توفي سنة ٤١٧ بصقلية رحمه الله. انظر «وفيات الأعيان»: ٢/٤٨٨ - ٤٨٩.

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سِيْدَهْ[١] فكان له من الإعجاب بنفسه والاعتداد بسعة علمه[٢] ما سما به عن منهج العصبية، ونزع به إلى استصغار ما كان يستكبره معاصروه ببلاد الأندلس، فأقدم بذلك على تصنيف اللغة تصنيفاً جديداً سَنّ منهجه على إتقان الترتيب واستيعاب المواد، وتوجيه اللغة بالنحو والتصريف من كل ما أُخذ على المتقدمين خلو تصانيفهم عنه، فأخرج على ذلك المنهج كتابيه العظيمين المرتب أحدهما على الألفاظ وهو كتاب «المحكم»، والآخر على المعاني وهو كتاب «المخصص»... وقد جَلّى ابن سيده في هذا الميدان، ولا سيما بكتاب «المحكم» الذي بقي عمدة العمد للمعاجم اللغوية على مرِّ القرون»[٣].

أرأيت أخي القارئ كيف يكون الشأن إذا قدَّر المرء موهبته وعرف قدراته ثم انطلق ليحقق الكثير في دنيا الناس؟

ثالثاً: الغلوُّ في التعظيم:

وهذا ظاهر في عدد من أتباع أولئك القدوات وأتباع أتباعهم إلى يوم الناس هذا؛ إذ قد صدرت بعض العبارات التي يفهم منها غلو ظاهر في التعظيم لا يتماشى مع قواعد الشرع المطهّر، فمن أمثلة ذلك:

قال يونس بن عبد الأعلى[٤] يصف الإمام الشافعي:

«لو جُمعت أمة لوسعهم عقله» ولا يريب أن هذا غلو في الشافعي الإمام،

---

(١) إمام اللغة، أبو الحسن علي بن إسماعيل المُرسي الضرير، أحد مَن يُضرب بذكائه المثل، وهو حجة في نقل اللغة، وله مصنفات نافعة، وحظ في الشعر. وكان أبوه ضريراً أيضاً وقد أخذ عنه اللغة وعن غيره. توفي رحمه الله سنة ٤٥٨ وقد بلغ الستين أو نحوها. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/١٤٤ - ١٤٦.

(٢) أي: الاعتداد الواجب وجوده في نفس من طمح للمعالي ورغب في الانعتاق من أسر الانبهار السلبي، لا الاعتداد المرذول المؤدّي إلى الكِبْر.

(٣) «ومضات فكر»: ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٤) يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصَدَفي، أبو موسى المصريّ. ثقة. توفي سنة ٢٦٤ وله ست وتسعون سنة رحمه الله. انظر «التقريب»: ٦١٣.

وهو والله جدير بكل خير لكن ليس هكذا يمدح رحمه الله، لذلك قال الإمام الذهبي معلِّقاً وصدق رحمه الله:

«هذا على سـبيل المبالغة؛ فإن الكامل العاقل لو نقص من عقله نحو الربع لبان عليـه نقصٌ ما ولبقي له نظـراء، فلو ذهب نصف ذلـك العقل لظهر عليه النقص، فكيف به لو ذهب ثلثا عقله، فلو أنـك أخذت عقول ثلاثة أنفس مثلاً وصيَّرتها عقلاً واحداً لجاء منه كامل العقل وزيادة»[١].

وهذا غلوٌّ آخر فَجّ، حيث قال أحد الفضلاء:

«لَسَوْطٌ ضُرِبَهُ أحمد بن حنبل في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث[٢]»[٣].

وهذا غلو غير مقبول، وقد قال الذهبي رحمه الله ضابطاً هذه المسألة:

«بشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال إنما الله يعلم ذلك»[٤].

وقال أحد الناس يصف منزلة الإمام أحمد في بلاد العجم:

«عندنا بخراسان يظنون أن أحمد لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة»[٥] وهذا غلوٌّ لا يصلح.

وقال آخر وقد بلغ النهاية في الغلوّ والانحراف:

«نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة»، والعياذ بالله[٦].

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٨٤٦/٢.

(٢) بشـر بن الحارث بن عبدالرحمٰن، الإمام المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، أبو نصر المروزي ثم البغدادي المشهور بالحافي. ولد سـنة ١٥٢ وتوفي سنة ٢٢٧ رحمه الله. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٤٦٩/١٠ - ٤٧٧.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٩٢٦/٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.



وقال آخر:

«كنت إذا سمعت شخصاً يقول: أخطأ النووي أعتقد أنه كفر»[١].!!

تلك كانت بعضَ النصوص الواردة في بيان الغلو الذي أصاب بعض الناس بسبب الانبهار المطلق بقادتهم، والنصوص كثيرة جدّاً خاصة تلك الواردة على لسان بعض متَّبعي أئمة المذاهب المتبوعين لكني أكتفي بما أوردت؛ والعبرة قد تحصل بأدنى النقل وأقله، والله أعلم.

ب ـ عدم فهم الترجمة على وجهها[٢]:

ومن الأمور المحذورة في قراءة التراجم عدم الفهم أو ضعفه لبعض جوانب الشخصية المترجم لها، وهذا داء وبيل، يؤدي إلى مهاجمة تلك الشخصية ومناصبتها العداء لا لشيء إلا لأن القارئ لم يفهم جوانب معيَّنة من حياة الشخصية التي يقرأ ترجمتها، ومن هنا ينبغي على من وقف على شيء لم يفهمه أو لم يستسغه أن يتأنى ويتروَّى قبل أن يلج في مضايق الهجوم والتشهير بالباطل.

وعدم الفهم هذا منشؤه أمران:

١ ـ عدم الفهم بسبب سوء قراءة بعض الأحداث المصاحبة للترجمة.

٢ ـ عدم الفهم بسبب ما نُسب إلى الترجمة من الباطل زوراً وبهتاناً.

ومن أمثلة الأول:

ما يقع في التراجم من أقوال وأعمال يفهمها قارئها فهماً خاطئاً؛ ومن أمثلة ذلك ما ورد في ترجمة الإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسي الأثري المتوفى

---

(١) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام»: ٣٦٩.

(٢) قد مرت نقطة «أ» وهي (الانبهار الخاطئ).



سنة ٥٠٧ رحمه الله فقد ذكر الإمام الذهبي أن الشيخ الدقاق[1] الصوفي ترجم له في رسالته المعروفة فقال:

«كان صوفيّاً ملامتياً[2]، سكن الري، ثم همذان، له كتاب «صفوة التصوف» وله أدنى معرفة بالحديث في باب شيوخ البخاري ومسلم وغيرهما.

قلت: ياذا الرجل: أقصر، فابن طاهر أحفظ منك بكثير.

ثم قال: وذكر لي عنه الإباحة.

قلت: ما تعني الإباحة؟ إن أردت بها الإباحة المطلقة فحاشا ابن طاهر، هو ـ والله ـ مسلم أثري، معظِّمٌ لحرمات الدين وإن أخطأ أو شذ، وإن عنيت إباحة خاصة، كإباحة السماع، وإباحة النظر إلى المرد فهذه معصية، وقول للظاهرية بإباحتها مرجوح»[3].

وأما القسم الآخر، وهو عدم الفهم بسبب ما نُسب إلى الترجمة من الباطل زوراً وبهتاناً؛ فيعبر عنه تعبيراً حسناً الدكتور إبراهيم الريس إذ قال:

«بعض كتب التراجم والأعلام عُنيت بالنقد لبعض المناهج والملل والأفكار؛ وذلك من خلال اللمز برموزها وأعلامها، ودراسة هذه الكتب تستدعي أن يتناولها الدارس بالتمحيص والتحقيق، والنقد والمناقشة، ودراسة الروايات المشبوهة والملصقة بأعلام الأمة ورموزها، وتحقيقها، ودحض ما يثيره أولئك حولها، وتنقية كتب السيَر والتاريخ من ذلك، وتصحيح الصورة

---

(١) هو محمد بن عبدالواحد الدقاق، ورسالته المذكورة هذه هي رحلته التي ذكر فيها من لقي من مشايخه وغيرهم. وانظر «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»: الجزء الأول.

(٢) هذه طائفة من الصوفية تفعل بعض القبائح علناً حتى لا تظهر للناس بمظهر الصلاح خوفاً من الرياء، هكذا فعل بهم الشيطان، نسأل الله السلامة والعافية.

(٣) «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ١٤٨٧/٤.



التي يسعى أعداء الأمة لإلصاقها بها وبتاريخها وأعلامها... وكم شوّه بعض المؤرخين من تواريخ الأمم، وكم لُطخت سير الصالحين من بعض المؤرخين بالتشويه والدس والتهجم والتهكم، وكم زُينت سير أشخاص ضالِّين ومفسدين، وأبرزت سيرهم نماذج للمثل التي تُحتذى، والقدوات التي تُقتفى... ولهذا فليس كل كلام ورد في كتب التاريخ مما تتلقاه العقول بالقبول، ولكن لا بدَّ أن يعرف الناظر فيها مناهج أصحابها وتوجهات مؤلفيها، وأهداف تصنيفها؛ فإن كثيراً من سير العلماء والدعاة والخلفاء قد شُوهت، ونُسب لهم من المواقف ما هم منه براء...»

وضرب مثلاً على ذلك بتشويه سيرة الخليفة هارون الرشيد رحمه الله[1].

ج ـ نسبة الإنجاز إلى الشخصية المترجم لها وحدها فقط:

وهذا أمر يقع كثيراً، خاصة في تراجم الشخصيات الجهادية كصلاح الدين الأيوبي[2] على سبيل المثال، فالمسلمون اليوم متعلِّقون بسيرة صلاح الدين تعلُّقاً غريباً لم يكن على هذا الوجه لدى أسلافهم ممن فهموا السنن وعرفوا أن البطل لا يظهر منفرداً عن مجتمعه الذي عاش فيه بل هو نتاج عوامل عديدة أظهرته وأبرزته، والمجتمع الذي عاش فيه صلاح الدين هو الذي دفعه وساعده على تحقيق الانتصارات التي أجراها الله ـ تعالى ـ على يديه، وفي الوقت نفسه لا ينبغي التقليل من شأن صلاح الدين بسبب تضافر عوامل عديدة في تحقيق

---

(١) «علم التراجم: أهميته وفائدته»: ٩٢ وما بعدها.
أما هارون الرشيد فهو هارون بن المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور، الخليفة العباسي. توفي سنة ١٩٣ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٩/٢٨٦ ـ ٢٩٥.

(٢) صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر الدُّوينيّ التكريتي الأيوبي السلطان الكبير الذي فتح الله على يده بيت المقدس وطهّر بلاد الشام ـ إلا عكا ـ من الصليبيين. وكان له معهم الوقائع المحمودة. توفي رحمه الله سنة ٥٨٩ ودفن في دمشق. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ٢١/٢٧٨ وما بعدها.

الانتصار بل يكفي أنه كان القائد الذي حقق آمال المجتمع الذي صقل مواهبه، وارتقى بقدراته، وهذّب من نفسه حتى صار البطلَ الذي يتغنَّى الجيل اليوم باسمه، ويسأل الله ـ تعالى ـ أن يرزق الأمة صلاح دين آخر:

«يذكر بعض المؤرخين أن الفرد مهما كان من التفوق والبطولة فهو وليد بيئته الاجتماعية ويعبر عنها تعبيراً مباشراً، والفرد لا يستطيع أن يكون ذا أثر خطير في حياته الاجتماعية إلا بأن تلتقي إرادته وأهدافه بإرادة وأهداف المجتمع وتتفاعل الإرادتان في اتجاه واحد ونحو غاية واحدة، ورغم ذلك لا نقلل من شأن القائد؛ لأن ما يقوم به من أعمال هي تحقيق لطموح مجتمعه الذي عاش فيه»[1].

وقال الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل:

«معظم الدراسات التي تعاملت مع التاريخ الإسلامي انصبَّت اهتماماتها بالدرجة الأساس على الجوانب السياسية والعسكرية وأهملت الجانب الاجتماعي، وقد دفعها هذا في كثير من الأحيان إلى تأكيد أثر البطل الفَرْد في التاريخ وتضخيم مساحته على حساب الجماعة»[2].

وزيادة في الإيضاح:

«الدراسات التي تناولت حياة صلاح الدين.. اتبعت منهج التاريخ الفردي الذي يركز على شخص القائد وجهوده في مواجهة التحدي الصليبي، دون أن تبرز الطابع الجماعي للنخبة والأمة في الإعداد والجهاد، كما أن هذا المنهج لا ينتبه للجهود الجماعية التي سبقت نور الدين وصلاح الدين وأخرجت جيلهما، ولا يقدم حلقات الحدث التاريخي وافية متكاملة، ولا يحيط بقوانين التغيير التي يُوجّه إليها القارئ الكريم بل يُبقي التاريخ يدور في فلك الأشخاص

(١) «منهج البحث التاريخي»: ٣٢.

(٢) «حول المنهج في الكتابة التاريخية»: بحث منشور في مجلة إسلامية المعرفة: العدد ١٤١/١٣.

العباقرة لا في فلك الأفكار الصحيحة، والله ـ حسب هذا المنهج ـ يغيّر ما بقوم من أحوال سيئة إذا تغيرت أشـــخاص القيادة فيهم وليس إذا غيَّروا ما بأنفسهم من معتقدات وتصـــورات وقيم وتقاليد وعــادات، ومن الطبيعي أن الإســـهام التربويّ الذي توفره هذه الدراسات سيقتصر على إمداد القائد الفرد بما يستلهم به روح المســـؤولية والنهوض بعبئها وحده، ويجعل الأمة تنتظر ظهور قائد من مثل نور الدين أو صلاح الدين»[1].

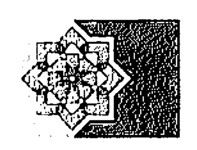
إذاً؛ الأمر ينبغي أن يكون وسطاً بين طرفين، وقصداً بين مسلكين:

مســـلك التعظيم الشديد لشخص القائد ونســـيان كل العوامل الأخرى التي ســـاهمت بقوة في الدفع به لتحقيق النصر، ومســـلك التهوين من شـــأن القائد والتقليل من صنيعه.

والأمر الوســـط بين هٰذين الطرفيـــن، هو أن نعظم هذا القائـــد البطل الذي ضحى طويلاً وكثيراً في ســـبيل النصـــر الذي حققه، وأن ننظـــر إلى الأمة التي أخرجت هذا القائد البطـــل نظرة إجلال ونفهم التغيير الـــذي جرى عليها حتى أخرجت هذا البطل واستحقت النصر.

---

(١) المصدر السابق.



المبحث السابع: تراجم المعاصرين

إن تراجم المعاصرين لها مزايا وخصائص تختلف عما سبق ذكره من تراجمَ في جوانبَ وتتفق معها في جوانب أخرى، فمن نقاط الاتفاق:

١ ـ التراجم المتميزة بقوتها وجلالتها لها أثرها البالغ على المطّلعين عليها.

٢ ـ جاذبيـــة التراجم القوية وتشـــويقها تشـــترك فيها تراجم الســـلف الماضين والعظماء المعاصرين.

ومن نقاط الافتراق ما يلي:

١ ـ تراجم الســـلف الماضين أعظم أثراً وأجلُّ عملاً من تراجم المعاصرين في الجملـــة، وإلا ففي المعاصرين مَن ضـــرب أروع الأمثلـــة وأجلّها، وجاهد واستفرغ وســـعه وبذل طاقته مع ما أحاط به من عوامل التيئيس والترهيب والتشويه.

٢ ـ العناية بتراجم مَن مضـــى أعظم من العناية بتراجـــم المعاصرين، وهذا عجيـــب؛ لأنه كان ينبغي لعلـــم التراجم أن يرتقي الرقـــيَّ الطبيعي عبر القرون كما ترتقي ســـائر العلوم والفنون، والناظر لتراجم عظماء ونبلاء وفضلاء القرن الرابع عشر الهجري/ العشـــرين الميلادي يجد أن كثيراً جدّاً منها لم يدوَّن بعـــد أو دُوِّن وفقد أو بقي مخطوطاً، ثم إنه لا يوجد لها ديوان جامع إلى الآن يجمعها بينما ســـلفنا ترجمـــوا لعظمائهم في دواوين جامعة لكل قرن ابتداءً من القـــرن الثامن الهجري كما تقدم في المبحث الأول.



هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن طرائق إيراد الترجمة عند المعاصرين تجلب الملل لقارئها بخلاف قارئ تراجم السلف الماضين فإنه يستمتع بها غاية الاستمتاع، وذلك لأن أكثر مَن كتب تراجم المعاصرين كان ينهج المنهج العلمي الجافّ الذي تصبح التراجم بسببه كأنها قطعة من النثر المملّ الذي لا يكاد يؤثر في القارئ إلا قليلاً[1].

٣ ـ كَتبَ تراجمَ السلف والخلف ـ غالباً ـ علماء كبار، وحفاظ عظماء كالحافظ السبكي، والحافظ الذهبي، والحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، والحافظ السخاوي، والحافظ السيوطي، والإسنوي، والمرادي مفتي الشام، وعبدالحي الندوي العالم الهندي، ومحمد بن الطيب القادري المغربي، والشوكاني وغيرهم، بينما لم يكتب علماء عصرنا ـ في الغالب ـ التراجم وتركوها لطلابهم، أو الأساتذة غير المتخصصين في الشريعة، وكان لهذا أثره في ضعف كثير من التراجم التي كتبت لأهل القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي، الضعف من حيث الركاكة في الصياغة، والضعف من حيث الأخطاء الشرعية التي يقع فيها كاتبو تلك التراجم.

٤ ـ قد ترجم أسلافنا لبعض الضُّلَّال والمبتدعة لكنهم نقدوا أحوالهم، ولم يعظموا أمرهم ـ غالباً ـ أما ضُلال عصرنا فقد عظمهم مَن ترجم لهم تعظيماً بالغاً، ورفعوا من شأنهم، ولبّسوا على الناس أمرهم، وقد جرى هذا لجماعة كبيرة من الماركسيين والشيوعيين والقوميين والناصريين والبعثيين والعلمانيين اللّادينيين، فقد ترجم لهم تلاميذهم ومحبوهم وتابعوهم تراجم مملوءة بالضلال والمروق، وعظموا من شأنهم تعظيماً لا مزيد عليه، وقد كثر هذا في الحقبة المظلمة من القرن الفائت، أعني بها الأربعينات الهجرية

---

(١) قد تحدثت في هذه المسألة ـ مسألة كتابة التاريخ على طرائق المنهج العلمي الحديث ـ في رسالة: «كيفية قراءة التاريخ وفهمه»، وهي الرسالة الأولى في هذه السلسلة.



إلى نهاية القرن، أو العشرينات الميلادية إلى نهاية القرن، عندما لم يكن للإسلام ولا لمنهجه ولا لشرعه كبير اعتبار عند كثير من المثقفين والمتصدرين للشأن السياسي والاجتماعي، والناظر نظرةً عجْلى للمكتبة التاريخية المعاصرة يعلم هذا ويجده في متناول اليد.

٥ ـ كان السلف والخلف يتصدرون لكتابة التراجم بلا وجل، ولا إشفاق من عواقب صنيعهم، فإن تجنبوا شيئاً فإنهم يتجنبون ذكر واليهم في زمان تدوين الترجمة إن كان ممن يُخشى بطشه، أما في زماننا هذا فإن كثيراً من التراجم يُخشى من كتابتها الضرر، ثم إذا كتبت على وجهها فإنها لا تجد لها ناشراً، وإن وجدت فبعض الناشرين المغمورين، وهذا هو السبب في أن أكثر الشخصيات التي كانت تلي الشأن العام لم يُترجم لها إلى يوم الناس هذا، أو تُرجم لها لكن لم تُنشر بعد، أو نشرت لكنه نشر غير جيد ولا واسع، والله أعلم.

٦ ـ أحاط بالمترجَمين في عصرنا من ذوي الاتجاهات الإسلامية من الأحوال وتغير الزمان وتبدل الأوضاع ما لم يحط بأسلافنا، وقد أثَّر هذا أثراً بالغاً في كل جوانب الترجمة تقريباً، وقد فصَّلت في هذا في بعض المباحث السابقة، لذلك فإن قارئ تراجم بعض عظماء عصرنا قد تفجؤه بعض الحوادث والأحوال التي ربما لا تليق بصاحب الترجمة، فإن وجد مثل ذلك فليحمله على تغير الزمان وتبدل الأوضاع والمفاهيم، وهذا يبدو واضحاً في تراجم مَن عاش في القرن الفائت وهذا القرن.

والتراجم هنا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تراجم رجال من الإسلاميين؛ أي: من العاملين للإسلام أو المنتسبين إلى الخير والصلاح من الدعاة والمشايخ وطلبة العلم والصالحين:

فهؤلاء قد يجد القارئ في تراجمهم ما يطول معه عجبه، ولا يقبله بحال، وذلك نحو بعض المعاصي التي وقع فيها أولئك أو ارتضوها لأهلهم، أو بعض

الأخطاء التي لا تصدر من أمثالهم، أو بعض الأمور السلوكية التي لا تليق، فإن وجد شيئاً من ذلك فليضرب عنه صفحاً، ولا يكثر التعلق به ونشره، ولا يجعله ديدنه في المجلس، ولا يكثر من التشنيع على أصحابها فإنها قد تكون سيئات مغمورة في بحر حسناتهم، وليحملها على تغيُّر الزمان، واختلاف الأحوال، وتبدل كثير من الأوضاع، والانحدار في الفهم والسلوك، والله ـ تعالى ـ أعلم.

القسم الثاني: تراجم رجال فاؤوا إلى الحق بعد ضلال بعيد، كأن كانوا ماركسيين أو يساريين أو شيوعيين، أو علمانيين غلاة، أو متحررين «ليبراليين» متطرفين، ثم إن الله ـ تعالى ـ هداهم إلى الحق فالتزموه كُلًا أو بعضاً، فالقارئ لتراجم هؤلاء ـ خاصة سيرهم الذاتية التي سرد بعضهم فيها حياته بصراحة شديدة ـ قد يستوقفه طويلاً أمور يعجب منها في الفهم والسلوك؛ وذلك لأن أكثر هؤلاء قد هُدوا على كبر نسبياً فبقيت فيهم كثير من رواسب الجاهلية، ولا تزال بعض أفكارهم وآرائهم ليست منضبطة بضوابط الشريعة، فيُصدم القارئ ببعض ما يقرؤه، لكن ينبغي أن يُطوى هذا فلا يُروى إلا أن كان قد أصبح شائعاً بين الناس قد تلقفوه وعملوا به فها هنا ينبغي التصريح بردِّه وعدم قبوله أبداً، والله أعلم.

القسم الثالث: تراجم رجال مشهورين بإظهار محاسن الإسلام وإن لم يلتزموا بأحكامه:

وهذه آفة كثرت في العصر الحديث، فتجد رجالاً يحسنون التحدث في الإسلام وشريعته وجلال أحكامه، لكنهم للأسف الشديد لا يلتزمون به، ومن ذلك ما ذكره الدكتور جلال أحمد أمين في أبيه الكاتب المشهور أحمد أمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1] فقد ذكر حياة أبيه فصدمني صدمة بالغة، ذلك أنه صوَّر أن

---

(١) أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطباخ. وُلد سنة ١٢٩٥هـ بالقاهرة. عالم بالأدب، غزير الاطِّلاع على التاريخ، من كبار الكتاب، اشتهر باسمه أحمد أمين، قرأ مدة قصيرة بالأزهر، وتخرج في مدرسة القضاء الشرعي ودرَّس بها، وتولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية، ثم عُيِّن مدرساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وانتخب عميداً لها، ثم عيِّن مديراً للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وظل بها إلى أن =

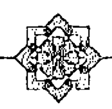
والده لم تكن صلته بهذا الدين العظيم قوية لا في نفسه، ولا في بيته، ولا في تصوراته، لا في شبابه ولا كهولته ولا شيخوخته، وما كنت أظن أن الأستاذ أحمد أمين كان هكذا، ولم أكن لأنقل هذا الذي ذكرته لولا أنه نشر في كتاب، ولولا بقية حرمة له في نفسي لذكرت أشياء عجيبة ذكرها ولده في كتابيه.

وذلك ـ أي: الانفصام العجيب بين الحديث في الإسلام وبين الأخذ به في الحياة ـ مصيبة وقع فيها كثير من المثقفين الذين كتبوا في الإسلام كتباً حسنة التأليف والعرض، جيدة القواعد، وكانوا مِلْء السمع والبصر لكن الواقف على حياتهم وصلتهم بالإسلام يفجع بالبون الشاسع بين حياتهم وبين ما يكتبون، ولولا أني لا أحب أن يصدم القراء، ولأن من رأى مصائبهم عياناً وأخبرني بها قد أوصاني ألا أذكر هذا لأحد، لولا ذلك كله لأوردت هذه الأسماء وبيَّنتُ البون الشاسع بين كتاباتهم وسلوكهم الغريب في الحياة وبعدهم عن الأخذ بالإسلام عبادة وسلوكاً والتزاماً، وهذا من أعجب العجب.

٧ ـ قد كان أسلافنا يكتبون التراجم بتوازن مقبول إلى حدٍّ ما، فكانوا يوردون أخبار المغاربة والأندلسيين، والمشارقة العرب والعجم على اختلاف بلدانهم؛ فلا يكادون يغادرون منطقة إلا ويوردون من تراجم أهلها قليلاً أو كثيراً، لكن الناظر إلى عصرنا يجد أن هذا التوازن مختلٌّ إلى حدٍّ كبير؛ إذ أين هي تراجم عظماء الملايو من أهل ماليزيا وإندونيسيا وتلك البلاد خاصة في القرن الماضي وما قبله؟

وأين هي تراجم مسلمي الصين؟

= تُوفي، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمجمع العلمي العراقي ببغداد، وهو من أكثر كتاب مصر تصنيفاً وإفاضة، وله تآليف عديدة ومقالات كثيرة بلغت عشرة مجلدات. تُوفي بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م رحمه الله. انظر الأعلام: ١/١٠١.



وأين هي تراجم مسلمي الترك في آسيا الوسطى بلاد القزق والقيرغيز والتركمان والطاجيك والأوزبك؟

وأين هي تراجم عظماء افريقيا السوداء؟

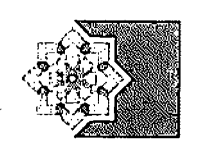
وأين هي تراجم عظماء السُّنَّة في بلاد فارس؟

فهنالك نقص كبير بل أستطيع أن أقول: إنه لا وجود اليوم لتراجم أكثر ما ذكرته من مناطق وبلاد، وإن وجدت فهي باللغة المحلية ويشوبها نقص وخلط وضعف، وأقول هذا عن علم وتجربة ومعاناة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وليت المجامع الثقافية العربية والإسلامية تضطلع بهذا العبء، وتجعل على نفسها مهمة إحياء هذه التراجم والعناية بها، خاصة أن هذا من صلب عملها واهتماماتها.

٨ ـ الكثرة الكاثرة من عظماء السلف والخلف قد وُفُّوا حقهم في تراجمَ جليلةٍ مضيئة استقرت عبر توالي السنين الطويلة، أما المعاصرون فأزعم أن كثيراً منهم لم يُوَفّ حَقَّه بعد من الترجمة المظهِرة لفضله، والمبيِّنة لعظيم عمله، وبعضهم قد ظُلِم وتُعدي عليه، وقلبت حسناته إلى سلسلة متتالية من السيئات، في سياق من عدم الإنصاف لم يسبق له نظير؛ فإن عظماء السلف والخلف إذا ظلم مؤرخ ما واحداً منهم هرع سائر المؤرخين لإنصافه، أما هؤلاء الذين ظُلِموا من أهل عصرنا فقلّ مَن يُنصفهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فإن هذه من المصائب التي يُسترجع لها، والله المستعان[1].

(١) انظر في هذه المسألة كتابي: «القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار».



المبحث الثامن: تراجم الأمم الأخرى

في أمم الأرض الكافرة رجال ونساء اجتهدوا وبذلوا وأعطوا من أجل ضبط دنياهم، وإعمار بلادهم، والسبق في مضمار التنافس الكبير العالمي، وفي تراجم بعض هؤلاء ما يمكن الاستفادة منه من قوة العزيمة، وطول النَّفَس، ووَصْل الليل بالنهار من أجل الوصول للهدف، والهمة العالية، واستسهال الصعاب، لكن لا بدَّ من ضبط إيراد تراجمهم على النحو التالي:

أولاً: عدم الانبهار المؤدي إلى نسيان ما في تلك التراجم من جوانب الخلل العقدي، وذلك بكفر أصحابها وضلالهم، والخلل الفكري، وتهافت تصوراتهم، وفساد أخلاق كثير منهم، وسوء سلوكهم وإلحاد الأكثرية الكاثرة منهم، ولا ننسى أبداً قول الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقوله تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وبمناسبة الحديث عن الأمم الكافرة فإنه يضايقني جدّاً ما يصنعه بعض الدعاة من التعظيم البالغ حدّاً لا يطاق لبعض الأمم الكافرة، فيعمل حلقات كثيرة في القنوات الفضائية لتعظيم حال تلك الأمم وذكر فضائلها وميزاتها، ثم إنه لا يذكر شيئاً من ضلالهم، أو كفرهم، أو سوء سلوكهم؛ من عري وزنا وشرب للخمر وأكل للخنزير، أو ما عندهم من نقائص في طرائق حياتهم، كل



ذلك يطويه ولا يذكره ولا ينشـره بل يذكر فقط ما يراه حسناً، وفي هذا تلبيس على الناس، وخلط بين الحق والباطل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثانياً: عدم التوسـع في إيراد هذه التراجم بل يؤخذ منها بالقدر الذي يفيد المطلعين عليها من المسـلمين؛ إذ التوسـع قد يكون مؤدِّياً إلى الانبهار الذي أشرت إليه آنفاً، ثم إن الأوقات لا تحتمل تلك الإطالات.

ثالثاً: عدم نسـيان مواقـف وآراء كثير من أصحاب تلـك التراجم في الإسـلام والمسـلمين، فالكثير جدّاً منهم يكرهون الإسـلام والمسـلمين ويتعصبون ضدهم، فإذا وُجد في واحد من هـؤلاء تعصب وكراهية لنا فلا نورد ترجمته ولا نكترث بها، ولا كرامة، وإذا أوردناها على مسـامع شبابنا لفائدة لا تضيع فلا بدَّ مـن قَرْنها بمواقف أولئـك وآرائهم حتى لا يحصل اللَّبس والخلط.

تلك مزايا تراجم أهل الإسـلام ـ وقد بينتُها في المبحث الثالث ـ فما أسوأ حالَ مَن عرف كل شـيء تقريباً عن تراجم أهل الضلال وتـرك التراجم الرائعة الإسـلامية فلم يلتفت إليهـا، وظل طـوال حياته يركض خلـف ترجمة فلان الأوروبي وآخر الأمريكـي، وثالث برازيلي وكولومبي وأرجنتيني، فما أخسـرَ صفقتَه، وما أشـدَّ حسرته، وما أبعدَ صنيعَه عن الرشـد، وإليكم ما قاله الأستاذ الدكتـور محمود محمـد الطناحي ﷺ في بعـض أولئك المفتونيـن بتراجم الضالِّين والمعرضين عن تراجم أمتنا الرائعة:

«قد جمعني مع واحد منهم لقاء وكان قد وقع في أسـر الفئة الباغية، الذين خدعوه عن تراثه وأفسدوا ذوقه، فسـألته عن إليوت والأرض الخراب والرجالَ الجُوف[1] وكان شديد اللّهَج به وبهما فقال: لم يعد معي شيء من ذلك، ثم أَنَّ أَنَّةَ حَسْرى، وقال ولم يملك سوابقَ عَبْرة: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

---

(١) الأرض الخراب هي قصيدة للشاعر الإنجليزي توماس إيليوت، وهي قصيدة حداثية غامضة غريبة، =

والحديث عن إليوت وشغف القوم به يفضي إلى الحديث عن كائنة أخرى وهي إفراط معلمي الأدب في دراسة الأجناس الأدبية الغربية، ودراسة الشعراء والأدباء الذين كتبوا بغير اللسان العربي، وهو جهد ضائع مهدر، استفرغ فيه أدباؤنا وسعهم وطاقتهم فيما لا يجدي نفعاً لا في أدبنا ولا في أدب الغرب، ولا يذهبن بك الوهمُ فتظن أنَّ إنجليزياً يلتمس تعريفاً بشكسبير أو تحليلاً لأدبه عند كاتب عربي استهلك وقته وعمره في دراسته، يقول شيخنا محمود محمد شاكر[1]:

«أرأيت قط رجلاً واحداً من غير الإنجليز أو الألمان مثلاً ـ مهما بلغ من العلم والمعرفة ـ كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لغتها، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية، وفي حياة المجتمع الإنجليزي يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم؟!» نعم شُغلنا بأدب الغرب وفكر الغرب شغلاً تامّاً حجزنا عن النظر في موروثنا الضخم الذي أبدعته وحملته أجيال وفيّة على امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان، فكان حالنا في ذلك كالذي قاله العُديل بن الفَرْخ العِجليّ:

كمرضعةٍ أولادَ أخرى وضيعت — بني بطنِها هذا الضلال عن القصد»[2]

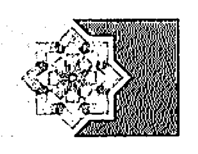
والقصد: هو الطريق المستقيم.

= نشرت سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م للتعبير عن خيبة الأمل والتقزز من الحرب العالمية الأولى وما جرى فيها. وقد توفي هذا الشاعر سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

والرجال الجوف قصيدة للشاعر إيليوت نفسه، ترجمها د. إحسان عباس رحمه الله إلى العربية بعنوان «الخاوون»: المصدر السابق.

(١) أديب لغوي، محقق باحث. ولد بالإسكندرية سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، سجن أيام عبد الناصر، وتعرّض لبلاء آخر بمعارضته طه حسين لأرائه الانحرافية عن الإسلام. حصل على عدة جوائز مصرية وعالمية. وله مصنفات نافعة وشعر. توفي رحمه الله سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. انظر «إتمام الأعلام»: ٢٨٢.

(٢) «الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم».



المبحث التاسع: الاستخدام الخاطئ للتراجم

قد استخدمت التراجم بطريقة خاطئة عند بعض العلماء والأدباء والمثقفين والصحفيين، فكتبوا تراجم لشخصيات معينة لأغراض معينة، فمن ذلك:

١ ـ غرض التقرب للسلطة الحاكمة:

وهذه التراجم كتبها بعض العلماء والأدباء للسلطان أو الرئيس أو الحاكم طلباً لنيل الحظوة عند السلطة الحاكمة، إما لنيل منصب أو جاه معين، أو طلباً للمال والمكافأة، وهذه التراجم تكون في العادة مكشوفة العورة، ظاهرة السوءة، ممجوجة مكروهة للمطلع عليها إلى حد بعيد.

ومن أمثال هذه السقطات ما صنعه أحد العلماء ـ ولا أحب ذكر اسمه حفظاً لحرمته؛ فهو أحد العلماء الكبار المعروفين ـ في ترجمة المؤيد شيخ المحمودي[1] واسم الكتاب «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد» فقد

---

(١) أبو النصر شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري، سادس سلاطين الدولة المملوكية البرجية (الشركسية) في مصر. كان مملوكاً اشتراه السلطان برقوق من أحد بائعي العبيد الشراكسة ويسمى محموداً فانتسب إليه وصار يدعى المحمودي فارتقى سريعاً إلى أمير الحج ثم إلى أمير ألفيّ (أي: أمير على ألف مملوك) ثم حاكم طرابلس، ثم اشترك في قتل فرج بن برقوق وتولى سلطنة مصر سنة ١٤١٢/٨١٥، وظل فيها إلى أن توفي سنة ١٤٢١/٨٢٤.

والعجيب أن المقريزي وصف هذا السلطان فقال: «كان شجاعاً مقداماً، يحب أهل العلم ويجالسهم، ويجلّ الشرع النبوي، ويذعن له، ولا ينكر على طلب مَن إذا تحاكم إليه أن يمضي من بين يديه إلى قضاة الشرع بل يعجبه ذلك، وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم، وكان غير مائل إلى شيء من البدع، وله قيام في الليل إلى التهجد أحياناً. =



امتلأت الترجمة نفاقاً للحاكم سواء في الألفاظ أو المعاني، فقد بدأ المصنف كتابه «بباب عن أصل السلطان المؤيد وجنسه، ولا بدَّ لنا أن نُدهش من هذا العنوان؛ لمعرفتنا أن السلطان مملوك تركي جركسيّ مثل كل الأتراك الجراكسة الذين خطفهم النخاسون من بلادهم وباعوهم في مصر، ولا يعرف لهم أحد نسباً، لكن مؤرخنا الذي عقد العزم على تعظيم السلطان لم يهتم بهذا وبدأ كتابه بباب وليس فصلاً[1] عن أصل السلطان وجنسه رصد فيه تاريخ البشرية من عهد آدم عليه السلام إلى أن وصل إلى الفرع المسمى الجراكسة، ثم تتبع تاريخ الجراكسة حتى وصل إلى بطن من بطونها يسمى كرموك، ثم تتبع ملوك كرموك حتى وصل إلى رجل يسمى إينال، ثم قال:

«ومولانا السلطان الملك المؤيد ثبَّتَ الله قواعد دولته من ذرية إينال المذكور، وهو أصل شريف كبير فيما بينهم، مشهور بالشجاعة والشهامة والمروءة والكرم والسطوة، وأبوه أيضاً كان كبيراً كأسلافه وحاكماً على طائفته» والطريف أنه لم يذكر اسم والد السلطان رغم هذا الباب الطويل الذي أراد أن يبين فيه عظمة آبائه...

وبعد البحث في الأصل والجنس يخصص مؤرخنا باباً آخر للبحث في اسم السلطان وما يدل عليه، ويقوم الباب كله على نظرية غريبة تقول: إن وضع

= ثم قال ويا للعجب:

إلا أنه كان بخيلاً مِسِّيكاً، يشح حتى بالأكل، لحوحاً، غضوباً، نكداً، حسوداً مِعياناً، يتظاهر بأنواع المنكرات، فحّاشاً سبّاباً، وهو أكبر أسباب خراب مصر والشام!! لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن أيام نيابته بطرابلس ودمشق، ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد، وتسليط أتباعه على الناس يسومونهم الذلة، ويأخذون ما قدروا عليه بغير وازع من عقل ولا ناه من دين.

كل ذلك أورده ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»: ١٤/١٠٨ وما بعدها ولم يرتض كلام المقريزي بل دافع عن السلطان المؤيد شيخ دفاعاً كبيراً، والله أعلم بما قد كان من ذلك، لكن المقطوع به ـ عندي ـ أن المؤيد شيخ لم يكن في صفاته مستحقاً لهذا المديح الهائل الذي صدمت به وسيصدم به كل قارئ له.

(١) وذلك لأن الباب يحوي عدة فصول، فلو أورد ذلك في فصل لكان أهون وأقلّ شراً.

الأسـماء لا يكون إلا بإلهام من الله ـ تعالى ـ فلو لم يكن ما تضمنه الاسم من المعاني ـ أو بعضه ـ موجوداً في مسماه لما وقع عليه بالإلهام الرباني، ويحاول أن يدلل على نظريته من خلال حديثه عن أسـماء الأنبياء، ثم ينتهي من تمويهه الطويل إلى بيت القصيد من الباب الطويل، وهو لا يزيد عن ثلاثة أسـطر يقول فيها: «وكذلك اسـم مولانا السـلطان ـ خلد الله ملكه ـ يدل على أن ذاته معظم موقر مشرف، فالشين تدل على شرفه، والياء تدل على يُمنه ويسر أمره، والخاء تدل على خير في أفعاله وأقواله».

ويخصص الباب الثالث من كتابه للبحث في كنية السلطان «أبو النصر» وما تـدل عليه ومن تكنى بهـا من الملوك، ويقـوم هذا الباب على نظرية شـبيهة بالنظرية التي طرحها عند الحديث عن اسم شيخ، وهذه النظرية هي: «إن وضع الكنى إلهام من الله تعالى يظهر سرها في صاحبها، ويدلل على هذا بدليلين: إن الظاهر بيبرس لما تكنَّى بأبي الفتـح حصلت في أيامه فتوح كثيرة، وإن الظاهر برقوق لما تكنى بأبي سعيد لم يزل سعيداً في حياته إلى أن مات، ويرتب على هذين الدليلين أن كنية مولانا السلطان المؤيد «أبو النصر» تدل على أنه منصور فـي كل حركاته وكل أموره، وأن النصر لا يفارقه لأنه صـار له أباً فصار النصر كالابن، والابن جزء من الأب فكذلـك النصر جزء لمولانا المؤيد، ويتتبع لفظ «نصر» ومشـتقاته في القرآن الكريم ليبين شرف الكنية، ثم يتتبع أسماء الخلفاء والسـلاطين الذين تكنوا بهذه الكنيـة، ويؤكد أنه وجدهم قـد انقضت أيامهم بالخير والسرور والنصر التام.

ويعقد مؤلِّفنا رابع أبـواب كتابه للبحث في لقب السـلطان وما يدل عليه ومن تلقب به من الملوك «المؤيد»، ولأن لقب المؤيد لا يحتاج لباب كامل فإن مؤرخنا تخلُّصاً من الحرج راح يبحث في الألقاب منذ بدأ الإسلام فتحدث عن الخلفاء الراشـدين وألقابهـم، والخلفاء العباسـيين، فالفاطميـن، فالبويهيين، فالأيوبييـن حتى وصل في آخر المطاف إلى المماليـك ومنهم المؤيد فتحدث



عنه في أقل من ثلاثة أسـطر قال فيها: «المؤيد أيده الله بملائكته الكرام!! ولقبه أحسن الألقاب، وكنيته أحسن الكنى، وبهما خاطب الله نبيَّه الكريم حيث يقول في كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢].

إلى آخر هذا النفاق المفجع الممجوج، الممقوت صدوره من عالم ومحدث ومؤرخ وفقيه، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وإنما سقت النص بطوله لأبين صعوبة أثر هذا النفاق في زيادة استبداد السـلاطين ومعاملتهم على أنهم أنصاف آلهة، والعياذ بالله.

٢ ـ غرض سياسي:

وقد يُصنف العالم أو الأديب كتاباً في سـرد حياة شخصية سياسية لغرض الارتقاء بها فوق ما تسـتحقه، وإظهار صفاتها التي يصورها كذباً وزوراً وبهتاناً على أنها خارقـة ولم تكن لأحد من قبـل، وقد كثر هذا فـي العصر الحديث للأسـف، وكُتبت كتب كثيرة للتقـرب إلى الحكام وترويـج أمرهم بين العوام وأنصاف المثقفيـن، وكثر الحديث في العبد الخاسـر «عبدالناصر»[1] وتصويره بصورة بطولية وهي شـخصية كاذبة خاطئة، معروف إجرامها وسوؤها وباطلها وفسادها وإفسـادها، وما جرَّته على العالم العربي والإسلامي من ويلات يعاني منها إلى الآن، وكذلك الشـأن في صـدام مجرم البعث الذي أفسـد في البلاد طويلاً وجر البلاد العربية إلى كارثة تلو كارثة، وهـذه الكتابات ـ في أكثرها ـ

---

(١) جمال عبدالناصر حسـين حاكم مصر من سنة ١٣٧٤ ـ ١٣٩٠هـ/ ١٩٥٤ ـ ١٩٧٠م. أهلكه الله ـ تعالى ـ سـنة ١٣٩٠ كهلاً بعد أن ضيّع سيناء وسائر فلسـطين، وبعد أن فعل القبائح الكبار مثل قتله للدعاة العظماء ورمي آلاف منهم في السـجون، وتعذيب الآلاف؛ ونشـر في مصر المذهب الاشتراكي البغيض، وأعلى من شأنه، وخفض من شـأن كل ما يمتُّ بصلة للإسلام والمسـلمين، وقبائحه لا يسـعها مجلد، وما زال له بعض أنصار فتنوا به، نسأل الله ـ تعالى ـ العافية من الضلال البعيد.

نفاق محض، وتزلّف ممجوج، وكذب على الناس، وفجور في ليّ عنق الحقائق، وهي كتابات ذهبت إلى مزبلة التاريخ ولا أسف عليها ولا على أصحابها ولا على من كُتبت فيهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٣ ـ غرض مذهبيٌّ:

وهي التراجم التي كتبت لإبراز شخصيات نصرة لمذهبها الوضعي الباطل، وترويجاً لها بين الناس، ومن ذلك الكتابات التي كُتبت في ترجمة ساطع الحُصْري القومي(١)، وميشيل عفلق البعثي(٢)، وغيرهما من أهل الضلال والفساد

(١) ساطع بن محمد هلال الحصري، أبو خلدون. ولد في صنعاء باليمن سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، وكان أبوه موظفاً فيها. ثم انتقل إلى اسطنبول فدرس فيها، ثم عُين مديراً لدار المعلمين في اسطنبول، ثم عُين محافظاً في البلقان، ثم عمل مع السلطان عبدالحميد، ثم رحل إلى دمشق، وتولى فيها وزارة التعليم.

ومن العجب أنه كان داعية إلى التتريك والطورانية التركية ثم انقلب إلى داعية إلى القومية العربية، وكان في لسانه لُكنة ومات وهو لا يحسن العربية نطقاً ولا كتابة!! وانتقل مع فيصل بن الحسين إلى العراق لما ملكها فيصل وعمل وزيراً للمعارف ثم مديراً للآثار، وتولى إدارة المعلمين العالية في بغداد، وكان يحارب الدين ولا يهتم بتدريسه في المدارس، وشُكي إلى فيصل مراراً لكن لم يأبه للشكاوى.

لما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني نُفي ساطع الحصري إلى حلب، ثم عاد إلى دمشق وكُلف بصياغة النظام التربوي التعليمي في البلاد!! ثم عُين مديراً لمعهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م. عاد إلى العراق سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م وتوفي في بغداد سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. له في القومية العربية أكثر من ٢٠ مصنفاً. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» في شبكة «الإنترنت».

وله عبارات كفرية مثل قوله: إن التشريع الإسلامي الذي وُجد منذ ١٤٠٠ سنة لا يصلح لأيامنا هذه، نسأل الله العافية.

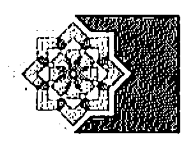
وكان يرى أن الوحدة الإسلامية متعذرة، وأنه لا علاقة للدين بالسياسة، وخلاصة فكره أنه جاهلي لا علاقة له بالإسلام، نسأل الله العافية.

(٢) ولد في دمشق سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م من عائلة نصرانية أرثوذكسية، وتعلم في المدارس الفرنسية، ثم درس في السوربون في باريس. =

العقدي والفكري، وهي كتابات انتشرت في القرن الماضي انتشاراً مؤذناً بسوء حال تلك المدة البئيسة، والأوقات الكئيبة التي تلقت فيها الأمة الهزائم تلو الهزائم، وعمها الذل والهوان وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فليحذر قارئ التراجم إذن من هذا الفساد الفكري والعقدي والنفاق والتزلف؛ وذلك لأن هذا الاستخدام الخاطئ للتراجم يترك في النفوس آثاراً سيئة جداً، ويُضَل بها أقوام كثيرون.

= عاد إلى سوريا مدرّساً في مدارسها، ثم أصبح وزيراً للتعليم. ثم أسس حزب البعث هو وصلاح الدين البيطار وانتخب عميداً للحزب، ثم دمج حزب البعث مع الحزب الاشتراكي بقيادة أكرم الحوراني ليصبح حزب البعث العربي الاشتراكي، ثم صار الحزب الرسمي لدولتي العراق وسوريا. توفي سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ودفن في بغداد.. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».



المبحث العاشر: كيفية كتابة الترجمة

وبعد هذا التطواف في ساحة التراجم فإني سأضع لمن أراد البدء في كتابة التراجم بعض المـعالم التي تعينه وتيسر عليه الأمر، فمن ذلـك:

١ ـ معالم عامة:

أ ـ الإيجاز:

إن عصرنا هذا معقد متشـابك، كثير الهموم، متعـدد المطالب، كثُر فيه على الناس الأعمال واتسع الخرق عليهم في الأوقات، فإذا أُضيف إلى ذلك ما عُرف من أهل عصرنا من قلة الصبر، وضعـف التحمل، وعدم الرغبة في القراءة عموماً وقراءة المطـولات خصوصاً، إذا عُـرف كل ذلك فإن الأجمـل والأوفق بكاتب التراجم أن يميل نحو الإيجاز ويرغب في الاختصار، فينشـئ الترجمة في أوراق معدودات، حتـى يقرأها الناس، أمـا إن كتبها في مجلد كبيـر أو عدة مجلدات فلربما اقتناها بعض الناس لكنها ستظل زينة يزينون بها مكتباتهم وقَلّ من يقرأها.

وهناك اسـتثناء واحد ـ عندي ـ وهو التراجم التي بلغت في الأهمية مبلغاً كبيراً يُظَنّ معه أن الناس تتلهف على قراءة تفصيلات مطولة لحياتها وسـيرتها، فهنا لا بأس بالتطويل، والله أعلم، أما التراجـم التي يراد تعريف الناس بها فلا يجمل حينئذ التطويل، ولا يحتمله الناس.

ب ـ التشويق:

لا بدَّ لكاتب التراجم ألا يُغفل أمر التشـويق في كتابـه، فليعمد إلى مزج

سيرة من يترجم له بمشـوقات مُرغبات تلين معها الترجمة ويقبل عليها قارئها، أما كتابة التراجم بجفاف وجفاء فهذه أدعى ألا يلتفت إليها ولا يُتعلق بها، وقد كان هذا ديدن سلفنا، وقد بيّنت هذا في مبحث سابق في هذه الرسالة.

ج ـ الحياد العلمي والقلبي:

يطالب بعض المستشرقين ومَن لفّ لفهم بالكتابة بدون العواطف، وتركها جانباً حين التصنيف، وهذا أمر غير ممكن، فالمرء لا يمكن أن يكون حياديّاً في الكتابة في سـير أهله وأبطاله وعظمائه بل قلبه يحن إليهم، وعواطفه وأشـواقه يبثها في كتابتـه، لكن الحياد الممكن المطلوب هو الحيـاد العلمي، فلا يلوي عنق الحقائـق، ولا يرجح بدون مرجح ظاهر واضح، ولا يظلم أحداً لحسـاب صاحب الترجمة، ولا يبالغ، ولا يهول في موضع التهوين، ولا يهون في موضع التهويل، وهكذا. ..

ومن المهم الإشـارة إلى وجوب الإنصاف في الترجمة؛ فإن جماعات من الناس ظُلموا بسبب الهوى أو عدم فهم بعض أقوالهم أو أعمالهم، قال الأستاذ محمد عبدالغني حسن:

«إن الترجمة لا بدَّ أن تأخذ حقها من التحقيـق العلمي والبحث ومعارضة الأحوال والأقوال بعضها ببعض حتى يتميز الزائف من الصحيح، كما يجب أن تؤخذ أقوال الرواة بعين الاعتبار والوزن لما قد يكون فيها من ميل للمترجم له أو هوى معه أو تعصب عليه؛ فإن الناس لا تتفق آراؤهم في شخص معين، كما أن تقديراتهم قد تختلف لاعتبار أو لآخر...

وفي الترجمة للإمام أبي حنيفة النعمان يجب أن يتفطن المترجم أو المؤرخ إلى ما شـنع به عليه خصومه وحسَّـاده لعصبية فيهم، أو لخلاف بين أصحاب الرأي وأصحاب الحديث، وقد كان أبو حنيفة من كبار رجال الرأي في التشريع الإسـلامي، فلم يعجب ذلك أصحاب الحديث فقالوا فيه ما قالوا مما يجب أن

يكون منه المترجم على حذر، ولقد ساق الخطيب البغدادي صاحب «تاريخ بغداد» كثيراً من الأقوال التي قيلت في النيل من أبي حنيفة، ولكن المؤرِّخين والحفاظ وأصحاب السير لم يسكتوا أمام هذه الأقاويل، فكشفوا عن قيمتها ومبلغها من الصحة كما صنع الحافظ ابن عبد البر[١] والإمام المؤرخ الذهبي في «تذكرة الحفاظ». ..»[٢]

واشترط الإمام السخاوي رحمه الله في كاتب الترجمة: «أن لا يغلبه الهوى، فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه، والتقصير في غيره؛ وذلك بأن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه، ويسلك معه طريق الإنصاف، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز»[٣].

د ـ التفريق بين سرد الوقائع وبين تحليلها:

بعض مَن يُترجم يسرد الوقائع، لكنه يخلطها بتحليلاته أو تحليلات غيره فلا يعود القارئ يتبيّن الوقائع من التحليلات، وهذا أمر يؤدي إلى الخلط وتحميل صاحب الترجمة ما لم يقله أو ما ليس من رأيه المعروف عنه، أو اتجاهه المنقول عنه.

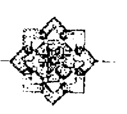
وفي طريقة الجمع بين السرد والتحليل يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن: «وإذا كان من الحق أن نقول: إن كتّاب التراجم لم يعنوا بالنقد والتحليل والتعليل في ترجمة الرجال أكثر مما عنوا بسرد أخبارهم، وذكر آثارهم، ونقل

---

(١) الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النَمري الأندلسي القرطبي المالكي، صاحب التصانيف الفائقة. طال عمره، وعلا سنده، وتكاثر عليه الطلبة، وخضع لعلمه علماء الزمان. كان ديّناً، متقناً، علّامة، متبحراً، صاحب سُنَّة واتباع، وممن بلغ درجة الاجتهاد. توفي سنة ٤٦٣هـ عن ٩٥ سنة رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/١٥٣ ـ ١٦٣.

(٢) «التراجم والسير»: ١٦ ـ ١٧.

(٣) المصدر السابق: ٨٣.



بعضهم عن بعض حتى لتكاد تتشابه العبارات في مصادر الترجمة، فإن من الحق أيضاً أن نقول: إن هذه التراجم الكاثرة قد حفظت لنا كثيراً من أخبار المترجم لهم وملابسات حياتهم، مما لا يصعب معه على كاتب التراجم الحديث أن يُخرج صورة واضحة للشخصية التي يريد أن يترجم لها، فهذه المادة الغزيرة من المعلومات والأخبار والحوادث الصغيرة والكبيرة، التي حفظتها لنا كتب التراجم والطبقات في القديم هي المواذ التي يؤلِّف المصور من مجموعها صورته، وهنا يختلف مصور عن مصور، ويمتاز كاتب عن كاتب، فالعبرة في تركيب الصورة أو الشخصية المترجم لها من هذه المواد المتفرقة المبعثرة»[1].

وقال أيضاً:

«ولقد أخذت التراجم والسير العربية في القرن العشرين تنزع عنها أثواب القدم، وتخرج عن ذلك النهج الرتيب الذي سارت عليه خلال عصور التاريخ الإسلامي... ولم تعد الترجمة نقلاً لنصوص قديمة، وجمعاً لطائفة من المعارف في غير تبويب ولا تحليل ولا تركيب، والحق أن العبرة ليست بجمع الحقائق عن المترجم له، ولكن المهم هو عرضها آنق عرض، والمواءمة بينها في فن وحذق...

ولقد ظهر هذا التحول في كتابة التراجم في الأدب العربي الحديث في الثلث الثاني من هذا القرن، فظهرت «العبقريات» وطائفة أخرى من التراجم للمرحوم عباس محمود العقاد، وظهرت سير محمد ﷺ وأبي بكر وعمر للدكتور محمد حسين هيكل[2]، وظهر «عثمان» و«علي وبنوه» للدكتور طه حسين...

---

(١) «التراجم والسير»: ٦.

(٢) محمد بن حسين بن سالم هيكل. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية بمصر سنة ١٣٠٥ كاتب، صحفي، مؤرخ، من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة. تخرج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السوربون بفرنسا، تقلب في المناصب الصحفية والحكومية حتى صار وزيراً للمعارف ثم رأس مجلس الشيوخ. توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٦/١٠٧.



وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع... وتحللها على أضواء من علم النفس، وتبين في ذكاء ووعي أثرها في البيئة التي أخرجتها وأثر البيئة فيها، وتصور العوامل الفعالة المشتركة بين المترجَم له وعصره حتى يتضح أثر كل منهما في صاحبه.

واستقام المنهج لكتَّاب التراجم العربية المحدَثين حتى وهم يترجمون لحياة الفقهاء والأئمة من رجال الدين، فلم تعد الترجمة للإمام الشافعي مثلاً سرداً لأقوال العلماء والرواة فيه، أو حشداً لمجموعة من أخباره أو وصفاً لطائفة من أقواله وآرائه؛ ولكنها صارت دراسة لبيئة الإمام وفقهاً لمذهبه وتصويراً لحياته من خلال الأخبار المروية عنه، وتحليلاً للظروف التي أحاطت به مولداً ونشأةً وتعليماً ومدى أثرها في تقويم شخصيته وكسب خبراته ونشر مذهبه. ..»[1].

هـ ـ الحذر من الخيال:

المقصود بهذا النهي عن مسلك يسلكه من يعمل الأفلام والمسلسلات، إذ إنهم لإطالة مدة الفلم والمسلسل يُدخلون وقائع لم تُذكر في حياة المترجم في أيِّ مصدر بل يقرّون ويعترفون أنها من محض الخيال سداً لفجوات في الترجمة زعموا أنها لا تُسد إلا بذلك الصنيع، وهذا عندي لا يسوغ، وإن ساغ عند بعض الناس في الأفلام والمسلسلات، فإنه لا ينبغي أن يسوغ اتفاقاً في التراجم التي تُكتب لبيان أحوال المترجم لهم وسرد حياتهم، فهذا نوع من الكذب الظاهر، وتحميل صاحب الترجمة أموراً لا يحتملها ولم يعملها أو لم يقلها، فينبغي إذن إيراد الحقائق كما هي بدون زيادة ناشئة عن محض تخيل، وفي بعض هذا يقول الأستاذ محمد عبدالغني حسن:

---

(١) وذلك كصنيع الشيخ محمد أبو زهرة في ترجمته للأئمة الأربعة، وانظر «التراجم والسير»: ١٤ ـ ١٥.



«وكلمـا كانت الترجمة ـ في قسـميها الذاتي والغيري ـ أكثـر أناقة وعناية بالثوب البلاغي الذي تلفّ فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ؛ إلا أن الإسـراف في الصورة الأدبية التي يعرضها المترجم، والمبالغة في الفن الأدبي والروائي الذي يضفيه المترجِم على الشـخصية التي يترجم لها قد يبعده كثيراً عن الحقيقة والواقع الذي يجب أن يهـدف إليه والذي يجب ألَّا يضيع لاعتبار يتعلق بزخرف العبارة أكثر مما يتصل بلب الموضوع»[1].

و ـ إبراز خصائص المترجم له:

في كل ترجمة خصيصة أو أكثر ينفرد بهـا صاحب الترجمة على وجه ظاهر، فمن شـجاعة وإقدام، إلى زهد وتعبُّد وعرفان، إلى علـم وقوة حجة وبرهان، إلى حسن سياسة، إلى جميل لغة وبيان، وغير ذلك من المواهب التي خُصَّت بها كل ترجمة عن غيرها، فكاتب التراجم ينبغي له ألا يعمد إلى التعميم في التراجم التي يكتبها بل الذي ينبغي هو إظهار خصائـص كل ترجمة بارزة تدور عليها الترجمة حتى لا يبخس الناس مواهبهم وملكاتهم التي أنعم الله ـ تعالى ـ بها عليهم.

٢ ـ العلوم والصفات التي ينبغي أن تكون في المترَجِم[2]:

إن المتصدي لترجمة الناس ينبغي أن تكون فيه مجموعة علوم وصفات إذا عدمت أو ضعفت اختلَّت الترجمة، فمن ذلك:

أ ـ حد مقبول من الفهم لقواعد الشريعة:

إذ لا يصح أن يتصدى للتراجم الجاهل بالشريعة فيخبط خبط عشواء، وقد يَضِـلُّ فيُضل، وليس المقصود أن يكـون المرء عالماً فإن حصـل هذا كان هو

---

(١) «التراجم والسير»: ٩.

(٢) قد ذكرت بعض هذه النقاط الآتية بشـيء من التوسـع في الكتاب الثاني من هذه السلسلة: «إعداد المؤرخ الثقة».



الأفضل والأحسن، لكن المطلوب هو ألّا يكون جاهلاً بالقواعد الشرعية والضوابط المرعية جهلاً فاضحاً فيكون الثمن فادحاً، خاصة في التراجم المشكلة التي تحتاج إلى كلمة فصل في شأنها وحالها.

ب ـ حد مقبول من سلامة اللغة والبيان:

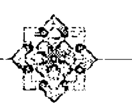
إن كاتب التراجم إن ضعفت لغته، وهزل أسلوبه، وساء نظمه أتى بالفاسد من الأساليب، والركيك من السياقات، ولربما فهم الناس من كتابته غير ما أراده، وغير ما هو عليه صاحب الترجمة، فينبغي أن يتوافر حدٌّ مقبول من الفهم لطرائق العربية والأساليب البلاغية والسلامة اللغوية، وإلا فاعتزال كتابة التراجم هو الأولى!!

ج ـ المعرفة بعصر المترجَم له:

إن المتصدي لكتابة ترجمة شخص ما عاش في عصر ما فلم يُحِطْ علماً بما في عصره من الأحوال الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية ـ ولو فيما تتعلق به حياة المترجَم له من هذه الجوانب على الأقل ـ فإنه ربما أساء لصاحب الترجمة أكثر مما يحسن له، ولم ينزِّله المنزلة اللائقة به، وهذا ـ أي: الإحاطة بعصر صاحب الترجمة ـ أمر لا بدَّ منه عندي، والله أعلم.

د ـ التوازن في شخصية المترجِم:

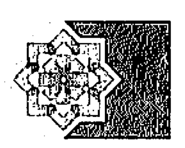
إن كاتب التراجم ينبغي له أن يكون ذا شخصية متوازنة يظهر فيها الإنصاف، والعدل، وحسن النظر في جوانب حياة المترجم له، وضبط ما يرد في الترجمة من مبالغة وتهويل، والفطنة في النظر إلى ما خلف السطور من معان لا تفصح عنها ظاهر الكلمات الواردة في سياق حياة المترجم له في كتب التاريخ، وحسن تخير المترجم له، وتقدير الفائدة التي ستعود على المسلمين من هذه الترجمة، وغير ذلك من الجوانب.



هـ ـ معرفة قواعد البحث العلمي:

على مَن يريد كتابة التراجم أن يفقه قواعد البحث العلمي على وجه يجنِّبه الخطأ في البحث عن التراجم وجمع متفرقاتها في الكتب، ثم يجنبه الضعف في كتابة الترجمة، فيحسن إخراجها للناس على وجه مقبول علمياً، وتحصيل هذا المطلوب أمر سهل؛ ففي المكتبة عدد من الكتب التي تدل المرء على قواعد البحث العلمي بأسلوب سلس واضح.

- هذه بعض الإرشادات الأولية اليسيرة التي قد تنفع المتصدر لكتابة التراجم الراغب في نشرها بين الناس، وفيما ذكرته من مباحث هذا الكتاب زيادات على ما أوردته ها هنا فيحسن قرنها بهذا الذي ذكرته، وفي الكتابين الأول والثاني من هذه السلسلة: «كيفية قراءة التاريخ وفهمه»، و«إعداد المؤرخ الثقة» جوانب قد تكون مهمّة في هذا الباب فيحسن ضمُّها ـ أيضاً ـ إلى ما ها هنا، والله الموفِّق.



خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

بعد هذا التطواف في رواق التراجم، والبحث في ذهب تلك المناجم، والتنقيب عن درر أولئك العظماء، الذين هم مقدمو العالم، وصفوة الأمم، وخلاصة أهل الملل، وكبراء البشرية، أهل النفوس الطاهرة العلية، وبعد النظر في أحوالهم، والتفتيش عن أخبارهم، والوقوف على حياتهم، أستطيع أن أقول التالي مطمئناً بإذن الله إلى قوله:

أولاً: إن تراجم الأمة الإسلامية لا يضاهيها تراجم أيِّ أمة من الأمم ظهرت في تاريخ البشرية منذ نزل آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى يومنا هذا، ما خلا الرسل والأنبياء وخُلّص أصحابهم.

ثانياً: إن هذه التراجم ما زالت مجهولة ـ في كثرتها الكاثرة ـ لأهل الأرض جميعهم مسلمهم وكافرهم، وهذا لا بدَّ من العمل على تلافيه حتى تستفيد البشرية من سيرة أولئك العظماء وترجع إلى هديهم.

ثالثاً: إن أكثر وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية قد ضَلّت عندما لم تنشر محاسن عظماء الملة، ولم تُقَرِّب إلى الأجيال سيرهم، فإفقاد الناس قدواتهم وإضلالهم عنها خطيئة وأيُّ خطيئة هي.

رابعاً: لا بدَّ من تعاضد جماعات من التربويين والدعاة والوعاظ وطلبة العلم ورجال الاجتماع والفكر والإعلام وتعاونهم على إحياء هذه التراجم



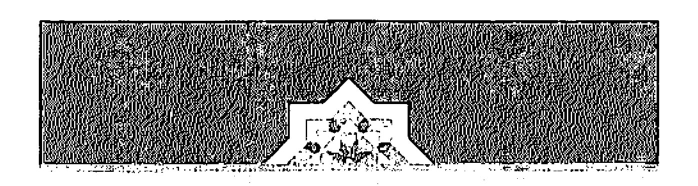
ونشـــرها بالوســـائل الحديثة المناســـبة للنشـــر حتى يهتدي بها شباب الأمة وشـــاباتها، وتكون لهم عوضاً عن الغثاء السائد الذي يُدعى بالرموز والنجوم والأبطال.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وأجَلُّ وأعظم، وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن العظيم.
- «إسلامية المعرفة»: مجلة معروفة: العدد ١٣.
- «الأعلام» خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٨٠.
- «حول المنهج في الكتابة التاريخية» د. عماد الدين خليل. بحث منشور في مجلة «إسلامية المعرفة» العدد ١٣ سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»: فضل الله المحبي. نشر دار صادر. بيروت.
- «الذيل على طبقات الحنابلة»: الإمام عبدالرحمٰن بن أحمد بن رجب. (ت ٧٩٥). تحقيق: د. عبدالرحمٰن بن سليمان العثيمين. نشر مكتبة العبيكان. الرياض.
- «سير أعلام النبلاء»: الحافظ الذهبي = محمد بن أحمد (ت ٧٤٨). نشر مؤسسة الرسالة. بيروت.
- «السيرة لعبة الكتابة»: خالد طحيطح. كتاب «المجلة العربية»: رقم ١٩٢
- «علم التراجم: أهميته وفائدته»: الدكتور إبراهيم الريس. الرياض. سنة ١٤٢٢.
- «فن السيرة»: محمد السيد عيد. نشر نادي تراث الإمارات. الطبعة الأولى سنة ٢٠١٣.
- «لسان المحدثين»: معجم يُعنى بشرح مصطلحات المحدِّثين القديمة والحديثة ورموزهم وإشاراتهم، وشرح جملة من مشكل عباراتهم وغريب تراكيبهم ونادر أساليبهم: تأليف محمد خلف سلامة: كتاب منشور في الشبكة العنكبوتية.
- «المصادر»: مجلة فصلية تُعنى بشؤون المقاومة الشعبية الجزائرية تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في وزارة المجاهدين بالجزائر.

- «مختصر كتـــاب الروضتين في أخبـــار الدولتين»: المختصر لواضع هذه الرســـالة، وكتاب «الروضتين» للإمام أبي شامة المقدسي. نشر دار الأندلس الخضراء. جدة.
- «المعجم الوسيط»: إعداد مجمع اللغة العربية. القاهرة.
- «منهج البحث التاريخي واســـتخدام التقنية الحديثة»: د. محمد محمود إدريس. نشر مكتبة المتنبي. الدمام. السعودية. سنة ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- «الموجز في مراجع التراجـــم والبلدان والمصنفات وتعريفـــات العلوم»: د. محمود محمد الطناحي. نشر مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- «نزهة الفضلاء تهذيب ســـير أعلام النبلاء»: النزهة لكاتب هذه الرســـالة، و«السير» للإمام الذهبي نشر دار الأندلس الخضراء. جدة.
- «ومضات فكر»: محمد الفاضل بن عاشور. نشر الدار التونسية للكتب. تونس.



الرسالة الرابعة

تعريف موجز بأشهر كتب التاريخ

مقدمـة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والســلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الرابع من سلســة «سلســلة التعريف بعلم التاريخ»، وقد سبقه ثلاثة كتب هي:

١ ـ كيفية قراءة التاريخ وفهمه.

٢ ـ إعداد المؤرخ الثقة.

٣ ـ التراجم وأثرها في السلوك الإنساني.

وهذا الكتاب أردتُه معرفاً بأشــهر كتب التاريخ مما هــو متداول بين أيدي الناس اليوم، وبهذه الكتب الأربعة الموجزة أرجو ـ إن شاء الله تعالى ـ أن أكون قد وُفِّقت في التعريف بعلم التاريخ لمبتدئ ناشــئ أراد سلوك هذا الطريق، أو لطالب علم ليس التاريخ من تخصصه فتكون هذه الكتب مُعِيْنة له على فهم ما يريده من ذلك العلم، أو لشــيخ طُلَعة عارف عالم فتكون هذه الكتب معينة له على الوقوف على أهم القواعد والضوابط والمعالم في ذلك العلم الشريف.

وأما هذا الكتاب الرابع من هذه السلســلة فقد جعلته للتعريف بأشهر كتب التاريخ، وإنما قلت: «أشــهر كتب التاريخ»؛ لأن عــدد الكتب التي صنفت في التاريخ لا يحصيه إلا الله تعالى، فمنه المفقود وهــو عدد ضخم هائل، ومنه ما هو مخطوط وهو ـ أيضاً ـ عدد هائل، ومنــه المطبوع، وكثير من ذلك المطبوع ليس بمشــهور ولا كثير التداول، فعمدت إلى المطبوع فقــط من كتب التاريخ



فعرفت بأشهره ـ فيما أرى ـ وأحقه بالتعريف، وإن رأيتُ كتاباً في التاريخ ليس بمشتهر لكنه حقيق بأن يكون كذلك وأن يُعرف ويتداول عرفت به رجاء أن أكون سبباً في تعريف الناس بذلك الكتاب فيتداولونه نشراً وقراءة.

واكتفيت بالمطبوع دون المخطوط؛ فإن المخطوط لا يرقى إلى درجة أن يكون مشهوراً اليوم، وفي كتب التاريخ المطبوعة غُنية عنه.

وابتدأت هذا الكتاب بسيرة ابن هشام تيمُّناً بسيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ فسيرته ـ بأبي هو وأمي ـ أحق ما أستفتح به كتابي هذا، ثم أتيت على ما هو مشهور حسَب تتابع القرون الأول فالأول حتى انتهيت إلى عصرنا هذا، وكان منهجي في إيرادي تلك الكتب على النحو التالي:

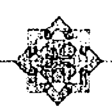
١ ـ عَرّفت بمصنِّف الكتاب بإيجاز.

٢ ـ بيَّنت أهمية الكتاب، وسردت بعض أقوال مَن أشاد به.

٣ ـ بيَّنت منهج المصنف في كتابه بإيجاز.

٤ ـ بيَّنت بإيجاز جوانب النقص في الكتاب، إن كانت ظاهرة، وينبغي بيانها وإلا طويت ما وجدت فيها من نقص لا يؤثر على أهمية الكتاب وجودته.

هذا وليُعلم أني أتيت بكثير من مادة هذا الكتاب مما استفدت من قراءتي في تلك الكتب وتراجم مصنفيها، واستفدت أيضاً في كثير من مادة هذا الكتاب من الأساتذة المحققين الذين درسوا الكتب التي أوردتها ونقدوها نقداً حسناً متيناً، والاستعانة بأعمال الآخرين المتميزة بجودتها وقوتها أراها عملاً مناسباً في التصنيف؛ إذ لا بدَّ من اعتماد اللاحق على السابق، والبدء من حيث انتهى، وليس من العدل أن تُترك دراسة مهمة بذل فيها المصنف سنوات عديدة من حياته ومحاولة دراسة ما درس، فهذا أراه من العبث العلمي وتضييع الأوقات،



لكني إن استفدت شيئاً من أولئك الدارسين ذكرت ذلك بوضوح دون لَبْس، وحسبي أني أتيت على دراستهم تلك بإيجاز، وأوردت أحسن وأهم ما في دراستهم فيما أرى، والله أعلم.

- ولقد سلكت في كل ما أوردتُه طريق الإيجاز، من دون خلل ولا تقصير في الإتيان على أهم جوانب الكتاب، إلا ما استولى على جملة البشر من سهو ونسيان، أو ما كان من شأنهم من تقصير أو عجلة أو نقصان، والله تعالى هو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه حامداً مصلّياً

العبد المذنب الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
mhmalshareef@gmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

سيرة ابن هشام

المسمى «السيرة النبوية»، وهي تلخيص لكتاب ابن إسحاق[1] مع إضافات أضافها مؤلفها ابن هشام، وقد وصله كتاب ابن إسحاق من رواية تلميذه زياد بن عبد الله البكائي[2].

المؤلِّف:

هو عبد الملك بن هشام بن أيوب السدوسي وقيل: الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد العلَّامة النحوي الأخباري، نزيل مصر. هذب السيرة النبوية. توفي سنة ٢١٨هـ رحمه الله تعالى.

أهمية الكتاب:

تكمن أهمية الكتاب في الجوانب التالية:

١ ـ سيرة ابن هشام هو أول كتاب وصل إلينا كاملاً في سيرة النبي ﷺ؛ إذ كتب السيرةَ قبله ابن إسحاق لكن كتابه هذا فُقد أكثره فلم يصل إلينا إلا قطعاً صغيرة منه، منها قطعة في (٣٠٠) صفحة في القرويين بفاس، وأخرى في الظاهرية بدمشق[3] أما كتاب ابن هشام فقد وصل إلينا كاملًا.

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبي بالولاء، المدني نزيل العراق. إمام المغازي، صدوق يدلس ورمي بالتشيع والقدر. مات سنة ١٥٠. «التقريب»: ٤٦٧.

(٢) زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكّائي، أبو محمد الكوفي. صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين. مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين، رحمه الله. انظر «التقريب»: ١/٢٢٠.

(٣) انظر «تاريخ التراث» لفؤاد سزكين: م١ ج٢ ص٨٩.



٢ ـ هو مختصر من كتاب ابن إسحاق، وأضاف ابن هشام عليه إضافات، أما الاختصار فقد كان ابن إسحاق قد جمع كتابه للخليفة المهدي العباسي، بأمر أبي جعفر المنصور، فذكر فيه أخبار الخليقة منذ آدم عليه الصلاة والسلام حتى وفاة النبي ﷺ، فأسقط منها ابن هشام ما كان قبل إسماعيل عليه الصلاة والسلام وما لا يخص آباء النبي ﷺ من أخبار أبناء إسماعيل، وما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، وأزال ابن هشام من كتاب ابن إسحاق ما لم يكن ينبغي أن يكون فيه، وقد عبر عن ذلك بقوله:

«وأنا ـ إن شاء الله ـ مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ وما يعرض من حديثهم، وتاركٌ ذكرَ غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة؛ للاختصار، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ.

وتاركٌ بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لِما ذكرت من الاختصار.

وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها.

وأشياءَ بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرَّ لنا البكائي بروايته، ومستقصٍ ـ إن شاء الله تعالى ـ ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به»[1].

وبهذا العمل الجليل حفظ لنا ابن هشام أصل كتاب ابن إسحاق فكأنه لم يُفقد، بل أزال منه أشياء وأضاف إليه أشياء فأثرى الكتاب الأصل ورفع قدره بعمله هذا.

---

(١) «السيرة النبوية»: ١/١٨ ـ ١٩.



٣ ـ ابن هشــام علم من أعــلام اللغة، وأســتاذ من أســاتذة الشــعر والبلاغة والفصاحــة، وكتابه هذا جاء على نهج مصنفي الســلف ممــن لم تدركهم عجمة، ولم يعبهم لحن، وليس في كتابه حشــو، ولا يعيبه ما حرص عليه المتأخرون من التأنق في الألفاظ تأنقاً قد يجور على المعاني، ومن السجع الثقيل البارد، ومن الإغراق في المحســنات اللفظية، ليــس في كتاب ابن هشــام كل ذلك، ولهذا يُنصح بقراءته كل من يريد أن يتعلم طرائق السلف في الكتابة، وكل مبتغ تحسين أسلوبه وعباراته، وأن يأتي بذلك على وجه سليم جزل رصين.

أقوال العلماء في أهمية الكتاب:

١ ـ قال اليافعي[1]: «إن ابن هشــام قد هذَّب الســيرة ولخصها لكونه كان أديباً نسّابة».

٢ ـ وقال الأستاذ عبدالسلام هارون[2] رحمه الله:

---

(١) عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي، عفيف الدين. مؤرخ، باحث، متصوف، من شافعية اليمن. نسبته إلى يافع من حمير. مولده سنة ٦٩٨ في عدن ونشأ بها. حج سنة ٧١٢هـ وعاد إلى اليمن ثم رجع إلى مكة سنة ٧١٨ فأقام بها إلى أن توفي رحمه الله سنة ٧٦٨. انظر ترجمته في «الأعلام»: ٧٢/٤.

(٢) عبدالسلام محمد هارون، شيخ المحققين. ولد في الإسكندرية سنة ١٩٠٩/١٣٢٦، وقد عني أبوه بتربيتــه وتعليمه، فحفظ القــرآن الكريم وتعلــم مبادئ القــراءة والكتابة، والتحق بالأزهر ســنة ١٩٢١/١٣٤٠ حيــث درس العلوم الدينيــة والعربية، ثم التحق بتجهيزيــة دار العلوم بعد اجتيازه مسابقة للالتحاق بها، وكانت هذه التجهيزية تعد الطلبة للالتحاق بمدرسة دار العلوم، وحصل منها على شــهادة البكالوريا ســنة ١٩٢٨/١٣٤٧ ثم أتمّ دراســته بدار العلوم العليا، وتخرج فيها سنة ١٩٤٥/١٣٥١م.

وبعد تخرجه عمل مدرّسًــا بالتعليم الابتدائي، ثم عُيّن في ســنة ١٩٤٥/١٣٦٥ مدرسًــا بكلية الآداب بجامعة الإســكندرية، وهذه هي المرة الوحيــدة في تاريخ الجامعات التــي ينتقل فيها مدرس من التعليم الابتدائي إلى السلك الجامعي، بعد أن ذاعت شــهرته في تحقيق التراث، ثم عُيّن في سنة ١٩٥٠/١٣٧٠ أستاذًا مســاعدًا بكلية دار العلوم، ثم أصبح أستاذًا ورئيسًا لقسم النحو بها، ثم دعي مع نخبة من الأساتذة المصريين في ســنة ١٩٦٦/١٣٨٦ لإنشاء جامعة الكويت، وتولى هو رئاسة =

تناول ابن هشام جوانب سيرة ابن إسحاق بكثير من التحرير والاختصار والإضافة والنقد أحياناً والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء كذلك، وقد ساق في صدر السيرة بعض منهجه لرواية ذلك الكتاب.

ونحن لا نشك مع ذلك أن ابن هشام كان ملتزماً جانب الأمانة والحرص في رواية كتاب ابن إسحاق، لم يبدل منه كلمة واحدة، ولم يزد كلمة لبيان الخطأ أو شرح الغامض أو معارضة الروايات إلا صدَّرها بقوله: «قال ابن هشام».

وأما الاختصار فإنه كان المقصد الأساسي في روايته للسيرة، فحذف ما كان قبل تاريخ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، منذ بدء الخليقة، وكذا حديث أبناء إسماعيل، والأخبار التي ليست من السيرة في شيء ـ فيما كان يراه هو ـ وحذف الأشعار الكثيرة التي كان يشك في مبلغ روايتها من الصحة.

والمتعقب لأصل السيرة من رواية ابن هشام يلمح في ذلك طابع الحرص الشديد والأمانة الصارمة، التي كانت سمة العلماء المسلمين في تلك العصور القديمة...

نقد الكتاب:

تابع ابن هشام ابن إسحاق في سيرته على بعض الأخطاء،، منها ما ذكره من أن أصحاب الرجيع ستة نفر، وهم في البخاري عشرة، وأن أصحاب بئر معونة أربعون رجلاً، وهم في البخاري سبعون، وما ذكره من مؤاخاة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه فقد أنكر ذلك ابن كثير في «البداية والنهاية»: ٢٢٧/٣، كما أنكر ما ذكره من مؤاخاة جعفر ومعاذ رضي الله عنهما، قال: «وكان جعفر في الحبشة زمن وقوع المؤاخاة».

= قسم اللغة العربية وقسم الدراسات العليا حتى سنة ١٩٧٥/١٣٩٤، وفي أثناء ذلك اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٩/١٣٨٩. ثم صار أميناً عاماً له بعد ذلك. له أكثر من ١١٥ عملاً علمياً بين تأليف وتحقيق، ونال جائزة الملك فيصل سنة ١٤٠٢. توفي رحمه الله سنة ١٩٨٨/١٤٠٨. انظر موقع إسلام أونلاين في «الإنترنت».

وقد نقد بعض المعاصرين عمل ابن هشام، فمنهم:

١ ـ د. حسين مؤنس[١] حيث قال:

«أصبحت سيرة محرفة مبسترة ومعدلة»[٢].

ونقْدُه هذا لم ينصف فيه، ولا دلالة فيه على عيب بعينه في الكتاب بل فيه تعميم معيب.

٢ ـ حسن عيسى الحكيم[٣] حيث قال:

«وقد وقفت على نصوص حذفها ابن هشام غاية في الأهمية في كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لعبدالرحمٰن بن علي المعروف بابن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧هـ[٤] منها رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي في السَّنَة السادسة للهجرة، وقد أرسلها له بيد عمرو بن أمية الضمري، وهي بشأن وفاة جعفر بن أبي طالب وأصحابه.

---

(١) ولد حسين مؤنس في مدينة السويس سنة ١٩١١/١٣٢٩م. نشأ في أسرة كريمة، وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، فشبَّ محبّاً للعلم، مفطورًا على التفوق والصدارة، حتى إذا نال الشهادة الثانوية في التاسعة عشرة من عمره جذبته إليها كلية الآداب بمن كان فيها من أعلام النهضة الأدبية والفكرية، والتحق بقسم التاريخ، ولفت بجده ودأبه في البحث أساتذته، وتخرج سنة ١٩٣٤/١٣٥٢، متفوقًا على أقرانه وزملائه، ثم حصل على درجة الماجستير برسالة عنوانها «فتح العرب للمغرب» سنة ١٩٣٧/١٣٥٥. حصل على دكتوراه الآداب من جامعة زيورخ بسويسرا عام ١٩٤٣، ظل حسين مؤنس وافر النشاط متوقد الذهن على الرغم من كبر سنه، وضعف قدرته على الحركة، وملازمته للمنزل حتى لقي الله في ٢٧ شوال ١٤١٦هـ الموافق ١٧ مارس ١٩٩٦م: «ويكيبيديا»، «الإنترنت».

(٢) «هامش التمدن الإسلامي»: ١٠٧/٣ نقلًا عن مقالة باسم: «محمد بن إسحاق وريادته في تدوين السيرة النبوية» للدكتور حسن عيسى الحكيم.

(٣) أحد أساتذة التاريخ العراقيين المعاصرين، وهو من طائفة الشيعة.

(٤) الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزيّ، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق ﷺ، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأساً في التذكير بلا مدافع، وصنف مصنفات كثيرة في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة، وله حكم كثيرة وأقوال شهيرة، توفي سنة ٥٩٧ ببغداد. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٥/٢١ ـ ٣٨٤.



والرسالة التي بعثها ﷺ إلى هرقل بيد دحية بن خليفة الكلبي والتي أشار إليها ابن هشـام ولكنه لم يذكر مضامينها ومحتوياتها، وكان ابن هشام قد وجه نقداً لابن إسحاق حول إغفاله سرية عمرو بن أمية الضمري التي أرسلت لقتال أبي سفيان في حين أن ابن الجوزي أورد هذه السرية في كتاب «المنتظم»[1].

ونقـده هذا لابن هشـام لا وجه لـه؛ فمن أين لـه أن ابن هشـام حذف تلك النصوص، إذ ربما لم يقف عليها في كتاب ابن إسحاق من رواية البكائيّ أو أنه ترك إيرادها عمداً لسـبب رآه، أو لغير ذلك، وقد رجعت إلـى «المنتظم» لأنظر في أمر إيراد ابن الجوزي رحمه الله لحادثة إرسـال النبي ﷺ عمرواً إلى النجاشـي على ـ سبيل المثال ـ فلم أجد أن ابن الجوزي أورد تلك الحادثة بإسـناد أصلاً لا عن طريق ابن إسحاق ولا غيره، فلا أدري كيف حكم الأستاذ على ابن هشام بذلك الحكم؟

منهج المصنِّف في كتابه:

بدأ المصنف في كتابه بذكر النسب الأعظم للرسول الأكرم محمد ﷺ فساقه إلـى آدم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسـلام ـ وذكر بعض الخلاف في نسـبه خاصـة بعد عدنـان، وهذا أمـر معلـوم، لكن المقطـوع به أنه ﷺ مـن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

ثم جرى المصنف علـى المعلوم من كتابة الأوائل للسـير إذ جاء بالمولد الشريف، ثم أتى بأحداث السـيرة على ترتيبها الزماني إلى أن أتى على انتقال النبي ﷺ للرفيق الأعلى، وما جرى بعده من خلافة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وأرضاه.

ولم يُعن المصنف بما عُني به منَ بعده من إيراد العبر والعظات، واستنباط الأحكام، فهذا المنهج لم يكن معروفاً في زمانه، والله تعالى أعلم.

---

(١) «السيرة النبوية»: ١/٢٩٧.

- وقد طبعت سيرة ابن هشام لأول مرة في (غوتنغن) سنة ١٨٥٨م بعناية الألماني ووستنفلد، ثم طبعت طبعات عديدة بعد ذلك.
- ولقد شرح كتابه الإمام أبو القاسم السُّهيلي[١] في كتابه المشهور: «الروض الأنف».
- ولقد هذَّب سيرته تلك الأستاذ المحقق عبدالسلام هارون وهي متداولة بين أيدي الناس اليوم وتعادل ربع الكتاب الأصل تقريباً، واستبعد فيه ما ليس له صلة بصميم السيرة النبوية، مثل أسماء أسارى بدر، وأسماء خيل المسلمين ببدر، وأشباه ذلك من الأمور السردية والأشعار المسهبة والأنساب المطولة والاستطرادات اللغوية. قال: «ولم أذكر من الإسناد إلا ما هو ضروري لإقامة النص، وعنيت بضبط تلك النصوص جميعاً، وأن أفسر منها ما يحتاج إلى توضيح معتمِداً في ذلك على شُرَّاح السيرة».

---

(١) الشيخ أبو القاسم وأبو زيد عبدالرحمٰن بن عبدالله بن أحمد السهيلي الإمام المشهور. ولد سنة ٥٠٨ بمالقة. وكان صاحب تصانيف كثيرة ممتعة، وأشعاره كثيرة. وكان ضريراً. توفي رحمه الله بمراكش سنة ٥٨١، وكان صاحبها قد طلبه فمكث عنده ثلاث سنوات مكرماً. انظر «وفيات الأعيان»: ١٤٣/٣ ـ ١٤٤.

تاريخ الطبري

المسمى: «تاريخ الأمم والرسل والملوك»

ترجمة المصنف:

هو محمد بن جرير بن يزيد، الإمام العَلَم الكبير المجتهد، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان، وُلد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي ببغداد سنة٣١٠هـ رَحِمَهُ اللهُ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/٢٦٧ ـ ٢٨٢.

أهمية الكتاب:

١ ـ كتاب ابن جرير من كتب التاريخ العام؛ أي: التي يذكر مصنفوها الوقائع منذ بدء الخليقة إلى زمانهم، وهو بهذا أول كتاب وصل إلينا على هذا النحو من الشمول، ولهذا جاء ضخماً في عدة مجلدات.

وقد صار بهذا أصلاً اعتمد عليه كثير من المؤرخين بعده.

٢ ـ ساق المصنف أخبار كتابه بالسند المتصل ـ غالباً ـ إلى رواتها الذين شاهدوها أو نقلوها، وهو بهذا يؤسس لمنهج المسلمين المتفرد في نقل الأخبار بالسند، وهذا لم يكن في أمة من أمم الأرض ـ على هذا النحو ـ إلا لأمة الإسلام، وفي هذا يقول في مقدمة كتابه:

«وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أُدرك بحجج العقول واستُنْبِطَ بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه».



٣ ـ كتابه هذا شامل لأمة الإسلام من آدم عليه الصلاة والسلام إلى زمانه، وشامل كذلك للأمم الأخرى شمولاً لا بأس به، وإن لم يستقص أخبارها؛ فإن هذا مما لا يُدرك ولا يستطاع، ولا هو في مُكنة البشر في زمان الطبري رحمه الله.

منهج المصنف في كتابه:

١ ـ بدأ المصنف كتابه بذكر أخبار الخليقة فذكر بدء الخلق، ثم تواريخ الأنبياء، وأشهر الحوادث التي وقعت في زمانهم ـ صلوات ربي وسلامه عليهم ـ وذكر الملوك الذين عاصروهم وأخبارهم، وأخبار الأمم التي عاصرتهم، وذلك إلى بعثة المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

٢ ـ أما بعد هجرة النبي ﷺ فإن المصنف ساق أخبار كتابه هذا حسب السنين التي وقعت فيها تلك الأخبار فيأتي على أخبار كل سَنَةٍ إلى أن يصل إلى سنة ٣٠٢، وهذا أدى إلى «تجزئة الأحداث التاريخية وتوزيعها بين السنين، لأنه رتب التأريخ ترتيبًا حولياً، ولذلك تراه يترك الحديث عن واقعة معينة ثم يعود إليها بعد حين، فلا تكتمل الصورة بل تتجزأ بين السنين»[1].

٣ ـ تتنوع الأخبار التي ساقها الطبري إلى موجزة ومطولة بحسب أهميتها عنده، وفي بعض السنوات يطيل في ذكر أخبارها حتى تبلغ قرابة المائة صفحة، وفي بعضها الآخر يوجز حتى تبلغ بضعة أسطر، وذلك كله بحسب أهمية الأخبار المروية عن تلك السَنَة.

٤ ـ وفي نهاية كل سنة يورد الطبري أسماء من توفي فيها ـ غالباً ـ وأسماء أمراء الحج وعمال الأقاليم، ويذكر نتائج المعارك الإسلامية من فتح الحصون وأخبار المرابطين في الثغور وغير ذلك.

---

(١) «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة ص ٣٧.



٥ ـ يورد الرسائل والخطب ويكثر منها، ويورد الأشعار الكثيرة، وبعضها لا يوجد اليوم إلا في كتابه[١].

٦ ـ يورد تواريخ الأمم الأخرى بأمانة واستفاضة ـ أحياناً ـ وبرع في تدوين تاريخ الفرس والروم على وجه الخصوص، وقال الأستاذ شاكر مصطفى رحمه الله[٢] في هذا الصنيع:

«كان دقيقاً في تاريخ الروم دقة تدعو إلى العجب مع قلة المصادر حوله في هذا الموضوع، فقد ذكر أباطرة الروم والرومان قبلهم حتى عصر هرقل وهم واحد وستون عدا من اشتركوا مع أبنائهم وغير أبنائهم، ومدة حكمهم جميعاً ستة قرون وبضع سنوات، ويدهش الباحث من صحة المعلومات التي أوردها ومن دقتها وترتيبها»[٣].

وقال الأستاذ عبدالهادي أبو طالب المدير العام السابق للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو»:

«تعددت جوانب المعرفة لدى الطبري، فكان مؤرِّخاً عظيماً يفهم حركة الأحداث، ذا قدرة على ربطها وتفسيرها، لم يحصر تاريخه في زمان خاص أو بلاد واحدة فجاء كتابه امتداداً لتاريخ البشرية جغرافيّاً وزمانيّاً، لم يؤرخ للعرب وحدهم وإنما أرخ للروم واليونان والترك وفارس والهند والصين، وظل كتابه

---

(١) المصدر السابق: ص ٨٩.

(٢) مؤرخ، أديب، ولد بدمشق سنة ١٣٤٠/١٩٢١، وتخرج في مدرستها التجهيزية وفي دار المعلمين. شارك في الحركة الوطنية وساعد الثوار ضد الفرنسيين وتعرض لأذاهم، نال إجازة التاريخ من مصر والدكتوراه من سويسرا. وأجاد الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية، وعيّن في وظائف في السلك التعليمي والسياسي، وصار سفيراً في كولومبيا والبرازيل، ثم صار وزيراً للإعلام، ثم انتقل إلى الكويت وعُين في وظائف عليا فيها. له أكثر من خمسين كتاباً. توفي بدمشق سنة ١٤١٨/١٩٩٧. انظر «إتمام الأعلام»: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٢٥٦ نقلًا عن المصدر السابق.

في التاريخ المرجع الأساسي الذي يعتمد عليه كل باحث في سنن التاريخ لسعة مادته وتنوعها، ولغزارة مضمونه، وعلوّ نَفَس مصنفه...»[1].

وكلام الأستاذ عبدالهادي حق إلا قوله: «ذا قدرة على ربطها وتفسيرها» فإن هذا لا يظهر في تاريخ الطبري، وليس زمانه زمان ربط للأحداث التاريخية وتفسيرها، وسيظهر خطل هذا التقرير في الصفحات القادمة.

نقد الكتاب:

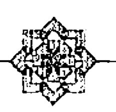
١ ـ الإمام ابن جرير محدث كبير الشأن، وقد ساق أخبار كتابه بالسند، لكنه ساق أخباراً مستشنعة، ظاهراً بطلانها، لائحاً كذبها، خاصة ما تعلق من الأخبار بزمن الفتن بين الصحابة ﷺ وزمن صدر الإسلام، وفي تلك الأخبار شبهات طاعنة في أصول الإسلام، وحجته في سوقها أنه أوردها بالسند فبرئت عهدته منها، وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه:

«فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلنا، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا»[2].

وليته لم يصنع هذا، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قد أملى كتابه على طلبة علم يعرفون الباطل من الأسانيد، ويدركون الفاسد من الأخبار، ومن قرأ كتابه من أهل زمانه فمن بعدهم كان ـ غالباً ـ عارفاً بفساد تلك الأخبار وبطلان أسانيدها، أما المتأخرون من أهل القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر إلى زماننا هذا فقلّما يدركون ما أدرك أسلافهم من فساد تلك

(١) من الكلمة التي ألقاها في افتتاح ندوة الإمام الطبري في القاهرة سنة ١٤٠٩/١٩٨٩. ونقلتها من كتاب «صحيح الإمام الطبري»: المقدمة: ٩٢.

(٢) مقدمه المصنف: ص ٩.



الأخبار فقد عمَّ الجهل بقواعد الجرح والتعديل وطمّ، وتعدى العوامَّ إلى كثير من الخواص وطلبة العلم.

ولقد عُني المستشرقون بالكتاب فخدموه وطبعوه مبكراً لينالوا بُغيتهم من الطعن في دين الإسلام، فإذا خافوا ملامة أو عتاباً أحالوا على تاريخ الطبري وظنوا أنهم بهذا قد برئت ذمتهم من التشويه المتعمد ـ في أكثر الأحيان ـ لتاريخنا، ولقد تبعهم طائفة من الأساتذة من بني جلدتنا فأوردوا المستشنع المستغرب من الأخبار ثم أحالوها على تاريخ الطبري، وهذا عمل غير علمي ولا دقيق، بل هو عمل حاطب ليل وسائس خيل لا عمل أساتذة التاريخ المحققين.

٢ ـ أورد الأخبار التي رواها الكذابون المشهورون بالكذب مثل الكلبي[١] وسيف بن عمر[٢] ولوط بن مخنف الأزدي[٣]، وهذا مما أضعف كتابه هذا خاصة أنه لم ينقدها ولم يبيِّن عوارها، وأيضاً أوردها في أخبار الفتن التي لا يُقبل فيها إلا الأخبار الصحيحة.

وفي ذينك الجانبين من تاريخه يقول الأستاذ شاكر مصطفى، رحمه الله:

«كان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في برود عقلي واضح»[٤].

---

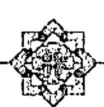
(١) هشام بن محمد بن السائب الكلبي، أبو المنذر الأخباري النسابة العلامة. روى عن أبيه أبي النضر الكلبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة. قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه. وقال الدارقطني وغيره: متروك. وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة. وقيل: إن تصانيفه أزيد من مائة وخمسين مصنفاً. مات سنة أربع ومائتين. وكان واسع الحفظ جدّاً. انظر ترجمته في «لسان الميزان»: ١٩٦/٦.

(٢) سيف بن عمر الأسدي التميمي، من أصحاب السير. كوفي الأصل. توفي ببغداد سنة ١٨٠. من كتبه «الجمل» و«الفتوح الكبير» و«الردة». انظر «الأعلام»: ١٥٠/٣.

قال فيه ابن حجر: ضعيف في الحديث، عمدة في التأريخ.

(٣) لوط بن يحيى، أبو مخنف. أخباري تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف، وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء، وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم. مات قبل السبعين ومائة. انظر «لسان الميزان»: ٤٩٢/٤.

(٤) «التاريخ العربي»: ٢٥٩.



وقال الأستاذ صادق المزوري:

«إن الطبري عُرف كإمــام ثقة في الفقه والتفســير والحديث، فلما أن كتب تأريخه الضخم وانتشر بين الناس بعد وفاته أعطى الناس لمروياته تمام الثقة»، وعلق على هذا مؤلف كتاب «صحيح تاريخ الطبري» بقوله:

«ولم ينتبهوا إلى تحذيره ـ أي: الطبري ـ من الأخذ بكل ما جاء في تأريخه، فلم يعتدّ الناس بما في مقدمة تأريخه ولكن أخذوا بعين الاعتبار أنه محدث ثقة حافظ فصدقوا كل ما في تأريخه، وتلك مصيبة تركــت أثرها في كتابة التأريخ الإسلامي إلى يوم الناس هذا»[١]

قال العلامة ابن خلدون[٢]، رَحِمَهُ اللهُ:

«كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهــم فيها على مجرد النقل غثاً أو ســميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظــر والبصيرة في الأخبار، فضَلُّوا عــن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط...»[٣]

٣ ـ ســاق ابن جرير الأحداث بروايات متعددة في كثير من الأحيان لكنه تركها غُفلاً من الترجيح، فلم يرجِّح رواية على أخرى إلا نادراً، وبذلك يقع قارئ التاريخ في حيرة وعماية فلا يعود يدري أين الحق في تلك الأخبار.

(١) «صحيح تاريخ الطبري» المقدمة ص ٣٦.

(٢) هو الشيخ عبدالرحمٰن بن محمد بن محمد، ولي الدين، أبو زيد الحضرمي، الإشبيلي الأصل التونسي ثــم القاهري المالكي. ولد بتونس ســنة ٧٣٢، وحفظ القرآن وعدة كتب، وطلب العلم على مشــايخ عدة، واعتنى بالأدب، وحفظ عدداً من دواوين الشــعر، وارتحل إلى عــدة بلدان، وصارت عليه أمور حتى قدم القاهرة ســنة ٧٨٤ فأكرم وولي قضاء المالية بالديار المصرية. ألّف تاريخاً وقدم له بمقدمة اشتهرت بـ «مقدمة ابن خلدون». توفي بالقاهرة سنة ٨٠٦. انظر «الضوء اللامع»: ١٤٥/٤ ـ ١٤٩.

(٣) انظر «مقدمة ابن خلدون» أول القسم الأول ص ٣.



٤ ـ جرى المصنِّف في تأليف الكتاب على سنن المتقدمين في الاستطراد والتطويل وذكر مختلف الروايات، وهذا يجعل قارئ الكتاب يقفز ذهنه من موضوع إلى آخر حتى ربما نسي الموضوع الأول الذي استطرد منه المصنف وتشعب.

٥ ـ أورد الإسرائيليات في كتابه في تاريخ الأمم قبل أمة النبي ﷺ، وأورد بعض الخرافات، وحدد عمر الدنيا من أخبار بني إسرائيل في تجاوز واضح ومخالفة شرعية؛ فإن الله ـ تعالى ـ لم يطلع على عمر الدنيا أحداً من البشر[1].

وبعد توجيه كل هذا النقد لكتاب الإمام الطبري لا بدَّ من القول: إنه موسوعة مبسوطة لا غنى لأحد من المؤرخين والمهتمين بالتأريخ عنها، ولعل ما صدر حديثاً من تصحيح وتضعيف لأخبار الكتاب في طبعة دار ابن كثير بعنوان «صحيح تاريخ الطبري» و«ضعيف تاريخ الطبري» يعالج ما ورد من نقص في ذلك السِّفْر النفيس، وقد قال محقق أخبار الكتاب الأستاذ محمد بن طاهر البرزنجي:

«بالرغم من كل ما وُجه إلى منهج الطبري في تأريخه يظل الإمام الطبري عملاقاً يتربع على قمة كتابة التأريخ، ولا يدرك دقة الطبري وأمانته العلمية تماماً إلا من درس تأريخه فقرةً فقرة، وخرّج رواياته روايةً رواية، ولاحظ عباراته عبارةً عبارة، فجزاه الله عن المسلمين وتاريخهم خير الجزاء»[2]

أقوال العلماء في كتابه:

١ ـ قال المسعودي[3][4]:

«وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلَّفات،

---

(١) من الصفحة القادمة.

(٢) «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة: ص ٥٧.

(٣) «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) هو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبدالله بن مسعود ﷺ. مؤرخ، رحالة، =



والزائد على الكتب المصنفات، فقد جمع أنــواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشــتمل على صنوف العلم، وهو كتاب تكثر فائدته، وتنفع عائدته، وكيف لا يكــون كذلك؟! ومؤلِّفــه فقيه عصره، وناســكُ دهره، إليه انتهــت علوم فقهاء الأمصار، وحملة السنن والآثار»[1].

٢ ـ وقال الخطيب البغدادي[2]:

«وله الكتاب المشهور في تأريخ الأمم والملوك»[3].

٣ ـ وقال ابن خلكان[4]:

«تأريخه أصح التواريخ وأثبتها»[5]

وكلامه هذا فيه مبالغة واضحة.

= بحاثة، من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفــي فيها. قال الذهبي: «عداده في أهل بغداد، نزل مصر مدة، وكان معتزلياً». له عدة تصانيف، وكان يميل إلى شــيء من التشــيع. توفي رحمه الله سنة ٣٤٦. وانظر «الأعلام» ٢٧٧/٤.

(١) كتاب «مروج الذهب للمسعودي»: الجزء الأول ١٥/١.

(٢) الإمام العلامــة المفتي الحافظ الناقد، محدث الوقت، أبو بكــر أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي، صاحب التصانيف. ولد ســنة ٣٩٢، واعتنى بشــأنه حتى صار أحفــظ أهل عصره على الإطلاق، وكان من كبار الشــافعية، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ٤٦٣ ببغداد، ورحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٧٠/١٨ وما بعدها، و«الأعلام»: ١٧٢/١.

(٣) «تاريخ بغداد»: ١٦٢/٢، ونقلته من «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة.

(٤) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكيّ الإربلي، أبو العباس. المؤرخ الحجة، والأديب الماهر، صاحب «وفيات الأعيــان وأنباء أبناء الزمان» وهو أشــهر كتب التراجم. ولد في إربل ـ بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي سنة ١٢١١/٦٠٨ وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها. ســافر إلى دمشــق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشــام، وعزل بعد عشر سنين، فعاد إلى مصر فأقام ســبع سنين، ورُدّ إلى قضاء الشام، ثم عزل عنه بعد مدة. ولي التدريس في كثير من مدارس دمشــق، وتوفي فيها فدفن في سفح قاسيون ســنة ١٢٨٢/٦٨١ رحمه الله. يتصل نسبه بالبرامكة. انظر «الأعلام»: ٢٢٠/١.

(٥) «وفيات الأعيان»: ١٩١/٤، ونقلته من «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة.



٤ ـ وقال ابن الأثير[1] في مقدمة كتابه «الكامل»:

«هو الكتاب المعوّل عليه عند الكافة، والرجوع إليه عند الاختلاف».

وكذلك ها هنا مبالغة لا تُقبل على عمومها في قوله: «والرجوع إليه عند الاختلاف».

٥ ـ وقال ياقوت الحموي[2]:

«وهذا الكتاب من الأفراد في الدنيا فضلاً ونباهة، وهو يجمع كثيراً من علوم الدين، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة»[3]

٦ ـ وقال حاجي خليفة[4]:

«وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم»[5].

ـ هذا وقد تُرجم الكتاب إلى الفارسية في القرن الرابع، ثم ترجم إلى التركية من الفارسية وطبعت الترجمة، وترجم من الفارسية إلى الفرنسية

---

(١) المبارك بن محمد الجزري ثم الموصلي، القاضي الرئيس العلامة البارع. ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤، وتنقل في وظائف الدولة الكتابية، وكان له اليد البيضاء في الترسل والإنشاء. وكان ورعاً عاقلاً، ذا برّ وإحسان. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٦٠٦ بالموصل. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٨٨/٢١.

(٢) الأديب الأوحد، شهاب الدين الرومي، مولى عسكر الحموي، السفّار، النحوي، الأخباري، المؤرخ، ذو التآليف الحاكمة بالبلاغة وسعة العلم. أعتقه مولاه فنسخ بالأجرة، وكان ذكياً، شاعراً متفنناً، جيد الإنشاء. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٦٢٦ عن نيف وخمسين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣١٢/٢٢ ـ ٣١٣.

(٣) «معجم الأدباء»: ٧٠/١٨، نقلته من «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة: ص ٩١.

(٤) الشيخ مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي، والمعروف بالحاج خليفة. مؤرخ بحاثة، تركي الأصل مستعرب. ولد سنة ١٠١٧ في القسطنطينية، تولّى أعمالاً كتابية في الجيش العثماني، وانقطع في السنوات الأخيرة من حياته إلى تدريس العلوم، وله عدة مصنفات بالعربية والتركية والفارسية. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القسطنطينية سنة ١٠٦٧. انظر «الأعلام»: ٢٣٦/٧ ـ ٢٣٧.

(٥) «كشف الظنون»: ٢٢٧/١، ونقلته من «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة: ص ٩١.



وطُبع في «بهــا» في القرن قبــل الماضي الميلادي ســنة ١٨٧٤ في ٤ مجلدات، وترجم إلى لغــات غير هذه، واختصره خلق من الناس، وذَيّله خلق أيضاً.

- وقد طبعه المستشرقون في نهاية القرن التاسع عشر[1].
- وطُبع طبعة جيدة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ونُشر في دار المعارف بالقاهرة.

(١) «صحيح تاريخ الطبري»: المقدمة ص ٦٦ ـ ٧١.

تاريخ المسعودي

المسمى «مروج الذهب ومعادن الجوهر»

ترجمة المصنف:

هو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبدالله بن مسعود ﷺ. مؤرخ، رحالة، بحاثة، من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفي فيها. قال الذهبي: «عداده في أهل بغداد، نزل مصر مدة، وكان معتزليّاً». له عدة تصانيف، وكان يميل إلى شيء من التشيع. توفي سنة ٣٤٦ ﷺ. وانظر «الأعلام»: ٢٧٧/٤.

أهمية الكتاب:

قد درس الكتابَ دراسة علمية وافية الأستاذ الدكتور سليمان السويكت، وهو أستاذ مساعد في قسم التاريخ الإسلامي، في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، فكان مما ذكره في أهمية الكتاب هو التالي:

١ ـ المسعودي كان له فضل السبق في الاستهلال العلمي الصحيح في التأليف، حيث أوضحت أنه صدر كتاب المروج ببابين خاصَّين:

تحدث في الأول عن معاناته في جمع مادة الكتاب ورحلاته العلمية، ثم تناول المصادر التي استفاد منها بالدراسة والتحليل، وفي الباب الثاني تحدث عن أبواب الكتاب وموضوعاته، وقد كان بذلك متميزاً على غيره من المؤرخين السابقين وممهداً الطريق لمن جاء بعده من الباحثين المحدَثين الذين ساروا على هذا النهج.

٢ ـ ظهر لنا أن المسعودي اعتمد في معلوماته على مصادر متنوعة منها ما أخذه عن طريق التجربة والمشاهدة الشخصية، ومنها ما أخذه من ذوي الصلة المباشرة بالأحداث وشهود العيان للوقائع، ومنها ما أخذه من الكتب والأسفار.

٣ ـ إثبات أن النوعين الأولين من مصادر المسعودي وهما:

أ ـ الرحلات.

ب ـ العلماء وأهل الخبرة والاختصاص.

إثبات أنهما مصادر حية أضفت على كتاباته التاريخية قيمة علمية كبيرة، وأن مبدأ المشاهدة والمعاينة المباشرة للأحداث والوقائع والناتج عن الرحلات كان مما تميز به المسعودي واعتمد عليه في تصحيح بعض الأخطاء العلمية التي وقع فيها سابقوه، وكانت معلوماته المستقاة من هذا المصدر تتميز بطابع التقرير والحسم لكل ما كان يؤكده أو ينفيه.

وقد تجلَّى من خلال استقراء آراء المسعودي في كثير من الخرافات والأساطير التي دوَّنها في مصنفاته أنه لم يكن مؤمناً بها حقاً، وأنه إذا لم يصدر حكماً أو رأياً في شيء منها فإنه إنما يعزو ذلك إلى راويه فهو المتقلد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه.

٤ ـ أن الكتب والمؤلَّفات التي أثبتناها وأشرنا إلى استخدام المسعودي إياها كمصادر هي كتب كثيرة جداً، تدل على سعة أفقه، وعلى حرصه الدائب على ذكر مصادره ومؤلَّفاته.

٥ ـ ومن خلال دراستنا لمنهج المسعودي التاريخي ظهر لنا أنه لم يكن مؤرِّخاً عادياً يسير على نهج مَن سبقه من المؤرخين، ثم يزيد في سرد أحداث التاريخ حتى عصره، لكنه كان صاحب منهج متميز ساهم فيه بتطوير فكرة التاريخ لدى المسلمين، وذلك بطرق موضوعات جديدة وحيوية في دراسة التاريخ، ومن ذلك ما يأتي:

- كتابته في التاريخ العالمي، وكانـــت هذه الكتابة من المحاولات الجادة في كســـر حاجز الإقليمية الضيقة، وتعبيراً عن الروح العلمية المتفتحة التي لا تقف عند حدٍّ معين.

وكذلـــك كانت نظرته إلـــى الثقافات العالميـــة ومحاولته عقـــد المقارنات والدراسات عنها بأســـلوب العالم الواعي، وإصداره سلســـلتين من الكتب في التاريخ تناولت هذه الجوانب.

- جمعه بين الدراســـات الجغرافية والدراســـات التاريخية في مصنف واحد، وأسبقيّته في هذا الميدان، وتصحيحه عدداً من المفاهيم الجغرافية الخاطئة الســـائدة في عصره، وطرحه لمفاهيم جديدة على درجة عالية من الصحة، وأنه كان أصيلاً في دراساته لا مقلِّداً كما يصوره بعض المستشرقين.
- إدراكه لقضية تفاعل الإنسان وكل ما على سطح الأرض من حيوان أو نبات أو جماد بالظروف المناخية والطبيعية المسيطرة عليه، وإدراكه للتشابه بين دورات الحياة في كل من الإنسان والحيوان والنبات والنظم السياسية وحتى الجمادات.
- احتواء كتبه من بين المؤلَّفات الإسلامية على أفضل تصوير لجوانب الحياة المختلفة، من دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية وغيرها.
- كان له فضل الســـبق في طـــرق أبواب بعـــض العلـــوم الاجتماعية، كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وذلـــك قبل أن تظهر كعلوم معروفة مســـتقلة في أبوابها ومناهجها، وقدم فيها دراســـات كانت على جانب كبير من الأهمية، وكانت نبراساً مضيئاً اقتدى به بعض العلماء المســـلمين الذين جاؤوا بعد المسعودي والذين ساهموا في تأصيل هذه العلوم.
- وعن أبـــرز خصائص منهج المســـعودي أوضحنا أنـــه كان متخفِّفاً من ذكر الأســـانيد، وأنه لم يســـتخدمها إلا في حالات معينة، واتخاذه بدائل عوضاً عن الأســـانيد، منها تقديم قائمة بمصـــادره في مقدمة المروج مع دراســـة



تحليلية لأهمها واستفادته من طريقة المحدثين في قبول الأخبار أو ردّها، واستخدام العقل للنظر والحكم على بعض الأمور التي لم يرد فيها نصوص شرعية، وغير ذلك من البدائل.

- استخدام المسعودي في تنظيم مادته العلمية طريقة التاريخ حسب الموضوعات في معظم تاريخه، ولكنه لم يكن مبتكراً لها فقد كانت موجودة قبله، واستفادته أيضاً من طريقة التاريخ حسب السنين، ولكن في إطار الطريقة السابقة، فكان أول من مزج بين هاتين الطريقتين.
- إنه كان متميّزاً على غيره من المؤرخين بوضع المستخلصات أو (جوامع التاريخ) التي يركز فيها المعلومات، خاصة تلك التي تقوم على حساب السنين والتي يدور حولها اختلاف كثير، حتى أنه مثلاً وضع مستخلصاً لخلفاء بني أمية ذكر فيه ولاية كل خليفة وكرر ذلك أكثر من مرة، وذلك على حسب الأقوال المذكورة في ضبط خلافة كل منهم.

٦ ـ إن التاريخ البيزنطي حظي من جانب المسعودي باهتمام بالغ وعناية غير مألوفة في تتبع أحداثه حتى سنة ٣٤٥هـ وأنه المؤرخ المسلم الوحيد الذي انفرد بذكر تفصيلات لبعض الأحداث الهامة في تاريخ العلاقات الحربية الإسلامية البيزنطية، وكانت رواياته عن هذا التاريخ بعد ظهور الإسلام منظمة مستقلة.

٧ ـ من خلال ما كتبه المسعودي عن الأمم التي تقطن جبال القوقاز تبيّن أنه كان مهتماً بتاريخ الأمم الصغيرة فلم يسقطها من حسابه حينما عالج بتوسع تاريخ الأمم الكبيرة، وأنه كان يركز على وصف الأوضاع السياسية المعاصرة، مما دل على متابعته للأحداث، وأنه كان مهتماً بإيضاح الجوانب الحضارية في تاريخ تلك الأمم.

وأخيراً تبين لنا أن ما كتبه المسعودي عنها يعتبر أوضح وأكمل ما دوّن من أخبار تلك الأمم من قِبَلِ أيٍّ من المؤرخين المسلمين.



٨ ـ تأكد من دراسة معالجة المسعودي لتاريخ مصر والشعوب الإفريقية أنه قدم وصفاً مسهباً لمصر ظهرت في ثناياه معلومات تاريخية وجغرافية، كان قد حصل عليها عن طريق الملاحظة الشخصية والبحث الذاتي، وأن معلوماته عن سائر الشعوب الإفريقية تتسم بالأصالة والجدة.

وفي معالجته لتاريخ العرب قبل الإسلام لاحظنا اهتمامه بإبراز السمات الخاصة المميزة لصفائهم الفطري وسموهم الفكري.

ومن واقع دراساته الواسعة لتاريخ ما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة ظهر بصفة عامة أنه كان يملك رصيداً وافراً من المعلومات عن كل شعب أو أمة تطرق لتاريخها، وذلك من أوثق المصادر وأثبتها، وأن أهمية ما كتبه لا تكمن في مجرد التفاصيل التي أوردها، ولكن أيضاً في إبدائه لوجهة نظره الخاصة وفي منهجه وأسلوب معالجته.

٩ ـ ومن دراستنا لما كتبه المسعودي عن التاريخ الإسلامي تكشفت لنا النتائج الآتية:

- أن كتابته عن السيرة النبوية كانت مختصرة، ولكنها دقيقة وشاملة.
- إشارات المسعودي إلى تأثيرات العرب والمسلمين الحضارية في بعض الأمم الإفرنجية المجاورة لبلاد الأندلس الإسلامية، حتى في بعض الخصائص التي كانت للعرب دون غيرهم من سائر الأمم كالقيافة والزجر والعيافة، هذه الإشارات تعتبر إنجازاً إيجابياً يحسب للمسعودي.
- ومن دراستنا للأقليات في تاريخ المسعودي سواء المسلمة أو غير المسلمة وضح لنا أن اهتمامه بها كان اهتماماً فريداً من نوعه، وأن رحلاته قد أفادته في هذا المجال فائدة كبيرة، حيث وقف على أحوال الأقليات المسلمة، والتقى بأعداد من رجال الأقليات غير المسلمة، فوقف عن كثب على أفكارهم وعقائدهم وسائر أحوالهم، وأن كتابته عنهم كانت موضوعية.

- تبين لنا من واقع دراسة منهج المسعودي أنه كانت تتمثل فيه كثير من الصفات الضرورية للمؤرخ، وأنه يفتقر إلى بعضها.
- ومن تتبع الإشارات الواردة حول اللغات الشائعة في عصر المسعودي رجحنا أنه كان ملمّاً باللغة الفارسية، وأنه كان يعرف شيئاً من اللغة الرومية[(١)].

منهج المصنف في كتابه:

أرى ـ والله تعالى أعلم ـ أن أحيل القارئ إلى ما كتبه المصنف تبياناً لمنهجه، وذلك لعدة أسباب:

وضوح بيانه لمنهجه.

حلاوة ألفاظه وجزالة عباراته.

وفاء عباراته التي سرد بها منهجه في بيان المراد.

ولذلك كله لم أر الإضافة عليها بشيء، وقد قال المصنف في بداية كتابه:

«أما بعد، فإنا صَنّفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقَدَّمْنا القول فيه في هيئة الأرض، ومدُنها، وعجائبها، وبحارها، وأغْوَارها، وجبالها، وأنهارها، وبدائع معادنها، وأصناف مَناهلها[(٢)]، وأخبار غِيَاضِها[(٣)]، وجزائر البحار، والبُحَيرَات الصغار.

وأخبار الأبنية المعظّمة، والمساكن المشرَّفة.

وذكر شأن المبدأ، وأصل النّسْل، وتباين الأوطان.

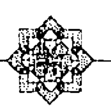
وما كان نهراً فصار بحراً، وما كان بحراً فصار بَرًّا، وما كان بَرًّا فصار بحراً، على مرور الأيام، وكُرُور الدهور، وعلة ذلك، وسببه الفلكي والطبيعي.

---

(١) «منهج المسعودي في كتابة التاريخ»: د.سليمان بن عبدالله السويكت: ٤٥٣.

(٢) المناهل جمع منهل: وهو الماء المجتمع الذي يرده الناس والبهائم للشرب.

(٣) الغياض جمع غَيضة: وهي الغابات والمواضع التي يكثر فيها الشجر.



وانقســـام الأقاليم بخواصّ الكواكب، ومعاطف الأوتـاد، ومقادير النواحي والآفاق، وتباين الناس في التاريـــخ القديم، واختلافهم في بَدْئِـه وأوليّته، من الهند وأصناف الملحدين، وما ورد في ذلك عن الشرعيين، وما نطقت به الكتب وورد على الدّيّانيين.

ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابــرة، والأمم الدَّاثِــرَة، وَالْقُرُون الخالية، والطوائف البائدة على مَرّ سِــيَرهم، في تغير أوقاتهــم وتضيف أعصارهم، من الملوك والفراعنة العادية والأكاســرة واليونانية، وما ظهر مـــن حِكَمهم ومقائل فلاسفتهم وأخبار ملوكهم، وأخبار العناصر.

إلى ما في تَضاعِيف ذلك من أخبار الأنبياء والرســل والأتقياء، إلى أن أفضَى الله بكرامته وشَرّف برسالته محمداً نبيه ﷺ، فذكَرْنَا مولده، ومنشأه، وبعثه، وهجرته، ومَغازيَه، وسَــرَاياه، إلى أوانِ وفاته، واتصال الخلافة، وَاتِّسَاق المملكة بزمن زمن، وَمَقَاتِل مَنْ ظهر من الطالبيين[١]، إلى الوقت الذي شرعنا فيه في تصنيف كتابنا هذا من خلافة المتقي لله أمير المؤمنين، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

ثم أتبعناه بكتابنا الأوســط في الأخبار على التاريخ وما اندرج في السنين الماضية، من لدن البَدء إلى الوقت الذي عنده انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من الكتاب الأوسط.

ورأينا إيجاز ما بسطناه واختصار ما وسطناه، في كتاب لطيف نُودِعُه لُمَع ما في ذَيْنِكَ الكتابين ممــا ضَمَّنَّاهما، وغير ذلك من أنــواع العلوم، وأخبار الأمم الماضية، والأعصار الخالية، مما لم يتقدم ذكره فيهما[٢].

---

(١) هم أبناء أبي طالب عم النبي ﷺ وهم علي وجعفر وعقيل، وأكثر الطالبيين هم من أولاد علي ﵁، ومقاتلهم يريد بها من قُتل منهم في معركة أو مات في سجن، أو أُخذ وقُتل.

(٢) فعلى هذا يكون كتابــه «مروج الذهب» مختصراً مــن كتابه الكبير والأوســط، وأضاف فيه بعض الإضافات التي لم تكن في ذينك الكتابين.



على أنـا نعتذر من تقصيرٍ إنْ كان، وَنَتَنَصّل من إغفالٍ إنْ عَرَض لما قد شَابَ خَوَاطِرَنَا، وَغَمَرَ قلوبنا، من تَقَاذُف الأسفار، وقَطْع الْقِفار، تارة على مَتْن البحر، وتارة على ظهر البر، مُسْتَعْلِمينَ بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواصّ الأقاليم بالمعَايَنَة، كقَطْعنا بِلَادَ السِّند والزنج والصنف والصين والزابج[1]، وَتَقَحُمنا الشَّرْقَ والغرب، فتارةً بأقصى خُرَاسان، وتارة بوسائط إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وطورا بالعراق، وطوراً بالشام فسَيرِي في الآفاق، سُرَى الشمس في الإشراق؛ كما قال بعضهم:

تَيَمَّمَ أَقْطَارَ الْبِلَادِ فتَارَةً
لَدَى شَرْقِهَا الأقْصى وَطَوْراً إلَى الْغَرْبِ

سُرَى الشَّمْس، لَا يَنْفكُّ تَقْذِفُهُ النَّوَى
إلَى أفقٍ نَاءٍ يُقَصِّرُ بِالرَّكْب

ثم مفاوضتنا أصناف الملوكِ على تغاير أخلاقهم، وتباين هممهم، وتباعد ديارهم، وأخْذُنَا بمسلك مسلك من مواقفهم.

على أن العلم قد بادت آثاره، وطمس مناره، وكَثرَ فيه العناء، وقلّ الْفُهَماء؛ فلا تُعَاين إلا مُمَوّهاً جاهلاً، ومتعاطياً ناقصاً، قد قنع بالظنون، وعَمِيَ عن اليقين[2]، لم نَرَ الاشتغال بهذا الضَّرْب من العلوم والتفرغ لهذا الفن من الآداب، حتى صنفنا كتبنا من ضروب المقالات، وأنواع الديانات، ككتاب «الإبانة عن أصول الديانة».

وكتاب «المقالات في أصول الديانات».

وكتاب «سر الحياة».

---

(١) كذا وردت.

(٢) هذا قبل أكثر من ألف سنة فكيف لو رأى زماننا هذا؟!

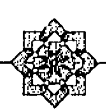
«وكتاب نظم الأدلة في أصول الملة» وما اشتمل عليه من أصول الفتْوَى وقوانين الأحكام: كتيقن القياس، والاجتهاد في الأحكام، ووقع الرأي والاستحسان، ومعرفة الناسخ من المنسوخ، وكيفية الإجماع وماهيته، ومعرفة الخاص والعام، والأوامر والنواهي، والحَظْر والإباحة، وما أتت به الأخبار من الاستفاضة والآحاد، وأفعال النبي ﷺ وما ألحق بذلك من أصول الفتْوَى، ومناظرة أنباء الخصوم فيما نازعونا فيه، وموافقتهم في شيء منه.

وكتاب الاستبصار في الإمامة ووصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار، وحِجاج كل فريق منهم.

وكتاب «الصفوة في الإمامة» وما احتواه ذلك، مع سائر كتبنا في ضروب علم الظواهر والبواطن والجلي والخفي والدائر والوافر، وإيقاظنا على ما يرتقبه المرتقبون، ويتوقَّعه المحدثون، وما ذكروه من نور يلمع في الأرض وينبسط في الجدب والخصب، وما في عقب الملاحم الكائنة، الظاهر أنباؤها المتجلِّي أوائلُها، إلى سائر كتبنا في السياسة، كالسياسة المدنية وأجزاء المدينة، ومثلها الطبيعية، وانقسام أجزاء الملة، والإبانة عن المواد، وكيفية تركيب العوالم، والأجسام السماوية، وما هو محسوس وغير محسوس، من الكثيف واللطيف، وما قال أهل النِّحْلة في ذلك.

الباعث له على التأليف:

وكان كل ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ، وأخبار العالم، وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها مَحَبَّةَ احتذاء الشاكلة التي قَصَدَها العلماء، وَقَفاها الحكماء، وأن يُبقي للعالم ذكراً محموداً، وعلماً منظوماً عتيداً؛ فإنا وجدنا مُصَنفي الكتب في ذلك مُجيداً وَمُقَصِّراً، وَمُسْهِباً ومختصراً ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام، حادثةً مع حدوث الأزمان، وربما غاب البارع منها على الفطِن الذكي، ولكل واحد قِسْطٌ



يخصه بمقدار عنايته، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله، وليس من لَزِمَ جهةَ وطنه وقنع بما نُمِيَ إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسّم عمره على قَطْع الأقطار، ووَزّعَ أيامه بين تَقَاذُف الأسفار، واستخراج كل دقيق من مَعْدِنِه، وإثارة كل نفيس من مَكْمَنه.

المؤلف يذكر أنه أودع كتابه أجزل الفوائد:

وقد وسمت كتابي هذا بكتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»؛ لنفاسة ما حَواه، وعظم خطر ما استولى عليه: من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه، وغرر مؤلفاتنا في مغزاه، وجعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة إليه، وتُنَازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف وغَبرَ في الزمان، وجعلته مُنَبّهاً على أغراض ما سلف من كتبنا، ومشتملاً على جوامع يحسن بالأديب العاقل معرفتها، ولا يُعذر في التغافل عنها، ولم نترك نوعاً من العلوم، ولا فنّاً من الأخبار، ولا طريقة من الآثار إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصَّلاً، أو ذكرناه مجملاً، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات، أو لوّحنا إليه بفحوى من العبارات.

نقد الكتاب:

قال الدكتور سليمان السويكت:

١ ـ إن نزعة المسعودي الشيعية قد أثّرت على كتاباته في تاريخ الخلفاء الراشدين، وتاريخ الأمويين، وتاريخ العباسيين، ولم يستطع أن يكتب تاريخاً مجرداً من الهوى، وخاصة للخلفاء الذين كانت لهم احتكاكات ببعض العلويين.

٢ ـ تأكد لنا أن نزعة المسعودي الشيعية قد أثَّرت بشكل مباشر أو غير مباشر على كتاباته في التاريخ الإسلامي، وعلى الرغم من محاولاته أن يبدو



حيادياً في بعض الأحيان إلا أنه كان ينساق ـ حتى وإن عن غير قصد ـ إلى تدوين ما كان يعتقده ويراه حقاً، أو ترجيح وتقديم الرأي الموافق لنزعته وميوله.

وتأكد لنا من جهة ثانية أنه كان موضوعياً ملتزماً بمبدأ الحياد والتجرد في بحث أديان وتاريخ الأمم والشعوب غير المسلمة.

وخرجنا من ذلك بنتيجة مؤداها أنه يتعين على من أراد أن يقرأ ما دوَّنه المسعودي أو غيره من ذوي الميول والأهواء عن التاريخ الإسلامي وخاصة الفترات الغامضة فيه أو التي حدث فيها اجتهاد واختلاف بين المسلمين أن يكون على حذر وانتباه وأن لا ينساق إلى تصديق ما يقرأه إلا بعد قيام الدلائل وثبوت الروايات من الأوجه الصحيحة المعتبرة.

٣ ـ تبينت لنا مقدرة المسعودي على التحليل والنقد، ومن خلال الأمثلة برزت نظرته الشمولية بعيدة المدى للتواريخ والأحداث، ومقدرته على التفسير والمقارنة والاستقراء والاستنتاج وإبداء الرأي.

٤ ـ وجود ظاهرة التشعب والاستطراد في كتابات المسعودي، وثبت أن هذه الظاهرة كانت تدل على ضعف في حاسته الفنية، وأنها قد أفسدت عليه وحدة الموضوع، وفتحت عليه باب النقد.

٥ ـ ومن خلال عرض آراء عدد من العلماء المسلمين في المسعودي تبيَّن أنهم لم يكونوا راضين عنه بسبب أن ما دوَّنه عن التاريخ الإسلامي من معلومات لم يلتزم فيه جانب الحياد والموضوعية.



تاريخ بغداد

المسمى «تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها، وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها وواردِيها»

للخطيب البغدادي
أحمد بن علي بن ثابت
٣٩٢ ـ ٤٦٣

ترجمة المصنف:

هو الإمام العلامة المفتي الحافظ الناقد، محدث الوقت، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٣٩٢، وحفظ الحديث وأقبل عليه، واعتنى بشأنه حتى صار أحفظ أهل عصره على الإطلاق، وكان من كبار الشافعية، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ٤٦٣ ببغداد، رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٧٠/١٨ وما بعدها، و«الأعلام»: ١٧٢/١.

أهمية الكتاب:

هذا الكتاب هو من كتب التواريخ التي أوردت الوقائع في ثنايا التراجم ـ سِيَر حياة الأشخاص ـ وهو منهج جليل، يُكسب الكتاب تشويقاً وجلالة وأهمية كبرى؛ إذ جرت عادة الناس على التعلق بالقصص والأخبار الواردة في التراجم أكثر من التعلق بما ورد في سرد أحداث التاريخ.

والكتاب كبير الحجم، عظيم الأثر؛ إذ فيه أخبار كبار عظماء الرجال، وقصص العبّاد والزهاد والأبطال، وفيه جملة كبيرة من المسائل العلمية والأخبار السَّرِية.

هذا وإن أحسن من حقق الكتاب ودرسه دراسة وافية جليلة هو الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف، وهأنذا أسوق كلام الدكتور في أهمية الكتاب



ومنهج الخطيب البغدادي فيه، وأسوقه بإيجار فهو طويل متشعب، واصطفيت منه ما أرى أنه أحسنه وأجوده، وجُلّه حسن جيد، وقد قال الدكتور بشار عواد معروف في بيان أهمية كتاب «تاريخ بغداد»:

١ ـ أهمية تاريخ الخطيب باعتباره أول كتاب في تاريخ علماء بغداد وصل إلينا، فصار مصدراً للمؤلِّفين الذين جاؤوا بعده، ثم للمعاصرين في كثير من دراساتهم.

وتعد المقدمة التي كتبها الخطيب عن خطط بغداد أوسع ما كُتب في هذا الموضوع، لذلك حظيت باعتناء كثير من الباحثين والدارسين، فترجمها سالمون[١] إلى الفرنسية وعلق عليها، كما ترجمها يعقوب لِسْنر[٢] إلى الإنكليزية مع تعليقات إضافية ودراسات ملحقة بها.

وكانت هذه المقدمة هي المعين لكثير من الدراسات المتعلقة بخطط بغداد، منها دراسات شتريك[٣]، وهرتسفلد[٤]، وليسترانج[٥]، وماسنيون[٦]،

---

(١) أحد المستشرقين الفرنسيين. تخرج في مدرسة اللغات الشرقية، وعيّن عضواً في المعهد الفرنسي بالقاهرة، وله عدة تصانيف في التاريخ الإسلامي. توفي سنة ١٩٠٧. انظر «موسوعة أسماء المستشرقين»: ٦٦٣ ـ ٦٦٤.

(٢) يعقوب ليسنر: ولد في جروبنس سنة ١٨٦٨، وتخصص في الآثار الأشورية، عين في جامعة برلين أستاذاً لها سنة ١٩٢١، وأرسلته جمعية الأبحاث الشرقية في البعثة الأثرية الألمانية إلى بابل. توفي سنة ١٩٤٧، للمزيد ينظر كتاب: نجيب العقيقي، المستشرقون، (القاهرة: ١٩٦٥)، دار المعارف.

(٣) له ذكر في «موسوعة أسماء المستشرقين»: ص ٧٣٣ وأن له ثلاثة كتب.

(٤) ارنست هرتسفلد (١٨٧٩ ـ ١٩٤٨م) مستشرق ألماني. اختص بعلم الآثار وتحديداً آثار الشام والعراق وفارس. ولد في سله Celle (ألمانيا) سنة ١٨٧٩، وتعلم في المدارس الثانوية في فردن Verden وبرلين. درس بعدها الهندسة المعمارية في ميونخ وجامعة برلين التقنية. أنهى دراسته عام ١٩٠٣م. درس أيضاً في هذه الفترة علم الأشوريات واللغات الشرقية والتاريخ. وحصل على الدكتوراه الأولى برسالة عن باسارغاد، سنة ١٩٠٧.وتوفي في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ في بازل.انظر ترجمته في «ويكيبيدا» على شبكة «الإنترنت».

(٥) Guy le strange مؤرخ إنجليزي. ولد سنة ١٨٥٤، وتوفي سنة ١٩٣٣. عني بالتاريخ الفارسي، وعني بالجغرافيا التاريخية للبلاد الإسلامية، ولما عمي وكبر درس الإسبانية وأتقنها. درّس في جامعة كامبردج في لندن. له عدة مصنفات نافعة. انظر ترجمته في مقدمة كتاب «بلدان الخلافة الشرقية».

(٦) مستشرق فرنسي. من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. تعلم العربية والفارسية والتركية =



وكانراد[١]، والدكتــور مصطفى جــواد[٢] والدكتور أحمد سوســة[٣] والدكتور عبدالعزيز الدوري[٤] في مادة «بغداد» التي نشرها في دائرة المعارف الإسلامية، والدكتور طاهر مظفر العميد في دراسته عن المدينة المدوَّرة، وأبحاث أستاذنا الدكتور صالح أحمد العلي[٥] العديدة عن بغداد ولا ســيما دراســته النفيســة «بغداد مدينة السلام» في المجلدين الخاصين بالجانب الغربي.

وعلى الرغم مــن تركيز الخطيب على الرواة عمومــاً والمحدثين خصوصاً فإن تاريخه تضمن مادة لا بأس بها في التاريخ السياسي والإداري، لاسيما فيما عاصره، وترجمته للخليفة القائم تدل على حِسٍّ تاريخي جيّد.

= والألمانية والانجليزية. درّس فــي الجامعة المصرية القديمة. وكان من موظفي وزارة المســتعمرات الفرنسية في شــبابه، ثم صار مستشــاراً لها بقية حياته. اهتم بالصوفية والقرامطة وألف في أعلامهما وتاريخهما كتباً. ولد سنة ١٢٩٩/١٨٨٣، وتوفي سنة ١٣٨٢/١٩٦٢. انظر «الأعلام»: ٥/٢٤٧

(١) لعله القس الألماني كونراد ميللر، ولد ســنة ١٨٤٤، وتوفي ســنة ١٩٣٣، وهو عالم آثار، ورسام خرائط. انظر ترجمته في «ويكيبيدا» على شبكة «الإنترنت».

(٢) أحد عمالقــة اللغة العربية البارزين في العــراق الذين خدموا اللغة العربية وأسّــوا قواعدها. كانْ معلماً ومربياً ورائداً وأديباً وفناناً وفيلسوفاً وعبقرياً. وعلى أنه كان تركمانياً إلا أنه خدم اللغة العربية أكثر من لغته الأم التركمانية، وقال كلمته المشهورة: «جئت لأعلم العرب لغتهم». كتب العديد من الأبحاث عن اللغة العربية وله مؤلفات حول سُبُل تحديث اللغة وتسهيلها. اشتهر لدى عامة الناس بسبب برنامجه التلفازي والإذاعي اللغوي الشهير «قل ولا تقل»، الذي تم إصداره لاحقاً في كتاب. ولد سنة ١٩٠٤ وتوفي رحمه الله سنة ١٩٦٩ انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٣) مهندس ري عراقي، جمع بين الهندسة والاهتمام بالتاريخ والجغرافيا والحضارة، وله مؤلفات في ذلك. ولد في العراق سنة ١٣١٨/١٩٠٠، وتوفي رحمه الله ســنة ١٤٠٢/١٩٨٢. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٤) ولد ســنة ١٩١٩ وتوفي ســنة ١٤٣٠/٢٠١٠. وهو مؤرخ عراقي قومي. عمل في جامعة بغداد ثم انتقل إلى الأردن للتدريس في الجامعة الأردنية. له عدة مصنفات تاريخية، رحمه الله. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٥) مؤرخ عراقي مشهور. ولد سنة ١٩١٨ حصل على البكالوريس في التاريخ من القاهرة، والدكتوراة من إنجلترا. درّس فــي جامعة هارفرد وعدة جامعات عراقية. كان رئيســاً للمجمع اللغوي العراقي وعضواً في المجمعين المصري والدمشقي. له عدة مصنفات. توفي رحمه الله سنة ١٤٢٣/٢٠٠٣. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة المعلومات «الإنترنت».

وإن كون الكتاب في التراجم، إذا استثنينا المقدمة، لا يعني أنه قليل الأهمية خارج نطاق الحركة الفكرية، فقد حوى معلومات جيدة تتصل بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية، من ذكر للشرائح الاجتماعية، والأسعار، ومستوى المعيشة.

٢ ـ على أن أهمية تاريخ الخطيب تتبدَّى في تصويره لجوانب مهمة من تاريخ الحركة الفكرية، ولا سيما طبقة رجال الدين من الفقهاء والمحدثين والصوفية ونحوهم، ونظرة المجتمع إليهم، وتأثيرهم فيه، ونوعية اهتماماتهم.

وفي الكتاب الكثير مما يمكن الإفادة منه في دراسة التربية والتعليم وطرق التدريس وطبيعة الدراسات من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس الهجري.

٣ ـ ويبين الكتاب منزلة بغداد العلمية بين المدن الإسلامية، وطبيعة الصلات القائمة بينها وبين المدن الأخرى، وصلات العلماء بعضهم البعض، وسهولة الانتقال في العالم الإسلامي على الرغم من اختلاف الحكام بين إقليم وآخر.

٤ ـ ثم إن استخدام الخطيب لمئات المصادر في تأليف هذا التاريخ الوسيع، وضياع القسم الأكبر منها، واستعماله الإسناد ودقته في النقل منها، حفظ لنا ثروة عظيمة من النصوص من تلك المصادر المفقودة.

أما المصادر التي وصلت إلينا فإن نقول المصنف تعدُّ من أوثق النصوص التي تخدم تحقيق هذه الكتب وتؤكد صحة معلوماتها، نظراً لاعتماده النسخ الأصلية التي غالباً ما كانت بخطوط مؤلفيها أو بخطوط من يوثق بنقلهم ممن روى تلك الكتب سواء أكانوا من تلامذة المؤلفين، أو ممن جاء بعدهم.

٥ ـ وأشار الخطيب في أثناء التراجم إلى مئات من أسماء الكتب التي ألَّفها المترجمون أو عُنوا بروايتها، أو نقل هو منها، في علوم القرآن والقراءات والتفسير، وفي متون الحديث وعلومه ورجاله، وفي الفقه وأصوله،



والعقائد، والفــرق، والرقائق، والزهد، والتصــوف، والمنطق وعلم الكلام، والكتب التاريخية في المبتدأ والسـيرة النبوية والفضائل والنسب والتراجم والتاريخ العام، وكتب في اللغة والنحو والأدب ودواوين الشعراء مما أُلِّف حتى عصره.

٦ ـ صار تاريــخ الخطيب واحــداً من مســتودعات الجرح والتعديــل وتقويم الرجال، فقد نقل المصنف فيه آلاف الروايات في تعديل الرجال وتقويمهم حتى عده الإمام المِــزِّي[1] واحداً من أربعة كتب كانــت عمدته في تأليف كتابه العظيم «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، فقال:

«واعلم أن مــا كان في هذا الكتاب من أقوال أئمــة الجرح والتعديل ونحو ذلك، فعامته منقول من كتاب «الجــرح والتعديل» لأبي محمد عبدالرحمٰن بن أبي حاتم الــرازي الحافظ[2] ابن الحافــظ، ومن كتاب «الكامــل» لأبي أحمد عبدالله بن عــدي الجرجاني الحافــظ[3]، ومن كتاب «تاريخ بغــداد» لأبي بكر

---

(١) هو: جمال الدين أبو الحجاج يوســف بن الزكي عبدالرحمٰن بن يوســف القضاعي الحلبي الشافعي، مؤلف «تهذيب الكمال» في أسماء الرجال. ولقب المزي نســبة إلى المزة في دمشق التي استقر ونشأ بها. ولد بحلب ســنة ٦٥٤، مهر في اللغة، ثم في الحديث ومعرفة رجاله، توفي في دمشق ١٢ صفر سنة ٧٤٢. انظر «الدرر الكامنة» لابن حجر، «وتذكرة الحفاظ» للذهبي، «والأعلام» للزركلي: ٢٣٦/٨.

(٢) هو محمد بن عبدالرحمٰن بن أبي حاتم الرازي السجستاني، هو وأبوه وخاله أبو زرعة الرازي كانوا من شيوخ الجرح والتعديل المعتبرين، توفي رحمه الله سنة ٣٢٧. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٦٣/١٣ ـ ٢٦٩.

(٣) هو الإمام الحافظ الناقد الجوال أبو أحمد، عبدالله بــن عدي بن عبدالله الجرجاني، صاحب كتاب «الكامل» في الجرح والتعديل، وهو خمسة أسفار كبار. مولده في سنة سبع وسبعين ومائتين وأول سماعه كان في سنة تســعين , وارتحاله في سنة ســبع وتســعين. طال عمره وعلا إسناده، وجرح وعدل وصحح وعلــل، وتقدم في هذه الصناعة على لحن فيه، يظهر فــي تأليفه.زاد «معجمه «على ألف شــيخ.قال الإمام الذهبي: يذكر في «الكامل» كل من تكلم فيه بأدنى شــيء لو كان من رجال «الصحيحين»، ولكنه ينتصر له إذا أمكن، ويروي في الترجمة حديثاً أو أحاديث مما استنكر للرجل. وهو منصف في الرجال بحسب اجتهاده. مات في جمادى الآخرة سنة خمس وستين وثلاث مائة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥٤/١٦.



أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الحافظ، ومن كتاب «تاريخ دمشــق» لأبي القاسـم علي بن الحســن بن هبة الله المعروف بابن عسـاكر الدمشــقي الحافظ[1]، وما كان فيه من ذلك منقولًا من غير هذه الكتب الأربعة فهو أقل مما كان فيه من ذلك منها أو من بعضها».

فإذا كان الأمر على مــا بيَّنا والحالُ على ما وصف الإمــام المزي فيما يتصل برجال الكتب السِّــتَّة، فإن تاريخ الخطيب ربما تفرد مــن بين الكتب بذكر أحوال مئات المترجميــن الذين نجموا بعد القرن الثالث الهجري، ســواء أكانوا من طبقة شيوخه أو شيوخ شيوخه أو شيوخ شيوخ شيوخه، فقدم لنا ثروة قلَّ نظيرها في هذا العلم الجليل الذي بموجبه يحكم على صحة الروايات وسقهما في الأغلب الأعم.

ولما كان الخطيب واحداً من جهابذة المحدثين في المئة الخامســة للهجرة فإن أقواله في الجرح والتعديل قد اعتبرت أقصى حدود الاعتبار لا ســيما تلك التي أطلقها فيمن أدركهم من الشــيوخ، أو عاصرهم من الأقران، فصارت معيناً لا ينضب لمن ألَّف بعده وعني ببيان أحوال الرواة، ولا سيما الإمام الذهبي في كتبه، فحق له أنه يقول فيه: «الحافظ الناقد... صحح وعلل وجرح وعدل».

ولم يكن الخطيــب ناقلاً حَسْــبُ، بل كان ناقــداً ماهراً فــي علم الجرح والتعديــل، فكان يوازن بيــن هذه الأقوال ويبيــن رأيه في كثير مــن الأحيان، ويتعقب كبار النقاد فيما ذهبوا إليه، ويصحح ما أخطؤوا فيه من الأسماء والكنى والألقــاب والمواليــد والوفيات، وما وقــع لهم من تصحيــف أو تحريف في الأسانيد أو المتون، وهو أمر واضح لكل من يطالع تاريخه، فقد كان هذا النهج من أسس منهجيته في تحبير التراجم.

---

(١) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاســم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشــتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ. وكان ديِّناً، صنف التصانيف المفيدة أجلّها «تاريخ دمشــق» توفي رحمه الله ســنة ٥٧١ بدمشــق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/٣٠٩ ـ ٣١١.

منهج المصنف في كتابه:

أسهب الدكتور بشار عواد معروف في بيان منهج المصنف فكان مما قاله؛ وقد سقت أهمه فهو طويل:

١ ـ ابتدأ الخطيب كتابه بمقدمة عن مدينة بغداد يمكن للباحث أن يلاحظ فيها ثلاثة محاور رئيسة:

الأول: تناول فيه أقوال العلماء في أرض بغداد وحكمها، وما حفظ عنهم من الجواز والكراهة لبيعها، ثم تكلم على السَواد وفعل عمر بن الخطاب ﷺ فيه، وحكم بيع أرضه، وحده ومنتهاه، وخبر غارة المسلمين على المنطقة التي أقيمت عليها مدينة السلام فيما بعد.

وتناول بالنقد الأحاديث التي رويت في الثلب لبغداد والطعن على أهلها، وبين فسادها ووهاءها.

ثم بين مناقب بغداد وفضلها ومحاسن أخلاق أهلها، كما تطرق إلى نهري دجلة والفرات وما فيهما من المنافع.

وتكلم المصنف بعد هذا على معنى «بغداد» وساق شيئاً من سيرة مؤسسها أبي جعفر المنصور[١].

أما المحور الثاني فكان مخصصاً للبحث في خطط بغداد، فذكر خبر بناء المدينة المدورة، وخططها وتحديدها، ومن تولى عمارتها، وخبر بناء الكَرْخ

---

(١) الخليفة أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور. ولد سنة ٩٥ وطلب العلم. كان فحل بني العباس هيبة وشجاعة ورأياً وحزماً، ودهاء، وجبروتاً. وكان تاركاً للهو واللعب، جماعاً للمال، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم. أباد جماعة كباراً حتى توطد له الملك ودانت له الأمم على ظلم فيه لكنه يرجع إلى صحة إسلام وتدين في الجملة مع فصاحة وبلاغة وجلالة. توفي ﷺ سنة ١٥٨. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨٣/٧ ـ ٨٩.



والرصافة[١]، ثم تناول محال مدينة السلام وطاقاتها وسككها ودروبها وأرباضها ومن نسبت إليه في الجانبين: الغرب والشرق.

ثم عرج على ذكر دار الخلافة والقصر الحسني والتاج وزيارة سفير الروم أيام المقتدر وما شاهده فيها، ووصف دار المملكة التي بأعلى المخرم.

وتناول بعد ذلك المساجد الجامعة في جانبي المدينة، والأنهار والترع التي كانت تتخلّلها، والجسور المقامة على دجلة بين الجانبين، ومقدار مساحة بغداد وما ذكر عن عدد مساجدها وحماماتها، ثم مقابرها المشهورة.

وأما المحور الثالث فتناول فيه خبر المدائن وتسمية من وردها من الصحابة.

وقيمة هذه المقدمة التي استغرقت خمسة أجزاء من بين المئة والستة أجزاء التي تكوَّن منها الكتاب إنما تتبدَّى في محورها الثاني الخاص بخطط مدينة السلام فهو المحور الوحيد اللصيق بموضوع الكتاب.

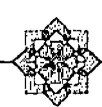
أما بقية الكتاب فكله تراجم لأهل بغداد وارديها، فالتراجم هي أُسّ الكتاب، وهو أمر يعكس مفهومه للتاريخ، وقد ذكر الخطيب في مقدمة القسم الخاص بالتراجم أن تاريخه هذا يشمل الخلفاء، والأشراف، والكبراء، والقضاة، والفقهاء، والمحدثين، والقراء، والزهاد، والصلحاء، والمتأدبين، والشعراء من أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها وبسواها من البلدان ونزلوها، وذكر من انتقل منهم عنها ومات ببلدة غيرها، ومن كان بالنواحي القريبة منها، ومن قَدِمها من غير أهلها.

وهذا النص يشير بوضوح إلى طبيعة التراجم التي انتقاها الخطيب لتكون مادة كتابه بموجب خطة بيِّنةِ المعالم تشمل أربعة فئات من المترجَمين:

١ ـ أهل مدينة السلام الذي ولدوا بها أو بسواها من البلدان ونزلوها فصارت موطنهم.

---

(١) هما شِقًّا بغداد على نهر دجلة.



٢ ـ أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها ثم رحلوا عنها فاستوطنوا غيرها من البلدان، ولكنهم ظلوا ينسبون إليها.

٣ ـ أهل المناطق المجاورة لبغداد، مثل المدائن، وعُكْبُرا، وبعقوبا، والدور، وسامرا، والنهروان، والأنبار، ودير العاقول، ونحوها.

٤ ـ الغرباء الذين قدموا بغداد، وحدثوا بها أو استوطنوها.

ويلاحظ من النص الـذي نقلناه قبل قليل، ومن دراسـتنا لطبيعة التراجم التي انتقاهـا الخطيب أنه اسـتبعد من تاريخـه الكثير من أعـلام بغداد من المتكلمين الكبار، والحُسّاب، والمهندسين، والأطباء، والصيادلة، والفلكيين، والأمـراء، والقواد، وأرباب الصنائـع من البنائين والمعماريـين وكبار التجار والممولين ونحوهم، فكان تركيزه على الطبقة المثقفة بمنظاره هو، وهم رواة الحديث والفقهـاء والقضاة وبعض الشـعراء والمتأدبين إضافـة إلى الخلفاء وبعض المشهورين من أرباب السياسة، فاجتهد أن يذكر في كتابه كل محدث حدث ببغداد مهما ضعف شـأنه وقَـلّ خطره، لم يترك مـن ذلك أحداً وقف عليه، بل وجدنا تراجم لا يُعرف عنها شيء سوى ورودها في إسناد رواية، أو ذكرت في معجم لأحد الشيوخ أو مما أخبر به أحد شيوخه ممن اتصلوا بهم، ولم يجـد المصنف في كثير من هـذه التراجم مادة يذكرها سـوى هذا النزر اليسير، في الوقت الذي أهمل فيه ذكر تراجم خطيرة لغير أمثال هؤلاء أو قَصّر فيها تقصيراً بيّناً.

أما إدخال المصنف لتراجم أهل المناطق المجاورة لبغداد في الخطة العامة للكتاب فهو صنيع لـم أفهمه جيّداً، ولم أجد له مبرِّراً سـوى توسـيع الدائرة والاسـتكثار، فإن قال قائل: إنه افترض أن مثال هؤلاء لا بـدَّ أن يكونوا قدموا بغداد يوماً ما لقربهم منها، فهو مردود بذكره بعض من لم يدركوا بناء بغداد من الصحابة والتابعين، من مثل أولئك الذين قدموا مع علي بن أبي طالب ﷺ إلى



النهروان ومرُّوا بالمدائن وغيرها، بله ذكره الصحابة الذين نزلوا المدائن، وهي تبعد عن بغداد أكثر من خمسة وعشرين كيلو متراً، فكأنه استخسر أن يخلو هذا الكتاب الوسيع من ذكر الصحابة الكرام الذين هم صفوة الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، أما سامرا فتبعد عن بغداد قرابة المائة وعشرين كيلو متراً، ومثلها الأنبار والقرى المصاقبة لهما، فهذا في رأينا شيء خارج عن نطاق الموضوع الذي يتناوله الكتاب، لكنه رأي ارتآه المصنف، وهو المسؤول عنه، مع تقصيره في ذكر رجالات بغداد وعلمائها من خارج الوسط الديني والأدبي والسياسي.

٢ ـ على أن الخطيب بدأ تراجم كتابه بالمحمَّدِين إكراماً لاسم سيدنا محمد ﷺ وهي عادة كانت معروفة متبعة من قبله استعملها بعض العلماء الذين رتَّبوا كتبهم على حروف المعجم، مثل الإمام البخاري في تاريخه الكبير، وغيره، كما استعملها كثير ممن جاء بعده، ونحو ذلك البدء بمن اسمه أحمد من حرف الألف للسبب المذكور سابقاً، وهي طريقة معروفة قبل الخطيب أيضاً، كما هي في كتاب «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم، وغيره.

ومن هنا فإن المصنف حينما بدأ بمن اسمه محمد واسم أبيه إسحاق اعتذر عن ذلك بسبب المنزلة الرفيعة التي يحتلها ابن إسحاق عند المحدثين، فهو من أوائل العلماء الكبار الذين دفنوا ببغداد، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: «لم أر في جملة المحمدين الذين كانوا في مدينة السلام من أهلها والواردين إليها أكبر سِنّاً وأعلى إسناداً وأقدم موتاً منه، ولهذه الأسباب المجتمعة فيه افتتحت كتابي بتسميته، وأتبعته بمن يلحق به من أهل ترجمته، ولولا ذلك لكان أولى الأشياء تقديم ترجمة «محمد بن أحمد» على ما عداها من الأسماء اقتداء بما رسمه لنا أئمة شيوخنا».

وحين انتهى المصنف من الأسماء أفرد باباً للكنى قال فيه: «هذا ذكر من عرف بكنيته ولم يُذكر لنا اسمه أو ذكر الاختلاف فيه ولم يتضح لنا الصواب».

ونظراً لقلة المترجمين بكناهم فقد رتبهم على الوفيات، وأتبعهم بمن لم يُعرف اسمه ولا كنيته من نحو أخي فلان، وعم فلان.

ثم ترجم للنساء المذكورات بالفضل ورواية العلم، ورتّب تراجمهن على الوفيات أيضاً لقلة عددهن.

نقد الكتاب:

أُخذ على الخطيب رحمه الله نقده الشديد وتعصبه على بعض الأعلام، وكان منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله وقال الإمام الذهبي في ذلك: «ليت الخطيب ترك بعض الحط على الكبار فلم يروه»[1]، وقال الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف في هذه المسألة ما يلي:

«وقد انتقد الخطيب بسبب هذا المنهج بعض مخالفيه في العقيدة والمذهب، فتكلم فيه من الحنابلة جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ في كتابه «المنتظم»، وألّف كتاباً في الرد عليه سماه «السهم المصيب في بيان تعصب الخطيب» كما أثارت ترجمته لأبي حنيفة حفيظة بعض الأحناف فألّف الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٢٤هـ[2] كتاب «السهم المصيب في كبد الخطيب»، وألف الشيخ محمد بن زاهد الكوثري[3]

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٩٧/١٨.

(٢) عيسى «الملك المعظم» بن محمد «الملك العادل» أبي بكر بن أيوب، شرف الدين الأيوبي: سلطان الشام. من علماء الملوك. كان فارساً شجاعاً. له عدة كتب وآثار منها المدرسة المعظمية في صالحية دمشق. ولد في القاهرة سنة ٥٧٦، وتوفي في دمشق ٦٢٤. انظر ترجمته في «الأعلام»: ١٠٧/٥ ـ ١٠٨.

(٣) محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري. فقيه حنفي. شركسي الأصل. له اشتغال بالآداب والسير ولد في تركيا سنة ١٨٧٩/١٢٩٦ وتفقه في جامع الفاتح، ثم درّس فيه. اضطهده الاتحاديون في الحرب العالمية الأولى، لمعارضته خطتهم في إحلال العلوم الحديثة محل العلوم الدينية، في أكثر حصص الدراسة. ولما ولي «الكماليون» وجاهروا بالإلحاد أريد اعتقاله، فركب إحدى البواخر إلى الإسكندرية سنة ١٩٢٢/١٣٤١ وتنقل زمناً بين مصر والشام، ثم استقر في =



كتابه: «تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب».

«وقد شعر المنصفون منذ وقت مبكر بهذا التحامل، ولم يرض به العقلاء، فوصفه المؤتمن الساجي المتوفي سنة [1]٥٠٧ بأنه «تحامل» وقال الإمام الذهبي: «تناكد ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ وغضّ من الخطيب ونسبه أنه يتعصب على أصحابنا الحنابلة».

ثم بين الأستاذ بشار ما جرى من الخطيب في ترجمة الإمام أبي حنيفة بياناً حسناً منصفاً فقال حفظه الله تعالى:

«ثبت من دراستنا لأبي حنيفة وطبيعة الصراعات الفكرية التي نجمت بعد انتشار مذهبه أن كتب التراجم عامة وكتب الجرح والتعديل ـ خاصة التي ألفها المحدثون قبل الخطيب ـ قد تناقضت تناقضات شديدة في مدحه وقدحه، وتعديله وجرحه، وهي غالباً ما تعبر عن روح العصر والصراعات الحادة بين أهل الحديث وأهل الرأي في النقد والتجريح بسبب الاختلاف في العقائد والآراء، كما ألفت في جانب آخر الكتب الكثيرة في مناقبه وفضائله التي جعلته في مقام الملهمين.

وقد جاء الخطيب بعد وفاة أبي حنيفة بثلاثمائة عام تقريباً ليجد كل ذلك الكمّ المتراكم من الأقوال والآراء، فنظر فيه واقتبس منه استناداً إلى

= القاهرة، موظفاً في «دار المحفوظات» لترجمة ما فيها من الوثاق التركية إلى العربية وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٧١/١٩٥٢ وكان يجيد العربية والتركية والفارسية والشركسية، وفي نطقه بالعربية لكنةٌ خفيفة. له تعليقات كثيرة على بعض المطبوعات في أيامه، في الفقه والحديث والرجال، وله تآليف. انظر «الأعلام»: ٦/١٢٩.

(١) المؤتمن بن أحمد بن علي، أبو نصر الربعي الدير عاقولي المعروف بالساجي عالم بالحديث ثقة. ولد سنة ٤٤٥. له نظم. سكن القدس زماناً، وأقام بهراة عشر سنين. قرأ الكثير، وكتب «جامع الترمذي» ست مرات، وكان يقال: لا يمكن أن يكذب على رسول الله ﷺ أحد ما دام هذا حياً. توفي رَحِمَهُ اللهُ ببغداد سنة ٥٠٧. انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ»: ٤/٤٢ و«الأعلام»: ٧/٣١٨.

منهجه، فذكر في أول الترجمة ما قيل فيه من ثناء ومدح، وهو في الأغلب الأعم يقتبس من كتب الفضائل والمناقب التي كتبها الأحناف، فذكر بعد أن ساق نسبه وأصله بتفصيل: إرادة ابن هبيرة إياه على ولاية القضاء وامتناعه من ذلك، وقدومه بغداد وموته بها، وصفته، ومولده، وابتدائه بالنظر في العلم، ثم كتب ثلاثاً وثلاثين صفحة في مناقبه وفقهه، وخمس صفحات في جوده، وعشر صفحات في وفور عقله وفطنته وتلطفه، ثم تطرق إلى مسألة الإيمان، وخلق القرآن ورأي أبي حنيفة فيها، وما حكي عنه من رأيه في الخروج على السلطان الجائر، وما «ذُكر عنه من مستشنعات الألفاظ والأفعال» وما قاله العلماء في ذم رأيه والتحذير منه، وهو بقية ما نقل عن المتقدمين من سوء الثناء عليه.

ومن يدرس هذه الترجمة بعين الإنصاف يجد أن نصفها تقريباً في مدحه ونصفها في قدحه، وقد اعتذر المصنف بعد أن ساق الروايات العديدة صحيحها ومكذوبها في الثناء عليه وتقريظه، عن ذكره سوء الثناء عليه، فقال:

«ومعتذرون إلى من وقف عليها وكره سماعها بأن أبا حنيفة عندنا مع جلالة قدره أسوة غيره من العلماء الذين دوّنا ذكرهم في هذا الكتاب، وأوردنا أخبارهم، وحكينا أقوال الناس فيهم على تباينها، والله الموفق للصواب».

وقد أخذ عليه ناقدوه أنه أورد في القسم الثاني من الترجمة وهو المتعلق بسوء الثناء عليه كثيراً من الأخبار الواهية من غير أن يبين وهاء أسانيدها أو يتكلم عليها وهو أمر فيه شيء من الصحة والحقيقة، لكنهم لم يعيبوا عليه إيراد عشرات الروايات الضعيفة والتالفة والموضوعة في الثناء عليه مما لا يقبله عقل ولا يستسيغه منطق.

نعم لا يشك باحث بأن القسم الخاص بسوء الثناء عليه قد تضمن كثيراً من الروايات الواهية والضعيفة والمكذوبة، ولكن ثبت كما ثبت في مناقبه ما يؤكد



صحة آراء لكبار العلماء كالإمام البخاري[1]، وسفيان بن عيينة[2] وغيرهما من كبار المحدثين في ذم أبي حنيفة ورأيه وتضعيفه، فإن كانت مثل هذه الأقوال قد ثبتت عنهم فلا ذنب فيها للخطيب، وهي مع ثبوتها لا يعني أنها صحيحة صائبة؛ ذلك أنها تمثل الجو العام الذي كان سائداً بين المحدثين وأصحاب الرأي، فيتعين تقدير الظرف الذي قيلت فيه، ودراسة البيئة التي نمت فيها.

كما يتعين الانتباه إلى أن بعض ما عُدَّ عند الفريقين من سوء الثناء عليه إنما هو في حقيقته مما لا مطعن فيه عليه، ومنه ما نقل عنه من أقوال وأفعال في الخروج على السلطان الجائر، فأكثر الأخبار التي ساقها الخطيب في هذا الأمر صحيحة، وسيرته العلمية تدل على ذلك، فموقفه المؤيد لثورة زيد بن علي[3] معروف، وحثه الناس على الخروج مع محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[4] أشهر من أن يذكر، وانتقام المنصور منه لأجل ذلك معروف مشتهر، وهو بعد كل ذلك مذهب للسلف قديم، فقد خرج أئمة من المسلمين من القراء والفقهاء، والمحدثين مع عبدالرحمٰن بن

---

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، بالولاء، أبو عبدالله البخاري، جبل الحفظ وإمام الدنيا في فقه الحديث، توفي رحمه الله سنة ٢٥٦ وله ٦٢ سنة. انظر «تقريب التهذيب»: ٤٦٨.

(٢) هو الإمام سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي. ثقة، حافظ، فقيه، إمام، حجة. توفي سنة ١٩٨ وله إحدى وتسعون سنة. انظر «التقريب»: ٢٤٥، و«تهذيب التهذيب»: ١٠٤/٤ ـ ١٠٧.

(٣) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أبو الحسين الهاشمي العلوي المدني، أخو أبي جعفر الباقر. كان ذا علم وجلالة وصلاح. خرج على هشام بن عبدالملك فقتل شهيداً في المعركة ثم صلب ٤ سنين سنة ١٢٢ وعمره قد ناف على الأربعين، رحمه الله. وإليه تنسب الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة عدا الجارودية منهم فإنهم رافضة. وسمى الرافضة رافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي حين تولى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٨٩/٥ ـ ٣٩١.

(٤) المشهورين بابني النفس الزكية. خرجا على أبي جعفر المنصور في مدينة رسول الله ﷺ وفي الكوفة لمدة أربعين يوماً وكاد أن تزول دولته حتى استعد للهرب ثم هزما وقتلا سنة ١٤٥ رحمهما الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨٨/٧.



الأشعث[١]، منهم: مسلم بن يسار المزني[٢]، والنضر بن أنس بن مالك[٣]، وسيار بن سلامة الرياحي[٤]، ومالك بن دينار[٥]، وأبو شيخ الهنائي[٦]، وسعيد بن جبير[٧]، وعامر الشعبي[٨]، وعبدالله بن شداد بن الهاد[٩]، وعبدالرحمٰن بن أبي ليلى[١٠]،

---

(١) عبدالرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي، الأمير على سجستان من قِبَل الحجاج، فثار هنالك وأقبل في جمع كبير، وقام معه علماء وصلحاء لله تعالى لما ظهر من فساد الحجاج وظلمه، فقاتله الحجاج، وجرى بينهما عدة مصافات وينتصر ابن الأشعث ودامت الحرب أشهراً، وقتل خلق من الفريقين، وفي آخر الأمر انهزم جمع ابن الأشعث وفر، ثم قتل رحمه الله سنة ٨٤. انظر الحادثة في «سير أعلام النبلاء»: ١٨٣/٤ ـ ١٨٤.

(٢) القدوة الفقيه الزاهد، أبو عبدالله البصري، مولى بني أمية. توفي رحمه الله سنة ١٠٠. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٥١٠/٤ ـ ٥١٤.

(٣) النضر بن أنس بن مالك الأنصاري، أبو مالك البصري. ثقة روى له أصحاب الكتب السّتّة. مات رحمه الله سنة بضع ومائة. انظر «التقريب»: ٥٦١/١.

(٤) سيار بن سلامة الرياحي، أبو المنهال البصري. ثقة روى له أصحاب الكتب الستة. مات رحمه الله سنة تسع وعشرين ومائة. انظر «التقريب»: ٢٦١/١.

(٥) معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف. توفي رحمه الله سنة ١٢٧. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٢/٥ ـ ٣٦٤.

(٦) الهنائي بضم الهاء وتخفيف النون البصري قيل: اسمه حيوان، بالمهملة أو المعجمة ابن خالد وهو ثقة من الثالثة. انظر ترجمته في «التقريب»: ٦٤٨/١.

(٧) هو الإمام الحافظ المقرىء المفسر الشهيد أبو محمد سعيد بن جبير بن هاشم الأسدي الوالبي بالولاء، الكوفي. روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين، وقرأ القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما. وكان من كبار العلماء، عاش ٥٧ سنة، قتله الحجاج سنة ٩٥ لخروجه في فتنة ابن الأشعث، انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٣٢١/٤ ـ ٣٤٣.

(٨) عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمر. ثقة مشهور. فقيه فاضل، قال مكحول: ما رأيت أفقه منه. مات رحمه الله بعد سنة مائة عن نحو ثمانين سنة. انظر المصدر السابق: ٢٨٧.

(٩) الليثي، أبو الوليد المدني. ولد على عهد النبي ﷺ من كبار التابعين الثقات وكان معدوداً في الفقهاء، روى له أصحاب الكتب السّتة. مات بالكوفة مقتولاً سنة إحدى وثمانين وقيل بعدها. انظر ترجمته في «التقريب»: ٣٠٧/١.

(١٠) الإمام العلامة الحافظ أبو عيسى الأنصاري الكوفي الفقيه، من أبناء الأنصار. ولد في خلافة الصديق رضي الله عنه. قتل بواقعة الجماجم لما خرج مع ابن الأشعث سنة ٨٢، رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٦٢/٤ ـ ٢٦٧.

وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود[١]، والمعرور بن سويد[٢]، ومحمد بن سعد بن مالك[٣]، وطلحة بن مصرف اليامي[٤]، وزبيد بن الحارث اليامي[٥]، وعطاء بن السائب[٦] وغيرهم من العلماء العاملين الأعلام، وقال مالك بن دينار: «خرج مع ابن الأشعث خمس مئة من القراء كلهم يرون القتال»، وإنما استقر القول بعدم الخروج على الظلمة في الفكر السياسي الإسلامي عند أكثر العلماء في القرن الثالث، فظهر في فقه المذاهب، فإن كان أبو حنيفة قد أخطأ في ذلك فقد أخطأ فيه مئات العلماء ممن خرجوا قبله وفي زمانه وبعده، فكان ماذا؟!

ومع كل هذا الذي ذكرت فإن الخطيب قد أثنى على عشرات الأحناف ممن ترجم لهم في كتابه، بله نقله أخبار الكثير منهم ومناقبهم وسيرهم من طريق شيخه القاضي أبي عبد الله الحسين بن علي بن محمد بن جعفر الصيمري الحنفي ٣٥١ ـ ٤٣٦ هـ الذي وصفه فقال: «كان أحد الفقهاء المذكورين من العراقيين، حسن العبارة، جيد النظر، كتبت عنه، وكان صدوقاً وافر العقل جميل المعاشرة عارفاً بحقوق أهل العلم».

---

(١) مشهور بكنيته والأشهر أنه لا اسم له غيرها، ويقال: اسمه عامر. كوفي ثقة. والراجح أنه لا يصح سماعه من أبيه. مات وعمره قريب من المائة بعد سنة ثمانين. انظر «التقريب»: ٦٥٦/١.

(٢) الأسدي، أبو أمية الكوفي. ثقة. عاش رحمه الله مائة وعشرين سنة. روى له أصحاب الكتب الستة. انظر «التقريب»: ٥٤٠/١.

(٣) محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري، أبو القاسم المدني. نزيل الكوفة. كان يلقب «ظل الشيطان» لقصره. ثقة روى له الشيخان وغيرهما. قتله الحجاج بعد الثمانين قبل أن يبلغ المائة. انظر «التقريب»: ٤٨٠/١.

(٤) طلحة بن مصرف بن عمرو اليامي الكوفي. ثقة روى له أصحاب الكتب الستة، قارىء، فاضل. مات رحمه الله سنة اثنتي عشرة ومائة أو بعدها. انظر «التقريب»: ٢٨٣/١.

(٥) الحافظ، أحد الأعلام. من الكوفة وعداده في صغار التابعين. كان من العباد الكبار، وتوفي رحمه الله سنة ١٢٢. انظر المصدر السابق: ٢٩٦/٥ ـ ٢٩٨.

(٦) عطاء بن السائب أبو محمد ويقال أبو السائب الثقفي الكوفي صدوق اختلط. مات رحمه الله سنة ست وثلاثين ومائة. روى له الإمام البخاري والأربعة. انظر «تقريب التهذيب»: ٣٩١/١.

والحق أنني قلّما وجدت تعصُّباً ظاهراً عنــد الخطيب، فقد أثنى على كثير ممن يختلف معهم في العقيدة والمذهب.

أقوال العلماء في كتابه:

قال أبو الخطاب بن الجراح:

جلا محاســن بغداد فأودعهــا   تاريخه مخلصاً لله محتسبــاً
وقام في الناس بالقسطاس منحرفاً   عن الهوى وأزال الشك والريبا

وقال الأستاذ الدكتور صالح العلي:

«غير أن أعظم كتبه هو «تاريخ مدينة السلام» الضخم الذي تنيف صفحاته على العشــرة آلاف صفحــة، وفيه تراجم لأكثر من ســبعة آلاف وســبع مئة وثمانيــن ممن عاش ببغداد أو مــرَّ بها للتزود من العلــم أو لإغنائه في هذه المدينة الخالدة التي أسهم أهلها في جوانب كثيرة من الحياة الحضرية، ومن المعارف، لا ســيما علوم الدين، وأخصها علم الحديث الــذي كانت بغداد أعظم مراكز دراسته.

وألَّــف الخطيب كتابه فــي تاريخ بغداد فــي زمن كانت فيه هــذه المدينة الخالدة تجتاحها أحوال سياســية وأمنيــة مرهقة، وتدنٍّ في أحوالها المعاشــية والعمرانية مما أتعــب أهلها، ولكنها لم تطفئ جذوة العلــم، ولم تقدم مُقَدّريه والعاملين على الحفاظ عليه.

وقد ســبقه في تدوين أخبار علماء بغداد وأحوالها عدد من العلماء، فألفوا كتباً مبدعة فيمن ظهر فيها من رجال العلم وفي عمرانها وبعض ســمات العلم فيها، ولكتبهم قيمة جديرة بالتقدير، اطلع الخطيب علــى أكثرها، وتزود منها، ولكنها عموماً أقرب إلى الرســائل في حجمها المحــدودة، وكمية المادة التي عرضتها، وبذلك فتحت الباب لمن يريد الاستزادة منها.



ومما يتميز به كتاب الخطيب على ما ألف قبله كثرة عدد التراجم، وغزارة المعلومات التي ثبتت القيم فيها وأضافت غير قليل من المعلومات التي تفرد بها مما أكسب الكتاب مكانة مرموقة، ولا ريب في أن محتوى الكتاب ـ على غزارته ـ إنما هو بعض معرفته وليس كلها، ولكنه يتميز بأنه عرض فيه ما رآه جديراً بالتدوين، فالكتاب يعزز الثقة بما رواه»!![1]

- ومن اللطائف العجيبة أن أبا عليّ الحسن بن أحمد ابن البنّاء الفقيه الحنبلي صاحب التصانيف الكثيرة المتوفى سنة ٤٧١ كان يتمنّى أن يُترجم له الخطيب في تاريخه، وسأل: هل ذكره الخطيب في التاريخ؟ ومع من ذكره؟ أمع الكذابين أم مع أهل الصدق؟ فقيل له: ما ذكرك أصلاً.

  فقال: ليته ذكرني ولو مع الكذابين!![2]

  وهذه اللطيفة العجيبة تدل على تعلق العلماء بتاريخ بغداد.

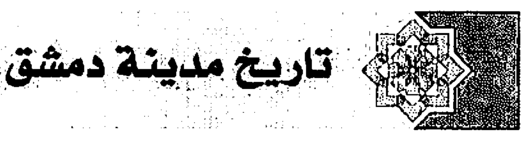
أحسن طبعات الكتاب:

أفضل وأحسن طبعة لهذا الكاتب العظيم هي طبعة دار الغرب الإسلامي بتحقيق الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

---

(١) مقدمة «تاريخ بغداد»: ١/٧.

(٢) ذكرها د.بشار معروف نقلًا عن «إنباه الرواة»: ١/٢٧٦، و«السير» للذهبي: ١٨/٣٨١، انظر «تاريخ بغداد» بتحقيق د.بشار معروف: ١/١١١ الطبعة الأولى.



تاريخ مدينة دمشق

وذكر فضلها وتسمية مَن حَلّها من الأماثل
أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها

تصنيف

الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١)

ترجمة المصنف:

الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ، ولد سنة ٤٩٩. وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ، وكان دِّيناً، صنف التصانيف المفيدة أجلّها «تاريخ دمشق». توفي رحمه الله سنة ٥٧١ بدمشق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣٠٩/٣ ـ ٣١١.

أهمية الكتاب:

كتاب الحافظ ابن عساكر هو أعظم كتاب أُلف في مدينة دمشق وأوسعها على الإطلاق؛ فقد أورد فيه آلاف التراجم، وأورد تاريخ مدينة دمشق بما لا مزيد عليه، وفي هذا يقول الدكتور صلاح الدين المنجد رحمه الله[1]:

«لم تشهد دمشق في تاريخها محدِّثاً فاق الحافظ في الحديث، ولم تعرف في تاريخها ثمانين مجلدة غيره، فيكفيها فخراً أنها أوتيت أوسع تاريخ كتب عن مدينة إسلامية، كتبه مؤلف من أعظم العلماء في صدر الإسلام»[2].

---

(١) باحث وكاتب من أهل دمشق. ولد فيها سنة ١٣٣٤ وتخرج في دار المعلمين، ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس. توفي رحمه الله سنة ١٤٣١/٢٠١٠. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٢) «تاريخ دمشق» المقدمة.

وقال الأستاذ محمد كُرْدْ علي[1]:

«ما حظيت مدينة في الإسلام بتاريخ لها يضاهي تاريخ دمشق هذا».

وقال أيضاً:

«وقد يكون تاريخ دمشق أوسع تواريخ المدن، وهو أيضاً من أوسع المصادر في تراجم الرجال، حتى ليجرد منه كتب على حدة في موضوعات مختلفة كولاة دمشق مثلاً وقضاتها وشعرائها، ومنه يستخرج أحسن تاريخ لبني أمية سكتت معظم التواريخ عنه، وهو إلى ذلك حوى عدة كتب مستقلة، فكل طالب يظفر فيه بطلبته، ويجد فيه ما لا يجده في كتاب غيره، لأن ابن عساكر يمتاز بالتحري والبسط والاستقصاء وتتبع النوادر في سير المترجم لهم، وأخبارهم»[2].

منهج المصنف في كتابه:

قال محققو تاريخ دمشق:

«يقع الكتاب في قسمين رئيسين، خص ابن عساكر القسم الأول منه بمدينة دمشق، فتحدث عنها حديثاً مستفيضاً: اشتقاق تسميتها ـ فضائل أهلها ـ طيب هوائها ـ سنة افتتاحها ـ شرف جامعها ـ حصر مساجدها ـ الأنهار المحتفرة بها وتسمية أبوابها ونسبة هذه الأبواب. وذلك كله بعد أن ذكر

---

(١) محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كُرْدْ علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، من كبار الكتّاب. ولد سنة ١٢٩٣ بدمشق، وأصله من أكراد السليمانية ـ من أعمال الموصل ـ وتعلّم في المدرسة الرشدية، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة. وأحسن التركية والفرنسية وتذوّق الفارسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، وتولى رئاسة تحرير عدد من المجلات والجرائد. هاجر إلى مصر وبقي فيها سنين، واتهم مرات بمعاداة جمعية الاتحاد والترقي وكاد يُقتل. ولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية. وكان من أصفى الناس سريرة وأطيبهم لمن أحبهم عشرة وأحفظهم وداً. توفي رحمه الله بدمشق سنة ١٣٧٢. انظر «الأعلام»: ٢٠٢/٦ ـ ٢٠٣.

(٢) مقدمة الأستاذ كرد علي لتاريخ دمشق ١/د نقلًا عن مقدمة تحقيق الأستاذ عمر العمروي لتاريخ دمشق ٢٩.

اشتقاق اســـم (التاريخ) ومبتدأه، وتطرق إلى تاريخ الهجرة النبوية، واشتقاق تسمية الأيام والشهور.

تلك هي مقدمة التاريخ الكبير.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد ضمنه تاريخ بلاد الشام مقتفياً في ذلك طريقة المحدثين من حيث العناية بالســند كالعناية بالخبر، وحيــن ترجم للقواد والخلفاء والأمراء لم يفته أن يســوق تراجــم المحدثين والفقهــاء والشــعراء، متَّبعاً ترتيب الحروف العربية، بادئاً بمن اسمه أحمد قبل من اسمه إبراهيم تبركاً بالرسول الكريم.

وقال الأســتاذ محمد بن غرامة العمروي، وهو محقــق آخر لكتاب «تاريخ مدينة دمشق» مبيِّناً منهج المصنف:

ســمى أبو القاســم الحافظ ابن عســاكر تاريخه: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها...

يفهم من تسميته أنه أرخ لمدينة دمشق في مرحلة ما، أو في عصره، والذي يعرض للكتاب يرى أن ابن عساكر لم يخص دمشق أو نواحيها فقط، بل تعداها في الكلام فكتب لبلاد الشــام كلها، ويصبح التخصيص في التسمية قاصراً عن الإحاطة بمضمون شمولية الكتابة والمواضيع والتراجم التي تطرأ إليها.

يقول د.شكري فيصل في مقدمة المطبوعة «عاصم ـ عائذ»:

«إن المؤلف لا يقدم لنا تاريخاً دمشــقياً، ولا تاريخاً شــامياً فحسب، وإنما يقدم تاريخاً حضارياً لهذه البلاد كلها التي انتشــر فيها الإســلام وســادت فيها العربية، وانساحت فيها مهاجرة العرب المســلمين بين أقصى الشرق فيما وراء النهر، وبين أطراف المحيط».

ولقد خص الحافــظ المجلدة الأولى بفضائل الشــام وفتوح الشــام عامة، وبعض المجلدة الثانية بخطط دمشــق، وذكر مســاجدها، وكنائســها، وأبوابها،

ودورها، وأنهارها، وقنواتها، ثم بدأ بالترجمة لكل من دخلها، أو اجتاز بنواحيها من أنبيائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضاتها وعلمائها وقرائها ونحاتها، وشعرائها ورواتها»[1].

ثم ينقل عن د.شكري فيصل رئيس المجمع العلمي العربي الدمشقي قوله:

«إنه يؤرخ لجوانب من الجاهلية من حيث يترجم لرجال من الجاهليين والمخضرمين، عرفوا دمشق وأعمالها، أو حلُوا بها أو اجتازوا بنواحيها من وارديها وأهلها، كما يقول في عنوان كتابه.

ثم هو يؤرخ للسيرة النبوية بجوانبها وللذي اتصل بها ونتج عنها وما كان فيها من أحداث، وذلك حين يبدأ كتابه بسيرة النبي ﷺ ويخصص لذلك نصف المجلدة الثانية.

ثم هو يترجم للخلفاء الراشدين ﵃، ولمن كان حولهم ومعهم تراجم طويلة مستوفاة فتأتي هذه التراجم كأنها تاريخ للعصر كله بالكثير من دقائقه التي لا نجد بعض مادتها عند غيره، والتي لا تمتد في بلاد الشام وحدها بل في أقطار الإسلام كلها حيث انتشر هؤلاء العرب في العصر الأموي من أقطار الدنيا هداة أو دعاة، قواداً وعلماء.

ومن الطبيعي أن يكون كتاب ابن عساكر أغنى المصادر عن تاريخ الأمويين، ولكن تاريخ الأمويين ليس تاريخهم هم فحسب وإنما هو تاريخ العرب والمسلمين في الفترة التي كانت فيها دمشق عاصمة الحياة العربية...

إن تاريخ دمشق لابن عساكر يقدم للذين يدرسون التاريخ الأندلسي: فتوحاته وسياسته، وإمارته وخلافته، وإداراته وقيادته، وعلومه وثقافته، وأدبه وفكره، مادة طيبة وخاصة في بداياته الأولى مما هو جدير بالتتبع له والإفادة منه.

---

(١) مقدمة تحقيق «تاريخ دمشق»: ١/٢٨.



وكان تاريخ ابن عساكر: يمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ثم يجاوز ذلك ليكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية.

ويمتد في الزمان ليسجل أطرافاً من تاريخ الجاهلية، ثم يكون تاريخاً للسيرة النبوية والعصر الراشدي والخلافة الأموية ثم ما بعدها من الخلافة العباسية والدويلات حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري «٥٧١».

ويمتد عمقاً في فهم التاريخ فلا تستوقفه الأحداث والوقائع وحدها وإنما يتناول روح التاريخ حين يقدم لنا المادة الأولية الغنية لرصد الحركة الحضارية: ديناً وشريعة وثقافة وفكراً. كذلك كان، وكذلك يجب أن نفهمه وأن ننظر إليه.

ومع أهمية هذا الكتاب، فإن مؤلفه الحافظ أبا القاسم كان محدثاً قبل أن يكون مؤرِّخاً، وقد غلب عليه الحديث، حيث تعمق في معرفته متناً وسنداً وطرقاً؛ حتى غدا إمام أهل الحديث في زمانه، لذلك فقد سلك في تاريخه هذا نهج المحدثين فهو يبدأ بذكر السند ثم يورد الخبر...»[1].

ثم قال محقق الكتاب الأستاذ عمر العمرويّ:

وأما التراجم فقد رتبت على حروف الهجاء، وبدأ بمن اسمه أحمد قبل من كان اسمه إبراهيم، واعتبر الحروف في أسماء آبائهم وأجدادهم، وأردف ذلك بمن عرف بكنيته ولم يقف على حقيقة تسميته، ثم بمن ذكر بنسبته وبمن لم يسم في روايته، وأتبعهم بذكر النسوة، والإماء والشواعر.

---

(١) المصدر السابق: ٣١ ـ ٣٣.

وابن عساكر حين يترجم لمن يترجم لهم من الشاميين أو غيرهم لا يسوق الترجمة على أنها نتيجة مطالعاته وقراءاته، ولا يصوغها على أنها خلاصة أفكاره واطلاعاته وإنما يقدم لك مادتها الأولى مسندة في كل جزئية من جزئياتها، حتى في الاسم أو الكنية أو يوم الوفاة، وتتعدد صور الخبر بتعدد الأسانيد التي انتهت إليه الروايات التي جاء عليها، وقد تتكاثر الأسانيد على خبر واحد في صورة واحدة، أو صور متقاربة...

إنه يتابع أصحاب الحديث في طريقتهم في الإسناد، وكانت تلك هي الطريقة السائدة في كل فروع الثقافة الإسلامية تثبتاً من الخبر وتوخياً للحق فيه ونشداناً للصواب، حتى إذا تتابعت القرون تحلل أصحاب الأخبار الأدبية من ذلك، ثم لحق بهم مؤرخون من المؤرخين وأصحاب التراجم، وبقي ابن عساكر ومن في طبقته يمثلون ذروة هذا الأسلوب في القرن السادس الهجري.

ولهذا فإن كل ما عند ابن عساكر في تاريخه ينشعب في هٰذين القسمين الكبيرين:

الأسانيد، والأخبار.

وكان ابن عساكر صاحب منهج، فما كان من الأحاديث متفقاً مع منهجه جال فيه وصال وأسهب وأطنب، وهذا لا يعني أنه لم يكن موضوعيّاً، فلا يظن أنه التزم المنهجية التزاماً دقيقاً؛ إذ لم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك، فهو ينقل أخباراً وأحاديث متعددة الجوانب، وكثيراً ما يكون مضطراً إلى روايتها بتمامها حرصاً على سلامة الرواية، وتمام الحديث أو الخبر»[١].

---

(١) المصدر السابق: ٣٣ ـ ٣٤.

وقال د. طلال الدعجاني مبيِّناً جوانب مهمة من منهجه:

«نقده للروايات:

على الرغم من سعة المادة التي أوردها ابن عساكر في تاريخه، إلا أنه لم يكن مجرد ناقل فقط، بل نجده يقوم بنقد الأسانيد والمتون، ويسجل بعض الأخطاء التي وقع فيها المصنفون السابقون.

فمن حيث الإسناد: أوضح بيان الأخطاء في أسماء الرواة، أو قلبها، أو تصحيفها، أو في جعل الواحد اثنين، وجعل الاثنين واحداً، أو الخطأ في الكنية، أو النسبة، أو في تجديد الطبقة، أو بيان الأوهام في المواليد، والوفيات.

أما من حيث المتن: فبين السقط في الإسناد، والمرسل، والمنقطع، والموقوف في الأحاديث، وبيان الغرابة، والنكارة فيها، أو في بيان التصحيف، والأخطاء النحوية فيها، كما أوضح أن بعض الأحاديث مختصرة، فأوردها بتمامها، وأبان المتابعات والمخالفات فيها.

الدقة في النقل:

اهتم ابن عساكر بالدقة أثناء نقله من مصادره، دلت على ذلك المقارنات التي طابقناها بين كتابه وبين مصادره، لكنه أثناء النقل صرح ببعض العبارات الدالة على دقته في النقل»[1].

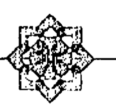
أقوال العلماء في الكتاب:

١ ـ قال الإمام الذهبي:

صنف وجمع فأحسن، فمن ذلك تاريخه في ثمان مئة جزء، قلت: الجزء عشرون ورقة، فيكون ست عشرة ألف ورقة.

---

(١) «موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق»: ٨٦/١ ـ ٨٨.



٢ ـ قال الحافظ المنذري[(١)]:

«ما أظن هذا الرجل إلا عزم على هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت»[(٢)].

٣ ـ قال الأستاذ محمد كرد علي:

«ما حظيت مدينة في الإسلام بتاريخ لها يضاهي تاريخ دمشق هذا»[(٣)].

مختصرات الكتاب وذيوله:

عُني العلماء بهذا الكتاب فذيّلوه واختصروه:

فممن اختصره الإمام أبو شامة عبدالرحمٰن بن إسماعيل المقدسي[(٤)]، فاختصره وزاد عليه فوائد وأتقنه[(٥)].

واختصره ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري[(٦)].

---

(١) الإمام العلامة، الحافظ المحقق، شيخ الإسلام، زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي بن عبدالله المنذري الشامي الأصل المصري الشافعي. ولد سنة ٥٨١، وتوفي رحمه الله سنة ٦٥٦. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣١٩/٢٣ ـ ٣٢٤.

(٢) «موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق»: ٧٥: ونقله المصنف عن كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان: ٣١٠/٣.

(٣) مقدمة الأستاذ كرد علي لتاريخ دمشق ١/د نقلًا عن مقدمة تحقيق الأستاذ عمر العمروي «تاريخ دمشق» ٢٩.

(٤) الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المقرئ النحوي، الملقب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر. له مصنفات عديدة مفيدة، وكان متواضعاً، محباً للعزلة والانفراد. قتلته الباطنية سنة ٦٦٥ رحمه الله. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١٣/١١ ـ ١١٦.

(٥) «موارد ابن عساكر»: ٩٣

(٦) محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب «لسان العرب»: الإمام اللغوي الحجة، من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر سنة ٦٣٠ (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر فتوفي رحمه الله فيها سنة ٧١١، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر =



وقد طبع هذا المختصر.

واختصره الإمام الذهبي[1]، لكنه مفقود فيما أعلم.

وهذَّبه ابن بدران[2]، وقد طُبع.

واختصره وهذبه أئمة غير أولئك تركت ذكرهم إيجازاً.

= عمره. قال ابن حجر: كان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة. وقال الصفدي: لا أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره. أشهر كتبه «لسان العرب» عشرون مجلداً، جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعاً. ومن كتبه «مختار الأغاني» ١٢ جزءا، و«مختصر تاريخ دمشق» لابن عساكر، وله شعر رقيق. انظر «الأعلام»: ١٠٨/٧.

(١) «موارد ابن عساكر» المصدر السابق: ٩٤

(٢) عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى بدران. فقيه أصولي حنبلي، عارف بالآداب والتاريخ، له شعر. ولد في «دومة» بقرب دمشق، وعاش في دمشق وتوفي بها سنة ١٣٤٦ رحمه الله. كان سلفي العقيدة، فيه نزعة فلسفية، حسن المحاضرة، كارهاً للمظاهر، قانعاً بالكفاف، لا يعنى بملبس أو بمأكل، ويصبغ لحيته بالحناء، وربما ظهر أثر الصبغ على أطراف عمامته. ضعف بصره قبل الكهولة، وفلج في أعوامه الأخيرة. ولي إفتاء الحنابلة. وانصرف مدة إلى البحث عما بقي من الآثار في مباني دمشق القديمة، فكان أحياناً يستعير سلّماً خشبياً وينقله بيديه ليقرأ كتابة على جدار أو اسماً فوق باب. وزار المغرب. له كتب كثيرة. انظر «الأعلام»: ٣٧/٤.



الكامل

لابن الأثير الجزري (ت٦٢٠)

ترجمة المصنف:

هو الإمام علي بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجَزَريّ، عز الدين. إمام، عالم، مؤرخ، اشتُهر بكتابه الكامل هذا. توفي سنة ٦٣٠ رحمه الله[1].

أهمية الكتاب:

نال هذا الكتاب شهرة متوسطة فليس هو بالمنتشر انتشار تاريخ الطبري وابن كثير والذهبي، لكنه كتاب جليل.

منهج ابن الأثير في كتابه:

ذكر المصنّف في مقدمة كتابه سبب تصنيف كتابه ومنهجه فيه فقال:

«فإني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مُؤْثِراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها، فلما تأملتها رأيتها متباينة في تحصيل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض، فمن بين مُطوِّلٍ قد استقصى الطرق والروايات، ومختصِرٍ قد أخلَّ بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات، والمشهور من الكائنات، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أحرى، كقولهم: خُلع فلان الذمي صاحب العيار، وزاد رطلاً في الأسعار، وأُكرم فلان، وأهين فلان.

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٥٣/٢٢.



وقد أرَّخ كل منهم إلى زمانه وجاء بعده من ذيل عليه، وأضاف المتجددات بعد تاريخه إليه والشـرقي منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشـرق، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً متصلاً إلى وقته يحتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال.

فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا.

ولا أقول إني أتيت على جميـع الحوادث المتعلقـة بالتاريخ، فإن من هو بالموصل لا بدَّ أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول: إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك.

فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنَّفه الإمام أبو جعفر الطبري؛ إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليـه، والمرجوع عند الاختلاف إليـه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أخـل بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هـو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شـيء مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه.

فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشـهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعت كل شيء منها موضعه، إلا ما يتعلق بما جـرى بين أصحاب رسـول الله ﷺ فإني لم أضف إلـى ما نقله أبو جعفر شـيئاً إلا ما فيه زيادة بيان، أو اسم إنسـان، أو ما لا يُطعن على أحد منهم في نقله، وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاد وصدقاً.

على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة، والكتب المشهورة، ممن يُعلم صدقهم فيما نقلوه، وصحة ما دونوه، ولم أكن كالخابط في ظلماء الليالي، ولا كمن يجمع الحصباء واللآلي.

ورأيتهم أيضاً يذكــرون الحادثة الواحدة في ســنين، ويذكرون منها في كل شيء أشياء، فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض، ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر، فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شــيء منها في أيِّ شهر أو سَنَة كانت، فأتت متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضها برقاب بعض.

وذكرت في كل سَــنَة لكل حادثة كبيرة مشــهورة ترجمــة[1] تخصها، فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شــيء ترجمة فإنني أفردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة، فأقول: ذكر عدة حوادث.

وإذا ذكرت بعض من نبغ وملك قطراً مــن البلاد ولم تطل أيامه فإني أذكر جميع حاله من أوله إلى آخره، عند ابتداء أمــره، لأنه إذا تفرق خبره لم يُعرف للجهل به.

وذكرت في آخر كل ســنة من توفــي فيها من مشــهوري العلماء والأعيان والفضلاء، وضبطت الأسماء المشــتبهة المؤتلفة في الخط، المختلفة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ـ ضبطاً يزيل الإشكال، ويغني عن الأنقاط والأشكال»[2].

- وقال الأستاذ أنور الخالدي مبيّناً جوانب من منهج ابن الأثير إضافة إلى ما سبق أو حسن بيان له:

«**أولاً**: صنف ابن الأثير تاريخه حسب الحوادث والسنين وليس حسب المواضيع.

ثانياً: اعتمد ابن الأثير على الوصف الدقيق للأحداث التاريخية.

---

(١) أي: عنواناً.

(٢) مقدمة المصنف لكتابه «الكامل»: ١١ ـ ١٢، وقد بيَّن المصنف منهجه بياناً حسناً.



ثالثاً: اعتمد ابن الأثير في إيراد مادة الكتاب أسلوباً هو في الأغلب أسلوب من ينقل عنهم، ومن هنا جاءت معظم متون هذه النصوص التي تمت مقارنتها مع المصادر التي نقل عنها مطابقة تماماً باستثناء ما ورد من اختلافات لفظية.

رابعاً: استشهد ابن الأثير بآيات من القرآن في كثير من رواياته، وأورد أحاديث شريفة، كما أورد أبياتاً من الشعر.

خامساً: اتبع أسلوب السهولة في ألفاظه بشكل عام، مركزاً على متن الخبر.

سادساً: تفاوتت رواياته من حيث طولها، فبعضها أخذ عدداً من الصفحات وخاصة في الجوانب السياسية، وبعضها قصير لا يتجاوز عدد الأسطر...

سابعاً: كما يتميز منهجه بنقد الروايات ولم يكن جامعاً للروايات فقط.

وانتقاده للخلفاء والولاة والأمراء.

ثامناً: يمكن القول: إن منهج التصنيف الذي اتبعه الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» هو المنهج الحولي (الترتيب حسب السِّنين)، وقد راعى ابن الأثير في ترتيب تاريخه تسلسل الحوادث، فرتبها حسب وقوعها سَنَة بعد سَنَة، فذكر في كل سنة ما وقع فيها من الأحداث التي رأى أنها تستحق الذكر.

ويختلف حجم الحوليات لديه حسب كثرة وقوع الحوادث فيها أو قلتها، وأهميتها، وبلوغ أخبارها إليه، فيطيل ويقصر وفق ذلك، فبعض الحوليات لا تعدو صفحة أو صفحتين، وبعضها الآخر يزيد طوله على خمس صفحات، وإذا كانت الحادث طويلة فيُجزِّئها حسب السنين التي تستغرقها.

أما طريقته في سرد أحداث كل حولية فليست على نسق واحد، فتارة يذكر الحادث التاريخي ثم يبدأ في ذكر تفصيله والروايات فيه، وتارة يذكر جملة الأحداث التي كانت تحتويها هذه الحولية، ثم يعود إلى تفصيل بعضها، وفي ختام الحولية يذكر بعض مَن توفي في تلك السَّنَةِ من المشهورين.



تاسعاً: وجاء أسلوب الكتابة التاريخية عند ابن الأثير متطوراً إلى حد بعيد، حيث تمَّ التخلي عن مسألة الإسناد في الخبر التاريخي في مؤلَّفه واكتفى بتوثيق المادة من خلال إيراده لمصادر الخبر التاريخي أو الحادثة التاريخية في مقدمة الكتاب أو في ثناياه، وبالنسبة للغة الكتاب من الناحية الأدبية فجاءت سهلة ليست بالمسجوعة ولا المصطنعة، فقد تم اعتماد اللغة المتداولة بين المؤرخين في زمانه ومن سبقه دون تجاوز في ذلك، فلم يكتب باللغة العامية ولم يستخدم الألفاظ التي تُشْكِل على القارئ[1]».

نقد الكتاب:

١ ـ اتُّهِمَ ابن الأثير رحمه الله بأنه يؤيد الدولة العُبيدية المسماة زوراً بالدولة الفاطمية، ويؤيد غيرها من دول الشيعة، وفي ذلك قال الأستاذ محمد العبدة:

«كنت أعلم أن للمؤرخ ابن الأثير موقفاً من الدولة العبيدية ـ التي تسمى بالفاطمية ـ يتعلق بتصحيح نسبهم إلى علي رضي الله عنه وهي القضية التي أثير حولها جدل كبير بين القدماء والمعاصرين، وكنت أظن أن الأمر يتعلق بموضوع النسب فقط، وهو شبيه بموقف ابن خلدون أيضاً، وإن كانا قد خالفا في هذه المسألة أكثر علماء الأمة ومؤرخيها، ولكن من خلال قراءتي لأحداث القرنين الرابع والخامس في «الكامل» تبيَّن لي أن ابن الأثير لا يصحح النسب فقط، بل هو متعاطف مع هذه الدولة بشكل عام، فهو يمدح ملوكهم ويبرز محاسنهم ولا يذكر عيوبهم، ويؤكد في كل مرة يترجم لأحدهم بقوله: «الخليفة العلوي»، كأنه يريد أن يرسخ هذا في ذهن القارئ.

ثم تبيَّن لي أنه يُغرق في مدح بعض ملوك الدولة البويهية وأمراء الدولة الأسدية والحمدانية، وهذه الدول والإمارات كلها غير سُنِّيَّة.

ثم رجعتُ إلى حوادث المائة الأولى من الهجرة، لأرى كيف عرض لموضوع الدولة الأموية والأحداث التي عاصرتها، فتأكَّد لي هذا الاتجاه عنده.

(١) مقالة بمجلة «المنارة»: المجلد ١٥ العدد ١ سنة ٢٠٠٩.



ونحن لا نريد مناقشة ابن الأثير حول نسب العبيديين، فقد كتب الكثير حول هذا الموضوع، وآراء العلماء والمؤرخين الذين دحضوا نسبهم وكذبوهم فيه موجودة معروفة لمن أرادها، ولكن سنكتفي بذكر أعمالهم القبيحة التي لم يُشر إليها هذا المؤرخ ولم يعلق عليها أو ينتقدها، مع أنه نقد أعمال غيرهم من الملوك الذين هم أفضل منهم بكثير، بل لا يقارَنون بهم، ومع أن ابن الأثير من أسرة علمية مشهورة، فهو صاحب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، وأخوه مجد الدين أبو السعادات[1] صاحب «جامع الأصول»، ووالده من كبار موظفي الدولة الزنكية، وهي دولة سُنِّية، وعاش في مدينة سُنِّية وهي الموصل، وقد تتبعت من كتب عنه أو ترجم له أو لمن أخذ عنهم من العلماء؛ فلم أجد جواباً شافياً عن السؤال المتبادر: ما هو سبب هذا الاتجاه عند ابن الأثير؟

وقد انتقدوه لتحامله أحياناً على صلاح الدين الأيوبي، وعللوا ذلك بتعصبه للأسرة الزنكية، ولكن لم يشيروا إلى مدحه لملوك الدولة العبيدية وغيرهم مما سنوضحه في هذا المقال، ولعل الله ييسّر لنا الاطِّلاع على مصادر أخرى، لنحاول كشف أسباب هذا الميل عند مؤرخنا الكبير.

الدولة العبيدية: نشأت هذه الدولة في المغرب بين قبائل تجهل الإسلام؛ فانخدعوا بدعوة أبي عبدالله الشيعي، وناصروه حتى استقر له الأمر، واطمأن فكتب إلى رئيسه الباطني في مدينة (سلمية) في بلاد الشام أن يقدم إليه، فلما دخل المغرب تسمَّى بعبيد الله، ولقَّب نفسه بالمهدي، والعلماء يقولون: إن اسمه سعيد، وهو من ولد ميمون القداح الملحد المجوسي.

وعندما تمكَّن عبيد الله بطش بأقرب الناس إليه والذي أسس له الملك، داعيته أبي عبدالله الشيعي، وبطش بالمخالفين من قبيلة (كتامة)، ولم يعلق ابن الأثير

---

(١) المبارك بن محمد الجزري ثم الموصلي، القاضي الرئيس العلامة البارع. ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤، وتنقل في وظائف الدولة الكتابية، وكان له اليد البيضاء في الترسل والإنشاء. وكان ورعاً عاقلاً، ذا برّ وإحسان. توفي رحمه الله سنة ٦٠٦ بالموصل: انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٤٨٨.

على ظلمه هذا، بينما نجده ينتقد ما فعله عبدالملك بن مروان بعمرو بن سعيد الأشدق[١] حين غدر به وقتله، فقال: «وكان عبدالملك أول من غدر في الإسلام».

وعندما ذكر كلام عبدالملك في مرضه الأخير وهو يذم الدنيا ويحذر من الآخرة قال: «ويحق لعبدالملك أن يحذر هذا ويخاف، فإن من يكون الحجاج[٢] بعض سيئاته، علم أيَّ شيء يقدم عليه».

أما ما فعله عبيد الله بالعلماء العاملين الذين كرهوا دولته وعقيدته الفاسدة فهذا لا يذكره ابن الأثير، وجرائم عبيد الله وذريته بعلماء أهل السُّنَّة كثيرة، يقول المؤرِّخ عبدالرحمٰن بن إسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة عن عبيد الله:

«وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإسلام، متظاهراً بالتشيع، قتل من الفقهاء والمحدثين جماعة كثيرة، ونشأت ذريته على ذلك، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم، وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين»[٣].

ويقول عن أولاده:

«ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم، وزاد شره على شر أبيه أضعافاً، وجاهر بشتم الأنبياء»[٤].

---

(١) عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي، أبو أمية. أمير، من الخطباء البلغاء. ولد سنة ثلاث للهجرة. كان والي مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد. قدم الشام فأحبه أهلها، فلما طلب مروان بن الحكم الخلافة عاضده عمرو، فجعل له ولاية العهد بعد ابنه عبدالملك، ولما ولي عبدالملك أراد خلعه من ولاية العهد فنفر عمرو. واتفق خروج عبدالملك إلى الرحبة لقتال زفر بن الحرث الكلابي، فاستولى عمرو على دمشق وبايعه أهلها بالخلافة. وعاد عبدالملك إلى دمشق، فامتنع عمرو فيها، فحاصره وتلطف له إلى أن فتح أبوابها، ودخلها عبدالملك، فاعتزل عمرو بخمسمائة مقاتل. ولم يزل عبدالملك يتربّص به الفرصة حتى تمكن منه فقتله سنة ٧٠ رحمه الله. ولقب بالأشدق، لفصاحته. انظر «الأعلام»: ٧٨/٥.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي، أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥ كهلًا. كان ظلوماً جباراً، ناصبياً، خبيثاً، سفاكاً للدماء. وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٤٣/٤.

(٣) «الروضتين في أخبار الدولتين» ٢٠١/١.

(٤) المصدر السابق ٢٠٢/١.

هذا رأي كثير من علماء المسلمين والمؤرخين في ذرية عبيد الله، ولكن ابن الأثير في ترجمته لملوك هذه الدولة لا يكتفي بالسكوت عن مساوئهم، بل يمدحهم ويطريهم، ويحاول التهوين من شأن عقائدهم المخالفة لعقائد أهل السُنَّة.

قال في ترجمة معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، وهو رابع ملوكهم: «وكان فاضلاً جواداً، شجاعاً، جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية، وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة، ثم أظهر، وأمر الدعاة بإظهاره، إلا أنه لم يخرج فيه إلى حدٍّ يُذَمُّ به»[1].

وإذا كان سب الصحابة وإكراه الناس على عقائدهم الفاسدة شيء لا يذم، فمتى إذن يُذمّون؟!...

وبعد أن استقر المقام للمعز في مصر أرسل أحد قواده لأخذ بلاد الشام، واستطاع هذا القائد احتلال دمشق، إلا أن الشريف أبا القاسم الهاشمي جمع الناس للمقاومة، فقال ابن الأثير:

«فجمع أحداثها، ومن يريد الفتنة، فثار بهم في الجمعة الثانية، وأبطل الخطبة للمعز»!!!..[2].

ثم يذكر الأستاذ محمد العبدة تعاطف ابن الأثير مع الدولة البويهية الشيعية التي سيطرت على مقاليد الخلافة العباسية، فقال:

«ليس من العسير لمن يقرأ ما كتبه ابن الأثير في «الكامل» أن يحس بتعاطفه مع الدولة البويهية، فهو لا يذكرهم إلا مادحاً معظِّماً الأوائل منهم، بل يغالي في المديح أحياناً عندما يعتبر وفاة ركن الدولة الحسن بن بويه مصيبة للدين والدنيا معاً، ثم يقول في نهاية ترجمته: «رضي الله عنه وأرضاه».

---

(١) «الكامل» ٦٦٥/٨.

(٢) المصدر السابق ٦٦٤/٨.

وفي ترجمته لمعز الدولة البويهي - وهو ثالث الإخوة الذين حكموا العراق وبلاد فارس - يقول ابن الأثير: «وكان حليماً كريماً عاقلاً».

أما ابن كثير فيقول عنه:

«بنى داراً ببغداد، فخرب معالم بغداد بسببها، وكان رافضيًّا خبيثاً، وفي عهده كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد بلعن كبار الصحابة من الخلفاء الراشدين ولم ينكر عليهم معز الدولة، ولم يغيِّره، قبَّحه الله وقبح شيعته من الروافض»[١].

ويقول ابن الأثير عن عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه:

«وكان عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، محبّاً للفضائل وأهلها»[٢].

والحقيقة: أن عضد الدولة لا يختلف كثيراً عن معز الدولة، وكان وزيره نصر بن هارون نصرانياً، وهو الذي أنفق سنة كاملة لعمارة المشهد العلوي[٣].

والدولة البويهية كانت من الأسباب القوية لإضعاف الخلافة العباسية، بل فكر ملوكها بإزالة الخلافة عن بني العباس ونقلها إلى الطالبيين، لولا النصيحة التي جاءت بأن وجود خليفة عباسي ضعيف خير من وجود خليفة طالبي تزول بوجوده شرعية البويهيين أمام أتباعهم الشيعة، ومع ذلك فقد كانوا مستهترين بالخلافة، فقد نهب بهاء الدولة قصر الخليفة الطائع وقبض عليه وخلعه من الخلافة، وكانت للدولة البويهية صلات جيدة مع القرامطة الباطنيين[٤].

ولم يقدموا أيَّ مساعدة للمسلمين الذين قدموا بغداد سنة ٣٦١ مستغيثين من الروم.

---

(١) «البداية والنهاية» ٢٥٦/١١.

(٢) «الكامل» ١٩/٩.

(٣) المظفري: «تاريخ الشيعة» ٢١٢.

(٤) «الكامل» ٨/٦١٥.



ثم قال الأستاذ محمد العبدة شارحاً حال ابن الأثير مع الإمارة الأسدية:

«عندما ضعفت الخلافة العباسية طمع كل صاحب قوة في اقتسامها، وأخذ جزءاً منها ليعلن فيه مملكته ولو كانت هذه المملكة مدينة صغيرة، وفي هذا الجو من التمزق والأنانية وجدت الإمارة الأسدية، نسبة إلى بني أسد بن خزيمة، وأول أمرائهم المشهورين: علي بن مزيد، ثم ابنه المنصور، وبرزت في عهد صدقة بن منصور الذي أنشأ مدينة الحلة[1] واتخذها عاصمة قبيلته وإمارته، كما اتخذوا التشيع عقيدة لهم.

هذه الإمارة مثل بقية الدول الصغيرة التي عاشت في هذا العصر، تعيش على التناقضات والتحالفات مع السلاطين الأقوياء ولا تهتم بمصلحة عامة، فهي لا تقيم ديناً ولا دنيا، وإن كان أمراؤها الأوائل من أصحاب الشجاعة والكرم.

وابن الأثير يمدح هؤلاء الأمراء ولا يذكر مساوئهم، وأهمها: الخروج على الخليفة وعلى السلطان السلجوقي، وإفناء الناس بحروب تخدم مصلحتهم، فقد قتل صدقة بن دبيس في قتاله مع السلطان محمد بن ملكشاه وهو عند مؤرخنا (من محاسن الدنيا).

أما ابنه دبيس بن صدقة فقد عاش في الأرض فساداً، فاضطر الخليفة لقتاله، ودارت الدائرة على دبيس فانهزم وفرَّ إلى شمالي الجزيرة، والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وحسَّن لهم أخذها، ثم فارقهم والتحق بالملوك السلاجقة، ثم قتله السلطان مسعود بن محمد، يقول الذهبي: وأراح الله الأمة منه، فقد نهب وأرجف وفعل العظائم[2].

---

(١) قال في «الروض المعطار في خبر الأقطار»: وهي مدينة كبيرة على شط الفرات بناها سيف الدولة زعيم بني مزيد حوالي ٤٩٥ هـ انظر الروض / ١٩٧ بتحقيق إحسان عباس.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٦١٣/١٩.



ثم ذكر الأستاذ محمد العبدة الدولة الصُليحية الضّالّة في اليمن وموقف ابن الأثير منها، فقال:

كما يمدح ابن الأثير علي بن محمد الصليحي الذي ملك اليمن كلها عام ٤٥٥، وكان داعية للدولة العبيدية في مصر، فيقول عنه:

«ودخل مكة مالكاً لها، وظهرت منه أفعال جميلة»[١]، ولا يذكر أنه على مذهب العبيديين.

وقد يقال: إن ابن الأثير مؤرخ حيادي، يذكر ما سمعه، وما نقله، ولا يتدخل في النصوص، وإنما يعرضها كما وجدها، ويترك مهمة البحث والنقد لغيره.

ولكننا نراه في مواضع أخرى ينتقد أو لا يذكر محاسن بعض الملوك، في حين يمدح غيرهم كما مدح ملوك البويهيين والعبيديين.

فعندما ترجم للخليفة عبدالرحمٰن الناصر الأموي صاحب الأندلس لم يزد على أن ذكر أوصافه الجسمية، وكم بقي في الحكم، ولم يذكر شيئاً من حسناته وفتوحاته وجهاده مع الفرنجة، واكتفى بالقول في نهاية الترجمة: «وكان ناسكاً»[٢].

هذه أمثلة من مزالق خفية، أردت التنبيه عليها، والقصد هو تنقيح تاريخنا وتصحيحه، ولم أرد من ورائها تنقص ابن الأثير، ولا التهوين والإقلال من قيمة كتابه «الكامل»، فهو مجهود عظيم يستحق التقدير»[٣].

٢ ـ وكتب الأستاذ الدكتور سليمان الدخيل مقالة يفنّد فيها اتهامات بالتشيع وُجهت لابن الأثير، وفي الوقت نفسه بيّن أن الرجل كان له ميول شيعيه فمما قاله:

---

(١) «الكامل» ٣٠/١٠.
(٢) «الكامل» ٥٣٥/٨.
(٣) «مجلة البيان» ـ العدد (٩) ص ٥٤ ربيع الآخر ١٤٠٨ ـ ديسمبر ١٩٨٧.

هناك فرق بين أن ننسب ابن الأثير ـ عليه رحمة الله ـ إلى التشيع وحاشاه عن ذلك ونحن لا نملك عليه دليلاً، بل نجد في ترجمته ثناء العلماء والحفاظ من مشاهير أهل السُّنَّة؛ وبين أن نقف عند نزعة التشيع في كتابه «الكامل في التاريخ» وقفة لا تقلل من قدر الكتاب وقيمته بقدر ما تلفت النظر إلى ملاحظة يحسن التنبه لها...

وقال ـ وهو يتحدث عن واحدة من عقائد الشيعة (الرجعة) ـ ما نصه:

«قال عمرو ابن الأصم: قلت للحسن بن علي: إن هذه الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: كذب والله هؤلاء الشيعة، لو علمنا أنه مبعوث قبل يوم القيامة ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله». ثم يعلق ابن الأثير بعد ذلك قائلاً:

«أما قوله: هذه الشيعة فلا شك أنه يعني طائفة منها فإن كل شيعة علي لا تقول هذا، إنما تقوله طائفة يسيرة منهم، ومن مشهوري هذه الطائفة جابر بن يزيد الجعفي الكوفي، وقد انقرض القائلون بهذه المقالة فيما نعلمه»[١].

وعلى كل حال فالقول بانقراض (الإمامية)، وهم القائلون (بالرجعة والوصية) غير مقبول من ابن الأثير، لاسيما وقد عاش في عصر تكاثر فيه الشيعة وأصبح لهم وجود ظاهر إلى حد قال معه أحد الشيعة:

«ولولا مجيء المغول لرفرف لواء التشيع على الشرق الإسلامي»[٢].

وهو العصر الذي ألفت عنه كتب خاصة بأعيان الشيعة، وفيهم الإمامية ومن أبرزها «الأنوار الساطعة في المائة السابعة» للشيخ أغا بزرك الطهراني، وقد أحصى فيه مؤلفه قرابة ثلاثمائة رجل من أعيان الشيعة، ومع ذلك قال محققه أنه لا يمثل بشيء تاريخ الشيعة في ذلك القرن الذي تغلغلوا فيه في بيوت الأمراء، ودخلوا بلاط الخلفاء، وكان منهم الوزراء والعلماء[٣]...

---

(١) «الكامل» ٣/٣٩٢، ٣٩٣.

(٢) «الأنوار الساطعة في المائة السابعة»، أغا بزرك الطهراني: ص ٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص هـ و.

وفي عقيدة الرجعة ـ بالـذات ـ والتي نفى ابن الأثيـر وجودها في عصره تطالعنا مصنَّفات الشيعة بالأعداد الكبيرة المؤلَّفة فيها على امتداد القرون، وفيها ما هو في القرن السابع ـ وقد عايشه ابن الأثير ـ من أمثال: كتاب «الغيبة للحجة وما جاء فيهـا عن النبـي والأئمة ووجـوب الإيمان بها» للأشـرف بن الأغر المعروف بتاج العلا العلوي الحسيني المتوفى سـنة ٦١٠ هـ، فهل كانت هذه الكتب سـرية حتى لم يطلع عليها أمثال ابن الأثير؟ أم أنهـا أُلِّفت في عصور متأخرة ونسبت للأوائل؟!

ووفق ذلك كله فالسّـمعاني (ت ٥٦٢) يشـهد بوجود أصحاب هذه العقيدة في عصره[١].

أم هي لظروف العصر وملابسات البيئة التي عاش فيها ابن الأثير؟ وهي بيئة كان للشـيعة فيها وجود ليس على مسـتوى الأفراد فحسب وإنما على مسـتوى الولاة والحكام. ومن أمثلة ذلك: الملك الرحيم (ت ٦٥٧) الذي ملك الموصل نحواً من خمسـين سـنة[٢] وهو الذي أزال الدولة الأتابكية (وهم أسـياده قبل)، وكان يبعث في كل سنة إلى مشـهد عليٍّ قنديلاً ذهبياً زنته ألف دينار، وهذا ـ كمـا قال الحافظ ابن كثيرـ دليل على تشـيعه، بل على قلة عقله[٣].

وكان فـي الأصـل أرمنياً، حتى نقـل الذهبي عنـه أنـه كان يحتفل لعيد (الشـعانين) لبقايا فيه من شعار أهله، فيمد سـماطاً عظيماً إلى الغاية، ويحضر المغانـي، وفي غضون ذلـك أواني الخمور فيفـرح وينثر الذهـب من القلعة ويتخاطفه الرجال، فمُقت لإحياء شعار النصارى.

---

(١) «الأنساب» ٣٤٤/١، «اللباب» ٨٤/١.

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ٢٠٣/١٣.

(٣) المصدر السابق ٢٠٣/١٣.

وإذا كان الأمر كذلك فيه، فلا غرابة أن يسير إلى هولاكو التتري ـ بعد أن أوقع ببغداد ما أوقع، ثم انفصل عنها ـ على هيئة الخادم المتلطف له، ومعه الهدايا والتحف!! حتى رجع إلى بلاده متولياً من قبله[1].

هذا الملك أثنى عليه ابن الأثير في مقدمة كتابه، فقال:

«... مولانا مالك الملك!! الرحيم، العالم المؤيد، المنصور المظفر بدر الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محي العدل في العالمين، خلد الله دولته»!![2]، بل الأمر أعجب من ذلك، فابن الأثير إنما انساق في إتمام تأليف كتابه «الكامل» عن أمر الملك الرحيم هذا.

ثم قال الدكتور سليمان الدخيل:

في أحداث الفتنة الواقعة بين الصحابة يلحظ القارئ للـ«كامل» تغليب الروايات التي تصف خصوم علي ﷺ بصفات يبعد قبولها، بل يبعد أن يقول بها عليٌ نفسه...

فلا أدري لماذا يكثر من ذكرها ابن الأثير دون أن يعلق على كثير منها.

ثم قال:

يظهر للمتأمل في كامل ابن الأثير تعاطفه مع الشيعة، أو من لهم ميول علوية على الأقل، فتراه كثيراً يترجم للشيعة وخاصة الإمامية وربما ذكر بعض معتقداتهم ولم يعلق عليها.

ثم قال:

وفي مقابل هذا التعاطف كان ابن الأثير يُعَرِّض ببعض أهل السُّنَّة الذين يرى منهم انحرافاً عن علي ﷺ[3].

---

(١) المصدر السابق ٣٥٧/٢٣.

(٢) الكامل ٥/١.

(٣) مجلة البيان، العدد ١٢.

وفيات الأعيان

لابن خلكان

ترجمة المصنف:

قال الحافظ ابن كثير:

قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الإرْبلي الشافعي، أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء والصدور والرؤساء، وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من سائر المذاهب فاشتغلوا بالأحكام بعد ما كانوا نوّاباً له، وقد كان المنصب بينه وبين ابن الصائغ دُوَلاً يُعزل هذا تارة ويولّى هذا ويعزل هذا ويولى هذا.

وقد درس ابن خلكان في عدة مدارس لم تجتمع لغيره ولم يبق معه في آخر وقت سوى «الأمينية» وبيد ابنه كمال الدين موسى «النجيبية».

توفي ابن خلكان بالمدرسة النجيبية المذكورة سنة ٦٨٣ عن ثلاث وسبعين سنة وقد كان ينظم نظماً حسناً رائقاً، وقد كانت محاضرته في غاية الحسن، وله التاريخ المفيد الذي رسم بـ «وفيات الأعيان» من أبدع المصنَّفات، والله سبحانه أعلم.

وقال الإمام الذهبي:

«كان إماماً، فاضلاً، متقناً، عارفاً بالمذهب، حسن الفتاوى، جيد القريحة، بصيراً بالعربية، علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الاطلاع، حلو المذاكرة، وافر الحرمة، من سروات الناس، كريماً، جواداً، مُـمَدّحاً».

وقال ابن العماد الحنبلي[١]:

ومن محاسنه أنه كان لا يجسر أحد أن يذكر أحداً عنده بغيبة[٢].

أهمية الكتاب:

لكتاب «وفيات الأعيان» شهرة كبيرة، ومكانة عالية بين كتب التاريخ، وذلك لتقدّم زمان مصنفه ـ نسبياً ـ ولجلالته ومنزلته، واعتمد عليه كثير ممن جاء بعده، وقال الأستاذ المحقق الدكتور إحسان عباس رحمه الله، في مقدمة تحقيقه للكتاب:

«قد تميز بخصائص وميزات أفردته في الاعتبار، وجعلته موضع ثقة الآخذين عنه، وفي مقدمة هذه الميزات أنه جعله عاماً جامعاً، وهي ميزة قد تتحول إلى نقيصة أحياناً، ولكنه تخطّى ذلك بشدة تحريه وسعة مصادره، إضافة إلى خصائص المؤلف نفسه التي تمثلت في كتابه، وأهمها الأمانة والنزاهة والعدالة.

ويتمتع الكتاب بدقة فائقة لا من حيث الاختيار والانتقاء فحسب، بل من حيث الضبط لكل ما يظن المؤلف أن القارئ بحاجة إلى ضبطه.

وقد انعكست على الكتاب صفة أخرى من صفات المؤلف، وهي الروح الأدبية، ولهذا كانت التراجم موضعاً للنزاع بين روح المؤرخ وروح الأديب، وغلبه حبه للشعر أحياناً فزاحم لديه الحقيقة التاريخية».

منهج المصنف:

تكلم ابن خلكان في مقدمة كتابه عن منهجه، فقال إنه رتب التراجم فيه على حروف المعجم: «التزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة...وإن كان

(١) عبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح: مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب. ولد في صالحية دمشق سنة ١٠٣٢ وأقام في القاهرة مدة طويلة، ومات بمكة حاجاً سنة ١٠٨٩/١٦٧٩، رحمه الله. له عدّة مصنّفات. انظر «الأعلام»: ٢٩٠/٣

(٢) «شذرات الذهب»: ٦٤٨/٧.

هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر في العصر، وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين، لكن هذه المصلحة أحوجت إليه.

ولم أذكر في هذا المختصر أحداً من الصحابة ولا من التابعين ﷺ إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم، وكذلك الخلفاء: لم أذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب، لكن ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم ونقلت عنهم أو كانوا في زمني ولم أرهم؛ ليطلع على حالتهم من يأتي بعدي، ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الوزراء أو الشعراء، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته، وأتيت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كي لا يطول الكتاب، وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه، ورفعت نسبه على ما ظفرت به، وقيدت من الألفاظ ما لا يُؤمَن تصحيفه.

وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة، ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمَلُّه، والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفنناً»[1].

بعض المؤاخذات على منهجه الذي التزمه:

ذكر محقق الكتاب[2] بعض المؤاخذات على هذا المنهج الذي التزمه ابن خلكان، فقال:

أولاً: إنه لم يكن دقيقاً في ترتيبه على حروف الهجاء؛ إذ لم يلاحظ إلا أول حروف اسم المترجم وثانيها، فلم يلاحظ الحرف الثالث ولا ما بعده، ولم يلاحظ اسم أبي المترجم أصلاً، بل لو كان اسم المترجم مركّباً إضافياً كعبدالله

(١) «وفيات الأعيان»: ص ٣ من المقدمة.

(٢) هو الأستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد في تحقيقه لكتاب «وفيات الأعيان» سنة ١٣٦٧/١٩٤٨ مطبعة دار النهضة بمصر.



وعبدالرحمٰن وعبدالوهاب لم يلاحظ إلا صدر المركب ولم يأبه بعجزه، فهو يقدم سري بن المغلس على السري بن أحمد، ويقدم سعد بن محمد على سعد بن علي، ويقدم عبدالله بن يوسف على عبدالله بن عبدالسلام...

ثانياً: إن في هذه الطريقة عيباً لم يفطن له المؤلف، ذلك أن كثيراً من الأعيان الذين ترجم ابن خلكان لهم ورتبهم في كتابه على ترتيب الحروف الأوائل من أسمائهم اشتهروا في ألسنة الناس وفي كثير من الكتب بألقابهم أو كناهم، وَقلّ من الناس من يعرف الاسم الذي عليه انبنى ترتيب هذا الكتاب، فكم من الناس من لا يعرف أن اسم صلاح الدين الأيوبي يوسف، وكم منهم من لا يعرف أن اسم سيف الدولة الحمداني علي، وهذان من أبطال العروبة[1] وقادتها، ومن أرفع الأعيان نباهة شأن، وقد التمس المحقق لذلك عذراً بقوله: «وأكبر الظن أنه لم يأبه بهذا؛ لأنه لم يكن يخطر له أن تصل الحال بأبناء العربية إلى أن يجهلوا أسماء أعيان العصور السالفة من آبائهم وأجدادهم، والأمر بيد الله».

ثالثاً: إن هذه الطريقة التي رغب فيها ابن خلكان ورآها أيسر الطرق على من يريد الانتفاع بكتابه، كم في هذه الطريقة من العناء والمشقة على أهل البحث والدرس الذين يريدون أن يضعوا حدوداً للحضارة العربية في مختلف نواحيها؟ وماذا يفيد من يريد أن يؤرّخ للفقه الإسلامي في قرن من القرون من أن يجد فقيهاً شافعياً مصرياً من أهل القرن الثاني الهجري بجانب شاعر أندلسي من أهل القرن الرابع وبجانبهما وزير شامي من أعيان القرن الخامس، مثلاً، وليس من رابط يربط أحد هؤلاء بالآخر فيجعله بجواره في هذا الكتاب إلا أن الحرف الأول والثاني من أسمائهم مشترك بينهم».

الوقوف على منهج المؤلف وشروطه:

ذكر أحد الكتَّاب بعض معالم منهج ابن خلكان، فقال:

---

(١) هؤلاء أبطال الإسلام وليسوا أبطال العروبة، فهذا نَفَس قومي بغيض.

١ ـ الموازنة بين الروايات وترجيح الأصح:

فهو حين يأخذ عن الكتب المصنَّفة لا يقف عند النقل ويلقي عهدته على صاحبه شأنَ كثيرٍ من المصنفين، ولكنه يزن الكلام وينخله، فإن شك فيه ولم يقع منه موقع القبول عقَّبه بقوله: «وفي النفس من هذا الكلام شيء أنا ذاكره»، فإن لم يكن الكلام ظاهر البطلان وكانت ثمة رواية أخرى وازن بين الروايتين وصحح كلام أوثقهما وأحفظهما.

٢ ـ غربلة ما يقف عليه من حقائق ومناقشة أصحابها:

ففي الصفحة ٤٠٨ من الجزء الأول يناقش المؤلف كلاماً لإمام الحرمين الجويني، فبعد أن يبسط كلام الجويني يقول: «وهذا كلام لا يستقيم عند أرباب التواريخ لعدم اجتماع الثلاثة المذكورين في وقت واحد...»

وفي الصفحة ٤٥٠ يقف عند بعض الأبيات قائلاً:

«وفي هذه الحكاية زيادة أنه قال: اسقيه يا جارية، فسقتني، وهذا ليس بصحيح، فإن هشاماً لم يكن يشرب، فلا حاجة إلى تلك الزيادة»[1].

٣ ـ إغناء التراجم ببعض الطرائف والنوادر والغرائب:

الهدف من ذلك جاء على لسان ابن خلكان حيث يقول في خطبته:

«وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله، والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفنناً»[2].

٤ ـ تباين التراجم طولاً وقصراً:

يتضمن الكتاب تراجم جد قصيرة لا تتجاوز الأسطر القليلة كما هو الشأن

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٥٠ من الكتاب.

(٢) المرجع نفسه ص ٣ من المقدمة.

بالنسبة لترجمة أبى علي الحسن بن الحسين بن أبي هريرة، الفقيه الشافعي في الصفحة ٣٥٨ من الجزء الأول، وفي المقابل هناك تراجم مستفيضة تصل إلى خمس عشرة صفحة كما هو الشأن بالنسبة لترجمة الحلاج في الصفحة ١٨١ من نفس الجزء، ولعل ذلك راجع إلى شهرة العَلَم المترجم له من جهة، وإلى توفر المصادر المعتمدة على عكس الأول[1].

نقد الكتاب

كان المصنف ﷺ يتساهل في إيراد تراجم جماعة من الضالِّين المنحرفين دون أن ينقد حالهم ويبين عُوارهم، ومثال على ذلك ترجمته لابن الراوندي الزنديق، فقد قال فيه الحافظ ابن كثير:

«الزنديق أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين، المعروف بابن الراوندي.

أحد مشاهير الزنادقة الملحدين عليه اللعنة من رب العالمين، كان أبوه يهودياً فأظهر الإسلام، فيقال: إنه حرف التوراة كما عادى ابنُه القرآن وألحد فيه، وصنف كتاباً في الرد على القرآن سماه «الدامغ»، وكتاباً في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سمها «الزمردة»، وكتاباً يقال له: «التاج» في معنى ذلك...»

وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبدالوهاب الجُبائي شيخ المعتزلة في زمانه، وقد أجاد في ذلك، وكذلك ولده أبو هاشم عبدالسلام بن أبي علي، قال الشيخ أبو علي: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي، فلم أجد فيه إلا السفه، والافتراء.

قال: وقد وضع كتاباً في قِـدَمِ العالم ونفي الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية والرد على أهل التوحيد، ووضع كتاباً في الرد على محمد رسول الله ﷺ في سبعة عشر موضعاً من كتابه، ونسبه إلى الكذب ـ يعني النبي ﷺ ـ وطعن على القرآن،

---

(١) جزء من مقال بعنوان: «قراءة في مقدمة وفيات الأعيان لابن خلكان» في مدونة على شبكة «الإنترنت».

ووضع كتاباً لليهود والنصارى، وفضَّل دينهم على المسلمين؛ يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد ﷺ، إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام.

نقله ابن الجوزي عنه[1].

وهو أورد ابن الجوزي في منتظمه طرفاً من كلامــه، وزندقته، وطعنه على الآيات والشريعة، ورد عليه في ذلك.

وقد أقل وأخس وأذل من أن يُلتفت إليه وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وخذلانه وتمويهه وترويجه وطغيانه.

وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاســتهتار والكفر والكبائر منها ما هو صحيح عنه، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومســلكه في الكفر والتستر بالمسخرة...

وقد كان أبو عيسى الوراق مصاحباً لابن الراوندي ـ قبَّحهما الله ـ فلما علم الناس بأمرهما طلب الســلطان أبا عيسى فأودع الســجن حتى مات، وأما ابن الراوندي فهرب فلجأ إلى ابن لاوي اليهودي، وصنَّف له ـ في مدة مقامه عنده ـ كتابه الذي سماه «الدامغ للقرآن» فلم يلبث بعده إلا أياماً يسيرة حتى مات لعنه الله، ويقال: إنه أخذ وصلب.

قال أبو الوفاء بن عقيل[2]:

---

(١) الشيخ الإمام العلّامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزيّ، ينتهي نسبه إلى بكر الصديق ﷺ. ولد سنة تســع أو عشر وخمسمائة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأساً في التذكير بلا مدافع، وصنف مصنفات كثيرة في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة. وله حكم كثيرة وأقوال شهيرة. توفي سنة ٥٩٧ ببغداد رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٥/٢١ ـ ٣٨٤.

(٢) الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغداديّ الحنبليّ المتكلم، صاحب التصانيف. ولد ســنة ٤٣١، وخالط المعتزلة فانحرف عن السُــنّة، وكان يتوقد ذكاء، بحر معــارف، وكان كريماً. توفي ســنة ٥٠٣ رحمه الله وكان الناس في جنازته يفوقون الحصر. انظر «ســير أعلام النبلاء»: ٤٤٣/١٩ ـ ٤٥١.

ورأيت في كتاب محقق أنه عاش ستاً وثلاثين سنة مع ما انتهى إليه من التوغل في المخازي: في هذا العمر القصير، لعنه الله وقبحه، ولا رحم عظامه.

وقد ذكره القاضي ابن خلكان في «الوفيات» ودلس عليه، ولم يجرحه بشيء، ولا كأن الكلب أكل له عجيناً، على عادته في العلماء والشعراء؛ فالشعراء يطيل تراجمهم، والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة، والزنادقة يترك ذكر زندقتهم، وأرَّخ ـ ابن خلكان ـ تاريخ وفاته في سنة خمس وأربعين ومائتين، وقد وهم وهماً فاحشاً، والصحيح أنه توفي في هذه السنة ٢٩٨هـ كما أرخه ابن الجوزي وغيره[١].

ولنقارن ترجمة ابن كثير لهذا المجرم، وترجمة ابن خلكان التي أشار ابن كثير إليها:

«أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي العالم المشهور، له مقالة في علم الكلام، وكان من الفضلاء في عصره، وله من الكتب المصنفة نحو مائة وأربعة عشر كتاباً منها كتاب «فضيحة المعتزلة»، وكتاب «التاج»، وكتاب «الزمردة»، وكتاب «القصب» وغير ذلك. وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه في كتبهم. توفي سنة خمس وأربعين ومائتين برحبة مالك بن طوق التغلبي، وقيل: ببغداد، وتقدير عمره أربعون سنة، وذكر في البستان أنه توفي سنة خمسين ـ والله أعلم ـ رحمه الله.

ونسبته إلى راوند بفتح الراء والواو وبينهما ألف وسكون النون وبعدها دال مهملة وهي قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان»[٢].

وقال د. إحسان عباس محقق الكتاب في ترجمة ابن خلكان:

«وقد أبدى بعض المعلقين على هوامش نسخ «الوفيات» قلقاً شديداً لأن ابن خلكان لم يتناوله بالذم، ثم نقل شيئاً من كلامهم».

---

(١) «البداية والنهاية»: ٧٦٤/١٤ طبعة دار هجر، وفيات سنة ٢٩٨.

(٢) «وفيات الأعيان»: ٩٤/١.

ـ **وقال حاجي خليفة** رحمه الله[1]:

«وقد شنع عليه بعض المؤرخين من جهة اختصاره تراجم كبار العلماء في أسطر يسيرة، وتطويله في تراجم الشعراء والأدباء في أوراق أو صحائف، وربما يكون مَن طوّل ترجمته مطعوناً بانحلال العقيدة، وهو يثني عليه ويذكر أشعاره وقصائده ولعل العذر فيه ما أشار إليه من اشتهار ذلك العالم كالشمس لا يخفى، وعدم اشتهار ذلك الشاعر، والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

طبعات الكتاب وترجماته:

ترجمه إلى التركية المولى أظهر الدين الأردبيلي (ت٩٣٠) نزولاً عند رغبة السلطان سليم خان، وترجمه إلى الإنجليزية البارون دي سلان، وطبعت ترجمته هذه في باريس ولندن من سنة ١٨٤٣ حتى ١٨٧١م.

وطبعت ترجمة تركية له في استانبول ١٢٨٠.

أما طبعته العربية فكانت لأول مرة في جوتنجن ما بين سنة ١٨٣٥ و١٨٥٠بعناية الألماني وستنفلد.

وفي بولاق سنة ١٨٥٩/١٢٧٥.

أما الطبعة العلمية العليا فهي طبعة د. إحسان عباس، بدأ نشرها سنة ١٩٦٨ حتى ١٩٧٢ في ستة مجلدات ضخمة، أتبعها بمجلدين، في ترجمة ابن خلكان وكتابه، وفهارس الكتاب الفنية.

---

(١) الشيخ مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي، والمعروف بالحاج خليفة، مؤرخ بحاثة، تركي الأصل مستعرب. ولد سنة ١٠١٧ في القسطنطينية، تولّى أعمالاً كتابية في الجيش العثماني، وانقطع في السنوات الأخيرة من حياته إلى تدريس العلوم، وله عدة مصنفات بالعربية والتركية والفارسية. توفي رحمه الله في القسطنطينية سنة ١٠٦٧. انظر «الأعلام»: ٢٣٦/٧ ـ ٢٣٧.

(٢) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» طبعة إيران سنة ١٢٨٤.



«تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»

تصنيف الحافظ الذهبي

ترجمة الإمام الذهبي:

هو محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدِّث عصره، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/١٠٠ ـ ١٢٣.

أهمية الكتاب:

كتاب «تاريخ الإسلام» كتاب عظيم جليل القدر، فيه أخبار ٧٠٠ سنة بل تزيد، ومصنفه إمام محدث، ناقد، واسع الاطلاع، عالم بطرائق نقل الأخبار، ومسالك الجرح والتعديل، وفي الكتاب جملة واسعة من النقد للأخبار سواء من حيث أصل ورودها، أو المبالغات المختلطة بها، ويكفي أن كتاب الإمام الذهبي العظيم «سير أعلام النبلاء» مستقى أكثر مادته من كتاب «تاريخ الإسلام».

منهج المصنف في كتابه:

حقق هذا الكتابَ النفيسَ الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف، وهو أستاذ مؤرخ كبير، وتحقيقه لا مزيد عليه، والأوْلى الاكتفاء بكلام الأستاذ في هذا الباب، فكان مما قاله بإيجاز:

١ ـ تناول الإمام الذهبي في كتابه الحوادث والتراجم ابتداء من السَّنَة الأولى للهجرة حتى سنة ٧٠٠ هـ، ووضع خطة عامة للكتاب قسمه بموجبها إلى



وحدات زمنية أمدها عشر سنوات أطلق عليها لفظ طبقة، فتألف كتابه من سبعين طبقة، وهو مفهوم للطبقة جديد يختلف عن مفهوم الطبقة في كتابه «سير أعلام النبلاء» التي كانت بحسب تقارب أعمار المترجم لهم.

٢ ـ الإمام الذهبي حصَّل طرفاً صالحاً من العربية في نحوها وصرفها وآدابها، كما أنه عُني عناية كبيرة في مطلع حياته بالقراءات التي تقوم في أساسها على علم تام بالعربية، وقد تعاطى الشعر فنظمه، وأورد من شعر غيره جملة كبيرة في كتابه «تاريخ الإسلام»، ولذلك أصحبت لغته قوية جداً يصعبُ أن نجد في كتابه لحناً أو غلطاً لغوياً أو استعمالاً عامياً، فإذا كان النادر من ذلك فإنه من سهو القلم والذهول.

إن عناية الذهبي بدراسة عدد ضخم من المؤلفات التاريخية والأدبية والحديثية واشتهاره بقوة الحافظة جعلته يطلع على أساليب عدد كبير من الكُتّاب والمؤلفين على مدى عصور طويلة تنوعت أساليب الكتابة فيها، فأكسبه كل ذلك خبرة أدبية قوية.

وقد تميز أسلوب الذهبي بالطراوة والحبك، ولم يُعن بالصنعة البيانية وتزويق الألفاظ كغيره من معاصريه وتلامذته وهذا أمر طبيعي ـ فيما نرى ـ لأن للكلمة مكانتها عند الذهبي، وهو الناقد الذي يختار العبارة المناسبة للتعبير عما يريد بصورة دقيقة، ويصف المترجم بالعبارة التي تزنه جرحاً أو تعديلاً، فهو أسلوب علمي قبل كل شيء، ومن الواضح أنه لا يمكن عرض الحوادث بصفة دقيقة وأوصاف المترجمين بشكل متقن باتباع مثل تلك الأساليب، لأن أسلوب الصنعة البلاغية يتجلّى فيه دائماً الابتعاد عن الدقة.

وكان الذهبي صاحب منهج تاريخي بدا في غاية الوضوح في التراجم، لذلك فإنه لم يخرج عن موضوع هو بصدد بحثه، فلم نجد في كتابه استطراداً لا في الحوادث ولا في الوفيات.



٣ ـ واجه الذهبي مادة كبيرة كان عليه أن ينتقي منها ما يراه مناسباً لكتابه ولا سيما أنه اختصر في الحوادث كثيراً قياساً بالمادة الضخمة من التراجم التي أوردها في كتابه، فهل كانت لديه خطة معينة سار عليها في ذلك؟

الجواب: إنه انتقى ما رآه في نظره مهمّاً حريّاً بالذكر جديراً بالتدوين.

لكن ما هي موازينه في ذلك، وميزان أيِّ مؤرخ في وزن الأحداث يتصل اتصالاً وثيقاً بمفاهيمه، وينطلق من بيئته ونوعية ثقافته، وهما اللذان بدورهما يكونان مزاجه الذي يحمله على ذكر حدث تاريخي وإهمال آخر، والإسهاب في جوانب معينة والاختصار في جوانب أخرى؟

لقد اعتبر الذهبي ـ مثل غيره من المؤرخين المسلمين المتدينين ـ أن أساس الدولة الإسلامية ونموذجها الأعلى يتمثل في حكومة الرسول ﷺ في المدينة، ولذلك أولى الفترة المدنية اهتماماً عظيماً وفصّل في حوادثها تفصيلاً لا نجده إلا في التواريخ المتخصصة؛ بحيث احتلت السنوات العشر التي قضاها الرسول ﷺ في المدينة مجلداً كاملاً من تاريخه هو المجلد الأول، وعني بعد ذلك بذكر أخبار حروب الردة وتكوين الأمة الإسلامية وحركة الفتوح والمساهمين فيها باعتبارهم المثل الأعلى للمجاهدين المسلمين، ولذلك احتلت هذه الفترة الزمانية القصيرة التي لا تتجاوز ٥٪ من نطاق كتابه الزماني قرابة ثلث الحوادث المذكورة في جميع الكتاب.

٤ ـ كان الإمام الذهبي يعنى دائماً بأخبار الجهاد في سبيل الله سواء أكان ذلك بالفتح أم برد المعتدين عن ديار الإسلام، فأورد من أخبار الجهاد الكثير وفصل فيه بما سمح له منهجه، فذكر من أخبار فتوحات الأمويين شيئاً كثيراً بالنسبة لما تضمنه كتابه من حوادث هذه الفترة، كما عُني بذكر العلاقات الإسلامية البيزنطية على مدى التاريخ وأولاها اهتماماً واضحاً، ولعل من أبرز ذلك ذكره لتفاصيل الحروب التي خاضها الحمدانيون مع البيزنطيين.



كما اهتمَّ اهتماماً كبيراً بذكر المعارك العديدة التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين على مدى عصور التاريخ الإسلامي، وعُني بظهور المغول وتحركاتهم وأخبارهم واستيلائهم على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، واهتم بذكر علاقاتهم بالشام ومصر.

ويظهر تقدير الذهبي لمثل هذه الأحداث في مدحه لأولئك الذين جاهدوا في سبيل الله وتحمسه الشديد عند ذكرهم، بل تفصيله في أفضالهم في هذا المجال بالرغم من ذكره الظلم الذي مارسوه نحو قوله في عهد الوليد بن عبد الملك[1]:

«وفتح الله على الإسلام فتوحاً عظيمة في دولة الوليد، وعاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر ﷺ»، وقوله في ترجمته: «وكان الوليد جباراً ظالماً لكنه أقام الجهاد في أيامه وفتحت في خلافته فتوحات عظيمة كما ذكرنا».

وقوله في ترجمة الظاهر بيبرس البندقداري المتوفى سنة ٦٧٦هـ[2]:

«ولما سارت الجيوش المنصورة من مصر لحرب التتار كان هو طليعة الإسلام... وكان غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً للملك لولا ما كان فيه من الظلم،

---

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي الخليفة. توفي بدمشق سنة ٩٦ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٤٧/٤ وما بعدها.

(٢) بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والأخبار والآثار. مولده بأرض القبجاق، وأسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح «نجم الدين أيوب» أخذ بيبرس فجعله في خاصة خدمه، ثم أعتقه. ولم تزل همته تصعد به حتى كان «أتابك» العسكر بمصر، وفي أيام الملك المظفر قطز قاتل معه التتار في فلسطين، ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز فقتلوه، وتولى بيبرس سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨ وتلقَّب بالملك القاهر أبي الفتوحات ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر. وكان شجاعاً جبّاراً، يباشر الحروب بنفسه. وله الوقائع الهائلة مع التتار والإفرنج الصليبيين، وله الفتوحات العظيمة، منها بلاد النوبة ودنقلة ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلاطين لها. وفي أيامه انتقلت الخلافة إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩ وآثاره وعمائره وأخباره كثيرة جداً. توفي في دمشق سنة ٦٧٦ رحمه الله. انظر «الأعلام»: ٧٩/٢.



والله يرحمه ويغفر له ويسامحه؛ فإن له أياماً بيضاء في الإسلام ومواقف مشهودة وفتوحات معدودة».

وتحمس الذهبي للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي[1] ﷺ وطول في حروبه للصليبيين بحيث وضع عنواناً في أثناء حوادث سنة ٥٨٣هـ أطلق فيه على هذه السنة «سنة الفتوحات»، وفصل فيها على غير عادته إلى درجة استغرق هذا العنوان قرابة الثماني ورقات كبيرة، وقال معلّقاً على فتح بيت المقدس: «فالحمد لله على هذه النعم التي لا تحصى»، وقال في موضع آخر: «فرزقنا الله شكر هذه النعم ورحم صلاح الدين وأسكنه الجنة».

وقال عن حصار عكا بعد ذلك: «وكان السلطان يكون أول راكب وآخر نازل... ولعله وجبت له الجنة برباطه هٰذين العامين».

ثم نتحسس تحمسه من الألفاظ التي يطلقها على أعداء الإسلام نحو قوله:

«وتتابعت الأمداد من رومية الكبرى التي هي دار الطاغية الأعظم المعروف بالبابا لعنه الله».

وقوله في أحدهم: «طاغية الروم... وكان هذا الكلب»، و«ملك الفرنج لا رحمه الله».

وقد صب اللعنة عليهم وأساء القول فيهم كلما ورد ذكر واحد منهم.

٥ ـ كان الإمام الذهبي يُعنى بذكر أخبار الحركات التي كان الهدف منها، في رأيه، تدمير الإسلام الحق مثل البابكية، والزنج، والقرامطة وأمثالهم، يظهر لنا ذلك مما خصص لهم من أخبار في تاريخه ومن تحمسه عليهم فهو دائم

---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر الدُّوينيّ التكريتي الأيوبي السلطان الكبير الذي فتح الله على يده بيت المقدس وطهّر بلاد الشام ـ إلّا عكا ـ من الصليبيين. وكان له معهم الوقائع المحمودة. توفي رحمه الله سنة ٥٨٩. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٧٨/٢١ وما بعدها.



اللعن لصاحب الزنج ويسميه «الخبيث»، وقد اعتبر الذين قتلهم بابك الخرمي في حروبه شهداء في سبيل الله، وقال عن أبي طاهر القرمطي: «وقد كان هذا الملعون بلاء عظيماً على الإسلام وأهله».

وتناول الذهبي السُّنِّي أخبار الدولة المسماة الفاطمية بشيء من التفصيل، باعتبارها من أكبر الأخطار التي جابهت أهل السُّنَّة، فهم عنده باطنية أدعياء نسب إلى آل البيت، ولذلك أطلق عليهم «بني عبيد» أو «العبيديين» أو «الرافضة» ونحوها، وقد قال في عبيدالله المهدي مؤسس دولتهم: «ويا حبذا لو كان رافضياً وبس ولكنه زنديق»، وذكر في غير موضع من كتابه كيف كانوا يقتلون أهل السُّنَّة بعد تعذيبهم ليردوهم عن الترضي عن الصحاب.

٦ ـ وقد اعتنى الذهبي في أثناء تناول حوادث السنين بإجمال حال السّنَةِ وأهلها لما لذلك من أهمية عنده، نحو ذكره في آخر حوادث سنة ٣٦٣هـ قطع الخطبة في مكة والمدينة وإقامتها للمعز العبيدي «في الحجاز ومصر والشام والمغرب، وكان الرفض قائماً في هذه الأقاليم وفي العراق، والسُّنَّة خاملة مغمورة لكنها ظاهرة بخراسان وأصبهان فالأمر لله تعالى».

ثم قوله في سنة ٣٦٤هـ: «وفي هذه السنين وبعدها كان الرفض يغلي ويفور بمصر والشام والغرب والشرق لا سيما بالعبيدية الباطنية قاتلهم الله»، ثم أورد أخباراً عن ذلك.

وقوله في حوادث سنة ٣٧٢هـ: «وفي هذا الزمان كانت الأهواء والبدع فاشية بمثل بغداد ومصر من الرفض والاعتزال والضلال فإنّا لله وإنا إليه راجعون».

ويتضح لنا من كل هذه الأمثلة أن عقيدته السُّنية هي التي دفعته إلى التركيز على مثل هذه الحوادث.

٧ ـ وعُني الذهبي بإبراز أعمال الخلفاء والملوك والأمراء المتصلة بنشر الدين والعناية به، وإبطال الفساد، وبناء المساجد والجوامع وتجديدها وإبراز الأعمال التي ساروا فيها بموجب الشريعة الإسلامية أو خالفوها مثل فرض المكوس أو إبطالها.

كما عني بذكر الولايات الدينية كالقضاء وتعيين القضاة وعزلهم، وإثبات الشهود وعزلهم، وأمراء الحاج.

واهتم بالأمور المتعلقة بمصالح المسلمين الدينية فاعتنى مثلاً بذكر مواسم الحج وما يجري للحجاج في المواسم أو في الطريق من نهب وسلب ونحوهما، واعتنى بمصالحهم الدنيوية وما يصيب الأمة من أوبئة وسنين مجدبة، ومجاعات، وفيضانات، وعواصف مدمرة، وارتفاع في أسعار الأطعمة أو انخفاض فيها، وقد قدم أمثلة لذلك.

ولما كان الذهبي من المهتمين بالعلم ونشره فقد اعتنى بذكر إنشاء دور العلم مثل المدارس، ودور الحديث، وخزائن الكتب، وتعيين المدرسين وعزلهم، ويظهر ذلك أكثر وضوحاً في القسم الأخير من كتابه حيث احتلت مثل هذه الأمور حيزاً ليس بالقليل من مادة الحوادث فصرنا لا نجد حوادث سَنَة من السَّنوات خالية من مثل هذه الأمور مما يدل على شدة اهتمامه بها وعنايته بذكرها.

واهتم بإيراد كثير من الوثائق والمكاتبات بنصوصها، وهي ظاهرة واضحة في كتابه، وتشتمل هذه الوثائق على ما صدر من علماء الأمة من المحاضر المتعلقة بالعقائد، والتوقيعات التي أصدرها الخلفاء والملوك، على أنه ركز اهتمامه على الكتب التي كان ملوك الدول الإسلامية يبعثون بها إلى الخلافة العباسية يصفون بها فتوحاتهم وحروبهم وردهم لأعداء المسلمين أو أعداء الخلافة.

٨ ـ الشمول النوعي:

لم يقتصر الذهبي على نوع معين من المشهورين والأعلام، بل تنوعت تراجمه فشملت كل فئات الناس من الخلفاء، والملوك، والأمراء، والسلاطين والوزراء والسياسيين، والنقباء، والقضاة، والمحامين، والشهود العدول، والقراء والمحدثين، والفقهاء، والأدباء، واللغويين، والنحاة، والشعراء، والأطباء، والصيادلة، والتجار، والزهاد، والصوفية، وأرباب الملل والنحل والمتكلمين، والفلاسفة، وكل من اشتهر بشيء من الأشياء سواء أكان حسن الظن به أم سيئاً، ثقة أم كذاباً، ولم يكن ليمنعه من ذكر شخص ما أن يكون مختلفاً معه في العقيدة كأن يكون معتزلياً أو رافضياً أو زنديقاً، أو من غير الملتزمين بالدين كالمغنين والـمُـجّان والمتهتكين، أو أن يكون مختلفاً معه في الدين كأن يكون مشركاً أو يهودياً أو نصرانياً، ما داموا في نطاق دولة الإسلام.

ومع أن المؤلف قصد أن يكون تاريخه شاملاً جميع الناس من المشاهير والأعلام إلا أنه كان يؤثر المحدثين على غيرهم، وفي القسم الأخير من كتابه آثر الدماشقة على من سواهم، لذلك جاءت الغالبية العظمى من المترجَمين من أهل العناية بالحديث النبوي الشريف، وهذه ظاهرة طبيعية فيما أرى، لما عرفنا من تربية الذهبي ونشأته الحديثية وحبّه لرواية الحديث وشغفه به ذلك الشغف العظيم الذي ملك عليه قلبه فهو من صنفهم وواسع المعرفة بهم، ولأن المحدثين من أكثر الفئات التي عنيت بالرواية نظراً للأهمية البالغة التي يحتلها الحديث النبوي في الحياة الإسلامية لا سيما في تلك الأعصر التي امتازت عن غيرها بغلبة الطابع الديني عليها.

٩ ـ الميل إلى أهل الحديث ومجافاة الأشاعرة:

اتُّهم الإمام الذهبي أنه يميل إلى أهل الحديث ويطول تراجمهم، ويقصر في إيراد تراجم الأشاعرة، وذلك لميله العقدي إلى أولئك، ومنافرته لعقيدة هؤلاء، وقد قال الدكتور بشار معروف في هذه المسألة:



وقد انتقده تلميذه تاج الدين السبكي[1] على خطته في تطويل التراجم وتقصيرها واعتبر ذلك من باب التعصب والهوى العقائدي، فذكر أن تطويل التراجم وتقصيرها مسألة يغفل عنها الكثيرون، وتكلم على هذه المسألة في عموم المؤرخين فقال: «فرب محتاط لنفسه لا يذكر إلا ما وجده منقولاً، ثم يأتي إلى من يبغضه فينقل جميع ما ذكر من مذامه، ويحذف كثيراً مما نقل في ممادحه، ويجيء إلى من يحبه فيعكس الحال فيه، ويظن المسكين أنه لم يأت بذنب؛ لأنه ليس يجب عليه تطويل ترجمة أحد، ولا استيفاء ما ذكر من ممادحه، ولا يظن المغتر أن تقصيره لترجمته بهذه النية استزراء به وخيانة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين في تأدية ما قيل في حقه من حمد وذم، ثم خصص الذهبي فقال: «ولقد وقفت في تاريخ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ على ترجمة الشيخ الموفق ابن قدامة الحنبلي[2]، والشيخ فخر الدين ابن عساكر، وقد أطال تلك وقصر هذه وأتى بما لا يشك لبيب أنه لم يحمله على ذلك إلا أن هذا أشعري وذاك حنبلي، وسيقفون بين يدي رب العالمين»، وكلام السبكي هذا جزء من نقده الشديد للذهبي...

وقد ظهر لنا نتيجة دراستنا لهذه الناحية في «تاريخ الإسلام» أن السبكي قد

---

(١) عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، أبو نصر، تاج الدين. ولد سنة ٧٢٧ وقرأ على جملة من المشايخ، وأمعن في طلب الحديث والاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب، وكان ذا بلاغة وطلاوة ومعرفة بالأمور. له مصنفات انتشرت في حياته ورزق فيها السعد. ولي عدة وظائف في بلاد الشام وانتهت إليه رياسة القضاء والإفتاء فيها، وحصلت له محن ثبت فيها وصفح عمن أساء إليه. توفي سنة ٧٧١ رَحِمَهُ اللهُ. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/٣٩ ـ ٤١.

(٢) هو الشيخ الإمام القدوة العلّامة المجتهد شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي، صاحب «المغني». ولد بجماعيل من أعمال نابلس سنة ٥٤١. هاجر مع أهل بيته وأقاربه إلى دمشق وله عشر سنين. حفظ القرآن ولزم العلم من صغره، وكان من بحور العلم وأذكياء العالم، وكان إمام الحنابلة بجامع دمشق، على قانون السلف، عليه النور والوقار، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه. توفي سنة ٦٢٠ رَحِمَهُ اللهُ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/١٦٥ ـ ١٧٣.

بالغ في نقده بسبب من تعصبه الشديد للأشاعرة، فقد تبين أن الذهبي راعى في أكثر الأحايين ـ وليس في جميعها ـ قيمة الإنسان وشهرته بين أهل علمه، أو مكانته بين الذين من بابته سواء أكان متفقاً معه في العقيدة أم مخالفاً، فنراه مثلاً يطول في تراجم الشعراء البارزين مثل المتنبي(١)، وعمارة اليمني(٢)، ومجنون ليلى(٣) وغيرهم، أو كبار النحويين مثل الكسائي(٤) أو كبار الخطاطين، وهلمّ جَرّا...

١٠ ـ سعة التراجم في «تاريخ الإسلام» تتباين الواحدة عن الأخرى، فقد لا تزيد على بضعة أسطر، وقد تبلغ أوراقاً عديدة.

---

(١) شاعر الزمان أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجعفي الكوفي الأديب. ولد سنة ٣٠٣، وأقام بالبادية يقتبس اللغة والأخبار، وبلغ الذروة في النظم. مدح سيف الدولة ملك الشام وكافوراً صاحب مصر، وعضد الدولة ملك فارس والعراق. قتل سنة ٣٥٤ بين واسط وبغداد. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/١٩٩ ـ ٢٠١.

(٢) هو العلامة أبو محمد عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي اليمني الشافعي، الفرضي الشاعر. ولد سنة ٥١٥. تفقه بزبيد، وحج سنة ٥٤٩، فأرسله أمير مكة رسولاً إلى الحاكم الفاطمي في مصر فاستوطنها. ولما أزال صلاح الدين الأيوبي دولة العبيديين الفاطميين زلَّ عمارة واتفق مع بعض الرؤساء لإعادة دولتهم فنقل أمرهم إلى صلاح الدين فشنق عمارة سنة ٥٦٩. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٥٩٢ ـ ٥٩٦.

(٣) قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس: هو مجنون بني عامر. أحب ليلى في قصة طويلة وهام بها حتى كاد يجن، فتناقلت العرب قصته فأبى أبوها أن يزوجه فتغير عقله، ولم يزل المجنون يهيم في كل واد، ويتبع الظباء، ويكتب ما يقوله على الرمل، ولا يأنس بالناس حتى أصبح ميتاً في واد كثير الحجارة، وما دلَّ عليه إلا رجل من بني مرة، فحضر أهله وغسلوه وكفنوه، واجتمع فتيان حي ليلى يبكونه أحرَّ بكاء، ولم يُرَ باكٍ وباكية أكثر من ذلك اليوم، وذلك في حدود السبعين للهجرة، رحمه الله. انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ٢٤/٢٩٧ ـ ٣٠٢.

(٤) الإمام شيخ القراءة والعربية، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي. كان أعلم الناس بالنحو وواحدهم في علوم القرآن، واختار قراءةً اشتهرت وصارت إحدى القراءات العشر المتواترة المعتمدة. كان ذا منزلة رفيعة عند هارون الرشيد، وأدب ولده الأمين، ونال جاهاً وأموالاً. مات أثناء سيرة مع هارون الرشيد بالري سنة ١٨٩ عن سبعين سنة رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٩/١٣١ ـ ١٣٤.



وكيف يقال: إن التعصب هو الذي دفع الذهبي إلى تطويل التراجم وتقصيرها وقد طول في ترجمة الحلاج[١] حيث بلغ ما ذكره عنه في الحوادث فقط ثماني أوراق، بله الجزء الذي ألفه في أخباره، وهو الذي يقول في ترجمته: «قتلوه على الكفر والحلول والانسلاخ من الدين... كان كذاباً مُمَوِّهاً مُمَخْرِقاً[٢]حلولياً له كلام حلو يستحوذ به على نفوس جهال العوام».

وترجم ابن سينا[٣] ترجمة طويلة بلغت عشر أوراق بخطه باعتباره «آية في الذكاء وهو رأس الفلاسفة الإسلاميين الذين مشوا خلف العقول وخالفوا الرسول».

وترجم لأبي العلاء المعري[٤] ترجمة حافلة مع أنه أكد زندقته في غير موضع.

وقد طول الذهبي في كثير من تراجم الأشاعرة البارزين ومدحهم مدحاً كبيراً كلاً حسب مبلغه من العلم الذي برع فيه، نذكر منهم على سبيل المثال

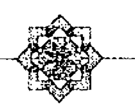
---

(١) هو الحسين بن منصور بن محمي، أبو عبدالله الفارسي البيضاوي الصوفي، والبيضاء مدينة بفارس. تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء لسوء سيرته ومروقه، فمنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة وغير ذلك. راج حاله على طائفة من الصالحين وكثير من الجهال. قتل بفتوى العلماء سنة ٣٠٩. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣١٣/١٤ ـ ٣٥٤.

(٢) الممخرِق هو الذي يزعم الإتيان بالخوارق، وهي الأمور الخارقة للسنن الكونية مثل المعجزات والكرامات.

(٣) هو العلاّمة الشهير الفيلسوف، أبو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن، البلخي ثم البخاري، صاحب تصانيف في الطب والفلسفة والمنطق. كان أبوه من دعاة الإسماعيلية. وأما ابن سينا فكان رأس الفلاسفة ولم يأت بعد الفارابي مثله، وله أشياء لا تحتمل في ميزان الشرع، وقد كفَّره الغزالي. توفي سنة ٤٢٨ عن ٥٨ سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥٣١/١٧ ـ ٥٣٧.

(٤) الشيخ العلامة، شيخ الآداب، أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان القحطاني ثم التنوخي المعري، الأعمى، اللغوي، الشاعر، المتهم في دينه. ولد سنة ٣٦٣ وعَميَ بالجدري وعمره قرابة خمس سنين. اختلفت فيه كلمة العلماء فمنهم من رماه بالإلحاد ومنهم من برأه وعظمه. توفي سنة ٤٤٩ عن ٨٦ سنة انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/١٨ ـ ٣٩.



لا الحصر: الإمام محيي الدين النواوي الشافعي الأشعري[١] الذي لم تقل ترجمته عن ترجمة الموفق ابن قدامة لا في الطول ولا في الثناء، فضلاً عن اعتذاره في آخر الترجمة بقوله: «ولا يحتمل كتابنا أكثر مما ذكرنا من سيرة هذا السيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

ومع أن الذهبي كان عظيم الاهتمام بالمحدثين شديد الكَلَف[٢] بهم، إلا أننا وجدناه يترجم لهم تراجم قصيرة عموماً إذا قيست بتراجم الشعراء والزهاد والصوفية والمتكلمين إذا استثنينا بعض أعلامهم المشهورين جداً مثل البخاري وأحمد بن حنبل والزهري[٣] وعبد الله بن المبارك ونحوهم.

على أن هذا الذي قلته لا يعني أنه لم يتأثر إطلاقاً بعقيدته وآرائه ونظرته إلى العلوم في فهم المترجمين وتطويل تراجمهم أو تقصيرها، فهذا أمر يجانب الطبيعة البشرية وهو موجود عند جميع المؤرخين، لكننا نشير إلى محاولاته الجدية في الموازنة وإلى أنه لم يفعل ذلك عن هوى وتقصد إنما دفعته بيئته وثقافته في كثير من الأحيان إلى الإعجاب بشخص ما وتقديره، وعليه فإن تطويل الترجمة وتقصيرها يجب أن ينظر إليه بمنظار ينفذ خلال المؤلف أولاً من أجل كشف معاييره واتجاهاته الفكرية، وعلى أساس من هذا يجب أن تفهم انتقادات العلماء بعضهم لبعض في مثل هذه المسائل، وإلا فإن مآخذ السبكي على الذهبي يمكن تطبيقها على السبكي نفسه، ويكفي أن نتذكر تراجمه في طبقات الشافعية لنعلم ذلك.

---

(١) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرّي، محيي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد. ولد سنة ٦٣١ بـ(نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام، وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبُّد، وألّف مصنفات نافعة جدّاً. توفي بـ(نوى) سنة ٦٧٦ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر «الوافي بالوفيات»: ٤/٢٦٤ ـ ٢٦٨.

(٢) الإعجاب والحب.

(٣) محمد بن مسلم بن عبيد الله، الإمام العلم، حافظ زمانه، أبو بكر القرشي الزهري المدني، نزيل الشام. توفي سنة ١٢٤ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥/٣٢٦ ـ ٣٥٠.



١١ ـ الإشارة إلى المصادر:

قال الدكتور بشار معروف:

«اختلف المؤرخون المسلمون في الإشارة إلى المصادر التي ينقلون معلوماتهم عنها أو عدم الإشارة إليها، ولم يكن عدم الإشارة عيباً كبيراً في المؤلفين آنذاك، وقد جربنا وجود كثرة من كبار المؤرخين لم يذكروا القسم الأكبر من مصادرهم مثل ابن الجوزي في «المنتظم» وابن الأثير في «الكامل» وبدر الدين العيني[1] في «عقد الجمان».

وفي الوقت نفسه وجدنا طائفة أخرى عُنيت بذكر مصادرها، ولكنها تفاوتت في ذلك أيضاً حيث كان قسم منهم يذكر موارده بصورة دقيقة، أما الذهبي فكان من الذين اعتنوا بذكر مواردهم سواء أكان ذلك في القسم الخاص بالحوادث أم في القسم الخاص بالتراجم.

ويبدو لنا أن عناية الذهبي بذكر مصادره قد جاءت نتيجة لطبيعة تربيته ونشأته العلمية وعنايته الفائقة بالحديث وعلومه وتعاطيه الرواية وشدة كَلَفه بها، وآية ذلك أن رواية الحديث بالأسانيد والتدقيق في رواته تعد أرقى أنواع تاريخه، وبخاصة في القسم الخاص بالتراجم؛ نظراً للصلة الوثيقة التي تربط الحديث الشريف بالتراجم التي لم تنشأ وتتطور إلا بسبب العناية بالحديث النبوي الشريف، يضاف إلى ذلك الأهمية البالغة لضبط تراجم الرجال في تقويمه صحة المنقولات سواء أكان ذلك في الحديث أم في غيره، حيث كانت قيمة الروايات وصحتها تعتمد أولاً على قيمة ناقليها، ولما كانت آراء العلماء

---

(١) هو محمود بن أحمد بن موسى. أبو محمد، بدر الدين العيني الحنفي: مؤرخ، علامة، من كبار المحدثين. أصله من حلب ومولده في عينتاب سنة ٧٦٢. أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس. وولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون. وتقرب من الملك المؤيد حتى عد من أخصائه. ولما ولي الأشرف سامره ولزمه وكان يكرمه ويقدمه. ثم صرف عن وظائفه، وعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٨٥٥ رحمه الله. له عدة تصانيف مفيدة. انظر «الأعلام»: ١٦٣/٧.

ممن تؤخذ أقوالهم في الرجال تجريحاً وتعديلاً تحتل مكاناً بارزاً في محتويات الترجمة كان لا بـدَّ من إيراد هذه الأقوال من مصادرها الأصلية، وعزوها إلى أصحابها بشكل دقيق».

١٢ ـ المقارنة بين الروايات وترجيح الصحيح منها.

١٣ ـ النقد:

الحافظ الذهبي نقَّادة معروف، ويكثر في كتبه النقد الدقيق لكثير مما يورده، وإليكم كلاماً طويلاً مهماً للدكتور بشار معروف، رأيت أن أورده ـ بعد اختصاره ـ على طوله لأنه يعالج أمراً جليلاً مهماً تشتد حاجة طلبة العلم، بل عموم الخواص إليه خاصة في هذا الزمان الذي ابتلينا فيه بقلة الإنصاف، وغلبة الأهواء، والقول بأن منهج الموازنة بين الحسنات والسيئات منهج مبتدع خاطئ!! وإنا لله وإنا إليه راجعون:

١ ـ نقد الرجال:

«يقوم نقد الرجال عند الذهبي عادة على إصدار حكم في المترجم وتبيان حاله جرحاً أو تعديلاً، ويكون ذلك في الأغلب بإيراد آراء الثقات من المعاصرين فيه وانطباعاتهم الشخصية عنه، إذا كان المترجم من غير أهل عصره، ويكتفي بآرائهم أو يرد عليها أو يرجح رأياً منها، أما الذين عاصرهم فيكون رأيه الشخصي هو الأساس في هذا النقد نظراً لاتصاله بهم ومعرفته بأحوالهم.

وعلى الرغم من أن الغاية الأساسية من نشوء هذا النقد هو تبيان أحوال رجال الحديث، إلا أنه عُني بتطبيقه على كثير من المترجَمين في كتابه، وقد اعترض بعض معاصري الذهبي عليه في عنايته الكبيرة بالنقد باعتبار أن الدواعي التي دعت إلى قيام النقد عند المتقدمين هي الوصول إلى تصحيح الحديث النبوي، ولما كان الحديث قد استقر في الكتب الرئيسة فما عادت هناك حاجة إليه، وأن فائدته قد انقطعت منذ مطلع القرن الرابع الهجري.



وممن صرح بهذا أبو عمرو محمد بن عثمان الغرناطي المعروف بابن المرابط[١] الذي ادعى أن ذكر معايب الناس غيبة لا تجوز وإن كان المذكور من أهل الرواية، قال ابن حجر: «ورأيت بخطه جزءاً حطَّ فيه على الذهبي وترجمه ترجمة أفرط في ذمه فيها، وتعقبها برهان الدين ابن جماعة[٢] على الهامش».

كما أخذ عليه بعضهم نقده لغير الرواة واعتبروا أن ذلك لا فائدة فيه، ودافع السخاوي[٣] عن الذهبي وغيره ممن عنوا بالنقد في غير الرواة بقوله:

«الملحوظ في تسويغ ذلك كونه نصيحة، ولا انحصار لها في الرواية، فقد ذكروا من الأماكن التي يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ولا يعد ذلك غيبة، بل هو نصيحة واجبة: أن تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها، أو يكون مبتدعاً من المتصوفة وغيرهم، أو فاسقاً ويرى من يتردد إليه للعلم أو للإرشاد ويخاف عليه عود الضرر من قِبَله فيعلمه بيان حاله أو غير ذلك من المحرمات فكل ذلك جائز أو واجب ذكره ليحذر ضرره، وبهذا ظهر أن الجرح لم ينقطع وأنه والحالة هذه من النصيحة الواجبة المثاب فاعلها».

---

(١) محمد بن عثمان بن يحيى الغرناطي، أبو عمرو بن أبي عمرو بن المرابط. ولد في شهر رجب سنة ثمانين وستمائة. قدم مصر فسمع فيها، وسمع بالقدس وسكنها مدة، ثم نزل الربوة ثم دمشق فسمع فيها. توفي سنة ٧٥٢، رحمه الله. انظر: «الدرر الكامنة»: ٣٠/٢.

(٢) هو الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحمويّ الشافعي. ولد بحماة سنة ٦٣٩، وتفقه ومهر في الفنون، ثم ولي قضاء القدس سنة ٦٨٧، ثم تولّى قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٠ فأحسن السيرة، ثم تنقل في المناصب المختلفة من قضاء في الشام وخطابة وغير ذلك. كان ورعاً حسن الهَدْي، متين الديانة، ذا تعبد وأوراد، متقشفاً، مقتصداً في مأكله وملبسه ومركبه ومسكنه، حسن التربية من غير عنف ولا تخجيل. توفي سنة ٧٣٣ وقد جاز التسعين بأربع سنين وأشهر. انظر «الدرر الكامنة»: ٣٦٧/٣ ـ ٣٦٩.

(٣) الشيخ الإمام العلامة الرُّحَلَة الحافظ، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالرحمٰن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي. ولد سنة ٨٣١هـ وأخذ عن كثير من المشايخ، واختص بشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وكان يحبه ويثني عليه، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ٩٠٢هـ بالمدينة المنورة بعد مجاورته زمناً فيها، رحمه الله. انظر: «النور السافر»: ١٦ ـ ٢٠.

ويلاحظ أن العلماء المسلمين، ومنهم السخاوي، وقد برَّروا استعمال النقد في غير مجال الـــرواة بالفائدة المتوخاة منه للنصيحة ودفـــع الضرر. ومثل هذا التبرير قد يكون صحيحاً في حالة نقد المعاصرين فهو تفســـير ساذج، حيث إن الذهبي وغيره لم يقتصروا على نقـــد المعاصرين من غير الرواة، بل تناولوا نقد السابقين أيضاً فيُسأل عندئذ عن الغاية من نقد السابقين؟ كما أنهم لم يستطيعوا أن يوضحوا بجلاء سبب اســـتمرار نقد الذهبي وغيره من المتأخرين المتقدمين بعد انقطاع الفائدة من مثل هذا النقد.

من كل ذلك يتضح أن تعليل مثل تلك الأمور لا يكون بمثل هذه البســـاطة فهناك عوامل أكثر عمقاً دفعت الذهبي إلى مثل هذه العناية لعلنا نســـتطيع إبراز بعضها فيما يأتي:

اســـتمرار العناية بالرواية، فعلى الرغم من أن تمييز الحديث الصحيح على غيره قد اســـتقر بعد ظهور الكتب الستة وبعض المجاميع الحديثية الأخرى فإن المســـلمين لم يتركوا الرواية بـــل ازدادوا عناية بها تقليداً للســـابقين من جهة، وتديُّناً وحباً بالحديث وروايته من جهة أخرى، ومعنى ذلك اســـتمرار الإسناد، ومن ثم ضرورة استمرار النقد في كل عصر لتبيان أحوال الرواة.

لم يتقبل الذهبي آراء النقاد الســـابقين باعتبارها مسلَّمات لا يمكن ردها أو الطعن فيها دائماً بالرغم من احترامه الشـــديد للثقات منهم ومدحه الكثير لهم، ويبدو أنه اعتبر باب الاجتهاد في النقـــد ما زال مفتوحاً، لذلك عُني به كل هذه العناية، يدل على ذلك ردُّه لآراء كثير من كبار النقاد وعدم قبولها مثل أحمد بن صالـــح المصـــري[1]، وأحمد بن عبـــد الله العجلـــي[2] وابن عـــدي وابن حبان

---

(١) الإمام الكبير، حافظ زمانه بدياره المصرية، أبو جعفر. ولد بمصر سنة ١٧٠ وكان ثقة. لم يكن فيه آفة غير الكبر. توفي سنة ٢٤٨ رحمه الله. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٢/١٦٠ ـ ١٧٧.

(٢) الإمام الحافظ الأوحد الزاهد، أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح، العجلي الكوفي، نزيل مدينة طرابلـــس المغرب. مولده بالكوفة في ســـنة اثنتين وثمانيـــن ومائة. وله مصنـــف مفيد في الجرح =

البستي[١]، وابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، وابن الصلاح[٢]، وغيرهم مما يطول ذكره، ولعل كتابه «الميزان» أحسن دلالة على ذلك.

إن النقد أصبح جزءاً من مفهومه التاريخي، لذلك حاول تطبيقه في كل موضع من كتابه، وقد أخطأ كثير ممن فسر نقده لكبار العلماء من غير الرواة أو الملوك او أرباب الولايات أو نحوهم بأنه من صنف «نقد الرجال» بل هو حكم تاريخي، الغاية منه تقويم المترجم كما سيأتي.

ويراعي الذهبي في مثل هذا النوع من النقد أن يورد ما يبين حال المترجم مما يتصل بعقيدته كأن يكون شيعياً، أو رافضياً، أو معتزلياً، أو قدرياً، ونحو ذلك، مما يتصل بأخلاقه، أو مما يتصل بروايته كأن يكون قليل الفهم والضبط، متساهلاً في الرواية، متهاوناً فيها، أو مجازفاً، أو مخلطاً، أو يُحَدّث من غير أصل، أو يقلب الأحاديث، أو يقفز من سند إلى آخر، ونحو ذلك.

= والتعديل، طالعته، وعلقت منه فوائد تدل على تبحره بالصنعة، وسعة حفظه. وقد ذكر لعباس بن محمد الدوري، فقال: ذلك كنا نعده مثل أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين. وقيل: إنه فر إلى المغرب لما ظهر الامتحان بخلق القرآن، فاستوطنها وولد له بها. وقال بعض العلماء: لم يكن لأبي الحسن أحمد بن عبد الله عندنا بالمغرب شبيه، ولا نظير في زمانه في معرفة الغريب وإتقانه، وفي زهده وورعه. وقال بعضهم: إنما سكن أحمد بن عبد الله بطرابلس للتفرد والعبادة، وقبره هناك على الساحل، وقبر ولده صالح إلى جنبه. مات أحمد سنة إحدى وستين ومائتين، ومات ابنه صالح في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة، رحمهما الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/٥٠٥.

(١) الإمام العلامة، الحافظ المجود، شيخ خراسان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي الدارمي البُسْتي، صاحب الكتب المشهورة. ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، وحدّث عن نفسه أنه كتب عن أكثر من ألفي شيخ. توفي بمدينة بُسْت سنة ٣٥٤ رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/٩٢ ـ ١٠٤.

(٢) عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي، تقي الدين، أبو عمرو ابن الصلاح، الشيخ العلامة، أحد أئمة المسلمين علماً وديناً. ولد سنة ٥٧٧، وسمع الحديث بالموصل وبغداد ونيسابور ومرو ودمشق. وروى عنه وتفقه عليه خلائق، وكان إماماً كبيراً فقيهاً، محدثاً، زاهداً ورعاً، مفيداً معلماً، له عدد من المصنفات النافعة أثر عنه أنه قال: ما فعلت صغيرة في عمري قط، استوطن دمشق وتوفي بها سنة ٦٤٣. انظر «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٣٢٦ ـ ٣٣٦.

وتكــون نتيجة التجريــح أو التعديل إصــدار أحكام بعبــارات فنية لها دلالاتها الدقيقة جداً نحو «ثقة» و«صــدوق» و«صويلح» و«دجال» و«كذاب» وما إلى ذلك.

إن عناية الذهبي في البحث عن عقائد المترجميــن واتجاهاتهم ومذاهبهم قدمت لنا مادة غنية في معرفة عقائدهم ومذاهبهم، ومدى انتشــارها بين الناس في فترة ما أو في منطقة معينة.

٢ ـ التقويم والأحكام:

لم يكن الذهبي يقتصر على «نقد الرجال» وهو «النقد الحديثي» الذي يُعنى بذكر حال الرجال صدقاً أو كذباً أو عقيدة أو نحوها، فإن هذا النوع من النقد لا يمكن تطبيقه على جميع فئات المترجميــن في كتابه، وقد حوى خلفاء وملوكاً وأربــاب ولايات، وشــعراء وأدباء ونحوهــم، ولذلك لم ينظــر الذهبي إليهم بالمناظير التي نظر بها إلى الرواة وأشباههم في الأغلب الأعم، بل نظر إلى كل طائفة منهم بمنظار يختلف عن الآخر، وهذه مســألة قلَّما انتبــه إليها الباحثون فوقعوا بآفة التعميم وخرجوا بما ظنوا أنه حقيقة؛ وهي أن المؤرخين المسلمين المتأثرين بالحديث الشــريف وعلومه نظروا إلى جميع الناس بمنظار واحد هو منظار الحديث والمحدِّثين.

نعم، نظر الذهبي إلى كثير مــن العلماء بمنظار المحدثين، ونظر إلى بعض من يختلفون معه في العقيدة بمنظار عقيدته وهلمّ جرّا، ولكنه في الوقت نفسه استطاع أن ينظر إلى كل طائفة منهم بمنظار آخر كَوّن في الأغلب صورة لجماع رأيه في ذلك الشخص.

إن تعدد المناظيــر هذا جعل آراء الذهبي فــي المترجَمين تبدو لأول وهلة متناقضة كل التناقــض، نحو قوله في ترجمة هشــام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤: «النسَّابة العلامة الأخباري الحافظ لم يكن ثقة وفيه رفض».

وقوله في ترجمة أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المعتزلي[1] الذي قاد أعنف حملة على زعماء أهل الحديث وغير القائلين بخلق القرآن: «وكان مصرحاً بمذهب الجهمية داعية إلى القول بخلق القرآن، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق وغزارة الأدب».

وقد صار عدم التعميم في الذم أو المدح أصلاً من أصوله النقدية، قال في رده على ابن الصلاح الذي هاجم الماوردي[2] بسبب الاعتزال: «فلا تَحُطَّ يا أخي على العلماء مطلقاً ولا تبالغ في تقريظهم مطلقاً».

ثم إن اختلاف المناظير عند الذهبي جعله يراعي في كل طائفة صفات معينة بصرف النظر عن اتفاقه أو اختلافه معهم، فكان ينظر إلى الخلفاء والملوك مثلاً من زاوية الحزم، والدهاء، والقوة والضعف، والسياسة، والظلم، والعدل، وحب العلم ونحوها، قال في ترجمة أبي جعفر المنصور:

«وقد مرَّ من أخباره في الحوادث ما يدل على أنه كان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً، وكان جمَّاعاً للمال، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه، وكان في الجملة يرجع إلى عدل وديانة وله حظٌّ من صلاة وتدين، خليقاً للإمارة».

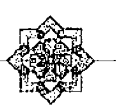
وقال في ترجمة الخليفة المأمون[3]:

---

(١) القاضي الكبير، أبو عبدالله، أحمد بن فرج بن حريز الإيادي البصري ثم البغدادي، الجهمي، عدو أحمد بن حنبل. كان داعية إلى خلق القرآن، له كرم وسخاء وأدب وافر ومكارم. ولد سنة ستين ومئة بالبصرة، ولم يضف إلى كرمه كرم. صادره المتوكل وافتقر. توفي سنة ٢٤٠. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١١/١٦٩ ـ ١٧١.

(٢) هو الشيخ الإمام علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي، أقضى القضاة، صاحب التصانيف. ولي القضاء ببلدان شتى ثم سكن بغداد. تبحر في المذهب الشافعي. توفي سنة ٤٥٠ عن ست وثمانين سنة، رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/٦٤ ـ ٦٨.

(٣) عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد، أبو العباس الهاشميُّ. توفي سنة ٢١٨هـ وكان مجتهدًا عاقلًا لولا هفوته بدعوته لخلق القرآن، وكان عالمًا بالشعر والأدب. انظر: المصدر السابق: ١٠/٢٧٢.



«كان من رجال بني العباس حزماً وعزماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة، وله محاسن».

وقال في ترجمة عضد الدولة البويهي:

«وعمر الطرق والقناطر والجسور. وكان متيقظاً شهماً، كثير البحث عن المشكلات، وافر العقل، كان من أفراد الملوك لولا ظلمه وكان سفَّاكاً للدماء، وكان يحب العلم والعلماء وأقام مكوساً[1] ومظالم نسأل الله العافية».

وقال في هشام بن الحكم الأموي الأندلسي[2]:

«وكان ضعيفاً أخرق محجوراً عليه».

وقال في وصف جوهر الصقلي القائد الفاطمي[3]:

«وكان حسن السيرة في الرعية».

---

(١) المكوس: الضرائب.

(٢) هو المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر. بايعوه صبيّاً فقام على الدولة الحاجب المنصور ابن أبي عامر، ولم يزل المؤيد بالله هشام غائباً عن الناس لا يظهر ولا ينفذ أمراً. وظل اسميّاً خليفة للأندلس حتى عام ٣٩٩ هـ عندما خلعه ابن عمه محمد المهدي بالله، وظل حبيسًا إلى أن أُعيد للحكم مرة أخرى عام ٤٠٠ هـ، ولكن لفترة قصيرة حيث قُتل أو هرب ـ على اختلاف الأقوال ـ عام ٤٠٣ هـ. وانظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢٣/١٧ ـ ١٣٣.

(٣) جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن. القائد، باني مدينة القاهرة والجامع الأزهر. كان من موالي المعز العبيدي صاحب إفريقية وسيره من القيروان إلى مصر، بعد موت كافور الإخشيدي، فدخلها سنة ٣٥٨ وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها. ومكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز سنة ٣٦٢ فحل المعز محله وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها إلى أن توفي سنة ٣٨١ بالقاهرة. وكان كثير الإحسان، شجاعاً، لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه. وكان بناؤه القاهرة سنة ٣٥٨ وسمَّاها المنصورية حتى قدم المعز وسماها القاهرة. انظر «الأعلام»: ١٤٨/٢.

قلت: وهو على مذهب المعز في النحلة الإسماعيلية الباطلة، نسأل الله العافية.

وقال في ترجمة العزيز بالله نزار الفاطمي(١):

«وكان كريماً شجاعاً حسن الصفح حسن الخلق قريباً من الناس لا يُؤْثر سفك الدماء».

أما العلماء فكان يراعي فيهم البراعة والمعرفة في فنّهم، قال في ترجمة نصير الدين الطوسي(٢):

«كان رأساً في علم الأوائل لا سيما معرفة الرياضي وصنعة الأرصاد فإنه فاق بذلك على الكبار، وكان سمحاً كريماً حليماً حسن العشرة غزير الفضائل جليل القدر، لكنه على مذهب الأوائل في كثير من الأصول، نسأل الله الهدى والسداد».

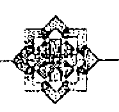
وكان يراعي في الشعراء مثلاً الإبداع، فقد نقل في ترجمة الشاعر الماجن المتهتك ابن سُكّرة(٣):

---

(١) هو صاحب مصر أبو منصور نزار ابن المعز نزار العبيدي. ولد سنة ٣٤٤ وتولّى سَنة ٣٦٥. فُتحت له حلب وحماة وحمص، وخطب له بالموصل وباليمن وبالشام ومدائن المغرب. وفي أيامه ظهر سبُّ الصحابة جهاراً رضي الله عنهم. توفي سنة ٣٨٦ ببلبيس، وتولى بعده ابنه الحاكم الزنديق. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٦٧ ـ ١٧٣.

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين أبو عبدالله الطوسي الفيلسوف صاحب العلوم الرياضية والرصد. ولد سنة ٥٩٧ بطوس ـ وهي مدينة مشهد في إيران اليوم ـ قال ابن القيم رحمه الله: «هذا الوزير نصير الدين، الفيلسوف، العالم الفلكي، الداهية، السمح الكريم، غزير الفضائل، كان نصير الشرك والكفر، الملحد، وزير الملاحدة، شفى نفسه من أتباع الرسول ﷺ وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفى إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة المستعصم والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعيين، والسحرة، ونصر في كتبه قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله، واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين (ابن سينا) مكان القرآن فلم يقدر على ذلك، فقال: هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة، وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحراً يعبد الأصنام، انتهى، بتصرف من كتاب «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم الجوزية: ٢/٢٨٧. توفي سنة ٦٧٢ ببغداد. وانظر «الأخبار العليات»: ١/٤٦ ـ ٥١.

(٣) أبو الحسن محمد بن عبدالله بن محمد، المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي الشاعر المشهور، وهو من ولد علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي. قال الثعالبي في ترجمته: =



«كان متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق الشعر لاسيما في المجون والسخف، وكان يقال ببغداد: إن زماناً جاد بمثل ابن سكرة وابن الحجاج[1] لسخيٌّ جداً، وقد شُبها في وقتهما بجرير والفرزدق في وقتهما».

وفي كثير من الأحيان يُقَوِّم الذهبي المترجَمين بعد دراسة كتبهم وتبيان قيمتها العلمية بين الكتب التي من بابتها، ومثل هذا النقد يدلُّ بلا شك على سعة في العقلية وتفهم منه لمجالات النقد وطبيعته لاسيما بالنسبة لأولئك الذين لم يشتهروا بالرواية وعرفوا بتآليفهم في علم من العلوم أو فن من الفنون.

٣ ـ نقد الروايات:

ردَّ الذهبي كثيراً من الروايات التي نقلها عن المؤلفين السابقين بعد نقدها أو نقد مؤلفيها، ولم يكن مستعدّاً دائماً لتصديق كل ما يقال عن شخص ما أو حادثة معينة، ولذلك وجدناه قلما ترك مؤلفاً نقل عنه من غير أن يخطئه في أكثر من رواية بصرف النظر عن مكانة ذلك المؤلف من العلم وجلالته فيه، فتحصلت في الكتاب ثروة نقدية على غاية من الضخامة، يلمسها كل من يطالع الكتاب أو يتفحصه، يضاف إلى ذلك أنه لم يقتصر على أسلوب واحد في النقد

= هو شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول الطُّرَف والـمُـلَح على الفحول والأفراد، جارٍ في ميدان المجون والسخف ما أراد. توفي سنة ٣٨٥ رحمه الله. انظر «وفيات الأعيان»: ٤/٤١٠.

(١) شاعر العصر، وسَفِيهُ الأدباء، وأمير الفُحْشِ، وديوانه مشهور في خمس مجلدات، وهو أبو عبدالله، الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي، المحتسب، الكاتب. وقد هجا المتنبي ومدح الملوك، مثل عضد الدولة وبنيه والوزراء. وله باعٌ أطول في الغزل. وأما التَّفَحُشُ، فهو حامل لوائها، والقائم بأعبائها. وخدم بالكتابة في جهات، وأخذ الجوائز، وولي حسبة بغداد مدة وعزل، وله معان مبتكرة ما سُبق إليها. وكان شيعيّاً رقِيعًا، ماجنًا، مَزّاحاً، هجّاءً، أُمَّةٌ وَحْدَه في نظم القبائح، وخِفَّة الروح، وله معرفة بفنون من التاريخ والأخبار واللغات. ورأيت له أنه قال: كل ما قلته من المُجون فالله يشهد أنني ما قصدت به إلا بَسْطَ النَّفْسِ، وأنا أستغفر الله من هذه العَثْرة. وقيل: إنه بعث ديوانه بخط منسوب إلى صاحب مصر، فأجازه بألف دينار. مات ببلد النيل في جمادى الآخرة، سنة إحدى وتسعين وثلاث مائة، وقد شاخ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/٥٩.

بل توسل بكل ممكن مما يوصله إلى الحقيقة، ومن ثَم وجدنا تنوعاً في أساليبه النقدية في هذا المجال لعل من أبرزها:

أ ـ نقد السند:

ونجد ذلك واضحاً في كلامه على كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وفي بعض الروايات الأولى، ويكون هذا النقد عادة بتضعيف السند بسبب الكلام في راو واحد من رواته أو أكثر، أو تقويمه استناداً إلى مقاييس المحدثين فيحكم بعد ذلك على قوة الحديث وضعفه باستعمال العبارات الدالَّة عليه، كأن يقول مثلاً: «منقطع» و«مرسل»، و«متفق عليه» و«صحيح» وغيرها من المصطلحات المعروفة عندهم.

ولما كان الذهبي من كبار حفاظ الحديث وجهابذته لذلك ما وجدناه ترك حديثاً من غير تعليق عليه، وقد طبق هذه الطريقة على بعض الأخبار بعد دراسة أسانيدها، وهو نادر في كتابه لعدم عنايته بالإسناد فيه أصلاً وتعويله على المؤلَّفات السابقة.

ومع ذلك فإن الذهبي لا يكتفي بنقد السند في معظم الأخبار التي يوردها ويضعفها استناداً إلى ضعف في سندها، بل يحاول جاهداً إيراد ما يقوي هذا التضعيف من الأدلة التاريخية التي تتوفر له.

ب ـ نقد المتن:

وهو الذي يقوم على نقد متن الرواية بكل ما يستطيع الناقد إيراده من الأدلة التي تثبت دعاواه، وهذا النوع من النقد هو الذي عُني به الذهبي في كتابه فَرَدَّ مئات الروايات وأبطلها بنقده المتين، وهو ظاهرة جِدُّ واضحة فيه.

ومن أمثلة عنايته بنقد المتن مع توفر الإسناد القوي تعليقه على خبر سفر النبي ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام وقصة بحيرا الراهب، وملخص الحديث: أن الراهب تناقش مع أبي طالب والقرشيين في أمره حينما كانوا يتظللون بفيء شجرة، ثم أقبل النبي ﷺ وغمامة تظله فلما جلس تحت الشجرة مال عليه فيء



الشجرة، فلما رآه الراهب وعرف صفته ناشد أبا طالب أن يردَّ النبي ﷺ خوفاً عليه من الروم فرده أبو طالب، وبعث أبو بكر معه بلالاً الحبشي، فقال الذهبي:

«تفرد به قراد، واسمه عبدالرحمٰن بن غزوان وهو ثقة احتج به البخاري والنسائي، ورواه الناس عن قراد وحسنه الترمذي، وهو حديث منكر جدّاً، وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف.

وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث ولم يكن ولد بعد.

وأيضاً: فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها.

ولم نَرَ النبي ﷺ ذكّر أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لاشتهر بينهم أيّما اشتهار، ولبقي عنده ﷺ حِسٌّ من النبوة، ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولاً بغار حراء، وأتى خديجة خائفاً على عقله، ولَمَا ذهب إلى شواهق الجبال ليرمي نفسه ﷺ.

وأيضاً: فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب ورده كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجراً لخديجة؟ وفي الحديث ألفاظ منكرة تشبه ألفاظ الطرُقية[1] مع أن ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً إلى آخره، فقال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرني أبو داود سليمان بن موسى، فذكره بمعناه».

ونرى من هذا النقد أن الذهبي قد حلل الخبر تحليلاً علمياً من كافة جوانبه: في أحداثه، وألفاظه، ودلالاته، واستعمل عقله، والأدلة التاريخية ليثبت بطلانه، وهو يدل على ملكة عظيمة في النقد وتمكن فيه.

---

(١) أي: الصوفية أصحاب الطرق.

والحق أن الذهبي استعمل عقله في ردّ كثير من الروايات حتى وإن لم تتوفر لديه الأدلة الكافية، لكن حسه التاريخي جعله لا يقبلها وإن رواها أو نقلها الثقات، فقد نقل عن الخطيب نصّاً عن عدد حمامات بغداد وأنها كانت ستين ألف حمام، فقال: «قلت: كذا نقل الخطيب في تاريخه وما أعتقد أنا هذا قط ولا عشر ذلك».

ولم يقبل تصديق ضخامة أعداد الناس الذين كانوا يحضرون مجالس وعظ ابن الجوزي مع أن ابن الجوزي ذكرها بنفسه في المنتظم، كما هو مشهور.

ثانياً: التعصب والإنصاف في النقد:

كان من منهج الذهبي نقل آراء الموافقين والمخالفين في المترجَم ليقدم صورة كاملة عنه، وهو طابع عام في كتابه تجده في كل ترجمة من تراجمه، بينما اقتصر آخرون على إيراد المدائح في كتبهم مثل السبكي (ت ٧٧١) وغيره، كما أن الذهبي عُني بترجمة عدد كبير من المعاصرين له ولا سيما في معجمه الكبير، ومعجمه المختص بالمحدثين، ولا ريب أنه نقد بعضهم فلم يعجبهم ذلك، وتأذّى البعض منهم وغضب غضباً شديداً مثل شمس الدين محمد بن أحمد بن بصخان المقرئ المتوفى سنة ٧٤٣ الذي ترجم له الذهبي وأورد بعض ما فيه من القدح، فكتب ابن بصخان هذا بخط غليظ على الصفحة التي بخط الذهبي كلاماً أقذع فيه بحق الذهبي بحيث صار خط الذهبي لا يقرأ غالبه.

وقد عرفنا من حياة الذهبي أنه رافق الحنابلة وتأثر بشيخه ابن تيمية لا سيما في العقائد، فكان شافعي الفروع حنبلي الأصول، ولذلك عُني عند النقد بإيراد العقائد على طريقة أهل الحديث واعتبرها جزءاً منه كما بيّنّا قبل.

ووجدنا في البيئة الدمشقية في الوقت نفسه من يتعصبُ للأشاعرة غاية التعصب.



وبسبب العقائد انتقد الذهبي من بعض معاصريه لاسيما تلميذه تاج الدين عبدالوهاب السبكي (٧٢٨ ـ ٧٧١) في غير موضع من كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»، وفي كتابه الآخر «معيد النعم»، فقال في ترجمته من الطبقات:

«وكان شيخنا ـ والحق أحق ما قيل، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل ـ شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الإزراء بأهل السُّنَّة، الذي إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري[1] فيهم مقدم القافلة، فلذلك لا ينصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنف الراغم، صنّف «التاريخ الكبير»، وما أحسنه لولا تعصب فيه، وأكمله لولا نقص فيه، وأي نقص يعتريه».

وقال في ترجمة أحمد بن صالح المصري من «الطبقات» أيضاً:

«وأما تاريخ شيخنا الذهبي ـ غفر الله له ـ فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط لا واخذه الله، فلقد أكثر الوقيعة في أهل الدين، أعني: الفقراء[2] الذي هم صفوة الخلق، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين والحنفيين، ومال فأفرط على الأشاعرة، ومدح فزاد في المجسمة، هذا وهو الحافظ المِدْره[3]، والإمام المبجل، فما ظنك بعوام المؤرخين».

وذكر في موضع آخر أنه نقل من خط صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي[4] «٦٩٤ ـ ٧٦١» وهو من تلاميذ الذهبي والمتصلين به أنه قال ما نصّه:

---

(١) هو الشيخ الإمام العلامة، إمام المتكلمين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعريّ اليماني البصري ولد سنة ٢٦٠، وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه بعد أن كان من المقدمين فيه. له تصانيف حسنة تقضي له بسعة العلم. مات ببغداد سنة ٣٢٤: انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨٥/١٥ ـ ٩٠.

(٢) هم الصوفية.

(٣) السيد الشريف، وزعيم القوم وخطيبهم.

(٤) صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبدالله الدمشقي العلائي، محدث، فاضل، بحاث. ولد في دمشق ٦٩٤، ورحل رحلة طويلة، ثم أقام في القدس مدرّساً في الصلاحية سنة ٧٣١ هـ فتوفي فيها سنة ٧٦١ ﷺ. له عدة كتب في الفقه والتفسير والحديث. قال الذهبي: كان إماماً في الفقه، =



«الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله الناس، ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات، ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات، فإذا ترجم واحداً منهم يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن، ويبالغ في وصفه، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن، وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين[١] والغزالي[٢] ونحوهما لا يبالغ في وصفه، ويكثر من قول مَن طعن فيه، ويعيد ذلك ويبديه، ويعتقده ديناً وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطافحة فلا يستوعبها، وإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها، وكذلك فعله في أهل عصرنا، إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول في ترجمته: والله يصلحه، ونحو ذلك، وسببه المخالفة في العقائد».

ثم ذكر السبكي أن الحال أزيد مما وصف العلائي، ثم قال: «والذي أدركنا عليه المشايخ النهي عن النظر في كلامه، وعدم اعتبار قوله، ولم يكن يستجري أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنه أنه لا ينقل عنه ما يعاب عليه».

وبالغ السبكي بعد ذلك، فذكر أن الذهبي متقصد في ذلك وأنه كان يغضب عند ترجمته لواحد من علماء الحنفية والمالكية والشافعية غضباً شديداً ثم

= والنحو، والأصول، متفنناً في علوم الحديث ومعرفة الرجال، علامة في معرفة المتون والأسانيد. وانظر «الأعلام» للزركلي: ٣٢١/٢.

(١) هو الشيخ الإمام أبو المعالي عبدا لملك بن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني ثم النيسابوري ضياء الدين الشافعي، صاحب التصانيف ولد سنة ٤١٩. تفقه وشاع ذكره، ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور. وتفقه به أئمة. رجح آخر عمره مذهب السلف في الصفات وأقره. توفي سنة ٤٧٨ بنيسابور. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٦٨/١٨ ـ ٤٧٧.

(٢) الإمام الغزالي: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين العابدين، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطُوسيُّ الشافعيُّ الغزاليُّ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، تفقه ببلده، ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل، وشرع في التصنيف، وعظم جاهه، ثم تزهد وحج، واعتزل الناس مدة، وكان خاتمة أمره إقباله على الحديث وأهله، توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ٥٠٥هـ بطوس، انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٣٢٢/١٩ ـ ٣٤٦.



يقرطم الكلام ويمزقه «ثم هو مع ذلك غير خبير بمدلولات الألفاظ كما ينبغي، فربما ذكر لفظة من الذم لو عقل معناها لما نطق بها».

وقد أثارت انتقادات السبكي هذه نقاشاً بين المؤرخين فرد عليه السخاوي «ت ٩٠٢هـ» حيث اتهم السبكي بالتعصب الزائد للأشاعرة ونقل قول عز الدين الكناني[1] «ت ٨١٩هـ» في السبكيّ:

«هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السُّنة ورتبهم».

قال يوسف بن عبد الهادي[2] «ت ٩٠٩» في «معجم الشافعية»: «وكلامه هذا في حق الذهبي غير مقبول؛ فإن الذهبي كان أجلّ من أن يقول ما لا حقيقة له، والإنكار عليه أشد من الإنكار على الذهبي، لا سيما وهو شيخه وأستاذه فما كان ينبغي له أن يُفْرط هذا الإفراط.

والحق أن السبكي أشعري جلد متعصب غاية التعصب، ولا أدل على ذلك من شتيمته المقذعة في حق الذهبي في ترجمة أبي الحسن الأشعري من الطبقات؛ فقد سفَّ بها إسفافاً كبيراً بسبب عدم قيام الذهبي بترجمته ترجمة طويلة «في تاريخ الإسلام»؛ ولأنه اكتفى بإحالة القارئ إلى كتاب «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر فاعتبر ذلك نقيصة كبيرة في حق الأشعري.

وقد قرأ السخاوي بخطه تجاه ترجمة سلامة الصياد المنبجي الزاهد[3] ما نصه:

---

(١) محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز، الإمام العالم العلامة الحبر المتفنن عزُّ الدين أبو عبدالله المصري الشافعي. صاحب المؤلفات الكثيرة في الحديث والأصول والعقيدة واللغة. توفي سنة ٨١٩ رَحِمَهُ اللهُ. انظر «ديوان الإسلام»: ١/٤٧.

(٢) يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبدالهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المِبْرد. علاّمة متفنن، من فقهاء الحنابلة. من أهل الصالحية، بدمشق. ولد سنة ٨٤٠، وتوفي سنة ٩٠٩ رَحِمَهُ اللهُ.له عدة كتب في التراجم والفقه والحديث والتاريخ والسيرة والأصول والأدب. انظر «الأعلام»: ٨/٢٢٥ ـ ٢٢٦

(٣) سلامة الصياد المنبجي الزاهد رفيق الشيخ عدي. قال الحافظ عبدالقادر الرهاوي: وكانا جميعاً من تلاميذ الشيخ عقيل المنبجيّ الزاهد. ساح ولقي المشايخ ورأى منهم الكرامات وأقام بالموصل =



«يا مسلم: استحي من الله، كم تجازف، وكم تضع من أهل السُّنة الذين هم الأشعرية، ومتى كانت الحنابلة، وهل ارتفع للحنابلة قط رأس».

ومع ذلك فإن هذه القضية جديرة بالدرس لأنها توضح أهمية كتاب الذهبي من جهة، ومنهجه ومدى عدالته في النقد والتحري من جهة أخرى.

ولقد أبانت دراستنا لـ«تاريخ الإسلام» أن الذهبي قد وفق إلى أن يكون منصفاً إلى درجة غير قليلة في نقده لكثير من الناس، وما رأينا عنده تفريقاً كبيراً بين علماء المذاهب الأربعة، وما كان يرضى الكلام بغير حق ولا حتى نقله في بعض الأحيان، قال في ترجمة الحسن بن زياد اللؤلؤي الفقيه الحنفي[1]:

«قد ساق في ترجمة هذا أبو بكر الخطيب أشياء لا ينبغي لي ذكرها...»

وترجم لأبي جعفر الطحاوي[2] ترجمة رائقة ودلَّل على سعة معرفته وفضله وعلمه الجم.

= مدة في زمن بني الشهرزوري حين كان لا يقدر أحد أن يتظاهر بالحنبلية يظهر الحنبلية ويحاج عنها، ثم رجع إلى منبج وأقام بها إلى أن مات. وكان معاشه من المقاثي وعمل الحصر. وكان قد لزم بيته وترك الجماعة لأجل أن أهل الموصل انتحلوا مذهب الأشعري وأبغضوا الحنابلة. وفاته في حدود الثمانين وخمس مائة، رحمه الله. انظر «الوافي بالوفيات»: ١٥/٢٠٦.

(١) العلامة فقيه العراق، أبو علي الأنصاري بالولاء الكوفي اللؤلؤي، صاحب أبي حنيفة. نزل بغداد، وصنف وتصدر للفقه. وكان أحد الأذكياء البارعين في الرأي، ولي القضاء بعد حفص بن غياث، ثم عزل نفسه. قال محمد بن سماعة: سمعته يقول: كتبت عن ابن جريج اثني عشر ألف حديث، كلها يحتاج إليها الفقيه. وقال أحمد بن عبدالحميد الحارثي: ما رأيت أحسن خلقاً من الحسن اللؤلؤي، وكان يكسو مماليكه كما يكسو نفسه. مات سنة أربع ومائتين رحمه الله انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٩/٥٤٥.

(٢) الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف. من أهل قرية طحا من أعمال مصر. مولده في سنة تسع وثلاثين ومائتين. برز في علم الحديث وفي الفقه، وجمع وصنف. ذكره أبو سعيد بن يونس، فقال: عداده في حجر الأزد وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً، لم يخلف مثله. توفي سنة ٣٢١ رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٧.

وهذا هو منهجه في معظم الحنفية لم نره تكلم في أحدهم بسبب المذهب، لا من الشافعية، ولا المالكية، ولا الحنفية.

ولو قال السبكي: إنه كان يتعصب على الأشاعرة حَسْبُ لوجد بعض الآذان الصاغية ولبحث له المؤيدون عن بضعة نصوص قد تؤيد رأيه، علماً أني بحثت في «تاريخ الإسلام» ولم أستطع أن أحصل على مَثَلٍ يصلح أن يسمى انتقاداً لأشعري، نعم قد نجد بعض تقصير في تراجم قسم من الأشاعرة، وفي هذا المجال صرت أشعر أن سبب قِصَر بعض تراجم الأشاعرة قد جاء من عدم قيام الذهبي بنقل آراء المخالفين بتوسع حبّاً منه للعافية كما في ترجمة أبي الحسن الأشعري الذي لم يأت الذهبي بكلمة نقد فيه مع أن الأشعري قضى القسم الأكبر من حياته معتزلياً، ونحن نعرف موقف الذهبي من المعتزلة، والواقع أن الذهبي ما بخس فضل هذا الرجل إلى درجة أنه اعتبره مجدداً في أصول الدين على رأس المئة الرابعة.

أما كلام الذهبي في الصوفية فصحيح ما قاله السبكي، ولكن في النادر منهم، وهذا رأي ارتآه الذهبي واعتقد فيه وآمن به، فقد ميَّز بين طائفتين منهم:

أولاهما: كانت متمسكة الدين القويم متبعة للسّنة، احترمهم الذهبي الاحترام كله، بل لبس هو خرقة التصوف من الشيخ ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصاري السبتي عند رحلته إلى مصر[1].

وقال في ترجمة فرج الزنجاني[2] المتوفى سنة ٤٥٨ من تاريخه:

«وهو الذي لبسنا خرقة السهروردي من طريقه».

---

(١) ذكره الإمام الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» في الطبقة العشرين، وبيّن أنه توفي سنة ٦٩٦ بالقاهرة عن ٨٣ سنة.

(٢) ذكره الإمام الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» الجزء الثامن عشر صفحة ١٨٠ في وفيات سنة ٤٥٨. ووصفه في كتابه «تاريخ الإسلام»: ٤٥١/٣٠ بأنه من كبار الصالحين بتلك الديار وقال: لبسنا خرقت السهروردي من طريقه.



وكان يعتقد ببعض كرامات كبار الزهاد ويُعنـــى بإيرداها في كتابه بل يكثر منها عادة، ويورد بعض أقوالهم وحكاياتهم في الزهد والمحبة فيه.

أما الثانية: فقد اعتبرهم الذهبي مارقين عن الدين، مشـــعوذين بهم مسٌّ من الجنون، ومنهم الأحمدية أتباع الشـــيخ أحمد الرفاعي[1]، والقلندرية وشـــيخها جمال الدين محمد الســـاوجي[2] فقـــد ذكر ترهاته وانغشـــاش الناس به وبحاله الشـــيطاني، ووصف بعض أحوالهم في ترجمة يوســـف القميني «ت ٦٥٧هـ» فقال: «وكان يأوي إلى قمين حمام نور الدين، ولما توفي شيَّعه خلق لا يحصون من العامة، وقد بصرنـــا الله ـ تعالى وله الحمد ـ وعرفنا هـــذا النموذج فقد عم البلاء في الخلق بهذا الضرب.

ومن هذه الأحوال الشـــيطانية التي تضل العامة: أكل الحيات ودخول النار، والمشي في الهواء ممن يتعانى المعاصي ويخل بالواجبات وقد يجيء الجاهل

---

(١) الإمام القدوة العابد الزاهد، شـــيخ العارفين، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي المغربي ثم البطائحي. ولد أول ســـنة ٥٠٠. وكان يعرف الفقه الشافعي. له كلام جليل وكرامات. وكان كثير الاســـتغفار، عالي المقدار، رقيق القلب غزير الإخلاص، ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجدد لهم أحوال شـــيطانية بعد أن اخذ التتار العراق من دخول النيران وركوب الســـباع واللعب بالحيات، وهذا لم يعرفه الشـــيخ ولا صلحاء أصحابه. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧٧/٢١ ـ ٨٠، «والعبر»: ٢٣٣/٤.

(٢) قدم دمشق وقرأ القرآن والعلم، وسكن جبل قاسيون بزاوية الشيخ عثمان الرومي، ثم حصل له زهد وفراغ من الدنيا فترك الزاوية، وأقام بمقبرة بـــاب الصغير بقرب موضع القبة التي بنيت لأصحابه، وبقي مديدة في قبة زينب بنت زين العابدين.

ثم إن الســـاوجي حلق وجهه ورأســـه فانطلى على أولئك حاله الشـــيطاني فوافقـــوه، وحلقوا. ثم فتش أصحاب الشيخ عثمان الرومي على الساوجي فوجدوه بالقبة فســـبوه، وقبحوا فعله، فلم ينطق ولا رد عليهم. ثم اشتهر. وتبعه جماعة وحلقوا وذلك في حدود العشرين والستمائة فيما أظن. ثم سافر إلى دمياط فأنكروا حاله وزيه المنافي للشرع.

توفي بدمياط، وقبره مشـــهور، وذكر شـــمس الدين الجزري أنه رأى كراريس من تفســـير القرآن الكريم للشيخ جمال الدين الســـاوجي بخطه إلى أن قال: وذكر ابن إسرائيل الشاعر أن هذه الطائفة ظهرت بدمشق سنة نيف وستمائة. انظر «كنوز الذهب في تاريخ حلب»: ٤٠٩/١.



فيقول: اسكت لا تتكلم في أولياء الله، ولم يشعر أنه هو الذي تكلم في أولياء الله وأهانهم إذ أدخل فيهم هؤلاء الأوباش المجانين أولياء الشياطين».

ولم يكن الذهبي متعصّباً للحنابلة بالمعنى الذي صوره السبكي فالرجل كان محدثاً يحب أهل الحديث ويحترمهم، إلا أن هذا لم يمنعه من تناول مساوئ بعضهم، فقد نقل عن الإمام ابن خزيمة[1] في ترجمة الطبري المؤرخ قوله:

«ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»، ثم قال الذهبي معقّباً وناقلاً عن أبي محمد الفرغاني:

«كان محمد بن جرير ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد».

وقال في ترجمة عبدالساتر بن عبدالحميد تقي الدين الحنبلي المتوفى سنة ٦٧٩: «ومهر في المذهب، وقَلّ من سمع منه لأنه كان فيه زَعّارة[2]، وكان فيه غلو في السُّنة، ومنابذة للمتكلمين ومبالغة في اتباع النصوص، وهو فكان حنبلياً خشناً متحرقاً على الأشعري كثير الدعاوى قليل العلم».

ومع ما كان للذهبي من إعجاب بشيخه ابن تيمية فإنه أخذ عليه «تغليظه وفظاظته وفجاجة عبارته وتوبيخه الأليم المبكي المثير النفوس»...

وقد رأى في بعض فتاويه انفراداً عن الأمة، قال: «وقد انفرد بفتاوى نيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه فالله ـ تعالى ـ يسامحه ويرضى عنه فما رأيت مثله، وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا؟»

---

(١) الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، أبو بكر السلمي النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٢٢٣، وعُني في حداثته بالحديث والفقه حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان توفي سنة ٣١١، وعاش تسعاً وثمانين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/٣٦٥ ـ ٣٨٢.

(٢) أي: سوء خلق.



وقد بلغ حرص الذهبي في النقد وشــدة تحريه أن تكلم في ابنه أبي هريرة عبد الرحمٰن فقال: «إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه».

ولست هنا في حال دفاع عن الرجل فكتابه خير مدافع عنه وهو الحَكَم في تقويمه، ولكنني أقول: إن تحقيق كثير مــن الإنصاف لم يكن كله، أمر له قيمته العظمى في كل عصر».

انتهى النقل الموجز من الكلام الطويل الجليل الذي ســاقه الدكتور بشــار معروف في بيان منهج النقد في كتاب الإمام الذهبي رحمه الله.

وفي ظني أن الذي انتهى إليه الدكتور بشار من بيان منهج النقد عند الذهبيّ هو الأمر الوســط الذي ينبغي المصير إليه، فقد توسط فيه توسطاً لا مزيد عليه، والله تعالى أعلم.

سير أعلام النبلاء

للحافظ الذهبي رحمه الله (ت٧٤٨)

أهمية الكتاب:

كتاب «السير» كتاب حافل، جامع لفنون شتى وأخبار كثيرة؛ لا تقتصر على عصر دون عصر، ولا مصر دون مصر، بل تشمل صدر الإسلام حتى نهاية القرن السابع تقريباً، وقد أتت هذه الأخبار على غالب الأمصار الإسلامية.

المؤرخ يرى فيه بُغيته، والناظر في أخبار الرجال جرحاً وتعديلاً يجد فيه مطلبه، والباحث عن همم الرجال في الدعوة والعبادة يرى فيه من بلغوا في هذا المضمار ذروته.

وفيه أخبار من تاريخنا المشرق وضيئات، وعلامات على الطريق هاديات، وعبر كثيرات.

وفيه أخبار عن رجال هذه الأمة العظام، وشذرات من أحوالهم وعباداتهم يحتاجها من يريد وضع منهج يعيش به رجال الإسلام في عصرنا الحاضر ومستقبلنا المشرق، إن شاء الله تعالى.

وفيه تذكير بعاقبة من ظلم وبغى وطغى، وبمن ابتدع وفسق وعصى، لعل أبناء زماننا يحذرون هذا المسلك الرديء.

وفيه قصص جميلة ونوادر لطيفة يكون فيها بعضُ العِوَض عن غثاء الأسواق، وقذارات الفساق الذين شغلوا الناشئة بالمجلات والقصص الماجنة.

وفيه جملة عظيمة من قواعد الدين من توحيد وسلوك ومعاملات تقرُّ بها أعين المؤمنين، وقد أورد الذهبي كل هذا في ثنايا أخبار المترجم لهم.



كما أن فيه قدراً ضخماً من مادة الجرح والتعديل.

وفيه عدد ضخم من الأحاديث والآثار.

ويكاد يحصر مشايخ المترجم له وتلاميذه.

وفيه آلاف التراجم، وفي الكتاب أسانيد طويلة، وقصص وأخبار بعضها ضعيف أو مكرر، وغير ذلك من الصوارف عن هذا الكنز الثمين والعقد الفريد، فقمت بتهذيب الكتاب بعد قراءته حتى يتيسر لكثير من الناس الوقوف على ما فيه من الفوائد التي هي مراد المصلحين، ووسيلة المربين، وأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في هذا العمل وسددت.

مزايا كتاب «السير»:

لكتاب «سير أعلام النبلاء» مزايا ربما لا توجد مجموعةً في غيره من الكتب فمن ذلك:

١ ـ الإنصاف العظيم الذي يتمتع به مؤلف الكتاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو لا يكتفي بسرد تاريخ المترجم له دون التعليق ـ غالباً ـ على ما يراه ضرورياً لإنصافه؛ وذلك نحو الحكم على حكاية ألصقت به وهي غاضة من شأنه، أو ذكر مُسَوِّغ لعمل ظنه الناس سيئاً وهو يحتمل أوجهاً أخرى، أو نقد لتصرفاته نقداً شرعياً، ثم يحاول أن يخرج بحكم عام على المترجم له مقرونٍ بالإنصاف.

وهذا العمل ـ أي: الإنصاف في الحكم على الأشخاص ـ تستطيع أن تستفيد منه الصحوة المباركة، فهي صحوة توشك أن تعطي ثمارها لولا ما يكدرها من تصرفات بعض ذوي النظرات القاتمة الذي يرمون العلماء والدعاة بالفسق والابتداع والميل عن مذهب السلف لأيِّ زلة، لا يعذرون أحداً، ولا يتقون الله في ظن مرجوح، مما أدى إلى تباغض وتنافر وإحن وعداوات بين كثير من الأفراد والجماعات والهيئات.



وهناك بعض آخر لا يستطيع العيش إلا بالطعن على المخالف، ونسيان محاسنه، وكتمانها، فهؤلاء وأمثالهم تكفل الإمام الذهبي بالرد عليهم مما ستجده في ثنايا الكتاب واضحاً إن شاء الله تعالى.

٢ ـ ثراء المادة النقدية في الكتاب، فالذهبي رَحِمَهُ اللهُ لا يدع أحداث التاريخ تمر دون نقدٍ ـ غالباً ـ لما يحتاج النقد والتبيين فتراه يضعف حادثة منكورة، أو يصحح وهماً أو مبالغة وقع فيها ناقل، أو يبين رأيه في أمر يحتاج إلى فصل وتبيين.. إلخ، وهذه المادة النقدية تفتقدها كثير من كتب التأريخ والتراجم، والنقد البناء يفيد في تصحيح أحداث التاريخ وإيرادها مورداً سليماً بعيداً عن المبالغة والغلو والضعف.

٣ ـ شمول هذا الكتاب واحتواؤه ما لم يحوه كثير من أمثاله؛ إذ إنه يجمع بين التأريخ والتراجم الموسعة، فكتاب «البداية والنهاية» ـ مثلاً ـ نجد فيه أخباراً تاريخية جمة، ولكننا لا نجد فيه تراجم موسعة شاملة للعلماء والأخيار والأمراء والأشقياء وغيرهم إلا قليلاً، ومثله «كامل» ابن الأثير، و«تاريخ الأمم والملوك» للطبري.

وهناك كتب تحوي تراجم موسعة ـ نوعاً ما ـ ولكنا لا نجد فيها أخباراً تاريخية مسلسلة على نهج متسق، وذلك نحو: «حلية الأولياء» و«الطبقات» لابن سعد، و«وفيات الأعيان» ونحو ذلك من كتب التراجم الكثيرة.

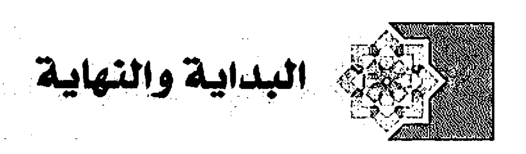
وأما هذا الكتاب ففيه قدر عظيم من التراجم الموسعة مع قدر طيب من التأريخ المنهجي المتسلسل المبثوث في ثنايا التراجم، وخاصة تراجم الخلفاء والملوك والأمراء.

٤ ـ كتاب «السير» يستوعب معظم من نبل في أعين الناس ـ غالبهم أو بعضهم وإن كان ساقطاً في الميزان الشرعي ـ فهو لا يختص بأهل مذهب فقهي معين، ولا بالخلفاء والملوك والأمراء، ولا بالشعراء والنحويين وأهل

الأدب، ولا بالأبطال والشجعان وقادة المعارك، ولا بالأطباء والحكماء والفلاسفة، ولا بأهل صنعة أو أهل نحلة، بل هو يشمل جميع الأصناف المذكورة، ويكاد يستوعب أخبار أمصار الإسلام.

صحيح أنه قد غلبت تراجم المحدثين على غيرهم، وهذا بسبب اعتناء الذهبي القوي بالحديث فهو الحافظ الماهر فيه، ولكن كثيراً من محدثي القرون الأولى الفاضلة ومن تلاهم كانوا فقهاء ومفسرين وغزاة في سبيل الله، وأدباء ونحويين، وغير ذلك مما اشتهروا به، رحمهم الله.

وأما منهج الكتاب ونقده فأكتفي بما أوردته في كتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ آنفاً من بيان لمنهج الكتاب ونقد ما فيه؛ إذ كتاب «السير» مستلٌّ من كتاب «تاريخ الإسلام»، وفيه زيادات، لكن منهج المؤلف ونقد ما في الكتاب متقارب في الكتابين، والله أعلم.



البداية والنهاية

للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤)

ترجمة المصنف:

هو إسماعيل بن عمر بن كثير البصري: عماد الدين، الحافظ الإمام. ولد سنة سبعمائة. ونشأ بدمشق واشتغل بالحديث، وله عدة مصنفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، جمع بين علوم عدة فكان محدثاً ومفسراً ومؤرخاً، وله مشاركات في علوم أخرى. توفي سنة ٧٤٤ رحمه الله. انظر «الدرر الكامنة»: ١/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

أهمية الكتاب:

يكاد كتاب «البداية والنهاية» أن يكون أشهر كتب التاريخ قاطبة، وذلك لأسباب منها:

١ ـ هو من أوائل ما طبع من كتب التاريخ، فقد طبع سنة ١٩٣٢/١٣٥١ في ١٤ مجلداً.

٢ ـ انتشر اسم الكتاب بين العوام انتشاراً كبيراً حتى أن كثيراً منهم لا يكادون يعرفون غيره.

٣ ـ الكتاب يخلو من المؤاخذات الكبيرة العقدية والشرعية والتاريخية التي تمنع انتشاره.

٤ ـ مصنف الكتاب إمام معتبر، عالم بالكتاب والسُّنَّة، منتصر لعقيدة أهل السُّنة والجماعة، مبرز لعلمائهم وقادتهم ووجهائهم، ويرد على أهل البدع والأهواء.



٥ ـ العاطفة الجليلة التي كتب بها الكتاب[١]، وقد ذكر ذلك محققو الكتاب في طبقة دار ابن كثير حيث ذكروا في المقدمة «عاطفته الصادقة في حب الله ـ تعالى ـ وحب رسوله ﷺ وحب الصحابة جميعاً ومن تبعهم بخير وإحسان، وكراهيته لأهل الكفر والزيغ والبطلان، وتأثره بما وقع للمسلمين من فتن واختلاف مما أوقف الدعوة والفتوح، ورد أسلحة المسلمين إلى نحورهم»[٢].

٦ ـ سهولة أسلوبه، وسلاسة جمله وعباراته، وندرة التعقيد اللفظي والمعنوي فيها.

منهج المصنف:

قسم كتابه إلى «البداية» ـ وهي الخلق ـ ثم سأذكر تواريخ الأنبياء وما جرى عليهم مع أقوامهم، إلى أن وصل لسيرة الخلق ﷺ ثم أرّخ على سِني الهجرة حتى وصل إلى زمانه.

وقد قسم أخبار كتابه حسب السنين، فكان يذكر حوادث كل سَنةٍ ويختمها بذكر من مات فيها ويترجم له بحسب مكانته ومنزلته.

أما «النهاية» فيعني بها أحداث آخر الزمان، وقد طبع مستقلاً عن الكتاب مراراً، وبقي كذلك حتى عمدت دار ابن كثير في دمشق إلى إلحاقه بأصله فطبعا معاً في طبعة جليلة محققة تحقيقاً علميّاً رصيناً.

وطبعا معاً كذلك في طبعة دار هجر بالقاهرة.

---

(١) قد بيّنت في الكتاب الأول والثاني من هذه السلسلة «كيفية قراءة التاريخ وفهمه»، و«إعداد المؤرخ الثقة» أن المؤرخين المسلمين إلى بداية العصر الحديث كتبوا التاريخ مصحوباً بعاطفة مشبوبة ـ في الأغلب ـ بينما لم يصنع ذلك أكثر المؤرخين من العصر الحديث، ولهذا قُرن الجفاف بكتبهم كما قرن الجلال والجمال بكتب أولئك، رحمهم الله تعالى.

(٢) ١/٨٠.

- وقد أورد المصنف جملة من أخبار بني إسرائيل في القسم الأول من كتابه في أخبار بدء الخلق والأنبياء، واعتذر عن إيراده تلك الأخبار بقوله:

«ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وهو القسم الذي لا يُصدق ولا يُكذب مما فيه بسطٌ لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

- وتوسع في ذكر أخبار السيرة النبوية الشريفة المطهرة، وقد طبع ذلك القسم مع الكتاب، وطبع ـ أيضاً ـ مستقلاً عنه بعنوان «السيرة النبوية».
- رجع المصنف إلى مصادر ومراجع كثيرة في كتابه في علوم التاريخ والتفسير والحديث والسير والمغازي وكتب دلائل النبوة[1].
- وكان ـ في كثير من الأحيان ـ يذكر المصدر الذي استقى منه الخبر بأسلوبه[2].
- وكان في أحيان أخرى إنما يصوغ الخبر بأسلوبه[3].

النقد:

يُعد ابن كثير من جملة المؤرخين النُّقَدة الماهرين الذين لا يتركون الأخبار الموضوعات والضعيفة والمنكرة تمر دون التعليق عليها وبيان ما فيها.

وقد نقد جملة من المشايخ والمؤرخين، ونقد بعض مشايخه[4].

وهذا النقد يورث لقارئ الكتاب اطمئناناً به، وارتياحاً إليه، وثقة بالمصنف وأنه ليس بحاطب ليل، ولا جامعَ غثاءِ السيل، ولا سائس خيل، وقد ساعدت

(١) انظر للتوسع في بيان منهجه: «البداية والنهاية» طبعة دار ابن كثير: ١/٨ ـ ٨٣.
(٢) المصدر السابق: ١/٧٦.
(٣) المصدر السابق: ١/٨٠.
(٤) «البداية والنهاية» طبعة دار ابن كثير: ١/٧٦.



جملة العلوم التي حازها الإمام ابن كثير ﷺ على تجويد الكتاب ونقد كثير من آثاره وأخباره وقصصه.

قال صاحب كتاب «صحيح تاريخ الطبري»[1]:

«لعل كتابه القيّم «البداية والنهاية» هو المحاولة الأولى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي برمته، وأثناء دراستنا لروايات الطبري ومقارنتها بما ذكره ابن كثير من روايات الطبري وغيره وجدنا الحافظ ابن كثير ناقداً بصيراً... ولم يكثر قبله أحد في النقد كما أكثر هو من استخدامه، وتخميناً لا حصراً نقول: إنه قد نقد ما يقرب من ٢٠٪ من أصل الروايات التأريخية ورجح وصحح»[2].

نقد الكتاب:

١ ـ أورد الحافظ ابن كثير جملة من أخبار بني إسرائيل، وقد بينت ذلك آنفاً، وبعضها فيه «مبالغات وخرافات، وتناقض مع القرآن والسُّنة، وقد حمله على إيرادها شهوة الجمع، ودافع التقليد لمن سبقه من المؤرخين»[3]، وليته لم يوردها.

٢ ـ أورد بعض الأخبار الواهية، والروايات الضعيفة، وبعض الأخبار التي تناقض المنهج العلمي الصحيح والعقل الصريح، واعتذر عن بعض ذلك بقوله: «لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لها لسقاطتها وركاكتها ومخالفتها للمعقول والمنقول»[4]، وليته لم يوردها.

---

(١) في المقدمة: ص ٤١ ـ ٤٢.

(٢) قوله: «لم يكثر قبله أحد في النقد كما أكثر هو» مردود بالحافظ الذهبي فهو صاحب القدح المعلّى في النقد لأحداث التاريخ ورجاله، وقد بينت هذا آنفاً أمّا العشرون بالمائة فأرى أن فيها مبالغة فلربما لم يتجاوز نقده ١٠٪ فقط.

(٣) «البداية والنهاية»: طبعة دار ابن كثير: ٧٦/١.

(٤) «البداية والنهاية»: ١١٤/١.

مقدمة ابن خلدون

وهي مقدمة لكتاب ابن خلدون التاريخي المسمى «كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، والمقدمة هذه لا تعد كتاباً في التاريخ؛ إذ تحوي علوماً عدة كان التاريخ واحداً منها، لكنها اشتهرت اشتهاراً واسعاً جداً بأنها تحوي قواعد تاريخية عديدة، ولذلك أوردتها في كتابي هذا.

ترجمة المؤلف:

عبدالرحمٰن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته وشايات ودسائس ثم عاد إلى تونس. ارتحل إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم عزل وأعيد، توفي فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ رحمه الله؛ وكان فصيحاً، عاقلاً، صادق اللهجة، طامحاً للمراتب العالية، له عدة كتب[1].

أهمية الكتاب:

ابن خلدون يعده أكثر مؤرخي العرب والغرب المعاصرين أعظم مؤرخ ظهر في تاريخ البشرية[2].

---

(١) انظر: «الأعلام»: ٣/٣٣٠.

(٢) انظر في هذا كتاب «المسلمون وكتابة التاريخ»: ١٣٩، ١٤٦، وكتاب «تفسير التاريخ علم إسلامي»: ١٣٨، ١٤٠.

وأما مقدمته المشـهورة هذه فقد وضعها لكتابه الكبير فـي التاريخ، وهي نافعة جداً، وإجماع المؤرخين من مسـلمين وغيرهم قائم على جلالتها وعظمها وريادتها وأهميتها، وأتى فيها بمادة نقدية ثرية، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعده من المؤرخين.

وقد قال فيه المؤرخ أرنولد توينبي[١]:

«وضع فلسفة للتاريخ هي ـ بلا مراء ـ أعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان أو زمان»!![٢]

وقال فيه المؤرخ روبرت فلنت[٣]:

«إنه لا العالَم الكلاسيكي ولا العالَم المسيحي الوسيط قد أنجب مثيلاً له في فلسفة التاريخ، هناك من يتفوقون عليه كمؤرخ ـ حتى بين المؤلفين العرب ـ أما كباحث نظري فـي التاريخ فليس له مثيل في أي عصـر أو قُطْر حتى ظهر فيكو[٤] بعـده بأكثر من ثلاثـة قرون، لم يكـن أفلاطون[٥] أو أرسـطو[٦]

---

(١) ولد سـنة ١٨٨٩ في لنـدن ودرس اليونانية واللاتينيـة في جامعة أكسـفورد. وتقلب في مناصب جامعية وسياسـية. وله عدة كتـب مهمة ونظريـات رائجة في الغـرب توفي سـنة ١٩٧٥. انظر «ويكيبيديا» في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) «تفسير التاريخ علم إسلامي»: ١٤٠.

(٣) باحث في الأديان والفلسفة وعلم الاجتماع. من اسكتلندا. ولد سنة ١٨٣٨. ودرس في جامعة جلاسكو. وتقلب في عدة مناصب جامعية. توفي سنة ١٩١٠. انظر ترجمته في «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٤) جيوفاني باتيسـتا (جيامباتيستا) فيكو أو فيغو. ولد سـنة ١٠٧٩/١٦٦٨. فيلسوف وسياسي إيطالي وبليغ ومؤرخ. ناقـد للعقلانية الحديثـة، ومدافع عن العصور الكلاسـيكية القديمة. توفي سـنة ١١٥٦/١٧٤٤. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٥) أفلاطون (باللاتينية: Plato) ويعني اسمه: «واسع الأفق». ولد سنة ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ق.م، وتوفي سنة ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ق.م. فيلسوف يوناني كلاسـيكي، رياضي، كتب عدداً من الحوارات الفلسفية، ويعدُّ مؤسّساً لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي. معلمه سـقراط وتلميذ أرسطو. وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم. كان تلميذا لسقراط، وتأثر بأفكاره. برز نبوغ أفلاطون وأسلوبه في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقياء. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٦) أرسطو أو ارسـطوطاليس ولد سنة ٣٨٤ ق.م.، وتوفي سـنة ٣٢٢ ق.م. فيلسوف يوناني قديم كان =



أو سانت أوغستين[1] أنداداً له، ولا يستحق غيرهم أن يُذكر إلى جانبه...»!![2].

وهذا الكلام في مدح ابن خلدون مقبول في الجملة، لكن بولغ فيه كثيراً، ولا ريب أن مقدمته جليلة ومفيدة، لكنها تبقى عملاً بشرياً فيه جملة من المزايا والنقائص، خاصة ما أورده من نظريات في علم الاجتماع والعمران، ولقد وضح عدد من الأساتذة تلك الأخطاء، ولا يسعني في هذه العجالة أن أوردها، وليست هي من موضوع كتابي هذا[3].

وتنبع أهمية الكتاب من عدة أمور، منها:

١ ـ القواعد التي وضعها المصنف في علم الاجتماع التي أصبحت عمدة لمن جاء بعده، ومن الأمثلة على ذلك أن ابن خلدون اشترط في المؤرخ أن يكون عارفاً «بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف

= أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم. وهو صاحب المنطق الأرسطي.

(١) كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي ـ لاتيني. ولد في طاغاست سنة ٣٥٤ م، في بلدة نوميديا التي كانت مقاطعة رومانية، وهي الآن بلدة سوق أهراس، بالجزائر، من أمه الأمازيغية القديسة مونيكا وأبيه الوثني باتريسيوس الأفريقي اللاتيني. تلقى تعليمه في روما وتعمّد في ميلانو. مؤلفاته ـ بما فيها الاعترافات، التي تعتبر أول سيرة ذاتية في الغرب ـ لا تزال مقروءة في شتى أنحاء العالم. يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعده الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديساً وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني. يعده العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. وتعتبره بعض الكنائس الأورثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديساً. توفي سنة ٤٣٠.

(٢) «تفسير التاريخ علم إسلامي»: ١٤٠.

(٣) انظر ـ مثالًا ـ «أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتابه المقدمة: دراسة نقدية تحليلية هادفة» للدكتور خالد كبير علال حاصل على دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي من جامعة الجزائر، نشر دار الإمام مالك، الطبعة الأولى، البليدة الجزائر: ١٤٢٦/٢٠٠٥.



الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بَوْن ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر»[1].

- ومن الأمثلة أيضاً قوله مؤكداً على شرط الفطنة وحسن التصور:

«ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء قويّ شديد الخفاء... فربما يسمع السامع كثيراً من الأخبار الماضية ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيُجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مَهْواة الغلط»[2].

٢ ـ النقد الكبير والواسع الذي أورده في المقدمة لأحداث التاريخ:

نقد ابن خلدون عدة أحداث تاريخية في مقدمته، فمن ذلك:

أ ـ انتقد عدد بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر، وقد ورد العدد في أنهم قرابة ٦٠٠ ألف من الذكور البالغين غير النساء والأطفال، وجعل ذلك مستحيلاً اعتماداً على استحالة تكاثرهم إلى هذا الحد في حدود قرنين فقط من الزمان.

ب ـ انتقد خبر العباسة أخت الخليفة هارون الرشيد مع جعفر البرمكي.

وانتقد عدداً آخر من الأخبار، لكن هنالك ملاحظة على منهجه النقدي

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥١ نقلًا من كتاب «التاريخ والمؤرخون العرب»: ٣٩.

(٢) المصدر السابق: ٣٨.



تتلخص في أنه يربط النقد بالأمور العقلية والاجتماعية دون النظر أولاً إلى صحة الخبر من حيث الورود التاريخي في سنده ومتنه، ويوضح ذلك قوله:

«لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات؛ إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بدَّ من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد»[1].

وهذا كلام حسن، لكنه قال بعد ذلك في كيفية تمحيص الأخبار:

«وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح».

وكلامه هذا يصلح في نقد الأعداد المبالغ فيها، أو الوقائع التي قد يدخلها الكذب أو المبالغة، لكن ماذا نصنع بأخبار كرامات الأولياء والصالحين ـ على

---

(١) المقدمة ص ١.

سبيل المثال ـ وهي مما لا يمكن أن تكون موافقة للعقل لأنها قائمة على خرق السنن الكونية، وقبولها إنما هو بالنظر لحال رواتها صدقاً وكذباً، وهذا إنما يكون باستخدام علم الجرح والتعديل ابتداءً، إذ لا مدخل للعقل وتحكيمه والنظر في طبائع الأشياء في مثل هذه الأخبار.

وأيضاً إذا اعتاد المؤرخ أن يرد الأخبار بما تمليه عليه طبائع الأشياء فقط فقد يجره ذلك إلى تكذيب الأخبار التي فيها مجاهدات، وصور همم عاليات، وبذل نفيس قد لا يتصور وقوعه أكثر البشر، وهو مخالف لطبائع أكثر الناس.

طبعات المقدمة:

طبعت المقدمة مرات كثيرة، بتحقيق وبدون تحقيق، وترجمت إلى لغات عديدة منها طبعة باريس بتحقيق ا.م كاترمير.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب

ابن العماد الحنبلي

ترجمة المصنف

هو عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح: مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب. ولد في صالحية دمشق سنة ١٠٣٢ وأقام في القاهرة مدة طويلة، ومات بمكة حاجّاً سنة ١٠٨٩/١٦٧٩، رحمه الله. له عدة مصنفات[١].

أهمية الكتاب ومنهجه:

«هذا الكتاب من كتب التاريخ العام التي ابتدأت في التأريخ منذ السَّنة الأولى الهجرية إلى أن جاوزت الألف، بإيجاز، وهذا يكسب الكتاب أهمية كبيرة لأن فيه أحداث ألف سنة بل تزيد على هيئة موجزة تعين الباحث العَجِل في زمن السرعة الذي نعيشه.

وقد حقق هذا الكتاب الأستاذ محمد الأرناؤوط، وقد بيَّن في مقدمة تحقيقه أهمية هذا الكتاب فقال:

هذا الكتاب ـ من الوجهة الفنية ـ من أهم مصنفات التاريخ العربي الإسلامي المختصرة، وقد استطاع مصنفه أن يؤرخ فيه أحداث القرون الهجرية العشرة الأولى، كالحروب، والغزوات، والمعارك، والولادات، والوفيات، وسير الأعلام، وغير ذلك من الأحداث التي شهدها تاريخنا العربي الإسلامي خلال هذه الفترة الطويلة من عمر الزمن، باختصار من غير إخلال ولا إطناب[٢] إلا فيما ندر.

---

(١) انظر «الأعلام»: ٣/٢٩٠.

(٢) الإطناب هو: الإطالة.



أضف إلى ذلك أنه يمتاز عن غيره من كتب التاريخ بأمرين اثنين:

أولهما: كونه يؤرخ من السنة الأولى إلى سنة ألف للهجرة، الأمر الذي يجعله من أوسع كتب التاريخ الإسلامي المختصرة من جهة استيعابه لما يقرب من ثلاثة قرون زيادة على كتب التاريخ الأخرى كـ «تاريخ الإسلام» للذهبي، و«البداية والنهاية» لابن كثير، وغيرهما من مصنفات التاريخ.

وثانيهما: صفة الحياد التي حاول المؤلف أن يتمسك بها في معظم المواطن التي ألمح فيها إلى الأحداث الأليمة التي شهدها التاريخ الإسلامي، ولا سيما في القرن الأول الذي شهد العدد الكبير جدّاً من تلك الأحداث، ولا يخفى على الدارسين بأن صفة الحياد إن وجدت لدى المؤرخ فهي تعزز الثقة بكلامه، وتجعل كتابه مصدر ثقة لكل باحث أو ناقل، والعكس بالعكس[1].

ولا بدَّ من الإشارة أيضاً إلى تمكن المؤلف ﷺ من فهم النصوص القرآنية، والحديثية، والفقهية، وذلك ما يظهر واضحاً في أكثر من موطن من مواطن الكتاب، كما في قصص الظهار، وابن صياد[2]، والتحكيم[3] من هذا المجلد من الكتاب.

وإنك لتجد فوائد في الكتاب فيما يتصل بتراجم الأعيان من المحدثين، والمؤرخين، والأدباء، والشعراء، والفرسان، والقادة، والأمراء، لا تجدها في غيره من المراجع إلا بعد تتبع واستقراء كبيرين، لذلك إن اعتبر ابن العماد أحد المؤرخين المتأخرين الذين اعتمدوا على النقل واختصار الأحداث من مصنفات المؤرخين من العلماء السابقين لهم إلا أن منهجيته في الاختصار والنقل

---

(١) قد بيّنت في كتابي «إعداد المؤرخ الثقة»، وكتابي الآخر: «كيفية قراءة التاريخ وفهمه» أن الحياد في العواطف مستحيل، وأن المؤرّخ يكتب بحياد علمي وليس بحياد عاطفي فهذا لا يمكن.

(٢) ابن صياد هو فتى يهودي كان في المدينة، وكان يُظن في ابتداء أمره أنه الدجال.

(٣) أي: التحكيم الذي جرى بين عليٍّ ومعاوية ﵄.

والتدوين تكاد تكون هي المنهجية المثلى لمن يريد التصنيف المختصر في أي من الموضوعات العلمية أو الأدبية في نظري.

ولقد عُني المؤلف في المقام الأول بذكر وفيات أعيان المحدثين من رجال القرون العشرة التي استوعبها كتابه، وإنك لو تصفحت الكتاب كله لوجدت منهم العدد الكبير جدّاً، الأمر الذي يجعل الباحثين في كتب الحديث النبوي الشريف يستفيدون فوائد قيّمة من هذا الكتاب، لدى رجوعهم إلى طبعته المحققة هذه إن شاء الله.

ولا بدَّ لي من التنويه إلى أن المؤلِّف قد اقتصر على ذكر بعض الأحداث التي شهدها القرن الأول، وأغفل غيرها من الحوادث المهمة، الأمر الذي جعلني أذيل عليه في بعض المواطن، وأسجل بتعليقات مسبوقة بالنجوم أهم ما شهده هذا القرن من الحوادث التي ارتأيت أن تدوينها في الكتاب أمر ضروري لاستكمال ما فيه من النقص.

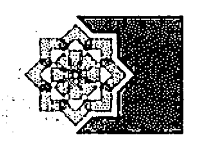
وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتمد على عدد كبير من الكتب والمصنفات التي لم يُشِرْ إليها في مقدمته لكتابه، ولا في معرض نقله عنها في المواطن التي أثبت النقول منها، وقد ظهرت لي أثناء العمل، ويمكن للقارئ الكريم أن يلحظ أسماء معظمها في الحواشي التي أثبتها في هوامش الصفحات.

وهناك أمر مهمٌ تجدر الإشارة إليه، وهو أن المؤلف لم يكن ممن يعوِّل على النقل من غير تدقيق ولا تمحيص، بل على العكس من ذلك تراه يناقش أصحاب الكتب التي نقل عنها مناقشة تثبت تعمقه في فهم التاريخ، ونرى ذلك جلياً في الردود التي أثبتها في كتابه على عدد من أصحاب الكتب التي نقل عنها، الأمر الذي يجعلنا نجزم بأن المؤلف كان أهلاً لتدوين حوادث هذه الفترة الزمنية الطويلة من التاريخ، لأنه كان صاحب مشاركة في العديد من العلوم العقلية منها والنقلية.

وخلاصة القول: إن «شذرات الذهب» هو أحد كتب التاريخ الإسلامي التي استوعبت التأريخ لهذا العدد الكبير من السنوات الهجرية من غير إخلال ولا إطناب إلا فيما ندر، وهو الكتاب الوحيد من كتب المؤلف الذي يمكن للمرء أن يقف من خلاله على المستوى الرفيع الذي كان عليه ابن العماد بين علماء عصره، وهو الكتاب الوحيد أيضاً الذي يمكنه أن يغني معظم القراء عن اقتناء الكثير من المصنفات فيما يتصل بالوفيات بشكل خاص والتراجم، والأحداث بشكل عام بعد اكتمال تحقيقه وطبعه إن شاء الله تعالى»[1].

وأظن أن المحقق جمع بين ذكره أهمية الكتاب ومنهج المصنف فلا حاجة لي أن أفرد المنهج بحديث مستقل.

(١) مقدمة المحقق: ١/٩٢ ـ ٩٤.



عجائب الآثار في التراجم والأخبار

للعلامة الشيخ عبدالرحمن بن حسن الجبرتي

ترجمة المصنف:

هو عبدالرحمٰن بن حســـن بن إبراهيم، وهو حبشي الأصل، مصري المولد والنشأة والموطن، جاء أسلافه مصر من جبرت: إحدى مقاطعات الحبشة.

وكان أبوه الشـــيخ حســـن عالماً من علماء الأزهـــر، وكان فوق إلمامه بالعلوم الدينية ملمّاً بالعلوم الهندســـية، معنيّاً ببعض أجهزتها كالإسطراب، كما كان مهتمـــاً بضبط الموازين، وكان موســـعاً عليه في الـــرزق، ومغرماً بجمع الكتب والمخطوطات، وكانت مكتبته لذلك مجمع العلماء وطلاب العلم.

وولد عبدالرحمٰن الجبرتي في القاهرة في ســـنة ١١٦٧ هجرية، وقد نشأ في بيئة علمية ـ كما ذكرنا ـ فشبَّ على حُب العلم والعلماء حتى أصبح من كبارهم وقام بالتدريس في الأزهر.

وقد عيَّن الفرنســـيون الجبرتي عضواً في (الديوان) لما احتلوا مصر في عهد القائد الفرنسي منو. وقد عُد الجبرتي خاتمة المؤرخين الكبار في مصر. توفي ســـنة ١٢٤١ مقتولاً ـ فيما قيل ـ بعد أن عمي حزنـــاً على اغتيال ابنه خليل من قبل محمد علي لنقمته عليه نقده الشـــديد لـــه في كتاب «عجائب الآثار»[1].

(١) وانظر «الأعلام»: ٣/٣٠٤. وذكر فيه أنه توفي ســـنة ١٢٣٧ لكن ما ذكرته في وفاته هو الصحيح إن شاء الله تعالى.



أهمية الكتاب:

هذا الكتاب من أهم كتب التواريخ التي صنفها المتأخرون من المؤرخين بعد القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، بدأ فيه مصنفه بحوادث سنة ١١٠٠، وانتهى إلى سنة ١٢٣٦.

والكتاب وثيقة مهمة في تأريخ أحداث مهمة جرت في مصر، والربط بين ما جرى فيها وبين الدولة العثمانية التي كانت في مرحلة الضعف والتقهقر، وذكر المصنف فيه أيضاً جوانب مهمة من تاريخ فلسطين والحجاز ونجد واليمن وغيرها.

وقد ذكر محققو الكتاب شيئاً من أهمية الكتاب فقالوا:

«والنسق الذي نسقه الجبرتي في تاريخه من تسجيل الحوادث الجارية في مصر يوماً بعد يوم، واهتمامه بأحوال البلاد، وترجمته لكثير من عظماء عصره علماء وأمراء وأثرياء، وكتابته بهذا الأسلوب الشعبي، وتلك اللغة الدارجة في بعض الظروف، وتحري الصدق فيما يكتب جعل تاريخه صورة صادقة حية للعصر الذي كتب فيه، ولهذا كان هذا التاريخ فريداً في بابه، فهو مادة أولية سخية اعتمد عليها المؤرخون، وهو من أهم مراجع تاريخ هذا العصر في سرد الحوادث التاريخية، وتسلسلها في صدق وتعمق، بغية الوصول إلى الحق.

وكتابة الجبرتي في تاريخه تدل على عقل راجح، واتجاه سليم، فهو يعالج مشاكل الحياة والمجتمع معالجة البصير بالأمور، ويحكم عليها حكماً مقبولاً.

هكذا كان الجبرتي في كتابته، مما جعل لتاريخه هذه المكانة العالية بين كتب التاريخ».

منهج المصنف:

بدأ المصنف كتابه بمقدمة بيَّن فيها شيئاً من منهجه فقال:

ولما عزمت على جمع ما كنت سودته أردت أن أوصله بشيء قبله، فلم أجد



بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سوَّدها بعض العامة من الأجناد، ركيكة التركيب، مختلة التهذيب والترتيب، وقد اعتراها القص من مواضع في خلال بعض الوقائع، وكنت ظفرت بتاريخ من تلك الفروع، لكنه على نسق في الجملة مطبوع، لشخص يقال له أحمد جلب بن ابن عبدالغني، ومبتدئاً فيه من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية، وينتهي كغيره ممكن ذكرناه إلى خمسين ومائة ألف هجرية ثم إن ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم، ووقع في صندوق العدم، ومن ذلك الوقت إلى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد، ولم يسطر في هذا الشأن شيئاً يفيد، فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين، وذلك من أول القرن إلى السبعين، وما بعدها إلى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها، ومنها إلى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها، إلى أن تم ما قصدنا بأيِّ وجه كان وانتظم ما أردنا استطراده من وقتنا إلى ذلك الأوان، وسنودر إن شاء الله تعالى ما ندركه من الوقائع بحسب الإمكان والخلو من الموانع إلى أن يأتي أمر الله، وإن مردنا إلى الله، ولم أقصد يجمعه خدمة ذي جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير، ولم أدهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، لميل نفساني أو غرض جسماني، وأنا أستغفر الله من وصفي طريقاً لم أسلكه، وتجارتي برأس مال لم أملكه.

وقد بيَّن المحققون للكتاب منهج المصنف نوع بيان فقالوا:

«وأسلوبه هذا الذي اتسم بسمة العصر الذي عاش فيها يغلب عليه السجع، وقد يكون المتكلف، خاصة إذا كتب في مسائل علمية، أو أبحاث اجتماعية، أما إذا دفعته الحوادث لسردها وتبيانها، فإن يسجلها كما اقتضتها الظروف، ويدجها عفو الخاطر، ووفق طبيعتها لا تكلف ولا تصنع؛ لأن تقلبات الأحوال كانت تسوقه سوقاً إلى الكتابة فيها، فهو يرسل الكلام إرسالاً كما أرسلته العامة، أو صاغته الحادثة فقد يأتي بكلمة عامية قد تَمُتُّ إلى العربية بصلة، أو تمعن في العامية إمعاناً قاسياً ولذلك قد يجد المتفحص عن كتابته بعض العنت

والحيرة، لأنه ملزم أن يرجع إلى حافظتـــه، أو مذاكرة الناس فيما يعرض له من اصطلاحات موضعية، أو ألفاظ إقليمية حتى يتفهم المعنى صواباً، ويضع الأمور في نصابها، ولذا يمكننا أن نقول: إن أسلوبه في الكثير الغالب شعبي.

وكان لنشأته في بيئة علمية دينية ما جعل كتابته تتسم بسمة مشايخ العصر، وتتميز بلون ذوقهم وحكمهم على الأشياء وفق ما يعتقدون».

- وقال الأستاذ إبراهيم شمس الدين وقد حقق الكتاب تحقيقاً آخر غير الذي سبق:

لقد أرخ الشـــيخ العلامة عبدالرحمٰن الجبرتي في كتابه هذا لهذه الأحداث بشـــكل دقيق ومفصل، باعتباره كان معاصراً لها ومعايشـــاً ومنفعلاً معها بشكل يومي، وأورد وثائق ومراسلات من الصعب وجودها في أيِّ كتاب آخر.

وهنا يجب إيراد ملاحظة هامة، وهي أن المؤلف لم يكن حيادياً في كتابته لتاريخ مصر والمنطقة في تلك المرحلة[١]، حيث إنه أعلن انحيازه وتعاطفه مع ثورة مشايخ الأزهر والشـــعب المصري ضد الاحتلال الفرنسي، وكذلك تعاطفه مع الحركة الوهابية باعتبارها حركة إســـلامية تستهدف إصلاح الفساد والتحلل الدينـــي، كما أنه لم يُخْـــفِ موقفه المناهـــض لكل حكام مصـــر الظالمين من المماليك العثمانية، وخصوصاً من محمد علي باشـــا[٢] الذي يصفه في كثير من

(١) لا أدري ما هي هذه الحيادية المزعومة، وهل يحايد مصنف في الكتابة في تاريخ إســـلامه وأمته، ولقد بيّنت في كتاب «إعداد المؤرخ الثقة» وكتابي «كيفية قراءة التاريخ وفهمه» أن الحياد المطلوب هو الحياد العلمي؛ أي: إيراد الأحداث كما وقعت، أما الحياد العاطفي فهو صعب، ولا بدَّ أن يظهر في كتابات المصنف، أما المصنفون في التاريخ من المعاصرين ممن يظهرون الحياد العاطفي اتباعاً للمستشرقين فأقول لهم: إن المستشرقين أنفســـهم لم يحايدوا بل كان أكثرهم في معزل عن الحياد العلمي والعاطفي مائلاً إلى بني قومه ودينه بغير الحق.

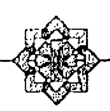
(٢) الأرناؤوطي. قدم عســـكرياً مع عســـاكر الترك القادمين لتخليص مصر من الفرنسيين، ثم تقلبت به الأحوال وترقى حتى استطاع أن يقنع مشايخ مصر وعلى رأسهم نقيب الأشراف عمر مكرم بأحقيته في تولـــي حكم مصر فرفع العلماء طلبهم إلـــى الدولة العثمانية فووفق عليـــه. كان له مزايا عديدة ونقائص عديدة، وكان في الجملة بعيداً عن الســـلوك الإسلامي الصحيح. توفي سنة ١٢٦٥/١٨٤٨ بعد أن كبر. انظر «حلية البشر»: ٣/١٢٤٠ ـ ١٢٤٢.

الأحيان بالدجال والفاسق، وسارق أموال الناس والمستعين بالفرنسيين والأرمن واليهود والنصارى والأقباط وتسلطهم على رقاب المسلمين، مع العلم أن المؤلف كان معاصراً لحكم محمد علي باشا، إذ توفي وكان محمد علي ما زال حاكماً على مصر.

هذا في الجانب التاريخي، أما في الجانب الثقافي الاجتماعي فقد تميز المجتمع المصري بكمٍّ كبير من الطقوس والأعراف والأعياد والعادات والمظاهر الاحتفالية شملت كل جوانب المجتمع ومستوياته القومية والدينية والشعبية والرسمية حتى ذات الطابع الاقتصادي منها، وقد وصف المؤلف الكثير من هذه الاحتفالات بالتفصيل الدقيق والمطول، كما أنه أفرد صفحات كثيرة لوصف أشكال العمارة والبناء في القاهرة ووصف طريقة بنائها بشكل مفصل وملٍّ أحياناً، وأي باحث في الجانب الاجتماعي الثقافي للمجتمع المصري في تلك المرحلة فلا بدّ أن يجد الكثير في صميم موضوع بحثه في هذا الكتاب.

بالإضافة إلى ما سبق، فقد وضع المؤلف في آخر كل سَنة، تراجم وافية ومفصلة لعدد كبير من العلماء والشيوخ والأمراء والمؤلفين وغيرهم، وقمنا فكانت ٧٤٨ عالماً، وهذه التراجم تعتبر إضافة هامة إلى كتب تراجم الأعلام في مكتبتنا العربية.

أما من حيث لغة وأسلوب المؤلف، فقد كان الجبرتي من أعيان المثقفين في عصره، وقد أورد في كتابه الكثير من الألفاظ والمصطلحات غير العربية كالفارسية، والتركية، واليونانية، والإيطالية، والفرنسية، وكذلك استعمل مع هذه الألفاظ ألفاظاً عربية تصرف فيها الأعاجم فاستعملوها في غير ما وضعت له... وقد اعتبرت هذه الألفاظ على الرغم من أن أصلها عربي دخيلة لأن العرب لا تعرفها ولم ترد بهذه المعاني في معجمات العرب، وربما استعمل المؤلف في الجملة الواحدة الكثير من المصطلحات تعريفاً وافياً، استناداً إلى مجموعة من المعاجم والمراجع المتوفرة بين أيدينا.



ومن الملاحظ في قراءة الكتاب أن هناك الكثير من الأخطاء اللغوية والنحوية، ولما كان الجبرتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ غير واقف على كل قواعد النحو العربي كما نصَّ هو نفسه في المقدمة بقوله: «مع اعترافي بقصور الباع وفتور الطباع في قوانين المعاني العربية ودواوين المثالي الأدبية» فقد تركنا الأخطاء اللغوية والنحوية كما هي حرصاً على الأمانة في النص كما أورد المؤلف[١].

وأخيراً فقد بذلنا جهدنا في سبيل أن يأتي هذا الكتاب لحاجة الدارس والباحث في سير كنوز هذا الكتاب الثمين، ونرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو ولي التوفيق.

أقوال العلماء في الكتاب:

١ ـ قال الدكتور عمر عبدالعزيز عمر:

«ولقد تميز منهج الجبرتي في الكتابة والتأليف بالدقة في استقصاء الحوادث، وبالموضوعية التي نستشفها من تأكيده أنه كان يكتب للحقيقة والتاريخ.

وأدرك الجبرتي أهمية الاستعانة بالوثائق في كتابة التاريخ فأورد العديد منها وضمنها تاريخه.

وظهور مؤرخ كعبدالرحمٰن الجبرتي يعتبر ظاهرة من الظواهر التاريخية التي ليس لها تفسير واضح، ولا سيما أن الكتابة التاريخية قد تدهورت في تلك الفترة»[٢].

---

(١) لا أتفق مع المحقق في أن الجبرتي ضعيف في العربية، بل إنه يكتب تارةً بالفصحى، وتارةً بالعامية مراعاةً لزمانه وما درج عليه المصنفون في وقته من تساهل في قواعد العربية إذا كتبوا وصنفوا.

(٢) «عبدالرحمٰن الجبرتي ونقولا الترك» تأليف الدكتور عمر عبدالعزيز عمر.

٢ ـ قال الأستاذ محمد شفيق غربال:

«عجائب الآثار» في ذاته أثر فني رائع، وروعته ليست في اكتمال الصنعة أو في تمام الصقل، بل هي في انتقال الكتاب لقرائه على النحو الذي نما به في يد المؤلف، فهو تقييدات بنت ساعتها، وهو وثائق وروايات مسجلة بنصوصها وعربيتها وأعجميتها، وهو قطع منقة، وهو خواطر تسنح، والعجيب أن ذلك كله لا يتنافر، بل تنسجم عناصره المتباينة في تركيب متوازن، وينتقل القارئ من متن إلى متن ـ إن صح القول ـ دون أن يضطرب انتباهه أو ينفر من الكتاب، وقد يرجع هذا إلى أن الجبرتى أضفى على المادة من شخصيته ما أكسبها ذلك الانسجام العجيب، أو لأن الجبرتي (رجل فن) عرف كيف يخفى الصنعة بتجنب مظاهر الصنعة.

وشخصية الجبرتي تعددت جوانبها وتباينت عناصرها، كان رجل دين ودنيا، أخذ من كل شيء بطرف، له في كل دراسة مقام محمود، لا يبلغ في واحدة منها الذروة، ولكنه لا يحصر فنه في دائرة واحدة من دوائرها، بل هو واسع الأفق طلقه، ويجتذبه بصفة خاصة ما يصح أن نسميه الشؤون العامة.

٣ ـ وقال المستشرق إدوارد وليم لين[1]:

«وفي القاهرة عدا مَن ذكريات جماعة جديرون بالتقدير والاعتبار، من بينهم الشيخ عبدالرحمٰن الجبرتي، وهو من الكتاب المحْدثين من أهل القاهرة، وترجع شهرته إلى كتاب قيّم في التاريخ ألّفه عن الحوادث التي وقعت منذ بداية القرن الثاني الهجري.

---

(١) إدوارد وليم لين (بالإنكليزية: Edward William Lane). ولد سنة ١٢١٦/١٨٠١، وتوفي سنة ١٢٩٣/١٨٧٦. وهو مستشرق إنجليزي، اشتهر خصوصاً بمعجمه الكبير للغة العربية. أقام مدة طويلة بالقاهرة. انظر «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

طبعات الكتاب:

طبع الكتاب طبعة حجرية قديمة في أربعة أجزاء في مطبعة بولاق في مصر.

ثم طبع الكتاب في دار الكتاب المصرية سنة ١٤١٨/١٩٩٨ تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمٰن.

ويبدو أن الكتاب بعد طبعه الطبعة الحجرية الأولى قد نقص منه شيء وحذف عمداً فيما يتعلق بمحمد علي باشا وحكمه في مصر، وحكم آل سعود في نجد[1].

وترجم إلى الفرنسية وطبع بها.

---

(١) انظر مقالة بعنوان «دعوة إلى إعادة النظر في كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للأستاذ محمد عبد الله الرشيد.

خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

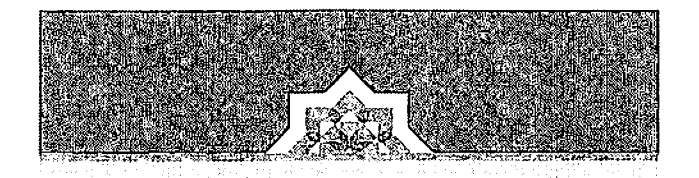
فتلك كانت جولة سريعة في أهم كتب التاريخ المشهورة والمعروفة، أوردت فيها ما أرى أهميته، وإقبال الناس عليه، وتركت ما سوى ذلك مما لا فائدة من إيراده؛ وذلك لأنه متروك غير ملتفت إليه من قِبَل أكثر الناس، ولا يكاد يعرفه ويقف عليه سوى المختصين في هذا العلم الشريف المنيف.

وبهذا الكتاب أختم السلسلة التي نُشر منها ٤ أجزاء إلى يومنا هذا، وعسى أن أضيف إليها بعض الأجزاء التي تعالج نواحي وجوانب من علم التاريخ بإذن الله تعالى وتوفيقه وفضله.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

المصادر والمراجع

- «الأعلام»: خير الدين الزركلي. نشر دار الملايين. بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٠.
- «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي أحمد بن علي (٤٦٣). تحقيق د.بشار عواد معروف. نشر دار الرسالة. بيروت.
- «سير أعلام النبلاء»: الإمام الذهبي محمد بن أحمد (ت٧٤٨). نشر دار الرسالة. بيروت.
- «السيرة النبوية»: عبدالملك بن هشام (ت٢١٨) تحقيق الأستاذ عمر تدمري. نشر دار الكتاب العربي.
- «صحيح تاريخ الطبري»: تحقيق محمد بن طاهر البزرنجي وإشراف محمد صبحي حلاق. نشر دار ابن كثير. دمشق، بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- «كنوز الذهب في تاريخ حلب»: أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين، أبو ذر سبط ابن العجمي (المتوفى: ٨٨٤)، الناشر: دار القلم، حلب، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧.
- «لسان الميزان» الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله. نسخة من «الإنترنت».
- «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر»: تحقيق روحية النحاس، رياض عبدالحميد مراد، محمد مطيع الحافظ. نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- «منهج المسعودي في كتابه التاريخ» د.سليمان بن عبدالله السويكت.
- «موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق» تأليف الدكتور طلال دعجاني. نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٢٥.
- ويضاف إلى تلك المراجع ما ذكرته في صلب الكتاب من الكتب المحققة التي رجعت إليها لأنقل خلاصة ما قاله المحققون فيها، نحو «تاريخ بغداد» بتحقيق د.بشار عواد معروف، ونشر دار الغرب الإسلامي، وكتاب «البداية والنهاية» طبعة دار ابن كثير بدمشق، وككتاب «تاريخ الإسلام» بتحقيق د.بشار معروف ونشر دار الغرب الإسلامي وهكذا، وقد أشرت إلى ذلك في مواضعه فلا أعيد ذكرها هنا.



الرسالة الخامسة

ضوابط منهجية في عرض السيرة النبوية



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الله تعالى بعث رسوله ﷺ ليكون هادياً وبشيراً، وشاهداً ونذيراً، وختم به الرسل العظام والأنبياء الكرام، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وأرسله بقرآن عظيم وكتاب كريم هو أفضل الكتب المنزلة، وجعل شريعته سمحة لا حرج فيها ولا عنت، ونصبه للناس قدوة وأسوة، وهذبه وأدبه وكمّله حتى صارت سيرته بين الأنبياء هي السيرة المثلى، وطريقته هي الطريقة العظمى، وحثّنا سبحانه وتعالى على الاقتداء به والاتّساء فقال جل من قائل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ووصفه جلَّ جلاله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن اكتملت سيرته من كل جوانبها، حتى صار كل باحث عن جانب من جوانب الكمال إنما يطلبه من شخصيته ويغترفه من سيرته، فهو رئيس الدولة، وقائد الجيش، والمخطِّط والمنظِّم، وهو المشرع، وهو الإمام الذي يصلي بالناس، وهو القاضي، والمفتي، والبطل الشجاع، وهو الموجه والناصح، وهو الذي تنتهي إليه مشكلات الناس ومطالبهم، وهو الزوج المحب، والأب الرحيم، والجد الحنون، والأخ الكريم والمربي الكامل، وهو فوق ذلك كله بأبي هو وأمي ﷺ.



ولما كان كذلك، واكتمل له كل ما هنالك صار هو القدوة العظمى، وانتصب للناس شخصيةً مثلى ﷺ وصار غاية جهد أتباعه أن يتأسوا به، وأحسن ما يمكن أن يأتوا به هو أن يسلكوا مسلكه، وأن يتتبعوا سيرته، وأن يرتشفوا من معينه الطاهر، ويغترفوا من محيطه الهادر.

وأقبل علماء الإسلام يكتبون هذه السيرة، ويُعنون بتفاصيلها ودقائقها بل أزعم أنهم أتوا على جوانبها كلها، ولم يَفُتْهم منها إلا ما طُبعت عليه الطباع البشرية من الغفلة والنسيان، لكن لما كان الذين كتبوا ودوَّنوا جملة وافرة فإن بعضهم قد سد نقص بعض حتى اكتملت هذه السيرة حُلَّة سِيَراء، وصارت أعظم قصة لأعظم رجل، بل لأعظم مخلوق خلقه الله تعالى ﷺ.

وكتب السيرة كتب كثيرة، متنوعة، بعضها قد نسجت سيرة حياته الشريفة المنيفة من أولها إلى آخرها على منوال واحد لا يختلف بينها: ابتدأ بولادته ـ بل قبلها ـ وانتهى بوفاته ﷺ[1].

وبعض تلك الكتب قد طرق السيرة من جوانبَ محددة، ولم يُعن بالترتيب الزمني[2].

- وبعضها قد سجل السيرة أحداثاً مجردة.

وأخرى سردت السيرة مقرونة بالعبر والعظات.

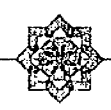
وربما ببعض الاستنباطات الشرعية والأحكام الفقهية[3].

---

(١) وهذا كان الغالب على كتب السيرة النبوية القديمة والحديثة.

(٢) وذلك مثل «زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام ابن القيم رحمه الله.

(٣) وهو ما عرف بفقه السيرة، وهو عمل المحدِّثين في الأغلب.



- وبعض الكتب قد جاء مطوّلاً جدّاً حاوياً لكل ما ورد، لم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكر وسرد[١].

وبعض الكتب قد أورد السيرة موجزة مختصرة كأنها رؤوس أقلام، وإشارات لذوي الأفهام[٢].

- وبعض الكتب عظمت قيمتها العلمية وجلّت حتى صارت مثل عيون الكتب.

وبعضها الآخر قد تساهل مصنّفوها حتى أوردوا فيها الصحيح والضعيف والموضوع[٣].

وبعض المعاصرين قد كتب في السيرة لكنه لوّثها بتأويلات ومُخِلّات، فالمعجزات عنده لها تأويل يخرج بها عن كونها خارقة، ويقربها من العادات، ونهج نهج العقلانيين، وسار سَيْرَ المُتَمَحّلين[٤].

وبعض تلك الكتب قد ورد فيها إنكار لبعض الوقائع الصحيحة لكونها لم تُسَغ عند عقول مصنّفيها.

ولذلك كله ظهرت الحاجة لإعادة كتابة السيرة، وعرض تلك السريرة، على وجه حسن وطريقة قويمة، تتجنب المزالق المذكورة، وتورد حسنات المؤلفين المشكورة، وتراعي الشمول في غير تطويل حتى تراعي حاجات العصر، وتناسب أحوال أهله، وسآتي ـ إن شاء الله تعالى ـ

---

(١) وعلى رأس تلك الكتب: «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» ﷺ للإمام الصالحي، وهي مطبوعة في أربعة عشر مجلداً.

(٢) مثل «السيرة النبوية: دروس وعبر» للدكتور مصطفى السباعي.

(٣) مثل «السيرة الحلبية».

(٤) مثل محاضرات الخضري في السيرة، ومثل تمحلات الأستاذ محمد عبده في تفسير بعض أحداث السيرة الواردة في جزء عم، وسيأتي الحديث عنها. ونحو بعض كلام الأستاذ محمد فريد وجدي، والشيخ محمد رشيد رضا في طوره الأول.

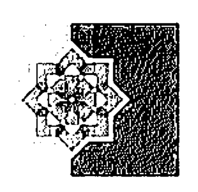
على الضوابط المنهجية في تجديد عرض السـيرة النبوية موجزاً، راجياً أن أوفَّق فـي هذا الإيراد، ولا أُحرم التوفيق والسـداد، والله المسـتعان، وعليه التكلان[1].

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

(١) هذا البحث قـد قدم لمؤتمر نصرة النبي ﷺ الثاني المعقود فـي الكويت من ٤ ـ ٦ من ذي القعدة سـنة ١٤٢٩، نوفمبر ٢٠٠٨، فأعدت قراءتـه، وأضفت له أربعة ضوابط مهمة، هي السـادس إلى التاسع.



الضابط الأول: دخول الأخبار تحت دائرة القبول

إن المتعرض لإعادة كتابة سيرة رسول الله ﷺ إنما يتصدى لأمر عظيم، كثرت أخباره، واتسعت تفاصيله، وتفرقت في الكتب الكثيرة، وأكثر تلك الأخبار قد ورد بسند، وبعضها الآخر بدون سند، وأكثر الأخبار قد جاء صحيح الإسناد، وبعضها الآخر قد ضعف إسناده أو وهى وسقط، فكيف تورد تلك الأخبار؟

إن علماء الإسلام ومؤرخيه في ذلك على طرفين ووسط، فقسم أورد كل شيء، ولم يقنع إلا أن يأتي بكل ما وقف عليه من السيرة غير آبه بدرجته من الصحة والضعف والوضع، وهؤلاء كلهم من القدامى[1]، فإني لا أعرف أحداً من المعاصرين سلك هذه السبيل.

وقسم آخر من العلماء شدَّد وأبى إلا أن يأخذ بمناهج المحدِّثين في التصحيح والتضعيف، ورفض الأخبار التي عليها مخايل الضعف، وجُلُّ هؤلاء بل ربما كلهم من المحْدثين[2].

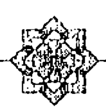
وقسم آخر توسط فأخذ من السيرة جل أخبارها، ونقد ما يراه من ضعف أو نكارة أو وضع[3].

---

(١) وعلى رأس هؤلاء الإمام الصالحي في كتابه الضخم «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» ﷺ والحلبي في «السيرة الحلبية».

(٢) انظر مقدمة د. عمر الأشقر على كتاب الشيخ إبراهيم العلي «صحيح السيرة النبوية»، وانظر مقدمة د. مهدي رزق في كتابه «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية».

(٣) وعلى رأس هؤلاء الإمامان الذهبي وابن كثير على تفاوت بينهما؛ فالذهبي أكثر تحرياً وأحسن ضبطاً وأقوى نقداً، وإن كان نفَسُه في نقد مرويات السيرة أقل من نفسه في نقد المرويات التاريخية الأخرى.



أما القسم الأول فلا يُعَوّل على ما يورده من الأخبار الموضوعة أو شديدة الضعف أو الغريبة المنكرة، وإنما يؤخذ منه ما وافقه عليه الجمهرة من رواة السيرة؛ إذ إن القارئ يقرأ في تلك الكتب غرائب وعجائب لا تليق بسيرة سيد المرسلين ﷺ.

وربما كان مثل هذا الخلط هو الباعث على الصيحة التي صاحها المنادون بوجوب كتابة السيرة على قواعد المحدِّثين.

وأما القسم الذي شدد في قبول الأخبار، ولم يقبل منها إلا ما صح على وَفْق منهج المحدثين فأرى أنه لم يسلم من الشطط، فقد أسقط بهذا من السيرة أحداثاً تفصيلية مهمة بدعوى أنها لم تثبت ثبوت الأخبار الحديثية، وإليكم هذا النص الموضح لما ذهب إليه أهل هذه المدرسة:

«إن كتب المغازي والسير تشتمل على الروايات الضعيفة والموضوعة، ولكنك تجد لكل رواية إسناداً[1]، والواجب على الباحث أن يحقق هذه الأسانيد ويختار الصحيح منها»[2].

وأقول: إن الباحث إن صنع هذا فسيترك تفصيلات مهمة يحتاج إليها الجيل لكنها لم تثبت بسند صحيح ولا ضير في إيرادها، وقد رأينا مَن كتب في السيرة النبوية الصحيحة فأسقط عدداً من الروايات بدعوى ضعفها وهي مفيدة في إظهار النص وتبيينه أو تكميله:

«ينبغي الانتباه إلى أن الانتقاء عندما يتم وفق قواعد صارمة فإنه يدع مجالاً لتفلت العديد من النصوص التاريخية التي يمكن التعامل معها وفق معاييرَ أقلَّ صرامة، ومِن ثَمّ فإن قراءة نصوص الواقدي[3] وفق منهج النقد التاريخي تتيح الفرصة لإضافات أخرى لمادة السيرة، وهذا ينطبق على الروايات التي أوردها ابن

---

(١) في هذه الكلية نظر؛ فإن أخباراً كثيرة قد وردت بلا إسناد.

(٢) «دراسات في السيرة النبوية»: ١٠٧.

(٣) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي، المدني القاضي، نزيل بغداد. متروك مع سعة علمه. مات ﷺ سنة ٢٠٧ وله ٧٨ سنة. انظر «التقريب»: ٤٩٨.

اسحاق[١] دون إسناد.. إن هؤلاء الرجال المتخصصين في فن السيرة قد عوملوا من قبل النقاد القدامى بتساهل كبير بغية الإفادة من رصيدهم التاريخي الهائل...»[٢].

«والمطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام... أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي... أما الروايات المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالَّة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها»[٣].

- هذا وليعلم أني وجدت أن مَن شدد في عدم قبول رواية من الروايات إلا أن تكون صحيحة، واشترط هذا في كتابه الذي صنَّفه وجدت أنه لا ينفك من إيراد بعض الضعيف ليكمل به النقص والفجوات التي لا تكملها الروايات الصحيحة، وهذا ـ عندي ـ مقبول، وبه يقترب أهل هذا القسم ممن صنف في القسم الثالث الذي سأورده بعد هذا إن شاء الله تعالى، فصارت القسمة ـ على الحقيقة ـ ثنائية:

قسم تساهل، وقسم أخذ بالصحيح إلَّا أَلَّا يجد غير الضعيف على التفصيل الذي ذكرته، والله أعلم.

وأما القسم الذي توسط فهو الذي إليه أميل وعليه أُعَوِّل، وأرى أنه حافظ على رونق السيرة وجمالها بدون إفراط ولا تفريط، وأتى بالأخبار التي رواها جلّ الشيوخ الأوائل الذين جمعوا سيرة المصطفى ﷺ.

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ الأخباري أبو بكر وقيل: أبو عبدالله القرشي المطلبي مولاهم المدني صاحب السيرة النبوية وكان جده يسار من سبي عين التمر في دولة خليفة رسول الله ﷺ ولد سنة ٨٠ وتوفي ١٥٠، انظر «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: ٦٧٣

(٢) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢٠.

(٣) المصدر السابق: ٤٠.

ولذلك كله أرى ـ والله أعلم ـ أن ضوابط إيراد أخبار السيرة في هذا القسم ـ قسم دخول الأخبار تحت دائرة القبول ـ هي التالي:

١ ـ ما كان فيها من أخبار تتعلق بالعقائد، أو الفتن، أو الحكم على الأشخاص بالنفاق أو الكفر، أو الإخبار بالمغيبات فهذا لا بدَّ من أن يثبت بسند صحيح أو حسن لذاته أو لغيره، على حسب التفصيل الوارد في كتب دراسة الأسانيد الحديثية، ولا يُقبل في هذا القسم الأخبار الضعيفة.

٢ ـ ما كان فيها من أخبار متعلِّقة بالكمالات النفسية، والمجاهدات، والرقائق، وأخبار الزهد، والشجاعة، والبطولات، وغير ذلك مما لا تعلق له بالقسم الأول، ما كان فيها من هذا الباب من أخبار فإنه يقبل بالضوابط التالية:

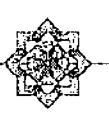
أ ـ أن تكون واردةً في كتب السيرة الأصلية وليست الفرعية، ومن تلك الكتب الأصلية سيرة ابن اسحاق، وسيرة ابن هشام[١]، وابن سعد[٢]، ونحوهم ممن جمعوا أخبار السير عن أشياخهم الذين كانوا بين صحابي وتابعي.

ب ـ ألا تكون مما يفحش ذكره، ويسوء إيراده، وذلك كما قال ابن هشام: «وأنا ـ إن شاء الله ـ... تارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لِما ذكرت من الاختصار،

---

(١) عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي وقيل: الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد العلامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية. توفي سنة ٢١٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء».

(٢) محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحجة، أبو عبدالله البغدادي، كاتب الواقدي، ومصنف «الطبقات الكبرى» في بضعة عشر مجلداً و«الطبقات الصغرى» وغير ذلك. ولد بعد الستين والمائة وتوفي سنة ثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦٦٤/١١.



وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعضَ الناس ذكره..»[(١)]

ج ـ ألا تكون من الإسرائيليات، فهذه لها حكم خاص بها.

د ـ ألا تكون خارجة عن القواعد العامة للشريعة الإسلامية ومقاصدها العلية.

ثم إن هذه الأخبار قد تَرِدُ بإسناد ضعيف وقد ترد بدون إسناد، وهذا لا ضير فيه ـ عندي ـ إن اندرجت تحت ما ذكرته آنفاً من الضوابط؛ وذلك لأن وجود هذه الأخبار في تلك السير الأصلية الأولى باعث على الاطمئنان على أن لها أصلاً، وذلك لأسباب:

١ ـ اشتهار تلك الأخبار بين السلف الأوائل في القرن الأول والثاني، وابن إسحاق ـ على سبيل المثال ـ صاحب السيرة المشتهرة إنما هو منهم، وقد رأى بعض الصحابة، وهو مدني وأشياخه مدنيون كانوا قد ورثوا أخبار السيرة واشتهرت بينهم، فلا يضر ورودها ـ إذن ـ بإسناد ضعيف أو بدون إسناد.

بل إن الواقدي الذي هو مجمع على تركه يقول فيه الحافظ ابن حجر[(٢)]:

«والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا»[(٣)]

---

(١) مقدمة سيرة ابن هشام.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري الشافعي. ويعرف بـ(ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣ بمصر العتيقة، ونشأ بها يتيماً. وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجَدّ في الفنون حتى بلغ الغاية. وولي بعض وظائف الدولة من حسبة وقضاء وإمامة. وله العديد من المصنفات النافعة المشهورة. توفي رحمه الله سنة ٨٥٢. انظر «الضوء اللامع»: ٢/٣٦ ـ ٤٠.

(٣) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» د. مهدي رزق الله أحمد.



وقال فيه الإمام الذهبي[١] رحمه الله:

«لا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم... وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ وتورد آثاره من غير احتجاج»[٢].

ومعنى هذا أن الواقدي إن جاء ببعض التفصيلات التي لا توجد عند غيره وليست هي داخلة في باب العقيدة والشريعة وما شابههما مما ذكرته آنفاً فلا بأس بإيراده مع علمنا أنه ضعيف متروك وهذا حتى لا تضيع تلك التفصيلات ذوات الفائدة.

٢ ـ إن علماء السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ قد قبلوا تلك السير من غير نكير أعلمه، وارتضوها بل رواها كثير منهم وتداولوها، ولو أنهم توقفوا في صحتها أو شكّوا في نكارة بعض أخبارها لذكروه ولجهروا بذكره، فشيء قد قبله السلف والتفّوا حوله، ورووه وارتضوه أفنأتي نحن المتأخرين لنحذفه بدعوى أنه ورد بإسناد ضعيف أو بدون إسناد!! إنما ينبغي أن نتشدد في الأخبار الواردة في الفتن والأحكام والعقائد ونحوها، أما أخبار البطولات والرقائق والكمالات فما وجه التشدد فيها إذا كانت واردة على الوجه الذي ذكرته آنفاً؟!

وقد قال أحد الأساتذة، وهو من كبار المهتمين بقضية تصحيح السيرة وتنقيتها:

«قد تبرز معان خلقية ودينية مؤثرة في الروايات التي أهملتها، لكنني لم أكترث لذلك ما دامت ضعيفة الثبوت، وقد ظهر جليّاً أن الاعتماد على صحيح

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره. ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة. توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله. انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/١٠٠ ـ ١٢٣.

(٢) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» د. مهدي رزق الله أحمد.



الروايات وحسنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسنة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات»[١].

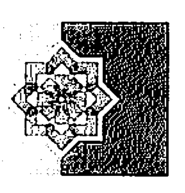
ثم قال مقيِّداً وموضِّحاً:

«ويلاحظ القارئ أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تستبعد نهائياً بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة حيثما لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدِّثين...»[٢].

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢٩.

(٢) المصدر السابق.



الضابط الثاني: عدم التصرف في نصوص السيرة الشريفة بحكم العقل المجرد عن النص

إن السيرة النبوية الشريفة المعطرة إنما تؤخذ من مصادر محددة معروفة معلومة، أوجزها في الآتي:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ كتب الحديث الشريف.

٣ ـ رواة السيرة العطرة الذين شافهوا الصحابة وكبار التابعين، ثم سطروا ذلك في كتب صارت هي المصادر الأصلية للسيرة النبوية الشريفة.

- وهناك كتب أخرى كثيرة تعد مصادر فرعية للسيرة باعتبار رواية الحادثة لأنها رجعت إلى هذه المصادر الأصلية.

وهذه المصادر للسيرة النبوية تنقسم أخبارها إلى قسمين:

أ ـ قسم متواتر أو صحيح، فالمتواتر ما جاء في كتاب الله تعالى وما ثبت بالتواتر من الأحاديث، والصحيح هو ما ثبت على وفق شروط المحدثين وضوابطهم المعروفة.

ب ـ وقسم افتقد الصحة وبقي في دائرة الضعف.

أما القسم الأول فلا يسوغ إنكاره أو ردُّه، أو التعسف في تأويله تعسفاً يفضي إلى أن يكون كأخي الرد، ولا يسوغ تحكيم العقل فيه فما قبله قُبل وما لم يقبله هُتك ورمي به عُرض الحائط، فهذا منهج سقيم؛ فإنه لا يُعلم أن خبراً صحيحاً صادم عقلاً صحيحاً، وإنما يخطئ من يخطئ في فهم دلالة النص أو

الجمع بينه وبين قواعد الشريعة، أو الجمع بينه وبين فهوم العقول، وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر.

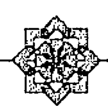
أما القسم الآخر فإنْ رده رادٌّ فلا حرج عليه، لكن قد ذكرت آنفاً بعض القواعد في قبول أخبار هذا القسم.

وإنما قلت هذا توطئة لذكر صنيع طائفة من أهل زماننا كتبوا كتباً في السيرة فاجترؤوا على صنيعٍ ما سبقهم إليه إلا الفِرَقُ الضّالّة وعلى رأسها المعتزلة، فجاؤوا في هذه الكُتب بأمر منكر حيث أثبتوا من أخبار السيرة الشريفة ما وافق عقولهم أو على الأصح ما وافق فهوم عقولهم، وردُّوا منها ما لم يروه بعقولهم حسناً ولو كان في ذروة الصحة في إسناده، وليتهم إذ صنعوا ذلك استندوا إلى أمر قويم وضوابط واضحة لكنها الجرأة في الرد، والإقدام المعيب على الإنكار بدعوى أن هذا لا يصح عقلاً، أو لا يناسب المقاصد العامة للشرع أو غير ذلك من الأعذار الواهية، ومردُّ هذا الصنيع منهم إلى الآتي، والله أعلم:

١ ـ تحكيم العقل وتقديسه، ورفعه فوق النصوص النبوية الثابتة، وتقديم مقتضاه على ما تقتضيه النصوص من التسليم، وهذا صنيع المعتزلة قديماً، فتابعهم بعض هؤلاء الذين كتبوا في السيرة على هذا المنهج.

٢ ـ تأثر كثير من هؤلاء بالمستشرقين الذين كانوا أساتذة لأكثر مؤلِّفي تلك السير أو المتكلمين عن أخبارها، والمستشرقون لا يرضون إلا هذا المنهج ـ منهج التأويل أو الرد لكل ما لا يثبت عقلاً ـ فتابعهم تلامذتهم على هذا متابعة معيبة.

٣ ـ تأثر كثير من هؤلاء بالأوضاع الحديثة وطرائق التفكير الجديدة التي صُبغت بالصبغة الغربية المادية، فصاروا يستصعبون قبول بعض الأخبار، ويردُّون كثيراً منها أو يؤولونها على الوجه الذي يذهب بالعبرة والفائدة منها.



٤ ـ لم يكن في أوائل القرن الماضي إلى نصفــه ـ تقريباً ـ من يرد على هؤلاء ردّاً قوياً شافياً يوقفهم عند حدهم ويبين لهم خطر صنيعهم، وإن وجد فهو لا يرقى في خطابه إلى مقارعة أولئك الذين كان لهم المنابر، وبيدهم أَزِمَّة الجامعات ودور العلم والإفتــاء، وولي الأمــر ـ غالباً ـ مناصر لهم وموصل لآرائهم وناشر لها، فليت شــعري ماذا تصنع الأصوات الضعيفة وإن كانت كلماتها قوية صادقة؟![1]

٥ ـ غياب الدراسات الإسلامية الجادَّة ـ آنذاك ـ فقد كان مثقفو المسلمين آنذاك عالة على الغربييــن في باب الأبحــاث التاريخية عامة، وأبحاث الســيرة خاصة:

«إن مما ساعد على ذلك تخلف الحركة الفكرية في العالم الإسلامي وعدم مواكبتها للحركة الفكرية العالمية، وذلك مرتبــط بما حدث من تباين حضاري بين الشــرق والغرب منذ عهد النهضــة في أوروبا، فقلَّما تجد دراســة تاريخية جادة كُتبت من قِبَل المسلمين في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشــرين، فلا غرابة إذا ما كانــت معظم الدراســات التاريخية التــي قام بها المسلمون في تلك الفترة صدى وانعكاساً لآراء وأفكار المستشرقين»[2].

ـ وهؤلاء الذين تناولوا أخبار السيرة بمقتضى ما ذهبت إليه عقولهم قسمان:

أ ـ قسم أوغل في إنكار المعجزات سوى القرآن الكريم أو تأويلها تأويلاً بارداً متعسفاً حتى صار كأخي الرد.

ب ـ وقسم أوغل في ردِّ الوقائع الصحيحة إن لم توافق قواعد الشريعة في زعمه وبنظر عقله.

---

(١) وأعظم مَن ردَّ على أولئك هو شيخ الإســلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري التَوْقادي، لكنه حوسب وشفُّه من قِبَل كثيرين رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٣٠.

وسآتي بشـــيء من التفصيل على صنيع أهل القســم الأول، وسأوجز عمل الفريق الآخر فيما يلي إن شاء الله تعالى.

أ ـ الموغلون في إنكار المعجزات أو تأويلها:

قد ظهرت طائفة من كُتّاب الســيرة النبوية الشريفة في أوائل القرن الماضي أوغلت في قضية إنكار المعجزات في الســيرة الشــريفة، أو تأويلها على وجه يُذهب معناها، وما كان مستندهم في ذلك الإنكار أو التأويل المجحف إلا أنها تخالف ـ عندهم ـ مقتضى العقل!!

ولا أُراهم صنعوا ذلك إلا مجاراة للعقل الغربــي، وطرائق التفكير الغربية التي لا تقيم وزناً إلا للمحسوســات وتنكر الغيبيَّات تماماً، فليت شــعري هل تنكر المعجزات الكثيرة الواردة في ســيرة النبي ﷺ مــن أجل مجاراة الغربيين وطرائق تفكيرهم؟!

ولماذا هذا الضعف والتخاذل؟! وفات هؤلاء ـ ربما ـ أن الله يفعل ما يشــاء كما يشاء لمن يشــاء، وأن سنن الكون يخرقها ســبحانه وقت ما شاء لمن شاء كيف شــاء، ثم أليس البعث والنشــور قد أنكره العرب الأوائل لاستحالته في ظنهم، وأنكــره كثير جدّاً من الغربيين في العصر الحديــث؟ فهل نتابعهم أيضاً على إنكارهم؟! وهل هــو إلا معجزة باهرة وخرق للســنن ظاهر، وإذا أُنكرت المعجزات بدعــوى أنها غير مقبولة عقلاً فالبعث والنشــور ـ عند أولئك ـ غير مقبول عقلاً أيضاً فكيف تابعناهم في شيء وخالفناهم في آخر!!

وهأنذا موردٌ نصّاً معبّراً تمام التعبير عن هذه التوجه: الذي علق به الأســتاذ محمد عبده رحمه الله[1] على حادثة الفيل وإهلاك الله أبرهة وجيشه بالطير الأبابيل، علق عليها بكلام عجيــب موجزه أن هؤلاء لم يهلكوا بســبب رمي الطير لهم

---

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده (سورة الفيل).



بحجارة من سجيل وإنما بسبب مرض الجدري والحصبة!! فقال غفر الله له بعد تقريره قضية هلاك أبرهة وجنده بالجدري والحصبة:

«فيجوز لك أن تعتقد أن هـذا الطير من جنس البعـوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمـراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسـموم اليابس الذي تحمله الريـاح فيَعْلَق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسـد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعد مـن أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان ـ الذي يسمونه الآن بالميكروب ـ لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها...»

فيالله من ضعف هذا الكلام وتهافته عقلاً ونقلاً، ويكفي أن أقول:

١ ـ إن الجدري والحصبة مرضان قد يهلكان المرء وقد لا يهلكانه، ثم إن أهلكاه فبعد زمن طويل نسـبيّاً، وقد أخبر الله تعالى أن هلاكهم كان آنيّاً: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيـل: ٤، ٥] والفـاء في «فَجَعَلَهُمْ» للترتيب والتعقيب.

٢ ـ قد ذكر الله الطير نصّاً واضحاً لا يحتمل هـذا التأويل، والألفاظ في القرآن تحمل على الحقيقة وليس على المجاز إلا في بعضها بقرائن، فكيف نترك الكلام العربي الواضح ونأتي بهذه الترهـات؟! ولمصلحة من هذا التأويل البارد جداً؟

وهناك نصوص عديـدة خَطَّتها أيدي عدد ممن كتبوا في السـيرة الشـريفة جنحوا فيها إلى تقريـر غريب ألا وهو أنه ليس للنبي ﷺ معجزة سـوى القرآن العظيم!! وأنكروا انشقاق القمر أو أوّلوا تلك الهجرة الجليلة، وأغفلوا ذكر عدد من المعجزات التي وردت في ثنايا سـيرته الشـريفة المنيفـة، وكل هذا نصرة لمذهبهم الرديء في إنكار أو تأويل كل ما لا يوافق العقل بزعمهم، ونسوا الآتي:

١ ـ إن العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح أبداً.

٢ ـ إن المعجزات لا تتعلق بالمستحيل الذاتي إنما بالعادي، فانشقاق القمر مستحيل عادة لكن ليس بمستحيل ذاتي، بمعنى أن المعجزات لا يجتمع فيها النقيضان فلا يمكن لمعجزة أن تأتي بليل ونهار معاً، أو تجعل الشخص في مكانين في وقت واحد، ومعجزات سيد البشر ﷺ ليست على هذه الشاكلة إنما هي كلها من باب المستحيل العادي الذي لما كان غيرَ متصور عند البشر فلربما سارع بعضهم إلى إنكاره لكنه ليس بمستحيل عقلاً.

ب ـ مَن رد الأخبار أو ضعفها بمقتضى العقل:

وهذه آفة تشبه التي قبلها، وتندرج في بعض جوانبها فيها، فيعمد الكاتب إلى رد الأخبار الصحيحة الشريفة لأنها لم توافق ـ فيما ذهب إليه بعقله ـ قواعد الشريعة أو مقاصدها، وحسبي أن أورد هذا المثال:

أورد الأستاذ محمد الغزالي رحمه الله حادثة بني المصطلق ثم ذكر أنه قد ورد أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارّون ـ أي: بدون إنذار مسبق ـ وأن هذه رواية الصحيحين، فقال:

«صددت عن إثبات رواية البخاري ومسلم للطريقة التي تمّت بها غزوة بني المصطلق؛ فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول ﷺ باغت القوم وهم غارّون، ما عرضت عليهم دعوة الإسلام، ولا بدا من جانبهم نكوص، ولا عُرف من أحوالهم ما يقلق، وقتال يبدأه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام، مستبعد في سيرة رسوله ﷺ، ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو وسكنت نفسي إلى السياق الذي رواه ابن جرير، فهو على ضعفه... يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة أنه لا عدوان إلا على الظالمين».



فها هو الأستاذ ـ على رفعة قدره ـ يردُّ الحادثة لا بقاعدة قويمة أو ضابط صحيح لكنه صنع ذلك لأن عقله لم يستسغ حدوث ذلك ورآه مضاداً لقواعد الإسلام المتيقنة، وأقول، والله أعلم:

١ ـ قد نسي الشيخ ـ ربما ـ في غمرة حماسه أن النبي ﷺ لا يفعل شيئاً ـ غالباً ـ إلا بوحي، فإن صنع شيئاً من تلقاء نفسه فاستبان عدم صوابه روجع، كما حدث ذلك مراراً.

٢ ـ نعم إن الجادة في الشريعة إعلام القوم وإيذانهم بالقتال لكن ما الضير في أن نقول: إن هذه هي القاعدة المستقيمة والجادة القويمة إلا أن الله تعالى أذن لرسوله ﷺ في استثناء بني المصطلق من هذه القاعدة لأمر وحكمة جليلة؟! وما هي العلة في هذا القول إن قيل؟! خاصة أننا بذلك نعظم الأحاديث ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نجنح إلى الإنكار والرد لخبر جليل ثابت مثل هذا لا لشيء إلا لأن عقولنا لا تتصوره.

هذا وإن علماء الإسلام قد اختلفوا في قضية الإنذار كالتالي:

١ ـ عدم الوجوب مطلقاً، وهو ما حكاه المازري والقاضي عياض.

٢ ـ الوجوب مطلقاً، وهو ما ذهب إليه مالك وآخرون.

٣ ـ الوجوب بالنسبة لمن لم تبلغهم الدعوة، وعدم الوجوب لمن بلغتهم، وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد، وهو الراجح[1].

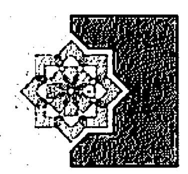
وعلى هذا فلا داعي لإنكار رواية البخاري رحمه الله.

هذا وقد جاء في بعض كتب السيرة أنه أنذر بني المصطلق فلا حرج إذن.

لكن حتى لو أراد الباحثون الاعتماد على رواية البخاري فقط فلا حرج كما بيّنت آنفاً، وليُجعل من عدم الإنذار هنا استثناء من القاعدة العامة، والله يفعل ما يريد.

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٤٣.



الضابط الثالث: عدم الجنوح إلى التبرير والاعتذار بدون داع في سوق أخبار السيرة الشريفة

إن هناك عقدة مستحكمة عند بعض من كتب في التاريخ الإسلامي عامة والسيرة والصدر الأول خاصة، ألا وهي تبرير بعض الأحداث تبريراً واهياً، والاعتذار عن بعضها الآخر اعتذاراً ضعيفاً، وإنما يصنع هذا مَن صنعه فراراً من اللوم والتقريع من قِبَل المستشرقين أو اللادينيين، أو تحكيماً للعقل المجرد، أو لأنه لم يستطع أن يجعل الحدث الذي يسوقه متَّفقاً مع القواعد الشرعية والضوابط والمقاصد كما يفهمها، فلجأ إلى التبرير أو الاعتذار، فبعض الكُتّاب قد ذهب إلى أن غزوة تبوك التي جرت في أطراف الجزيرة الشمالية بين النبي ﷺ وصحبه الكرام وبين الروم لكن ـ لم يقع قتال ـ ذهب إلى أنها دفاع عن الحدود الشمالية لدولة الإسلام، وأن الجهاد إنما هو جهاد دفع ولم يَجْعل لجهاد الطلب مكاناً في تاريخ الإسلام!!

واعتذر بعضهم عن تزوج النبي ﷺ بجملة من النساء، وبرَّر ذلك تبريراً ضعيفاً، واعتذر عن جملة من الأمور كان ينبغي له أن يعتزَّ بها لا أن يعتذر عنها:

«إن ما شرعه الإسلام من الجهاد وغيره حق لا يحتاج إلى اعتذار أو تبرير، حتى لو بدا ذلك غريباً أمام الذهنية المهيمنة على الناس في القرن العشرين، لأننا لا نطوع الإسلام وتاريخه لأذواق الناس واتجاهاتهم الفكرية في عصر معين؛ فما يحبذه الناس في عصر قد ينكرونه في عصر آخر، وما يحسبه أبناء بلدة حسناً يراه سواهم منكراً، والحكم لله ولشرعه وليس لأذواق الناس وأهوائهم، والله غالب على أمره»[1].

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة»: ٣٧ ـ ٣٨.

الضابط الرابع: مزج أخبار السيرة بالعاطفة

إن المرء ليقرأ بعض كتب السيرة فإذا هي أخبار مسرودة على وجه خال من التفاعل والعاطفة، وكأن الكاتب يسرد حقائق علمية طبيعية، أو أخباراً لحوادثَ ووقائعَ لا تمت لتاريخه ودينه ولمرحلة عظمى من تاريخ الإسلام بصلة، وهذا واقع في كثير من كتب المعاصرين وبعض كتب الأقدمين، وربما كان هذا بسبب غلبة المنهج العلمي الجاف في الكتابة الحديثة.

ولا بدَّ ـ في تقديري ـ من كتابة الأخبار النبوية بلغة الحب والعاطفة والأدب الرقيق، ومزجها بالتعبيرات التي تَنُمّ عن حب وإجلال وتعظيم، والوقوف بين الفينة والأخرى بين تلك المغاني، والتعليق على جمال تلك المعاني، والتعريج على القلب قبل الكتابة، وتبيين العظمة النبوية وتلك السيادة، وهذا من أجل أن يتفاعل القارئ مع ما يقرأه، ويعتبر بتلك العبر والعظات.

ـ وقد قرأت كتباً في السيرة الشريفة المطهرة، وأقول ـ والله أعلم ـ: إني لم أقرأ قط مثل الذي كتبه الأستاذ سيد رحمه الله في ظلاله مفسراً ومعلّقاً على بعض أحداث السيرة، ومثل الذي كتبه الأستاذ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه «فقه السيرة»، ومثل الذي كتبه الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمه الله في بعض كتبه عن بعض الجوانب من سيرة النبي ﷺ وإنما كان هذا لأن لغة الكتابة راقية، والعواطف جياشة بالمحبة، وكثير من الكلمات تقطر رقة وحناناً، وهذا مطلوب في كتابةِ السيرة، ومرغوب فيه؛ لأنه يدغدغ المشاعر، ويوقظ العواطف، ويحدث الاستجابة، ويحرك القلوب لاستقبال الموعظة والتوجيه والإرشاد.



وليس هذا بِدْعاً من القــول، أليس هذا هو منهج القــرآن الذي أورد آيات الأحكام على هيئة فريدة؟ فقد ســبق أكثرها قــول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وختمت بخاتمة مناســبة للســياق، ووردت مــورد التذكير والحضّ والوعظ، ولم تُسَقْ مساق القوانين الجامدة، أو الأنظمة الجافة.



الضابط الخامس: الإيجاز مع التشويق

إن نمط الحيــاة المعاصرة قد فرض علــى كثير من الصالحيــن والعاملين والمثقفين أن يُقلوا من قراءتهم فلم يبق لهم من الوقت للقراءة إلا النزر اليسير، فعلى من يريد أن يكتب في السيرة النبوية أن يراعي هذا الأمر فيأتي بها موجزة ليست طويلة طولاً يمنع من قراءتها ولا قصيرة قصراً مُخِلًّا بأحداثها، وأن يأتي بها مشوقة مشجعة على القراءة.

هذا ومن أساليب التشويق ما يلي:

١ ـ الاهتمام بالعبر والعظات وسوقها مقرونة مع الأحداث.

٢ ـ حسن التقسيم والتبويب، واجتناب السرد الطويل إلا لما لا بدَّ منه، ويمكن تفريق النص الطويل والتعليق على أجزائه.

٣ ـ جمال العبارة وحسن الأسلوب، والاستعانة قدر الإمكان بنصوص الأوائل فإنهم رُزقوا ملكة التعبير الحسن والأسلوب الجليل، ورُبّ عبارة يأتي بها الواحد مــن أولئك تترك من الأثر ما لا تتركــه صفحة من صفحات كتب مَن بعدهم.

٤ ـ جمال الطباعة وحسن الخط.

٥ ـ الاقتباس من كتابات أهل العاطفة الجياشــة، كما بينــت ذلك في الضابط السابق، وذلك لما لحديث العواطف من قبول في القلوب والعقول.

الضابط السادس: شمول العرض لأحداث السيرة كلها

إن السيرة النبوية هي عرض لحياة سـيد البريّة ﷺ، وهي حياة شاملة في جوانبها؛ ففيهـا القيادة الدينية: التشـريع والإفتاء والقضـاء والإمامة وتعليم القرآن.

وفيها القيادة السياسية: قيادة الدولة والشورى، والتعامل مع القوى الأخرى داخل الجزيرة وخارجها.

وفيها القيادة الاجتماعية: توثيق العلاقات بأفراد المجتمع، وفض النـزاعات.

وفيها القيادة العسـكرية: وضع الخطط، وتولي قيـادة المعارك، والتوجيه، والإشراف.

وفيها القيادة الدعوية: النصح، والإرشاد، وتحريك المجتمع للعمل لدين الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيها معالم الأخلاق الحميدة كلها.

وفيها جوانب إيمانية وروحانية لا مثيل لها ولا مزيد عليها.

وفيها الحياة الأسرية السعيدة الشاملة للأزواج والأولاد والأحفاد.

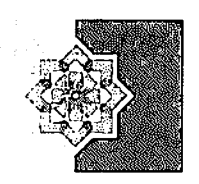
وهكذا نجد أن جوانب حياته ﷺ فيها شمول لكل جوانب الحياة على وجه غير مسـبوق؛ إذ ليس لنبيٍّ من الأنبيـاء ـ عليهم الصلاة والسـلام ـ قبله هذا الشـمول، فيما نعلم، ولا ما يقاربه؛ وذلك لحكم: منهـا أن الله تعالى أراد لهذه الرسـالة أن تكون خاتمة الرسالات، وأراد ـ سـبحانه ـ أن تكون صالحة لكل



زمان ومكان، فلا بــدَّ ـ إذن ـ أن يكون لصاحب هذه الرســالة المشــاركة في جوانب الحياة كلها بل رَفْعُها إلى قمة سامقة لم تكن البشرية تعرفها من قبل.

ولهذا فإن مــن يريد التأليف في الســيرة اليــوم لا بدّ له مــن تناول حياة النبي ﷺ على هذا الوجه من الشــمول، وعلى تلك الدرجة من الرفعة، فلم يعد يصلح اليوم ـ في ظني، والله أعلم ـ أن تساق أحداث السيرة سَوْقَ الأقدمين لها كابن إسحاق وابن هشام وابن سعد وأضرابهم ـ رحمهم الله تعالى ـ ممن ساقوا أحداث السيرة مساقاً تاريخياً حَوْلياً مجرداً من التعريج على كثير مما ذكرته آنفاً من جوانب الشمول في سيرته ﷺ.

وكذلك لم يعد مناســباً ـ في ظني، والله أعلم ـ أن تثبت جوانب معينة من الســيرة في الحركة والتربية والفقه والعظــات منزوعة من ســياقها التاريخي الكامل، بل لا بدَّ من مؤلَّف يجمع كل جوانب الســيرة المطهرة مهما كان هذا المؤلَّف ضخماً متعدد الأجزاء؛ وذلك أنه لا غِنى لنا عن فهم السيرة فهماً شاملاً لكل جوانبها بدون تجزئة.



الضابط السابع: الوقوف الطويل عند الجزئيات والتفصيلات

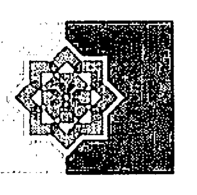
لا يعني شمول العرض لأحداث السيرة ـ الذي أوردته في الفقرة السابقة ـ ألا يقف المؤلف عند التفصيلات، بل إن الشمول يقتضي الاستفادة من هذه التفصيلات، والقارئ لكتب السيرة القديمة يرى أن المصنفين لم يكونوا ـ غالباً ـ ينظرون بين السطور، ولم يكونوا يهتمّون بالوقوف على كثير من الجزئيّات والتفصيلات في سيرة رسول الله ﷺ إنما هذا من عمل المُحْدثين، من أهل العصر الحديث، وعلى وجه التحديد هم من كتبوا في منتصف القرن الماضي تقريباً وما بعده، ولا يُلام الأوائل على صنيعهم ذلك فإنه كان منهج عصرهم في التأليف، قال الأستاذ عماد الدين خليل:

«ثم جاء تنامي النشاط الأكاديمي، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات لا لكي تعزز القيم المنهجية الأصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وإنما أيضاً لكي تنفذ دراسات معمقة في هذه الواقعة أو تلك وفق معايير نقدية صارمة، وقدرة على الإمساك بالدقائق والتفاصيل والجزئيات التي تعين الباحث على الإيغال في شرايين الواقعة من أجل الوصول أو محاولة الوصول إلى بنيتها الأساسية، كما تشكلت فعلاً لا كما أراد لها الرواة والأخباريون والمؤرخون أن تكون...».

ثم ضرب مثلاً على ذلك بكتب فقه السيرة المتنوعة التي ظهرت في القرن الماضي[1].

---

(١) مقالة «السيرة النبوية مشروعاً حضارياً» للأستاذ عماد الدين خليل، على شبكة المعلومات «الإنترنت».



الضابط الثامن: بيان الإنجازات الكبرى في حياة رسول الله ﷺ التي تغيّر بها وجه الأرض

إن هنالك أحداثاً جمّة في سيرة رسول الله ﷺ تتناول جوانب الحياة كلها على ما بيّنتُه في الفقرة الماضية، وقد تكفلت عدة كتب بذكرها على تفاوت بينها في الضبط والإتقان والشمولية، لكن الكتب التي تبرز المنجزات الجليلة التي عادت على البشرية بأحسن العوائد إنما هي كتب قليلة جدّاً، لا يتناسب عددها مع هذه المنجزات الجليلة العظيمة؛ فإن السيرة النبوية غيَّرت وجه الأرض، وقفزت بالبشرية قفزات هائلة إلى آفاق لم تكن تحلم بها بل لم تكن تدري عنها شيئاً، وهذا الذي يسميه بعض المفكرين «الحضارة الإسلامية»، وأحب أن أسميه الثقافة الإسلامية؛ وذلك لأن الحضارة إنما تتناول الجوانب المادية المجردة من عمران، وتقنية، بينما الثقافة هي التي تتناول الجوانب المعنوية من حياة الناس؛ وذلك كالفكر والتشريعات والنظم والقوانين والآداب والفنون والمعارف والعادات والتقاليد، لكن ليس هذا البحث محتملاً لنقاش هذه المسألة ولا مشاحة في الاصطلاح إذا عُرف المضمون، فهذه الحضارة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية التي استقرت في الأرض سائدة لها ألف سنة ـ تقريباً ـ بلا منازع كانت نتاج الجهد الهائل الذي بذله النبي ﷺ في حياته ووفقه الله تعالى بأن توّج هذا الجهد بمنجزات تفخر بها البشرية كلها، قال الأستاذ عماد الدين خليل حفظه الله تعالى:

«لقد كانت حياة الرسول ﷺ الكادحة وجهده الموصول حتى آخر لحظة شهادة حية على قدرة هذا الرجل النبيّ على الإنجاز والتغيير بكل ما تنطوي عليه الكلمتان من بعد حضاري، ولقد جاءت شهادة الباحث الأمريكي المعاصر

مايكل هارت في كتابه «المائــة الأوائل» تأكيداً لهذا المعنى، لقد حاول الباحث المذكور أن يستقصي ويدرس بمعياري الإنجاز والتغيير أعظم مائة شخصية في تاريخ البشــرية[1]، ثم مضى لكي ينفذ خطوة تالية باختيار أعظم رجل من بين هذه الشــخصيات المائة، وبالمعيارين ذاتهما، فإذا باختياره يقع على محمد ﷺ فيعتبره أعظم شــخصية في التاريخ، وذلــك في قدرته على تنفيــذ إنجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معاً».

ثم بيّن الأســتاذ المنجزات التي وفّق الله تعالى النبــيَّ ﷺ لإنجازها وتغيير وجه الأرض بها، فذكر أنها:

١ ـ التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

٢ ـ الوحدة في مواجهة التجزُّؤ.

٣ ـ الدولة في مواجهة القبيلة.

٤ ـ التشريع في مواجهة العرف.

٥ ـ المؤسسة في مواجهة التقاليد.

٦ ـ الأمة في مواجهة العشيرة.

٧ ـ الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

٨ ـ المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

٩ ـ المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

١٠ ـ الإنســان المســلم الجديد الملتزم بمنظومــة القيم الخلقية والســلوكية المتجذرة في العقيــدة، في مواجهــة الجاهلي المتمــرس على الفوضى والتسيب، وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

---

(١) وقد اختار هؤلاء المائة من عشرين ألفاً من العظماء.



ثم بيَّن الأستاذ أن هذه المنجزات قد حصلت بآيات القرآن العظيم وأحاديث رســول الله ﷺ وهذان المصدران الجليلان أوجدا في المجتمع الإسلامي الأول مجموعة من القيم والآليات «هيأت وغرســت البذور الأولى للثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية اللتين سادتا الدنيا ألف سنة»[1] وهذه القيم والآليات هي:

١ ـ المعرفة هي حجر الزاوية.

٢ ـ النـزوع إلى الأمام.

٣ ـ التحذير من هدر الطاقة.

٤ ـ مبدأ الاستخلاف.

٥ ـ مبدأ التسخير.

٦ ـ التحفيز على العمل والإبداع.

٧ ـ مجابهة التخريب والإفساد.

٨ ـ التوازن بين الأضداد والثنائيات، وتوحدها.

٩ ـ التناغم والوفاق بين الطبيعة والكون.

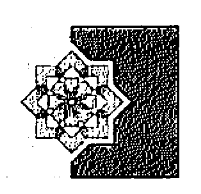
١٠ ـ تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة[2].

تلك كانت منجزاتٍ تفخر بها البشرية كلها، وينبغي لكل مَن كتب في سيرة النبي ﷺ أن يبـرزها ويظهرها على الوجه اللائق، والله أعلم.

---

(١) ما بين الأقواس من كلامي.

(٢) من مقالة للدكتور عماد الدين خليل بعنوان «السُّنة النبوية مشروعاً حضارياً»، في الشبكة العنكبوتية «الإنترنت».



الضابط التاسع: الاستفادة من كتابات المتخصصين في شتى العلوم والفنون

إن السيرة كُتبت كاملة منذ القرن الثاني الهجري، على يد ابن إسحاق رحمه الله وغيره من المؤرخين، لكن منذ ابتداء التدوين في العلوم والفنون الإسلامية كتب آلاف من العلماء والأدباء والشعراء في جوانبَ كثيرةٍ جزئية في سيرة رسول الله ﷺ فالمحدثون أوردوا آلاف الروايات في السيرة، والفقهاء أوردوا نصوصاً من السيرة وتناولوها بالدراسة، والمفسّرون تحدثوا طويلاً عن حياة رسول الله ﷺ وتفاصيل من سيرته المنيفة، والشعراء والأدباء عبَّروا عن عواطفهم الدافقة في آلاف القطع النثرية والشعرية، والمؤرخون ـ الذين جاؤوا بعد طبقة المؤرخين الأوائل ـ كتبوا كثيراً عن سيرة رسول الله ﷺ، وكتب أهل اللغة شيئاً في معاجمهم ومصنفاتهم، وكذلك كتب الجغرافيون شيئاً.

وفي العصر الحديث كتب دعاة وأدباء ومفكرون كثيرون في سيرة رسول الله ﷺ كتابات جليلة متميزة، فعلى من يريد الكتابة عن سيرة رسول الله ﷺ في هذا العصر أن يجمع ما قيل أو كثيراً مما قيل في هذه السيرة من بطون الكتب المتنوعة في تخصصها ومشاربها حتى يخرج الكتاب على صورة متكاملة إلى حد بعيد عن سيرة رسول الله ﷺ، تجمع قرائح وأفكار عظماء المِلّة ومقدمي الأمة قديماً وحديثاً الذين جهدوا في استخراج دقائق وتفصيلات من حياة رسول الله ﷺ ومزجوها بعاطفتهم وفهمهم واستنباطاتهم، فإذا عمد من يريد التأليف إلى الاستفادة من تلك المصادر المتنوعة جاء تأليفه حُلة سِيَراء، وشاملة لكل جوانب حياته ﷺ، حافظة لكل شاردة وواردة من تلك

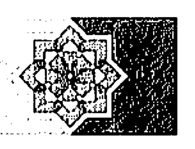


السيرة، ضابطة لها على وجه جليل، قال الأستاذ عماد الدين خليل حفظه الله تعالى مبيّناً أهمية الاستقاء من كل المصادر والمراجع التي طرقت السيرة بشكل أو بآخر، فقال:

«لا بدَّ من أجل التحقق برؤية كهذه من استدعاء المؤرخ، والمفسر، والمحدث، والفقيه، والجغرافي، وفيلسوف التاريخ، والأديب لتوسيع نطاق الفضاء المعرفي عن العصر، حيث يصير النص القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلاً عن الدلالات المحدَّدة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي هي المصادر الأساسية التي يكمل بعضها الآخر من أجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له ووضعت شروطه التأسيسية ونفذت بعض حلقاته سيرة رسول الله ﷺ...»[1].

---

(١) من مقالة للدكتور عماد الدين خليل بعنوان «السنة النبوية مشروعاً حضارياً»، في الشبكة العنكبوتية «الإنترنت».



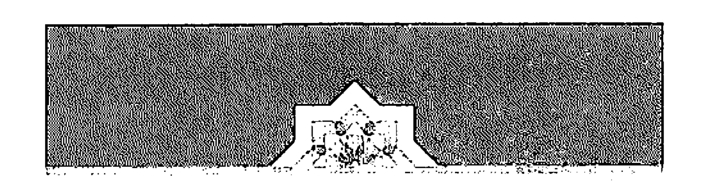
خاتمة

هذا هو الـــذي جمعته في عجالة عن الضوابط المنهجية في عرض الســيرة النبوية، والأمر محتمـــل للتطويل، وبعض القضايا التي أوردتُها قابلة للدراســة المعمقة، وأخص بالذكر القضية التي لا تـــزال محل جدل كبير بين المؤرِّخين والمحدَثين في هـــذا العصر، وهي قضية الأخذ بأحداث الســيرة وفق الموازين التي وضعها المحدِّثون لقبول الأخبار، فإن الأمر لم يُحســم بعد الحسم التام، وما زال بين القبول والرد.

والله أعلم، وصلّ اللَّهُمَّ وســلِّم على ســيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» الشيخ محمد العربي التباني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤/١٩٨٤.
- «دراسات في السيرة النبوية» أ. محمد سرور بن نايف زين العابدين، نشر دار الأرقم، لندن، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧/١٩٨٦.
- «السيرة النبوية الصحيحة» د. أكرم ضياء العمري، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة ١٤١٥/١٩٩٤.
- «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: دراسة تحليلية» د. مهدي رزق الله أحمد، نشر مركز الملك فيصل. الرياض. الطبعة الأولى سنة ١٤١٢/١٩٩٢.
- «صحيح السيرة النبوية» الشيخ إبراهيم العلي.
- شبكة المعلومات «الإنترنت»: مقالة للأستاذ عماد الدين خليل بعنوان «السيرة النبوية مشروعاً حضارياً».



الرسالة السادسة

جهود المؤرّخين المحَدّثين في خدمة السيرة النبوية



مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن المؤرخين المُحدثين الذين كتبوا في السيرة النبوية عدد قليل جدّاً، على عكس المؤرخين القدامى الذين لا يكاد يشذ منهم أحد في كتابة السيرة النبوية، سواء في كتاب مستقل أو ضمن التاريخ العام، وهذا أمر معروف بيِّن لمن اطلع على أعمال المؤرخين القدامى والمحدثين.

وقد كتب في السيرة النبوية جمع جَمٌّ ضخم من الدعاة والأدباء وقادة الثقافة والفكر لكن لا يوصف واحد من أولئك بأنه مؤرخ[1]، إلا في النادر.

ولذلك فإن الحديث عن جهود المؤرخين المُحْدثين في كتابة السيرة النبوية هو حديث ضيق، بسبب قلة عدد من كتب منهم السيرة النبوية المشرفة المطهرة.

ولكل ما سبق فإني لن أبحث إلا في أعمال من يوصف بأنه مؤرخ، وأما غيره من العلماء والأدباء والدعاة فلن أعرِّجَ على كتاباتهم في السيرة النبوية.

---

(١) وذلك كصنيع الأستاذ منير الغضبان في موسوعته: «المنهج الحركي في السيرة النبوية» وكصنيع الدكتور البوطي في كتابه «فقه السيرة» والأستاذ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «فقه السيرة» أيضاً، وكذلك الأستاذ السباعي في كتابه «دروس من السيرة النبوية»، وغيرهم ممن كتب في السيرة ولا يوصف بأنه مؤرخ وليس له أعمال تاريخية معروفة وليس له تخصص في التاريخ ولا عناية به.



ولقد اتبعت في بحثي هذا الطريقة التالية:

١ ـ أوردت الكتب التي أريد دراسة منهجها على ترتيبها الزمني، وذلك بحسب سنة وفاة المصنِّف.

٢ ـ أوجزت في بيان مناهج أولئك المصنفين، وأتيت بأخصر العبارات فلم أتوسع، لكني أظن أني لم أُقصّر ولم أترك من مهمات مناهجهم شيئاً.

٣ ـ ترجمت لمن أرى أهمية الترجمة لهم مما قد تخفى سيرتهم على أكثر القراء.

٤ ـ أظن أني اتبعت المنهج العلمي فيما أتيت به من نقد، وما أوردته من تعليقات وشروح وغير ذلك.

الكتب المختارة:

اخترت ستة كتب أرى أنها تكفي لبيان مناهج المؤرخين المحدَثين في كتابة السيرة النبوية، وهذه الكتب هي:

١ ـ «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» للشيخ محمد الخضري رحمه الله.

٢ ـ «محمد ﷺ المثل الكامل» للأستاذ محمد أحمد جاد المولى رحمه الله.

٣ ـ «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» للدكتور أحمد شلبي رحمه الله.

٤ ـ «التاريخ الإسلامي» للأستاذ محمود شاكر، حفظه الله تعالى.

٥ ـ «دراسات في السيرة النبوية» للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، حفظه الله تعالى.

٦ ـ «السيرة النبوية الصحيحة» للأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري، حفظه الله تعالى.

والله ـ تعالى ـ أعلم وأعظم، وأجل وأحكم، وصل اللَّهُمَّ وســلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامداً مصلّياً

العبد الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com

www.altareekh.com

http://www.youtube.com/maltareekh

TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH

www.facebook.com/mhmaltareekh



نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

محمد الخضري بك(١)

هذا كتاب مشهور كتبه مؤرخ معروف، وهو كتاب أُلف في زمان مهم، لم يكن قد كُتب فيه من كتب السيرة على الطريقة الحديثة إلا القليل أو النادر، وذلك أواخر زمن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني رحمه الله سنة ١٣١٥ أي: ما يقارب قرناً مضى وتسعة عشـر عاماً مضت من تاريخنا اليوم، بدأه المصنف بمقدمة جميلة، ذكر فيها سبب تصنيفه الكتاب ومصادره فيه، وكان من منهجه في كتابه هذا هو التالي:

أولاً: اتباع طريقة أكثر كتَّاب السيرة القدامى تقريباً:

سلك المصنف في كتابه طريقة المصنفين القدامى الذي سردوا السيرة من قبل المبعث إلى الوفاة، ولم يشـذ عن ذلك، فلم يُعد توزيع مواد السـيرة، ولم يخترع سرداً جديداً، إلا أنه بعد فراغه من السيرة الشريفة المنيفة أورد فصلاً فيه شمائل النبي ﷺ اختصره من كتاب «الشـفاء» للقاضي عياض رحمه الله (٢) ثم أردفه

---

(١) محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشـيخ الخضري: باحث، خطيب، من العلماء بالشـريعة والأدب وتاريخ الإسـلام. ولد في مصـر سـنة ١٢٨٩/١٨٧٢م وكانت إقامته فـي «الزيتون» من ضواحي القاهرة، وتوفي ودفن بالقاهرة سـنة ١٣٤٥/١٩٢٧م. تخرج بمدرسـة دار العلوم، وعيّنَ قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثم مدرسـاً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، مدة ١٢ سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف. من كتبه «أصول الفقه»، و«تاريخ التشريع الإسلامي» و«إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء» و«محاضرات في تاريخ الأمم الإسـلامية» و«نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» و«مهذب الأغاني» تسعة أجزاء و«محاضرات في نقد كتاب الشـعر الجاهلي للدكتور طه حسين»، و«الغزالي وتعاليمه وآراؤه» نشر تباعاً في المجلد ٣٤ من مجلة المقتطف و«دروس تاريخية». انظر «الأعلام»: ٦/٢٦٩.

(٢) هو الشـيخ الإمام القاضي أبو الفضل عياض بن موسـى اليَحْصُبي الأندلسي ثم السبتي المالكي. =

بفصل في معجزاته ﷺ، ويصح القول ـ أيضاً ـ: إنه بهذا الصنيع قد فارق من سرد السيرة من قبل المبعث إلى الوفاة، ويصح القول ـ أيضاً ـ: إنه لم يفارق صنيع من سرد السيرة من قبل المبعث إلى الوفاة، لأنه جعل الفصلين الأخيرين المذكورين آنفاً ملحقين بالكتاب.

ثانياً: الإيجاز

أوجز المصنف ذكر أحداث السيرة في كتابه هذا، فلم يترك لقلمه العنان، وهذا منهج حسن مناسب لأهل هذا الزمان الذين غلب عليهم هجر القراءة، وصاروا يُعرضون عن مطولات الكتب التي أصبحت كالأيتام على مائدة اللئام.

ثالثاً: عدم ذكر المصادر والمراجع:

قد كان المصنف رحمه الله يسرد أحداث السيرة ولا يعيدها إلى مصادر ولا إلى مراجع وهذا صنيع مرجوح في الميزان العلمي «الأكاديمي»، لكن يشفع للمصنف ما كان عليه أكثر كتّاب عصره من اتباع هذه الطريقة، وكذلك يشفع له إيراده مصادره في المقدمة.

وقد كان أحياناً يذكر مصدره بإيجاز، في غير السرد العام للسيرة، إذا أراد التأكيد على شيء بعينه أو بدون سبب واضح ـ عندي ـ مثل قوله: «كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط، كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه»[1].

= ولد سنة ٤٧٦، واستبحر من العلوم، وجمع وألّف، واشتهر اسمه في الآفاق، وله شعر حسن. وهو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. توفي شهيداً مقتولاً بمرّاكُش سنة ٥٤٤؛ وذلك لإنكاره عصمةَ ابن تُومرت أمير الموحِّدين. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢١٢ ـ ٢١٨.

(١) نور اليقين: ص ١٨.



وكقوله:

«روى القاضي عياض في «الشفا» أن عطاء بن يسار....»[١].

ومثل كقوله:

«من أشد ما صنع ذلك الشقي برسول الله ﷺ ما رواه البخاري في صحيحه....»[٢].

رابعاً: ذكر العبر والعظات:

لم يسرد المصنف السيرة سرداً مجرداً من العبر والعظات بل مزجها بهما مزجاً محكماً غير متكلف؛ كقوله في الزهد في الدنيا تعليقاً على رعي النبي ﷺ الغنم:

«ترى جميع الشرائع الإلٰهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها، وحال الأنبياء السابقين أعظم شاهد على ذلك»[٣].

وكقوله تعليقاً على عدم شرب النبي ﷺ الخمر في الجاهلية وعدم أكله مما ذبح على الأنصاب:

«وذلك كله من الصفات التي يحلّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه؛ فهم معصومون من الأدناس قبل النبوّة وبعدها...»[٤].

وكحديثه عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[٥].

وكحديثه عن إجلاء بني النضير[٦].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٥.
(٢) المصدر السابق: ص ٤٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٨.
(٤) نور اليقين: ص ٢١.
(٥) ص ١٠٠.
(٦) ص ١٦٥.

خامساً: عدم تخريج الأحاديث وتحقيقها:

لم يخرج المصنف حديثاً أورده إلا في النادر، وكان يورد بعض الأحاديث بالمعنى ضمن سرده لأحداث السيرة، أما تحقيق الأحاديث فلم يفعل إلا في مواطن قليلة منها رده قصة الغرانيق المفتراة فردها اعتماداً على كلام القاضي عياض رحمه الله في توهينها وردها[١]

سادساً: ذكر الموضوعات والآثار الضعيفة:

أورد المصنف طائفة من الموضوعات والآثار الضعيفة ولم يذكر وضعها أو ضعفها، وهذه آفة وقع فيها كثير ممن كتب في السيرة من المحْدثين والقدماء.

من مزايا الكتاب:

للكتاب مزايا عديدة أوردت بعضها في ذكر منهجه، ولكن من أحسن مزايا المصنف أنه أورد المعجزات النبوية ولم يؤولها كصنيع طائفة من معاصريه، ولم يأنف من مخالفة المستشرقين وأذنابهم، بل أوردها كما هي كحادثة شق القمر، وشق الصدر الشريف، وأورد فصلاً كاملاً آخر الكتاب ذكر فيه عدداً من المعجزات أثبتها بلا تأويل ولا تعطيل.

ومنها رده للكذب الصريح الذي أورده من لا خلاق له من أن النبي ﷺ رأى زينب لما كشفت الريح الستر فألقيت محبتها في قلبه، وكانت عند زيد بن حارثة رضي الله عنه فردَّ المصنف ذلك الكذب ردّاً حسناً[٢].

---

(١) ص: ١٦٥.

(٢) ص ١٩٢ ـ ١٩٣.



وختاماً أقول:

إن الكتاب ـ في الجملة ـ حسن الوضع، سلس العبارة، وجيز المباحث، ويعدّ ـ في الجملة ـ فاتحة الكتب التي كتبها المؤرخون المحْدَثون في السيرة النبوية الشريفة المطهرة، وفيه نوع تجديد في عرض السيرة تجلًى في مزجها بالعبر والعظات والوقوف عند ما يحسن الوقوف عليه، والتعليق الجيد عليه.

ملحظ:

قام الشيخ محمد العربي بن التباني الجزائري[1] بتصنيف كتاب سماه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» حذًّر فيه من أقوال للشيخ الخضري في بعض محاضرات له عن تأويل معجزة الطير الأبابيل، وأنه لم يذكر قصة عداس مع النبي ﷺ، وأنه لم يورد قصة سراقة بن مالك مع النبي ﷺ في الهجرة، وأنه أنكر كون الملائكة أجساماً، وأنه تبع في بعض ذلك الأستاذ محمد عبده[2] رحمه الله، وأنه رجح أن الإسراء كان مناماً لا يقظة،

---

(١) هو الشيخ العربي بن التباني بن الحسين بن عبدالرحمٰن بن يحيى السطيفي الجزائري المكي، المدرس بالحرم الشريف ولد بقرية رأس الواد من أعمال سطيف بالجزائر سنة ١٣١٥، تلقى تعليمه الأولي في قريته، وبعد ذلك رحل إلى تونس ثم المدينة المنورة، ثم بعد ذلك رحل إلى الشام ثم خرج من دمشق وقصد مكة ومكث بها. توفي رحمه الله في شهر صفر سنة ١٩٧٠/١٣٩٠ بمكة المكرمة.

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال التجديد في الإسلام، ولد في إحدى قرى الغربية بمصر سنة ١٢٦٦، وتعلّم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم بالأزهر ثم تصوّف وتفلسف، وعمل في التعليم وكتب في الصحف، وتولّى تحرير جريدة الوقائع المصرية، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولما احتل الإنكليز مصر ناوأهم فسجن ثم نفي سنة ١٢٩٩ إلى باريس فأنشأ مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى وعاد إلى بيروت فمصر سنة ١٣٠٦ فتولى منصب القضاء ثم جُعل مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧ فاستمر إلى أن توفي رحمه الله بالإسكندرية سنة ١٣٢٣ له عدة مصنفات، وهناك كلام مطول في نقض بعض أعماله وتصرفاته، الله أعلم بما ثبت من ذلك. وانظر «الأعلام»: ٢٥٢/٦ ـ ٢٥٣.

وغير ذلك، فليُعلم أني لم أر من ذلك شيئاً في كتابه «نور اليقين» بل أورده على الجادة المعروفة من العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ فلعله رجع عما كتبه في «نور اليقين» وسطر في محاضراته المطبوعة خلاف ما ذكره في «نور اليقين»، لأني رأيت في بعض التصانيف التي ذكرت سيرته أنه لما انتقل من المنصورة إلى القاهرة تأثر بجماعة من العقلانيين العصريين منكري المعجزات أو مؤوليها فتغير حاله واختلف أمره، فالله أعلم بما قد كان من ذلك، وأنا إنما أوردت ما اطلعت عليه في كتابه «نور اليقين»، وقد ذكرت هذا الملحظ تنبيهاً للقراء، والله المستعان.



محمد ﷺ المثل الكامل

الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك[1]

قد صنَّف المؤلف رحمه الله كتابه هذا على وجه فريد بين الكتب، ولعل له قصب السبق بين المؤرخين في هذه الطريقة من التصنيف؛ فقد جاءت أبواب كتابه على النحو التالي الذي يبيِّن أوليته وسبقه في تقسيمه هذا الذي ذهب إليه:

الباب الأول: إلى محمد ﷺ تُرد الفضائل جميعها:

وضمَّنَه فضائل النبي ﷺ الذاتية ومولده وشرف نسبه، وحسن نشأته، وطريقته الجميلة في التعامل مع أصحابه وغيرهم.

الباب الثاني: محمد ﷺ بين الرسل.

الباب الثالث: الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت بعثة محمد ﷺ.

وضمنه حال الأمم الأخرى في الجاهلية وحال العرب قبل البعثة.

الباب الرابع: مراحل حصول النبوة واستقرارها.

الباب الخامس: الأدلة القاطعة على صدق نبوته ﷺ.

---

(١) محمد أحمد جاد المولى: باحث مصري ولد سنة ١٣٠٠/١٨٨٣م وابتدأ حياته مدرِّساً، وانتدب لتدريس العربية في جامعة أكسفورد سنة ١٩١٠ ـ ١٩١٣، وعاد فعين مفتشاً بوزارة المعارف، فمراقباً للمجمع اللغوي، فمفتشاً أول بالوزارة. ومرض يومين، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٦٣/١٩٤٤. من كتبه «محمد ﷺ المثل الكامل» و«الخلق الكامل» و«انشقاق القمر معجزة لسيد البشر» و«إنصاف عثمان رضي الله عنه» و« دستور الأفراد والأمم، في سنن سيد العرب والعجم» هُيء للطبع. وله مشاركة في تأليف كتب منها «قصص القرآن»و «مهذب رحلة ابن بطوطة» و«قصص العرب» أربعة أجزاء، و«أيام العرب في الجاهلية». انظر «الأعلام»: ٢٣/٦.

وضمنه معجزات النبي ﷺ وفضائله الدالة على صدقه، ومن محاسن صنيعه أنه قسم الدلائل إلى عقلية ونقلية فأجاد ووفى.

الباب السادس: محمد ﷺ أكبر المصلحين نجاحاً.

وضمنه المعاهدات، واستقبال الوفود، ومراسلاته للملوك، ونجاحه في حروبه ﷺ.

الباب السابع: محمد ﷺ أوفى الأنبياء ديناً.

وضمنه مزايا دين الإسلام العظيم، وأسباب تعدد زوجاته ـ رضي الله تعالى عنهن ـ والرق في الإسلام وفي الأمم الأخرى، وأورد فيه جملة من مقاصد الإسلام عظيمة جليلة على وجه حسن رائع.

الباب الثامن: محمد ﷺ أشرف الخلق.

الباب التاسع: محمد ﷺ أجدر الناس بالإيمان به ومحبته واتباعه وطاعته.

الباب العاشر: موجز السيرة النبوية

وسرد فيه السيرة بإيجاز شديد.

فكتابه هذا على هذا التقسيم أشبه بكتب الشمائل منه بكتب السير لولا الباب العاشر الذي أودعه موجزاً للسيرة النبوية، ولولا ما بثَّه في ثنايا كتابه من أخبار السيرة.

ومن مزايا كتاب الأستاذ ما يلي:

١ ـ حُسن العرض وجمال العبارة:

الكتاب بديع التقسيم، حسن العرض للمادة، عبارة المصنف فيه عبارة أدبية سليمة ورصينة، وجزلة فخمة، وللدلالة على ذلك أسوق بعض قوله في المقدمة إذ قال:

«ولما كانت سيرة محمد ﷺ من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتاً لا مرية فيه فجميع أعماله مدونة، وأحاديثه مسطورة شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر في معاشهم ومعادهم، وكانت حياته ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بإنهاض بني الإنسان وتثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم وإصلاح شؤونهم كان هو المثل الكامل.

ولا غرو فهو خير البرية طفلاً، وأنجبها كهلاً، أطهر المطهرين شيمة، وأمطر المستَمطرين دِيمة[1]، وهو خير أسوة: للفرد في قبيلته، والزوج مع زوجه، والأب مع ولده، والمربي مع تلميذه، والواعظ مع مستمعيه، والجندي في حومة الوغى، والقائد في تدبيره، والمتشرع في أحكام شريعته، والقاضي في قضائه، والسياسي في حكومته، والملك في رعيته، والمسالم لأوليائه، والمحارب لأعدائه، والعابد في محرابه، والزاهد في قناعته.

كل أولئك يحدون من حياته العملية مُثُلاً يحتذونها، وروحاً يقوون بها على مزاولة أعمالهم، وإماماً يسيرون عليه في تحقيق مآربهم، ومرداً يرجعون إليه عند حيرتهم، وإن اختلفت مشاربهم وتباينت ألوانهم.

واللهَ أسألُ أن يهدي الناس إلى اتِّباع سُنته السَّنَيَّة، واقتفاء سيرته الزكية، والاقتداء به في أخلاقه وأفعاله، والتأسي به في حربه وسلمه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه والعمل بدينه، فهو عز لا تُهزم أنصاره، وحق لا تُخذل أعوانه، وسلْم لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وبرهان لمن تكلم به، وشاهد لمن خاصم به، وآية لمن توسم، وجُنّة لمن استلأم[2]، وعِلْم لمن وعى، وحديث لمن روى، وحُكْم لمن قضى»[3].

---

(١) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون، والجمع دِيَم. «المعجم الوسيط»: ديم. ولعل المعنى: أحسن المطلوبين عطاءً.

(٢) الجُنة: الوقاية، واستلأم: طلب اللأمة وهي الدرع، «المعجم الوسيط»: ل أ م.

(٣) المقدمة.

وسائر الكتاب على هذا الوجه من قوة العبارة وجمالها مع جزالتها ورصانتها، وقد أورد السجع في كلامه لكنه كان سلساً غير متكلف، جميل الوقع، لطيف السبك، حلو التسلسل.

٢ ـ **تفسيره للكلمات الغريبة الواردة في الأحاديث والآثار:** كان المصنف رحمه الله يفسر غريب ما يورده من كلمات أثرية ومصطلحات في الهامش لكن بدون ذكر مصدر للشرح ولا مرجع للبيان، ولعل سبب ذلك أنه كان يفسر من عنده؛ إذ قد بلغ شأواً من اللغة والأدب، وحَصّل طرفاً من البلاغة يُمَكّنه ـ عندي ـ من ذلك، والله تعالى أعلم.

٣ ـ **أكثر المصنف رحمه الله من إيراد الآيات الشريفة المنيفة في كتابه**، وهذه مزية عظيمة؛ إذ إن أحسن مصادر السيرة وأصحها وأدقها وأجملها إيراداً هو كتاب الله تعالى.

٤ ـ **أورد كلام منصفي المستشرقين أو الذين أنصفوا النبي ﷺ في بعض كلامهم**، فمن ذلك: «قال الأستاذ موير[١] في كتابه «ترجمة محمد» عليه السلام:

إن النصرانية في القرن السابع للميلاد قد أصبحت فاسدة مشوهة، وقال جيبون[٢]: إن النصرانية في القرن السابع للميلاد قد استحالت وثنية، فقد أصبحت الوجوه تُولّى شطر الأصنام والأنصاب التي حلت محل الهياكل والمعابد، وأخذ مكانَ عرش الله وعظمته الشهداء والقديسون، ونسب الضالون المضلون صفات الله إلى السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول، وحارت الأفهام في معنى التثليث والاتحاد والحلول، وعموا عن التوحيد.

---

(١) هو مستشرق اسكتلندي. ولد في جلاسجو سنة ١٨١٩. وتوفي في نيبال سنة ١٩٠٥. أدار جامعة أدنبره في اسكتلندا. «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

(٢) إدوارد جيبون. ولد سنة ١٧٣٧مؤرخ إنجليزي، صاحب كتاب (تاريخ أفول وسقوط الدولة الرومانية) الذي يعد من أهم وأعظم المراجع في موضوعه. توفي سنة ١٧٩٤. «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

واضطربت الأحـــوال الاجتماعية والخلقية في العالـــم اضطراباً لم يُعهد له مثيل، إذ إن أهل الأديان لـم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة بل انقلبت الرذيلة فضيلة أقبل عليها الناس تقرُّباً إلى الله، تنزه عما كانوا يفعلون.

انحطت جميع الأمم إلى مهاوي الرذيلـة، وأتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات مـا يندى له الجبيـن، حقّاً إن الله قد أرسـل كثيراً من الرسـل قبل محمد ﷺ وإن ظهورهم كان حاجة ماسة، غير أن العصور التي بُعثوا فيها واحداً من بعد الآخر لم تبلغ من الظُّلمة ما بلغه العصر الذي أرسل فيه النبي العربي، وكلهم قد لاقى شـدائد وأهوالاً، بَيْـدَ أن محمداً قد لقي مـن صنوف الإيذاء والشـدائد ما لم يلقه أحد من إخوانه، واضطلع بأعظم الأعبـاء، واحتمل أكبر المسؤوليات[1]...

ومن ذلك قوله:

«قال سير وليم موير في كتابه «سيرة محمد ﷺ»:

امتاز محمد ﷺ بوضوح كلامه، ويُسْر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يُدهش الألباب، فلم يشـهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد ﷺ»[2].

ومن ذلك قوله في النبي ﷺ:

«هذب الأمة العربيـة التي ضُرب بها المثل في الجهل قبل الإسـلام حتى أصبحت منار العلم والعرفان للعالم، وفي ذلك يقـول كارليل[3]: قوم يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عـدة قرون، فلما جاءهم النبـي العربي أصبحوا قبلة

---

(١) ص ٦٤ وما بعدها

(٢) ص ١٠١.

(٣) توماس كارليل. كاتب اسكتلندي وناقد ومؤرخ. ولد سنة ١٧٩٥. وتوفي سنة ١٨٨١ في لندن. وله آراء جليلة في نبينا محمد ﷺ: «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزُّوا بعد الذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم»[١].

٥ ـ أورد الدلائل العقلية ولم يجعلها تهيمن على النصوص الشرعية:

جمع المصنف ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة ـ بين إيراد الدلائل العقلية، وبين الدلائل النصية الأثرية على وجه محكم، فلم يجعل في جمعه هذا الدلائل العقلية مهيمنة على الدلائل النصية كما فعل كثير من أقرانه ومن سبقوه؛ فقد عاش في عصر تحكم فيه كثير من العقلانيين العصرانيين بمقاليد كثير من الأمور، وألَّفوا كثيراً من الكتب وأوردوا فيها تأويلات للمعجزات بتمحّل وتكلف ممقوتين، وذكروا في كتبهم تلك تكلفات عقلية زعموا أنها تؤيد ما ذهبوا إليه، لكن المصنف رحمه الله بريء من هذا العمل الخاطئ والفعل القاصر، وأورد النصوص الشرعية بقوة وثبات، ولم يعطلها بدعوة تأويل باطل أو خَوَر أمام ما قعّده المستشرقون بفكرهم القاصر، وفعل المصنف ذلك في حديثه في المعجزات النبوية، وفي تعدد الزوجات، والحجاب، والميراث وتولي المرأة الحكم، وشهادة المرأة إلى آخر ما أورده في الفصل السابع من كتابه.

وكذلك كلامه في الجهاد كلام حسن جميل لا تخاذل فيه ولا ضعف، ولا خوف من مخالفة ما قَعّده بعض العلماء ـ غفر الله لهم ـ أنه لا جهاد إلا جهاد الدفع فقط.[٢]، وغضوا الطرف عن وقائع كثيرة جدّاً في جهاد الطلب في الصدر الأول زمن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم.

٦ ـ إيراد القواعد والضوابط العلمية، والأخبار المعرفية والثقافية:

أكثر المصنف رحمه الله في كتابه هذا من إيراد قواعد العلوم المختلفة، وضوابطها، وأورد أخباراً كثيرة معرفية وثقافية، ومزجها مزجاً حسناً بأخبار

---

(١) ص ١٠٣.

(٢) انظر ص ٢٣٣.

الســيرة، وكان إيراده لما أورده بدون تكلف ولا ارتكاب شطط، والدلائل على ذلك كثيرة مبثوثة في أكثر فصول كتابه، وهذا أكســب كتابه تشويقاً، وزاده قوة، وأضاف حُسْـناً إلى ما فيه من حســن عرض وإشــراق بيان، وجميل معارف، وحُسن أخبار في العلوم والفنون.

٧ ـ لغة العاطفة والحماسة:

كتب المصنف رحمه الله كتابه بلغة العاطفة الجليلة الجميلة التي لا تخطئها العين في ثنايــا كتابه، وكان فيما كتبه حماســياً مندفعاً فــي حبه للنبي ﷺ أحســن الاندفاع، وصدر في ذلك كله عن إيمان وإخلاص، نحســبه كذلك والله حسيبه.

ولم يكتف بتلك العاطفة حتى مزجها بنور النصوص وضوابط العقل فجاء كتابه جامعاً لكل تلك الثلاثة على وجه لم أعلم أنه حصل لغيره قبله ولا بعده، ولعل محسناً خَيّراً من محسني المسلمين يعمد إلى كتابه هذا فيصلح ما به من بعض النقائص مما سأذكره ـ وهو قليل ـ ويعيد طبعه ليعرِّفَ المسلمين به؛ فقد جهله أكثر أهل العصر وانقطع ذكره، فيما أعلم، والله أعلم.

ومن نقائص كتاب الأستاذ ما يلي:

١ ـ إيراد الأحاديث الضعيفة.

٢ ـ إيراد الأحاديث بدون تخريج ولا تحقيق، لكنــه يوردها على الجادة بدون تصرف في ألفاظها وهي في أكثرها صحيحة مشهورة.

٣ ـ لم يــورد أيَّ مصدر لمــا أورده مــن أحداث الســيرة، ومــن الواضح أن المصنف رحمه الله قد اطلع على عدد من كتب الســير ونقل منها لكن لا أدري ما الذي دعاه إلى ترك ذكر المصادر والمراجع تركاً كليّاً، والله أعلم.

لكنه لما أتى إلى أقوال المستشرقين نسبها إلى كتبهم نسبة واضحة.

٤ ـ قوله: إن فاطمة رضي الله عنها قامت بنصيب وافر في الدعوى إلى إسناد الخلافة إلى علي رضي الله عنه[١] وهذا غير صحيح ألبتة فلم يأت بهذا نقل صحيح.

٥ ـ قوله ناقلاً عن محي الدين بن عربي[٢] مقرراً له وموافقاً:

«وإلى ذلك يشير الشيخ الأكبر محي الدين إذ يقول: إن محمداً ﷺ هو الذي أعطي جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح حتى ظهر بجسمه ﷺ»[٣].

وهذا الكلام لا يساعده نقل صحيح، وقواعد الإسلام العقدية تأباه ولا ترضاه.

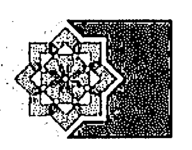
هذه بعض نقائص الكتاب، ولا تؤثر ـ عندي ـ إلا قليلاً في روعة الكتاب وجلاله وجماله، وأتمنى أن يعاد طبعه بملاحظة ما ذكرت من النقائص السابقة، وتُعرّف الأجيال به لأنه ـ عندي ـ من أحسن كتب السيرة وأجلّها مع إيجاز وحسن بيان.

---

(١) ص ١٨٨.

(٢) هو محيي الدين أبوبكر محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسي العربي، نزيل دمشق. سكن الروم مدة، وكان ذكياً كثير العلم، وكتب لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهد وتفرد، وعمل الخلوات وكتب شيئاً كثيراً في التصوف على طريقة أهل الاتحاد، وقد عظمه جماعة وذمه كثيرون. توفي سنة ٦٣٨ وله كتب كثيرة منها كتاب «فصوص الحِكم» فيه نصوص لا يتأول لها، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٨/٢٣ ـ ٤٩.

(٣) ص ٢٤٧.



موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية

الدكتور أحمد شلبي[1]

هو أســتاذ مصري معروف، له عدة كتب، وموسوعة في التاريخ الإسلامي، سماها «موســوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإســلامية»، في عشرة أجزاء، والحقّ أن الرجل باحث مجتهد، وله أعمال جيدة وكتابات موفقة، إلا أن الكثير مما أتى به من التاريخ الإســلامي كان مفتقراً فيه إلى موازينَ شرعية صحيحة، فقد اعترض على بعض ما ورد في الصحيحيــن وغيرهما مراراً ورآه ضعيفاً بل موضوعــاً!! واعترض علــى أحداث مهمة جــرت في ســيرة النبي الأعظم ﷺ فأنكرها دون مسوغ إلا أنها تخالف ما رآه بعقله، واتهم بعض كبار الصحابة ﵃ جميعاً ـ باتهامات صعبة.

وليس من غرض هذا البحث أن يبحث في كل ما أورده الرجل في التاريخ الإسلامي، لكن حسبي أن أورد شيئاً مما صنعه في مقدمة موسوعته فيما يخص السيرة النبوية الشريفة المطهرة، وألحظ الآتي من صنيعه:

١ ـ كان جلُّ اعتماده علــى كتب التاريــخ، وفيها المدخــول والضعيف وفيها الحسن، أما كتب الأحاديث الشريفة والصحاح المنيفة فلم يعتمد عليها فيما

---

(١) أحمد جاب الله شــلبي. ولد في الشــرقية بمصر ســنة ١٩١٥/١٣٣٣. ودرس في المعاهد الأزهرية، وتخــرج في دار العلــوم بالقاهرة ســنة ١٩٤٥/١٣٦٥، وحصل على الماجســتير مــن جامعة لندن والدكتــوراه من جامعة كامبردج فــي بريطانيا، وعمل مدرســاً بدار العلوم بجامعــة القاهرة، ومديراً للمركز الثقافي المصري بأندونيسيا سنة ١٩٥٥/١٣٧٥ لمدة ست سنوات، ودرّس بجامعات باكستان وماليزيا وأندونيســيا، وعُين عضواً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وبالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً في اليونســكو، وله عدة كتب ومقــالات وأحاديث في الإذاعة والتلفــاز، وحصل على عدة أوسمة من عدة دول. توفي سنة ٢٠٠٠/١٤٢١ ﵀. المرجع: «مفتاح المعرفة»: شبكة «الإنترنت».



رأيت، فكان من نتائج ذلك أنه أورد قدراً غير قليل من الأحداث الضعيفة والموضوعة.

والعجيب أنه ذكر أنه في الطبعة العاشرة عالج ذلك الأمر فاغترف من كتب الأحاديث وغيَّر كتابه تبعاً لذلك الاغتراف، لكني لم أجد ذلك واضحاً في كتابه إلا في مواضعَ قليلة[١].

٢ ـ كان كثير التجريد لاسم النبي الأعظم ﷺ فلا يصلي عليه!! بل يقول: محمد، والرسول في معظم ما يورده في كتابه من ذكر للنبي الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ وهذا عجيب من مثله؛ فقد درس في المعاهد الأزهرية ثم في دار العلوم، لكن يبدو أن صنيع المستشرقين قد غلب عليه فقلَّدهم.

٣ ـ تفادى ذكر أحداث مهمة في مدة بقاء النبي محمد ﷺ في ديار حليمة السعدية مثل حادثة شق الصدر الشريف، فاكتفى بالقول الآتي:

«ثم حدثت أحداث غير عادية فيها يُمن وبركة للرسول ـ صلوات الله عليه ـ خلال إقامته في بني سعد مما جعل حليمة تخاف عليه فردته إلى أهله، إشفاقاً منها عليه»[٢]. فهل صنع ذلك إيجازاً أم جرياً على عادة المستشرقين في إنكار مثل تلك الحوادث؟، الله أعلم بسبب ذلك، لكني أميل إلى السبب الآخر لما رأيته من صنيعه وما سأذكره بعد ذلك؛ إن شاء الله تعالى.

٤ ـ فهم الدكتور ـ غفر الله له ـ أن إيراد المؤرخين للغزوات النبوية الشريفة صورت أن «حياة الرسول كانت حروباً متصلة، وكأن الإسلام دين دماء، وذلك ما يخالف الواقع» ثم ذهب إلى رأي غريب يبين به السبب لذلك الصنيع المدخول في رأيه[٣].

---

(١) «موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية»: ٢٠٩/١.

(٢) «موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية»:١٩١/١.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٥/١



٥ ـ ذكر سبعة أسباب لمقاومة قريش لدعوته ﷺ لكنه لم يذكر السبب العقدي ـ وهو أهم الأسباب ـ وأنه المحرك الحقيقي لقريش لرد دعوة النبي ﷺ، وقد رفضوا الإسلام لتمسكهم بأصنامهم تمسكاً عقدياً لا لأنهم كانوا يبيعونها فيحرصون على ثمنها كما ذكر الدكتور!! ولا لغير ذلك من الأسباب التي ذكرها[1].

٦ ـ كان الدكتور يغير بعض الألفاظ في الأحداث الواردة في السيرة، ويرويها بالمعنى أحياناً، ولا بأس بذلك إلا أنه صاحب ذلك التغيير أحياناً شك في السبب، ومثالاً على ذلك أورد قصة أبي جهل ومطله رجلاً باعه إبلاً، فاستشفع الرجل بالرسول ﷺ فذهب معه وأمر أبا جهل بإيفاء الرجل حقه ففعل، فلما لامت قريش أبا جهل ذكر لهم التالي فيما نقله ثقات أهل السِيَر: «ويحكم: والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قَصْرته ولا أنيابه الفحال قط، والله لو أبيت لأكلني»[2].

لكن الدكتور ذكر الآتي:

«لما خرجت إليه وجدت كأنه فوق رأسه قوة هائلة أرعبتني»[3].

ولا أدري لماذا هذا التحريف: أهو مراعاة للمستشرقين ومن لفَّ لفهم في إنكار مثل هذه الأمور أم هو مجاراة لصنيع محكمي العقل في النصوص، أم هو لغير ذلك؟!

٧ ـ أورد حادثة الإسراء والمعراج، وقد تخبط الدكتور فيها كثيراً، وأفرد لها صفحات كثيرة[4] لكنه ملأها بعجائب وغرائب، وردّ فيها الروايات

(١) المصدر السابق: ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٢) «سيرة ابن هشام»: ٢/٢٧ ـ ٢٨.
(٣) «موسوعة التاريخ»: ١/٢٣٤
(٤) المصدر السابق: ١/٢٣٩ ـ ٢٦٣.

الصحيحة بتحكم عقلي غريب قواه ببعض النقولات عن أئمة ومشايخ من القدماء والمعاصرين لا تؤيد ما ذهب إليه أبداً لكنه نوع من الاعتساف وليّ عنق النصوص، غفر الله له، وكان مما أورده الآتي:

أ ـ إنكاره لركوب النبي ﷺ البُراقَ ليلة الإسراء والمعراج، وجاء في ذلك بتعليلات واهية، وأنكر تبعاً لذلك ما اتصل بركوب البراق من أحداث وردت في الأحاديث الصحيحة والحسنة.

ب ـ وأنكر صلاة النبي ﷺ إماماً بالأنبياء في بيت المقدس، وبنى دعواه تلك على أمور عقلية بناها على أوهام ظنها شرعية كقوله: «لا عبادة بعد الموت»، مع أن صلاة النبي ﷺ بالأنبياء في بيت المقدس قد وردت في الأحاديث الصحيحة.

ج ـ وأنكر وجود الأنبياء في السمٰوات العلى على الترتيب المذكور في الأحاديث في الصحيحين وغيرهما وبنى ذلك على تُرّهات عقلية.

د ـ وأنكر مراجعة نبيّ الله موسى ﷺ نبيّنا محمداً ﷺ في أعداد الصلوات الثابتة في الصحيحين وغيرهما من كتب السُّنَّة بل زعم أن ذلك من الإسرائيليات!! وذكر في ذلك عجائب وغرائب.

هـ ـ وأنكر المصنف استفتاح جبريل لأبواب السمٰوات مع النبي ﷺ، وقد ورد ذلك في الصحيحين وغيرهما، وأرجع ذلك ـ كعادته ـ إلى حكم عقلي مجرد من الشرع والمنطق الصحيح، والداهية الدهياء أنه ذكر أن الحديث الوارد فيه الاستفتاح موضوع!!.

و ـ ذكر أن في الصحيحين أحاديث موضوعة!!![1].

وأعاد ذكر ما كتبه في موسوعته في كتيب آخر ألّفه في الإسراء والمعراج فقط، وهو الجزء الثالث من مائة جزء سماها «المكتبة الإسلامية المصورة لكل

---

(١) المصدر السابق: ٣٦.



الأعمار» نشــرتها مكتبة النهضة بالقاهرة، وفي كتابه «الموسوعة» وهذا الكتيب جملة من الأخطاء الكبيرة التي نشــأت عن منهج خاطئ فــي التلقي والبحث، وقد زعم أنــه إنما أورد ما أورد ليزيل ما علق بالإســراء والمعراج من خرافات وأوهام فإذا به ينكر وقائع صحيحة في السيرة بدون مسوّغ علمي.

ثم ختم الدكتور كلامه في كتيّبه بقوله:

«أيها المســلم: لم يعد هناك مجال للشــطحات والخرافــات التي تقلل من جلال هذا الحدث العظيم، وقد سجلت لك أدق الآراء»[1].؟!

والحق أن الذي أورده لا يليق بجلال الحدث العظيم، وأن الذي اســتبعده ورآه من الخرافات، هو ما ثبت في السُّــنَّة المطهرة المشرفة، وهو ما كان يجب إيراده وعدم استبعاده بما صنعه من نظر عقلي مجرد.

٨ ـ لمــا ذكر معجــزات النبي ﷺ ســوى القرآن العظيــم تخبط فيها فســماها مكرمات، ولم يرتض أن يسميها معجزات، لأنه يرى أن النبي ﷺ لم يتحد بها، ولكنه نســي أن طائفة من تلــك المعجزات قد تحــدّى بها النبي ﷺ وطائفة أخرى كان التحدي بها حُكماً بمعنى أنه يكفى ورود المعجزة على يد النبي ﷺ للتحدي بهــا ولو لم يقل النبي ﷺ للناس أنا أتحداكم أن تأتوا بمثلها[2]. وعلى هذا فقد أنكر كل معجزة للنبي ﷺ ســوى القرآن، وإن كان لم يذهب إلــى الإنكار التّام لما ســوى معجزة القــرآن ـ كما صنع بعض معاصريه ـ إنما سماها بغير اسمها وخفف بذلك من أثرها المهم في الدعوة إلى الله تعالى، وخالف جمهور المسلمين قديماً وحديثاً.[3]

---

(١) انظر كتاب «السراج الوهاج لمحو أباطيل الشلبي عن الإسراء والمعراج» حمود التويجري.

(٢) «موســوعة التاريخ» : ٤٢٤/١ ـ ٤٢٩. وانظر «الإرشــاد» للجوينــي:٢٦٥، و«اليواقيت والجواهر»: للشعراني:١٥٧، «وتحفة المريد» للبيجوري ٩١.

(٣) انظر المصدر السابق: ٤٢٤/١ ـ ٤٢٩.

من مزايا كتاب أحمد شلبي:

١ ـ الإيجاز النسبي الذي أورد به أحداث السيرة.

٢ ـ الدروس والعظات التي أوردها في أثناء بعض الحوادث، ومن أهم ذلك دروس الهجرة النبوية الشريفة المنيفة[١].

٣ ـ الترجيح في بعض الأحيان بين بعض الأحداث الواردة اعتماداً على طريقة عقلية منضبطة أو نقلاً من أئمة كبار كابن القيم رحمه الله[٢].

٤ ـ ربط المصنف بين أحداث السيرة وبعض جوانب الحياة المعاصرة ربطاً جيّداً كما صنع في ذكر بناء المساجد الأولى في الإسلام وربط بينه وبين أوضاع المساجد في زماننا هذا[٣].

٥ ـ حسن تقسيم الكتاب:

أتى المصنف في كتابه هذا بتقسيم حسن أورد فيه جوانب السيرة الشريفة على غير مثال سابق، فقد جاء في الكتاب أقسام مُحدثة لم تُعهد في كتب السير، وذلك على النحو التالي:

١ ـ التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام.

٢ ـ الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

٣ ـ الرسول يبني المساجد للعبادة والدعوة.

٤ ـ الرسول الداعية.

---

(١) «موسوعة التاريخ»: ١/٢٧٥ ـ ٢٧٧.

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي رحمه الله سنة ٧٥١ بدمشق. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/٢١ ـ ٢٣.

(٣) المصدر السابق: ١/٢٩٠ ـ ٢٩١.



٥ ـ الرسول في بيته.

٦ ـ الرسول يربّي الفرد المسلم.

٧ ـ الرسول يربي المجتمع الإسلامي.

٨ ـ الرسول والقضاة.

٩ ـ الرسول والشباب.

١٠ ـ الرسول والمنافقون.

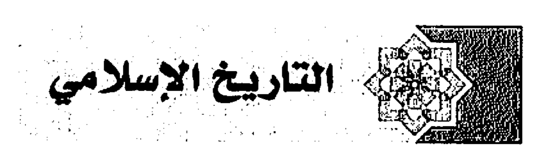
١١ ـ الرسول والنصارى.

١٢ ـ اليهود والمسلمون.

١٣ ـ الإسلام والقتال.

١٤ ـ الدعوة الإسلامية وفلسفتها.

وبالمقارنة بيـن المزايا والنقائص أرى أنه يجـب التحذير من كتابه، وعدم نشره بين العوام، واسـتبعاده من الكتب التي تُعد من المراجع المقبولة للسيرة، والله أعلم.



التاريخ الإسلامي

للأستاذ: محمود شاكر[1]

مؤرخ معاصر شامي، له كتب كثيرة في التاريخ والجغرافيا، وقد بذل جهداً كبيراً في كتابة تاريخ الإسـلام منذ النشـأة الأولى إلى يومنا هذا، وله في ذلك قرابة ١٨٠ كتاباً.

والذي أريد بحثه ها هنا هو منهجه في كتابة السيرة المطهرة المشرفة التي خصّ بها القسـم الثاني من موسـوعته «التاريخ الإسـلامي»، وقبـل أن أذكر تفاصيل منهجه فيها فإني أورد ما ذكره في المقدمة مما يشـير إلى طريقة بحثه وكتابته، فقد قال:

«حرصت على إعطاء الصفة العامة للسـيرة من خلال مـا يتراءى لي، وقد أوفق في بعض الجوانب، وقد يجانبني التوفيق في جهات أخرى، وكنت أحرص على قراءة بعض الخُطا الحركية في سيرة رسول الله ﷺ لتكون نبراساً لنا، ودافعاً حركياً لمن يبغي الحركة والدعوة... كما أني لـم أكن حريصاً على ذكر الوقائع حسـب تسلسـلها بغضِّ النظر عن تاريخها الزمني، وإن كان هذا لم يحدث إلا خلال عدد قليل من الحوادث، ولم يتأخر كثيراً عن زمنها...»[2].

---

(١) محمود شـاكر بن شاكر. ولد في حرستا شـمال شرق دمشق سـنة ١٩٣٢/١٣٥١. درس في قسم الجغرافيا بجامعة دمشق. ودرّس في عدة مدارس، انتقل إلى المملكة السعودية سنة ١٩٧٢/١٣٩٢ ودرّس فـي جامعة الإمام في الرياض الجغرافيا والتاريخ الإسـلامي، وشـارك فـي وضع مناهج المادتين، وأشرف على رسائل دكتوراه وماجستير، وله قرابة مائتي مصنف في التاريخ والجغرافيا. وما زال حيّاً يُرزق حفظه الله. الترجمة منقولة من الشبكة العنكبوتية.

(٢) «التاريخ الإسلامي»: ٥.
والكلام فيه نوع اضطراب لكنه مفهوم.



مزايا كتابه:

أولاً: العرض المبتكر لأحداث السيرة:

عرض المصنف أحداث السيرة على وجه لم يُسبق إليه ـ فيما أعلم ـ فقد قسم كتابه إلى أربعة أبواب، سمى الباب الأول «الرسالة» ضمَّنه فصلاً واحداً سماه «طبيعة الرسالة».

وسمى الباب الثاني «نشأة محمد ﷺ» ذكر فيه حياة النبي ﷺ إلى بعثته الشريفة المنيفة.

وسمى الباب الثالث: «الدعوة في مكة المكرمة» وذكر فيها تفصيلات حياة النبي ﷺ الشريفة المنيفة إلى استقراره في المدينة النبوية المنورة.

وسمى الباب الرابع: «الدعوة في المدينة المنورة» وأتى فيه على تفاصيل حياة النبي ﷺ في المدينة النبوية المنورة إلى لقائه الرفيق الأعلى جل جلاله.

وفي كل باب أتى بعناوين للفصول مناسبة للمضمون، فمن ذلك: الباب الثاني ذكر فيه الفصول التالية: عهد الطفولة، مرحلة الشباب وقسمه إلى قسمين: الحياة العامة، والحياة الخاصة، وفي الحياة العامة ذكر الآتي: حروب الِفجار، حلف الفضول، بناء البيت، وذكر في الحياة الخاصة: كسب الرزق، السمر، الزواج، الخلوة، ثم في الفصل الثالث ذكر البعثة النبوية الشريفة.

وأتى في الباب الثالث بعناوينَ جديدة مثل: المجتمع الجاهلي ونظرة المسلمين للجاهلية، وأتى بعنوان: المجتمع الإسلامي، ذكر فيه: الأخوة، الشعور، التعاون، الطاعة، التضحية، الموقع، النظرة الصحيحة، الحماية، تنقية الصف، إلخ...

وفي الباب الرابع أتى بفصل أول سماه «تأسيس الدولة» أتى فيه بالمؤاخاة والموادعة والأعداء في الداخل: اليهود، المنافقون، أصحاب المصالح، الأعداء خارج المدينة وسرد تحته الغزوات.

فهذا عرض مبتكر لأحداث السيرة لا أعلم أحداً سبقه إليه، والله أعلم، وقد مكَّنه هذا الوجه في عرض السيرة من مزج الأحداث التاريخية بالعبر والعظات وإبراز الأخلاق الإسلامية.

ثانياً: الجمع بين البسط والإيجاز:

عمد المصنف إلى الأحداث الكبيرة في السيرة مثل بدر وأحد فبسط الحديث عنها بسطاً مناسباً، وعمد إلى الأحداث الأقل أهمية فعرضها على وجه من الإيجاز ليس بعده إلَّا الإخلال، كما صنع في ذكر غزوة بني أسد على سبيل المثال[1]، وهذا منهج مناسب يؤدي إلى تقليل حجم الكتاب حتى يُقرأ، وهذا مهم في هذا الزمن الذي انصرف فيه الناس عن القراءة إلا قليلاً منهم.

ثالثاً: ذكر الأمور الخلافية بإيجاز:

من منهج المصنف أنه يذكر الأمور الخلافية بإيجاز، فلما جاء على ذكر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وأولاد النبي ﷺ منها جمع بين الأقوال في عدد أبنائه منها[2].

ولما أتى إلى ذكر الزواج بعائشة رضي الله عنها ذكر الخلاف في سنِّها لما تزوجت، وقد استنبط ذلك ولم يأت به صريحاً من مصدر محدد[3].

ولما ذكر زواجه بالكلبية ذكر الخلاف في زواجه منها ومن غيرها من بني كلاب[4].

---

(١) «التاريخ الإسلامي»: ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق: ٣٤٠، ٣٥٢.
(٣) المصدر السابق: ٣٤١.
(٤) المصدر السابق: ٣٤٦.



ولما ذكر غزوة بدر وذكر نزول الملائكة فيها علّق على ذلك في الهامش قائلاً: «اختلفت آراء العلماء حول مباشرة الملائكة للقتال، ويبدو ـ والله أعلم ـ من آيات سورة الأنفال أنهم قاتلوا»[1]

رابعاً: ذِكر الأحداث الموثقة فقط والبعد عن المفتراة الموضوعة:

وهذا منهج سار عليه المصنف في ذكر أحداث السيرة، فقد ذكر منها ما هو صحيح ـ عنده ـ وترك ذكر الأكاذيب والمفتريات، فلم يعرِّج عليها، وذلك نحو صنيعه عند ذكر زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ﵂ فلم يعرج على الحادثة المفتراة عن رؤية النبي ﷺ زينب وإعجابه بها قبل زواجه منها.

ولم يذكر حادثة الغرانيق المفتراة.

وهذا منهج حسن؛ إذ ما الفائدة من ذكر ما لم يصح ثم المجاهدة في دفعه ونفيه؟ فالمنهج الأمثل هو غضُّ الطرف عنه تماماً والإعراض عن ذكره إلا إذا اشتهر بين العوام فينبغي ذكره وردّه حينذاك.

خامساً: الإتيان بالآيات الشريفة والأحاديث المنيفة التي تعضد أحداث السيرة:

قد أورد المصنف بعض الآيات الشريفة التي أوردت بعض أحداث السيرة، وكذلك أتى المصنف بأحاديث صحيحة تعضد تلك الأحداث التي أوردها، وهذا يُكسب الكتاب قوة وجودة؛ إذ أصح السيرة ما ورد في كتاب الله تعالى، وإذا أضيف إليها صحيح الأحاديث كان ذلك نوراً على نور[2].

---

(١) المصدر السابق: ١٨٧.

(٢) أما الآيات الشريفة فمبثوثة في كتابه كله، وأما الأحاديث الصحيحة فانظرها ـ مثالًا ـ في ص: ٦٨، ٨٥، ٨٩، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١٩٨.

وإذا أورد أحاديث من غير صحيحي البخاري ومسلم حكم على الحديث بالصحة أو الضعف[١].

سادساً: تحليل الحدث والتعليق عليه:

من مزايا كتاب الأستاذ محمود شاكر أنه يحلل الحدث ويعلق عليه في كثير من الأحيان، كما ذكر في الفصل الثاني المعنون بـ «محاولة القضاء على الدولة الإسلامية الأولى» فقد قال: «أقام رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية الأولى في المدينة بعد هجرته إليها، وكانت هذه الدولة، ولا تزال المثل الأعلى لكل حكومة يقيمها المسلمون في أيِّ عصر، ولكل مجتمع يريد أن يحيا حياة فاضلة كريمة وكان قائدها رسول الله ﷺ المثل الأعلى لكل قائد أو حاكم مسلم، ولكل زعيم يريد لشعبه الخير والسعادة وإنقاذه من الجهالة والظلم والظلمات.

ولهذا ـ وغيره كثير ـ فإن على دعاة الإسلام اليوم أن يوضحوا للناس معالم هذه الدولة وأن يدعوا إلى القيام بدولة مثلها، وهي التي لا يستطيع إنسان مهما أوتي من شجاعة وجرأة وعلم ونفاذ بصيرة أن يضع أقل نقدٍ فيها، أو أن تكون له ملاحظات عليها، إلا من طمس الله على قلبه وبصيرته، وهذا لا نعيره اهتماماً، لأننا إنما ندعو المسلمين وإليهم نتوجه في هذا الأمر، وعلى هؤلاء الدعاة أن يأخذوا المفاهيم التي كانت تسود مجتمع المدينة آنذاك، ويدعوا إليها بتدبر وحكمة ويقظة وبصيرة حتى تعمّ المجتمع الذي نعيش فيه، وتكون مجال بحث ودراسة، حتى إذا تم ذلك الخير، وأضحى الأمل قريباً، وفي أخذ هذه المفاهيم ردّ على ما سواها لما فيها من قوة وبيان.

بنى رسول الله ﷺ المسجد النبوي لتظهر شعائر الإسلام، وترتفع كلمة الحق، فتعطي مظهر المجتمع في عقيدته، كما كان هذا المسجد المكان الذي يتلقى فيه المسلمون أمور دينهم وتوجيهاته، والمنتدى الذي تتآلف فيه العناصر

---

(١) انظر ـ مثالًا ـ ٤٢، ٤٣، ٦١.



القبلية المختلفة التي باعدت بينها النزعات الجاهلية، وتأخذ المفاهيم الإسلامية الواحدة، وتستقي الدروس من المبدأ الجديد، فكان مركز (تجمع) المسلمين، وكان القائد ﷺ يلقي المحاضرات المنتظمة في كل أسبوع في خطبة الجمعة، ثم محاضرات إضافية كلما دعت إليها الحاجة خلال الأسبوع يوضح فيها الخط، ويرسم الطريق، ويبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الأعضاء.

ومن هذا المنطلق يجب أن تكون اليوم جماعة مخططة ومنظمة بشكل دائم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقف في وجه الانحراف كلما وجد، وتُبقي على تنظيمها ولو صار المجتمع إسلامياً، ولو غدا الحكم بيدها، خوفاً من الانحراف إذ إنها هي صمام الأمان، وقد كان رسول ﷺ يُعَدُّ رأس التنظيم، وأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ أعضاؤه وحفظة الخط الذي يوجههم إليه قائدهم، وبانتهاء جيل الصحابة بدأت زاوية الانحراف بالانفراج وإن كانت على قدر بسيط إلا أنه بدأ يزداد مع الزمن، فالجماعة هي التي تحافظ على سير الدعوة، وتحول دون الانحراف.

وإذا لم يكن تنظيم الصحابة قائماً بالمفهوم الحالي للتنظيم إلا أنه موجود من حيث الفكرة وطريقة التطبيق، إذ تلقى الجميع من مدرسة واحدة ومن معلم واحد، تلقياً ليس بالسماع، وتعلماً ليس بالرواية، وإنما بالعمل والتجربة والصحبة، ومن هنا يجب أن يكون التلقي اليوم من مصدر واحد والاستقاء من منهل واحد لتتوحد الأفكار، وتكون المشارب مشرباً واحداً، فإنه عندما كثرت المدارس وتعددت المناهل زاد الانفراج في زاوية الانحراف ثم بدأ الاختلاف.

أعلن رسول الله في دولته أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، فالأمة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة، بغض النظر عن انتماء أبنائها لمجموعات من الأجناس أو الشعوب أو العروق، وبغضّ النظر عن اللغة التي يتكلمها أفرادها واختلافها، وبغضّ النظر عن كل شيء سوى العقيدة.

أقام رسول ﷺ الحكومة الإسلامية في المدينة، وكان ﷺ رأس هذه الحكومة، يطبق منهج الله، ويقيم حدوده، وكان أصحابه رضوان الله عليهم مستشارين ووزراء له، كما كان ﷺ قائد الجيش، فإذا سـار إلى حرب ولى مكانه أحد أصحابه على المدينة، وإذا مكث عيَّن أحـد صحابته على الجيش، هذه الأعمـال التي قام بها رسـول الله ﷺ من رئاسـة للدولة، وقيادة للجيش، وتعيين مقر عام لتلقي الأفكار والتعاليم لمبدأ الإسـلام، وإلقاء المحاضرات لتلك الغاية، وتحديد الروابط التي تجمع بين الناس هي تعريف خاص للأمة المسلمة من دون الأمم، وتنظيم وإعداد لهذه الأمة إعداداً خاصـاً، وإيجاد مفاهيم خاصة بها، والاعتماد على مستشـارين يرجع إليهم في الملمات، وعقد المعاهدات، وتحديد الصلات مع غير المسلمين، كل هذه من الأمور السياسية الأساسية التي يجب أن يقوم بها أولو الأمر.

وكان رسـول الله ﷺ يجمع إلى جانب هـذه الأمور النواحـي الدينية، فهو رسول الله إلى الناس كافة، ولما كان أسوة حسنة، وقائداً لكل حاكم، ورائداً لكل صاحب سلطة، فهذه الأمور كلها من اختصاص الحكّام، بل لا يحق لحاكم ترك جانب منها، فالدين يشـمل جميع جوانب الحياة من سياسـة ودينية واقتصادية واجتماعية، بـل تقع كلها ضمن إطـار الدِّين، وتحت عنوانه، ومـا دام الحاكم يمارس الإشراف على الحياة لرعاياه فهو يشرف على هذه الجوانب كلها.

ولم يكن رسـول الله ﷺ ليقصر في ناحية على حسـاب أخرى، ولا يهمل جانباً لتقوية آخر.

وكذا كان اختصاص كل خليفة جاء من بعده، ولم يخطر في خَلَد أحدهم أن هناك نواحي يجب أن يمارسـها وأخرى عليه أن يهملها ليمارسـها غيره، كما لم يحاول أحد من المسـلمين أن يفصل الأمور السياسـية عن الديـن، أو أن ينتقد الحكام المسـلمين بأنهم يمارسـون السياسة والدين، واسـتمر هذا الأمر بشكل طبيعي حتى سـيطر الأجانب على بلاد المسـلمين بالقـوة، وأرادوا الإبقاء على الأوضاع التي مكنتهم من السيطرة لاستمرارهم فيها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة



المســلمين العنيفة التي تنبع من دينهم الذي يمنع أتباعه من قبول الخضوع لغير المسلمين، أو للحكام الذين لا يطبقون منهج الله ولو كانوا من المسلمين، فوجد الأجانب أن أفضل طريق لهم هو عزل الدين عن الحياة، كما هي الحال في دينهم الذي لا تشــريع فيه، وإنما يمارس رجال الدين الطقوس الدينية على حين ينفرد الحكام بتســيير الأمور الدنيوية، وتكون هناك ازدواجية في السلطة، رجال الدين يشرفون على الأمور الدينية داخل كنائســهم وصوامعهم، ورجال الحكم يشرفون على الأمور الدنيوية من داخــل قصورهم، وعندما يحدث خــلاف لا بدَّ من أن يرضخ أحدهما للآخر، الأمر الذي جعل صراعاً مريراً يقع بين الكنيسة والملوك، انتصر فيه الملوك في النهاية، واعتزل رجال الدين في كنائســهم، ليقوموا ببعض التراتيل والطقوس التي شعر الناس في النهاية أنها لا فائدة منها، وإنما هي أمور ميتة لا تضــر ولا تنفع، لا تزيد إيماناً، ولا تدفع بالعقيــدة لتلهب الروح وتنطلق بالحياة وتنعشــها بالحضارة، وإنما غايتها أن يُحيي منها رجــال الدين بعض ما فقدوه في الصراع، وليظهر أنهم يمارسون سلطة ولو داخل جدران أربعة.

ولهذا جهد هــؤلاء الأجانب على إيجــاد فكرة الفصل بيــن الدين والحياة (الدولة) في بلاد المسلمين، فزعموا أن في هذا الحضارة، وأن التقدُّمية تستدعي ذلك، وأشــاعوا أن للمســلمين الإشــراف على الأمور الدينيــة، ولا علاقة لهم بالسياسة، بينما هم ـ الأجانب ـ يســيرون أمور الدولة، ولا يتدخلون في جانب الدين ما داموا من غير المســلمين أيضاً[1]، وفي هذا تقسيم الحياة، وقد وافقهم على فكرتهم هذه المغرضــون من أصحاب المصالح والهــوى، والذين يقبلون الدنية، والذين يريدون إرضاء الحكام بتأييدهم في كل تصرفاتهم، ليتســنى لهم التقرب منهم، والإفادة من ذلك بحكم قربهم في إرواء شهواتهم، والذين يريدون أن يهيئوا أنفســهم أو يهيئهم الحكام الأجانب ليحلّــوا محلهم إذا رأوا في ذلك مصلحة، بحيث تؤمن مصالحهم، بل ويحافظ عليها الحكام الجدد، ويمارســون

(١) كذا وردت، والكلام فيه اضطراب.

الطريقة نفسها التي كان يمارسها الحكام الأجانب في عزل الدين عن الحياة، ويمارسون الضغط على المسلمين الذين يرغبون في تطبيق منهج الله، ويكيلون لهم التهم وشتى أنواع العذاب، بل ربما كان بعضهم ـ مع الأسف ـ من الذين يحلمون جانباً من العلم، أو يلبسون زيَّ أهله، في هذا العصر الذي ابتدع فيه لهم زيٌّ خاص، بل وربما يعطون الفتاوى في ذلك، ويتصدرون لإصدارها، وفي كل عصر لا يعدم الحكام الوسيلة للوصول إلى غايتهم عن طريق هؤلاء فإن في كل مجتمع طلاب مصلحة وزعامة، ومن لا يردعه دينه فإنه يركب كل مركب للوصول إلى هدفه، وسار بعض المسلمين وراء هؤلاء مخدوعين، أو على بيِّنة، حتى عمي على الكثيرين الأمر عندما رأوا أدعياء العلم أمامهم، وظنوا أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، ونال أعداء الإسلام ما أرادوا في عزل الدين عن واقع الحياة. وعلينا بعد هذا أن نعود لرسول الله ﷺ نقتبس من هديه، ونأخذ منه الأسوة الحسنة، ونقتدي بسلوكه وعمله في المدينة عندما كان الحاكم عليها، ليعود إلينا الأمر، ونرد على كل بدعي»[1].

بعض النقائص المنهجية في كتاب الأستاذ محمود شاكر:

قد ورد في كتابه بعض النقائص، وهذا أمر لا يخلو منه عمل بشر، وهأنذا آتي عليها بإيجاز:

١ ـ الأخطاء في ذكر بعض الحوادث:

قد أخطأ المصنِّف خطأً لا ينبغي لمثله أن يخطئه لما أورد زواج النبي ﷺ بحفصة، فقد قال:

«لم تكن ذات جمال، ولم يرض بها أحد؛ إذ عرضها أبوها ﷺ على عدد من الرجال، ولم يجد رسول الله ﷺ في مواساتها بزوجها حلًّا خيراً من زواجها»[2].

---

(١) «التاريخ الإسلامي»: ٢/١٩٩ ـ ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق: ٣٤٣.



وهذا الذي أورده المصنف ليس بصحيح، إذ إن مَن عرضها عليهم كان لهم سبب في ردها غير ما ذكره المصنف؛ فقد أخرج الإمام البخاري بسنده إلى عبد الله بن عمر ﷺ أنه حَدّث «أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خُنيس بن حذافة السهمي وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدراً، توفي بالمدينة، قال عمر: فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا، قال: فلقيت أبا بكر فقلت إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يَرجع إليّ شيئاً، فكنت عليه أوجدَ مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال:

لعلك وجدت عليّ حين عرضتَ حفصة فلم أرجع إليك؟

قلت: نعم.

قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبلتُها»[1].

فقول أبي بكر ﷺ: «لو تركها لقبلتها» واضح في الرد على المصنف، غفر الله له.

وأما قول المصنف: «لم تكن ذات جمال» فلا أدري من أين جاء به، فغاية ما جاء في ذلك المفاضلة بينها وبين عائشة ﷺ وأن عمر قرر لابنته حفصة أن عائشة أجمل منها، كما في البخاريّ وغيره، فمن أين للمصنف أن حفصة لم تكن ذات جمال.

---

(١) «صحيح الإمام البخاري» كتاب المغازي: باب شهود الملائكة بدراً.

ثم إن السياق الذي أورده فيه شيء من الجفاء لا يليق بأم المؤمنين رضي الله عنها.

- **ولما ذكر زواجه بزينب بنت جحش رضي الله عنها ساق في ذلك كلاماً لا ينبغي، فقد قال:**

«إن زينب هي ابنة عمة رسول الله ﷺ وهو الذي أجبرها على الزواج بزيد فهو المسؤول عنها إذن ويجب ألا يضيعها»[1] والخطأ هنا في قوله «أجبرها على الزواج بزيد»، فما كان النبي ﷺ ليجبرها على شيء، هذا وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2] في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، قال: «قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها فقالت: لست بناكحته.

فقال رسول الله ﷺ: «**بلى فانكحيه**».

قالت: يا رسول الله: أؤامر في نفسي؟!

فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟

قال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

---

(١) المصدر السابق: ٣٤٣.

(٢) هو الشيخ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي، عماد الدين. ولد سنة ٧٠٠ أو بعدها بيسير، ونشأ بدمشق، وسمع من طائفة، واشتغل بالحديث، وجمع التفسير، والتاريخ الذي سماه «البداية والنهاية»، وله عدة مصنفات سارت في البلاد. كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. مات سنة ٧٧٤ وكان قد أضرَّ في أواخر عمره. انظر «الدرر الكامنة»: ١/٣٩٩ ـ ٤٠٠.



قالت: إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي»[1].

فأين الإجبار المزعوم ها هنا إذن؟

٢ ـ عدم ذكر المصادر التي اعتمد عليها في سرد السيرة:

لم يذكر الأستاذ محمود شاكر في كتابه في السيرة المصادر التي اعتمد عليها في السرد التاريخي، لا في ثنايا الكتاب، ولا في آخره، ولم يذكر لنا ما هي الكتب التي اعتمد عليها في سرده للسيرة، وهذا عيب في التأليف وقع فيه الأستاذ ـ حفظه الله تعالى ونفع به ـ فإن الناقد لأيِّ كتاب لا بدَّ له من معرفة المصادر التي اعتمد عليها كاتبه لينظر فيها هل هي موثوقة أو لا؟ وهل هي كافية أو لا؟ وهل هي مصدر واحد أو أكثر من مصدر؟ ثم إذا كانت المصادر متعددة فأيُّها الذي اختاره المصنف أصلاً يعتمد عليه ويعود إليه؟ أو أنه اختار طريقة النص المختار الملفق من عدة مصادر؟ وهذا في ظني النقيصة الكبرى في عمل الأستاذ، حفظه الله ونفع به.

وأرى أن الرجل ذكر كثيراً من نصوص السيرة بعبارته هو، وذكر بعضها الآخر كما وردت في المصادر التي لم يذكرها.

أما المصادر التي اعتمد عليها في غير السرد العام فكان يذكرها، فقد ذكر تفسير ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2][3].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ١٢٦٦

(٢) هو الإمام العلامة شيخ المفسرين عبدالحق بن غالب بن عطية الغرناطي. كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، ذكياً فطناً، من أوعية العلم، ولد سنة ٤٨٠ وتوفي في لُورقة من الأندلس سنة ٥٤١. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٣) ص: ١٩٨.



وذكر كتاب «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب رحمه الله[(١)(٢)]، و«معالم في الطريق» له أيضاً[(٣)]، وذكر «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير[(٤)]، وذكر «فتح الباري» للحافظ ابن حجر[(٥)] رحمهما الله تعالى[(٦)].

---

(١) سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد سنة ١٣٢٤ بقرية «موشا» في أسيوط. تخرّج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وعُيّن مدرساً للعربية فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ثم مراقباً فنياً بالوزارة. أُوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم إلى أمريكا ثلاث سنوات. انضم إلى الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأعدم رحمه الله سنة ١٣٨٧، له مصنفات جليلة رائعة، وفي بعضها قليل من المؤاخذات بسبب النشأة الأدبية السابقة. وما أحسن كلمة الأستاذ علال الفاسي رحمه الله لما حصلت نكبة سنة ١٣٨٧هـ: ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب. وانظر «الأعلام»: ١٤٧/٣ ـ ١٤٨.

(٢) ص: ٢١٢.

(٣) ص: ٤٥.

(٤) ص: ٢٩٩.

(٥) هو أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي، ويعرف بـ«ابن حجر» وهو لقب لبعض آبائه؛ ولد سنة ٧٧٣ بمصر العتيقة، ونشأ بها يتيماً، وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجد في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وتصدر لنشره وإقرائه. ولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة. توفي رحمه الله في القاهرة سنة ٨٥٢. انظر «الضوء اللامع»: ٣٦/٢ ـ ٤٠.

(٦) ص: ٤٧.

دراسات في السيرة النبوية

للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل[1]

هو مؤرخ عراقي، تدور أكثر دراساته وأبحاثه على التاريخ: دراسةً ونقداً وعرضاً لأعمال الغير، وسآتي على منهجه في دراسة السيرة النبوية المشرفة المطهرة بإيجاز يناسب البحث، فأقول وبالله التوفيق:

إن الأستاذ قد صنَّف كتاباً في السيرة المطهرة سماه «دراسات في السيرة النبوية» وهو كتاب وسط بين الإيجاز والإطناب سرد فيه المصنف السيرة المطهرة على وجه جامع بين طريقة المؤرخين القدامى في السرد المتصل لأحداث السيرة أحياناً، وبين طريقة بعض المحْدَثين في التحليل وإعادة توزيع مادة السيرة.

ومن مزايا كتابه هذا هو الآتي:

أولاً: التوثيق الجيد لكل ما ينقله:

وثَّق المصنِّف ـ حفظه الله تعالى ـ ما نقله من كتب السيرة في هامش كل صفحة، وقد رجع إلى كتب قدامى المؤرخين كالذهبي[2] وابن

---

(١) مؤرّخ عراقي ولد في الموصل سنة ١٣٦٠/١٩٣٩. حصل على البكالوريوس في التاريخ من جامعة بغداد سنة ١٣٨٢/١٩٦٢ والماجستير من الجامعة نفسها سنة ١٣٨٥/١٩٦٥ والدكتوراه من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة سنة ١٣٨٨/١٩٦٨. درّس في جامعة الموصل، وأدار مكتبة المتحف الحضاري في الموصل ودرّس في عدة جامعات في الأردن والإمارات والعراق. وشارك في إعداد مناهج عدة جامعات، وله كتب عديدة وأبحاث كثيرة، وهو ـ أيضاً ـ كاتب مسرحي وناقد وأديب، وهو معدود من فلاسفة المؤرخين. حفظه الله ومتع به.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدث عصره؛ ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/١٠٠ ـ ١٢٣.

هشام[١] والطبري[٢] وابن سعد[٣]، ورجع كذلك إلى كتب المحدثين مثل جواد علي[٤] في كتابه «تاريخ العرب» ورجع إلى كتب المستشرقين مثل «حياة محمد» لدرمنغم[٥]، و«محمد في مكة» لمونتغمري وات[٦].

---

(١) هو عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي، وقيل: الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد العلامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية. توفي سنة ٢١٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٢٨/١٠ وما بعدها.

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد، الإمام العَلَم الكبير المجتهد،أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان، وُلد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي ببغداد سنة ٣١٠هـ، رَحِمَهُ اللهُ، انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٦٧/١٤ ـ ٢٨٢.

(٣) هو محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحجة، أبو عبدالله البغدادي، كاتب الواقدي، ومصنف «الطبقات الكبرى» في بضعة عشر مجلداً و«الطبقات الصغرى» وغير ذلك. ولد بعد الستين والمائة وتوفي سنة ثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦٦٤/١١.

(٤) الأستاذ الدكتور جواد علي العلي. ولد في الكاظمية ببغداد سنة ١٩٠٧. درس في الأعظمية، وبعد ذلك أكمل دراسته في دار المعلمين العالية (كلية التربية لاحقا) وبعد تخرجه فيها سنة ١٩٣١ عيّن مدرساً في إحدى المدارس الثانوية وسرعان ما رشح ليكون ضمن بعثة علمية إلى ألمانيا وقد حصل على الدكتوراه من جامعة هامبورغ سنة ١٩٣٩ وذلك عن رسالته الموسومة (المهدي وسفراؤه الأربعة) بالألمانية.
عاد إلى العراق وصادفت عودته قيام ثورة مارس ١٩٤١ ونشوب الحرب العراقية ـ البريطانية فانضم إلى الثورة وبعد فشلها اعتقل في معتقل الفاو ثم أطلق سراحه وأعيد إلى الوظيفة في وزارة المعارف واختير ليكون أميناً لسر لجنة التأليف والترجمة والنشر التي قدر لها أن تكون نواة للمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٧. وفي ١٩٥٦ أصبح عضواً عاملاً في المجمع واختير عضواً مراسلاً ومؤازراً في مجامع أخرى عربية وعالمية. عمل الدكتور جواد علي مدرسا وأستاذاً مساعداً ثم أستاذا في قسم التاريخ بكلية التربية ـ جامعة بغداد منذ الخمسينات من القرن الماضي وفي العام الدراسي ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ عمل أستاذاً زائرا في جامعة هارفارد الأميركية وقد تقاعد فمنحته جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرس) نشر الدكتور جواد علي قرابة (٥٠) دراسة في مجلة المجمع العلمي العراقي، كما كتب في مجلات أخرى منها (المعلم الجديد) وحصل في حياته على تكريمات وأوسمة منها وسام المعارف اللبناني ووسام المؤرخ العربي وحضر ندوات ومؤتمرات عديدة منها مؤتمرات المستشرقين التي كانت تعقد في ألمانيا. توفي سنة ١٤٠٧/١٩٨٧.

(٥) إميل درمنغم مستشرق فرنسي، عمل مديرا لمكتبة الجزائر، من آثاره: «حياة محمد»، و«محمد والسنة الإسلامية».

(٦) وليام مونتغمري واط. ولد سنة ١٩٠٩، وتوفي سنة ٢٠٠٦. كان مستشرقاً بريطانياً. عمل أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي بجامعة إدنبرة في إسكتلندا. ومن أشهر كتبه «محمد في مكة»، وكتاب «محمد في المدينة».

ثانياً: النقد:

المصنف قد نقد كل ما يفتقر إلى نقد مما أورده من أحداث السيرة، وهو في نقده هذا له عدة طرق، فمنها أن يحيل على نقد مصنف آخر، كما صنع بحادثة الراهب بحيرى فقد ذكر في الهامش أنه «لم يقف إزاء الرواية ناقداً ممحصاً سوى ابن سيد الناس»[1] في «عيون الأثر» ص ٣٤ (مكتبة القدس، القاهرة ١٣٥٦هـ)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» ٣٨،٣٩/١ (مكتبة القدس، القاهرة)، انظر بحث «تحقيق قصة بحيرى» للدكتور محسن عبدالحميد (مجلة الجامعة عدد ٤ سنة ٩ ص ٦٩ ـ ٧٣) ولما فرغ من كل ذلك ذكر أنه سيعود إلى تحقيق المسألة في فصل آخر[2][3].

ومنها أنه ينقد بنفسه ما يورده، وهو الأكثر، وهو في نقده لا يكاد يستثني شيئاً يستحق النقد إلا ونقده ما خلا الأحاديث والآثار الضعيفة التي أوردها فهو لا ينقدها غالباً، وسآتي على هذا قريباً إن شاء الله تعالى في المطلب القادم.

ومما ينقده ـ وهو يُكسب كتابه هذا قوة وجودة ـ ما اختاره المستشرقون من تفسيرات باطلة لأحداث السيرة، فمن ذلك نقده لمونتغمري وات في تفسيره بقاء المسلمين في الحبشة بخلاف وقع بينهم، وأن النبي ﷺ أوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة إلى الحبشة تفادياً لأخطار هذا الخلاف!![4]

---

(١) مؤرخ عراقي ولد في الموصل سنة ١٣٦٠/١٩٣٩ حصل على البكالوريوس في التاريخ من جامعة بغداد سنة ١٣٨٢/١٩٦٢ والماجستير من الجامعة نفسها سنة ١٣٨٥/١٩٦٥ والدكتوراه من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة سنة ١٣٨٦/١٩٦٨. درّس في جامعة الموصل وأدار مكتبة المتحف الحضاري في الموصل ودرّس في عدة جامعات في الأردن والإمارات والعراق. وشارك في إعداد مناهج عدة جامعات، وله كتب عديدة وأبحاث كثيرة، وهو ـ أيضاً ـ كاتب مسرحي وناقد وأديب، وهو معدود من فلاسفة المؤرخين. حفظه الله ومتع به.

(٢) انظر ص ٢٢٦ الفصل الثامن.

(٣) انظر الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي: القسم الثالث ص ٣٤.

(٤) انظر الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي: القسم الثالث ص ٣٤.

ثالثاً: إعادة توزيع مادة السيرة:

لم يلتزم المصنف في كتابه إيراد مواد السـيرة كما صنع الأقدمون، بل أتى بها على غير جادّة تصنيفهم، وقال في ذلك:

«لم أشـأ ـ من أجل تركيز الصورة وتحديد أبعادها بدقة ـ أن ألتزم الخطَّ الزمني لأحداث السيرة، ذلك الخطُّ الذي وقع في أسره معظم الباحثين، فضاعت في مجراه حقائق، وطُمست دلالات وقيم ما كان لها أن تضيع أو تنطمس، قسمت وقائع السيرة إلى وحدات متجانسة خُصص لكل وحدة منها مساحة مناسبة في البحث، استقصيت فيها سائر جوانبها، ونسقت جُلّ وقائعها، وحللت معظم دلالئلها وقيمها»[١].

وإليكم عناوين فصول كتابه لتدل على الطريقة التي سرد بها أحداث السيرة:

الفصل الأول: محمد ﷺ بين الميلاد والنبوَّة.

الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي.

الفصل الثالث: مسائل من العصر المكي.

الفصل الرابع: تحليل الهجرة.

الفصل الخامس: دولة الإسلام في المدينة.

الفصل السادس: الصراع مع الوثنية (المرحلة الأولى).

الفصل السابع: الصراع مع الوثنية (المرحلة الثانية).

الفصل الثامن: العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية.

الفصل التاسع: الصراع ضد اليهود.

الفصل العاشر: حركة النفاق في العصر المدني.

ثم الخاتمة.

وبهذا التقسيم جاء كتابه على وجه متفرد بين كتب السيرة.

---

(١) المقدمة: ص٦.

رابعاً: التحليل:

ملأ المصنف كتابه بالتحليل الجيد لأحداث السيرة، فلَمْ يخل فصل من كتابه منه، فعلى سبيل المثال: لحظ المصنف في الفصل الأول المعنون: «محمد ﷺ بين الميلاد والبعثة» أن «الإطار التاريخي لسيرة رسولنا ﷺ منذ مولده حتى وفاته يضم حشداً كبيراً من الروايات يكثر ويتكاثف في مرحلة، ويقل ويتباعد طيلة[1] الأربعين سنة التي سبقت مبعثه في غار حراء، فلا يكاد يغطي سوى مساحات قليلة من هذه السنين الطويلة، ولا يكاد يرسم سوى خطوط عريضة عن طفولة وشباب الرجل الذي قُدر له أن يعيد صياغة الحياة الدنيا بما ينسجم ونواميس الكون، وتلك هي الصعوبة الكبرى في تاريخ الرجال الكبار في حياة البشرية، إن اهتمام الناس بأبطالهم يقتفي أثر النواميس الطبيعية ذاتها، فحيثما تجمعت الأضواء في جانب حيثما زادت الظلال المجاورة عتمة وخفاء، وما إن يبرز البطل فجأة على مسرح الأحداث حتى تُسلط عليه الأضواء فلا يتبقى من سيرته أية ساعة غير معرضة للإنارة والتلوين، لكن قبل أن يظهر، قبل أن يجيء من وراء الكواليس يحيطه الغموض ويصعب على الناظرين تمييز جل مساحات حياته مهما امتدت سُنُوُّ هذه الحياة»[2].

والمصنف على جودة تحليله إلا أني أخالفه فيما ذهب إليه، فحياة النبي ﷺ قبل البعثة وصل إلينا منها قدر كاف، وقد كانت حياة طبيعية مثل حياة سائر الناس إلا أنها أشرف وأطهر وأبعد عن مواطن الفساد والدنس، لكنها تظل مثل حياة سائر القرشيين لا اختلاف كبيراً فيها، وهذا ـ والله أعلم ـ حتى تكون حياته بعد البعثة مختلفة تماماً ليقوم البرهان على نبوته، وتتضح الآية في رسالته.

---

(١) كذا قال، والصواب طوال أو نحوها.

(٢) ص: ٣٧.

ومن التحليلات الجيدة أيضاً قوله عن حادثة شق الصدر الشريف:

«فما دمنا بصدد تحليل المؤثرات البيئية والوراثية والغيبية في تكوين الرسول ﷺ وتهيئته للرسالة فإن حادثة شق الصدر تقف في القمة من المؤثرات جميعاً، صياغة روحية مادية لشخصية النبي الإنسان، وتهيئته من لدن العليم بمنسربات النفوس، الخبير بتعقيدات الشخصية البشرية لكي يكون هذا الرجل بالذات ووفق تكوينه الموجه هذا قادراً على التقاط إشارة السماء ومقابلة الوحي، وتحمّل المسؤولية نبيّاً إلى الناس جميعاً، صاعداً بهم إلى القمم الشامخة التي تنقطع دونها أنفاس الرجال»[1].

ويُكثر المصنف من التحليل فيكاد يوجد في كل الكتاب، بل قد أفرد فصلاً خاصاً في كتابه ذي الفصول العشرة لتحليل أحداث الهجرة، وهذا هو الذي تميز به كتاب المصنف عن غيره بل جعله ـ عندي ـ فليسوف السيرة الأول، إن صح إطلاق هذا التعبير، فقد ربط أحداث السيرة بالجوانب النفسية والتاريخية والبيئية والدينية والاجتماعية ربطاً جيّداً محكماً.

وهو في تحليله هذا لا يفوته أن يورد العبر والعظات المستمدة من أحداث السيرة، لكنه لا يوردها على وجه إيرادها المعهود، بل يوردها على هيئة فلسفية كلامية أفقد بعضها بعض بريقها، لكن هذه كانت طريقة المصنف في كتبه لم يستطع الانفكاك عنها ولا إخاله يريد ذلك، ولم تمنعه طريقته المطردة هذه أن يلين قليلاً أحياناً، فيورد بعض العبر والعظات على وجه حسن كما صنع في حادثة غضب الأنصار بسبب توزيع غنائم حنين وما حدث بعدها من استرضاء رسول الله ﷺ الأنصار على وجه رائع عاطفي جميل جدّاً، فقال:

«إن هذه الكتلة النقية في تاريخ الحركة الإسلامية يجب أن تظل على نقائها تعطي ولا تأخذ؛ لأن الذي قادها إلى الإيمان ورفعها مجاهدة في طريقها

---

(١) ص: ٤٤.



اللاحب[١] الطويل شـــيء آخر غير اهتمامات الذهب والفضة، إنه النور العميق الذي انقدح في أعماقهم يوم بايعوا الرسول ﷺ، وأما الكتل الجديدة في تاريخ الدعوة فأسلوب التعامل معها وكسبها وكف أذاها غير أسلوب التعامل مع كتلة كالأنصار آثر رسول الله ﷺ أن يبقى معها دوماً حيّاً وميتاً»[٢].

بعض النقائص في كتاب الأستاذ عماد الدين خليل:

لا يخلو كتاب بشري من نقائص، هذه سنة الله ـ تعالى ـ ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً، وكتاب الأســتاذ ـ على جودته ـ لا يخلو من بعض النقائص أوجزها في الآتي:

أولاً: اضمحلال لغة العاطفة في كتابه:

المصنــف في الســيرة النبوية لا بدَّ لــه أن يخلط حديثــه العلمي بحديث العاطفة، وحديث العقل بحديث القلب؛ وذلك لأن المقصود من ســرد السيرة النبوية عــدة أمور منها: تعميق محبة النبي ﷺ في القلــوب، فلا بدَّ من الأمرين معاً في كتابة الســيرة: خطاب العقل وخطاب الروح والقلــب، ولئن أُريد مثال لهذا فكتاب الأستاذ محمد الغزالي رحمه الله[٣] فقه السيرة، فإن المرء لا يكاد يملك دموعه وهو يقرأ كثيرا من صفحات ذلك الكتاب.

أما الأســتاذ عماد الدين خليل فقــد جعل كتابه علميّاً محضــاً ـ في أغلب صفحاتــه ـ خاطب فيه العقل وأجاد لكنه لم يســتطع خطــاب القلب الخطاب المناسب.

---

(١) الواضح.

(٢) الفصل السابع: الصراع مع الوثنية: المرحلة الثانية ص ص٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) محمــد الغزالي أحمد الســقا (١٣٣٥هـ ـ ٢٠ شــوال ١٤١٦هـ / ٢٢ ســبتمبر ١٩١٧ ـ ٩ مارس ١٩٩٦م) عالم ومفكر إســلامي مصري، له عدة كتب، ومقالات كثيرة، وهو أحد المفكرين الكبار والدعاة في العالم الإسلامي رحمه الله.

ثانياً: بعض الأخطاء التاريخية:

وقع في كتاب الأستاذ بعض الأخطاء التاريخية منها قوله في سِرِّيَّة الدعوة:

«إن سرية الدعوة في هذا العهد، وتواصي المسلمين بالحذر والحيطة وتلافي الاصطدام المباشر مع المشركين لا يعني أن المجابهة العقيدية بين الدين الجديد والشرك كانت صامتة بل إننا نجدها أعنف ما تكون في القرآن نفسه وفي آياته الأولى؛ ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته ـ بعد ـ سوى نفر يعدّون على الأصابع...» وقد فات المصنف أن حادثة أبي جهل المذكورة في سورة العلق كانت بعد الجهر بالدعوة وليس في زمن سريتها، فقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره سورة العلق:

«قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا عبدالرزاق، عن مَعْمَر، عن عبدالكريم الجَزَري، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عُنُقه. فبَلغَ النبي ﷺ فقال: «**لئن فعله لأخذته الملائكة**»...

وروى أحمد، والترمذي وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال:

«كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد: ألم أنهك عن هذا؟ وَتَوعَّده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا! فأنزل الله:

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته» وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال ابن جرير:

حدثنا ابن عبدالأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد

وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن علــى رقبته ولأعفِّرن وجهه في التراب، فأتى رســولَ الله ﷺ وهو يُصَلي ليطأ على رقبته، قال: فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديــه، قال: فقيل له: ما لــك؟ فقال: إن بيني وبينــه خَنْدقاً من نار وهَولاً وأجنحة. قال: فقال رسول الله: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**». قال: وأنـزل الله ـ لا أدري فــي حديث أبي هريرة أم لا ـ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى آخر السورة».

ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن يصلي في المســجد الحرام إلا في مدة الدعوة الجهرية.

ومنهــا ما ذكــره في الفصــل الثامــن «العلاقات بيــن الإســلام والجبهة البيزنطية»[1] فقد أورد عن بعض المصنِّفين المحْدثين أن النصارى في مكة كانوا كثــرة وكان لهم مقبرة في مكــة، وأن النبي ﷺ كان يتصل بهــم في مكة، وأن بعض النصارى جاءه في وفد في مكــة وآمن به، وكل هذا ليس بصحيح إلا إن المصنف أورده إيراد الراضي به المسلم بما فيه!

ومنها ما ذكره أن المسلمين قطعوا في غزوة تبوك آلاف الأميال وهذا ليس بصحيح فتبوك تبعد عن المدينة أقل مــن ٤٥٠ ميلاً فالذهاب والإياب أقل من تسعمائة ميل.

ثالثاً: ذكره بعض الروايات الضعيفة:

ذكر المصنف بعــض الروايات الضعيفة ولم ينقدهــا، وذكر روايات أخرى ضعيفــة ونقدها، فمن الروايــات الضعيفة التي أوردها ولــم ينقدها ما روي أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

«والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه»[١].

أما الروايات التي نقدها فمنها ما أورده عن ابن سعد من محاولة زعماء قريش اغتيال النبي ﷺ في أول الدعوة، فقد قال مؤمئاً إلى ضعفها:

«ويورد ابن سعد رواية لا نجدها في المصادر الأخرى، ولا ندري مدى صحتها...»[٢].

والمصنف لا يحكم على ما يورده من أحاديث وآثار.

هذا ما استطعت من بيان منهج المصنف في كتابه.

وقد أوجز هو نفسه ما ينبغي أن تكون كتابة السيرة عليه، فقال:

١ ـ النظرة التجزيئية إلى السيرة:

إلى عهد ليس ببعيد ـ ربما يكون منتصفَ القرن الماضي ـ كانت البحوث والدراسات والمصنفات المعنية بسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة تنحو ـ في معظمها ـ منحًى تقليدياً يرمي بثقله في اتجاه المعارك والغزوات والشمائل، وقد يعالج المفردات الدعوية والتشريعية والسلوكية منفصلة عن سياقها العضوي العام؛ لكنه لم يكد يلتفت إلى البعد الحضاري لهذا العصر الذي أقام دولة كبرى، ونسج تشريعاً خصباً، وهيأ الشروط لقيام حضارة متميزة.

ثم إن معظم الباحثين سَحَبوا رؤيتهم التجزيئية في تعاملهم مع العصر إلى صِيَغ التعامل مع «المصادر» التي استقَوا منها مادتهم التاريخية؛ فلم يحاولوا ـ إلا في القليل النادر ـ أن يكسروا الفواصل بين أنماط تلك المصادر، وأن

---

(١) الفصل الثاني: الدعوة في عصرها المكي: ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق.

يستدعوا كل تلك الأنماط من أجل وضع أيديهم على الصورة الأكثر مقاربة لسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة: القرآن الكريم وتفاسيره، الحديث النبوي الشريف، كتب الأدب ودواوين الشعر، كتب الفقه، كتب الجغرافيا والرحلات؛ فضلاً عن كتب التاريخ في أنماطها كافة: السيرة، التاريخ العام، التاريخ المحلي، تواريخ المدن، التراجم، الأنساب والطبقات.

هذا إلى أنهم التزموا الخط الزمني لوقائع السيرة، فكانوا يتحدثون عن وقائع كل سنة مُجتزأةً عن وحدتها الموضوعية، أسوة بما كان الأجداد يفعلونه فيما يُسمّى بالحَوليات. وكان هذا يمارس تقطيعاً للوقائع الأساسية، واختراقاً لنسيجها بوقائع أخرى تتحرك في سياق مغاير، كأن يتم الحديث في السَّنة أو الحولية الواحدة عن الصراع ضد الوثنية واليهود والبيزنطيين والمنافقين، جنبا إلى جنب مع المعطيات التشريعية أو الدعوية أو التعبدية أو السلوكية...الخ.

كما أن الرؤية النقدية كادت أن تغيب عن تلك الأعمال؛ فكان أصحابها يسلمون بالغثّ والسمين، ما يمكن قبوله وما لا يمكن، الأمر الذي أضاف إلى وقائع السيرة الأساسية أجساماً غريبة، وقادها إلى نوع من التضخم على حساب بنيتها الأصيلة المتفق عليها.

٢ ـ المنهج الأكاديمي والسيرة:

ولحسن الحظ بدأ النصف الثاني من القرن الفائت يشهد تطوراً ملحوظاً في دراسات السيرة، على مستوى المنهج والموضوع، وراحت هذه الدراسات تزداد ـ بمرور الوقت ـ نضجاً وإحكاماً بسبب من الوعي المتزايد بمطالب منهج البحث من جهة، والرغبة العلمية الصادقة في الرد على المحاولات الجانحة في التعامل مع السيرة، سواء جاءت من الخارج على يد المستشرقين بأجنحتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم كافة، أو من الداخل على أيدي المغالين أو المنساقين



وراء الميول والأهواء والتحزبات، أو المتأثرين بالمعطيات الاستشراقية في توجهاتها كافة.

ثم جاء تنامي النشاط الأكاديمي، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات، لا لكي تُعزز القيم المنهجية الأصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وإنما أيضاً لكي تنفّذ دراسات معمّقة في هذه الواقعة أو تلك، وفق معايير نقدية صارمة، وقدرة على الإمساك بالدقائق والتفاصيل والجزئيات، تُعين الباحث على الإيغال في شرايين الواقعة من أجل الوصول أو محاولة الوصول إلى بنيتها الأساسية كما تشكلت فعلاً، لا كما أراد لها الرواة والأخباريون والمؤرخون أن تكون.

وفي موازاة هذا، أخذت تظهر دراسات تخصصية في السيرة باتجاه آخر لا تقف عند هذه الواقعة أو تلك في نسيجها العام، وإنما تتعامل معها ككل، ولكن من منطلق منهجي محدد يسعى لأن يتابع معطيات السيرة عبر هذا التوجه أو ذاك من مجراها العام.

وهكذا ظهر كتاب «فقه السيرة» للغزالي لكي يقدم رؤية دعوية للسيرة، وكتاب البوطي بالعنوان نفسه لكي يقدم رؤية فقهية، والشهيد سيد قطب ومنير الغضبان لكي يقدما رؤية حرَكية، وباحثون آخرون قدموا رؤية تربوية أو أخلاقية أو سلوكية أو سياسية، هذا إلى قيام الدكتور أكرم العُمري وعدد من طلبة الدراسات العليا بتنفيذ منهج المحدّثين في التعامل مع مرويات السيرة.

وفي موازاة هذا كله استمرت مكتبة السيرة تشهد دراساتٍ شموليةً تتناول السيرة في حلقاتها كافة، ولكن وفق منهج أكثر دقة وانضباطاً وإحكاماً، يسعى لأن يضم جناحَيه على أبعاد السيرة كافة؛ دعوية وحركية وفقهية وسلوكية وسياسية وعسكرية، محاولاً ألّا يمرر إلا المرويات الأكثر قبولاً على مستوى الرواية والدراية، أو الإسناد والمتن.



٣ ـ البعد الحضاري للسيرة:

ولكن رغم هذا العطاء السخي، ظلّت هنالك حلقة لم تنل حظها من البحث والدرس والاستقصاء والتحليل، بالمقارنة مع الحلقات الأخرى؛ تلك هي الحلقة الحضارية، أو بعبارة أكثر دقة، محاولة متابعة البُعد الحضاري للسيرة، وتقديم تصوّر متكامل عن معطياته الأساسية.

ورغم أن العقدين الأخيرين شهدا عدداً من المحاولات في هذا الاتجاه لا تتجاوز ـ ربما ـ أصابع اليد الواحدة، فإن الحاجة لا تزال تتطلب المزيد من المحاولات، من أجل إعطاء هذا الجانب من السيرة حقه، والإلمام بجوانبه كافة.

لقد بشر عصرُ الرسالة بمشروع حضاري، وتمكن من تنفيذ العديد من حلقاته، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية التي مكنت الأمة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن.

عشرات السنين ومئاتها، ونحن نتحدث عن هذا العصر من الداخل، وبرؤية تجزيئية تتمركَز عند الغزوات، والشمائل، والمفردات الفقهية. ولقد آن الأوان لاعتماد «رؤية الطائر» إذا صح التعبير، لاستشراف الملامح الأساسية للعصر، والإنجازات الكبرى لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﭫ.

ولا بدَّ من أجل التحقق برؤية كهذه، من استدعاء المؤرِّخ والمفسر والمحدّث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والأديب لتوسيع نطاق الفضاء المعرفي عن العصر، هاهنا حيث يصير النص القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلاً عن الدلالات المحدَّدة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي، هاهنا المصادر الأساسية التي يكمّل بعضها الآخر من أجل تحديد

ملامح المشــروع الحضاري الذي وعــدت به ومهدت له، ووضعت شــروطه التأسيسية، ونفّذت بعض حلقاته «سيرةُ» رسول الله ﷺ.

إننا ونحن نتحدث عن «الســيرة» وشــروطها المنهجية، يجب ألا ننسى لحظة واحدة أن القرآن الكريم هو الوثيقة «التاريخية» الأكثر أهمية في دراسة العصر ومحاولة الإلمام بنبضه الأساسي وملامحه المتفرّدة. وإنه (أي: القرآن الكريــم) ينطوي على شــبكة خصبة مــن المعطيات التاريخيــة التي تحمل مصداقيتها المطلقة، والتي تشــكل ـ بالتالي ـ نقاط الارتكاز في بنية السيرة حيث يجيء المحدث والفقيه والمــؤرخ واللغوي والجغرافي والأديب فيقيم بنيانه عليها.

٤ ـ الالتحام الحميم بين التنـزيل والتاريخ:

وبنظرة سريعة إلى «أسباب النـزول» في التفاسير القرآنية والمصادر الخاصة بالموضــوع يتبين للمرء الالتحــام الحميم بين التنـزيــل والتاريخ. إن المعطى القرآني يرهص، ويصف، ويعقــب، وينذر، ويعد، وهو في خطواته الخمس هذه يمارس تغطية تاريخية للعديد من وقائع الســيرة المتشكلة في الزمن والمكان، أي: في التاريخ.

ولقد تحدث الشهيد سيد قطب طويلاً عن هذه المسألة وهو يكتب مقدماته الخصبة في «الظلال»، عبر تفسيره للسور التي قدمت مادة سخيَّة عن العديد من الغزوات والوقائع والمعطيات التشريعية، على مدى عصر الرسالة من بدئه حتى منتهاه، كما تحدث عن طريقة عمل القرآن الكريم في إحداث التغيير، وهو في بدء التحليــل ونهايته تغيير تاريخي ينطوي بالضــرورة على بعده الحضاري أو العمراني، بالمفهوم الشامل للكلمة.

لقد كانت حياة الرســول ﷺ الكادحة وجهده الموصــول حتى آخر لحظة شــهادةً حيَّةً على قدرة هذا الرجل النبي على الإنجــاز والتغيير بكل ما تنطوي



عليه الكلمتان مِن بعد حضاريّ، ولقد جاءت شهادة الباحث الأمريكي المعاصر «مايكل هارت»[1] في «المائة الأوائل» تأكيداً لهذا المعنى.

لقد حاول الباحث المذكور أن يستقصي ويدرس بمعيارَي الإنجاز والتغيير، أعظم مائةِ شخصية في تاريخ البشرية، ثم مضى لكي ينفّذ خطوة تالية، باختيار أعظم رجل من بين هذه الشخصيات المائة، وبالمعيارين ذاتهما، فإذا باختياره يقع على محمد ﷺ فيعتبره أعظم شخصية في التاريخ، وذلك في قدرته على تنفيذ إنجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معاً.

وعندما جاءت السَّنَة التاسعة للهجرة، ونزلت آيات (أو إعلان) براءة في صدر سورة التوبة، لتصفية الوجود الوثني في جزيرة العرب، كان رسول الله ﷺ قد حقّق، وصحابته الكرام ﷺ على مستوى الفعل التاريخي، المنجزات التالية التي ينطوي كل منها على بُعد حضاري مؤكد:

أولاً: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

ثانياً: الوحدة في مواجهة التجزّؤ.

ثالثاً: الدولة في مواجهة القبيلة.

رابعاً: التشريع في مواجهة العرف.

خامساً: المؤسسة في مواجهة التقاليد.

سادساً: الأمة في مواجهة العشيرة.

سابعاً: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

ثامناً: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

---

(١) هو فيزيائي فلكي أمريكي، له توجهات سياسية فلسفية. ولد سنة ١٩٣٢ في نيويورك: «ويكيبيديا» على شبكة «الإنترنت».

تاسعاً: المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

عاشراً: الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخلُقية والسلوكية المتجذّرة في العقيدة، في مواجهة الجاهليّ المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

وكانت آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وتعاليمه قد أرستْ جملة من القيم المنهجية وآليات العمل التي مهّدت للمتغيرات العشرة الآنفة الذكر، ودعمتْها، ووضعت ـ إلى جانبها ـ شبكة من الشروط هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري، ومن بين تلك القيم والآليات:

١ ـ المعرفة هي حجر الزاوية.

٢ ـ النزوع إلى الأمام.

٣ ـ التحذير من هدر الطاقة.

٤ ـ مبدأ الاستخلاف.

٥ ـ مبدأ التسخير.

٦ ـ التحفيز على العمل والإبداع.

٧ ـ مجابهة التخريب والإفساد.

٨ ـ التوازن بين الأضداد والثنائيات، وتوحدها.

٩ ـ التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون.

١٠ ـ تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة.

لقد جاء الإسلام لكي يتحرك وفق دوائر ثلاث: تبدأ بالإنسان وتمر بالدولة وتنتهي إلى الحضارة التي سيقدر لها أن تَنْداح لكي تغطي مساحات واسعة من العالم القديم.

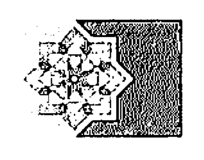


لقد كان هدف الجهد النبوي في عصر الرسالة هو التأسيس لحضارة إيمانية تستمد منهجها ومفرداتها من هدي الله سبحانه، وتقوم على لقاء الوحي بالوجود، لمجابهة حضارات الكفر والضلال، وإزاحتها، والتحقق بالبديل الحضاري الملائم للإنسان ووظيفته التعبدية والعمرانية.. البديل المتوازن في مواجهة حضارات الميل والانحراف: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

ويبقى عصر الرسالة منجَماً سخيّاً للعطاء وفق هذا المنهج أو ذاك فيما لم يشهده عصر من العصور. وما ذاك إلا لِما حققه هذا العصر من تغيير جذري محليّاً وإقليميّاً وعالميّاً، وعلى كل المستويات، ولما انطوى عليه من قيم وخبرات تملك القدرة على الفاعلية والحضور في كل زمان ومكان»[1].

---

(١) «مجلة حراء»: العدد ٣.



السيرة النبوية الصحيحة

للأستاذ أكرم ضياء العمري[1]

محاولة لتطبيق قواعد المحدّثين في نقد روايات السيرة النبوية

كتاب «السيرة النبوية الصحيحة» هو مسار جديد في تدوين السيرة المشرفة المطهرة، يختلف عن كل ما دُوِّن مــن قبل، فلا يوجد كتاب حديث مصنف في السيرة من قبله ـ فيما أعلم ـ اشترط أن يورد الصحيح فقط.

سبب تصنيف الكتاب هو الآتي كما ذكر المصنف:

١ ـ إن كثيراً ممن كتب في السيرة في العصر الحديث التزم منهج النقد التاريخي الغربــي، وأعرض عن الثــروة الهائلة التي هي طرق التعامــل مع الروايات التاريخية الإسلامية التي بُذل من أجلها جهود هائلة لمئات علماء الحديث، فلا بدّ لكاتب السيرة أن يستفيد من تلك الجهود لتصحيح الروايات[2].

٢ ـ إن اســتعمال منهج المحدِّثين في نقد المتون والأســانيد سيحل كثيراً من المشــكلات في المتون الواردة في الســيرة التي تفتقر إلى حل سواء عن طريق الترجيح بين الروايات أو غيره[3].

---

(١) مؤرِّخ عراقي ولد في الموصل سنة ١٣٦٢/١٩٤٢. حصل على البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية جامعة بغداد ســنة ١٣٨٣/١٩٦٣ والماجســتير من كلية الآداب في الجامعة نفسها سنة ١٣٨٦/١٩٦٦ والدكتوراه من جامعة عين شــمس في القاهرة ســنة ١٣٩٤/١٩٧٤. درّس في كلية الآداب جامعة بغداد والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. وهو الآن في قطر. له مؤلفات وبحوث كثيرة وتحقيقات جليلة، حفظه الله ومتع به، وله مدرسة خاصة في نقد مرويات السيرة. ترجمة منقولة من الشبكة العنكبوتية.

(٢) المقدمة: ص ١٢.

(٣) المصدر السابق.

٣ ـ محاولة التعامل مع الرواية التاريخية كما تُعامل الرواية الحديثية لضبط مرويات السيرة[١]؛ وذلك لأن الرواية التاريخية لم تحظ بالقدر نفسه من النقد الذي حظيت به الأحاديث النبوية[٢].

منهج المصنف في كتابه:

١ ـ سرد المصنف أحداث السيرة كلها على نهج يخالف نهج الأقدمين في التقسيم؛ فقد جاء على النحو التالي:

الفصل الأول: الرسول ﷺ في مكة.

الفصل الثاني: الرسول ﷺ في المدينة: خصائص المجتمع.

الفصل الثالث: الرسول ﷺ في المدينة: الجهاد ضد المشركين.

الفصل الرابع: الرسول ﷺ والرسالة.

٢ ـ عُني المصنف بإيراد السيرة النبوية الثابتة بالمرويات الصحيحة ولم يلتفت إلى ما سواها إلا فيما يتعلق بالتفصيلات المكملة لحدث ما صحيح، وفي ذلك قال المصنف، حفظه الله تعالى:

«قد تبرز معانٍ خلقية ودينية مؤثّرة في الروايات التي أهملتها، لكني لم أكترث لذلك ما دامت ضعيفة الثبوت، وقد ظهر جليّاً أن الاعتماد على صحيح الروايات وحَسَنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسيرة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات.

ويلاحظ القارئ أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تُستبعد نهائياً بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة، حيثما

---

(١) المصدر السابق: ١٣.

(٢) المصدر السابق: ١٧.

لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدِّثين حيث يمكن التعامل معها وفق معايير منهج النقد التاريخي»[١].

وقال في مكان آخر:

«المطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها، ثم الحسنة، ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام، وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً، أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة الحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي... أما الروايات التاريخية المتعلقة بالعمران كتخطيط المدن وزيادة الأبنية وشق الترع، أو المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها»[٢].

٣ ـ لم يلتفت المصنف إلى مناقشة دراسات المستشرقين التي أثارت شبهات حول السيرة، وفي ذلك قال المصنف:

«لا يجد القارئ أيَّ اهتمام بالرد على الشبهات التي أثارتها بعض الدراسات الحديثة في موضوعات السيرة وخاصة دراسات المستشرقين، سواء كانت نتيجة تعسف في تفسير النصوص والأحداث بسبب الأهواء الدينية والعنصرية، أو بسبب سوء الفهم للغة العربية، أو للإسلام وأحكامه ونظمه ومقاصده؛ وذلك لأن هذا المؤلِّف قصد إلى رسم معالم السيرة بصورة صحيحة، وهو جانب إيجابي يستحق أن يُفرد فيه مصنَّف، ولا يعني ذلك التقليل من أهمية تصحيح الأخطاء سواء كانت عفوية أم مقصودة، وقد نهضت بهذا العبء دراسات أخرى في الموضوع، وإن كنت أعتقد أن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي ينبغي أن ينصب أولاً على البناء قبل تناول الشبهات»[٣].

---

(١) المصدر السابق: ١٩.

(٢) المصدر السابق: ٤٠

(٣) المصدر السابق: ١٨.

٤ ـ عُني بنقل الأخبار عن شهود العيان الذين شاركوا في الحادثة المراد نقلها، وهذه طريقة حسنة.

٥ ـ استفاد المصنف من رسائل الماجستير والدكتوراه التي أشرف عليها في دراسات السيرة النبوية خلال عشر سنوات، استند عليها في كتابته هذا المصنف وتحقيقه النصوص التي أوردها فيه[1]

٦ ـ استعان المصنف بكتب الحديث النبوي الشريف في كتابة السيرة، وعاد إليها كثيراً للترجيح أو التصحيح لكنه لم يستغن عن كتب السيرة والتاريخ فاستفاد منها على الوجه الذي ذكرته في الجانب الثاني آنفاً.

وكان من منهج المصنف ـ حفظه الله تعالى ـ أن يورد الروايات المنكرة والضعيفة ثم يكرّ عليها بالبطلان، ولو أنه أغفلها تماماً لكان أحسن، لكن بعضها كان يملأ فراغاً تاريخياً كان المصنف بحاجة له فيما يبدو.

يورد العبر والعظات بإيجاز لكن بعد سياق الرواية التاريخية وتمحيص أسانيدها.

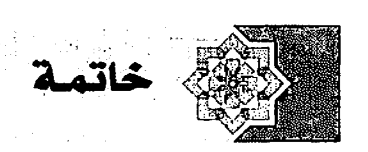
بعد فراغ المصنف من سرد أحداث السيرة أورد فصلاً رابعاً وأخيراً سماه «الرسالة والرسول» أورد فيه عدة موضوعات بإيجاز وناقش فيها بعض القضايا المثارة حول السيرة، وذلك نحو «معجزات الرسول ﷺ الحسية» أثبت فيه معجزات الرسول ﷺ: القرآن وغير القرآن، وناقش مناقشة يسيرة قضية رد المعجزات الحسية ـ غير القرآن العظيم ـ التي قال بها عدد من المصنفين في السيرة في القرن الفائت.

وأورد فصلاً في «فضل الصحابة ووجوب محبتهم وموالاتهم»، وفصلاً في «أمهات المؤمنين»، وفصلاً في «محبة الرسول ﷺ من الإيمان»، وغير ذلك من فصول مجموعها تسعة عشر فصلاً.

هو الذي وقفت عليه من منهج المصنف في الكتاب، والله المستعان والموفق.

---

(١) المصدر السابق: ٢٣.



خاتمة

لقد كان لبعض المؤرِّخين المحدَثين جهود جليلة في تدوين السيرة النبوية المشرفة المطهرة، وقد اخترت ستة، لكلٍّ منهم مسار تجديدي في كتابة السيرة، وكل منهم وُصف بأنه مؤرخ.

فالأستاذ محمد الخضري كان له قصب السبق في طريقة تدوين السيرة جمع بها بين السرد وبين العبر والعظات على ما أوضحت في دراستي لمصنّفه، ومن مزايا كتابه إقراره بالمعجزات النبوية وإثباته لها بدون تأويل ولا تعطيل مخالفاً لأكثر كتاب السيرة في عصره، أما كونه قد انتكس بعد ذلك ـ غفر الله له ـ على ما بينته آنفاً فلا يضرني في شيء؛ إذ إني بينت صنيعه في كتابه هذا فقط لا غيره مما ألفه بعده.

والأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك رحمه الله جمع بين سرد السيرة والشمائل على وجه فريد، تفرد به مطلقاً بين كتاب السيرة المحدثين، فيما أعلم والله تعالى أعلم، وقد كان لكتابه هذا حلاوة ولعبارته طلاوة، ولسرده رونق جليل، وصح مع ذلك كله القول بأن لكتابه هذا مساراً جدد به كتابة السيرة.

والدكتور أحمد شلبي أتى بمباحث جديدة لم تعهد في كتابة السيرة، فأعاد توزيع مواد السيرة تحت فصول بعناوين جديدة وتقسيم مبتكر كان له فيه قصب السبق، وهو مسار جديد في تدوين السيرة، ولولا المساوئ والنقائص التي بيَّنتُها ـ في كتابه لكان لكتابه شأن غير هذا لكن هكذا قُدر.



أما رابع المختارين وهو الأستاذ محمود شاكر فقد تميز كتابه بالعرض المبتكر لأحداث السيرة تحت أبواب وفصول وعناوين لم يسبق إلى حُسنها وجودتها، ويضاف إلى هذا جمعه في عرض السيرة بين البسط والإيجاز فيبسط فيما يحتاج إليه البسط، ويوجز فيما يحسن فيه الإيجاز.

والدكتور عماد الدين خليل حاز قصب السبق بكتابه «دراسات في السيرة النبوية» وله فيه مسار تجديدي حسن، ومما برز بقوة من ثنايا كتابه حسن النقد وكثرته وجودته، ومناقشة المستشرقين في دعاواهم وشبهاتهم، وإعادة توزيع أخبار السيرة في فصول بدبعة ذات عناوين مبتكرة، لكن أفضل ما في كتابه ـ عندي ـ هو التحليل الكثير الجيد الذي استطاع به أن يخطّ لنفسه مساراً تجديدياً خاصّاً بين كتب السيرة الحديثة.

والدكتور أكرم ضياء العمري ابتدأ التصنيف في السيرة من بين المتأخرين بشرط شرطه على نفسه وهو التزام الصحيح، وقد بيّنتُ مدى وفائه بشرطه في دراستي لمصنَّفه، وبصنيعه هذا يصح القول بأنه: اختط لنفسه مساراً تجديدياً لم يُعرف في كتب السيرة المشرفة المطهرة الحديثة، وامتاز كتابه أيضاً بإعادة توزيع أخبار السيرة على وجه تفرّد به.

ولكل كتاب من تلك الكتب السّتة مزايا غير التي أوجزت ذكرها ها هنا، ونقائص لم أذكرها في هذا السياق اكتفاءً بما ذكرته في موضعه من البحث، وقد اكتفيت بأولئك السّتة ولم أعرج على غيرهم ممن كتب في السيرة؛ لأني أرى أن ذكر كلّ منهم يغني عن ذكر آخر أقل شهرة وسار على خطى الذي اخترته، ومثالاً على ذلك الدكتور حسين مؤنس[1] أغنى عن ذكر منهجه في

(١) ولد حسين مؤنس في مدينة السويس سنة ١٣٢٩/١٩١١م. نشأ في أسرة كريمة، وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، فنشأ محبّاً للعلم، مفطورًا على التفوق والصدارة، حتى إذا نال الشهادة الثانوية في التاسعة عشرة من عمره جذبته إليها كلية الآداب بمن كان فيها من أعلام النهضة الأدبية والفكرية، والتحق =

كتابه «دراسات في السـيرة النبوية» أمر وهو أن دراستي لكتاب الدكتور أحمد شـلبي وما فيه من نقائص كثيرة يغني عن دراسـتي لكتاب د. حسـين مؤنس ـ رحمهما الله تعالى ـ فبين الرجلين تشـابه في المنهج وفي السقطات العلمية، بل إن منهج الدكتور حسين مؤنس أشد سوءاً وأكثر جرأة على المصادر الحديثة والتاريخية غفر الله لهما.

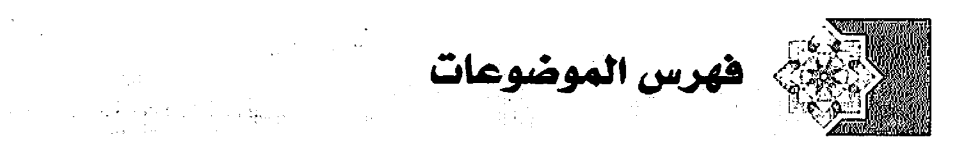
وعسـى أن يكون فيما أوردتـه كفاية، ومصـوراً لكل مناهـج المؤرخين المحدّثين في تدوينهم السيرة النبوية المشرفة المطهّرة.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

= بقسـم التاريخ، ولفت بجدّه ودأبه في البحث أسـاتذته، وتخرج سـنة ١٩٣٤/١٣٥٢، متفوقًا على أقرانه وزملائه، لم يعين حسـين مؤنس بعد تخرجه في الكلية؛ لأنهـا لم تكن قد أخذت بعد بنظام المعيدين، فعمل مترجمًا عن الفرنسية ببنك التسليف، واشترك في هذه الفترة مع جماعة من زملائه في تأليف لجنة أطلقوا عليها «لجنة الجامعيين لنشـر العلم» وعزمت اللجنة على نشر بعض ذخائر الفكر الإنسـاني، فترجمت كتاب «تراث الإسـلام» الذي وضعه مجموعة من المستشـرقين، وكان نصيب حسين مؤنس ترجمة الفصل الخاص بإسبانيا والبرتغال، ونشـر في هذه الفترة أول مؤلّفاته التاريخية وهو كتاب «الشرق الإسلامي في العصر الحديث» عرض فيه لتاريخ العالم الإسلامي من القرن السابع عشـر الميلادي إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، ثم حصل على درجة الماجستير برسـالة عنوانها «فتح العرب للمغرب» سنة ١٩٣٧/١٣٥٥. ظل حسـين مؤنس وافر النشاط متوقد الذهن على الرغم من كبر سنه، وضعف قدرته على الحركة، وملازمته للمنزل حتى لقي الله في ٢٧ شوال ١٤١٦هـ الموافق ١٧ مارس ١٩٩٦م. حصل على دكتوراه الآداب من جامعة زيورخ بسويسرا، عام ١٩٤٣. توفي سنة ١٩٩٦/١٤١٦. «ويكيبيديا الإنترنت».

المصادر والمراجع

- «الأعلام» خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠.
- «التاريخ الإسلامي» محمود شاكر.
- «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»: الشيخ محمد العربي بن التباني السطيفي الجزائري. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٤/١٩٨٤.
- «تفسير القرآن العظيم»: ابن كثير.
- «دراسات في السيرة النبوية»: د.عماد الدين خليل. نشر دار النفائس.
- «السراج الوهاج لمحو أباطيل الشلبي عن الإسراء والمعراج»: حمود التويجري. مكتبة المعارف. الرياض ١٤٠٦.
- «السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدِّثين في نقد روايات السيرة النبوية»: د. أكرم ضياء العمري. نشر مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. الطبعة السادسة ١٤١٥/١٩٩٤.
- «سيرة ابن هشام».
- «صحيح البخاري».
- «مجلة حراء»: العدد الثالث (وهي مجلة تركية)
- «محمد ﷺ: المثل الكامل»: الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩/١٩٣١.
- «موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية»: د.أحمد شلبي. نشر دار نهضة مصر. القاهرة.
- «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» ﷺ: الأستاذ: محمد الخضري.طبع المطبعة الجامعة بمصر. سنة ١٣١٥.



فهرس الموضوعات







